الكتاب الذهبى
روز اليوسف

أغلال الإنسانية

تأليف: سومرست موم

ترجمة: فوزى وفاء



أغلال الإنسانية

هذه الرواية العالمية من أعمال الأديب الإنجليزى الشهير سومرست موم. كتبت فى عصر كان الأدب فيه فى أزهى عصوره. وهى عن معاناة البشرية وكفاحها وطباع الإنسان وتصرفاته الغريبة. وهى تحكى قصة صبى ولد وقدمه مشوهة لا علاج لها ورباه عمه، وهو رجل دين محافظ بعد أن توفى والداه وهو فى العاشرة من عمره. والأغلال تشير فى الرواية إلى المشاعر والسلوكيات التى يجد المرء أنه يتبعها رغما عنه دون أن يعرف سببها ولايستطيع رغم كل المحاولات المخلصة الجادة أن يتخلص منها، وكأنها أصبحت مادة من مواد الإدمان أو أغلالا تقيد روحه. وتدور الرواية حول حب فاشل لطبيب صغير لفتاة سوقية من طبقة فقيرة واستمرار مشاعر الحب هذه رغم بذاءة هذه الفتاة وانحطاطها وخلوها حتى من أية سمات للجمال. اتفق النقاد على أن هذه الرواية الواقعية هى من أحسن ما كتب سومرست موم، بل تكاد تكون أحسن الروايات الأدبية الواقعية التى كتبت فى القرن العشرين. وقد ترجمت إلى عشرات اللغات فى الشرق والغرب.

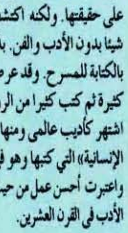
روز اليوسف

الكتاب الذهبى / ٤ / أغلال الإنسانية



سومرست موم

كاتب إنجليزى شهير، عاصر النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بدأ حياته فى باريس حتى بلغ سن العاشرة وهو يقول: إن الأدب الفرنسى من أعظم آداب العالم. قضى موم سنى حياته الأولى حتى الثانية والعشرين من عمره فى دراسة الطب التى يقول عنها أنها أفادته كثيرا فى معرفة الحياة عارية على حقيقتها. ولكنه اكتشف أن الحياة لا تعنى شيئا بدون الأدب والفن. بدأ موم رحلته الأدبية بالكتابة للمسرح. وقد عرضت له مسرحيات كثيرة ثم كتب كثيرا من الروايات التى بسببها اشتهر كأديب عالمى ومنها هذه الرواية «أغلال الإنسانية» التى كتبها وهو فى السبعين من عمره، واعتبرت أحسن عمل من حيث الاتجاه الواقعى فى الأدب فى القرن العشرين.



فوزى وفاء

عمل بجريدة الأهرام فى عام ١٩٦٧. أسهم بكثير من المقالات فى مجال السياسة الخارجية وغيرها، وزار عدة بلدان مثل الولايات المتحدة وتركيا واليونان لكتابة تقارير صحفية منها، وفى عام ٨١ انتقل إلى نيويورك للعمل بإدارة شئون المؤتمرات بالأمم المتحدة. له عدة ترجمات منها «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» للكاتب الإيطالى لويجى بيراندلو وكتاب عن «تيودور هرتزل» مؤسس الحركة الصهيونية للكاتب الإنجليزى ديزموند ستيوارت، و«رجل من التبت» للوبسانت رامبا، و«فى رواق السعادة» للدكتور وين داير.

الكتاب الذهبى
روزاليـوسف

أغـــلال الإنسانية

تأليف: سومرست موم
ترجمة: فوزى وفاء

مقدمة

هذه رواية طويلة وأشعر فعلا بالخجل لان أكتب لها هذه المقدمة فاجعلها أطول

والمؤلف ، على الأرجح هو آخر شخص يمكنه أن يكتب بدقة عن عمله وهناك في هذا الصدد حكاية لطيفة يحكيها روجر مارتن ديجار وهو روائي فرنسي بارز عن كاتب فرنسي آخر هو مارسيل بروست أراد بروست من صحيفة دورية فرنسية أن تنشر له مقالا كبيرا عن روايته الرائعة وكان يعتقد أنه ليس هناك من يكتب هذا المقال أفضل منه فجلس وكتب المقال بنفسه ثم طلب من صديق صغير له مولع بالأدب أن يضع اسمه على المقال ويحمله بنفسه إلى رئيس تحرير الصحيفة الدورية وفعل الصديق ما طلبه منه بروست غير أنه بعد أيام قلائل بعث رئيس التحرير في طلبه وقال له «لقد وجدت أني يجب أن ارفض مقالك فإن مارسيل بروست لن يغفر لي أبدا إذا نشرت نقدا لعمله يفتقر بهذا الشكل الي الحماسة والتعاطف» ورغم أن الكتاب والمؤلفين حساسون فيما يتعلق بأعمالهم ويميلون إلي الاستياء من النقد الذي لا يكون في صالحهم فهم نادرا ما يكونون راضين عن أعمالهم فهم يشعرون أن العمل الذي قضوا في إنجازه وقتا طويلا جاء اقل مما كانوا يتوقعون، فهم دائما يهدفون إلي الكمال . وهم يدركون وهم في غاية التعاسة أنهم لن يحققوا هذا الكمال الذي يصبون إليه

غير أني لن أتحدث بشيء عن كتابي هذا وسوف أكتفي مرضيا نفسي بأن أقول لقارئ

هذه السطور كيف كتبت هذه الرواية التي عاشت الان وقتا طويلا . كما هو الحال مع الروايات عامة، وإذا لم تلق هذه الرواية قبول القارئ واهتمامه فإني أرجوه أن يتقبل اعتذاري . لقد كتبتها أولا عندما كنت في العشرين من العمر وحصلت علي شهادتي في الطب بعد أن قضيت خمس سنوات في مستشفي سانت توماس وذهبت إلي سيفيل مصمما عندئذ أن اكسب قوتي ككاتب ولا زالت النسخة الخطية للكتاب موجودة ولكني لم ألق عليها نظرة واحدة منذ أن قمت بنسخ النسخة المكتوبة علي الآلة الكاتبة وليس لدي أي شك في أنها فجة وغير ناضجة على الإطلاق وقد أرسلتها إلى الناشر

«فيشر أنوين» الذي نشر كتابي الأول (عندما كنت طالبا في كليه الطب كتبت رواية اسمها «ليزا من لامبيث» ولاقت بعض النجاح) ولكنه رفض أن يعطيني المائة جنيه التي طلبتها منه مقابل الرواية، ورفض جميع الناشرين الآخرين الذين عرضتها عليهم بعد ذلك أن يقبلوها بأي ثمن وقد أحزنني هذا في ذلك الوقت، غير أني أدرك الآن أني كنت محظوظا؛ لأنه لو كان أحدهم قد قبل الكتاب كان اسمه في ذلك الوقت «المزاج الفني لستيفن جراي» لكنت قد فقدت موضوعا كنت صغيرا جدا لأستفيد منه استفادة سليمة فلم أكن بعيدا عن الأحداث بالقدر الكافي الذي يجعلني أصفها بصورة جيدة، ولم يكن لدي قدر من الخبرة التي ساعدتني فيما بعد على إثراء الكتاب الذي كتبته في النهاية، ولم أكن أيضا قد تعلمت أنه من الأسهل على المرء أن يكتب عما يعرفه من أمور لا عما لا يعرفه . فمثلا بعثت ببطل روايتي إلى «سروين» (وهي مدينة لم أعرفها إلا كزائر لها من آن لآخر) ليتعلم الفرنسية بدلا من أن أبعث به إلى هايدلبرج (حيث كنت أنا نفسي هناك) لأتعلم الألمانية

وعندما قوبلت روايتي بهذا الرفض نحيت المخطوط جانبا . وكتبت روايات أخرى نشرت، وكتبت مسرحيات وأصبحت في وقت ما كاتبا مسرحيا مرموقا وناجحا جدا وقررت أن أكرس حياتي كلها للكتابة للمسرح غير أني كنت أضع حساباتي دون اعتبار لقوة في نفسي جعلت قراراتي كلها عبثا لقد كنت سعيدا وناجحا وموفور المال ومشغولا بعملي كان رأسي يطن بأفكار مسرحيات أريد كتابتها . ولم أعرف ما إذا كان النجاح قد عجز عن أن يحقق لي كل ما كنت أصبو اليه، أو ما إذا كان ما أشعر به هو رد فعل طبيعي، غير أني بمجرد أن أصبحت كاتبا مسرحيا معترفا به في تلك الأيام أخذت تجتاحني الذكريات المتلاحقة لحياتي السابقة عادت إلى تلك الذكريات بصورة ملحة أثناء نومي وسيري وأثناء إجراء تجارب المسرحيات وفي الحفلات وأصبحت هذه الذكريات تشكل عبئا حقيقيا ثقيلا علي وقررت أنه ليس هناك سوى طريق واحد للتخلص منها، وهو أن أضع كل تلك الذكريات على الورق وبعد أن أخضعت نفسي سنوات لمقتضيات المسرح أصبحت تواقا للحرية الواسعة التي تنطوي عليها كتابة الرواية وكنت أعرف أن الكتاب الذي كنت أفكر في كتابته سيكون كتابا طويلا وكنت أريد أن أبتعد عن كل مصادر الإزعاج فرفضت كل العقود التي عرضها علي مديرو المسارح بشغف شديد واعتزلت المسرح مؤقتا، كنت عندئذ في السابعة والثلاثين

وبعد أن أصبحت كاتبا بحكم المهنة أمضيت وقتا طويلا في تعلم كيفية الكتابة

وأخضعت نفسي لتدريب قاس منهك للغاية في محاولة لتحسين أسلوبي في الكتابة غير أني تخليت عن تلك الجهود عندما بدأ إخراج مسرحياتي . وعندما بدأت الكتابة من جديد كان ذلك بهدف مختلف . فلم أعد أسعى إلى كتابة نثر كاللؤلؤ مخملي الملمس، فبدلا من محاولاتي العبثية لتحقيق ما أضعت فيه جهدا كبيرا من قبل سعيت لتحقيق العكس راعيت الوضوح والبساطة . ومع وجود الكثير مما أريد أن أقوله في حدود معقولة شعرت أني ليس في مقدوري أن أبدد الكلمات وبدأت بفكرة استخدام ما هو ضروري منها لكي تصبح المعاني التي أقصدها واضحة . فلم يكن لدي مكان للزخرفة والتزويق وقد علمتني تجربتي في المسرح قيمة الاختصار في الكلام ورحت أعمل بشكل متواصل لمدة عامين ولم أعرف ماذا أسمي كتابي . وبعد أن رحت أبحث كثيرا عن عنوان له لفتت نظري فقرة في الإنجيل تقول «الجمال من الرماد» وبدت لي عنوانا مناسبا غير أني علمت أن هذا العنوان قد استخدم من قبل مما اضطرني إلى البحث عن عنوان اخر . واخترت في النهاية اسم أحد كتب الفيلسوف «سبينوزا» في الأخلاقيات وأطلقت على روايتي «أغلال الإنسانية».

ولدي إحساس بأني كنت محظوظا لأني لم أستخدم العنوان الذي عثرت عليه قبل ذلك

وهذه الرواية ليست سيرة ذاتية بل إنها رواية تعتمد على السيرة الذاتية؛ فالحقيقة والخيال هنا يمتزجان معا . والأحاسيس هي أحاسيسي أنا ولكني لم أرو كل الأحداث كما وقعت بالفعل وبعضها الذي نسب إلى بطل الرواية لم يقع في حياتي ولكني استعرته من حياة أشخاص آخرين كنت على صلة حميمة بهم وقد كان رد الفعل للكتاب هو ما أردته، وعندما نشر في العالم (عالم كان يعاني من آلام حرب رهيبة مشغولا بمعاناته وآلامه ومخاوفه ولم يكن يحفل بمغامرات شاب في رواية خيالية) وجدت أني تخلصت من الآلام والذكريات التعسة التي كانت مصدر عذابي وقد لاقى الكتاب نقدا رائعا وقد كتب الكاتب الأمريكي الشهير تيودور درايزر الذي من أشهر رواياته «الأخت كاريس» نقدا طويلا في صحيفة «نيو ريبابليك» New Republic أشاد فيه بالكتاب إشادة عظيمة غير أن الأمر كان يبدو وكأن الرواية ستسير في الطريق الذي سارت فيه الأغلبية العظمى من الروايات وتنسى بعد أشهر قليلة من ظهورها غير أني لا أعلم كيف حدث بعد سنوات من ظهورها أن لفتت انتباه عدد من الكتاب الممتازين في الولايات المتحدة وكانت كتاباتهم عنها سببا في لفت نظر الجماهير إليها وإلى هؤلاء الكتاب ترجع رخصة الحياة الجديدة التي منحت للرواية، وإليهم أتوجه بالشكر للنجاح الذي تحقق لها على مر السنين

أغلال الإنسانية

طلع النهار مكفهرا كئيبا ، وتجمعت السحب في السماء بكثرة وبدت في الجو برودة تنذر بتساقط الثلج . ودخلت الخادمة حجرة رقد بها طفل . ثم أزاحت ستائر النوافذ وألقت على المنزل المقابل نظرة آلية .. كان منزلا طليت جدرانه بالجص ذا مدخل طويل يؤدي إلى بابه . وتركت الخادمة النافذة وعادت إلى فراش الطفل قائلة :

– استيقظ يا فيليب

وسحبت الغطاء من فوق الطفل ، ثم حملته إلى الطابق الأسفل . ولم يكن الطفل قد استيقظ تماما. وقالت له :

– إن أمك تريدك الآن .

ثم فتحت باب إحدى الحجرات في الطابق الأسفل . وسارت بالطفل إلى فراش فيه امرأة، هي أمه . وبسطت الأم ذراعيها تستقبله . فاستكن الطفل إلى جانبها، ولم يسأل لما أيقظوه وقبلته المرأة بين عينيه وراحت تتحسس بيديها الصغيرتين الواهنتين جسده البض الرقيق وضمته إلى صدرها قائلة .

– أمازلت نائما يا عزيزي ؟

وخرج صوتها خافتا ضعيفا كأنه صادر من أبعاد سحيقة ولم يجب الصغير بل ابتسم في إرتياح. لقد كان سعيدا بالفراش الضخم الوثير وبالذراعين الناعمتين اللتين أحاطتا به . فراح يحتضن أمه محاولا أن يبدو أصغر مما هو ، ثم طبع على وجهها قبلة وهو ناعس. وبعد لحظة أغلق عينيه وراح في سبات عميق، وتقدم الطبيب إلى الفراش ووقف إلى جانبه فقالت الأم في أنين:

– أتوسل إليك ألا تأخذه مني الآن ..

ولم يجب الطبيب بل نظر إليها نظرة جادة . وعندما أدركت أنها لن تستطيع إبقاء الطفل أكثر من ذلك . مالت عليه وقبلته مرة أخرى ، ومرت بيدها على جسده حتى وصلت إلى قدميه ، وراحت تتحسس أصابع القدم اليمنى الخمسة الصغيرة ثم تحسست قدمه اليسرى وما لبثت أن خرجت من صدرها زفرة حارة وأجهشت بالبكاء ، وقال الطبيب :

– ماذا بك .. هل تشعرين بتعب ؟

وهزت السيدة رأسها ، إذ لم تقو على الكلام ثم انحدرت الدموع على وجنتيها ، فانحنى الطبيب إليها قائلا :

– دعيني آخذ الطفل الآن .

وكانت الأم من الضعف بحيث لم تستطع مقاومة رغبته . فأسلمت الطفل إليه وحمله الطبيب بدوره إلى مربيته وهو يقول :

– من الخير أن تعودي به إلى فراشه .

– سمعا وطاعة يا سيدي .

وخرجت الخادمة حاملة الطفل وهو مازال نائما. وانخرطت أمه في البكاء وقد كاد قلبها ينفطر من فرط الحزن . وهمهمت قائلة :

– ماذا يحدث بعدئذ لهذا المسكين ؟

وحاولت الممرضة أن تهدئ من أشجانها ، وما لبثت أن كفت عن البكاء من كثرة الإجهاد . وسار الطبيب حتى الجانب الآخر من الحجرة حيث منضدة تمددت عليها جثة طفل ولد وقد فارق الحياة ورفع الطبيب الغطاء عن الجثة وألقى عليها نظرة . وكان هناك ستار يحجب الطبيب عن فراش المرأة . ولكنها أدركت ما يفعله فسألت الممرضة التي وقفت إلى جانبها في صوت منخفض

– هل كان صبيا أم فتاة ؟

– صبي آخر

وصمتت السيدة وسرعان ما عادت مربية الطفل بعد هنيهة واقتربت من الفراش وقالت :

– إن سيدي فيليب لم يستيقظ أبدا .

وساد المكان فترة صمت ثم جس الطبيب نبض الأم مرة أخرى وقال .

– لا أعتقد أني أستطيع أن أفعل شيئا آخر الآن . وسأعود مرة أخرى بعد الإفطار .

وردت الممرضة قائلة :

– سأصحبك حتى باب الخروج يا سيدي

وهبط الاثنان الدرج في صمت وعندما وصلا إلى الردهة توقف الطبيب و بادرها قائلا :

– ألم تبلغي صهر السيدة كاري؟

– بلى يا سيدي . لقد أبلغته .

– ألا تعلمين متى يصل إلى هنا ؟

– لا يا سيدي .. إني أنتظر برقية منه .

- إنها في أسعد حال وفي غاية السعادة

- إني سعيد لذلك

- لقد فارقتك ولن تستطيع أن تراها أبدا

ولم يدرك فيليب ما عنته ، وسألها قائلا

- ولم لا أراها ؟

- إن أمك في السماوات الآن .

وبكت المرأة . ولم يفهم فيليب شيئا إلا أنه راح يبكي معها وكانت «إما» امرأة طويلة من ذلك النوع الضخم العظام ذات شعر أشقر وملامح عريضة ولدت في بلدة ديفونشير . وبالرغم من الفترة الطويلة التي اقضتها في العمل في لندن فإن لهجتها ذات المقاطع العريضة التي يتميز بها أهل بلدتها لم يطرأ عليها أي تغيير . وزادت الدموع من حدة انفعالها فضمت الطفل إلى صدرها وكانت تشعر شعورا غامضا بالشفقة على هذا الطفل الذي حرم من الحب الوحيد في هذا العالم الذي يخلو من الأنانية . لقد هالها أن يتولى شئونه بعد ذلك أناس غرباء . ولكنها بعد لحظات جمعت شتات نفسها وقالت

- إن عمك وليام ينتظرك ليراك . اذهب وودع الآنسة «واتكن» لنعود بعد ذلك إلى المنزل

فأجاب الطفل في حرص غريزي محاولا أن يخفي دموعه

- إني لا أريد أن أودع أحدا

- لك ما تشاء أسرع إذن إلى الطابق العلوي وأحضر قبعتك

وأحضر فيليب القبعة وعندما نزل وجد إما تنتظره في الردهة ووصلت إلى سمعه أصوات من حجرة المكتب التي تقع خلف حجرة الطعام فتوقف قليلا وقد علم أن الآنسة «واتكن» وشقيقتها تتحادثان مع أصدقائهما وبدا له -- وكان في التاسعة من عمره حينئذ
- أنه إذا دخل الحجرة فسيبدي الجميع أسفهم لحاله ، فقال لإما

- أظن أني سأذهب لأودع الآنسة «واتكن».

- خيرا تفعل

- ادخلي وأنبئيهم بقدومي يا إما

وكان يريد أن يستغل الفرصة إلى أقصى حد ممكن وطرقت «إما» الباب ودخلت ثم سمعها وهي تقول

- إن سيدي فيليب يريد أن يلقى إليك بتحية الوداع يا آنسة

- وما شأن الطفل الصغير؟ أعتقد أنه سيكون أحسن حالا إذا ابتعد عن هذا المكان .

- لقد قالت الآنسة «واتكن» إنها ستأخذه معها يا سيدي

- ومن هي الآنسة «واتكن»؟

- إنها إشبينته .. هل تعتقد أن السيدة كاري ستشفي يا سيدي ؟

- وهز الطبيب رأسه ...

وبعد سبعة أيام كان فيليب يجلس على الأرض في حجرة الاستقبال بمنزل الآنسة «واتكن» في حدائق أوسلو . وكان فيليب طفلا وحيدا ، وقد اعتاد أن يلعب بمفرده . أما الحجرة فكانت مملوءة بالأثاث الضخم المتين ، وقد وضعت على كل مضجع ثلاث وسائد كبيرة . وعلى كل مقعد بمساند وسادة أخرى . وجمع فيليب كل هذه الأشياء وجذب المقاعد الخفيفة الحركة وجعل منها كهفا منقنا يحتمي به من الهنود الحمر الذين كانوا يتربصون به خلف الستائر . ومال برأسه وقد ألصق أذنه بالأرض وراح يستمع إلى صوت قطيع الجاموس الذي أخذ يعدو في البراري . وما لبث أن سمع صوت الباب وهو يفتح ، فتوقف عن التنفس حتى لا يكتشف القادم مكانه ، ولكن يدا قوية جذبت المقعد بعنف فسقطت الوسائد على الأرض . وسمع صوتا يقول .

- أيها الولد الشرير ، إن الآنسة «واتكن» ستغضب منك

فقال الصغير :

- مرحبا «إما»

وانحنت المربية وقبلته . ثم بدأت ترتب الوسائد وتعيدها إلى مكانها. وسألها :

- هل سأعود إلى المنزل ؟

- نعم لقد جئت لأعود بك إلى المنزل .

- إنك ترتدين ثوبا جديدا

كان ذلك عام ١٨٨٥ . وكانت المربية ترتدى رداء من المخمل الأسود ذا كمين ضيقين وكتفين منحدرتين. وقد وضعت على رأسها قبعة ذات أربطة من القطيفة. وترددت «إما» قليلا لأن الطفل لم يسأل السؤال الذي كانت تتوقعه منه ، فلم تستطع أن ترد عليه بما أعدته من جواب .. وأخيرا قالت :

- إنك إذن لم تسأل عن حال والدتك ؟

- نسيت يا إما كيف حال أمي ؟

واستعدت لأن تقول له

وفجأة توقف الجميع عن الحديث ، فقد دخل فيليب الحجرة وهو يعرج كانت «هنريتا واتكن» امرأة بدينة محمرة الوجه قد صبغت شعرها . وكانت صباغة الشعر في تلك الأيام مثار التعليق . وقد سمع فيليب الكثير من القيل و القال عندما صبغت أشبينته شعرها لتغير من لونه .وكانت الآنسة «واتكن» تعيش مع شقيقة تكبرها في العمر وقد اعتزلت شئون الحياة راضية بكبر سنها ، وجلست الاثنتان وبصحبتهما سيدتان كانتا في زيارتهما وراحت هاتان السيدتان تنظران إليه في فضول وسطت الآنسة «واتكن» ذراعيها لتستقبل فيليب قائلة .

- طفلي المسكين .

ثم أجهشت بالبكاء وفي هذه اللحظة ادرك فيليب لماذا لم تتناول الآنسة «واتكن» طعام الغداء معهم . وأدرك كذلك سبب اتشاحها بالملابس السوداء ولم تستطع أن تتكلم . وقال فيليب أخيرا

- يجب أن أذهب إلى المنزل

وخلص نفسه من بين ذراعي الآنسة «واتكن» فقبلته مرة أخرى . ثم ذهب إلى شقيقتها وألقى إليها بتحية الوداع أيضا - وسألت إحدى السيدتين الغريبتين هل تستطيع أن تقبله . فسمح لها بذلك في وقار. وشعر فيليب بالرغم من بكائه بلذة شديدة لهذه المشاعر التي كان هو مبعثها بين هؤلاء النسوة . ولو تمكن من البقاء قليلا معهن لأصابه سرور غامض لأنه سيزيد من اهتمامهن به . ولكنه أحس إنهن ينتظرن منه أن يغادر الحجرة فقال لهن أن إما تنتظره في الطبقة السفلى ثم غادر الحجرة على الفور . وكانت اما قد تسللت إلى الطبقة السفلى للتحدث مع صديق لها في السرداب . فانتظرها عند نهاية الدرج . واخترق سمعه حينئذ صوت «هنريتا واتكن» تقول :

- لقد كانت والدته خير صديقة لي. وأنا لا أستطيع احتمال فكرة موتها

فردت شقيقتها قائلة

- كان يجب ألا تذهبي الى الجنازة يا هنريتا . لقد كنت أعلم أن ذلك سيثير أعصابك

ثم سمع فيليب إحدى السيدتين الغريبتين وهي تقول

- يا للصغير المسكين إني ارتجف كلما تبادر إلى ذهني أنه سيعيش وحيدا في الدنيا، إني أراه يعرج.

- نعم إن إحدى قدميه مشوهة ولقد كان ذلك يبعث ألم كبير لأمه

وعندما عادت إما إليه غادرا المنزل . ونادت على مركبة وأبلغت السائق عن مقصدها. وعندما وصلا إلى المنزل الذي ماتت فيه السيدة كاري. وهو في أحد الشوارع المحترمة المقفرة في المنطقة التي تقع بين بوابة نانتج هيل ، وهاي ستريت بكنسجتون ، صحبته إما

إلى حجرة الاستقبال حيث جلس عمه منهمكا في كتابة خطابات الشكر على الأكاليل التي وصلت إليه ، وكان أحدها قد وصل متأخرا فظل موضوعا في صندوق الورق المقوى على نضد في الردهة . وأبلغت «إما» السيد كاري بوصول فيليب وقالت إما «ها هو السيد فيليب»، فنهض السيد كاري عن مقعده في تباطؤ وصافح الطفل ، ثم فكر هنيهة وانحنى فقبل جبهته. وكان كاري رجلا في طوله أقل من الطول المتوسط مائلا إلى البدانة ، ذا شعر طويل منتظم فوق الرأس ومصفف بحيث يخفي صلعته ، حليق اللحية ذا ملامح متناسقة، توحي أنه كان وسيما في شبابه ، وتدلى من سلسلة ساعته صليب ذهبي . وقال كاري:

- إنك ستعيش معي منذ الساعة يا فيليب .. هل ستحب ذلك ؟

وكان قد حدث منذ عامين أن أرسل فيليب إلى منزل القس ليعيش معه إثر إصابته بالجديرى ، وكانت صورة الحديقة الكبيرة ، وتلك الحجرة فوق السطح ما زالتا عالقتين بذهنه أكثر من صورة عمه وزوج عمه . وأجاب فيليب .

- نعم .

فأردف كاري قائلا

- يجب أن تعتبرني أنا وزوج عمك لويزا كأبويك تماما .

وارتعدت شفتا الصغير قليلا ، وصعد الدم غزيرا إلى وجنتيه ولكنه لم يرد بشيء . فقال كاري.

- لقد تركتك أمك في رعايتي .

ولم يكن السيد كاري يجد السهولة الكافية لكي يعبر عما يجول في نفسه ، فعندما علم أن زوجة أخيه على فراش الموت سافر في الحال إلى لندن ولكنه وهو في طريقه إلى هناك لم يكن يفكر إلا في الاضطراب الذي سيطرأ على حياته إذا ما اضطره موتها إلى كفالة ولدها . وكان المستر كاري قد تجاوز الخمسين عاما، قضى منها ثلاثين مع زوجته العاقر . ولهذا لم يكن يسره أن يوجد معه طفل صغير قد يكون مثار ضجيج وضوضاء وبالإضافة إلى ذلك فإن القس لم يشعر يوما ما بحب زوجة أخيه المتوفاة . وقال .

- غدا سأصحبك إلى بلاكستابل

- مع إما ؟

وأمسك الصغير بيدها فضغطت عليها في حنان . وقال السيد كاري

- آسف أن أقول أن إما يجب أن تذهب إلى حال سبيلها .

- ولكني أريدها أن تأتي معي .

وبدأ فيليب يبكي ، ولم تستطع المربية إلا أن تشاطره البكاء ونظر السيد كاري إليهما وهو

حائر لا يستطيع أن يصنع شيئا .

- أرجو أن تتركيني لحظة مع السيد فيليب .

- وهو كذلك يا سيدي .

وهنا تعلق الصغير بها ، ولكنها سحبت نفسها منه برقة . وحمل كاري الطفل وأجلسه على ركبتيه وأحاطه بذراعه وقال :

- ينبغي لك ألا تبكى يا فيليب .. لقد كبرت الآن ولست بحاجة إلى المربية إننا سننظر في أمر إرسالك إلى المدرسة . ولكن فيليب أعاد ما قاله من قبل :

- إني أريد أن تكون إما معي .

- إن هذا يتطلب كثيرا من المال ، ولم يترك لك والدك الكثير منه ، ولست أعرف ما صار إليه هذا القليل ولهذا يجب أن نهتم بكل بنس تصرفه .

وكان السيد كاري قد قام في اليوم السابق بزيارة لمحامي الأسرة وبالرغم من أن والد فيليب كان جراحا يمارس عمله ببراعة وإتقان ، وكان الإحصاء يشير إلى المترددين من المرضى على مستشفاه يبين أن الرجل في مركز محترم .. فإن السيد كاري دهش دهشة بالغة عندما علم أن والد فيليب مات فجأة بالتسمم الدموي ، ولم يترك لأسرته إلا القليل .. وهو مبلغ لم يزد على قيمة التأمين على حياته إلا قليلا وعلى ما يحصلون عليه من إيجار منزلهم في شارع بيرتون وكان ذلك منذ ستة أشهر ولم تكن صحة والدة فيليب وقتئذ جيدة، ووجدت نفسها حاملا فتحيرت في أمرها ، وقبلت أول من يتقدم لاستئجار المنزل . وخزنت أثاثها و استأجرت منزلا مؤقتا لمدة عام وكان القس يرى أن إيجاره باهظ . وقد فعلت السيدة كاري ذلك كي تتخلص من جميع المضايقات حتى تضع طفلها ولكن السيدة كاري لم تعرف طيلة حياتها كيف تدبر شئون المال فعجزت عن أن توفق بين نفقاتها وبين ظروفها الجديدة ، فراح القليل الذي كان لديها يتسرب من بين يديها بطريقة أو بأخرى . والآن ، عندما وفت بكل التزاماتها ، لم يتبق لديها أكثر من ألفين من الجنيهات تعول بها طفلها الصغير حتى يشب عن طوقه ويستطيع أن يكسب عيشه .

لم يكن القس ليستطيع أن يشرح كل ذلك للطفل الصغير الذي ظل مسترسلا في البكاء . فقال كارى:

- من الخير أن تعود الآن إلى إما

قال ذلك وهو يشعر أن إما هي الوحيدة التي يمكنها أن تواسى الطفل حتى يتوقف عن البكاء وتسلل فيليب من فوق ركبة عمه دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ولكن السيد كاري أوقفه قائلا :

- يجب أن نذهب غدا إلى بلاكستابل لأنه لا بد لي في يوم السبت من أن أقوم بإعداد موعظتي التي سألقيها في الكنيسة ، ويجب أن تطلب إلى إما الآن أن تعد لك حاجاتك ، ويمكنك

أن تأخذ معك كل لعبك وإذا أردت تذكارا لوالدك أو والدتك ففي وسعك أن تأخذ شيئا واحدا لكل منهما . لأننا سنبيع كل ماعدا ذلك .

وتسلل الطفل خارجا من الحجرة .

ولم يكن كاري القس معتادا العمل ، فعاد إلى كتابة خطابات الشكر وهو ممتعض وكان على إحدى جوانب مكتبه مجموعة من الفواتير سببت له عنتا شديدا .. وكادت إحداها تخرجه عن صوابه لأنها حوت مبلغا لا يتصوره العقل ، ذلك أن إما كانت قد طلبت من بائع الزهور بعد موت السيدة كاري مباشرة مجموعات ضخمة من الزهور لوضعها في حجرة المتوفاة، وكان ذلك منها إتلافا شديدا للمال. وقد بالغت في التصرف من تلقاء نفسها ، ولم يكن هذا من حقها ، وكان من حق كاري أن يطردها من العمل حتى إذا لم تكن هناك صعاب مالية . ولكن فيليب عاد إلى إما وأخفي رأسه في صدرها ، وأخذ يبكي وقلبه كاد يتحطم . وكانت إما تشعر أن فيليب ابنها .. فقد حملته بين ذراعيها وهو ابن ثلاثين يوما فهدأت من خاطره وواسته بكلمات مفعمة بالحنان . ووعدته أن تأتي لتراه في بعض الأحيان ، وقالت أنها لن تنساه أبدا وحدثته عن بيتها في ديفونشير و عن الريف الذي هو ذاهب إليه – وقصت عليه كيف أقام أبوها بوابة عند الطريق العام المؤدي إلى أكستر وراحت تصف له الخنازير والبقرة التي في الحظيرة .. وقالت له إن البقرة ولدت عجلا صغيرا .. حتى نسي فيليب دموعه . وأثارته أفكار رحلته القريبة . وعندئذ ، نهضت إما ووضعته على الأرض ، فقد كان أمامها الكثير مما يجب أن تفعله ، وساعدها فيليب في إخراج الملابس ووضعها على الفراش وطلبت إليه أن يذهب إلى غرفته ليجمع لعبه .. وبعد لحظة كان غارقا بين اللعب وقد بدت عليه السعادة .. ولكنه شعر بالملل أخيرا من وحدته فعاد إلى حجرة النوم التي كانت بها إما ترتب الملابس في صندوق كبير من الصاج ، وتذكر فيليب حينئذ أن عمه قال له إنه يمكنه أن يحمل من البيت شيئا يذكره بأبيه وشيئا يذكره بأمه ، فأخبر إما بذلك وسألها ماذا يأخذ فقالت له

– خير لك أن تذهب إلى حجرة الاستقبال وتختار منها ما يروقك .

– إن عمي وليام هناك .

– لا تهتم بذلك فإن الأشياء ملكك الآن .

وهبط فيليب الدرج ببطء ، ووجد باب الحجرة مفتوحا . وكان السيد كاري قد غادر الحجرة فدلف فيليب إليها سائرا بتؤدة . ولم يكونا قد بقيا في المنزل طويلا، ولذلك لم يكن فيه ما يثير اهتمامه بنوع خاص . كانت حجرة يقيم فيها إنسان غريب . ولم ير فيها فيليب من الأشياء ما يثير إعجابه . ولكنه استطاع أن يميز ما يخص أمه مما يخص صاحب البيت . وما لبث أن ركز اهتمامه على ساعة حائط صغيرة الحجم سمع أمه مرة وهي تقول إنها تحبها وعاد بها تاركا الحجرة . وصعد الدرج وقد انتابته مشاعر حزينة .

وعند باب حجرة نوم أمه وقف قليلا يسترق السمع ، وشعر بأن من الخطأ الكبير أن يدخل الحجرة ، وإن لم يكد أحد قد أخبره بألا يدخلها وشعر بقليل من الخوف وراح قلبه يخفق بين جنبيه من القلق ، ولكن حافزا دفعه في الوقت عينه إلى أن يدير مقبض الباب .. فأداره بهدوء بالغ كأنه يريد ألا يسمعه أحد ممن بداخل الحجرة ، ثم دفع الباب ببطء ، ووقف لحظة على عتبة الحجرة قبل أن تعود إليه شجاعته ويجرؤ على الدخول ، وما لبث أن زال خوفه . ولكن كل شيء بدا له غريبا فأغلق الباب خلفه . كانت الستائر مسدلة والحجرة مظلمة يغشاها ضوء بارد انبعث من إحدى أمسيات شهر يناير وعلى نضد الزينة استطاع فيليب أن يرى الفرشاة التي كانت أمه تستخدمها ومرآتها الصغيرة ، وفي طبق صغير ، رأى الدبابيس التي كانت تزين بها شعرها ، وعلى رف المدفأة رأى صورة له ، وصورة أخرى لوالده ... وكان فيليب يجلس أحيانا كثيرة في الحجرة عندما تغيب أمه عنها . ولكنه هذه المرة شعر أنها غير ما كانت عليه من قبل ، فقد كان منظر المقاعد يبدو غريبا بعض الغرابة ، وبدا الفراش كأنه أعد لينام فيه شخص في تلك الليلة وكان هناك رداء للنوم بدا من إحدى الحقائب التي كانت ملقاة على الوسادة وفتح فيليب صوانا كبيرا ودخل فيه ، وأخذ يجمع بين يديه من الملابس ما استطاع حتى اختفي رأسه بينها ، واشتم منها رائحة العطر التي كانت تتطيب به أمه ثم جذب الأدراج التي امتلأت بأشيائها ، وألقى عليها نظرة ، فرأى بعض الصناديق التي احتوت زجاجات العطر وقد انبعثت رائحتها الزكية القوية إلى أنفه، وبدا فيليب يألف الغرفة، فقد زال عنه ما انتابه من شعور بعدم الارتياح إليها، وخيل إليه أن أمه خرجت في نزهة وستعود إليه في الحال، ثم تصعد لتتناول معه الشاي في غرفته ، وخيل إليه أنه يشعر بملمس قبلاتها على شفتيه ولم يكن يصدق أنه لن يراها بعد ذلك .. لم يكن يصدق هذا بسبب بسيط وهو أنه مستحيل . وصعد إلى السرير وألقى برأسه على الوسادة وظل هكذا راقدا بلا حراك .

افترق فيليب عن «إما» والدموع تملأ عينيه . ولكن الرحلة إلى بلاكستابل ألهته وسرته، وعندما انتهت كان الابتهاج باديا عليه ، وقد وطد نفسه على هذا المصير . وتبعد بلاكستابل ستين ميلا عن لندن . وبعد أن وكل السيد كاري أمر الحقائب إلى الحمال ، قصدا من فورهما إلى منزل القس . واستغرق سيرهما إلي هناك أكثر قليلا من خمس دقائق ، وما كادا يصلان إليه حتى تذكر فيليب فجأة أنه رأى ذلك الباب من قبل . لقد كان بابا أحمر ذا خمسة قضبان يفتح إلى الخارج وإلى الداخل بسهولة على مفصلاته . وكان من المستطاع وإن كان محرما عليه : أن يتعلق به ويتأرجح عليه . واخترقا الحديقة حتى وصلا إلى الباب الأمامي .. ذلك الباب الذي خصص للسادة الزائرين ولأيام الآحاد والمناسبات الخاصة ، مثل ذهاب القس إلى لندن وعودته منها. إما الدخول المعتاد إلى البيت والخروج منه فكانا يحدثان من باب جانبي . وكان للمنزل باب ثالث في المؤخرة للبستاني والمتسولين وأبناء السبيل . وكان منزلا كبيرا من الآجر الأصفر بني على الطراز الكنسي ، ذا سطح مائل من الجانبين. وكان الباب الأمامي يشبه أبواب الكنائس.. أما نوافذ حجرة الاستقبال فكانت على الطراز القوطي.

وكانت السيدة كاري تعرف موعد القطار الذي سيصلان فيه ، فراحت تنتظرهما في حجرة الاستقبال متوقعة سماع صرير الباب وهو يفتح . فلما سمعته سارت إليه مسرعة . وقال السيد كاري وهو يقدم زوجته إلى فيليب:

– هذه زوج عمك لويزا هيا اجري وقبلها .

وبدا فيليب يجرى نحوها وهو يعرج ، وأخذ يجر قدمه الشوهاء خلفه بطريقة مؤلمة ، ثم توقف.

كانت السيدة كاري عجوزا من نفس سن زوجها ، ذات وجه مليء بتجاعيد غائرة ، وعيناها زرقاوين تشوبهما صفرة ، وقد صففت شعرها الأشيب في حلقات طبقا لطراز ذلك العصر ، وارتدت رداء أسود اللون . أما زينتها الوحيدة فكانت سلسلة ذهبية تعلقت بجيدها وتدلى منها صليب صغير ، وكانت امرأة حية ذات صوت رقيق .. وقالت لزوجها :

– هل أسرفت في السير يا وليام ؟

قـالت ذلك بلهجة يكاد يشوبها التأنيب وهى تقبله . فأجاب وهو يلقى نظرة على ابن أخيه :

– إن هذا لم يخطر ببالي أبدا .

فقالت للصغير :

– ألم يؤلمك السير يا فيليب ؟

– لا .. إني أسير دائما .

وتعجب فيليب قليلا لهذا الحوار بينهما . ثم طلبت إليه زوج عمه لويزا أن يدخل المنزل، فسار الجميع إلي ردهة أرضها مكسوة ببلاط من اللونين الأحمر والأصفر ، وقد رسمت على بلاطة منها صورة الصليب اليوناني وعلى الأخرى صورة حمل الله وفي جانب من جوانب الردهة أقيم سلم فخم من خشب الصنوبر المصقول يؤدى إلى خارج الردهة . كان هذا الدرج ذا رائحة فذة. وقد أقيم في منزل القس بعد أن أعيد تأثيث الكنيسة وتبقى من الخشب ما كفي بناءه. وكان «درابزين» السلم مزينا بقطع خشبية رسمت عليها صور المبشرين بالأناجيل الأربعة . وقالت السيدة كارى:

– لقد أوقدت المدفأة لأنني ظننت أنكما ستشعران بالبرد بعد رحلتكما .

وكانت هناك مدفأة ضخمة في وسط الردهة ، ولم تكن توقد إلا حين تسوء هناك حالة الجو للغاية ويصاب القس بالبرد فلا توقد المدفأة لأن تكاليف الفحم كانت باهظة . هذا إلى جانب أن مارى آن الخادمة لم تكن تحب وجود النار في البيت . وكانت تقول أنهما إذا أراد أن يشعلا هذه النيران كلها ، فإن عليهما أن يستخدما خادمة أخرى . وفي الشتاء كان السيد

كاري وزوجته يجلسان في حجرة الطعام حتى تكفيهما نار واحدة ، وإذا ما أتى الصيف يكونان قد تعودا حجرة الطعام ، ولهذا كان السيد كاري هو الوحيد الذي يستخدم حجرة الاستقبال في أيام الآحاد فقط ليغفو فيها قليلا عند الظهيرة . ولكنه كان دائما يوقد المدفأة يوم السبت حتى يستطيع أن يكتب عظته الدينية .

واصطحبت العمة لويزا فيليب إلى الطابق الأعلى حيث أطلعته على حجرة صغيرة لنومه تطل على الطريق وكانت قبالة النافذة مباشرة شجرة ضخمة تذكرها الطفل جيدا لأن فروعها كانت مدلاة بحيث كان في استطاعته أن يتسلقها في سهولة ، وقالت السيدة كارى:

– تلك حجرة صغيرة لطفل صغير .. هل تخاف إذا نمت فيها بمفردك ؟

– لا .

وكان في أول زيارة قام بها فيليب للقس قد اصطحب معه مربيته، ولهذا فلم تكن السيدة كاري تقوم بالكثير من شئونه، أما الآن فقد نظرت العمة لويزا بشيء من عدم الثقة.

– هل تستطيع أن تغسل يديك وحدك أم تريد أن أغسلهما لك ؟

– فأجابها فيليب في حزم :

– نعم أسـ طيع !

– هذا حسن ولكنى سأرى بنفسي هل يداك نظيفتان عندما تنزل لتناول الشاي .

ولم تكن السيدة كاري تعرف شيئا عن الأطفال . لكنها بعد أن تقرر أن يمكث فيليب معها هي وزوجها في بلاكستابل أخذت تفكر كثيرا كيف تعامله، وكانت راغبة في أن تقوم بواجبها كاملا نحوه ، والآن .. وقد أصبح الصغير معها وجدت نفسها خجلة منه كخجله منها ، وتمنت ألا يكون فيليب مزعجا فظا ، لأن زوجها لا يحب الأطفال المزعجين غير المؤدبين . وانتحلت السيدة كاري عذرا حتى تترك فيليب بمفرده . ولكن لم تمض لحظة حتى عادت إليه وطرقت باب الحجرة ، وسألته دون أن تدخل إن كان يستطيع أن يصب الماء لنفسه .. ثم عادت إلي الطابق الأسفل ، ودقت الجرس إيذانا بموعد تناول الشاي .

وكانت حجرة الطعام متسعة ، متناسبة الطول والعرض ، ولها نوافذ على جانبين من جوانبها أسدلت عليها ستائر سميكة من المخمل الأحمر ، وفي وسط الحجرة استقرت منضد وفي جانب من جوانبها صوان كبير من خشب المجنة رائع المنظر ، وبها مرآة ، وفي ركن من أركان الحجرة أرغن صغير الحجم . ووضعت على جانبي المدفأة مقاعد مكسوة بالجل المزركش ، وغطى أعلى كل مقعد بغطاء صغير من القماش، وكان هناك مقعدان أحدهما ذ مسندين فأطلقوا عليه اسم الزوج والآخر بلا مساند فأطلقوا عليه اسم الزوجة ولم تكن السيد كاري تجلس أبدا على المقعد ذي المساند .. وكانت تقول إنها تفضل ألا يكون مقعدها مفرط في الراحة ، لأن لديها دائما الكثير من الأعمال ، وإذا جلست على مقعد ذي مسندين فقد

يح من السهل عليها أن تتركه في أية لحظة .

وكان السيد كاري منهمكا في إشعال نار المدفأة عندما دخل فيليب حجرة الطعام وأشار إلى ابن أخيه بأن هناك محركين لتحريك النار في المدفأة . أحدهما كبير الحجم لامع مصقول، لم تقس عليه كثرة الاستعمال فسموه القس. أما الآخر فكان أصغر كثيرا من صاحبه وبدا عليه أنه مر بنيران كثيرة فأطلقوا عليه نائب القس وقال السيد كاري:

– ماذا ننتظر الآن ؟

فأجابته زوجته :

– لقد طلبت من ماري آن أن تعد لك بيضة .. فقد ظننت أنك ستشعر بالجوع بعد رحلتك.

وكانت السيدة كاري تعتقد أن الرحلة من لندن إلى بلاكستابل شاقة للغاية ذلك لأنها قلما سافرت لأن دخل الأسرة لم يكن يتجاوز ثلاثمائة جنيه في العام . ولذلك كان زوجها يسافر بمفرده إذا أراد أن يمضي عطلته لأن المال لم يكن يكفي لاثنين وكان السيد كاري يهوى حضور مؤتمرات الكنائس فكان في العادة يدبر أمره بحيث يسافر إلى لندن مرة كل عام .. وقد سافر مرة إلى باريس ليشاهد المعرض الذي أقيم هناك ومرتين أو ثلاث مرات إلي سويسرا .

وجاءت ماري آن بالبيضة ، وجلس الجميع حول المائدة . وكان المقعد قصيرا بالنسبة لفيليب ، وفي تلك اللحظة انتابت الحيرة السيد كاري وزوجته فلم يعرفا ماذا يفعلان . وهنا قالت ماري آن :

– سأضع تحته بعض الكتب .

وتناولت من فوق الأرض الكتاب المقدس وكتاب التراتيل الذي يتلو القس منه صلواته، ووضعت الكتابين على مقعد فيليب . فصاحت السيدة كاري منزعجة :

– وليام .. لا ينبغي أن يجلس فيليب على الكتاب المقدس . واستمرت في لهجة يشوبها الانزعاج :

– ألا تستطيعين أن تضعي تحته كتابا آخر من الكتب التي في حجرة المكتب ؟

وفكر كاريفي الأمر لحظة ثم قال :

– ماري آن .. أعتقد أن لا بأس في هذه المرة أن تضعي كتاب التراتيل فوق الكتاب المقدس. فهذا كتاب من وضع أناس مثلنا ولا يمكن القول أنه كلام الله .

فقالت العمة لويزا :

– إن هذا لم يخطر ببالي يا ويليام ..

وجلس فيليب فوق الكتابين وبعد أن تلا القس دعاء الطعام ، قطع الطرف الأعلى للبيضة

بسكين وقال وهو يعطيه لفيليب :

– والآن تستطيع أن تأكل طرف بيضتي إذا شئت ..

وكان فيليب يريد بيضة كاملة لنفسه ، ولكنها لم تقدم إليه فاكتفي بما استطاع أن يحصل عليه. وسأل القس :

– كيف كان حال الدجاج من حيث البيض منذ أن سافرت ؟

– إنه دجاج فظيع .. فلسنا نحصل إلا على بيضة واحدة أو بيضتين كل يوم ..

– هل أعجبتك رأس البيضة يا فيليب ؟

– أعجبتني كثيرا جدا أشكرك ..

– ستأكل قطعة أخرى مثلها بعد ظهر يوم الأحد .

ذلك أن السيد كاري كان دائما يأكل بيضة مسلوقة مع الشاي بعد ظهر يوم الأحد حتى يقوى على إقامة الصلاة في الكنيسة مساء الأحد .

بدأ فيليب رويدا يعرف الناس الذين سيعيش معهم . وعرف من أجزاء من الحديث بعضه لم يكن موجها إليه ولا مقصودا أن يصل إلى أسماعه كثيرا عن نفسه وعن والديه المتوفين . كان والد فيليب أصغر بكثير من أسقف بلاكستابل . وبعد تقدم مذهل حققه في مستشفي سانت لوك انضم إلى هيئة أطباء المستشفي، وعندئذ بدأ يتدفق عليه المال بكثرة. غير أنه راح ينفقه ببذخ شديد . وعندما بدأ القس البروتستانتي في إجراءات إصلاح كنيسته وطلب من أخيه التبرع لعملية الإصلاح هذه دهش عندما تلقى منه أكثر من مائتي جنيه: قبلها السيد كاري بمشاعر متضاربة فقد كان يميل إلى الاقتصاد بطبعه والى التوفير بالضرورة ، كان يحسد أخيه لأنه كان في مقدوره أن يدفع هذا المبلغ الكبير ، وكان مسرورا من أجل كنيسته ، ويشعر بضيق غامض لهذا الكرم الذى أبداه أخوه والذي يبدو وكأنه ضرب من التفاخر. ثم تزوج هنري كاري من إحدى مريضاته ، فتاة جميلة ولكن معدمة . يتيمة بلا أقارب ولكنها من أسرة طيبة ؛ وقد حضر حفل الزفاف عدد كبير من الأصدقاء . وكان الأسقف يشعر بالتحفظ إزائها عندما يزورها عندما كان يزورها في سفره إلى لندن. وكان يشعر بالخجل معها وفي مكامن قلبه يستاء من جمالها الأخاذ : كانت ترتدي ثيابا فاخرة رائعة لا تليق بزوجة طبيب جاد في عمله: ثم هذا الأثاث الفاخر الذي يزهو به منزلها والورود التي تعيش بينها حتى في فصل الشتاء، كلها توحي ببذخ وإسراف كان يأسف له . وقد سمعها تتكلم عما تعتزم تقديمه من ضيافة: ومن المستحيل، كما قال لزوجته عندما عاد إلى المنزل أن يقبل الضيافة دون أن يردها. لقد رأى كروم في حجرة الطعام ثمن الرطل منها ثمانية شلنات علي الأقل: وعلي المائدة قدم إليه الأسباراجوس قبل ظهوره في حديقة منزله بشهرين. والآن فإن كل ما توقعه قد حدث: لقد شعر الأسقف بالارتياح الذي يشعر به المتنبئ الذي حذر المدينة

من أن النار سوف تشتعل فيها وتأتي عليها ولكن أحدا لم يستجب لتحذيراته . مسكين فيليب لقد كان مدقعا فعلا وما فائدة أصدقاء والدته الطيبين الآن؟ لقد سمع أن إسراف والده كان أمرا إجراميا حقا وكان من الرحمة أن الرب رأى أنه من المناسب أن يختار أمه العزيزة إلى جواره فلم تكن لديها فكرة عن المال أكثر من فكرة طفل في هذا الشأن .

وبعد أن أمضى فيليب أسبوعا في بلاكستابل وقع حدث يبدو أنه ضايق عمه كثيرا . ففي أحد الأيام وجد على مائدة الإفطار طردا صغيرا أرسل بالبريد من منزل المرحومة السيدة كاري في لندن . كانت الرسالة موجهة إليها . وعندما فتح الأسقف الطرد وجد به اثنتي عشرة صورة فوتوغرافية للسيدة كارى. وكانت الصور تظهر رأسها وكتفها فقط. وقد صفف شعرها بطريقة أسوأ من المعتاد وقد تدلى الشعر على جبهتها مما أكسبها منظرا شاذا . وكان الوجه نحيلا مرهقا غير أن جمال قسماتها لم يكن في استطاعة أي مرض أن يخفيه . وكان تبدو في العينين السوداوين الواسعتين لمسة حزن لم يكن فيليب يستطيع أن يتذكرها . وقد صدم السيد كاري صدمة خفيفة عندما وقعت عيناه على صور السيدة الراحلة غير أن ذلك سرعان ما تلاه شعور بالارتباك . فالصور يبدو أنها التقطت حديثا ولكن لم يستطع أن يتصور من الذي طلبها .

وسأل فيليب «هل تعرف أي شيء عن هذه الصور يا فيليب؟»

ورد فيليب قائلا «أذكر أن أمي قالت أنها التقطت لها . لقد لامتها الآنسة واتكن... ولكنها قالت لها أريد أن يكون لدى الصبي شيئا يتذكرني به عندما يشب عن الطوق» .

نظر السيد كاري إلي الطفل لحظة .لقد تكلم الطفل بصوت عال واضح . كان يذكر الكلام لكنه لم يكن يعني شيئا له . وقال السيد كارى:

«يستحسن أن تأخذ صورة من هذه الصور وتحتفظ بهات في حجرتك وسوف أحتفظ أنا ببقية الصور».

ثم بعث الأسقف برسالة إلى الآنسة «واتكن» التي ردت عليه وأوضحت كيف التقطت هذه الصور .

ففي أحد الأيام كانت السيدة كاري مستلقية مريضة في فراشها وكانت في ذلك اليوم تشعر بأنها أفضل من المعتاد وقد بدا على الطبيب في الصباح أنه مفعم بأمل كبير في شفائها: وقد أخذت «إما» الطفل إلى الخارج وكانت الخادمات في الدور الأسفل في البدرون: وفجأة شعرت السيدة كاري أنها وحيدة في العالم بشكل يائس . وانتابها خوف فظيع من أنها لن تشفي من الحبس النهائي الذي كانت تتوقعه في أسبوعين . كان عمر ابنها تسع سنوات . كيف يمكن أن يتوقع منه أن يتذكرها ؟ ولم تتحمل أن تفكر أنه سوف يكبر وينسى، ينساها تماما ، فقد كانت تحبه بشدة لأنه كان ضعيفا ومشوها ولأنه ابنها . فلم تلتقط صور لها منذ

زواجها. وكان هذا قبل عشر سنوات . وكانت تريد من ابنها أن يعرف كيف كانت تبدو في أيامها الأخيرة . فعندئذ لن ينساها، لن ينساها نسيانا تاما . وكانت تعرف أنها لو نادت علي ممرضتها وقالت لها أنها تريد أن تنهض من الفراش فإن الممرضة سوف ترفض وأنها ليست لديها القوة الآن كيف تناقش وتكافح. فنهضت من الفراش وارتدت ملابسها. لقد ظلت راقدة على ظهرها طويلا حتى لم تعد ساقاها تقويان على حملها. وكانت تستشعر وخزا في كعبي قدميها فوجدت صعوبة شديدة في وضعهما علي الأرض . ولم تكن معتادة علي تصفيف شعرها بنفسها فعندما رفعت ذراعيها وبدأت تسوي شعرها شعرت بأنها يكاد أن يغشي عليها . ولم تكن تستطيع أن تسوى شعرها كما كانت تسوية ممرضتها . كان شعرها رائع الجمال رقيق وذو لون ذهبي ثري . حاجباها كانا مستقيمان لونهما أسود فاحم . ارتدت تنورة سوداء وصدارة توب السهرة التي كانت تحبها كثيرا. وكانت من الحرير الأبيض الذي كان من الأزياء الأنيقة في ذلك الوقت . وتأملت نفسها في المرآة. كان وجهها مصفرا للغاية ولكن بشرتها كانت صافية: لم يحدث أبدا أنها كانت تستمتع بلون لبشرتها وهذا جعل حمرة فمها الجميل شيء رائع . لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتنهد . ولكنها لم تشعر بالأسف على نفسها : وكانت في تلك اللحظات تشعر فعلا بتعب شديد وارتدت الفراء الذي أهداها هنري إياه في عيد الميلاد السابق – كانت فخورة للغاية بهذا الفراء وسعيدة للغاية عندما قدم إليها. تسللت تهبط درجات السلم. وخرجت من المنزل بأمان وقادت سيارتها إلى أحد المصورين ودفعت ثمن اثنتي عشرة صورة . وكانت مضطرة أن تطلب كوب ماء أثناء جلوسها كي تلتقط لها الصور وعندما لاحظ مساعد المصور أن السيدة مريضة اقترح عليها أن تحضر في يوم آخر غير أنها أصرت علي البقاء حتى النهاية وانتهي التصوير وقادت سيارتها عائدة إلى المنزل القذر الصغير في كينسنجتون وهو منزل كانت تمقته من أعماق قلبها . منزل فظيع أن يموت المرء فيه .

وجدت الباب الأمامي مفتوحا وعندما دخلت هرعت الممرضة وإما إليها هابطتين السلم بسرعة لمساعدتها . لقد شعرا بخوف شديد عندما وجدا حجرتها خالية. وفي البداية ظننا أنها ذهبت إلى الآنسة «واتكن» وأرسلت الطباخة خلفها لتبحث عنها هناك. وعادت الطباخة مع الآنسة «واتكن» وراحت تنتظر بقلق في حجرة الاستقبال غير أنها راحت تهبط السلم الآن مفعمة بالقلق والرغبة في التأنيب : غير أن السيدة كاري لم تكن مهيأة لهذا النوع من التعب وسرعان ما تهاوت بين ذراعي إما وحملوها للدور العلوي . وظلت مغشيا عليها لمدة بدت أطول بشكل لم يصدقه من كانوا يراقبونها ولم يحضر الطبيب الذي استدعي للحضور علي وجه السرعة . وفي اليوم التالي تحسنت حالتها قليلا فاستطاعت الآنسة «واتكن» أن تحصل منها علي بعض التفسيرات لما حدث منها. وكان فيليب يلعب على الأرض في حجرة نوم أمه ولم تعره أي من السيدتين أي انتباه . وبالكاد كان يفهم ما يتكلمون عنه ولم يعرف لماذا ظل الكلام الذي قالته أراه محفورا في ذاكرته .

«أريد أن يكون لدى الصبي شيئا يتذكرني به عندما يشب عن الطوق».

وقالت السيدة كاري «لا أعرف لماذا طلبت دستة من الصور، بينما كانت تكفي صورتان».

●●●

كان كل يوم يشبه الآخر في الأبرشية .

وبعد الإفطار مباشرة جاءت مارى آن بجريدة التايمز . كان السيد كاري يشترك في هذه الجريدة مع اثنين من جيرانه .فكانت تظل معه من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة عندما يقوم البستاني بحملها إلى السيد إيليس جاره فتظل معه حتى الساعة السابعة ثم تنتقل إلى السيدة بروكس في مانور هاوس التي يكون لها حظ الاحتفاظ بها حتى اليوم التالي لأنها تحصل عليها متأخرة . وفي الصيف عندما تكون السيدة كاري تعد المربى كانت كثيرا ما تطلب منها نسخة من الجريدة لتغطي بها البرطمانات . وعندما كان الأسقف يجلس لقراءة الجريدة كانت السيدة كاري ترتدي لباس رأسها وتخرج لكي تشترى لوازم المنزل. وكان فيليب يخرج معها . كانت بلاكستابل قرية صيادين بها شارع رئيسي به المتاجر والبنك وبيت الطبيب وبيوت اثنين أو ثلاثة من ملاك سفن الصيد ، وحول الميناء الصغير كانت هناك شوارع صغيرة قذرة يعيش فيها الصيادون والفقراء من سكان القرية، ولما كان هؤلاء الفقراء يذهبون إلى الكنيسة الصغيرة فلم تكن لهم أهمية تذكر. ولو تصادف أن قابلت السيدة كاري في الشارع الكهنة المنشقين عن الكنيسة فإنها كانت تنتقل إلى الجانب الآخر من الشارع لكي تتجنب لقاءهم ولكن إذا لم يتوفر الوقت لذلك فكانت تركز أنظارها إلى أسفل علي الرصيف. كانت فضيحة لم يتقبلها القس أبدا وهي أن هناك ثلاث كنائس صغيرة في الشارع الرئيسي ولم يكف عن الشعور بأن القانون كان يجب أن يتدخل لمنع إقامة تلك الكنائس الصغيرة. لم يكن التسوق في بلاكستابل أمرا سهلا لأن الانشقاق عن الكنيسة كان أمرا شائعا ساعده أن الأبرشية كانت تبعد ميلين عن المدينة وكان من الضروري التعامل فقط مع الذين يترددون على الكنيسة : كانت السيدة كاري تعرف جيدا أن العادة المتبعة في بيت القس هي التي لها أكبر الأثر في إيمان التاجر . فقد كان هناك جزاران يترددان علي الكنيسة ، ولم يكن في استطاعتهما أن يفهما لماذا لا يستطيع القس أن يتعامل معهما في وقت واحد ولم يكونا أيضا راضين عن خطة القس بالذهاب ستة أشهر إلى أحدهما وستة أشهر للآخر . وهدد الجزار الذي لم يكن يبعث باللحم إلى القس باستمرار بأن لا يذهب إلى الكنيسة وكان القس يضطر أحيانا إلى التهديد : إنه يخطئ تماما بعدم الذهاب إلى الكنيسة ولكنه إذا تمادي في الإثم وذهب فعلا إلى الكنيسة الصغيرة فإن السيد كاري سيضطر إلى تركه إلى الأبد. وكثيرا ما كان السيد كاري يتوقف عند البنك ليبعث برسالة إلى جوسيا جريفز المدير الذي كان أيضا رئيسا لجوقة

المنشدين في الكنيسة وأمين الصندوق ووكيل الكنيسة . كان رجلا طويل القامة ، نحيفا له وجه شاحب وأنف طويل ، وكان شعر رأسه قد شاب وابيض وكان فيليب يراه ممعنا في الشيخوخة . وكان مسئولا عن حسابات الأبرشية ويتولى شئون المنشدين والمدرسة : ورغم أنه لم يكن هناك أرغن في كنيسة الأبرشية فقد كان من المعترف به بصفة عامة أن جوقة المنشدين التي كان يقودها (في بلاكستابل) من أحسن الجوقات في «كنت» وكان يقوم بكل الاستعدادات اللازمة عندما يعتزم إقامة أي حفل في أية مناسبة ، مثل زيارة المطران للعماد أو زيارة كاهن الريف الكبير لكي يدلي بموعظته في عيد شكر الحصاد . ولم يكن يتردد عند أداء أي شيء وكل ما كان يفعله هو أن يجري مشاورات روتينية مع القس، أما القس الذي كان على استعداد دائما أن يوفر على نفسه المتاعب فكان يستاء بشدة من طرق وكيل الكنيسة في الإدارة وكان في الواقع ينظر إلى نفسه على أنه أهم شخص في الأبرشية . وقد قال السيد كاري لزوجته أن جوسيا جريفز إذا لم يلزم حذره فإنه سوف يوبخه في يوم ما غير أن السيدة كاري نصحته بأن يتحمل السيد جوسيا جريفز: فهو حسن القصد وليس خطؤه أنه ليس سيدا كامل التهذيب. وقد مارس القس الصبر انطلاقا من التزامه بالحرص على الفضائل المسيحية، ولكنه انتقم لنفسه بأن سمي وكيل الكنيسة «بسمارك» من وراء ظهره.

وحدث مرة شجار عنيف بين الاثنين وظلت السيدة كاري تذكر هذا الوقت المثير للقلق برعب . وكان مرشح المحافظين قد أعلن أنه يعتزم إلقاء إحدى خطاباته الانتخابية في بلاكستابل: ولما كان جوسيا جريفز قد اتخذ ترتيباته بأن يحدث هذا اللقاء في قاعة الإرسالية فقد قصد السيد كاري وأبلغه بأنه يأمل أن يلقي كلمة في تلك المناسبة . واتضح أن المرشح طلب من جوسيا جريفز أن يرأس الاجتماع. وكان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمله السيد كارى. فقد كانت آراؤه حازمة فيما يتعلق بالاحترام الراجع إلى الزي ومن السخرية أن يرأس وكيل الكنيسة الاجتماع بينما القس هناك . وذكّر جوسيا جريفز بأن كاهنا معناها أن هناك شخصا اسمه القس يرعى الكنيسة . وقد رد جوسيا جريفز على ذلك بأن قال أنه أول من يعتز بكرامة الكنيسة، غير أن هذا أمر يتعلق بالسياسة وقام بدوره بتذكير القس بما قاله السيد المسيح المبارك «إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله». وقد رد السيد كاري على ذلك فقال أن الشيطان يمكنه أن يقتبس من الكتاب المقدس ما يخدم مصالحه وأنه هو نفسه لديه السلطة الكاملة فيما يتعلق بقاعة الإرسالية، وإذا لم يطلب إليه أن يرأس الاجتماع فإنه يرفض استخدام القاعة في اجتماع سياسي . وقال السيد جوسيا جريفز للسيد كاري أن له أن يفعل ما يشاء وأضاف أنه من جانبه يعتقد أن كنيسة ويزلين الصغيرة يمكن أن تؤدي الغرض وأن تكون مكانا مناسبا بالمثل . وعندئذ قال السيد كاري أنه إذا وضع جوسيا جريفز قدمه في مكان أفضل بقليل من معبد للوثنيين فإنه لا يستحق أن يكون وكيلا لأبرشية مسيحية . وعندئذ استقال جوسيا جريفز من كل مناصبه وفي نفس الليلة أرسل إلى الكنيسة يطلب أرديته الكهنوتية البيضاء وغيرها. أما شقيقته الآنسة جريفز التي كانت

ترعى شئونه المنزلية فقد استقالت من وظيفة سكرتيرة نادى الأمومة الذي يزود الفقيرات الحوامل بالملابس وأردية الأطفال وفحم الوقود وخمسة شلنات . وقال السيد كاري أنه أخيرا أصبح صاحب النهي والأمر في منزله . غير أنه سرعان ما وجد أنه يجب عليه أن يشرف على أشياء كثيرة لم يكن يعرف عنها شيئا : أما جوسيا جريفز فقد وجد في أول لحظة من الضيق أنه فقد اهتمامه الرئيسي في الحياة . وقد استاءت كل من السيدة كاري والآنسة جريفز من هذا النزاع : وتقابلا بعد تبادل الخطابات في تكتم وصممتا علي تسوية النزاع وتحسين الأحوال : وتحدثتا واحدة إلى زوجها والأخرى إلى شقيقها من صبيحة النهار إلى ساعة متأخرة من الليل . ولما كانتا تحاولان إقناع الرجلين بأن يفعلا ما تمليه عليه مشاعرهما فقد أمكن، بعد ثلاثة أسابيع من القلق . الوصول إلى صلح بينهما . وكان الصلح يخدم مصلحة كليهما غير أنهما أرجعا ما حدث إلى الحب المشترك ليسوع المسيح . وعقد الاجتماع في قاعة الإرسالية وطلب من طبيب القرية أن يرأسه. وألقي كل من السيد كاري والسيد جريفز كلمة في الاجتماع .

عندما كانت السيدة كاري تنهي عملها مع صاحب المصرف كانت عادة تصعد إلى الطابق العلوي لتتبادل حديثا قصيرا مع شقيقته: وبينما كانت السيدات يتبادلن الحديث عن أمور الأبرشية وراعي الأبرشية أو عن قبعة السيد ويلسون الجديدة – كان السيد ويلسون أغنى رجل في بلاكستابل وكان يُعتقد أنه يكسب خمسمائة جنيه في السنة على الأقل وقد تزوج الطباخة التي كانت تعمل عنده – كان فيليب يجلس متظاهرا بالاحتشام في الردهة الرسمية التي كانت تستخدم فقط لاستقبال الزائرين ويشغل نفسه بمراقبة الحركات المتواصلة للسمك الذهبي الذي كان يسبح في السلطانية الزجاجية. ولم تكن النوافذ تفتح إلا لدقائق قليلة في الصباح لتهوية الغرفة، وكانت رائحة هواء الغرفة رائحة هواء فاسد لها صلة غريبة برائحة غرف المصارف .

وتذكرت السيدة كاري بعد ذلك أن عليها أن تذهب إلى دكان البقال فاتخذا طريقهما إلى البقال وعندما انتهت من شراء ما تريد اتجها إلى شارع جانبي به منازل صغيرة معظمها من الخشب ويسكنها الصيادون . (وهنا وهناك كان يجلس صيادا يصلح شبكته وكانت هناك شباك معلقة على الأبواب كي تجف) حتى وصلا إلى شاطئ صغير تحاصره المستودعات من جانبيه لكنه يطل على البحر . وتوقفت السيدة كاري قليلا ونظرت إلى البحر كان البحر عكرا أصفر اللون (من يعرف أي أفكار كانت تدور في ذهنها في ذلك الوقت ؟) بينما كان فيليب يبحث في رمال الشاطئ عن أحجار ملساء ليلعب بها. ثم سارا في بطء عائدين وأطلا على مكتب البريد لمعرفة الوقت بالضبط ، وأومأ برأسيهما للسيدة ويجرام زوجة الطبيب التي كانت تجلس في شرفة منزلها تخيط شيئا ثم عادا إلى المنزل.

كان الغداء في الساعة الواحدة وفي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكان يشمل لحم البقر محمرا ومفروما وفي أيام الخميس والجمعة والسبت لحم الضأن . وفي يوم الأحد كانوا يأكلون إحدى دجاجاتهم . وكان فيليب يستذكر دروسه بعد الظهر . وتعلم اللغة اللاتينية والرياضيات على أيدي عمه الذي لم يكن يعرف أيا منهما . وعلمته عمته كيف يعزف علي البيانو كما علمته اللغة الفرنسية. كانت جاهلة في اللغة الفرنسية ولكنها كانت عازفة بيانو ماهرة وكانت تصاحب عزفها بغناء الأغاني القديمة التي عرفتها منذ ثلاثين سنة. وكان العم وليام يقول لفيليب أن زوجته، عندما كان راعيا للأبرشية. كانت تعرف اثنتي عشر أغنية كانت تحفظها عن ظهر قلب وتغنيها على الفور عندما يطلب منها ذلك. وكانت تغني بدون مصاحبة الموسيقي في حفلات الشاي التي كانت تقدم في مقر القس. وكان هناك عدد قليل من الناس تحرص عائلة كاري علي دعوتهم هناك وكانت الحفلات التي يقيمونها تضم راعي الأبرشية، وجوسيا جريفز وشقيقته . والطبيب ويجرام وزوجته . وبعد تناول الشاي كانت السيدة جريفز تعزف قطعة أو قطعتين من موسيقى مندلسون «أغاني بلا كلمات» وكانت السيدة كاري تغني الأغاني التي تحفظها.

ولكن عائلة كاري لم تكن تقيم حفلات الشاي كثيرا ، لأن إعدادها كان يزعجهم وكانوا يشعرون بالإرهاق بعد أن ينتهي الحفل ويرحل المدعوون . وكانوا يفضلون أن يتناولوا الشاي وحدهم ، وبعد الشاي كان كاري وزوجته يلعبان الطاولة . وقد وضعت السيدة كاري في حسابها أن السيد كاري يحب أن يكسبها في لعب الطاولة لأنه كان لايحب أن يخسر . وكان يتناولا عشاء باردا بالليل وكان هذا العشاء وجبة غير متزنة لأن مارى آن لم تكن تحب إعداد شيء بعد تناول الشاي وكانت السيدة كاري تساعد في تنظيف المائدة.

ونادرا ما كانت السيدة كاري تأكل أكثر من الخبز والزبد ثم تتناول بعدهما قليلا من الفاكهة المطهوة ولكن القس كان يتناول شريحة من اللحم البارد . وبعد العشاء مباشرة يدق السيد كاري الجرس للصلاة ، ويأوي فيليب بعد ذلك إلى فراشه . وقد ثار لأن مارى أن كانت تساعده في خلع ملابسه وارتداء رداء النوم وبعد فترة نجح في خلع وارتداء ملابسه بنفسه . وفي الساعة التاسعة تجلب مارى آن البيض والطبق . وكانت السيدة كاري تكتب التاريخ على كل بيضة وتسجل رقم البيضة في كراسة ثم تحمل البيض على ذراعيها وتصعد إلى الدور العلوي . ويواصل السيد كاري قراءة أحد كتبه القديمة . ولكن عندما تدق الساعة العاشرة ينهض ويطفئ أنوار المصابيح ويتبع زوجته إلى حجرة النوم .

وعندما وصل فيليب إلى منزل عمه كانت هناك صعوبة في تحديد اليوم الذي سيستحم فيه فيليب . فلم يكن من السهل أبدا الحصول على كمية كبيرة من الماء الساخن . لأن غلاية المطبخ كانت معطلة ، وكان من المستحيل أن يستحم شخصان في نفس اليوم . وكان الرجل الوحيد الذي لديه حمام في منزله هو السيد ويلسون وكان يعتقد أن هذا نوع من التفاخر من جانبه . وكانت مارى آن تستحم في المطبخ مساء يوم الاثنين لأنها كانت تحب أن تبدأ

الأسبوع وهي نظيفة . أما العم ويليام فلم يكن يستطيع أن يستحم يوم السبت، لأنه كان لديه يوم شاق أمامه، وكان دائما يشعر بالتعب بعد أن يستحم ولذلك كان يستحم يوم الجمعة. وكانت السيدة كاري تأخذ حمامها يوم الخميس للسبب نفسه . ويبدو أن يوم السبت كان محددا بواقع الأمر لفيليب ، ولكن ماري آن قالت أنها لا يمكنها أن تترك النار موقدة مساء السبت : فماذا تفعل وعليها كل هذا الطبيخ يوم الأحد . فكان عليها أن تطبخ الفطائر وما إلى ذلك من أصناف أخرى ولم تكن تشعر أنها يجب أن تحمي فيليب مساء السبت وكان واضحا تماما أن فيليب لا يمكنه أن يستحم بنفسه . وكانت السيدة كاري تخجل من أن تحمّي الطفل . أما القس فقد كان عليه بالطبع أن يعد موعظته التي يلقيها في الكنيسة يوم الأحد . ولكن القس كان يصر علي أن يكون الصبي نظيفا في يوم الرب . وقالت ماري آن أنها تفضل لو تخلت عن عملها على أن يزيدونها إرهاقا بمزيد من العمل – فبعد ثمانية عشر عاما لم تتوقع أن يضاف إلى عملها المزيد – وقال فيليب أنه لا يريد أن يحمّيه أحد وأنه يستطيع أن يستحم بنفسه . وقد حل ذلك المشكلة . غير أن ماري آن قالت أنها واثقة كل الثقة أنه ليس في استطاعه الصبي أن يستحم بنفسه استحماما صحيحا . وقالت أيضا أنه بدلا من أن يظل فيليب قذرا – لأنها لا تستطيع أن تتحمل طفلا قذرا – فإنها علي استعداد لأن تعمل كالفاعل حتى في مساء يوم السبت .

●●●

كان يوم الأحد يوما مشحونا بالأحداث . وقد اعتاد السيد كاري أن يقول أنه الرجل الوحيد في الأبرشية الذي يعمل يوم الأحد .

وكان المنزل يستيقظ قبل موعده المعتاد بنصف ساعة . لا يحق للفقير أن يستلقي في فراشه يوم الراحة ، أبدى السيد كاري هذه الملاحظة لماري آن عندما راحت تدق علي الباب في الموعد بالضبط الساعة الثامنة . وقد استغرقت السيدة كاري وقتا أطول لترتدي ملابسها ونزلت لتتناول الإفطار في الساعة التاسعة وهي تلهث قليلا ، قبل أن ينزل زوجها . وقد ترك حذاء السيد كاري أمام المدفأة ليجف. وكانت الصلاة أطول من المعتاد. وكان السخاء باديات في طعام الإفطار. وبعد الإفطار قطع القس شرائح رفيعة من الخبز للطعام الرباني. وكان فيليب محظوظا بأن قام بتقطيع قشرة الرغيف . وطلب منه أن يذهب إلي غرفة المكتب ليحضر مثقلة مصنوعة من الرخام استخدمتها السيدة كاري في الضغط علي الخبز حتى أصبح رقيقا لينا ثم قامت بتقطيعه إلى مربعات صغيرة. وكانت المسألة كلها يتحكم فيها الجو . ففي يوم جوه سيىء لا يحضر عدد كبير من الناس إلى الكنيسة وفي الجو اللطيف فإن الذين يحضرون الصلاة في الكنيسة قليل منهم ينتظر للمشاركة في تناول العيش الرباني.

ويزداد العدد كلما كان الجو جافا إذ يسهل لهم الوصول إلى الكنيسة سيرا على الأقدام ولكن إذا كان الجو جميلا جدا فإن الكثيرين تكون لديهم الرغبة في مغادرة الكنيسة على عجل.

أخرجت السيدة كاري طبق العيش الرباني من دولاب في حجرة المؤن وقام القس بتلميعه بقطعه من جلد الشمواة (جلد الظبي) وفي الساعة العاشرة وصلت المركبة الخفيفة التي تقل القس إلى الكنيسة وارتدى السيد كاري حذاءه . وأضاعت السيدة كاري عدة دقائق لكي ترتدي قبعتها وكان القس في تلك الأثناء يقف في الردهة مرتديا عباءة فضفاضة وقد ارتسم على وجهه تعبير أشبه بمسيحي قديم يوشك أن يلقى به في الساحة الرومانية كي يقاتل الوحوش. وكان من الغريب أنه بعد ثلاثين عاما من الزواج لم تكن السيدة كاري تستطيع أن تكون مستعدة في الوقت المناسب صباح يوم الأحد . وأخيرا وصلت في ثوب من الساتان الأسود . لم يكن القس يحب أن ترتدى زوجة رجل الدين ثيابا ملونة في أي وقت ولكنه كان يصر على أن ترتدي زوجته ثيابا سوداء في يوم الأحد. وأحيانا، وبالتآمر مع الآنسة جريفز كانت تغامر بوضع ريشة بيضاء أو وردة حمراء في قبعتها، غير أن القس كان يصر علي أن تختفي: وقال أنه لا يريد أن يذهب إلى الكنيسة مع المرأة القرمزية : وكانت السيدة كاري تتنهد كامرأة وتطيع كزوجة . وكانوا على وشك أن يركبوا العربة عندما تذكر القس أن أحدا لم يعطه بيضته. كما أنه لابد أن يتناول بيضة من أجل صوته ، كانت هناك امرأتان في المنزل ولم يكن لدى أحد أي احترام لراحته . ووجهت السيدة كاري اللوم إلى ماري آن وقالت ماري آن أنها لاتستطيع أن تفكر في كل شيء . وعادت مسرعة إلى المنزل لتحضر البيضة، وقامت السيدة كاري بضرب البيضة مع شراب الشيري في كوب ابتلعها القس دفعة واحدة . ووضع طبق الخبز الرباني في العربة التي مضت في طريقه إلى الكنيسة.

جاءت العربة من «الأسد الأحمر» وكانت بها رائحة قش عفنة . «مضت العربة في طريقها ونافذتاها مغلقتان حتى لا يصاب القس بالبرد». كان حافظ غرفة المقدسات ينتظر في الشرفة لكي يحمل طبق الخبز الرباني وبينما اتجه القس إلى غرفة اجتماعات مجلس الكنيسة جلس فيليب والسيدة كاري في مقصورة مقر القس . ووضعت السيدة كاري أمامها قطعة نقود من فئة البنسات الست التي اعتادت أن تضعها في الطبق وأعطت فيليب قطعة الثلاث بنسات لنفس الغرض . وبدأت الكنيسة تزدحم بالتدريج وبدأت الصلاة .

شعر فيليب بالملل أثناء العظة التي كان القس يلقيها ولكنه عندما كان يتململ كانت السيدة كاري تضع يدها برقة علي ذراعه وتنظر إليه نظرة عتاب . واستعاد فيليب اهتمامه بعد أن انتهت التراتيل ومر السيد جريفز على الحاضرين بالطبق .

وبعد أن غادر الجميع الكنيسة ذهبت السيدة كاري إلي مقصورة الآنسة جريفز لكي تتبادل معها بعض الحديث بينما كانوا ينتظرون الرجال وذهب فيليب إلى حجرة الاجتماعات. وكان

راعي الأبرشية والسيد جريفز ما زالا في ردائهما الكهنوتي الأبيض. وأعطاه السيد كاري باقي الخبز المقدس وقال له أنه يمكنه أن يأكله . وكان معتادا على أن يأكله هو بنفسه لأ يعتقد أنه من الكفر التخلص منه بطريقة أخرى ، وقد وجد أن شهية فيليب المفتوحة قد أعفت من هذا الواجب . ثم راحوا يحصون النقود . كانت قطعا من البنسات والست بنسات. وكا هناك دائما بين النقود شلنان أحدهما يضعه في الطبق القس والثاني السيد جريفز وأحيا كان يوجد بين النقود فلورين (عملة هولندية) وقد قال السيد جريفز للقس من الذي وض هذه العملة . كان من يضعها دائما غريبا على بلاكستابل ، وتساءل السيد كاري من هو ولكن الآنسة جريفز لاحظت التصرف المتهور واستطاعت أن تقول للسيد كاري أن الغري الذي وضع الفلورين جاء من لندن ومتزوج ولديه أطفال. وأثناء رحلة العودة إلى المنزل نقل السيدة كاري هذه المعلومات إلى الآخرين، وقرر القس أن يزور الغريب ويطلب منه التبر للجمعية الإضافية لرعاة الأبرشية .

وسأل السيد كاري ما إذا كان فيليب قد سلك سلوكا حسنا؛ ولاحظت السيدة كاري أ السيدة ويجهام زوجة الطبيب كانت ترتدى عباءة جديدة، ولم يكن السيد كوكس في الكنيس واعتقد أحدهم أن الآنسة فيليبس قد خُطبت . وعندما وصلوا إلى بيت القس أحسوا جميعا أنه يستحقون عشاء دسما .

وبعد أن انتهي العشاء ذهبت السيدة كاري إلي حجرتها لتستريح ، واستلقى السيد كار علي الأريكة في حجرة المعيشة كي يغفو قليلا .

وتناولوا الشاي في الساعة الخامسة ، وأكل القس بيضة ليقوى نفسه من أجل تراتي المساء . وفي المساء ذهب السيد كاري إلي الكنيسة سيرا على الأقدام وسار فيليب بجانبه وه يعرج . وقد أثر فيه بشكل غريب السير عبر القرية في ظلمة المساء . وبدت الكنيسة بك أضوائها من بعيد وهي تقترب منهم بالتدريج وكأنها كائن ودود جدا . كان فيليب في البدا خجولا مع عمه غير أنه بدأ رويدا يألفه، وكان يدس يده بين يدي عمه ويسير بمزيد من الي شاعرا بطمأنينة الحماية .

وعندما عادا إلي المنزل تناولا عشاء متأخرا .وكان خفا السيد كارى ينتظره على مسن للقدمين أمام المدفأة وبجانبها خفي فيليب . وكان يشعر أنه مرهق إرهاقا شديدا عندما صع إلى فراشه فلم يبد أي مقاومة عندما بدأت مارى تخلع عنه ملابسه ليرتدي ثوب النوم وبعدها قبلته وبدأ يشعر بالحب نحوها .

●●●

وكان فيليب يحيا دائما حياة الوحدة ككل طفل وحيد . ولم تكن وحدته في منزل القس أسوأ منها عندما كانت أمه على قيد الحياة . وعقد عرى الصداقة مع مارى آن . وكانت مارى آن عانسا في الخامسة والثلاثين صغيرة الجسم . وكانت ابنة أحد صيادي السمك، وقد عملت في منزل القس منذ أن كانت في الثامنة عشرة من عمرها ، وكان منزل القس أول مكان عملت فيه ، ولم تكن تنوى أن تتركه على الإطلاق .. ولكنها كانت تتحدث دائما عن احتمال زواجها، حتى تحتفظ لنفسها بخط الرجعة من تحكم سيدها وسيدتها ، أما أبواها فكانا يعيشان في منزل صغير بالقرب من شارع الميناء . وكانت تذهب لزيارتهما كلما خرجت في المساء، وقد ألهبت أقاصيصها عن البحر خيال فيليب.. وأضحت الأزقة في حي الميناء الصغير مجالا متسعا للمغامرات التي صورها له خياله ، وسألت في إحدى الأمسيات هل في استطاعتها أن تصحبه إلى منزلها.. ولكن عمته لويزا كانت تخشى عليه من أن يصاب بشيء أو يمرض.. وقال القس إن الاتصال بالأشرار يفسد الخلق الحميد فقد كان يبغض مجتمع الصيادين ، وذلك المجتمع الفظ ، الذي يذهب بالرغم من فساد خلقه إلى الكنيسة ويصلى . ولكن فيليب كان يشعر بالارتياح عندما يجلس في المطبخ ، وهو شعور لم يكن يحس به عند جلوسه في غرفة الطعام . فكان يحمل معه لعبه إلى المطبخ ليلعب هناك كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولم تأسف عمته لهذا. إنها لا تحب الفوضى ، وقد أدركت أن الصبية غالبا ما يتوقع منهم أن يكونوا عديمي النظام فارتضت أن يقوم فيليب بقلب النظام في المطبخ .. ومن ناحية أخرى ، كانت العمة لويزا تخشى أن يحدث فيليب شيئا من الضجيج يقلق عمه الذي كان يضجر بسهولة ، وكانت تخشى أن يبعث به إلى المدرسة لأنها ترى أن فيليب مازال صغيرا ، ولايمكنه الذهاب إلى المدارس وكانت تشعر بقلبها ينجذب نحو الطفل، ولكن محاولاتها لكسب عاطفته ورضائه كانت سمجة غير موفقة. وكان فيليب يشعر بالخجل منها ، ويتلقى تعليماتها في عبوس شديد مما كان ينغص عليها حياتها كثيرا . وأحيانا ، كانت تسمع صوته وهو يضحك مجلجلا في المطبخ فإذا ما دخلت عليه صمت فجأة ، ثم صعد الدم إلى وجهه غزيرا عندما تبدأ مارى آن تقص على السيدة كاري الفكاهة التي أضحكته . ولم تكن السيدة كاري ترى فيما تسمعه شيئا مثيرا للضحك أو مسليا، فكانت تبتسم على كره منها. ولما عادت العمة لويزا إلى تطريز الثوب الذي في يدها قالت:

– إنه يبدو أسعد مع مارى آن يا وليام أكثر مما هو معنا .

– ألم يتضح لك إنه سيئ التربية .. إنه في حاجة إلي التأديب حتى يحسن سلوكه.

وحدث في يوم الأحد التالي بعد أن وصل فيليب حادث مشئوم . ذلك أن السيد كارى، ذهب إلى حجرة الاستقبال ليغفو فيها قليلا كعادته بعد أن يتناول الغداء في يوم الأحد، ولكنه كان في حالة شديدة من الضيق ، ولم يستطع النوم. وكان جوسيا جريفز في صباح ذلك اليوم قد عارضه معارضة شديدة في تزيين مذبح الكنيسة ببعض الشمعدانات التي كان السيد كاري

قد اشتراها قديمة من بلدة تير كانبرى ، وكان يعتقد أنها جميلة جدا. ولكن جوسيا جريفز قال إنها تبدو من الطراز الكاثوليكي ، وكانت هذه السخرية تثير القس على الدوام. ذلك أنه كان في أكسفورد عندما شبت الحركة التي انتهت بالانفصال عن كنيسة إدوارد ماننج ، وكان يشعر بشيء من التعاطف مع كنيسة روما . وكان يرضيه أن يجعل من طقوس صلاة الأحد شيئا أكثر بهجة و تنميقا مما تعود أن يراه في كنيسة أبرشية بلاكستابل. وكان يتوق من أعماق نفسه إلى الموكب ذي الشموع المضاءة في الكنيسة. وكان يرسم علامة الصليب كلما انطلق البخور و يمقت كلمة بروتستانت و يطلق على نفسه اسم كاثوليكي. و اعتاد أن يقول إن الذين يتبعون البابا لا بد لهم من لقب، فهم كاثوليك ومان ولكن الكنيسة البريطانية كنيسة كاثوليكية بخير ما تحمله هذه الكلمة من معان وأكملها و أنبلها. و كان السيد كارى يغتبط كلما تبادر إلى ذهنه أن لحيته الحليقة النظيفة، تضفي عليه مظهر القساوسة. و كانت تبدو على القس في شبابه هيئة الناسك أو المتقشف مما زاد من وقع مظهره هذا. و كثيرا ما كان يروي أنه عندما كان في بولونيا في إجازة من تلك الإجازات التي لم تصحبه فيها زوجته اقتصادا في النفقة ، قدم إليه نائب القس أثناء جلوسه في الكنيسة و دعاه إلى إلقاء عظة. لقد فصل السيد كارى نوابه في الكنيسة عندما تزوجوا لأنه كانت له آراء ثابتة مقررة عن وجوب بقاء رجال الدين غير ذوى المرتبات عزابا . ولكنه عندما كتب الأحرار على سور حديقة الكنيسة باللون الأزرق بحروف كبيرة «هذا الطريق يؤدى إلي روما» هدد بمقاضاة زعماء حزب الأحرار في بلاكستابل. وقد قرر الآن أنه مهما فعل جوسيا جريفز فإن ذلك لن يقنعه بإبعاد الشمعدانات عن مذبح الكنيسة ، ونطق في سره باسم بسمارك مرة أو مرتين وهو غاضب.

ووصل إلى مسمعه فجأة ضجيج غير متوقع فأزاح المنديل عن وجهه ونهض من الأريكة التي كان يستلقي عليها وقصد من فوره إلى حجرة الطعام .

وكان فيليب يجلس على الخوان وقد تناثر حوله عدد كبير من مكعبات لعبته . ذلك أنه بنى منها قلعة ضخمة. ولكن بعض الخطأ في أساسها تسبب في سقوط البناء الشامخ وتناثره وأحدث ذلك ضجيجا أفزع القس منه. وصاح :

– ماذا تفعل بهذه المكعبات يا فيليب ؟ ألا تعرف أنك ممنوع من اللعب يوم الأحد؟ فحملق فيليب في القس لحظة بعينين ملؤهما الخوف وتصاعد الدم إلى وجنتيه بغزارة كعادته وقال :

– لقد اعتدت دائما أن العب هكذا في المنزل .

– إني متأكد أن أمك العزيزة لم تكن تسمح لك أبدا أن تأتي عملا شريرا مثل هذا .

ولم يكن فيليب يعرف أن ما فعله كان عملا شريرا . ولكن إذا كان الأمر كذلك فإنه لا يريد أن يعزى إلي أمه أنها كانت تسمح له به وأحنى رأسه دون أن يحير جوابا . ولكن القس

استرسل في غضبه قائلا:

– ألا تعلم أن اللعب يوم الأحد يعد عملا شريرا للغاية. و إلا فكيف تفسر قولهم أن هذا اليوم هو يوم الراحة؟ إنك ستذهب إلى الكنيسة في المساء فكيف تواجه خالقك إذا كنت قد عصيت أوامره بعد ظهر اليوم نفسه؟

و أمره السيد كاري أن يبعد المكعبات التي يلعب بها في الحال ووقف يراقبه حتى انتهى فيليب من إبعادها .. ثم قال:

– إنك طفل شرير للغاية .. تخيل الآن ما سببته من أحزان و أسى لأمك المسكينة التي في السماء ..

و شعر فيليب برغبة في البكاء و لكنه كان بطبعه يميل إلى إخفاء دموعه عن الآخرين. ولذا عض على أسنانه حتى لا يسترسل مرغما في النحيب و جلس السيد كاري في مقعده، و بدأ يقلب صفحات كتاب في يده . ووقف فيليب أمام النافذة .

و كان منزل القس في الطرف الآخر من الطريق الذي يؤدى إلى تير كانبرى.

ومن نافذة الحجرة يطل المرء على خميلة نصف دائرية تليها الحقول الخضراء التي تتعانق أطرافها مع الأفق البعيد . وكانت الضأن ترعى في هذه الحقول و السماء تبدو معتمة موحشة، وشعر فيليب بتعاسة لا حد لها. وفي هذه اللحظة دخلت مارى آن لتقدم الشاي، وهبطت العمة لويزا الدرج و قالت :

– هل استمتعت بإغفاءة قصيرة لطيفة يا وليم؟

فأجاب القس :

– أبدا.. لقد أثار فيليب ضوضاء شديدة فلم يغمض لي جفن!

ولم يكن هذا الكلام دقيقا لأن القس لم تقلقه إلا أفكاره. و تذكر فيليب وهو يستمع إليه أنه لم يحدث ضجة إلا مرة واحدة و لم يدر لأي سبب منع عمه من النوم قبل هذه الضجة أو بعدها وعندما طلبت السيدة كاري تفسيرا لهذا سرد القس الحقائق و أنهى حديثه قائلا:

– و بالرغم من هذا فإنه لم يقل حتى أنه آسف.

وقالت السيدة كاري وهي تخشى أن يبدو الطفل لعمه أكثر خبثا مما ينبغي:

– إني واثقة أنك آسف لما فعلته يا فيليب.

ولم يجب فيليب بل استمر في التهام ما أمامه من خبز وزبد، ولم يدرك فيليب أية قوة قد حالت بينه وبين أن يعتذر للقس ، وأحس بطنين في أذنيه و شعر بميل إلى البكاء و لكن شفتيه لم تنفرجا عن شيء ، و قال السيد كارى:

– أرجو ألا تزيد الأمر سوءا بعبوسك هذا.

ثم انتهى الجميع من تناول الشاي في سكون . و أخذت السيدة كاري تنظر خلسة من آ[خر] لآخر إلى فيليب، و لكن القس تجاهله كل التجاهل .

وعندما رأى الصغير أن عمه صعد إلى الطابق الأعلى لكي يستعد للذهاب إلي الكنيسة خرج إلى الردهة و تناول معطفه و قبعته و لكن القس عندما هبط الدرج و رآه بادره قائلا:

– إني لا أريد أن تذهب إلى الكنيسة الليلة يا فيليب لأني أعتقد أنك لست في حال من صفاء الذهن تسمح لك بدخول بيت الله.

و لم تنبس شفتاه بكلمة واحدة، و شعر بالمهانة الشديدة التي لحقت به، فاحمرت وجنتاه ووقف في صمت ينظر إلي عمه و هو يضع قبعته العريضة فوق رأسه، و يتلفع بعباءته الضخمة. و أسرعت السيدة كاري إلي الباب لتودع زوجها كعادتها ثم عادت إلى فيليب وقالت له :

– لا عليك يا فيليب . إنك لن تعود إلى شقاوتك يوم الأحد القادم أليس كذلك؟ فان فعلت فسيصحبك عمك معه إلي الكنيسة في المساء، ثم خلعت عنه قبعته ومعطفه وسارت معه إلى حجرة الطعام ، و هي تقول :

– ألا تحب أن نتلو معا الصلوات يا فيليب ، ثم نغنى النشيد بمصاحبة الأرغن ؟

وهز فيليب رأسه في إصرار ، و بهتت السيدة كاري فإنها لم تكن تدرى ما تفعل به إذا لم يتلُ معها صلاة المساء ، و أخيرا سألته و قد نفذت حيلتها :

– إذا ماذا تريد أن تفعل حتى يعود عمك ؟

و أخيرا خرج فيليب عن صمته و قال :

– أريد أن تتركيني وحدي .

– فيليب .. كيف تقول كلاما بمثل هذه القسوة .. ألا تعرف أنى أنا و عمك لا نريد إلا مصلحتك ، ألا تحبني إطلاقا؟

– إني أكرهك .. و أتمنى أن تكوني في عداد الأموات!

وشهقت السيدة كارى، لقد قال فيليب هذه الكلمات في قسوة و عنف حتى أنها فوجئت بهما أشد المفاجأة و لم تعرف ماذا تقول له.. فجلست في مقعد زوجها ، و راحت تفكر فيما تريده من إظهار حبها لهذا الصبي المعوق الذي لا صديق له و تلك الرغبة الشديدة التي تجتاحها في أن تجعله يبادلها هذا الحب فقد كانت السيدة كاري عاقرا، وبالرغم من أن إرادة الله هي التي حرستها من الأطفال ، فإنها كلما رأت طفلا شعرت بقلبها يعتصره الأسى والألم .. و بينما هي تفكر في كل هذا ، ترقرقت الدموع في عينيها وانحدرت على وجنتيها

إثر واحدة ، و أخذ فيليب يراقبها في ذهول و أخذت هي منديلها ثم أسلمت نفسها للبكاء .. و أدرك فيليب فجأة أن ما قاله هو سبب بكائها ، فشعر بالندم و ذهب إليها في سكون وقبلها .. و كانت تلك هي المرة الأولى التي يقبلها فيها دون أن تطلب إليه ذلك ، و بدت المرأة المسكينة في ذلك الوقت صغيرة في ردائها الأسود و شعرها المضحك الملتوي . و أخذت الطفل و أجلسته في حجرها و أحاطته بذراعيها وراحت تنتحب باكية و قلبها يكاد ينفطر ، و لكن دموعها امتزجت بشعور من السعادة لأنها أحست بأن الفرقة قد زالت بينهما ، و شعرت نحوه الآن بحب جديد لأنه جعلها تتعذب .

●●●

وفي يوم الأحد التالي كان القس يستعد للذهاب إلى حجرة المعيشة من أجل إغفاءة قصيرة – كل تصرفات زوجته كانت تتم وكأنها احتفالات – وكانت السيدة كاري تستعد للصعود إلى الدور العلوي ، وقال فيليب :

– ماذا سأفعل إذا لم يكن يسمح لي باللعب ؟

–ألا يمكن أن تجلس دون حراك مرة وتصمت ؟

– لا يمكن أن أجلس دون حركة حتى موعد تناول الشاي .

نظر السيد كارى إلى الخارج من النافذة ولكن الجو كان باردا ولا يمكنه أن يقترح على فيليب أن يذهب إلى الحديقة ويلعب هناك .

– أعرف ما يمكنك أن تفعله . يمكنك أن تحفظ عن ظهر قلب صلاة اليوم .

وأخذ من فوق الأرغن كتاب الصلوات الذي يستخدم للصلاة وقلب الصفحات حتى وصل إلى الصفحة التي يريدها .

– إذا استطعت أن تحفظها وتتلوها دون خطأ فسوف تحصل على طرف بيضتي .

حملت السيدة كاري المقعد الذي يجلس عليه فيليب ووضعته أمام منضدة الطعام – كانوا قد جاءوا إليه بمقعد أعلى – ووضعت الكتاب أمامه .

وقال السيد كارى:

– إن الشيطان يجد عملا للكسالي حتى يعملوا .

ووضع مزيدا من قطع الفحم في المدفأة حتى تكون هناك نار مبهجة عندما يعود لتناول الشاي ، وذهب إلى حجرة المعيشة . فك ياقة قميصه ورتب الوسائد ورقد في وضع مريح على

الأريكة . لما رأت السيدة كاري أن حجرة المعيشة قد تكون باردة بعض الشيء أتت ببطانية من الصالة ووضعتها فوق ساقيه وثنت نهايتها حول قدميه . وأسدلت الستائر حتى لا يؤذي الضوء عينيه ولما رأت أنه أغلق عيناه بالفعل تسللت على أطراف أصابعها خارجة من الحجرة . كان القس مستريحا نفسيا اليوم وفي عشر دقائق كان يغط في نوم عميق وارتفع شخيره الهادئ .

اليوم هو السادس بعد عيد الغطاس .وبدأت الصلاة بالكلمات التالية أيها الرب الذي ظهر ابنك المبارك كي يدمر أعمال الشيطان ويجعلنا أبناء الرب وورثة الحياة الأبدية

وقرأ فيليب الآية بدقة ولم يفهم منها شيئا . وبدأ يردد الكلمات بصوت عال لنفسه ولكنه لم يكن يعرف كثيرا منها وكان تركيب الجمل غريبا . ولم يبق في ذهنه أكثر من سطرين. وكان انتباهه يجول باستمرار في أشياء أخرى : هناك أشجار فاكهة عند حوائط الأبرشية، وأغصان طويلة تضرب سور النافذة من آن لآخر ؛ الأغنام ترعي بتبلد فيما وراء الحديقة . وبدا الأمر وكان هناك عقد في ذهنه . وانتابه الفزع لدرجة أنه لم يعد يعرف من الكلمات شيئا عندما حل موعد تناول الشاي وراح يهمس بها لنفسه بسرعة ؛ لم يحاول أن يفهم بل أن يرددها مثل الببغاء في ذاكرته .

لم تستطع السيدة كاري أن تنام بعد ظهر ذلك اليوم وفي الساعة الرابعة كانت مستيقظة تماما حتى أنها تركت غرفة النوم ونزلت إلى الدور السفلي . وفكرت في أنها سوف تسمع فيليب يتلو صلاته حتى لا يرتكب أي أخطاء عندما يتلوها أمام عمه . وسوف يغتبط عمه عندئذ إذ سيرى أن قلب الصبي موضوع في مكانه . ولكن عندما كانت السيدة كاري تقترب من حجرة الطعام وتوشك أن تدلف إلها وصل إلي أسماعها صوت جعلها تتوقف فجأة واضطرب قلبها قليلا فاستدارت وتسللت بهدوء خارجة من الباب الأمامي . وسارت حول المنزل متي وصلت إلى نافذة حجرة الطعام ونظرت من خلالها بحذر . كان فيليب ما يزال جالسا على المقعد الذي وضعته له أمام المنضدة ولكن رأسه كانت على المائدة مدفونة بين ذراعيه وكان يتنهد بشدة . ورأت الحركة المتشنجة لأكتافه . خافت السيدة كارى. فالشيء الذي كان يذهلها في هذا الطفل هو أنه كان يبدو متماسكا للغاية .فلم تره أبدا يبكي . والآن أدركت أن هدوءه هو خجل غريزي من إظهار مشاعره فقد خبأ نفسه لكي يبكي .

وبدون أن تفكر أن زوجها يكره أن يوقظه أحد من إغفاءته هرعت إلى غرفة النوم وصاحت قائلة : ويليام ويليام إن الصبي يبكي وكأن قلبه سينفطر . استقام السيد كاري في جلسته وأبعد الغطاء عن قدميه وقال :

– ما الذي يبكيه ؟

– لا أعرف ياويليام ولكننا لا ينبغي أن نجعل الطفل تعيسا . هل تعتقد أن هذا خطؤنا لو كان لدينا أطفال لعرفنا ماذا نفعل .

نظر السيد كارى إلى ها في ارتباك وشعر أنه عاجز عن فعل أي شيء بشكل غير طبيعي .

-إنه لا يمكن أن يبكي لأني أعطيته الصلاة كي يحفظها .. إنها ليست أكثر من عشرة أسطر.

– ألا تعتقد أني يجب أن أعطيه بعض الكتب المصورة كي يتفرج علي الصور يا ويليام . هناك صُور للأرض المقدسة وليس هناك خطأ في ذلك .

– وهو كذلك .. أنا لا أمانع .

وذهبت السيدة كارى إلى حجرة المكتب. إن جمع الكتب كان هو الغرام الوحيد للسيد كارى .. فلم يحدث أن ذهب إلى كانتربيرى دون أن يقضي ساعة أو ساعتين في المكتبة التي تبيع الكتب القديمة ؛ وكان دائما يعود حاملا أربعة أو خمسة مجلدات ضخمة . ولم يقرأها أبدا لأنه فقد منذ زمن طويل عادة القراءة ولكنه كان يحب أن يقلب الصفحات وينظر إلى الصور إذا كانت الكتب مصورة وكان يحافظ علي تجليدها . كان يرحب بالأيام التي تتساقط فيها الأمطار لأنه كان يستطيع أن يمكث بالمنزل دون تأنيب من ضميره ويقضي بعد الظهر مع بياض بيضه ووعاء من الصمغ يصلح بهما الغلاف الخارجي المصنوع من الجلد الروسي لكتب تكون أغلفتها في حالة سيئة . وكانت لديه كتب كثيرة عن الأسفار القديمة ووجدت السيدة كارى بسرعة كتابين يصوران فلسطين. وتعمدت أن تسعل عند الباب حتى تتيح لفيليب الفرصة كي يعدل من وضعه ؛ فقد شعرت أنه قد يحس بالامتهان إذا دخلت عليه وهو في وسط بكائه . وتعمدت أن يصدر صوتا وهي تفتح الباب من مزلاجه . وعندما دخلت الحجرة كان فيليب منكبا علي كتاب الصلوات يخفي عينيه بيديه حتى لا تلاحظ السيدة كارى أنه كان يبكي .

وقالت السيدة كارى : هل تعرف الصلاة الآن ؟

توقف فيليب لحظة عن الرد عليها ، وشعرت أنه لم يستطع أن يسيطر على صوته . وأحست بالحرج بشكل غريب. وقال فيليب أخيرا وهو يتنهد :

– لا أستطيع أن أحفظها عن ظهر قلب .

– وهو كذلك .. لا تهتم .. أنت لا تحتاج إلى حفظها عن ظهر قلب . لقد جئت ببعض الكتب المصورة لك لكي تطلع عليها . تعال واجلس إلى جانبي وسوف نشاهد الصور معا. وانزلق فيليب من على مقعده وسار وهو يعرج نحوها . وكان ينظر إلي الأرض حتى لاترى عينيه وأحاطته بذراعها . وقالت له :

– انظر .. هذا هو المكان الذي ولد فيه أبونا المبارك .

أطلعته علي صورة مدينة شرقية فيها منازل ذات أسطح منبسطة، وقباب، ومدائن. وفي المنطقة الأمامية كانت هناك مجموعة من النخيل وتحتها اثنان من الأعراب وبعض الجمال. ومر فيليب بيده على الصورة وكأنه يريد أن يستشعر المنازل وبملابس البدو الفضفاضة .

وقال لها : اقرئي ما تقوله الصورة .

وقرأت السيدة كارى بصوتها الهادئ الصفحة المقابلة في الكتاب . كان الكتاب عبارة عـ قصة خيالية لرجل شرقي مسافر في الثلاثينيات . قد يكون مبالغ فيها لكنها معبأ بالمشاعر التي جاء بها الشرق إلى الجيل الذي أعقب بايرون وشاتوبريان . وبعد قليل قاطعها فيليب قائلا :

-أريد أن أرى صورة أخرى .

وعندما دخلت مارى آن ونهضت السيدة كارى كي تساعدها في فرد الملاءات على الفراش، أخذ فيليب الكتاب بين يديه وأسرع يقلب صفحاته ليشاهد الصور. وبصعوبة أقنعته السيدة كارى أن يترك الكتاب لتناول الشاي. وكان قد نسي صراعه لكي يحفظ الصلاة عن ظهر قلب؛ ونسي دموعه . وكان اليوم التالي ممطرا وطلب أن يرى الكتاب مرة أخرى . وأعطته السيدة كارى الكتاب وهي مسرورة . وقد وجدت وهي تتكلم مع عمه عن مستقبله أن كليهما هي وعمه يرغبان في أن يصبح فيليب كاهنا وكان شوقه ليطلع على الكتاب الذي يصف أماكن أصبحت مقدسة بوجود المسيح فيها دليلا طيبا علي ذلك. وكان يبدو وكأن الصبي متجه اتجاها طبيعيا نحو الأمور المقدسة ولكنه بعد يوم أو اثنين طلب مزيدا من الكتب. وصحبه السيد كارى إلى غرفة المكتب وأشار علي الرف الذي يحمل الكتب المصورة واختار له كتابا عن روما . وأخذه فيليب بنهم . كانت الصور طريقا جديدا للتسلية. وبدأ يقرأ الصفحات التي تسبق كل صورة والتي تليها لكي يعرف كل شيء عن الصورة ، وسرعان ما فقد اهتمامه بلعبه .

وبعدئذ عندما كان لا يجد أحدا قريبا منه كان يأخذ الكتب بنفسه ، ولعله لأن أول انطباع في ذهنه جاء من مدينة شرقية فقد وجد تسليته الرئيسية في تلك الكتب التي كانت تتحدث عن الشرق . كان قلبه يدق جزلا عندما يرى صور المساجد والأماكن الثرية وكانت هناك صورة في كتاب عن القسطنطينية ألهبت خياله بطريقة غريبة . كان اسم الصورة قاعة الألف عمود . كانت حوضا بيزنطيا أضفي عليه الخيال الشعبي اتساعا خرافيا وقالت الأسطورة التي قرأها أنه كان هناك دائما قاربا مربوطا دائما عند مدخل الحوض لإغراء المتهورين بركوب المخاطر . ولكن لم يحدث أبدا أن شوهد مرة أخرى أي مسافر خاطر بدخول الظلمة . وتعجب فيليب ما إذا كان القارب يسبح إلى الأبد من ممر ذي أعمدة إلى ممر آخر أو يصل في النهاية إلى قصر غريب.

وفي يوم من الأيام حدث له حادث طريف ، إذ تصادف أن وجد ترجمة المترجم «لين» لكتاب ألف ليلة وليلة . وفي أول الأمر جذبت انتباهه الصور ثم بدأ بعد ذلك يقرأ الكتاب قرأ قصصا في الكتاب عن السحر ثم قصصا أخرى وراح يقرأ القصص التي يحبها مرة تلو الأخرى . ولم يستطع أن يفكر في شيء آخر . ونسي الحياة من حوله . وكان ينادى عليه مرتين

مرات قبل أن يذهب لتناول العشاء . وبدون وعي خلق لنفسه ألذ العادات في العالم ؛ القراءة : ولم يكن يعرف أنه بذلك قد خلق لنفسه ملجأ من محن الحياة. ولم يكن يعرف أيضا أنه كان يخلق لنفسه عالما غير حقيقي من شأنه أن يجعل العالم الحقيقي لكل يوم خيبة أمل مريرة. وفي ذلك الوقت بدأ يقرأ أشياء أخرى وكان ذهنه ناضجا في وقت مبكر. ولما رأي عمه وزوجته أنه شغل نفسه ولم يعد قلقا أو مثيرا للضوضاء فقد توقفا عن مضايقته . وكان لدى السيد كارى كتبا كثيرة لدرجة أنه لم يكن يعرفها ولما كان يقرأ قليلا فقد نسي الكتب الغريبة التي اشتراها ذات مرة وغيرها لأنها كانت رديئة . ويتصادف أن يكون بين كتب الصلوات والمواعظ الدينية والأسفار وحياة القديسين ورجال الكنيسة وتاريخ الكنيسة روايات قديمة فات وقتها وقد اكتشف فيليب على الأقل وجود تلك الروايات . وكان يختارها حسب عناوينها وكانت أول رواية قرأها هي رواية «ساحرات لانكشير» ثم قرأ كتاب «كرايتون العجيب» ثم قرأ غيرها كثير .

وجاء الصيف وصنع له البستاني، وهو بحار عجوز ، أرجوحة شبكية وثبتها بين فرعين قويين لشجرتي صفصاف . وعلي هذه الأرجوحة كان يرقد ساعات طويلة بعيدا عن أعين من يزورون الأبرشية يقرأ ويقرأ بشغف كبير . ومر الوقت وجاء شهر يوليو ثم شهر أغسطس : وفي أيام الأحد كانت الكنيسة تمتلئ بأناس غرباء وكان مجموع الصدقات يصل إلى جنيهين . ولم يكن القس ولا السيدة كارى يخرجان من الحديقة كثيرا في ذلك الوقت ؛ فكانا لا يستطيبان الوجوه الغريبة وكانا ينظران إلي الزائرين القادمين من لندن بنوع من البغض . وقد أجر المنزل المواجه لمنزل القس لمدة ستة أسابيع رجل له ولدين صغيرين وقد بعث إلى عائلة كارى يطلب إليهم ما إذا كان فيليب يستطيع أن يلعب مع ولديه غير أن السيدة كارى ردت رافضة بأدب. كانت تخاف على فيليب أن يفسده الصغيران الجدد القادمان من لندن . ففيليب سوف يصبح من رجال الكنيسة ومن الضروري أن يبقي بعيدا عن التلوث .

●●●

قررت أسرة كارى أن تبعث بفيليب إلى مدرسة كنجز في تيركانبرى لأن جيرانهم من رجال الدين في الكنيسة يرسلون أولادهم إلى هذه المدرسة. وكانت المدرسة تربطها روابط قديمة بالكنيسة فناظرها الحالي كاهن فخري و ناظرها السابق هو رئيس الشمامسة في الكنيسة .. و كانت المدرسة تشجع الأطفال على أن يكونوا فيما بعد من رجال الدين و كان التعليم فيها من ذلك النوع الذي يعد الفتى ليكون شريفا يقضى حياته في خدمة الله ، و ألحقت بالمدرسة مدرسة إعدادية هي التي اتفق على أن يلتحق بها فيليب .

و بعد ظهر أحد أيام الخميس اصطحب القس فيليب إلى تيركانبرى ،و كان ذلك في نهاية

شهر سبتمبر ، وقد ظل فيليب القلق طوال اليوم مضطربا بل خائفا ، ذلك لأنه لم يكن يعرف إلا القليل عن حياة المدرسة مما قرأه في الحكايات في صحيفة الصبي الخاصة وكان قد قرأ أيضا زايريكس.

و عندما نزلا من القطار في تيركانبرى شعر فيليب بكثير من الخوف و جلس وهو في طريقه إلى المدرسة فى العربة صامتا شاحب الوجه . و بدت له المدرسة بسورها الحجري العالي كأنها أحد السجون . و كان في هذا السور باب صغير فتح عندما دق الجرس، وخرج منه رجل قذر يهرول و حمل حقيبة ملابس فيليب و صندوق لعبه إلي المدرسة. وأدخل الاثنان إلى قاعة الاستقبال و كانت القاعة مملوءة بأثاث ضخم قبيح المنظر وقد رصت فيها المقاعد ملتصقة بالحائط في جمود شديد منفر .. و جلسا ينتظران ناظر المدرسة .

وبعد قليل سأل فيليب كيف يبدو السيد واتسون فأجاب عمه :

– سترى ذلك بنفسك عما قليل .

و سادت المكان فترة سكون أخرى و تعجب السيد كار ي خلالها من تأخر الناظر ، و بذل فيليب في تلك اللحظة جهدا ليقول لعمه :

– –قل له أن لي قدم حنفاء .

و قبل أن ينطق السيد كارى بكلمة واحدة ، انفتح الباب على مضراعيه و دخل السيد واتسون كأنه يكتسح الحجرة أمامه .

وبدا السيد واتسون لفيليب عملاقا ضخما ، فقد كان طوله يزيد على ستة أقدام عريض المنكبين، له يدان كبيرتان ، و لحية حمراء صهباء ضخمة وتكلم في مرح وفي صوت مرتفع، ولكن كانت هناك مسحة عدوانية بدت في بشاشة الناظر ، بعثت الرعب والرهبة في قلب فيليب، و صافح الناظر السيد كارى ثم أخذ يد فيليب الصغيرة في يده وصاح قائلا :

– أيها الفتى الصغير ؛ هل أنت سعيد بدخولك المدرسة ؟

فاحمر وجه فيليب و لم يجد كلمة يرد بها .

– كم سنك؟

– تسع سنوات.

و هنا قال عمه موجها كلامه إلى فيليب :

– يجب أن تخاطب الناظر قائلا يا سيدي .

و صاح الناظر في مرح :

– يبدو أن هناك أشياء كثيرة جدا عليك أن تتعلمها .

و أراد أن يبعث الثقة في نفس الطفل فبدأ يداعبه بأصابعه الخشنة و لكن فيليب انكمش وهو يشعر بعدم الارتياح لمداعبته .

– لقد وضعته مؤقتا في عنبر النوم الصغير ؛ (ثم وجه كلامه لفيليب) هل سيرضيك هذا؟ .. أنتم ثمانية في العنبر فقط و لن تشعر بالوحدة .

ثم فتح الباب مرة أخرى و دخلت السيدة واتسون . كانت امرأة سمراء ذات شعر أسود مصفف بعناية، و فرق عند منتصف رأسها ، و لها شفتان غليظتان و أنف صغير مستدير وعينان سوداوان واسعتان واكتسى مظهرها ببرود غريب. وكان كلامها نادرا وابتساماتها أكثر ندرة ، و قدم زوجها إليها السيد كارى ثم دفع فيليب بلطف نحوها قائلا:

– هذا تلميذ جديد يا هلين .. اسمه كارى .

صافحته دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ثم جلست صامتة و أخذ الناظر يسأل السيد كارى عن القدر الذي يعرفه فيليب من العلوم و عن الكتب التي كان يدرسها .

وارتبك قس بلاكستابل قليلا لبشاشة الناظر الصاخبة و هم واقفا بعد لحظة و قال:

– أعتقد أنه من الأفضل أن أترك فيليب معك الآن .

– و هو كذلك أنه سيكون في أمان معي ، و سيتقدم بسرعة كالبيت الذي تشب فيه النيران .. أليس كذلك أيها الفتى الصغير؟

و انفجر الرجل ضاحكا دون أن ينتظر إجابة من فيليب الذي قبله السيد كارى على جبهته ثم رحل ، و صاح السيد واتسون:

– أيها الفتى الصغير تعال معي لتشاهد بناء المدرسة .

و خرج من الحجرة في خطوات جبارة ، و أسرع فيليب خلفه و هو يعرج و دخلا حجرة طويلة عارية بها منضدتان ، امتدتا على طول الحجرة و قد صف على جانب كلا منهما عدد من المقاعد الخشبية و قال السيد واتسون :

– لا يوجد كثير من التلاميذ الآن ، و سأريك فناء المدرسة و ملاعبها ، ثم أتركك لتتنقل بنفسك فيها كما تشاء .

وسار السيد واتسون أمامه ليريه الطريق ، ووجد فيليب نفسه في فناء واسع أقيمت على ثلاثة من جوانبه حوائط مرتفعة من الآجر ، و في الجانب الرابع سور من الحديد ترى من خلاله خميلة فسيحة وارتفعت عند نهايته بعض مباني مدرسة كنجز. و رأى فيليب صبيا واحدا صغيرا يتجول في الفناء و قد بدا عليه الاكتئاب ، و راح يركل الحصى في أثناء سيره وصاح السيد واتسون :

– أهلا يا فيننج .. متى عدت؟

وتقدم الصبي الصغير إلى الناظر و شد على يده محييا .. و أشار الناظر إلى فيليب قائلا

– صبي جديد هنا ، إنه أكبر منك سنا و حجما فلا تحاول أن تشاكسه .

و نظر إليهما الناظر نظرة ودية، و لكنهما شعرا بالرعب من هدير صوته، ثم تركهما و هو يقهقه عاليا و عندئذ قال الصبي لفيليب :

– ما اسمك؟

– كاري.

– ماذا يعمل أبوك؟

– لقد مات أبي.

– و هل تعمل أمك غسالة؟

– لقد ماتت أمي أيضا .

وظن فيليب أن إجابته هذه ستحرج الصبي قليلا ، و لكن فيننج لم يكن يكف عن مزاحه

– و لكن هل كانت أمك تغسل؟

و قال فيليب و قد بدا عليه الغضب:

– نعم.

– لقد كانت غسالة إذن.

– لا.. لم تكن غسالة .

– إذن فهي لم تغسل..

و تهلل الصبي من نشوة نجاحه في هذا الحوار ، ثم لمح قدمي فيليب فقال:

– ماذا بقدمك؟

و حاول فيليب بطريقة غريزية أن يخفي قدمه عن مرأى الصبي فوضعها خلف قدمه السليمة و قال:

– إن قدمي حنفاء .

– و كيف حدث ذلك؟

– لقد ولدت هكذا.

– دعني أراها...

– لا ...

– كما تشاء إذن .

وشفع الصبي كلماته هذه بركلة قوية على قصبة ساق فيليب لم يكن يتوقعها على الإطلاق فلم يستطع حماية نفسه منها و شعر بألم شديد جعله يلهث ، و لكن المفاجأة كانت أشد وقعا عليه من الألم ، و لم يدرك لماذا ركله فيننج، و لم يكن على استعداد لأن يرد له الضربة بين عينيه ، يضاف إلى هذا أن الصبي كان أصغر منه سنا ، وكان قد قرأ في مجلة الأطفال أن من الدناءة أن تضرب من هو أصغر منك .

بينما كان فيليب يتحسس عظم ساقه ، ظهر صبي ثالث ، فتركه فيننج الذي عذبه هذا العذاب. و لاحظ فيليب أن الاثنين أخذا يتبادلان الحديث عنه و راحا ينظران إلى قدمه فتضايق من ذلك و غلا الدم في عروقه . و لكنه رأى صبية آخرين بلغ عددهم اثني عشر سار بعضهم مع بعض ، ثم ظهر آخرون، و بدأوا يتحدثون عما فعلوه أثناء عطلتهم ، وأين كانوا، و عن لعبة «الكريكيت» التي لعبوها. ثم جاء صبية جدد قليلي العدد، و ما لبث فيليب أن وجد نفسه يتحدث مع هؤلاء . و كان فيليب خجولا عصبيا، و قد حاول جاهدا أن يجعل من نفسه شخصا لطيفا يشيع البهجة و السرور، ولكنه لم يستطع أن يجد شيئا يقوله ووجهوا إليه كثيرا من الأسئلة أجاب عنها جميعا و هو راض أتم الرضا..

و سأله أحد الصبية هل يستطيع أن يلعب «الكريكيت» فأجاب قائلا:

– لا.. إن قدمي حنفاء .

و نظر الصبي بسرعة إلى قدمه، و احمر وجهه خجلا، و لاحظ فيليب أن الصبي شعر بأنه سأل سؤالا لا يليق ، و كان من الخجل بحيث لم يستطع الاعتذار إليه و نظر إلى فيليب نظرة الشخص المحرج.

●●●

وفي صبيحة اليوم التالي عندما أيقظ الجرس فيليب من نومه نظر حوله في مهجعه في ذهول . ثم سمع صوتا وعندئذ تذكر أين هو .

– هل أنت صاح يا سنجر .

كانت القواطع التي تفصل بين أماكن النوم مصنوعة من خشب الصنوبر المعالج بالقار وقد أسدلت أمامها ستارة خضراء . وفي تلك الأيام لم يكن أحد يفكر كثيرا في التهوية ، وكانت نوافذ عنبر النوم تغلق ولا تفتح إلا في الصباح عندما يراد تهوية العنبر.

نهض فيليب من فراشه وانحني على ركبتيه ليتلو صلاته . كان صباحا باردا وأحس

برعدة قليلة . ولكن عمه علمه أن صلاته تكون أكثر قبولا للرب إذا تلاها في ثيابه الليلية إذا انتظر ليرتدي ملابسه العادية . ولم يدهشه هذا لأنه بدأ يدرك أنه من خلق إله يقدر عباده . ثم اغتسل. كان هناك حمامان فقط لخمسين من طلبة المدرسة الداخلية وكان [illegible] كل تلميذ أن يستحم مرة في الأسبوع . أما بقية اغتساله فقد كان يتم في حوض صغير [illegible] بالحائط يشكل هو وفراش ومقعد أساس حجرة معيشته. وكان الصبية يتحدثون بمرح [illegible] يرتدون ملابسهم. وكان فيليب كله آذانا مصغية. ثم رن جرس آخر وهرع التلاميذ [illegible] السلالم إلى الدور السفلي . وجلسوا على مقاعد خشبية رصت على جانبي مناضد طويلة [illegible] فصل المدرسة ودخل الفصل السيد واتسون تتبعه زوجته واتخذا مجلسيهما. وقرأ [illegible] واتسون الصلوات بطريقة مؤثرة وتكلم بصوت مثل الرعد وهو يتلو الابتهالات وكانت [illegible] أشبه بتهديدات موجهة منه شخصيا إلى كل صبي في المدرسة . واستمع فيليب إليه [illegible] منزعج. وبعد ذلك قرأ السيد واتسون فصلا من الإنجيل. وفي لحظات جاء حفنة من [illegible] الصبية المستهترين بوعاءين كبيرين من الشاي وفي رحلة ثانية جاءوا بأطباق مملوءة بالخبز والزبد.

كانت شهية فيليب شديدة الحساسية وسرعان ما قلبت شرائح الخبز والزبد الفقير أم[illegible] غير أنه رأى الصبية الآخرين يهجمون علي الأكل ففعل مثلهم . وقد تناولوا جميعا [illegible] مطبوخا في قدور وما شابه ذلك جاءوا به معهم في سلال خاصة وبعضهم تناول [illegible] إضافية أخرى مثل البيض ولحم الخنزير المقدد التي كان يقدمها السيد واتسون ويحقق [illegible] مكسبا . وعندما سأل السيد كارى هل يحب أن يتناول فيليب البيض واللحم قال السيد [illegible] أنه يعتقد أنه لا ينبغي إفساد الأولاد . ووافقه السيد واتسون علي ذلك تماما – فقد كان [illegible] أنه لا شيء أفضل للصبية أثناء نموهم من الخبز والزبد – غير أن بعض الآباء الذين [illegible] أولادهم بلا داع يصرون علي تقديم هذه الأطعمة الإضافية لهم.

ولاحظ فيليب أن تلك الأطعمة «الإضافية» تضفي على الصبية نوعا من الأهمية، [illegible] عندما يكتب إلى العمة لويزا أن يطلب منها أن توفرها له .

وبعد الإفطار بدأ الصبية يتجهون إلى فناء المدرسة. وهناك بدءوا يتجمعون بالت[illegible] كان منهم أبناء رجال الكنيسة وموظفي المخازن ورجال الأعمال الذين يقيمون في الم[illegible] القديمة. قرع الجرس في تلك اللحظات وتدفقوا جميعا إلى المدرسة. المدرسة عبارة عن [illegible] متسعة جدا يقوم عن طرفيها مساعدو مدربين بالتدريس للفصلين الثاني والثالث و[illegible] جانبية أصغر يستخدمها السيد واتسون الذي يدرس للفصل الأول. ولإلحاق المدر[illegible] الإعدادية بالمدرسة الثانوية فكانت هذه الفصول الثلاثة تعرف رسميا في أيام الخطب [illegible] التقارير بالفصول العليا والمتوسطة والثانية الأدنى وقد ألحق فيليب بالفصل الثاني الأ[illegible] وكان المدرس وهو رجل محمر الوجه صوته رخيم واسمه السيد رايس؛ وكانت له طر[illegible]

[illegible] الصبية . ومر الوقت بسرعة . ودهش فيليب عندما بلغت الساعة الحادية عشرة إلا [illegible] وسمح لهم بالخروج للراحة لمدة عشر دقائق .

اندفعت المدرسة كلها في ضجة صاخبة إلى الملعب. وطلب من التلاميذ الجدد أن يلزموا الوسط بينما يقف الآخرون عند حائطين متقابلين وراحوا يلعبون لعبة الخنزير في الوسط. كان التلاميذ القدامى يجرون من حائط إلى الآخر، بينما يحاول التلاميذ الجدد الإمساك بهم. وعندما يتم الإمساك بتلميذ ما تتردد الكلمات السحرية– واحد اثنين ثلاثة أمسكت بخنزير فيصبح أسيرا وبتغيير الجوانب يساعد ذلك على الإمساك بأولئك الذين ما زالوا أحرارا . ورأي فيليب صبيا يجرى نحوه يحاول الإمساك به وحاول أن يفر منه غير أن قدمه لم تعطه أية فرصة لذلك. وخطر لواحد من التلاميذ الذين كانوا يجرون في ذلك الوقت أن يقلد جري فيليب الأعرج ولا حظ تلاميذ آخرون ذلك وبدءوا يضحكون وراحوا جميعا يقلدون جري فيليب ويدورون حوله وهم يبالغون في العرج ويصرخون ويضحكون. وفقدوا عقولهم بالبهجة التي شعروا بها من تلك التسلية الجديدة . واختنقوا بمرح بائس. وتعثر فيليب وسقط على الأرض عندما اعترضه واحد من التلاميذ وأصيب بجرح في ركبته . وعلا صوت ضحكهم عندما نهض فيليب من عثرته . ودفعه أحدهم من الخلف وكان سيسقط مرة أخرى لو أن صبيا آخر أمسك به. ونسيت اللعبة التي كانوا يلعبونها في غمار التسلية بعجز فيليب وتشوهه . واخترع أحدهم طريقة غريبة للسير مثل صبي أعرج اعتبرها الآخرون قمة السخرية واستلقوا على الأرض يتمرغون عليها من كثرة الضحك : شعر فيليب بخوف شديد فلم يستطع أن يعرف لماذا يضحكون عليه. وراح قلبه يدق بسرعة حتى أنه كان يتنفس بصعوبة، وانتابه فزع لم ينتبه مثله أبدا من قبل. ووقف بغباوة ساكنا دون حراك والصبية يجرون حوله يقلدونه ويضحكون. وصرخوا فيه كي يحاول الإمساك بهم غير أنه لم يتحرك. لم يكن يريدهم يرونه بعد ذلك يهرب. واستعان بكل قوته ليمنع نفسه من البكاء .

وفجأة قرع الجرس وهرعوا جميعا عائدين إلى المدرسة. كانت ركبة فيليب ما زالت تنزف. وكان أشعثا مغبرا . وظل السيد رايس دقائق لا يستطيع السيطرة على الفصل. كان الصبية ما زالوا هائجين بسبب ما طرأ من أحداث جديدة ولاحظ فيليب أن بعضهم كان يحاول النظر إلى قدمه فأخفاها تحت التختة .

وذهب التلاميذ بعد الظهر ليلعبوا كرة القدم غير أن السيد واتسون أوقف فيليب وهو في طريقه إلي الخروج بعد تناول الغداء . وسأله :

– أعتقد أنك لا تستطيع أن تلعب كرة القدم يا كارى ؟

واحمر وجه فيليب وقال :

– لا يا سيدي .

[illegible] .. يمكنك أن تذهب إلى الملعب .. تستطيع السير إلى هناك . أليس كذلك

لم يكن فيليب يعرف أين الملعب ولكنه رد على أي حل قائلا :

–نعم يا سيدي .

واتجه التلاميذ إلي السيد رايس وتجمعوا حوله ولما رأي السيد رايس أن فيليب لن [illegible] ملابسه كي يلعب سأله لماذا لا يريد أن يلعب . فقال فيليب :

– السيد واتسون قال لي أنه ليس من الضروري أن ألعب يا سيدي .

– لماذا؟

كان التلاميذ يحكون به وينظرون إليه بفضول ، واجتاح فيليب شعور بالعار وال[illegible] فنظر بعينيه إلى الأرض ولم يجد جوابا . وأجاب آخرون :

–إن قدمه حنفاء يا سيدي .

– هكذا إذن .

كان السيد رايس شابا صغير السن، ولم يكن قد تخرج إلا منذ سنة ، وشعر فجأة بال[illegible] وكان يشعر أنه يريد أن يطلب من الصبي عفوه ولكنه كان خجولا ولا يستطيع أن يفعل [illegible] وتعمد أن يصيح بصوت عال خشن :

– والآن ...ماذا تنتظرون ؟ هيا بكم .

وبعد أن انصرف بعضهم كان هناك آخرون ساروا في جماعات من اثنين أو ثلاثة . [illegible] السيد رايس إلى فيليب وقال :

– يستحسن أن تأتي معي يا كارى فأنت لا تعرف الطريق حقا .. أليس كذلك ؟

خمن فيليب هذا الحنان وتنهد.

– لا أستطيع أن أسير بسرعة كبيرة يا سيدي .

وقال السيد رايس وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه :

– عندئذ سوف أسير ببطء جدا .

وانجذب قلب فيليب إلي المدرس ذي الوجه الأحمر الشاب العادي الذي حدثه بكلم[illegible] رقيقة. وفجأة شعر أنه أقل تعاسة .

ولكن في المساء عندما آووا إلى فراشهم وكانوا يخلعون ملابسهم ويرتدون ثياب ال[illegible] حرج الصبي المسمى سينجر ودس رأسه في رأس فيليب وقال له :

– اسمع يا صاح .. دعنا نلقي نظرة على قدمك .

[illegible] سينجر إلى فراش فيليب بسرعة وقال :

[illegible] تقل لي لا .. هيا بك .. أرنا .

[illegible] الفتي المجاور لفيليب ينظر من زاوية مهجعة، وعندما سمع الحوار قفز هو أيضا إلى [illegible] فيليب وهاجماه وحاولا أن ينزعا عنه غطاءه غير أنه تمسك به بشدة . وصاح فيليب [illegible]ا

– لماذا لا تتركوني لحالى؟

وأمسك سينجر بفرشاة وراح يضرب بها ظهر كف فيليب الذي كان يتمسك بغطاء فراشة [illegible] . ويكي فيليب .

[illegible] لماذا لا تدعنا نرى قدمك بهدوء ؟

– لا .. لن أدعكم .

وفي يأس ضم فيليب قبضته وضرب الصبي الذي كان يعذبه ولكنه كان في وضع سيئ فأمسك الصبي بذراعه . وبدأ يلويها . وصرخ فيليب :

–لا تلوي ذراعي .. سوف تكسرها .

– كف إذن ..ودعنا نرى قدمك .

تنهد فيليب وشهق . ولوي الصبي ذراعه أكثر . وشعر فيليب بآلام لا تحتمل وقال :

–وهو كذلك .. سأريكم قدمي .

وأخرج قدمه من تحت الفراش . وكان سينجر يمارس المزيد من لي ذراعه. وعندما رأى قدم فيليب راح يحملق فيها بفضول شديد. وقال صبي آخر اسمه ماسون وهو يحملق في قدم فيليب :

–إنها شيء فظيع أليس كذلك ؟

وجاء صبي آخر وراح يحملق في قدم فيليب وصاح في لهجة ملؤها الاشمئزاز :

– ياله من شيء فظيع .

وقال سينجر وقد بدا الاشمئزاز على وجهه :

–هل هي متحجرة ؟

وراح يلمسها بطرف إصبعه بحذر وكأنها كائن حي . وفجأة سمعوا خطوات السيد واتسون الثقيلة على درجات السلم. فألقوا بالغطاء على فيليب وهرعوا بسرعة كالأرانب كل إلى فراشه.

ودلف السيد واتسون إلي عنبر النوم. وشب على أطراف قدميه ليرى كل الصبية فاستو كلهم قد خلدوا إلى النوم فأطفأ الأنوار وخرج من العنبر .

وهمس سينجر مناديا فيليب غير أنه لم يرد. لقد راح يعض وسادته بأسنانه حتى لا أحد بكاءه. لم يكن يبكي بسبب الألم الذي لحق به ولا بسبب ما لحقه من إذلال عندما ينظرون إلى قدمه، بل كان يبكي غضبا من نفسه لأنه لم يستطع أن يتحمل التعذيب و لهم قدمه من تلقاء نفسه ليروها .

ثم شعر بأكبر بؤس في حياته . فقد بدا لعقل الطفل أن تعاسته هذه سوف تست الأبد. ولسبب لم يعرفه تذكر ذلك الصباح البارد الذي أخرجته إما من الفراش وأرقدت جانب أمه . ولم يكن قد فكر في ذلك أبدا من قبل ولكن يبدو الآن أنه يشعر بدفء والدت يرقد إلى جانبها وحنان ذراعيها وهي تحيطه بهما . وفجأة بدا له وكأن حياته ليست حلم ؛ وفاة أمه وحياته في بيت القس وهذان اليومان التعيسان في المدرسة وسوف يس في الصباح ويعود إلى المنزل . وجفت دموعه عندما فكر في ذلك لقد كان تعيسا جدا .. لا أن تكون إلا حلما وأن أمه ما زالت على قيد الحياة وسوف تحضر «إما» حالا ويأو فراشه. ونام . غير أنه عندما استيقظ في صباح اليوم التالي كان ذلك على صوت المدرسة، وكان أول ما سقطت عليه عيناه الستار الأخضر المحيط بفراشه .

●●●

لقد أصبحت عاهة فيليب على مر الأيام شيئا غير مثير للاهتمام ، فأصبح ال ينظرون إليها كما ينظرون إلى صبي ذي شعر أحمر ، أو صبي مفرط في السمنة . وفي الأثناء ازدادت حساسية فيليب إلى حد رهيب ، فتجنب الجري كلما استطاع إلى ذلك سب لأنه أدرك أن الجري يكشف عن عرجه و يجعله اكثر وضوحا . واتخذ لنفسه مشية خا وكان يقف ساكنا بقدر ما يستطيع واضعا قدمه الحنفاء خلف الأخرى حتى لا يثير ان أحد . وكان يراقب على الدوام أية إشارة من أحد إليها . وظلت حياة الصبية غريبة عليه لم يشاركهم لعبهم . وكل ما كان يفعله أنه كان يسلى نفسه بما يفعلون وهو بعيد ع وخيل إليه أن هناك حاجزا يفصل بينه و بينهم ، وبدا له أنهم يعتقدون في بعض الأحيا الذنب في عدم مشاركته إياهم في لعب الكرة واقع عليه، ولم يكن في استطاعته أن يج يفهمون خطأ ظنهم هذا ، وبذلك كان فيليب كثيرا ما يبقى وحيدا . وما لبث أن آثر الص على الكلام رويدا رويدا ، وبدا يمعن الفكر في الفارق بينه وبين غيره .

وكان أكبر صبي في العنبر لا يميل إلى فيليب وكان فيليب الذي يبدو أصغر من سن

يرا من المعاملة الصعبة . وفي منتصف الدورة المدرسية تفشي في المدرسة جنون لعبة «نيب» أي سن الريشة . ويشترك في اللعبة تلميذان وتمارس على مائدة بريش حبر من الصلب . وعلى أحد اللاعبين أن يدفع بظفر إصبعه سن ريشته حتى يجعل رفها الدقيق يستقر فوق ظهر سن خصمه بينما يحاول الخصم أن يمنعه من ذلك وعندما تحقق ذلك ينفخ اللاعب الأول في إبهام يده ويضغط به بشدة علي سني الريشتين وإذا ستطاع أن يرفع الاثنين دون أن يسقط أحدهما على المنضدة فإنه يحصل على كلتا سني ريشتين لنفسه . وسرعان ما تفشت هذه اللعبة وأصبح لا يرى شيئا سوى تلاميذ يلعبونها . وقرر السيد واتسون أن هذه اللعبة ليست سوى نوع من الميسر واستولى على جميع سنون الريش التي في حوزة الصبية. وكان فيليب بارعا في اللعبة وبقلب حزين تخلى عن مكاسبه منها ولكن أصابعه كانت لا تزال تستحثه علي اللعب وفي أحد الأيام في طريقه إلى الملعب قصد متجرا واشترى عددا من سنون الريش الكبيرة دفع فيها بنس واحد . ووضعها في جيبه وكان يتحسسها ويشعر بنشوة. وعرف سينجر أن فيليب اشترى هذه السنون الضخمة وكان سينجر قد تخلى عن سنونه غير أنه احتفظ بواحد كبير منها وهو سن لم يُهزم صاحبه ولم يكن يستطيع مقاومة الفرصة التي تواتيه لكي يجرد فيليب مما معه. ورغم أن فيليب كان يعرف أنه في موقف صعب بسبب السنون الصغيرة التي لديه إلا أنه كان يميل أن يخاطر وكان يعرف أن سينجر لن يسمح له بأن يرفض اللعب معه . لم يكن قد لعب لمة أسبوع فبدأ يلعب وهو مضطرب وسرعان ما فقد اثنين من سنون ريشه، وكان يبدو علي سينجر أنه سعيد للغاية . غير أنه خسر في النهاية وفي لحظة الخسارة دخل السيد واتسون . وسألهما :

– ماذا تفعلان ؟

ونقل عيناه من سينجر إلى فيليب غير أن أيهما لم ينبس بكلمة .

– ألا تعرفان أني منعت هذه اللعبة الحمقاء ؟

اضطرب قلب فيليب اضطرابا شديدا وكان يعرف ما ينتظره وشعر بخوف بالغ غير أن هذا الخوف كان يمتزج بنوع من الابتهاج . فلم يحدث أن عوقب أبدا من قبل . لا بد طبعا أن العقاب سوف يكون مؤلما ولكنه سيكون شيئا يفخر به فيما بعد .

– إلى مكتبي .

واستدار الناظر وتبعه فيليب وسينجر وكانا يسيران خلفه جنبا إلى جنب. وهمس سينجر إلى فيليب : الويل ينتظرنا .

أشار السيد واتسون إلى سينجر وقال :

– انحني .

شاهد فيليب وقد ابيض وجه سينجر وهو يرتعش في كل ضربة وسمعه بعد الض
الثالثة يبكي . وتبعت ذلك ثلاث ضربات أخرى .

– يكفيك هذا .. انهض الآن .

ووقف سينجر وكانت الدموع تسيل على وجهه . وتقدم فيليب نحو السيد واتسون ال
نظر إليه لحظة ثم قال :

–أنا لن أضربك بالعصا . أنت صبي جديد . وأنا لا أستطيع أن أضرب صبيا أعرج. أغ
عن وجهي كلاكما . وكفا عن البذاءة مرة أخرى .

وعندما عادا إلى حجرة الدراسة كانت تنتظرهما مجموعة من الصبية الذين علموا بطري
غريبة ما حدث . وهجموا علي سينجر للتو يسألونه بشغف كثيرا من الأسئلة . وواجه
سينجر ، ووجهه محمر من الألم وعلامات الدموع ما زالت باقية على وجهه . وأشار برأسه إ
فيليب الذي كان يقف وراءه بقليل ، وقال في غضب واضح :

– لقد نجا من العقاب لأنه أعرج .

وقف فيليب ساكنا وقد كست وجهه خمرة الخجل . وشعر أنهم كانوا ينظرون إليه باحتق

وسأل أحدهم سينجر :

– كم ضربة ؟

لكنه لم يرد فقد كان غاضبا لما لحقه من ألم . وقال لفيليب :

–لا تطلب مني أن ألعب معك سن الريشة مرة أخرى ، إن اللعبة لطيفة بالنسبة لك فليس
وراءها أي مخاطرة .

– أنا لم أطلب منك أن تلعب معي .

– حقا .. لم تطلب مني ؟

ومد قدمه بسرعة وراء فيليب ودفعه فسقط علي الأرض فقد كان فيليب دائما غير ثا
علي قدميه . وقال سينجر :

– أعرج .

وقد عذب سينجر فيليب بقية الفترة الدراسية ورغم أن فيليب حاول دائما الابتعاد عنه
كانت المدرسة صغيرة جدا إلى حد أن ذلك كان مستحيلا. وحاول أن يكون ودودا ولطيفا مع
وأذل نفسه إلى حد أنه اشترى مطواة لسينجر الذي أخذ المطواة لكن هذا لم يرضه. وفي مرة
مرتين كان صبر فيليب قد نفذ ولم يعد يحتمل فضرب الصبي الأكبر وركله ولكت سينجر كا
أقوى منه بكثير وكان فيليب عاجزا فعلا أمامه وكان يضطر بعد أن يعذب أن يعتذر له . وكا

هذا هو الذي يعتمل في نفس فيليب : فلم يكن يتحمل مهانة الاعتذار الذي كان يصدر عنه بألم أكثر مما يحتمل. ومما جعل الأمور أسوأ أنه لم تكن هناك نهاية ظاهرة لتعاسته فقد كان سينجر في الحادية عشرة من عمره ولن ينتقل إلى المدرسة الثانوية إلا إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره. وأدرك فيليب أن عليه أن يعيش عامان من حياته مع جلاد لا مهرب منه. لم يكن يشعر بالسعادة إلا وهو يعمل وعندما يأوي إلى فراشه. وغالبا ما كان ينتابه هذا الشعور الغريب بأن حياته بكل تعاستها ليست سوى حلم وأنه يستيقظ في الصباح ويجد نفسه في فراشه الصغير في لندن .

●●●

ومر عامان ، وبلغ فيليب عامه الثاني عشر أو كاد ، وكان في الصف الأول وليس بينه وبين أن يكون في مقدمة الفرقة إلا مكان أو ثلاثة أمكنة ، ولن يلبث بعد عيد الميلاد حين ينتقل بعض الأولاد إلى المدرسة العليا أن يصبح أول فرقته وكان قد حصل على مجموعة من الجوائز، وكتب من المدرسة غير ذات قيمة مطبوعة على ورق رديء حوتها أغلفة ثمينة مزدانة بشعار المدرسة. وأنقذه وضعة من تهجم زملائه عليه، وذهب عنه شقاؤه، فلم يشعر بالتعاسة، ولم يحسده زملاؤه على نجاحه لما في جسمه من نقص .

وقالوا إن من أسهل الأمور عليه أن ينال الجوائز لأنه لا يستطيع أن يصنع شيئا إلا أن يستذكر. وزال عن فيليب خوفه من السيد واتسون فقد اعتاد على صوته الجهوري . وكان يخمن في غموض أن الناظر يريد ملاطفته إذا ما ألقى بيده الثقيلة على كتفه . وكان فيليب يتمتع بتلك الذاكرة القوية التي هي أكثر فائدة في الحفظ عنها في تقوية الذهن . وكان يعرف أن السيد واتسون يتوقع منه الخروج من المدرسة وقد نال منحة دراسية لتفوقه، ولكن فيليب أصبح بالغ الرقة والحساسية هيوبا شديد الوعي بذاته .

إن الطفل لا يحس أن جسمه جزء منه أكثر مما يحس الأشياء التي تتناثر حوله، وقد يلعب في أصابع قدمه دون أن يكون شعوره بأنها أقوى من شعوره باللعبة التي إلى جانبه. وعندما يشعر بالألم يبدأ رويدا رويدا في إدراك حقيقة الجسد. وتجارب الألم هذه ضرورية حتى يحس المرء نفسه ويدركها، و لكن هناك نقطة خلاف ، فبالرغم من أن كل إنسان يدرك أن جسده جهاز كامل يستقل به عن الآخرين فإنه لا يستطيع أن يدرك نفسه بوصفه شخصية منفصلة تماما عنهم ، فشعور المرء بالانفصال عن الآخرين يأتيه في سن الحلم ، ولكنه لا يتطور دائما إلى الحد الذي يصبح معه الفارق بينه و بينهم ملحوظا. ومثل هذا الفرد الذي لايحس نفسه إلا بقدر ما تحس النحلة بنفسها و هي خليتها ، هو السعيد في هذه الدنيا ، لأن لديه غير فرص السعادة ، فالكل

يشاطره نشاطه و سروره متعة للآخرين لأنهم يشعرون به ويسهمون فيه، فـ
أمثاله يرقصون في الأعياد ويمرحون، وفي مباريات الكرة يصيحون و يهللون، و
ما مر موكب ملكي يطلون من النوافذ مصفقين محيين. و بفضلهم عرف الإنسان
حيوان اجتماعي .

وقضى فيليب سن طفولته البريئة ، و بلغ فترة انتابه فيها إحساس مرير بذاته
جلبت عليه قدمه من سخريات . و كانت ظروفه غريبة للغاية فلم يستطع أن يلائم
حاله وبين المألوف من قواعد الحياة التي تنطبق على الأحوال العادية ، فاضطر
يسلك طريقا خاصا. وبعثت الكتب الكثيرة التي قرأها إلى رأسه بأفكار لم يكن يفه
تماما ، فأكسب ذلك خياله أفقا فسيحا، ونما في أعماق نفسه شيء آخر إلى جا
خجلة، فبدأ يدرك شخصيته إدراكا غير واضح المعالم . وكان أحيانا يدهش لما يـ
من تصرفات لا يدرك الباعث عليها ، وكان يشعر عندما يمعن فكره فيما أتاه بأنه
في محيط لا نهاية له .

وكان هناك صبي اسمه لوارد نشأت صداقة بينه وبين فيليب وفي يوم من الأيام بـ
كانا يلعبان معا في الفصل بدأ لوارد يستعرض بعض الخدع مستخدما غطاء قلم من الأبـ
خاص بفيليب .

–لا تلعب لعب الحواة معي فسوف تكسره فقط .

ولم يكد فيليب يفرغ من كلامه حتى تحطم غطاء القلم وانقسم إلى قطعتين . ونظر لـ
إلى فيليب بأسى .

– آسف .. أنا آسف للغاية .

وترقرقت الدموع من عيني فيليب ولكنه لم يقل شيئا .

وقال لوارد مندهشا :

– ماذا حدث ؟ سوف أحضر لك قلما آخر مثله تماما .

قال فيليب في صوت به رعشة :

–أنا لا أهتم بالقلم .. المسألة أن أمي أعطته لي قبل أن تموت .

– أنا آسف جدا يا كارى .

– لا يهم .. لم يكن ما حدث خطأ منك .

أخذ فيليب قطعتي غطاء القلم ونظر إليها . وحاول أن يكبح تنهداته . لقد شعر بـ
تعيس للغاية . ولم يكن يستطيع أن يعرف سبب هذه التعاسة لأنه يعرف تماما أنه اشـ
غطاء هذا القلم أثناء غطلته الأخيرة في بلاكستابل ببنسين ونصف بنس . ولم يعرف

الذي جعله يخترع تلك القصة المحزنة ولكنه كان تعيسا وكأن هذه القصة حقيقية فعلا .
الجو التقي في بيت القس والرنة الدينية في المدرسة جعلا ضميره بالغ الحساسية. فقد
امتص بلا وعي الشعور السائد حوله وهو أن هناك من يراقبه دائما للفوز بروحه الأبدية:
ورغم أنه لم يكن أكثر صدقا من معظم الصبية فإنه لم يحدث أن قال كذبا دون أن يعاني
من الندم . وعندما فكر في تلك الحادثة الأخيرة شعر بأسى بالغ وقرر أن يذهب إلى لوارد
ويقول له أن قصته كلها كانت ملفقة. ورغم أنه كان يخشى المذلة أكثر من أي شيء آخر في
العالم فقد شعر بالسرور يومين أو ثلاثة بسبب فكرة ما سيشعر به من ابتهاج يمتزج
بالعذاب لإذلال نفسه أمام عظمة الرب. غير أنه لم يتقدم أكثر من ذلك . فقد أرضي ضميره
بالأسلوب الأكثر راحة وهو الإعراب عن ندمه لله فقط . لكنه لم يفهم لماذا تأثر حقا بهذا
الشكل من الحكاية التي لفقها . فقد كانت الدموع التي سالت على وجنتيه دموعا حقيقية.
ثم بنوع من تداعي المعاني طرأ له هذا المنظر الذي أبلغته فيه إما بوفاة أمه ورغم أنه لم
يكن يستطيع أن يتكلم في ذلك الوقت لأنه كان يبكي فقد أصر علي أن يذهب إلى الآنسة
واتسون حتى يمكنهم أن يروا مدى حزنه على والدته .

●●●

ثم سادت المدرسة موجة من التدين اختفت على إثرها الكلمات البذيئة و كانت سخافات
الصبية تقابل بنظرات عدوانية ، ولجأ الكبار منهم – كما لجأ سادات العصور الوسطى
المدنيين - إلي استخدام قوة أذرعهم لإقناع الأضعف منهم باتباع الطريق السوي.

و أصبح فيليب تقيا ورعا ، إذ كان ذهنه يتوق دائما إلى كل جديد و سرعان ما سمع أن
في وسعه أن ينضم إلى إحدى جمعيات الكتاب المقدس ، فكتب خطابا إلى لندن يسأل عن
المعلومات المطلوبة و كانت هذه تتضمنها استمارة يدون فيها اسم الطالب وعمره ومدرسته،
وتعهد صريحا بأن يقرأ جزءا معينا من الكتاب المقدس كل ليلة مدة عام كامل. ثم يدفع ما
يوازي عشرة قروش ، و ذلك حتى يثبت المتقدم رغبته الجدية في الالتحاق بالجمعية من جهة
و تستخدم هذه القروش لتغطية مصروفات الأعمال الكتابية للجمعية من جهة أخرى . وما
لبث فيليب أن بعث بالرسالة والنقود . فجاءه كتيب لا يساوى أكثر من بنس واحد دونت فيه
الأجزاء التي يقرؤها الطالب كل يوم ، وأرفقت بالكتيب ورقة رسم على أحد وجهيها صورة
الراعي الطيب وحمل ، وزين الوجه الآخر بإطار من سطور حمراء فيه نص الصلاة التي تتلى
قبل القراءة .

وكان فيليب في كل ليلة يسرع بخلع ملابسه ليتاح له من الوقت ما يتم فيه قراءته قبل
أن ينطفئ مصباح الغاز في الحجرة . وراح كعادته يقرأ في جد و اجتهاد دون نقد لما يقرأ .

فقرأ قصصا عن القسوة و الخداع و نكران الجميل و الخيانة و الغش و المكر الدنيء وكـ
الأعمال التي من شأنها أن تثير في نفسه الرعب مما يحيط به من صنوف الحياة تمر بـ
وهو يقرؤها دون أن يعلق عليها بشيء ، لأنها حدثت عن وحي مباشر من الله.

وكانت طريقة الرابطة أن تستبدل كتاب العهد القديم بكتاب العهد الجديد وفي إحـ
الليالى يقرأ فيليب كلمات للسيد المسيح تفيد أنه إذا آمن المرء إيمانا كافيا فيمكنه أن يحـ
الجبال.

لم يكن لهذه الكلمات تأثير خاص عليه غير أنه حدث بعد يومين أو ثلاثة وكان يوم
أن اختارها الكاهن المقيم لكي تكون نصا لموعظته. حتى لو أن فيليب أراد أن يستمع إلى
الكلمات لما استطاع لأن التلاميذ مدرسة كينجز كانوا يجلسون في مكان المرتلين ، وكـ
منبر الوعظ في ركن من جناح الكنيسة فكان ظهر الواعظ تقريبا متجها ناحيتهم . وكـ
المسافة أيضا كبيرة لدرجة أن الواعظ كان لا بد أن يكون رجلا ذا صوت واضح ومعرفة بـ
الخطابة وطريقة الإلقاء حتى يصل صوته إلى أسماع فريق المرتلين ؛ ووفقا للعادة المتـ
منذ زمن طويل فقد قساوسة كانتبري يختارون من أجل علمهم لا من أجل أي صفة أخـ
قد تكون ذات نفع للكنيسة الكاتدرائية . ولكن كلمات هذا النص ترددت واضحة في أسـ
فيليب ربما لأنه قرأها قبل فترة قصيرة وفجأة بدت وكأنها تنطبق عليه شخصيا . وظل يـ
فيها معظم وقت الخطبة التي كان يلقيها القس، وفي تلك الليلة عندما آوى إلى فراشه
صفحات الإنجيل وعثر عليها مرة أخرى . ورغم أنه كان يصدق ضمنيا كل شيء
مطبوعا، فقد علم بالفعل أنه عندما يتحدث الإنجيل عن شيء ما فغالبا وبطريقة غامضة
يعني شيئا آخر . ولم يكن هناك أحد يحب أن يسأله في المدرسة وهكذا احتفظ بالسؤال حـ
إجازات عيد الميلاد. وفي يوم ما هيأ لنفسه فرصة لذلك كان ذلك بعد والانتهاء توا من تلا
الصلاة. كانت السيدة كارى تحصي البيض الذي أحضرته مارى آن كالمعتاد وتكتب التار
على كل بيضة. ووقف فيليب عند المائدة وتظاهر أنه يقلب صفحات الإنجيل بكسل .

هل أسألك سؤالا يا عمي ويليام .. هذه الفقرة التي تتحدث عن الإيمان القوى وتحـ
الجبل .. هل تعني ذلك حقا ؟

ووضع إصبعه عليها وكأنه عثر عليها مصادفة .

ونظر السيد كارى من وراء نظارته فقد كان يقرأ صحيفة بلاكستابل تايمز وهو جالـ
أمام المدفأة . وقد وصلت الصحيفة في تلك الأمسية رطبة من المطبعة، وكان القس يقـ
بتهويتها لمدة عشر دقائق قبل أن يبدأ في قراءتها .

وسأل :

-أي فقرة هذه ؟

-الفقرة التي تقول أنه إذا آمن المرء فيمكنه أن يحرك الجبال .

وقالت السيدة كارى وهي ترفع سلة البيض :

- إذا كان الإنجيل يقول ذلك فهو صحيح يا فيليب .

ونظر فيليب إلي عمه منتظرا ردا منه .

- إنها مسألة إيمان .

-هل تعني أنك إذا آمنت فعلا أنك تستطيع أن تحرك الجبال فستحركها ؟

وقال القس :

- بمشيئة الرب .

وقالت السيدة كارى :

-والآن قل لعمك عمت مساء . أنت لا تريد أن تحرك جبلا الليلة ، أليس كذلك ؟

وسمح فيليب لعمه أن يطبع قبلة على جبهته . وسبق السيدة كارى في الصعود إلى الدور العلوي . لقد حصل على المعلومات التي يريدها . كانت حجرته الصغيرة باردة كالثلج . وقد بعثت البرودة بقشعريرة في أوصاله عندما أخذ يرتدي منامته . ولكنه شعر دائما أن الرب ازداد تقبله لصلواته عندما يؤديها في ظروف أكثر مشقة . وكانت برودة يديه وقدميه قربانا للرب . وفي تلك الليلة ركع على ركبتيه ودفن وجهه بين يديه وصلي للرب بكل قوته وطلب منه أن يشفي له قدمه الحنفاء . كان ذلك شيئا طفيفا جدا بالمقارنة لتحريك الجبال . وكان يعرف أن الرب سوف يستجيب له لو شاء وأن إيمانه الآن كامل تماما . وفي صبيحة اليوم التالي أنهي صلاته بالطلب نفسه وحدد موعدا للمعجزة .

- ربي .. أبتهل إلي رحمتك وكرمك إذا كانت تلك مشيئتك أن تشفي قدمي ليلة عودتي إلى المدرسة .

شعر بالسعادة لأنه وضع مطلبه في صيغة لائقة وكررها فيما بعد في حجرة الطعام في الفترة القصيرة التي كان القس يتوقف فيها بعد تلاوة الصلاة قبل أن ينهض من على ركبتيه. وكررها مرة أخرى في المساء ومرة أخرى كانت البرودة تبعث القشعريرة في أوصاله قبل أن يأوي إلى فراشه . وكان قد غمره الايمان . وكان ينظر قدما إلى الوقت الذي ستنتهي فيه الإجازة . وضحك عندما تصور نفسه وهو ينزل السلالم ثلاث درجات مرة واحدة واندهاش عمه عندما يراه يفعل ذلك ، وبعد الإفطار سوف يسرع بالخروج مع العمة لويزا ليشتريا حذاء جديدا . وفي المدرسة فإن الصبية سيصابون بذهول .

- مرحبا يا كارى .. ماذا فعلت بقدمك ؟

فيرد بدون اهتمام وكأن ما حدث شيء طبيعي للغاية :

–كل شيء علي ما يرام ، لقد شفيت الآن .

سوف يصبح في استطاعته أن يلعب كرة القدم مع زملائه . وقفز قلبا جذلا عندما ر نفسه يجري .. ويجري بسرعة أكثر من أي تلميذ آخر . وفي نهاية فترة عيد الفصح تبدأ الدو الرياضية وسوف يستطيع أن يشترك في مسابقات الجري وقد تخيل نفسه حتى يشارك مسابقات العوائق . سوف يكون من الروعة أن يكون هو مثل أي شخص آخر ولا ينظر إ التلاميذ الجدد الذين لا يعرفون شيئا عن عاهته بفضول ولن يحتاج في الصيف إلى الاحتياطات التي يتخذها أثناء الاستحمام ، وأثناء تغيير ملابسه ولن يحتاج إلي ستر قد وإخفائها بدسها في الماء ليبعدها عن أنظار الآخرين .

راح يصلي بكل ما أوتيت روحه من قوة . ولم تخالجه أية ظنون . كان واثقا في كلام الر وفي الليلة التي سبقت عودته إلى المدرسة آوي إلى فراشه يرتعد من موقفه المثير كانت الثل قد كست الأرض . وسمحت العمة لويزا بترف أن تشعل لنفسها نيران المدفأة في حجرة نوم ولكن حجرة نوم فيليب كانت باردة جدا حتى أنه فقد الحس في أصابعه ووجد صعوبة كبي في فك أزرار ياقته . أما أسنانه فكانت تصطك في بعضها . وواتته فكرة بأنه يجب أن يف شيئا أكثر لكي يحصل علي بركة الله واهتمامه وأبعد البساط الذي كان موضوعا أمام فرا حتى يركع على الأرض عارية ؛ ثم خطر له أن المنامة التي يرتديه قد تكون نوعا الرفاهية لا يرضي خالقه فخلعها وراح يتلو صلاته وهو عار . وعندما صعد إلى فراشه ك يشعر ببرودة شديدة فلم يستطع أن ينام ، غير أنه عندما نام كان نومه عميقا حتى أن ماري آن كان عليها أن تهزه بعنف عندما جاءت بالماء الدافئ كي يغتسل في الصباح . وراح تكلمه وهي تزيح الستار عن النافذة غير أنه لم يرد عليها ؛ لقد تذكر على الفور أن هذا صبا المعجزة . وكان قلبا فرحا مليئا بالامتنان . وقد دفعته غريزته الأولي أن يمد يده ويتحس بها قدمه التي شفيت تماما الآن غير أنه إذا فعل ذلك فمعناه أنه يشك في رحمة الله. كان يع أن قدمه قد عوفيت. ولكنه أخيرا اتخذ قراره وبطرف أصابع قدمه اليمني لمس فقط الأر ثم مر بيده عليها .

نزل السلالم وهو يعرج عندما كانت مارى آن في طريقها إلى حجرة الطعام لتبدأ الص ثم جلس إلى المائدة لتناول الإفطار وقالت العمة لويزا:

ـ أنت هادئ جدا اليوم يا فيليب.

وقال القس :

– إنه يفكر في الإفطار اللذيذ الذي سيتناوله غدا في المدرسة .

عندما كان فيليب يرد كان يرد بطريقة كانت تضايق عمه. كان يرد ردا لا علاقة

الذي يتحدثون بشأنه. وقال فيليب :

ـ افترض أنك طلبت من الرب شيئا مثل تحريك الجبل مثلا .. وكان لديك الإيمان الكافي ولم يحدث شيء.. فما معني ذلك ؟

قالت هادئ جدلويزا :

قالت العمة لويزا:

ـ إنك صبي غريب حقا ! لقد سألت عن تحريك الجبال هذا قبل أسبوعين أو ثلاثة .

وقال العم ويليام :

ـ معناه بالضبط أنك ليس لديك إيمان .

قبل فيليب هذا التفسير . فإذا كان الله لم يشفه فهذا لأنه لم يؤمن إيمانا حقيقيا.ورغم ذلك لم يستطع أن يرى كيف يمكنه أن يفعل لكي يؤمن أكثر مما فعل ولكن لعله لم يمنح الله الكافي ليستجيب لطلبه فقد طلب منه أن يحقق له ما يريد في تسعة عشر يوما . وبعد يومين بدأ صلواته مرة أخرى وفي هذه المرة طلب من الرب أن يستجيب له بحلول عيد الفصح. وهذا هو يوم بعث ابن الرب وقد يكون الرب أكثر استجابة في ذلك الوقت . غير أن الآن أضاف وسائل أخرىً لتحقيق رغبته فكان يتلوها عندما يرى قمرا جديدا أو فرسا أو نجما يهوى؛ وأثناء تغيبه أحيانا عن المدرسة كان القس يقدم دجاجة على الغداء وفيليب يكسر عظمة الحظ فيها مع العمة لويزا ويتلو رغبته مرة أخرى. وكان يناشد دون منه آلهة أقدم النسبة لسلالته من إله إسرائيل. وراح يصلي للرب كثيرا في أوقات غريبة كل يوم وبنفس الكلمات لأنه كان في اعتقاده أنه من المهم أن يقدم طلبه بنفس العبارات. أنه أحس أنه في هذه المرة لن يكون إيمانه كافيا . ولم يستطع أن يقاوم الشك الذي تملكه . وجعل من نتائج تجربته الخاصة قاعدة عامة وقال :

ـ أعتقد أنه لا يوجد أحد لديه الإيمان الكافي .

لقد كان مثل الملح الذي حدثته عنه مربيته . يمكنك أن تصطاد أي طائر إذا وضعت الملح على ذيله ؛ وفي مرة حمل معه كيسا صغيرا من الملح وهو ذاهب إلى كينسنجتون جاردنز . ولكنه لم يتمكن من الاقتراب من أي طائر بحيث يستطيع أن يضع الملح على ذيله . وقبل أن يحل موعد عيد الفصح تخلي فيليب عن كفاحه . وشعر باستياء غريب من عمه لأنه ضلله . إن الفقرة التي تحدثت عن تحريك الجبال فقد كانت من تلك الفقرات التي يقال فيها شيئا غير أنها تعني شيئا آخر . واعتقد أن عمه كان يداعبه بطريقة عملية .

كانت مدرسة «كنجز» التي انتقل إلى ها فيليب عندما كان في الثالثة عشرة من عمره تعتز اعتزازا شديدا بقدمها . وقد أرجعت أصلها إلى مدرسة تابعة لدير للرهبان تأسست قبل زمن الغزو عندما كان رهبان أوغسطين يدرسون مبادئ العلوم ومثلها مثل أي مؤسسة من هذا

النوع أعيد تنظيمها بعد تدمير أديرة الرهبان على أيدي المسئولين التابعين للملـ
الثامن. ومنذ ذلك الوقت وهي تتبع طريقها المتواضع قدمت لأبناء الطبقة الأرسـ
والمهنيين في «كينت» تعليما يكفي احتياجاتهم. وقد تخرج من هذه المدرسة أ
مبجلين منهم أديب شهرته تنافس الشاعر شكسبير كما تخرج منها اثنان من كبار الـ
واثنان من رجال الصف العسكري لهم مكانتهم غير أنها خلال القرون الثلاثة التي
فيها عن نظام الرهبان قامت أساسا بتدريب رجال الكنيسة والمطارنة وكبار الكهنة
من رجال الدين: وهناك تلاميذ في المدرسة تعلم آباؤهم وأجدادهم وأباء أجدادهم
أصبحوا جميعهم قساوسة في أبرشيات تابعة لأبرشية كانتربرى وقد التحقوا
بالمدرسة وفي قرارة أنفسهم أنهم يريدون خدمة الكنيسة . غير أنه كانت هناك بوادر
الكنيسة لم تعد كما كانت من قبل . ولم تكن المسألة هي المال، بل إن طبقة النا
يلتحقون بها ليسوا كما كانوا من قبل . وهناك تلميذان أو ثلاثة يعرفون رعاة أ
آباؤهم تجار . والتاجر في مدرسة كينجز كما هو الحال في أبرشية بلاكستابل هو الـ
الذي لم يسعده الحظ لتملك الأرض أو لم ينضم إلي المهن الأربع التي ينتمي إليها
والصبية في المدرسة والذين بلغ عددهم مائة وخمسين من أبناء الطبقة الأرسـ
المحلية يعتبرون أن على أولئك الذين ينحدرون من آباء يعملون في مجال الصـ
يتحملوا نتائج انحطاط منزلتهم .

ولم يكن الأساتذة يطيقون صبرا على تلك الأفكار التربوية التي قرءوا عنها في
التايمز أو الجارديان. و كانوا يأملون أن تظل المدرسة مخلصة لتقاليدها. وكانت
القديمة الميتة تدرس في هذه المدرسة بدقة كبيرة حتى أن الطلبة عندما يكبرون لا
إلا أن يشعروا بالملل عندما يتذكرون هومر أو فرجيل . و بالرغم من أن تلميذا أو تلميـ
الذين أوتوا بعض الجرأة كانوا يقولون في أثناء تناول الطعام أن الرياضيات ذات
متزايدة، فقد كان الشعور السائد بين الطلبة هو أن دراستها أقل نبلا من دراسة الكلاسـ
ولم يكن الطلبة يدرسون في المدرسة اللغة الألمانية أو الكيمياء. أما الفرنسية فلم يد
مدرسو الفصول الذين كانوا يستطيعون حفظ النظام أكثر من الأجانب. وإذا كانوا
قواعد النحو الفرنسي كما يعرفها أي فرنسي صميم فلم يكن يهم المدرسة أن أحـ
لايستطيع أن يحصل على فنجان قهوة في المطعم في «بولونيا» إلا إذا كان الخادم
قليلا من اللغة الإنجليزية. و كان الطلبة يعتمدون في دراسة الجغرافيا على رسم
للبلاد وكانت هذه مهمة محببة ، وعلى الأخص عندما تكون البلاد التي يدرسو
طبيعة جبلية فقد كان من المستطاع إضاعة وقت طويل في رسم جبال«الانديز»
«الابنين».

وكان المدرسون وهم خريجو جامعتي أوكسفورد وكامبريدج كهنة معينو
متزوجين : وإذا تصادف أنهم أرادوا أن يتزوجوا فيمكنهم أن يفعلوا ذلك بأن يقبلو

ـيرة الموضوعة تحت تصرف رجال الكنيسة ؛ ولكن لسنوات طويلة لم يأبه أحد
المجتمع المهذب في كانتربرى ليعيش حياة مملة في بيت قسيس في الريف .

كان الناظر من ناحية أخرى مضطر للزواج وقد أدار المدرسة حتى بدأ الكبر يبدو
عندما تقاعد كوفئ بمعاش أحسن من أي معاش يأمل في الحصول عليه أي من
المدرسين .

ـل أن يلتحق فيليب بهذه المدرسة بعام واحد طرأ عليها تغير كبير، فقد تبين أن
فليمنج الذي كان ناظرا لها طيلة الخمسة و العشرين عاما السالفة ، قد ازداد صممه
لم يعد يستطيع أداء مهمته في المدرسة أداء يمجد به الله.

ـعد أن استغنت المدرسة عن الدكتور فليمنج أضحى من الضروري أن تبحث المدرسة
ـلفه، و لم تكن تقاليدها تسمح باختيار أستاذ أقل منه مرتبة، وحينئذ أبدت لجنة
المدرسة التي تبحث شئون الطلبة و المدرسين رغبتها في ترشيح السيد واتسون ناظر
ـة الإعدادية ليحل محل الدكتور فليمنج .... نعم إنه لم يكن من المستطاع الآن أن
ـل بأنه أستاذ في مدرسة كينجز و لكنهم كانوا يعرفونه منذ عشرين عاما، ولم يكن ثمة
خوف من أن يثير السيد واتسون أي مشكلات في المدرسة.

ـكن مجلس إدارة المدرسة خرج عليهم بمفاجأة مذهلة فاختار رجلا اسمه بيركينز، ولم
أحد في أول الأمر من هو بيركينز هذا ، ولم يكن للاسم كذلك أثر طيب في أحد منهم
الجميع علموا قبل أن تزول آثار هذه المفاجأة أن بيركينز هذا هو ابن بيركينز تاجر
ـس الداخلية. و أبلغ دكتور فليمنج الأساتذة هذا النبأ قبل تناولهم العشاء مباشرة . وبدا
ـروع من طريقته في الكلام إليهم و قد استمر من كان مدعو معهم لتناول الطعام في
بهدوء لا يكاد ينطق بكلمة واحدة ، ولم يشر أحد إلي هذه المسألة إلا بعد أن غادر الخدم
ـة ثم بدءوا بعدئذ يتكلمون ، وليس يهمنا أن نذكر أسماء من كانوا حاضرين وقتئذ .
تلاميذ المدرسة يعرفونهم منذ عدة أجيال بهذه الأسماء .... سايز ، وينكس ، بات ، تار ،
ـيرتز.

وكانوا جميعا يعرفون توم بيركنز ، وأبرز ما عرفوه عن طباعه أنه لم يكن من السادة
ـذبين جدا فقد كان فتى صغيرا أسمر اللون ذا شعر أسود أشعث ، وعينين واسعتين ويبدو
ـأنه من سلالة الغجر ، قدم إلى المدرسة طالبا نهاريا و حصل منها على أفضل المنح
ـاسية التي تمنحها المدرسة ، فلم يكلفه تعليمه و الحالة هذه شيئا ما . وكان بيركنز
ـيعة الحال تلميذا نابها فكان فتاهم الأول وكان في أيام المناظرات يخرج مثقلا بالجوائز.
ـان هو موضع فخرهم أمام الزائرين و أخذوا الآن يذكرون بمنتهى القلق خوفهم أن يحاول
ـصول على منحة من إحدى المدارس الخصوصية الكبرى فيفلت بذلك من أيديهم . وكان
ـتور فليمنج قد ذهب لزيارة أبيه تاجر القماش -وكان الكل يذكرون متجر بيركنز وكوبر

في شارع سانت كاترين – وقال فليمنج أنه يأمل أن يبقى توم معهم حتى موعد ن
أكسفورد . و كانت المدرسة من أفضل عملاء محال بيركنز وكوبر . وقد سر بيركنز ك
أن يؤكد لهم استجابته لما يرغبون فيه ، وظل توم بيركنز يواصل النجاح ، فكان خ
في قسم الدراسات القديمة الذين يذكر فليمنج أسماءهم. وعند تخرج بيركنز من
حظي بأفضل المنح الدراسية التي تقدمها المدرسة إلى المتفوقين وحصل على منحة
أخرى من مدرسة مجدالين ، ثم بدأ يخطو نحو مستقبل باهر في الجامعة . وسجل
المدرسة تفوقه عاما بعد عام وعندما حصل على شهادته الأولى كتب دكتور فليمنج
كلمة مديح في الصفحة الأولى من المجلة ورحب الجميع بتفوقه في رضاء بالغ. وزاد
عن نجاحه أن بيركنز و كوبر قد حلت بهما أيام سوء فقد راح كوبر يجرع الخمر كالما
أن يحصل بيركنز على إجازته العلمية كان المتجر قد تقدم لطلب إعلان إفلاسه.
بيركنز قسا في الوقت المناسب وعين بذلك في المنصب الذي يلائم مواهبه أحسن
وأصبح مساعدا لناظر مدرسة «ولنجتون»، ثم لمدرسة «راجبى».

و لكن هناك فارقا كبيرا بين أن يرحب الأساتذة بنجاحه في المدرسة الأخرى وأ
تحت رياسته في مدرستهم، فكثيرا ما ضايقه تارة كثيرا ما ضربه سكويرتز عل
والواقع أنهم لم يتصوروا كيف وقع مجلس الإدارة في مثل هذا الخطأ ، فهم لا يمكنهم أ
أن بيركنز هذا ليس إلا ابن تاجر مفلس للأقمشة، ومما زاد الطين بلة أن كوبر وإدمان
قد أضافا إلى هذا العار عارا جديدا . وكان المفهوم أن العميد قد أيد ترشيح بيركنز ب
بالغة، ولهذا فإن الكاهن الكبير سيدعو بيركنز غالبا لتناول العشاء معه ولكن هل يكو
الدعوات اللطيفة في البيوت المجاورة للمدرسة المعنى نفسه عندما يجلس توم بير
مكان الرياسة من المائدة . و ماذا عن مركز تدريب الجنود؟ حقا أن بيركنز لا يتو
الضباط والموظفين و السادة المهذبين أن يستقبلوه كواحد منهم، لأن هذا يعود على ال
بأضرار لا تحصى ، فسيتبرم آباء الطلبة ، ولهذا فإن أخرج الآباء أبناءهم من ال
بالجملة فإن ذلك لن يكون مثار دهشة لأحد . ثم هناك شيء آخر و هو إهانة تلقيبه
بس السيد بيركنز وفي هذا من المهانة ما فيه . و فكر الأساتذة في تقديم استقالة ج
احتجاجا على هذا التعيين، ولكنهم أحجموا عن ذلك خوفا من أن تقبل المدرسة هذه الا
دون أن تعبأ بشيء.

وقال الأستاذ «سايز» الذي ظل خمسة وعشرين عاما يشرف على الفرقة ال
بالمدرسة إشرافا لا يماثله في عجزه أي إشراف سواه:

– ليس أمامنا إلا أن نعد أنفسنا لما يحدث من التغيرات !

وعندما رأوه لم يطمئنوا . وقد دعاهم الدكتور فليمنج لمقابلته على الغداء . وقد أصبح
في الثانية والثلاثين من عمره. طوي القامة نحيف . ولكن كان منظرة كما يتذكرو

أشعث. وكانت ملابسه رثة رديئة التفصيل ارتداها بإهمال . وكان شعره كما
د اللون وكان من الواضح أنه لم يتعلم كيف يساويه وينظفه فقد كان يسقط على
كل حركة من رأسه . وكان يمد يده بسرعة ليبعد شعره عن عينيه . كان له شارب
ة صعدت على وجهه حتى عظام الوجنتين . كان يتحدث إلى الأساتذة بكل راحة
كهم من أسبوع أو أسبوعين من قبل . وكان من الواضح أنه سعيد بلقائهم. ويبدو أنه
شعر بغرابة الموقف ولم يلاحظ أي شيء شاذ في أن ينادونه «السيد بيركنز»
ما ودعهم ، قال له أحد الأساتذة لمجرد أن يقول شيئا أنه منح نفسه وقتا أطول من
لحق بقطاره . فرد بمرح قائلا «أريد أن أقوم بجولة عموما ثم ألقي نظرة على

ان هناك حرج واضح . و تعجبوا كيف تعوزه اللباقة بهذا الشكل . ومما زاد الطين بلة
د واتسون لم يسمع ما قاله بيركنز بل فصرخت زوجته في أذنه قائلة :
نه يريد أن يقوم بجولة ويلقي نظرة على متجر أبيه القديم .

وكان توم بيركنز وحده هو الذي لم يشعر بالمهانة التي شعر بها الجميع . فوجه كلامه
سيدة فليمنج قائلا :
من صاحب المتجر الآن ، هل تعرفين ؟
وكان من الصعب عليها أن ترد . فقد كانت غاضبة للغاية . وقالت بمرارة :
–إنه مازال متجرا لبيع المنسوجات . واسم صاحبه «جروف» ونحن لا نتعامل معه الآن.
– ترى هل سيسمح لي بزيارة المنزل ؟
–أتوقع أنه سوف يسمح لك إذا قلت له من أنت .
حتى نهاية العشاء في تلك الليلة لم تكن هناك إشارة واحدة في حجرة مجلس الإدارة إلى
الموضوع الذي شغل بال المجتمعين . ثم كان سايز هو الذي تكلم :
– ما رأيكم في رئيسنا الجديد ؟
وفكروا في الحديث الذي دار على الغداء . لم يكن حديثا فعلا . كان حوارا من جانب واحد
فقد راح بيركنز يتكلم بصفة متواصلة في صوت عميق رنان، وكانت الكلمات تخرج منه
بسرعة وأحيانا كان يضحك ضحكة خاطفة قصيرة تنم عن أسنانه البيضاء وقد تابعوا
كلامه بصعوبة لأنه كان يقفز من موضوع لآخر ويصل بينها بطريقة لم يستطيعوا فهمها
دائما وتكلم عن أمور التعليم وكان هذا طبيعيا بلا شك: ولكنه تكلم كثيرا عن نظريات جديدة
في ألمانيا لم يسمعوا عنها أبدا واستقبلوها في ريبة وشك . وتكلم عن الكلاسيكيات فقد زار

وأمضى مرة شتاء بأكمله يحفر ؛ ولم يروا كيف يساعد ذلك يعلم الأولاد لكي ينجحوا في امتحاناتهم . وتكلم عن السياسة وعرفوا من كلامه أنه لـ وغاصت قلوبهم . وتكلم عن الفلسفة الألمانية والرواية الفرنسية . ولم يستطيعوا أن يـ كيف يكون الرجل عميقا إذا كانت لديه كل هذه الاهتمامات .

كان وينكس هو الذي لخص الانطباع العام برمته وصاغه في صورة شعروا جميـ نديم بيركنز . كان وينكس مدرس الفصل الثالث الأعلى ، وهو رجل ضعيف، جفون مدلاة كانت أطول من اللازم بالنسبة لقوته وكانت حركاته بطيئة واهنة. وكان انطباعا بأنه رجل كسول . وكان الاسم الذي أطلقوه عليه مناسب جدا . وقال وينكس :

–إنه متحمس جدا .

الحماس معناه سوء التربية . الحماس معناه عدم التهذيب . وفكروا في جيش الـ بنهيق أبواقه وقرع طبوله . الحماس معناه التغيير . إن جلودهم تقشعر عندما يفكرو العادات الطريقة القديمة التي تقف معرضة لخطر وشيك . وكان من الصعب عليهم أن يـ قدما إلى المستقبل .

وقال أحدهم بعد تردد :

– إنه يبدو غجريا أكثر من أي وقت مضي .

وقال آخر بمرارة :

– ترى هل كان كبير الأساقفة ومجلس المدرسة يعرفان أنه شخص راديكالي رشحاه ؟

عندما كان سايز وتار يسيران معا إلى منزل رجال الكنيسة في يوم الخطبة بعد بأسبوع قال تار الذي كان لاذع اللسان لزميله :

– لقد شاهدنا أيام خطب جميلة هنا .. أليس كذلك . ترى هل سنرى أياما جميلة أخـ

وكان سايز يشعر بحزن أكثر من المعتاد وقال :

– لا يهمني الآن أن أتقاعد في أي وقت لو كان معاشي يكفي .

●●●

ومر عام وعندما عاد فيليب إلى المدرسة كانت الأساتذة القدامى ما زالوا جميعا أماكنهم، و لكن كثيرا من التغيرات حدثت في المدرسة على الرغم من معارضة الأسـ

بالعناد الشديد و التي لم يقلل من شدتها أنهم ستروها بأن تظاهروا الموافقة على آراء الناظر الجديد ، و بالرغم من أن أساتذة المدرسة استمروا اللغة الفرنسية لطلبة المدرسة الابتدائية ، فان أستاذا جديدا يحمل إجازة في من جامعة هايدلبرج ، بالإضافة إلى سنوات ثلاث قضاها في مدرسة فرنسية درس اللغة الفرنسية لطلبة الفصول العليا ، و اللغة الألمانية لأي طالب يريد بدلا من اللغة اليونانية. وتم التعاقد مع أستاذ آخر لتدريس الرياضيات منظمة أكثر مما كان يحتاج إليه في ذلك الوقت، و لم يعين أي من هؤلاء .. و هذه ثورة حقا في المدرسة، فعندما وصل هذان الأستاذان استقبلهما الأساتذة في شئ من عدم الثقة. وجهز للمدرسة معملا، و بدأت فصول التدريب العسكري الجميع أن طابع المدرسة آخذ في التغير، ولا يعلم إلا الله ما المشروعات التي تدور في رأس السيد بيركنز الأشعث.

كانت المدرسة صغيرة إذا ما قورنت بغيرها من المدارس الحكومية ، و لم يكن بها مائتي تلميذ في القسم الداخلي ، وكان من الصعب أن تزداد اتساعا لأنها كانت لمباني الكنيسة الكبرى و كانت البيوت المجاورة كلها– باستثناء بيت واحد فيه بعض الأساتذة – يحتلها رجال الكنيسة ، ولم يكن هناك أي متسع للبناء ، و السيد بيركنز وضع مشروعا متقنا يستطيع أن يحصل به على ما يلزم من مساحة ضعفة حجم المدرسة الحلى. فقد كان يريد أن يجذب إليها الطلبة من لندن ، وظن الخير لهؤلاء أن يتصلوا بصبية «كنت»، وأن هذا الاتصال سيشحذ من ذكاء الريفي.

قال السيد سايز عندما أخبره بيركنز بمشروعه :

هذا المشروع يتعارض مع كل تقاليدنا، ولقد خرجنا عن طريقنا المألوف حتى نتجنب طلبة لندن. .

أجاب السيد بيركنز: –

ياله من هراء!

لم يحدث من قبل أن أحدا قال لرئيس الفصل أن كلامه هراء وراح يفكر في رد لاذع ربما أن يدرج فيه إشارة خفية عن المنسوجات والملابس عندما هاجمه السيد بيركنز بتهته العنيفة الفظة .

ذلك المنزل في المنطقة المجاورة . إذا حدث وتزوجت فسوف أطلب من مجلس المدرسة أن يبني فوقه دورين آخرين وسوف نبني عنابر نوم وفصول ويمكن لزوجتك أن تساعدك.

شهق القس العجوز. لماذا يتزوج ؟ لقد بلغ السابعة والخمسين من عمره ولا يمك أن يتزوج وهو في السابعة والخمسين. وهو لا يستطيع أن يبدأ في رعاية أسرة في هـ من العمر . وهو لا يريد أن يتزوج . وإذا وقع الاختيار بين الزواج والعيش في الر سوف يستقيل فورا . فكل ما يريده الآن هو السكينة والهدوء .

وقال :

– أنا لا أفكر في الزواج .

نظر إليه السيد بيركنز بعينيه السوداوين اللامعين ولو كان بريقا قد لمع فيهما فـ المسكين لم يره .

–يا للأسف.. ألا تتزوج إرضاء لنا ؟ زواجك سوف يدعم موقفنا عندما اقت طابقين فوق بيتك .

وكانت أكثر بدع السيد بيركنز غير المحببة ما كان يعمد إليه من آن لآخر من أ أستاذ آخر . وكان يطلب ذلك بوصفه جميلا يسدى إليه ولكنه في واقع الأمر جميل رفضه، وقال تار وكذلك قال بيركنز أن هذا أمر غير لائق بكرامة الجميع ولم يكن يـ بما سيفعله ولكنه كان بعد الانتهاء من صلاة الصباح يقول لأحد الأساتذة :

– ترى هل لديك مانع في أن تأخذ اليوم الفرقة السادسة في الساعة الحادية عشر دروسنا أموا فق؟

ولم يعرف الأساتذة إن كان هذا التصرف أمرا مألوفا في المدارس الأخرى . بلا شك لم يحدث من قبل في تيركانبرى .. وكانت النتيجة عجيبة، فقد أبلغ تيرنر كان الضحية الأول–النبأ لتلاميذ فصله .. فقال إن السيد الناظر سيأخذهم في ذل في درس للغة اللاتينية. وتعلل بأنهم قد يحبون أن يسألوه سؤالا أو سؤالين يجعلوا من أنفسهم أضحوكة أمام السيد الناظر وأضاع معهم الربع الأخير من التاريخ في تفسير قطعة للشاعر ليفي كانت دراستها مقررة في ذلك اليوم ولكنه عاد إلى فصله وتأمل الكشف الذي رصد فيه السيد بيركنز الدرجات وجد مفاجأة ت .. فقد دهش دهشة بالغة بعد انتهاء درس الناظر، إذ وجد أن التلميذين المتقدم الفصل قد أجابا إجابات سيئة في حين أن غيرهما ممن لم يتفوقوا على أقرانهم نالوا النهاية العظمى ، وعندما طلب إلي الدريدج و هو أحسن تلاميذه تفسيرا لذلك . الجواب في عبوس :

– إن السيد بيركنز لم يعطنا شيئا لنشرحه على الإطلاق ، بل سألني ماذا أعرف الجنرال جوردون .

وحملق السيد تيرنر فيه بدهشة، وكان من البين أن الطلبة قد شعروا بأنهم عوملوا بـ

إلا أن يشاركهم شعورهم الصامت بالامتعاض ولم ي نرال جوردون بالشاعر ليفي و جازف بأن يستفهم عن الأمر بعد ذلك فقال للسيد هو يحاول أن يضحك:

قد ارتبك الدريدج بشدة لأنك سألته ماذا يعرف عن الجنرال جوردون .

حك السيد بيركنز وقال :

لقد لاحظت أنهم وصلوا إلى الدرس الخاص بقوانين كايوس جراتوس الخاص لاح الزراعي فقلت لنفسي هل يعرفون شيئا عن المشكلات الزراعية في أيرلندا ، وكان ا عرفوه عن ايرلندا أن دبلن تقع على نهر ليفي .. ولذلك قلت لنفسي ترى هل سمعوا أبدا الجنرال جوردون.

هنا تجلت الحقيقة المخيفة .. وهي أن الناظر الجديد مصاب بهوس ما يسمونه لومات العامة »، وأنه يشك في فائدة الامتحانات في موضوعات تحشر في أذهان ة حشرا . لقد كان يريد الفهم و الإدراك السليم .

وازداد قلق السيد سايز شهرا بعد شهر وكره موقف الناظر من الأدب القديم ؛ فلم يستطع يقتلع من ذهنه فكرة أن السيد بيركنز سوف يطلب منه أن يحدد موعدا لزواجه وكان يكره قف الذي اتخذه من دراسة الكلاسيكيات ولم يكن هناك شك في أنه دارس ممتاز ويقوم مل يتمشى مع التقاليد الصحيحة : فقد كان يعد رسالة عن الأشجار في الأدب اللاتيني كنه كان يتكلم عنها بلا اهتمام وكأنها تضييع للوقت لا قيمة له مثل لعبة البليارد التي غل بها وقته ولكنه لا ينظر إليها بجدية، وكلما مرت الأيام ازداد مزاج السيد بيركنز أستاذ رقة الثالثة المتوسطة حدة .

وكانت فرقته هي التي التحق بها فيليب عندما دخل المدرسة . و كان الكاهن الموقر ب. جوردون رجلا لا يصلح بطبعه لأن يكون ناظرا لمدرسة فقد كان عديم الصبر سريع الغضب . ولم يكن مسئولا أمام أحد ولم يكن يواجه إلا صبية صغار ومنذ زمن طويل فقد القدرة على السيطرة على نفسه . فقد بدأ عمله برغبة عارمة وأنهاه بانفعال شديد . كان رجلا بدينا متوسط الطول شعره قصير مجعد، بدأ الآن يغزوه الشيب وله شارب صغير كث ولم يكن هناك من هو أسوأ منه ليكون معلما لطفل خجول مثل فيليب . كان وجهه العريض بعينيه الثاقبتين الخضراوين أحمر طبيعي اللون ولكنه في نوبات غضبه الكثيرة كان لون وجهه تحول إلى لون أرجواني غامق. وكانت أظافر أصابعه منقرضة حتى آخرها ذلك لأنه كان عندما يقوم صبي يرتعد بتفسير نص ما كان يجلس إلى منضدته يرتعش من الغضب الذي يلتهمه ويعض في ذلك أظافره .وكان هناك حكايات ربما كانت مبالغا فيها عن تصرفاته العنيفة فقبل سنتين ثارت ضجة في المدرسة عندما تردد : أن أحد أولياء أمور الطلبة هدد بمحاكمة المدرسة فقد ضرب السيد جوردون صبيا اسمه والترز بمجلد ضخم على أذنيه مما

ر على سمعه، وكان لابد من إخراج هذا الصبي من المدرسة . والد الصبي كان
كانتبرى وقد اجتاحت المدينة موجة غضب شديدة وكتبت الصحيفة المحلية
الموضوع غير أن السيد والترز والد الصبي لم يكن سوى صانع جعه، ولهذا انقسم ال
بينه وبين ناظر المدرسة . وقد اتخذ بقية الصبية جانب الناظر رغم احتقارهم له لا
يعرفونها هم .. وقد ساءت الأمور بالنسبة للسيد واتسون لأن الطلبة أظهروا غضب
المسائل الداخلية للمدرسة كانت تسوى خارجها. وقد فر من المدينة وعاش بالكاد عل
فقير ولم يضرب صبيا منذ ذلك الوقت. وقد سحب من المدرسين الحق الذي كان لهم في
التلاميذ بالعصا علي أيديهم . ولم يعد سكويرتز يستطيع أن يعبر عن غضبه الزائد ب
علي منضدته بالعصا، بل كل ما كان يفعله هو أن يهز التلميذ من كتفيه. وكان
يستطيع أن يجعل الصبي الشرير يقف مادا ذراعا واحدة إلى الأمام لمدة تتراوح بين
دقائق وساعة، وكان عنيفا كما كان من قبل بلسانه.

عاد فيليب إلى المدرسة وهو أقل خوفا مما كان في المرة الأولى التي دخل فيها
السيد واتسون وقد عرف في هذه المدرسة عددا كبيرا من الصبية الذين كانوا معه في ال
الإعدادية. أحس أنه قد ازداد نموا ، وأدرك بغريزته أن عاهته الجسدية عيبه ستكون أقل
للاهتمام بين هذا العدد الكبير من التلاميذ . ولكن السيد جوردون بعث الرعب في قلب
اليوم الأول وبدا لما كانت لديه من قدرة على معرفة الطلبة الذين يخافونه، وكأنه
لفيليب كرها غريبا .

وكان فيليب قد استمتع بعمله ، ولكنه راح الآن ينظر إلى الساعات التي يقضيها
المدرسة في فزع . وكان يفضل أن يجلس صامتا في غباء ولا يجازف بإجابة قد
خاطئة فيلقى عاصفة من التأنيب من المعلم . وكان يشعر بالسأم ويبيض لونه من
الخوف عندما يجيء دوره في الشرح .

وكان أسعد أوقاته تلك التي يأخذ الفصل فيها السيد بيركنز لأنه كان في استطاعته
يرضى ولع الناظر بالمعلومات العامة التي كان حريصا عليها .. ذلك أنه كان قد قرأ ك
من الكتب الغريبة التي تعلو على مستوى سنه وكثيرا ما كان السيد بيركنز عندما يلقى
على الفصل يقف إذا جاء دور فيليب ويبتسم ابتسامة تملأ الصبي طربا ونشوة. ويقول :

– والآن أجبهم أنت يا كاري.

وكانت الدرجات العالية التي يحصل عليها فيليب في هذه المناسبات سببا في ز
غضب السيد جوردون .

وجاء دور فيليب لكي يقوم بالترجمة .. وفي أحد الأيام جلس السيد جوردون في مق
يحملق في غضب شديد وبدت عليه الشراسة، وشرع فيليب يتكلم في صوت خافت وص
الأستاذ جوردون :

وح ..لا تغمغم ..

يليب بغصة في حلقه .

– استمر .. استمر .. استمر !

كل مرة كانت الكلمات تخرج كصراخ شديد .. وكان أثر هذا أن تبخر كل ما كان
يليب من معلومات ونظر إلى الصفحة المطبوعة أمامه فبدت خالية، وبدأ السيد
يتنفس في ثقل ثم قال :

– كنت لا تعرف فلماذا لا تقول ذلك ؟ أتعرف هذا أم لا تعرفه ؟ لم لا تتكلم ؟ تكلم أيها
تكلم !!

ك السيد جوردون بمسندي مقعده وشد بقبضتيه عليهما كأنه يغالب نفسه حتى
ل بهما على فيليب .

انوا يعرفون أن السيد جوردون كان فيما مضى يمسك بالطلبة من رقابهم حتى يكادوا
ون . ونفرت شرايين جبهته ، وأضحى وجهه قاتما غلبه سمات الوعيد والتهديد ، لقد
في الواقع رجلا مجنونا . وكان فيليب يعرف القطعة حق المعرفة في اليوم السابق ولكنه
ه اللحظات لم يتذكر منها شيئا .. وشهق قائلا :

– إني لا أعرفها ..

– ولم لا تعرفها ؟ فلنتناول الكلمات كلمة كلمة .. وسنرى هل تعرفها أم لا ..

ووقف فيليب صامتا وقد ازداد شحوب وجهه . وهو يرتعد قليلا ورأسه منحن فوق
تاب، وعلا تنفس المدرس حتى كاد يصبح شخيرا ..

– إن الناظر يقول إنك ذكي ، ولكنني لا أعلم كيف يرى ذلك .. المعلومات العامة.

وضحك في وحشية :

– أنا لا أعرف لماذا ضموك إلى هذه الفرقة .. أيها الغبي !

واغتبط لهذه الكلمة فأعادها بأعلى صوته :

– غبي .. غبي بقدم حنفاء .. غبي !

وأراحه ذلك بعض الشيء ، ورأى فيليب وقد احمر وجهه فجأة ، فأمره أن يحضر الكتاب
أسود ، ووضع فيليب كتاب قيصر وخرج وهو صامت .

وكان الكتاب الأسود مجلدا قاتم اللون يتضمن أسماء التلاميذ وأخطاءهم وسلوكهم
السيئ وإذا ما كتب اسم تلميذ فيه ثلاث مرات كان معنى ذلك الجلد بالعصي ، وذهب فيليب
إلى منزل الناظر وطرق باب حجرة مكتبه .. وكان السيد بيركنز جالسا إلى مكتبه ..

فأجاب السيد بيركنز في إيماءة من رأسه مشيرا إلى موضع الكتاب :

– ها هو ذاك.. وما الذي فعلته وكان لا يجب ألا تفعله ؟

– لا أعرف يا سيدي ..

و حدج السيد بيركنزفيليب بنظرة خاطفة . وعاد إلى عمله في هدوء دون أن يجيب فيليب بعد أن حمل الكتاب معه ثم عاد به بعد دقائق من انتهاء ساعة الدرس .. وقال الناظر :

– دعني ألقي نظرة عليه .. إني أرى أن السيد جوردون قد وضع اسمك في الكتاب .. لعمل وقح جسيم .. فما هو ؟

– لا أعرف يا سيدي .. لقد قال السيد جوردون أني غبي ذو قدم حنفاء .

ونظر إليه السيد بيركنز ، وتساءل في عجب هل تحمل إجابة الصبي سخرية ما ، ول الصدمة كان باديا عليه فقد ابيض وجهه ، وبدت في عينيه نظرة كرب ممزوجة بال ونهض السيد بيركنز تاركا الكتاب .. وبينما هو يفعل ذلك ، التقط بعض الصور وقال

– لقد أرسل لي أحد أصدقائي صورا من أثينا هذا الصباح .. انظر .. هذا هو الأك

وبدا يشرح لفيليب ما يراه .. وتجسمت لفيليب حطام المعبد في كلماته. وأراه «ديونيسيوس» وأوضح له نظام جلوس الناس في المسرح .. وكيف كانوا يرون فيم ذلك، بحر «إيجه» الأزرق . ثم أردف قائلا على حين غفلة :

– إني أذكر أن السيد جوردون اعتاد أن يسميني الغجري النطاط عندما كنت في فص

وقبل أن يدرك فيليب المقصود من هذه الملاحظة ، لأن ذهنه كان مركزا في الصو أمامه ، كان السيد بيركنز يريه صورة لميناء سلاميس .. بإصبعه التي كانت بها بقعة في نهاية الظفر ، أخذ يوضح له مواضع السفن اليونانية والفارسية في الميناء .

●●●

أمضى فيليب العامين التاليين في رتابة مريحة ، فلم يعد أحد يستبد به أكثر مما ي بمن هم في مثل حجمه من الصبية ، وأبعدته عاهته عن الإسهام في الألعاب الرياض وأكسبته ضآلة شأن ارتاح وحمد الله عليها ولم يكن فيليب مشهورا بين زملائه وكان وحيدا .وأمضى فترتين مع وينكس في الفصل الثالث العالي. وكان وينكس بأجفانه ال وطريقته المضجرة يبدو دائما ملولا . كان يؤدي واجبه ولكن بذهن سارح . كان طيب ال

كان يؤمن إيمانا عظيما باحترام التلاميذ ويعتقد أن أهم شيء لجعلهم ألا تدخل في أذهانهم للحظة أنهم يمكن أن يكذبوا . وقال يقتبس من الإنجيل ير وسوف تعطي الكثير» كانت الحياة سهلة في الفصل الثالث الأعلى . فالتلميذ وجه التحديد النص الذي سيشرحه عندما يأتي دوره وعن طريق قصاصات تمر من يد لأخرى يعرف التلميذ كل ما يريد في دقيقتين ؛ فيمكنك أن تضع كتاب اللاتينية مفتوحا على ركبتيك، بينما الأسئلة تدور من حولك ؛ ولم يلاحظ وينكس شيء غريب في أن نفس الأخطاء التي لا تصدق توجد في مختلف التمارين . ولم يكن را في جدوى الامتحانات لأنه لاحظ أن التلاميذ لا يجيدون الإجابة فيها كما ها في الفصل: كان هذا شيئا مخيبا للآمال ولكن ليس له أهمية تذكر . وفي الوقت ينتقل التلاميذ إلى الفصول الأعلى ولم يتعلموا إلا قليلا من الوقاحة المرحة في الحقيقة التي يمكن أن تكون ذات فائدة لهم في الحياة بعد ذلك أكثر من القدرة على اللغة اللاتينية.

وقعوا في أيدي تار . وكان اسمه تيرنر ؛ وكان أكثر الأساتذة القدامى مرحا وحيوية؛ قصير القامة له بطن كبير منتفخ ولحية سوداء، بدأ الآن يغزوها الشيب وبشرته داكنة ، وفي زيه الكنسي كان يبدو مثل برميل من القار (تار بالإنجليزية معناها الزفت أو بالعربية) ورغم أنه من ناحية المبدأ كان يعاقب أي تلميذ يسمع أنه يردد اسمه بطريقة بأن يعطيه خمسمائة سطر لحفظها فقد كان هو نفسه في حفلات الغداء في الضواحي نكات صغيرة عن نفسه . وكان أكثر الأساتذة خبرة بالحياة والناس وكان يتناول امه بالمطاعم أكثر من الأساتذة الآخرين . ولم يكن المجتمع الذي يتحرك فيه كنسيا معنى المعروف . وكان الصبية ينظرون إليه ككلب. وكان يخلع رداءه الكنسي في ازات وقد شوهد في سويسرا وهو يرتدي حلة مبهرجة من التويد . وكان يحب أن يتناول طيبا مع زجاجة من النبيذ ؛ ولما شوهد مرة في مقهى رويال في صحبة سيدة هي على رجح قريبة له فقد افترضت أجيال من التلاميذ أنه يحضر حفلات عربدة تفاصيلها تشير إلى إيمان مطلق بفساد الإنسانية .

وقدر السيد تيرنر أنه لابد من فترة دراسية كاملة كي تتحسن حالة التلاميذ بعد الفصل الثالث الأعلى ، ومن آن لآخر كان يصدر عنه تلميحا خبيثا يتضح منه أنه يعرف تماما ما يجري من مفاسد في فصل زميله . وقد تقبل ذلك بروح طيبة . وكان يعتبر التلاميذ وحوشا صغيرة، ومن الممكن أن يكونوا أمناء صادقين إذا تأكد لهم أن الكذب مصيره أن يكتشف ، وهم لن يميلوا إلى الشغب إذا عرفوا أنه لن يعود عليهم بأي فائدة. وكان فخورا بفصله تواقا وهو في الخامسة والخمسين أن يؤدي التلاميذ امتحاناتهم بطريقة أفضل عن الآخرين كما حدث عندما جاء إلى المدرسة لأول مرة . كان ينتابه غضب الرجل البدين الذي يثور بسرعة ويهدأ بسرعة . وسرعان ما اكتشف تلاميذه أن هناك طيبة كامنة وراء الذم الذي كان دائما

يوجهه إليهم . لم يكن يتحمل المهرجين أو المغفلين ولكنه كان على استعداد لأن يبذ
مع الصبية الذين يشك في أنهم يخفون ذكاء وراء عنادهم وكان يحب أن يدعوهم
الشاي ورغم أنه كان يقسم ألا يجعلهم يرون أبدا الكعك والفطائر لأن الاعتقاد السائ
كان أن بدانته سببها شهية نهمة، وكذلك شهية الدودة الشريطية النهمة التي تقيم في
فقد كانوا يقبلون دعوته مسرورين .

كان فيليب الآن أكثر ارتياحا ، ولأن المكان كان محدودا للغاية فلم تكن هناك
إلا للتلاميذ في المدرسة العليا وكان حتى ذلك الوقت يعيش في القاعة الكبرى التي
جميعا يأكلون فيها ، وكان من آن لآخر يشعر بالضجر لتواجده مع الناس ويريد بس
يكون وحده . وبدأ يقوم بمسيرات وحده في الريف . فقد كان هناك نهر صغير على
باسقة وكان النهر يجري عبر حقول خضراء ولم يعرف لماذا كان يشعر بالسعادة عند
يسير على جانبي النهر . وعندما كان يتعب من السير كان يستلقي ووجهه نحو الأرض
الحشائش ويراقب الأسماك الصغيرة والضفادع . وكان التجول بتؤدة في الجوار
بارتياح غريب . وفي وسط النهر كان التلاميذ يتدربون على رمي الشباك في الصيف
المنطقة كانت هادئة بقية السنة: وقد اعتاد الصبية أن يتجولوا في المنطقة أحيانا كل
يمسك بذراع الآخر، وأحيانا يسير التلميذ المجد في تؤدة وهو ينظر أمامه ساهما يكرر
شيئا يجب أن يحفظه عن ظهر قلب. وكانت هناك مستعمرة من طيور الغِدفان تعيش
أشجار الدِردار الكثيرة وكانت تملأ الجو بصيحاتها الحزينة .وعلى أحد جانبي النهر
ترقد الكاتدرائية ببرجها الكبير. وكان فيليب الذي لم يكن يعرف شيئا عن الجمال بعد ،
عندما ينظر إليها ببهجة مقلقة لم يكن يفهمها. وعندما أصبحت لديه غرفة يستذكر
فيها (كانت حجرة مربعة صغيرة يشاركه فيها أربعة تلاميذ تطل علي حي فقير) ا
صورة لمنظر الكنيسة وعلقها فوق المنضدة التي يستذكر عليها . وجد بنفسه شوقا جدي
رآه من نافذة حجرة الفصل الرابع . فكانت تطل على مروج قديمة معتنى بها وأشجار
أوراقها كثيفة وافرة . وجلب ذلك إلى قلبه شعور غريب ولم يعرف ما إذا كان سرورا أم
كأن أول فجر يبزغ لمشاعر الجمال . وقد صاحب ذلك تغييرات أخرى .وتحشرج صوته
يعد يسيطر عليه وخرجت من حنجرته أصوات غريبة.

ثم بدأ يحضر الدروس التي كان يعقدها ناظر المدرسة في مكتبه بعد تناول ال
مباشرة وذلك لإعداد التلاميذ لنيل شهادتهم.

ولم تتمكن تقوى فيليب من الصمود أمام اختبارات الزمن فقد توقف منذ فترة طويلة
قراءة الإنجيل بالليل؛ غير أنه الآن تحت تأثير السيد بيركنز وحالة جسمه الجديدة التى أ
كثيرا فقد عادت إليه مشاعره القديمة ولام نفسه بمرارة على التخلى عن إيمانه. وراحت
الجحيم تشتعل بعنف أمام عينيه. فلو كان قد مات فى ذلك الوقت الذى كان فيه أفضل

د فقد: كان يؤمن إيمانا مطلقا بأن الألم يستمر إلى الأبد، كان يؤمن ب
انه بأن هناك سعادة أبدية. وارتعد لما لاقاه من أخطار.
اليوم الذى تكلم مع السيد بيركنز بعطف، عندما كان يتألم بسبب تلك الصورة
من سوء المعاملة التى لم يكن يتحملها على الإطلاق،فقد حمل فيليب لأستاذه افتتانا
ان الكلب بصاحبه. وقدح ذهنه بلا جدوى لكى يجد طريقا لإرضائه واعتز بأى كلمة
ات الإطراء تخرج من بين شفتيه. وعندما كان يذهب إلى الاجتماعات الهادئة
فى منزله كان على استعداد لأن يستسلم استسلاما كاملا. وأبقي عينيه مثبتتين
ى السيد بيركنز اللامعتين وجلس وفمه نصف مفتوح ورأسه مدفوعة إلى الأمام قليلا
فوته كلمة مما يقولها السيد بيركنز . ولأن المكان كان عاديا ليس فيه شيء غير
فقد كانت الموضوعات التي يتناولونها مثيرة للمشاعر بشكل غير عادى . وغالبا ما
موضوع الذي يتحدث فيه الأستاذ بأسره فيدفع الكتاب الذي أمامه إلى الخلف ويضم
عا أمام صدره وكأنه يريد أن يوقف نبض قلبه ، ويتحدث عن أسرار دينهم . وأحيانا
يليب لا يفهم ، لكنه لم يكن يريد أن يفهم ، فقد شعر بشكل مبهم أنه يكفيه أن يحس

ام السيد بيركنز بهذا الجزء من عمله في جد عظيم . وهنا لم يكن يتخلل الدرس شيئا
حظات الهزل التي جعلت الأساتذة الآخرين يتشككون في أن السيد بيركنز ثرثار ذلق
ن . وكان يجد الوقت لكل شيء في يومه المزدحم ، فاستطاع في فترات متقطعة معينة
خذ الطلبة الذين يريد أن يعدهم للشهادة نحو ربع ساعة أو عشرين دقيقة . فقد كان
هم أن يدركوا أن هذه هي الخطوة الجدية الأولى في حياتهم ، وحاول أن يغوص إلى –
مي يريدني أن أكرس نفسي لخدمة الكنيسة .

– وأنت ؟ ..

وتحول فيليب بعينيه بعيدا فقد خجل من أن يجيب بأنه شعر أنه ليس أهلا لذلك .

وقال السيد بيركنز :

– إني لا أعرف حياة مليئة بالسعادة كحياتنا ، أود لو أستطيع أن أجعلك تشعر بما في هذه
حياة من ميزاتٌ عظيمة . إن في مقدور المرء أن يخدم الله في كل سبيل يسلكه في الحياة
كننا نحن أقرب من غيرنا إليه ولست أريد أن أؤثر فيك ولكنك إذا قررت فلن يسعك إلا أن
س بتلك المتعة وتلك الراحة اللتين لا تفارقان المرء بعد ذلك أبدا .

ولم يجب فيليب ولكن الناظر قرأ في عينيه أنه فهم شيئا مما حاول أن يشير إليه :

– إذا مضيت في سبيلك التي أنت سائر فيه الآن فستجد نفسك في يوم من الأيام أول هذه
المدرسة، وستكون واثقا من الحصول على منحة دراسية عند رحيلك .. هل لديك أموال خاصة

بك ؟

فأجاب فيليب :

– إن عمى يقول إني سأحصل على مائة جنيه كل عام بعد بلوغي الواحدة والعشرين..

– ستكون ميسور الحال .. أما أنا فلم يكن لدى شيء..

وتردد الناظر قليلا ثم أخذ يرسم بقلمه خطوطا على قطعة من ورق النشاف أمامه ومضى قائلا :

– إني أخشى أن اختيارك لمهنتك سيكون محدودا ، فأنت لن تستطيع بطبيعة الحال أن تختار عملا يتطلب نشاطا جسديا .

واحمر فيليب حتى جذور شعر رأسه ، كعادته دائما عندما يشير أحد إلى قدمه الحنفاء.. ونظر إليه السيد بيركنز في جد ووقار وقال :

– إني أظنك تبالغ كثيرا في حساسيتك بالنسبة لسوء حظك هذا ؟ ألم يخطر ببالك أن تشكر الله عليه ؟

ورفع فيليب إليه عينيه بسرعة ، وزم شفتيه ، وتذكر كيف وثق منذ أشهر فيما قالوه وابتهل إلى الله أن يشفيه كما شفي الأكمه والأبرص .

– ما دمت تقبل الأمر وأنت متمرد فلن يسبب ذلك إلا الخجل ، ولكنك إذا اعتبرت أنه محنة خصك الله بها لأن كتفيك القويتين تستطيعان أن تتحملاها وأنها من دلائل محبة الله لك ..فإنها ستصبح مصدرا لسعادتك بدلا من تعاستك ..

ولاحظ الناظر أن الصبي يكره مناقشة هذا الموضوع فتركه لحال سبيله ..

ولكن فيليب فكر في كل ما قاله الناظر ، وانشغل فكره تماما بالحفل الذي ينتظره وتملكته نشوة صوفية غامضة ، وبدا كأن روحه قد تحررت من أغلال الجسد وأنه يحيا حياة سعيدة ، وراح يبتغى الكمال بكل ما أوتى من عاطفة خماسية وأراد أن يهب نفسه كلية لخدمة الله ، وقرر نهائيا أن يلتحق بخدمة الكنيسة . وعندما أتى اليوم العظيم اهتزت روحه لكل ما سبق هذا اليوم من استعداد .. بالكتب التي قرأها وأكثر من ذلك كله بالأثر الطاغي الذي تركه في نفسه ناظر المدرسة حتى لم يستطع أن يكبح مشاعره التي تأرجحت بين الرهبة والجذل ولكن فكرة واحدة عذبته فقد كان يعلم أن عليه أن يسير بمفرده حتى يصل إلى المحراب، وأفزعه أن ذلك لن يظهر عرجه للمدرسة كلها التي ستحضر الحفل فحسب بل سيظهره كذلك للغرباء ، من المدينة ، أو الآباء الذين جاءوا ليروا أبناءهم يُكرسون . ولكنه أحس فجأة عندما حان الموعد أنه يستطيع تقبل هذه المذلة مغتبطا مسرورا . وبينما كان يعرج متجها إلى المحراب بحجمه الصغير غير ذي

قيمة تحت قبة الكنيسة الشاهقة .. أحس أنه يقدم عاهته قربانا للرب الذي يحبه !

●●●

ولكن فيليب لم يحتمل العيش طويلا في عالم التصوف والخيال .فقد حدث له الآن ما حدث له عندما استولى عليه شعوره الديني لأول مرة ذلك أنه وقد أحس بقوة جمال الإيمان والرغبة في التضحية بذاته يلتهب بها قلبه وتتألق فيه تألق الدرة الكريمة بدت قوته قاصرة عن تحقيق آماله وقد أنهكه العنف الذي اتسمت به عاطفته وبدا ينسى وجود الله الذي خيل إليه أنه اكتنفه تماما ، وامتلأت نفسه فجأة بجدب لا مثيل له ، وأضحت واجباته الدينية التي كان يؤديها بانتظام مجرد شكليات . وما لبث في أول الأمر أن لام نفسه لهذا التداعي من جانبه، وحثه خوفه من نار الجحيم إلى تجديد نشاطه ولكن العاطفة ماتت وسلبت أفكاره خواطر أخرى شيئا فشيئا .

وقلما كان لفيليب أصدقاء . فقد عزلته عادة القراءة عن الصحاب ، وأصبحت تلك العادة أمرا ملحا أشعرته بالقلق والضجر بعد أن ظل في صحبة أصدقائه بعض الوقت .. وكان معجبا بنفسه للمعلومات الغزيرة التي استقاها من كثير مما قرأ من الكتب، وكان ذهنه متيقظا، ولم يكن لديه من الحذق مايمكنه من إخفاء ازدرائه لغباء رفاقه، فكانوا يتهمونه بأنه معتز بنفسه، وإذا لم يكن يفوقهم إلا في أمور غير ذات قيمة بالنسبة لهم فقد راحوا يتساءلون في سخرية ما الذي يدعوه إلى الخيلاء والغرور .. وأخذت روح التهكم تنمو في نفس فيليب ووجد أنه اكتسب مهارة في قول كل ما هو مرير يؤلم الناس أشد الألم ، ويقوله لأنه يسره ويسليه دون أن يدرك ما فيه من أذى ، وكان يكدره أن يجد ضحاياه ينظرون إليه في نفور شديد . ودفعه الذل الذي لاقاه في أيامه الأولى في المدرسة إلى الانقباض بعيدا عن رفاقه ، ولم يتمكن على الإطلاق من التغلب على شعوره هذا نهائيا ، فظل خجولا صامتمعجبا بنفسه للمعلومات الغزيرة التي استقاها من كثير مما قرأ من الكتب ، وكان ذهنه متيقظا . ولم يكن لديه من الحذق ما يمكنه من إخفاء ازدرائه لغباء رفاقه فكانوا يتهمونه بأنه معتزا ، بالرغم من أنه كان يعمل جاهدا لكي يبعد عنه عطف غيره .. فإنه كان يتوق من أعماق قلبه إلى الشهرة التي يتمتع بها بعضهم في سهولة ويسر ، وكان يعجب بهؤلاء عن بعد إعجابا شديدا . ومع أنه كان يميل إلى أن يَسخر منهم أكثر مما يسخر من غيرهم ويوجه النكات الخفيفة لهم ، فقد كان يسره أن يستبدل بوصفه وصفهم مهما كلفه ذلك من ثمن ، بل كان يتمنى لو استطاع أن يستبدل بمكانه مكان أغبى طالب سليم الجسم في المدرسة .واعتاد عادة خاصة به . فكان يتصور أنه يضع روحه في جسد تلميذ سليم طيب القلب ويتكلم بصوته ويضحك مثله ويتصور نفسه يفعل تماما كل ما يفعله هذا الصبي ، وكان من الواضح

أنه لم يعد هو نفسه. وبهذه الطريقة كان يستمتع بفترات كثيرة من السعادة الخيالية .

وفي بداية فترة عيد الميلاد التي أعقبت تكريسه وجد فيليب نفسه ينتقل إلى حجرة در أخرى .وكان أحد التلاميذ الذين يشاركون في هذه الحجرة اسمه «روز» وكان في نفس ف فيليب ودائما ما كان فيليب ينظر إليه بإعجاب مشوب بالحسد . لم يكن الصبي جميل ال ولكن يديه الكبيرتين وعظامه العريضة توحي بأنه سيصبح رجلا طويل القامة . كانت م تعوزها الرقة ولكن كانت له عينان جذابتان وعندما كان يضحك (كان دائما يضحك) وجهه يتجعد حول عينيه .ولم يكن ذكيا ولا غبيا ولكنه كان جيدا بما فيه الكفاية في وأكثر من جيد في المباريات الرياضية . كان محبوبا من الأساتذة والتلاميذ وبدوره يحب الجميع .

عندما وضع فيليب في حجرة الدرس الجديدة لا حظ رغما عنه أن التلاميذ الآخرين ال أمضوا معا ثلاث فترات دراسية رحبوا به في فتور . وكان شعوره بأنه دخيل يجعله ع ولكنه تعلم أن يخفي مشاعره ووجد التلاميذ أنه هادئ ولا يتدخل في شيء أما مع رو كان خجولا وحادا أكثر من المعتاد . وفي يوم من الأيام ، وفجأة تماما ، سأل فيليب إذا يريد أن يسير معه حتي ملعب كرة القدم ، فاحمر وجه فيليب وقال :

– لا أستطيع أن أسير بسرعة كافية لك .

–كلام فارغ .. هيا بنا .

وقبل أن يبدءوا سيرهم وضع تلميذ رأسه أمام فتحة باب حجرة الدرس وطلب من ر يذهب.

–لا أستطيع أن أذهب معك فلقد وعدت الآن كارى أن نذهب معا .

وقال فيليب بسرعة :

– لا تهتم بي .. فلن أتضايق أبدا

– كلام فارغ .

ونظر روز إلى فيليب بعينيه الطيبتين وضحك وأحس فيليب برجفة غريبة في قلبه

وفي فترة قصيرة نمت صداقتهما بسرعة صبيانية ، ولم يعد الاثنان ينفصلان عن . وتعجب التلاميذ الآخرون لهذه الصداقة الحميمة المفاجئة وكانوا يسألون روز ما الذ في فيليب . فكان يرد قائلا :

– لا أعرف .. إنه حقا ليس فتي سيئا .

وسرعان ما اعتاد التلاميذ على رؤية الاثنين يذهبان إلى الكنيسة الصغيرة يتحدثا شبك كل منهما ذراعه في ذراع الآخر. وإذا وجد أحدهما في مكان ما لا بد أن يوجد

ومن باب الاعتراف بالملكية كان الصبية عندما يريدون روز يتركون رسالة مع كارى وكان فيليب في البداية متحفظا. ولم يكن يدع نفسه يستسلم كلية للابتهاج الذي شعر به وفي تلك اللحظات فإن ارتيابه في الأقدار استسلم لسعادة غامرة. كان يرى أن روز هو أروع زميل رآه في حياته. وقد أصبحت الآن كتبه شيئا تافها فلم يكن يأبه لها عندما يكون هناك شيئا أكثر أهمية يشغله. وقد اعتاد أصدقاء روز أن يتناولوا الشاي في حجرة الدراسة أو يجلسون بلا هدف عندما لا يكون لديهم شيء آخر يفعلوه – كان روز يحب زمرة أصدقائه وما يوفره ذلك من فرصة للمزاح – ووجدوا أن فيليب كان زميلا مهذبا . وكان فيليب سعيدا .

وعندما حل آخر يوم في الفترة الدراسية اتفق فيليب وروز علي القطار الذي سيعودان عليه حتى يمكنهما أن يتقابلا في المحطة ويتناولا الشاي في المدينة قبل العودة إلى المدرسة . وعاد فيليب إلى منزله مثقل القلب . وكان يفكر في صديقه روز طيلة الإجازة وكان يتخيل كل شيء سيشتركان في القيام به في الفترة الدراسية التالية . وشعر بالملل في بيت القس ، وعندما سأله عمه في آخر يوم من الإجازة السؤال المعتاد بالطريقة المصطنعة المألوفة :

– هل أنت سعيد بالعودة إلى المدرسة ؟

رد فيليب بمرح :

– إلى حد ما .

ولكي يضمن مقابلة روز في المحطة استقل قطارا مبكرا عن العادة . فسار وانتظر علي رصيف المحطة ساعة . وعندما وصل القطار إلى «فافرشام» التي كان يعلم أن روز سيغير قطاره عندها . جرى علي طول المحطة في نشاط . غير أن روز لم يكن في القطار . وسأل فراش في المحطة متى يصل القطار التالي وراح ينتظر غير أن آماله خابت مرة أخرى وانتظر ... غير أن آماله خابت مرة أخرى : كان يشعر بالبرد وقد عضه الجوع ، فراح يسير في شوارع جانبية وأحياء فقيرة متجها إلى المدرسة من طريق مختصر .وجد روز في الفصل وقد وضع قدميه على رف المدفأة يتحدث باهتمام إلى نصف دستة من الصبية كانوا يجلسون على أي شيء يمكن الجلوس عليه . وصافح فيليب بحماس غير أن وجه فيليب عبس لأنه أدرك أن روز نسي كل شيء عن موعدهما . وقال روز :

– لماذا تأخرت كثيرا هكذا ؟ لقد اعتقدت أنك لن تجيء أبدا .

وقال صبي آخر :

– لقد كنت في المحطة في الساعة الرابعة والنصف لقد رأيتك هناك .

واحمر وجه فيليب قليلا فلم يكن يريد أن يعرف روز أنه كان من الحماقة بحيث راح ينتظره .

واخترع حكاية ينقذ بها موقفه فقال :

–كنت أودع إحدي أقارب العائلة فقد طلب مني ذلك .

غير أن خيبة أمله جعلته عابسا بعض الشيء. فجلس في صمت وعندما كان أحد يكلم كان يرد بكلمات مقتضبة . كان يفكر أن ينهي الأمر مع روز عندما يلتقيان بمفردهما. ولك عندما غادر الآخرون الفصل نهض روز وجلس علي ذراع المقعد الذي يجلس عليه فيلي وقال :

– أنا سعيد جدا لأننا في نفس الفصل هذه الفترة ، شيء رائع أليس كذلك ؟

كان روز يبدو سعيدا حقا لرؤية فيليب ولذلك زال الضيق الذي كان يشعر به فيليب . وبد يتحدثان وكأنهما لم يفترقا سوى دقائق عن آلاف الأشياء التي تثير اهتمامهما.

●●●

في مبدأ الأمر كان فيليب شاكرا جدا لصداقةروز، ولذلك لم يكن يغامر بطلب أي شيء من فقبل الأمور كما تجيء واستمتع بحياته . غير أنه بدأ يتضايق من لطف روز الذي ينشره عل نطاق عالمي . كان يريد صلة أكثر خصوصية ، وطالب بحق كان من قبل يعتبره خدمة . ورا يراقب بغيرة رفقة روزمع الآخرين ، ورغم أنه كان يعرف أن ذلك ليس معقولا فلم يك يستطع أحيانا أن يمنع نفسه من توجيه كلام مرير إليه. فإذا قضي روز ساعة يلعب في فص آخر فإن فيليب يستقبله عندما يعود إلى فصلهما بوجه مقطب الجبين. وقد يظل عابسا يو بأكمله وكان يعاني أكثر لأن روز إما لم يلاحظ عبوسه أو تعمد تجاهله. .

لم يكن نادرا أن يصطنع فيليب شجارا مع روز فينقطع الحديث بينهما عدة أيام ، ولك فيليب لم يكن يحتمل أن يظل غاضبا معه لمدة طويلة وكان يعتذر لروز حتي لو اقتنع أنه ه الذي كان علي حق . ثم يستمرا أسبوعا كأعظم أصدقاء . غير أن الأحوال الجيدة سرعان م تنتهي وسرعان ما وجد فيليب أن روز يسير معه بحكم العادة القديمة أو خشية أن يغضبه فلم يعد بينهما مواضيع يتحدثون عنها وكان روز كثيرا ما يشعر بالملل . وأحس فيليب أن عاهته بدأت تثير غضبه .

وقرب نهاية الفترة الدراسية أصيب صبيان أو ثلاثة بالحمى القرمزية، وبدأ الحديث يتردد كثيرا عن احتمال إبعادهم عن المدرسة ونقلهم إلى منازلهم حتي لا ينتشر المرض في صورة وباء . غير أنه تم عزل المرضى .ولما لم يصب آخرون فقد افترض أن المرض لن ينتشر وكان فيليب واحدا من الذين أصيبوا بالحمى القرمزية. وظل في المستشفي طوال إجازة عيد الفصح وعاد في بداية الفترةالصيفية إلى منزل القس ليتنفس قليلا من الهواء الطلق . وعلى الرغم من التأكيدات الطبية أن حالة فيليب لم تعد معدية فقد استقبله القس في ريبة ؛ ورأى

أنه من التهور من الطبيب أن يقول أن فترة نقاهة ابن أخيه يجب أن تكون في جوار البحر ولم يوافق على أن يعود فيليب إلى منزله إلا لأنه ليس لديه مكان آخر يمكن أن يأوي إليه .

عاد فيليب إلى المدرسةفي منتصف الفترة الدراسية . وقد نسي مشاجراته مع روز ولكنه تذكر فقط أن روز هو أحسن أصدقائه. وأدرك أنه كان سخيفا وقرر أن يكون أكثر حكمة وتعقل. فأثناء مرضه بعث إليه روز برسالتين قصيرتين كل منها يقول فيها بين ما يقول «أسرع وعد إلينا» واعتقد فيليب أن روز ينظر قدما بشغف إلى عودته كما كان فيليب يشتاق لرؤية روز . ووجد أنه بسبب وفاة أحد التلاميذ بالحمى القرمزية حدث تغير في ترتيب التلاميذ في الفصول ولم يعد روز في نفس فصل فيليب . وكانت تلك خيبة أمل مريرة . وعندما وصل إلى المدرسة اندفع إلى فصل روز . كان روز جالسا إلى منضدته يستذكر مع صبي اسمه هانتر واستدار بغضب عندما دخل فيليب وصاح قائلا:

– يا للشيطان .. من هذا ؟ ...آه إنه أنت .

وتوقف فيليب محرجا وقال :

– فكرت أن أجيء لأرى كيف حالك .

– إننا نذاكر فقط .

وتدخل هانتر في الحديث قائلا :

– متي عدت ؟

– منذ خمس دقائق .

وجلسا وراحا ينظران إليه كأنه يزعجهما . وكان من الواضح أنهما يتوقعان منه أن يتركهما بسرعة . احمر وجه فيليب وقال لروز :

– سوف أرحل الآن . يمكنك أن تتصل بي عندما تنتهيا من عملكما .

– وهو كذلك .

أغلق فيليب الباب خلفه وسار يعرج حتى وصل إلى فصله . وشعر بأنه جرح بشكل مخيف. ولم يبد روز سعيدا لرؤيته بل كان يبدو عليه الضيق . لعلهما لم يكونا أكثر من معارف . ورغم أنه انتظر في فصله لم يغادره لحظة عسي أن يحضر روز فإن صاحبه لم يظهر أبدا ؛ وفي صباح اليوم التالي عندما ذهب لأداء الصلاة رأى روز وهانتر يسيران كل في ذراع الآخر.

ولم يستطع أن يراه بنفسه قاله له الآخرون . فقد نسي أن ثلاثة أشهر زمن طويل في حياة تلميذ ورغم أنه أمضاهم في وحدة فإن روز قد عاش حياته بالكامل . وقد احتل هانتر المكان الشاغر . ووجد فيليب أن روز يتجنبه في هدوء . غير أنه لم يكن صبيا يتقبل موقفا ما دون أن يتكلم بشأنه ؛ فانتظر حتي تأكد أن روز وحده في فصله ودخل وسأل قائلا :

–هل يمكن أن أدخل ؟

نظر إليه روز بحرج وقال :

– نعم إذا أردت .

وقال فيليب بلهجة ساخرة :

– هذا كرم منك فعلا .

– ماذا تريد ؟

– أريد أن أقول لماذا كنت سخيفا بعد أن عدت ؟

– لا تكن أحمق .

– لا أعرف ماذا ترى في هانتر ؟

–هذا أمر خاص بي .

وجه فيليب نظره إلى الأرض . لم يستطع أن يجعل نفسه يقول ما كان يدور في خلده كان يخشى أن يهين نفسه .وقال روز :

– علي أن أذهب إلى صالة الرياضة .

وعندما وصل إلى الباب أرغم فيليب نفسه أن يقول :

–أريد أن أقول لك يا روز .. لا تكن وحشا كاسرا .

– اذهب إلى الجحيم .

أغلق روز الباب بعنف وراءه وترك فيليب وحيدا . وانتفض فيليب من شدة الغضب . وذهب إلى فصله وأدار الحوار في ذهنه . لقدكره روز الآن. وكان يريد أن يؤلمه وفكر في أشياء لاذعة كان يمكن أن يقولها له . وأطال التفكير في نهاية صداقتهما وتخيل أن ثمة آخرين يتكلمون عنها . وتخيل أنهم يقولون على أي حال فلم يكن من المحتمل أن تستمر طويلا . أنه لم يتمسك بكارى إطلاقا .

ولكي يبين عدم مبالاته أقام صداقة مع تلميذ اسمه «شارب» كان يكرهه ويحتقره كان هذا الصبي من لندن ، ذا شعر سميك، بدأت بوادر شعر تظهر فوق شفته وكان حاجباه كثيفان متصلان فوق أنفه . وكانت يداه ناعمتين وكانت أخلاقه سامية بالنسبة لسنه وتكلم بمسحة من لهجة لندن وكان من أولئك الصبية بطيئى الحركة الذين يصعب عليهم ممارسة الرياضة وكان يخترع أعذارا عبقرية لتجنب المباريات الرياضية التي كانت إجباريةفي المدرسة . وكان التلاميذ والأساتذه ينظرون إليه بنوع من الكراهية الغامضة وكان من باب الغطرسة أن سعي فيليب إلى صداقته . وكان شارب يعتزم الذهاب إلى

مانيا لمدة عام بعد انتهاء فترتين دراسيتين . وكان يكره المدرسة التي ينظر إليها على أنها إهانة عليه أن يتحملها حتي يكبر سنا وينطلق إلى العالم. وكانت لندن هي كل ما يهمه، وكانت لديه حكايات كثيرة عما فعله هناك أثناء الإجازة – ومن حكاياته التي كان يحكيها بصوت رقيق عميق – خرجت الشائعة الغامضة عن شوارع لندن بالليل وكان فيليب يستمع إلى تلك الحكايات مسحورا مشمئزا . وبخياله الجامح كان يرى الناس تتجمع حول أبواب المسارح الرخيصة، وكأن يرى الأضواء تنبعث من المطاعم ، والحانات حيث يجلس الرجال نصف مخمورين علي كراسي يتحدثون إلى الساقيات ، وتحت أعمدة الأنوار في الشوارع.

يمر كل من يبغي المسرات تحت ضوء خافت . وقد أعاره شارب روايات رخيصة من شارع «هوليويل» قرأها فيليب في حجرة نومه بنوع من الخوف الرائع .

وحاول روز مرة أن يصلح الأمور . فقد كان فتى طيب لا يحب أن يكون له أعداء .

– أقول يا كارى .. لم تتصرف كشخص عنيد ؟ فلن يفيدك بأي شيء أن تقاطعني وما إلى ذلك .

فرد فيليب قائلا:

– لا أعرف ماذا تعني .

– أنا لا أفهم لماذا لا نتبادل الكلام مع بعض.

– أنت تضجرني.

– أنت حر .

وهز روز كتفيه وترك فيليب . ابيض فيليب كما يحدث له دائما عندما يستثار . وراح قلبه يدق بعنف . وعندما تركه روز شعر فجأة بأنه بائس حقا . كان مستعدا أن يضحي بأي شيء كي يظل صديقا لروز . وكره أنه تشاجر معه والآن وقد رأي أنه آلمه فقد أسف أسفا شديدا .

ولكنه في هذه اللحظة لم يكن سيد نفسه فقد استولى عليه شيطان ما أرغمه على أن يقول أشياء مريرة رغما عنه ولو أنه في وقت ما كان يريد أن يصافح روز ويلتقيان في منتصف الطريق . وكانت الرغبة في أن يجرح قوية جدا لديه . لقد أراد أن ينتقم لنفسه من الآلام والمهانة التي تحملها . كانت المسألة هي عزة النفس والحماقة أيضا لأنه كان يعرف أن روز لن يأبه لشيء بينما هو سيعاني بمرارة . وواتته فكرة أن يذهب إلى روز ويقول له : دعنا نتصالح . ولكنه كان يعرف أنه لن يستطيع أن يفعل ذلك أبدا . كان يخشي أن يسخر روز منه . كان غاضبا من نفسه . وعندما جاء شارب بعد ذلك بفترة قليلة انتهز أول فرصة ليتشاجر معه . وكانت لدى فيليب حاسة شيطانية يستطيع بها أن يعرف نقاط الضعف في الآخرين . وكان يستطيع أن يقول أشياء تؤثر في النفس لأنها حقيقية . ولكن شارب كانت له الكلمة

الأخيرة . إذ قال :

–لقدسمعت الآن روز يتحدث عنك مع ميلور . وقال ميلور لروز «لماذا لم تركله ؟ فس يعلمه ذلك بعض الأخلاق . وقال روز» لم أحب أن أفعل ذلك . هذا الأعرج الملعون.

أصبح فيليب فجأة قرمزي اللون . فلم يستطع أن يرد إذ كان هناك حجر في حنجرته تقريبا أن يخنقه .

●●●

ونقل فيليب إلى الفرقة السادسة ، ولكنه أصبح في ذلك الوقت يمقت المدرسة وقتئذ صميم فؤاده ، ولما كان قد فقد طموحه فإنه لم يعبأ بشيء سواء أبلى بلاء حسنا أم سيئ فكان يستيقظ في الصباح بقلب واهن ، لأن عليه أن يمضى يوما آخر من الكد المتواص وعافت نفسه أن يفعل ما يؤمر بفعله وأضنته القيود لا لأنها كانت قيودا غير معقولة لمجرد أنها قيود . وتاق إلى الحرية ، ومل تكرار الأشياء التي كان فهمها منذ البداية من أ فتى غبي القريحة .

لقد كان في وسعك إن كنت من تلاميذ السيد بيركنز أن تعمل أو لا تعمل كما تشاء. وك حريصا على الدرس شارد الفكر في وقت واحد ، وكان فصل الفرقة السادسة في جزء من ال القديم الذي أعيد بناؤه ، به نافذة على الطراز القوطي .. وحاول فيليب أن يخادع شعو بالملل بأن يرسم هذا البناء المرة بعد المرة ، وكان في بعض الأحيان يرسم من الذاكرة ب الكنيسة المرتفع أو الباب المؤدى إلى الأرض المجاورة ، ذلك أنه كان يهوى الرسم ، وكا العمة لويزا في شبابها ترسم بألوان الماء .. وكان لديها عدد كبير من الكراسات مملوءة بص الكنائس والقناطر القديمة والأكواخ الجميلة . وكانت هذه الصور تعرض في حفلات الش التي يقيمها القس ، وقد أهدت فيليب مرة صندوقا من الألوان في عيد الميلاد ، وبدأ فيل بتقليد الصور التي رسمتها هي ونقلها خيرا مما كان متوقعا منه وما لبث أن رسم صو صغيرة من عنده وشجعته على ذلك السيدة «كاري» فقد كان ذلك طريقا سويا لإبعاده الفساد، ثم أن رسومه ستكون فيما بعد ذات فائدة في الأسواق ، وقد وضعت اثنتان منها ثلاث في إطارات وعلقت على الحائط في حجرة نومه .

ولكن السيد بيركنز أوقفه في أحد الأيام وهو يتلكأ خارجا من فصله بعد انتهاء درو الصباح :

– أريد أن أتحدث معك يا كاري!

ووقف فيليب وأخذ السيد بيركنز يعبث في لحيته بأصابعه النحيلة وينظر إلى فيليب كأ

يفكر فيما يريد أن يقول ، ثم قال فجأة :

– ماذا بك يا كارى؟

واحمر وجه فيليب ونظر إليه بسرعة ، ولكنه كان يعرفه جيدا حينئذ ، فانتظره كي يواصل حديثه دون أن يرد هو على سؤاله :

– إني لست راضيا عنك في الفترة الأخيرة ، لقد أصبحت متراخيا متوانيا ويبدو أنك لاتهتم بعملك .. ولذلك أصبح رديئا طابعه الإهمال .

فقال فيليب :

– إنى لجد آسف يا سيدي ..

– أهذا كل ما تقوله دفاعا عن نفسك ؟

وأرخى فيليب عينيه وهو عابس .. وكيف يجيبه بأنه سئم كل شيء ختي الموت ..

– أنت تعلم أنك ستتأخر في هذه الفترة بدلا من أن تتقدم .. ولن أكتب عنك تقريرا جيدا جدا ..

وتعجب فيليب ماذا سيقول لو علم كيف قوبل هذا التقرير .. لقد وصل التقرير وهم على مائدة الإفطار، وألقت السيدة كارى عليه نظرة في غير اكتراث ، ثم ناولته لفيليب وقال وهو يجرى بأصابعه على غلاف قائمة للكتب المستعملة :

– ها هو ذا تقرير المدرسة عنك ، من الخير أن ترى ما جاء به .

وقرأ فيليب التقرير ، وسألته العمة لويزا :

– هل التقرير جيد ؟

فأجابها فيليب مبتسما وهو يناولها إياه :

– ليس جيدا بالدرجة التي استحقها .

وردت العمة لويزا قائلة :

– سأقرأه فيما بعد عندما أحضر نظارتي ..

ولكن مارى آن دخلت بعد الإفطار لتنبئهم بقدوم القصاب ونسيت العمة لويزا كل شيء تقريبا عن التقرير. ومضى السيد بيركنز يقول :

– إني مستاء منك يا فيليب ولا أستطيعَ أن أفهم شيئا. إني أعلم أنك تستطيع أن تفعل أي شيء إذا أردت . ولكن يبدو أنك لم تعد ترغب في ذلك ولقد كنت أعتزم أن أجعلك رئيسا للفصل في الفترة القادمة ، ولكنى أعتقد أن من الخير أن أنتظر قليلا ..

واحمر وجه فيليب خجلا ، ولم يعجبه تغاضى الناظر عنه ، فزم شفتيه وقال :

– وهناك شئ آخر ، إن عليك من الآن أن تفكر في منحتك الدراسية .. فلن تنال شيئا إذا لم تبدأ دراستك بغاية الجد .

وتضايق فيليب من هذه المحاضرة ، فقد غضب من الناظر وغضب من نفسه .. وقال :

ـ لا أعتقد أنى سأذهب إلى اكسفورد ..

ـ ولم لا ؟ لقد كنت أعتقد انك تفكر في الانخراط في سلك رجال الدين .

ـ لقد غيرت رأيي ..

ـ ولماذا ؟

ولم يجب فيليب ، ووقف السيد بيركنز رافعا قامته بطريقته المعهودة الشاذة ، باديا كأحد الأشخاص في صور «بيرجينيو» وراح يعبث بلحيته بأصابع يده النحيلة وهو مفكر ساهم وأخذ ينظر إلى فيليب وكأنه يحاول أن يفهم .. ثم ذكر له فجأة أنه يستطيع أن يمضي لحاله .

وكان من الواضح أن السيد بيركنز لم يكن راضيا عنه فقد حدث في إحدى الأمسيات بعد ذلك بأسبوع أن اضطر فيليب إلى دخول المكتبة حاملا بعض الأوراق فعاد الناظر إلى حديثه ولكنه انتهج هذه المرة طريقة أخرى فلم يخاطبه كما يخاطب الناظر تلميذا بل خاطبه كما يخاطب إنسان إنسانا آخر .. ولم يبد عليه خينئذ أنه كان مهتما بأعمال فيليب ، سواء كانت رديئة أو جيدة ، وان فرصته ضعيفة أمام منافسيه الأقوياء للحصول على المنحة الدراسية ليكون أهلا للذهاب إلى اكسفورد .. بل كان أهم شئ هو تغيير نية فيليب بشأن حياته المستقبلة . وأخذ السيد بيركنز يعمل لكي يعيد إلى فيليب شوقه إلى الدخول في خدمة الكنيسة، فأخذ يتلاعب بمشاعره في مهارة فائقة ، وقد يسر له ذلك أنه هو ذاته كان متأثرا بالموقف تأثرا حقيقيا . لقد كان تغيير فيليب لرأيه سببا في شعوره بضيق مرير ، واعتقد حقا أنه يتخلى عن فرصته للسعادة في الحياة في سبيل شئ لم يعرف ما هو . وكان صوت الناظر مقنعا للغاية . وكان فيليب سريع التأثر بعواطف غيره من الناس فقد كان هو نفسه عاطفيا بطبعه بالرغم من هدوئه الظاهر.. فقلما كان وجهه ينم عما يشعر به ، إلا إذا كان ذلك بحمرة تعلو وجنتيه وكان بعض السبب في هذا راجعا إلى فطرته وبعضه إلى ما تعوده طوال السنين التي قضاها في المدرسة ، ومن أجل هذا تأثر أشد التأثر بما قاله الناظر وشكر له ما أظهره من اهتمام به .. وقد أنبه ضميره لما سببه له سلوكه من حزن ، وكان في ذلك شئ من الإطراء لفيليب إذ اختصه الناظر باهتمامه رغم ما عليه من عبء التفكير في المدرسة جميعها، ولكن فيليب أحس في نفس الوقت كأن هناك شخصا آخر يقف عند مرفقه وقد تعلق في يأس بكلمتين :

لن أفعل .. لن أفعل .. لن أفعل .

وشعر كأنه ينحدر في هاوية ، فقد كان مسلوب القوة إزاء الضعف الذي خيل إليه أنه ينبثق من قرارة نفسه وكأنه كالماء الذي يرتقى في زجاجة فارغة فوق حوض ممتلئ به.

وعض على نواجذه وهو يعيد هذه الكلمات :

– لن أفعل .. لن أفعل ..

وأخيرا وضع السيد بيركنز يده على كتفه وقال :

– إني لا أريد أن أوثر فيك ، بل يجب أن تقرر كل شئ بنفسك ، فادع الله أن يساعدك ويهديك.

كان هناك رذاذ خفيف يتساقط عندما خرج فيليب من بيت الناظر فسار إلي المنطقة التي تؤدي إلى جوار المدرسة . ولم يكن فيها إنسان قط .. وكانت الغربان ساكنة فوق الأشجار، وسار حول المنطقة في بطء وشعر بالحرارة ومن أجل هذا أراحه تساقط المطر وفكر في كل ما قاله السيد بيركنز في هدوء بعد أن تخلص من سطوة الناظر ، وحمد الله انه لم يستسلم له .

وكان الظلام يحول بينه وبين رؤية الكنيسة الضخمة الواضحة ، وشعر في هذه اللحظة بكره نحوها لما سببته له الصلوات الطويلة– التي كان يدفع دفعا لحضورها –من ملل وإرهاق ، فالتراتيل لم تكن تنتهي أبدا وكان لا بد لك أن تقف بجمود أثناء إنشادها ، ولم تكن تستطيع سماع العظة التي تشبه الأنين وكان جسمك يتململ لأن عليك أن تجلس ساكنا في الوقت الذي تريد فيه أن تتحرك. وفكر فيليب في الصلاتين اللتين كانا يؤديهما يوم الأحد في بلاكستابل. فقد كانت الكنيسة عارية باردة تغشاها رائحة الملابس المنشأة المعطرة، وكان أسقف الكنيسة وعمه يتبادلان إلقاء الوعظ . ولما كبر فيليب بدأ يعرف عمه حق المعرفة. وكان صريحا لا يتسامح، ولا يستطع أن يفهم كيف يمكن لرجل أن يقول أشياء في إخلاص بوصفه قسا ولا يفعلها على الإطلاق بوصفه رجلا . وأغضبه هذا الخداع لقد كان عمه رجلا ضعيفا أنانيا ، وكان همه الأول أن يبتعد عن المتاعب . وحدثه السيد بيركنز عن جمال الحياة التي يقضيها الإنسان في خدمة الله . وعرف فيليب أي نوع من الحياة كان يحياها القساوسة في هذا الركن من شرق «انجليا» التي كانت مسقط رأسه وكان من هؤلاء أسقف «وايتستون» وهى كنيسة تبتعد قليلا عن بلاكستابل .

وكان عزبا ، اتخذ الزراعة له هواية يسلي بها نفسه وكتبت صحيفة المقاطعة باستمرار عن قضاياه في محكمة المقاطعة ضد هذا وذاك . وعن عمال لا يدفع لهم أجورهم ، وتجار اتهمهم بغشه وخداعه ، وترددت الفضائح تقول انه يميت أبقاره جوعا ، وتردد كثير من الحديث عن ضرورة محاكمته ومنهم أسقف «فيرن» وهو رجل ملتح وسيم اضطرت زوجته إلى

...بسبب قسوته ، ثم راحت تملأ البلدة بالأقاصيص عن سوء سيرته. ومنهم أسقف «سيرل» وهى قرية صغيرة على شاطئ البحر وكان يري دائما في المساء جالسا في الحانة على مرمى حجر من بيته ، وذهب سدنة الكنيسة إلى السيد كارى ليسألوه النصح . ولم يكن واحد منهم يجد من يتحدث إليه سوى صغار المزارعين أو الصيادين ، وكانت أمسيات شتائهم طويلة تهب فيها الرياح فتصفر في كآبة خلال الأشجار التي تساقطت أوراقها ، ول... يكونوا يرون من حولهم إلا حقول محروثة تمتد في منظر رتيب ممل . وكان من حولهم الفقر إلى جانب ذلك عدم وجود أي عمل ، وكان هذا وذاك جدير باهتمامهم ، فكانوا يطلقون السراح لكل عقدة في نفوسهم ولم يكن هناك ما يوقفهم عند حدهم .. ومن أجل ذلك أصبحوا شواذ ضيقي الأفق . وعرف فيليب كل ذلك ولكنه في شبابه الذي ليس فيه تسامح لم يكن ليسمح لهم بالأعذار والمبررات، وكان يرتعد فرقا إذا راودته فكرة العيش مثلهم .. بل كان يريد أن يخرج إلى العالم .

●●●

وما لبث السير بيركنز أن أدرك أن كلماته لم يكن لها أي أثر في فيليب ، فتجاهله بعد ذلك فيما بقى من زمن حتى انتهاء الفترة ، وكتب التقرير عنه وكان سيئا للغاية . وعندما وصل التقرير سألت العمة لويزا فيليب عنه فقال في ابتهاج :

إنه تقرير عفن!

فقال القس :

أحق هذا ؟ يجب أن أراه إذن مرة أخرى ..

فقال فيليب :

هل تعتقد أن في بقائي في تيركانبري أي فائدة ؟ إنى أرى أنه كان من الأفضل أن أذهب إلى ألمانيا بعض الوقت .

فقالت العمة لويزا :

ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك ؟

ألا تعتقدين إنها فكرة جميلة إلى حد ما ؟

ولكنك عندئذ لن تحصل على منحة دراسية ؟

كان شارب قد ترك مدرسةكينجز وكتب إليه من «هانوفر» . كان فعلا قد بدأ حياته وقد جعل فيليب ذلك أكثر قلقا عندما يفكر في هذا الموضوع . وشعر أنه لن يحتمل سنة أخري

من القيود .

لم تعد لدى فرصة للحصول على منحة دراسية على أية حال .. وإلى جانب هذا فإني لاأعرف هل أنا شديد الرغبة في الذهاب إلى اكسفورد .

وهنا صاحت العمة لويزا في فزع :

ـ ولكن إذا كنت تريد العمل في الكنيسة يا فيليب ؟

ـ لقد أقلعت عن هذه الفكرة من زمن طويل مضي .

ونظرت إليه السيدة كارى بعيون ملؤها الدهشة . ثم كبحت جماح نفسها كعادتها دائما ، وصبت قدحا آخر من الشاي لعمه . وكف الجميع عن الكلام ، وبعد هنيهة رأي فيليب الدموع تتساقط ببطء من عينيها وانقبض قلبه فجأة لأنه سبب لها هذا الألم ، وبدت السيدة كارى حينئذ في ردائها الأسود الضيق الذي حاكته لدي حائك الثياب في أول الشارع ووجهها المجعد وعينيها الشاحبتين المتعبتين ، وشعرها الذي تصر على أن تصففه كما كانت تفعل في شبابها ، إنسانا يبعث على السخرية ولكنه مثير للعطف . وكانت هذه هي المرء الأولى التي يرى فيها فيليب ذلك .

وبعد أن أغلق القس والكاهن المكتب عليهما ، أحاط فيليب خصرها بذراعيه وقال :

– إني آسف لأنك تضايقت يا زوج عمى .. ولكن ليس من المستحب أن ألتحق بخدمة الكنيسة إذا لم يكن لدي نداء داخلي بذلك .. أليس كذلك؟

فقالت في أنين :

– إني مستاءة للغاية يا فيليب ، لقد وضعت كل أملى في ذلك وكنت أعتقد أنك ستصبح نائبا لعمك ، وعندما تحين ساعتنا ، فنحن لن نعيش إلى الأبد على أية حال .. أليس كذلك .. فإنك ستحل محله .

وارتعد فيليب فقد استولى عليه الفزع ، وانتفض قلبه كأنه عصفور يضرب بجناحيه بعد أن وقع في الفخ .. وبكت زوجة عمه في هدوء ورأسها على كتفه فقال فيليب :

– أود لو تقنعين عمى وليام حتى يدعني أغادر تيركانبرى .. فلقد سئمتها إلى أقصى حد. ولكن قس بلاكستابل لم يكن يغير بسهوله أية ترتيبات وضعها . وكان الذي اعتزم دائما أن يظل فيليب في مدرسة كينجز حتى يبلغ الثامنة عشرة . ثم يلتحق بعدئذ بأكسفورد .. ومهما كان الأمر فإن القس لن يقبل بأن يغادر فيليب تيركانبرى ، وحينئذ لأنه لم يخطر المدرسة بذلك ولا بد إذن من دفع مصاريف تلك الفترة مهما كانت الأحوال.

وقال فيليب بعد حديث طويل مرير :

ـ إذن فستبلغهم بأني سأرحل في عيد الميلاد ؟

- سأكتب إلى السيد بيركنز عن ذلك الأمر وأرى ماذا يقول فيه .

- آه .. ليتني كنت في الحادية والعشرين من عمري ، فإن من أفظع الأشياء أن يكون المر تحت رحمة غيره ..

- وقالت السيدة كارى في لطف :

- فيليب .. لا يليق أن تتحدث إلى عمك بهذه الطريقة .

- ولكن .. ألا ترين أن بيركنز سيريدني أن أبقى في تيركانبرى .. لأنه يتقاضى مبلغا معين عن كل شاب في المدرسة .

– ولم لا تريد الذهاب إلى أكسفورد ؟

– وما الفائدة إذا كنت لن ألتحق بالكنيسة ؟

وقال القس :

– إنك لن تلتحق بالكنيسة .. لأنك في الكنيسة بالفعل .

وأجاب فيليب وقد نفد صبره :

لقد كُرست إذن ؟

وسألته السيدة كارى:

- ماذا تريد أن تصبح يا فيليب ؟

لا أعلم فلم أقرر شيئا في هذا الشأن بعد .. ولكن مهما يكن من أمري فإن من الخير لي أن أعرف اللغات الأجنبية ، وسأستفيد من قضاء سنة في ألمانيا أضعاف أضعاف ما سأستفيده إذا بقيت في هذا الجحر .

لم يقل فيليب أنه يشعر بأن أكسفورد تكاد تكون أفضل من أن يواصل حياته في المدرسة. لقد كان أشد ما يتمناه أن يكون سيد نفسه يضاف إلى هذا أنه إذا ذهب إلى أكسفورد فسيكون معروفا إلى حد كبير بين زملائه القدامى ، وهو يريد الابتعاد عنهم جميعا . وكان يشعر بأن حياته في المدرسة قد أخفقت ويريد أن يبدأ حياة جديدة .

وحدث أن اتفقت رغبة فيليب في الذهاب إلى ألمانيا مع بعض الأفكار الأخرى التي كانت موضع نقاش في بلاكستابل . ذلك أن بعض الأصدقاء كانوا يفدون أحيانا للبقاء مع الطبيب ويأتون بالأخبار من العالم الخارجي . وكانت للزوار الذين يقضون شهر أغسطس على شاطئ البحر طريقتهم الخاصة في النظر إلى الأمور ، وقد سمع القس أن هناك أناسا يعتقدون أن التعليم القديم لم يعد ذا فائدة في تلك الأيام كما كان من قبل وأن اللغات الحديثة بدأت تلقى اهتماما لم تكن تلقاه أيام شبابه .

ولم يكن عقله مستقرا من هذه الناحية لأن أخا صغيرا له ذهب إلى ألمانيا بعد أن رسب في أحد الامتحانات وكان ذلك سابقة له يصح أن يقتفي أثرها ، لكن هذا الأخ مات بمرض التيفود ، فأصبح من المستحيل النظر إلى تلك التجربة إلا على أنها شئ خطير ... وكانت نتيجة هذه المحادثات التي لا عدد لها أن يعود فيليب إلى تيركانبري لقضاء فترة مدرسية أخرى ، ثم يغادرها بعد ذلك ، ولم يكن فيليب غير راض عن هذا الاتفاق، ولكن حدث بعد بضعة أيام من عودته إلى المدرسة أن حدثه الناظر قائلا :

– لقد وصلني خطاب من عمك . يبدو منه أنك تريد السفر إلى ألمانيا وهو يسألني عن رأيي في هذا ..

ودهش فيليب واستولى عليه الغضب من وصِية لتراجعه عن وعده وقال :

– لقد كنت أظن أن الأمر قد سوي يا سيدى .

إنه أبعد ما يكون عن ذلك . فقد كتبت إلى عمك لأقول له إنه من الخطأ الشنيع إبعادك عن المدرسة .

وجلس فيليب لساعته وكتب رسالة شديدة اللهجة إلى عمه ، ولم يزن كلمات الرسالة. واشتد به الغضب فلم يستطيع النوم إلا في ساعة متأخرة جدا تلك الليلة .. وفي الصباح المبكر راح يفكر في الطريقة التي عاملوه بها ، وانتظر وهو على أحر من الجمر رد عمه، فلما وصل بعد يومين أو ثلاثة أيام ، كان رقيقا منمقا من العمة لويزا تقول فيه إنه يجب ألا يكتب مثل هذه الأشياء لعمه لأن ذلك قد ساءه كثيرا فقد كان فيليب قاسيا و ليس هذا من أخلاق المسيحي الحق و يجب عليه أن يعلم أنهما يبذلان خير ما في وسعهما لصالحه وأنهما بلغا من الكبر سنا يجعلهما أقدر منه على معرفة ما فيه الخير له ، وقبض فيليب يديه ، فطالما سمع هذه الجملة السقيمة من قبل وقد عجز أن يعرف لماذا يعتقدان بصحتها، فهما لا يعرفون حالته كما يعرفها هو ، ولماذا يعتقدان أن من الأمور البديهية أن كبر سنهما يجعلهما أعظم منه حكمة ، وانتهى الخطاب بإبلاغ فيليب أن السيد كارى قد سحب المذكرة التي أرسلها . وظل فيليب يتجرع غصته حتى الفترة التي ينقطع الطلبة فيها عن الدراسة بعض الأيام في منتصف السنة ، وكانت أنصاف الأيام المدرسية هي الثلاثاء والخميس لأنهم كانوا يؤدون الصلاة أمسيات السبت في الكنيسة . وتوقف فيليب في المؤخرة حتى خرج بقية طلبة الفرقة السادسة وسأل :

– أرجوك يا سيدي .. هل أستطيع الذهاب إلى بلاكستابل بعد ظهر اليوم ؟

فأجاب الناظر في اقتضاب :

- لا ....

- كنت أريد أن أقابل عمى بشأن موضوع هام جدا .

- ألم تسمعني أقول لا ..

ولم يجب فيليب بشيء ، وولى خارجا فقد سئم هذه المهانة .. تلك المهانة التي يتجشمها المرء عندما يطلب شيئا يقابل بالرفض الجاف . لقد كره الناظر عندئذ ..

وكان فيليب يتلوى من ذلك الطغيان الذي لا يكلف نفسه عناء إبداء سبب ما لأكثر الأعمال ظلما واستبدادا ، وتملكه الغضب ، فلم يعد يهتم بما يفعل ، وبعد الغذاء خرج ماشيا في طرق خلفية كان يعرفها حتى وصل إلى المحطة واستطاع أن يلحق بالقطار المسافر إلى بلاكستابل، وقصد منزل القس ، فوجده هو وزوجه جالسين في حجرة الطعام .. وقال القس :

- مرحبا .. من أين خرجت علينا ؟

وبدا من الواضح أن القس لم يكن مغتبطا لرؤيته فقد ظهر عليه بعض القلق.

وأجاب فيليب :

– لقد ظننت أنى يجب أن آتي لأتفاهم معك بشأن سفري .. إني أريد أن أعرف ما الذي تقصده بأن تعدني شيئا أثناء وجودي هنا ثم تفعل ما يناقضه بعد ذلك بأسبوع واحد .

وشعر فيليب بقليل من الخوف لجرأته ، ولكنه كان قد قرر انتقاء الكلمات التي يقولها بالضبط ، بالرغم من أن قلبه أخذ يخفق في عنف فإنه أرغم على قولها . وقال عمه :

- هل أذن لك أن تأتى إلى هنا بعد ظهر اليوم ؟

- لا .. لقد طلبت أجازة من بيركنز ولكنه رفض . وإذا أردت أن تكتب إليه لتخبره أنى كنت هنا فستجعلني حقا في موقف لا أحسد عليه ..

وجلست السيدة كارى تحيك ملابسها بيدين مرتعدتين، ذلك لأنها لم تعتد مثل هذه المواقف .. وكانت تثير اضطرابها إلى حد كبير .. وقال السيد كارى :

- ستنال جزاءك الحق إن أنا أخبرته .

- إذا أردت أن تشي بي ففي وسعك أن تفعل ذلك إنك بعد أن كتبت إلى بيركنز ما كتبت قادر على أن تفعله .

كان من الحماقة أن يقول ذلك لأنه أتاح للقس الفرصة التي يريدها بالضبط . وقال القس في كبرياء :

- إني لن أقف بلا حراك وأنت تتمادى في وقاحتك معي ..

ونهض عن مقعده وأسرع خارجا إلي حجرة المكتب . وسمعه فيليب يغلق الباب خلفه ثم يوصده . وقال فيليب :

– كم كنت أتمنى من الله أن أكون في الحادية والعشرين ..إنه من أفظع الأشياء أن يستعبد

رء بهذه الطريقة .

وبدأت العمة لويزا تبكى في سكون . وقالت :

– أوه يا فيليب .. لم يكن من حقك أن تخاطب عمك بما خاطبته به .. أرجوك أن تذهب وتقول إنك آسف لما فعلت .

– إني لست آسفا على الإطلاق .. إنه يستغل فرصة حقيرة .. إن بقائي في المدرسة بالطبع مضيعة للمال ، ولكن هذا لا يهمه ؟ فالمال ليس ماله . ولقد كان من القسوة أن أوضع تحت وصاية أناس لا يعرفون شيئا عن أحوال العالم .

– فيليب ...

ووقف فيليب فجأة عن غضبه السادر عند سماع صوتها الذي بدت فيه رنة الانكسار.. ذلك أنه لم يكن قد أدرك مرارة ما كان يقوله.

– فيليب.. كيف تستطيع أن تقسو هذه القسوة؟ و أنت تعرف أن موقفنا ليس كموقف من لهم أبناء، ولذلك استشرنا السيد بيركنز.. وهنا تهدج صوتها ومضت تقول، لقد حاولت أن أكون لك كأمك.. ولقد أحببتك كأنك ولدى من لحمى ودمى .

لقد كانت صغيرة الجسم هزيلة، وكان في موقفها وكأنها فتاة عذراء ما يستدر العطف عليها، لذلك فقد تأثر فيليب وأحس فجأة غصة شديدة في حلقه وامتلأت عيناه بالدموع، وقال :

- إني آسف ... فلم أقصد أن أكون بهذه الوحشية .

وركع بجوارها، وأخذها بين ذراعيه وقبل وجنتيها الذابلتين المبللتين بالدموع...

وبكت المرأة في مرارة .. ويبدو أنه أحس فجأة بالشفقة على تلك الحياة الضائعة التي لم تستسلم فيها أبدا لإبداء عواطفها على هذا النحو .. وقالت له :

- أعرف أني لم أكن ما أردت أن أكونه لك .. لقد كان حرماني من الأطفال أمرا موجعا لي مثل حرمانك أنت من أمك ...

- ونسي فيليب غضبه ومشاكله الخاصة .. ولم يفكر حينئذ إلا في إرضائها بكلمات مبعثرة وملاطفات سمجة .. ودقت الساعة وكان عليه أن يسرع في الحال ليلحق بالقطار الذي يعود به إلى تيركانبرى في الموعد المحدد لنداء الأسماء في المدرسة . وبعد أن اتخذ له ركنا في عربة القطار رأى أنه لم يفعل شيئا وغضب من نفسه لضعفه . لقد كان من الحقارة له أن يسمح لنفسه بأن تحوله عن هدفه دموع عمته وخيلاء القس ولكن الحديث الذي دار بين الاثنين – ولم يعلم فيليب ما هو – أسفر عن خطاب آخر إلى الناظر . وقرأه السيد بيركنز ثم هز كتفيه في ضجر . وأطلع فيليب عليه ، وهذا نصه :

عزيزي السيد بيركنز :

أرجو معذرتي لإزعاجك مرة أخرى بشأن من في وصايتي ، ولكنى أنا وعمته كنا ق
بشأنه . إنه يبدو شديد الرغبة في ترك المدرسة ، وتظن عمته أنه غير سعيد فيها ومن ال
علينا للغاية أن نعرف ماذا نفعل لأننا لسنا والديه . ويبدو عليه أنه لا يعتقد أنه يسير
حسنا، ويشعر بأن بقاءه في المدرسة مضيعة لأمواله .. وأكون شاكرا جدا إذا تفاهمت
فإذا أصر على ما في نيته فقد يكون من الأفضل بالنسبة له أن يترك المدرسة عند حلول
الميلاد القادم كما انتويت أصلا .

المخ

وليام ك

وأعاد فيليب الخطاب إليه . وشعر بنشوة من الفخر لانتصاره . فقد كان له ما أر
ورضي عن نفسه فقد تغلبت إرادته على إرادة غيره ، وقال الناظر وهو في شدة الضيق :

– لا فائدة من أن أقضى نصف ساعة في كتابة خطاب لعمك إذا كان يغير رأيه فور
يصله خطاب ثان منك ..

ولم يقل فيليب شيئا .. وظل وجهه في غاية الهدوء، ولكنه لم يستطع أن يخفي الومي
الذي بدا في عينيه، وقد لاحظ السيد بيركنز ذلك فضحك ضحكة قصيرة وقال :

لعلك قد انتصرت .. أليس كذلك؟ ..

فابتسم فيليب في التو إذ لم يستطع أن يخفي ابتهاجه، ومضي السيد بيركنز يقول :

ـ أحقا أنت شديد الرغبة في ترك المدرسة؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ أأنت غير سعيد هنا ..؟

واحمر وجه فيليب فقد كان يكره بطبعه أية محاولة لسبر أغوار مشاعره وقال :

– لست أعلم يا سيدي ..

ونظر إليه السيد «بيركنز» وراح يعبث في لحيته بأصابعه في تؤدة ويفكر في الأمر. و
وكأنه يكاد يحدث نفسه :

«إن المدارس لم تخلق إلا للمتوسطين من الناس بطبيعة الحال ، إن الحفر حولنا في ك
مكان ومهما يكن من شكل الأوتاد فلا بد أن يجد كل وتد بطريقة ما حفرة تناسبه. والم
لايجد من الوقت ما يتيح له أن يهتم بشيء غير المتوسطين من الناس ..»

وفجأة وجه حديثه لفيليب قائلا :

– استمع إلى ، إن لدى اقتراحا أعرضه عليك . إننا نقترب الآن من نهاية الفترة المدرسية وأعتقد أن فترة أخرى لن تقتلك، ومن الخير لك إذا أردت الذهاب إلى ألمانيا أن تذهب إليها بعد عيد الفصح لا بعد عيد الميلاد، لأن ألمانيا ستكون ألطف في الربيع عنها في منتصف الشتاء، وإذا انقضت الفترة القادمة وكنت مصرا على الذهاب فلن أبدى أية معارضة . ما رأيك في هذا ؟

شكرا جزيلا يا سيدي ..

وسر فيليب لكسب الشهور الثلاثة الأخيرة فلم يعبأ بالفترة الإضافية وبدت له المدرسة أقل شبها بالسجن لأنه أدرك أنه سيتركها إلى الأبد بعد عيد الفصح .. ورقص قلبه من الفرح بين ضلوعه .. وفي تلك الأمسية في الكنيسة الصغيرة راح ينظر حوله إلى التلاميذ . وكانوا يقفون حسب ترتيب فصولهم كل في مكانه المحدد . وابتسم ابتسامة الرضا عندما فكر أنه بعد قريب لن يراهم مرة أخرى . غير أن ذلك جعل نظرته إليهم تمتزج بشعور من الود . وثبتت أنظاره على روز . وقد أخذ روز موقفه كمراقب الفصل بجد بالغ : كانت لديه فكرة جيدة كيف يكون شخصا ذا نفوذ في المدرسة وقد حان دوره ليقرأ الدرس في ذلك المساء، وقرأه جيدا جدا. وابتسم فيليب عندما فكر في أنه سوف يتخلص منه إلى الأبد ولن يهم في ستة شهور ما إذا كان روز طويل القامة ومستوي الساقين . وما أهمية أن يكون في ذلك الوقت مراقب الفصل ورئيس فريق كرة القدم ؟ ونظر فيليب إلى الأساتذة في أرديتهم الكنسية . كان جوردون قد مات بعد إصابته بجلطة في المح قبل سنتين ، غير أن الآخرين جميعا كانوا هناك . ونظر إليهم فيليب .. يالهم من جماعة مثيرة للشفقة ، ربما ماعدا «تيرنر» فقد كانت فيه رجولة . وشعر بالغضب من مجرد فكرة الخضوع الذي تعرض له . وفي ستة شهر لن يكون لذلك أهمية على أي حال . فمدحهم إياه لن يعني شيئا له ولا قدحهم فيه أيضا وهز كتفاه باستخفاف .

وكان قد تعلم ألا يبدى من التصرفات ما يفضح مشاعره ، وكان الخجل ما زال يعذبه ولكنه غالبا ما كان في روح معنوية عالية . وبالرغم من أنه كان يعرج متجولا في رزانة فقد ظل ساكنا متحفظا كأن هناك شيئا يصرخ في قلبه، وخيل إليه أنه أصبح يسير أكثر خفة .. و رقصت كل الأفكار في رأسه وراحت الأوهام تتسابق مشوشة ذهنه في عنف فلم يستطع أن يمسك بأي وهم منها غير أن ذهاب تلك الأوهام وإيابها ملأه بالانتعاش والبهجة . والآن بعد أن شعر بالسعادة استطاع أن يعمل ، و استطاع في الأسابيع المتبقية أن يعوض ما فاته بإهماله الطويل . و راح ذهنه يعمل في يسر، وأصبح يشعر بلذة قوية من نشاطه الذهني ، وأبلى بلاء حسنا في الامتحانات التي عقدت في نهاية الفترة. و لم يبد له السيد بيركنز سوى ملاحظة واحدة فقد كان يحدثه عن مقال كتبه وقال له بعد أن وجه إليه النقد المعتاد :

إذن لقد قررت أن تمتنع بعض الوقت عن حمقك .. أليس كذلك ؟

وابتسم له فبدت أسنانه اللامعة ، وابتسم فيليب في حرج وهو يخفض من ناظريه.

وكان الطلبة الستة الذين توقعوا أن يقتسموا فيما بينهم الجوائز المختلفة التي تمنح ف نهاية الفترة الصيفية قد تجاهلوا فيليب ولم يعودوا يرون فيه منافسا جديا لهم. ولكن بدءوا الآن ينظرون إليه في شئ من القلق. ولم يخبر فيليب أحدا بأنه سيغادر المدرسة في ع الفصح . وبذلك لا يكون منافسا لهم بأي حال لكن تركهم لمخاوفهم. وكان يعلم أن ر يتفاخر بمعرفته اللغة الفرنسية لأنه قضى إجازتين أو ثلاثة في فرنسا وكان يتوقع أ يحصل على جائزة عمي المدرسية في المقال الإنجليزي . وشعر فيليب بارتياح كبير عند لاحظ الرعب الذي انتاب روز عندما رأي فيليب يتفوق عليه كثيرا في تلك المواد . وثمة زم آخر «نورتون» لم يكن يستطيع الذهاب إلى أكسفورد ما لم يحصل على إحدى المنح الدراس التي كانت تترف فيها المدرسة. وسأل فيليب ما إذا كان سيتقدم للحصول على إحدى تل المنح. وسأله فيليب «هل لديك أي مانع ؟»

وكان يطرب كلما فكر في أن مصير شخص ما معلق بين يديه. لقد كان هناك شئ م الخيال والشاعرية في أن يقبض على الجوائز فعلا بين يديه ثم يتركها لغيره لأنه يحتقره وأخيرا حل يوم الوداع . وذهب إلى السيد بيركنز ليلقي إليه بتحية الوداع . وقال الناظر

– إنك لا تعنى حقا أن تقول أنك تريد أن تسافر ..

و شحب وجه فيليب للدهشة الواضحة التي بدت على وجه الناظر و قال:

– لقد قلت أنك لن تضع في طريقي أية عقبات يا سيدي .

اعتقدت أنها ليست سوى نزوة من الخير أن أعالجها، فأنا أعلم أنك عنيد صليب الرأي. السبب الذي يدعوك أن تسافر الآن؟ فلم يعد باقيا أمامك سوى فترة أخرى فإنت تستطيع أ تحصل على منحة «ماجدالين» المدرسية بسهولة وستحصل على نصف الجوائز التي ستقدم المدرسة .

ونظر فيليب إليه في عبوس .. فقد شعر بأنه خدع، ولكنه ما زال لديه وعد الناظر ، ولا أن يفي بيركنز بوعده :

– إنك ستمضي وقتا سعيدا جدا في أكسفورد ، ولست في حاجة لأن تقرر حالا ما ستفعل فيما بعد . ولست أدرى هل تدرك لذة الحياة هناك لكل من في رأسه عقل مفكر.

– لقد أعددت كل العدة الآن يا سيدي للرحيل إلى ألمانيا ..

وسأله السيد بيركنز وهو يبتسم ابتسامته الفريدة المحيرة :

– هل لا يمكن تغيير ما أعددته بأي حال. إني آسف جدا لفقدك، فالتلاميذ الأغبياء في المدارس إذا ما دأبوا على العمل يحرزون نتائج طيبة خيرا من الأذكياء الذين لايعملون. أ

ا كان التلميذ ذكيا ومجدا في الوقت نفسه فإنه يفعل ما فعلته أنت في هذه الفترة.

و احمر وجه فيليب بشدة. فلم يعتد المجاملات قط ،و لم يقل له أحد من قبل أنه ذكي، ووضع الناظر يده على كتفه:

– إنك تعلم أن إدخال المعلومات في عقول التلاميذ الأغبياء عمل سقيم. ولكن عندما تتاح الفرصة من آن لآخر لتعليم صبي يتقدم إليك في منتصف الطريق ويكاد يفهم الكلام قبل أن يخرج من فمك، فعندئذ يصبح التعليم اكثر الأشياء بهجة في العالم.

وذاب قلب فيليب من أثر هذا الحنان ، ذلك أنه لم يخطر بباله أبدا أن بقاءه في المدرسة أو رحيله عنها يهم حقا السيد بيركنز. ولهذا تأثر وشعر بأنه أطرى إطراء لا مزيد عليه. وقال في نفسه إنه يسره أن ينهى أيامه في المدرسة بالنصر، ثم يرحل بعد ذلك إلى أكسفورد. وبدت أمامه في ومضة عين الحياة التي سمع وصفا لها من الطلبة الذين جاءوا ليلعبوا في المباريات النهائية أو التي كانوا يصفونها في رسائل من الجامعة ويقرؤها التلاميذ بصوت عال في المكتبة. ولكنه شعر بالخجل لأنه إذا استسلم في هذه اللحظة فسيبدو أمام نفسه أحمق أبله وسوف يضحك عمه بملء شدقيه للنجاح الذي أحرزته حيلة الناظر. وكان يري في ذلك إلى حد ما رجوعا عن تنازله المسرحي عن الجوائز التي كانت بين يديه والتي كان يحتقرها، وعودة منه حقيرة عادية ليكسبها. ولم يكن الأمر يتطلب إلا مزيدا من الإقناع بما يكفي لكي يحفظ فيليب احترامه لنفسه، وعندئذ كان سيفعل أي شئ يريده السيد بيركنز. ولكن وجهه لم ينم عن أي شئ من تلك المشاعر التي كانت تتصارع في نفسه. لقد ظل هادئا عابسا وقال :

– أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب إلى ألمانيا يا سيدي

وعندئذ نفد صبر السيد بيركنز قليلا، وكان السيد بيركنز ينفد صبره بعض الشيء إذا لم يظهر لسلطانه أثر على الفور شأنه في هذا شأن كثيرين من الناس الذين يسوسون الأمور بنفوذهم الشخصي وكانت مشاغله وقتئذ كثيرة لا تسمح له بأن يضيع كثيرا من وقته مع صبي بدا له عنيدا إلى درجة الجنون. وقال :

– لقد وعدتك أن أتركك تسافر إذا أردت ذلك حقا، وسأفي بوعدي. متى تسافر إلى ألمانيا؟ وقفز قلب فيليب بين ضلوعه.. لقد كسب المعركة ولم يكن يعلم أنه قد خسرها ورد قائلا : في أول شهر مايو .

– لك هذا وعليك أن تأتي لزيارتنا عندما تعود.

وبسط إليه يده.. ولو أن السيد بيركنز أتاح لفيليب فرصة أخرى لغير رأيه ولكنه بدا وكأنه يرى أن الأمر قد بت فيه. وخرج فيليب من منزل الناظر لقد انتهت أيامه في المدرسة وأصبح حرا، ولكنه لم يشعر بالبهجة الشديدة التي كان يتوقعها في تلك اللحظة. وسار في الأرض المجاورة للمدرسة على مهل وقد استولى عليه إحساس قوي بالانقباض. وعندئذ تمنى لو أنه

لم يتصرف هذا التصرف الأحمق. إنه لم يكن يريد الرحيل ولكنه أدرك أنه لا يستطيع أن يق
نفسه بأن يذهب إلى الناظر ويخبره بأنه سيبقى، فتلك مهانة لا يمكنه أن يتحملها لنفس
وتساءل أترى ما فعله هو الصواب. ولم يكن راضيا على كل أحواله وسأل نفسه في كآبة لما
يتمنى المرء شيئا ثم ينفر منه بعد أن يتحقق له .

●●●

كان لعم فيليب صديقة اسمها الآنسة ويلكنسون تعيش في برلين، وهى ابنة أحد رج الكنيسة. وقد قضى عمه أيام أسقفيته الأخيرة عند أبيها الذي كان قسا في إحدى قر مقاطعة لينكولنشير. واضطرت الآنسة ويلكنسون بعد وفاة أبيها أن تعمل لتكسب عيش بنفسها، فعملت مربية للأطفال في أماكن عدة في فرنسا وألمانيا، واستمرت في مراسلة الس كارى ، وقضت أجازتها مرة أو مرتين في منزل القس في بلاكستابل ، وكانت تدفع مبل ضئيلا في مقابل إقامتها عنده كما يفعل زواره القليلون.

وعندما تبين أن الاستسلام لرغبات فيليب خير من مقاومتها، كتبت السيدة كارى إ الآنسة ويلكنسون تستشيرها في أمره، فأوصت الآنسة ويلكنسون بأن يذهب فيليب إ هايدلبرج وهى أفضل مكان يتعلم فيه اللغة الألمانية وأوصت كذلك بمنزل الأستاذة المدرس أيرلين وقالت إنه مكان مريح لمن يقيم فيه، وقالت إن فيليب يستطيع أن يقيم في هذا المنز بثلاثين ماركا في الأسبوع وأن زوج المدرس وهو أستاذ في المدرسة الثانوية سوف يعط دروسا لفيليب .

ووصل فيليب إلى هايدلبرج في صبيحة أحد الأيام في شهر مايو، و ألقى متاعه فوق عرب يد صغيرة وتبع الحمال إلى الخارج المحطة. وكانت السماء زرقاء صافية وقد امتلأ الأشجار التي مر بها فيليب بأوراقها، وأحس فيليب بأن في الهواء شيئا جديد عليه، امتز بالخوف الذي شعر به من إقباله على حياة جديدة بين قوم غرباء غير أن ذلك كله أشعر بنشوة غامرة، وأحس قليلا من الكآبة عندما لم يجد أحدا في استقباله عند المحطة، وعندم تركه الحمال عند باب منزل أبيض ضخم، أحس بالخجل الشديد، وقاده صبي أشعث إلى داخ المنزل ودلفا إلى حجرة الاستقبال. وقد شغل الحجرة طاقم من الأثاث الضخم كسي بالمخمل الأخضر واستقر في الوسط نضد مستدير عليه إناء فيه باقة من الزهور الكبيرة ربطت بعضها ببعض ربطا محكما وحولها ورقة مغضنة تشبه عظم ساق الضأن . وقد رصت حول الإنا في عناية كتب غلفت بأغلفة جلدية . وفاحت من الحجرة رائحة عفنة..

وما لبثت أن دخلت المدرسة وقد علقت بها رائحة الطهي وكانت امرأة بدينه ذات وجه

مر وشعر شد حول رأسها في عناية، وعينين صغيرتين تتلألآن كحبات الخرز، وبدت على بهجتها، وأخذت بيدي فيليب بين يديها ثم سألته عن الآنسة ويلكنسون التي قضت عندها مرتين عدة أسابيع قلائل، وكانت تتكلم بالألمانية وبانجليزية عرجاء، ولم يتمكن فيليب من أن يجعلها تفهم أنه لا يعرف الآنسة ويلكنسون. ثم ظهرت ابنتاها، وأدرك فيليب أنهما ليستا صغيرتي السن ولكنهما قد لا تتعديان الخامسة والعشرين، وكانت الكبيرة «ثيكلا» قصيرة القامة كأمها وتتصرف بنفس السهولة ولكنها جميلة الوجه ذات شعر غزير أسود. أما «أناس» وهى الأصغر سنا فكانت طويلة القامة عليها مسحة من البساطة وعلى فمها ابتسامة حلوة جعلت فيليب يفضلها لساعته عن أختها، وبعد حديث مؤدب استغرق دقائق صحبت السيدة أيرلين فيليب إلى غرفته و تركته فيها . كانت الغرفة في برج صغير من المنزل تطل على قمم الأشجار في منطقة أنلاج، وكان السرير في ركن منها بحيث أنك إذا جلست إلى المكتب لا يبدو على الحجرة أنها حجرة للنوم على الإطلاق، وفك فيليب أمتعته وأخرج جميع كتبه وأحس أخيرا بأنه أصبح سيد نفسه..

وفي الساعة الواحدة دق جرس يدعوه إلى الغداء، ووجد ضيوف السيدة مجتمعين في حجرة الاستقبال. وقدم إلى زوجها، وهو رجل طويل متوسط العمر ذو رأس أشقر بدأ يغشاه الشيب وله عينان زرقاوان هادئتان، وتحدث إلى فيليب في إنجليزية رصينة بل إنجليزية قديمة تعلمها من دراسته للأدب الإنجليزي القديم لا من الحديث، وكان من الغريب سماعه وهو يستخدم بضع كلمات عامية لم يقابلها فيليب إلا أثناء قراءته لشكسبير. وقد كانت السيدة إيرلين قد أطلقت على مؤسستها هذه اسم الأسرة ولا تسميها بنسيونا ولكن الأمر كان يتطلب خبرة أحد علماء الطبيعة ليجد بالضبط الفارق بين الاثنين..

وعندما جلسوا لتناول الغذاء في حجرة طويلة معتمة توصل إلى حجرة الاستقبال، لاحظ فيليب وهو يشعر بخجل شديد أن هناك ستة عشر شخصا وجلست المدرسة عند أحد أطراف المائدة توزع الطعام. وقام الصبي الجلف السمج الذي فتح له الباب بالخدمة في شنشنة عالية للصحاف ، وبالرغم من أنه كان سريعا ، فإن أول من قدم لهم الطعام فرغوا منه قبل أن يصل إلى الآخرين نصيبهم منه. وأصرت المدرسة على ألا تسمح بالحديث إلا باللغة الألمانية، ولهذا فإن فيليب اضطر أن يلتزم الصمت. لأنه ما كان يستطيع الحديث حتى لو أتاحه له حياؤه. وأخذ ينظر إلى الذين سيعيش بينهم، وجلس إلى جانب السيدة صاحبة الدار عدد من النسوة المسنات ولكنه لم يوليهن كثيرا من الاهتمام. وكانت بينهن فتاتان ظريفتان صغيرتان شقراوان إحداهما في غاية الجمال، وسمع فيليب إحداهما تنادى بالآنسة سيسيلي والأخرى بالآنسة هيدويج. وكان للآنسة هيدويج ضفيرة طويلة تدلت خلف ظهرها. وجلست الفتاتان متجاورتين تتبادلان حديثا تخلله ضحكات خافتة مكتومة. وراحتا من آن لآخر تسترقان النظر إلى فيليب وقالت إحداهما شيئا في صوت خفيض وضحكتا ضحكة خفيفة. وتصاعد الدم إلى وجه فيليب

خجلا وبدت عليه السماجة، إذا أحس أنهما تسخران منه. وجلس إلى جانب الفتاتين صيني ذو وجه أصفر وابتسامة عريضة، كان يدرس «أحوال الغرب» في الجامعة هذا الرجل يتكلم بسرعة في لهجة غريبة لم تستطع الفتاتان فهمه على الإطلاق فانف ضاحكتين ، فضحك هو في سماجة وانطبقت عندئذ عيناه الصغيرتان اللتان تش ثمرة اللوز. وكان هناك اثنان أو ثلاثة من الأمريكيين ارتدوا سترات سوداء يميلون النحافة والاصفرار وكانوا يدرسون اللاهوت واستمع فيليب من خلال لغتهم الأل الركيكة إلى لهجة أهالى نيو أنجلند ونظر إليهم في شئ من الريبة لأنه تعلم أن ينظر الأمريكيين كأنهم قوم همج متهورون .

وبعد أن جلسوا قليلا على المقاعد المخملية الخضراء الجامدة في حجرة الاستق سألته الآنسة «أنا» هل يحب الخروج مع الجماعة في نزهة قصيرة ، فقبل فيليب . وك مجموعة كبيرة لا بأس بها تتكون من ابنتي السيدة إيرلين والفتاتين الأخريين ، وواح الطلبة الأمريكيين، وفيليب . وسار فيليب إلى جانب أنا والآنسة هيديويج وشعر بقليل الزهو ، لأنه لم يسبق له أن تعرف إلى فتيات من قبل ، ولم يكن في بلاكستابل منهن إلا المزارع وبنات التجار وكان يعرفهن بالاسم وبالنظر فقط، وكان يغلب عليه الحياء و أنهن يضحكن منه لسبب عاهته ، وبذلك قبل راضيا هذا الحاجز الذي أقامه القس وعمته مكانتهم العالية ومكانة المزارعين في بلاكستايل. وكان للطبيب هناك ابنتان كلتاهما سنا من فيليب ، وقد تزوجتا من مساعدين جاء أحدهما وراء الآخر حين كان فيليب ص صغيرا ، وكان في المدرسة فتاتان أو ثلاث فتيات لديهن من الجرأة أكثر مما لديهن الحشمة ، وقد عرفن بعض التلاميذ وتردد الأقاصيص الشائنة التي كان مبعثها في أ الاحتمالات خيال الصبية الجامح عن مكائدهم معهن .ولكن فيليب كان دائما يخفي ال الذي يملؤه منهن تحت ستار من الاحتقار السامي الرفيع . وقد بعث فيه خياله والكتب ال قرأها نزعة بيرونية (نسبة إلى الشاعر الإنجليزي بايرون) وحارت نفسه بين شعور ب مكتئب مهموم وبين اعتقاده أن من حقه على نفسه أن يكون شهما، وما لبث أن شعر ب يجب أن يكون بشوشا ومسليا ولكن ذهنه بدا مجدبا فلم يستطع التفكير في شئ يقوله وكانت الآنسة «أنا» ابنة صاحبة الدار توجه حديثها إليه إحساسها منها بواجبها نحو ولكن الابنة الأخرى لم تكن تتكلم إلا قليلا ، وكانت ترمقه بين الفينة والفينة بعين متلألئتين وكانت أحيانا تضحك على الفور فيضطرب لذلك اضطرابا. وكان فيليب يشعر أ تعتقد أنه سخيف مضحك . ثم راحوا يسيرون إلى جانب تل بين أشجار الصنوبر بعث عبير بالبهجة الحقيقية في نفسه . وكان الجو دافئا والسماء خيالية من السحب ، وأخيرا وص إلى قمة تطل على وادي نهر الراين الذي كان ينبسط أمامهم تحت الشمس . وكان الوادي رق متسعة من الأرض تتلألأ بالأضواء الذهبية وترامت المدن على بعد منه وتسلل من خلال شريط النهر الفضي ..

لقد كانت الأراضي الفضاء الواسعة نادرة في أركان «كنت» التي عرفها وكان البحر هو الأفق الوحيد العريض . وقد بعثت فيه الرقعة الفسيحة التي رآها عندئذ نشوة لاتوصف ، فجأة شعر بالاغتباط والبهجة، وكانت هذه أول مرة يحس فيها بالجمال غير مختلط بغيره من المشاعر التي تخفف من أثره وإن لم يدرك ذلك وقتئذ . وجلس ثلاثتهم على أريكة لأن بقية الجماعة كانوا قد ذهبوا إلى حال سبيلهم ، وأخذت الفتيات يتكلمن باللغة الألمانية السريعة وراح فيليب يمتع عينيه بجمال المنظر غير مبال بوجودهن إلى جواره . وحث نفسه بلا وعى منه قائلا :

بالله .. إني لسعيد !

●●●

كان فيليب من آن لآخر يفكر في مدرسة كينجز في تيركانبيرى وضحك في نفسه عندما تذكر ماذا كانوا يفعلون في لحظه معينة غريبة من اليوم . وكان أيضا من آن لآخر يحلم أنه مازال هناك في المدرسة وعندما يستيقظ كان يشعر بارتياح عظيم عندما يرى أنه مازال نائما في حجرته الصغيرة في البرج الصغير . ومن فراشه كان يمكنه أن يرى أعمدة السحب الضخمة المعلقة في السماء الزرقاء . وأحس بمتعه من استقلاله وحريته . فهو يذهب إلى فراشه متي شاء ويستيقظ متي يحلو له ذلك . فليس هناك أحد يتحكم فيه الآن . ومما أذهله أنه لم يعد يفكر في الكذب على أحد .

وقد اتخذت الترتيبات بحيث يعلمه البروفيسور إيرلين اللاتينية والفرنسية ؛ وكان هناك فرنسي يأتي كل يوم ليعلمه اللغة الفرنسية . وقد أوصت الأستاذة المدرسة لكي يدرس فيليب الرياضة برجل إنجليزي كان يدرس فقه اللغة التاريخي ليحصل على شهادة من الجامعة . وكان هذا الرجل اسمه «وارتون» وفيليب يذهب إليه صباح كل يوم. وكان يعيش في غرفة واحدة في الدور العلوي لمنزل قديم جدا وكانت الحجرة قذرة غير مرتبة ، تنبعث منها رائحة نفاذة عبارة عن خليط من مجموعة روائح نتنة . وكان عادة ما يكون في فراشه عندما يصل فيليب في الساعة العاشرة ، وكان عندئذ يقفز من فراشة و يرتدي حلة قذرة وخفين من اللباد وبينما كان يعطي الدرس لفيليب كان يأكل إفطاره . كان قصير القامة منتفخا من الإسراف في شرب الجعه له شارب كث وشعر أشعث ، عاش في ألمانيا خمس سنوات وأصبح مثل الألمان تماما . وكان يتحدث بسخرية عن كامبريدج حيث حصل على شهادته وباشمئزاز عن الحياة التي تنتظره ، حيث سيكون عليه بعد أن يحصل على شهادة الدكتوراه من هايدلبيرج ، أن يعود إلى انجلترا وإلى مهنة التعليم . وكان يعشق الحياة في الجامعة الألمانية بما فيها من حرية جميلة ورفاق ممتازين . كان فقيرا جدا ولم يخف أن

الدروس بالنسبة له تعني الفرق بين تناول الخبز والزبد في الغداء وتناول اللحم . وكان بعد ليلة ثقيلة يصيبه صداع يجعله غير قادر على شرب قهوته فكان يعطي دروسه بروح مثقلة. ومن أجل ذلك كان يحتفظ ببعض زجاجات من الجعة تحت فراشه ، وإحدى هذه الزجاجات مع دخان غليون سوف يساعدانه على تحمل أعباء الحياة الثقيلة .

كان يتحدث وهو يصب الجعة بعناية وحرص حتى لا تجعله الرغوة ينتظر طويلا ليحتسي كأسه ويقول إنه لديه شعرة من شعر الكلب الذي عقره .

ثم راح يحدث فيليب عن الجامعة والمشاجرات بين المجموعات المتنافسة والمنازعات ومزايا هذا الأستاذ أو ذاك . وتعلم منه فيليب كثيرا عن الحياة أكثر مما تعلم من الرياضيات. وأحيان كان نورتون يضطجع إلى الخلف في مقعده ويقول ضاحكا :

– انظر يا فيليب .. إننا لم ندرس شيئا اليوم فلا داعي لأن تدفع لي أجر الدرس .

–هذا لا يهم .

كان هذا شيئا جديدا ومثيرا للغاية ، وشعر أن له أهمية ومعني أكثر من حساب المثلثات الذي لم يفهمه أبدا . كان ما حدث بمثابة نافذة فتحت على الحياة واستطاع أن ينظر من خلالها بقلب ينبض بشدة . وقال وارتون :

– لا ..لا عليك أن تحتفظ بنقودك البغيضة .

وقال فيليب وقد علت وجهه ابتسامة لأنه كان يعرف حالة أستاذه المالية :

– ولكن ماذا عن غدائك ؟

وقد طلب منه وارتون أن يدفع له شلنين أجر الدرس كل أسبوع بدلا من مرة كل شهر لأن ذلك سيجعل الأمور أقل تعقيدا . وقال وارتون :

- لا تشغل بالك بغدائي . فلن تكون هذه أول مرة أتغدي فيها على زجاجة من الجعة فذهني لا يكون أصفي في أي وقت أكثر من الوقت الذي أتناول فيه زجاجة من الجعة .

وغاص تحت السرير . (كانت الملاءات رمادية اللون لحاجتها إلى الغسيل-) وأخرج زجاجة أخري من الجعة . وقد رفض فيليب – الذي كان صغيرا ولا يعرف شيئا عن لذات الحياة – أن يشاركه في الزجاجة ، ولهذا شرب وحده . وسأله وارتون :

–كم سيطول بقاؤك هنا ؟

كان هو وفيليب قد تخليا بارتياح عن التظاهر بأن وارتون يعلمه الرياضيات .

– لا أعرف .. حوالى سنة على ما أعتقد . ثم إن أسرتي تريدني أن أذهب إلى أكسفورد.

هز وارتون كتفيه احتقارا . كانت خبرة جديدة لفيليب أن يعرف أن هناك أشخاص

لاينظرون إلى مقعد العلم بشعور من الرهبة .

– لماذا تريد أن تذهب إلى أكسفورد هناك . لن تكون هناك سوى طالب محترم ، لماذا لا تأخذ شهادتك من هنا ؟ ثم إن سنة واحدة لا تكفي . أقضي خمس سنين هنا . هل تعرف أن هناك شيئين جميلين فقط في هذه الحياة حرية الفكر وحرية الحركة . ففي فرنسا تجد حرية الحركة فيمكنك أن تفعل ما تشاء ولن يزعجك أحد ولكنك يجب أن تفكر كما يفكر الآخرون . وفي ألمانيا يجب أن تفعل مثلما يفعل الآخرون ولكن يمكنك أن تفكركما تشاء. كلاهما جميل ولكني شخصيا أفضل حرية الفكر . وفي إنجلترا لاتستطيع أيا من الاثنين : فستلتصق بالأرض بسبب التقاليد فلن تستطيع أن تفكر كما تشاء ولا تفعل ما تشاء . ذلك أن انجلترا بلد ديموقراطي . وأتوقع أن تكون أمريكا أسوأ.

واضطجع إلى الخلف على كرسيه بحذر لأن أرجل الكرسي كانت متقلقلة وسيكون أمرا مزعجا إذا قوطع كلام بلاغي بسقطة مفاجئة على الأرض . واستطرد قائلا :

– يجب أن أعود إلى انجلترا هذا العام ولكن إذا استطعت أن أوفر ما يكفي لكي أحافظ علي التوازن بين روحي وجسدي ، فسوف أبقي اثنى عشر شهرا أخرى . ولكن بعدئذ سيكون علي أن أرحل . ويجب أن أترك كل هذا – وحرك يده في دائرة حول الحجرة –القذرة ، الفراش القذر و الملابس الملقاة علي الأرض وصف زجاجات الجعة الفارغة الراقدة إلى جوار الحائط وأكوام الكتب الممزقة في كل ركن – وألتحق بجامعة من الجامعات المحلية حيث أستطيع أن أحصل علي كرسي لفقه اللغة التاريخي . وسوف ألعب التنس وأؤم حفلات الشاي . وتوقف عن الكلام لحظة ووجه إلى فيليب الذي كان متأنقا في ملابسه ، وياقته نظيفة ،وشعره منسق، نظرة ساخرة .ثم قال «وبالله لا بد أن أغتسل» .

احمر وجه فيليب ، وشعر أن أناقته أصبحت باعثا علي سخرية لا تحتمل : فقد بدأ في الفترة الأخيرة يهتم بهندامه وتزيين نفسه ، وخرج من انجلترا بمجموعة جميلة من أربطة العنق .

حل الصيف في البلد مثل فاتح غاز . فكل يوم كان جميلا . كان للسماء زرقة متغطرسة تهمز الأعصاب مثل المهماز . وكانت خضرة الأشجار في «أنلاج» عنيفة خام. وكانت المنازل عندما تسطع عليها الشمس تعكس لونا أبيض باهرا . وأحيانا كان فيليب عند عودته من عند وارتون يجلس في الظل على أحد المقاعد الطويلة في «أنلاج» يستمتع بالبرودة اللطيفة ويتأمل تلك الأشكال الغريبة التي يرسمها ضوء الشمس على الأرض وهو يتخلل أوراق الشجر . وكان سعيدا بلحظات الكسل هذه التي يختلسها من عمله . وأحيانا كان يتسكع في شوارع المدينة القديمة وكان ينظر في رهبة إلى طلبة الكلية العسكرية بوجوههم الحمراء النابضة بالحياة وهم يسيرون مختلين بقلنسواتهم الملونة . وكان بعد الظهيرة يتجول حول التلال مع الفتيات المقيمات في منزل الأستاذة المدرسة وأحيانا كانوا يسيرون حتى النهر ويتناولون

الشاي في حديقة خضراء مورقة. وفي المساء كانوا يقصدون الحديقة العامة حيث يستمع
إلى عزف الفرقة الموسيقية .

سرعان ما تعرف فيليب على الاهتمامات العديدة للأسرة . كانت الآنسة «ثيكلا» الاب الكبرى للأستاذة المدرسة مخطوبة لرجل في انجلترا أمضي اثنى عشر شهرا في المنزل ليتع اللغة الألمانية. وكان من المقرر أن يتم زواجهما في نهاية العام غير أن الرجل بعث إلي يقول أن والده ، وهو تاجر مطاط هندي يعيش في «سلاو» لم يوافق على الزواج وكانت الآنس ثيكلا تبكي دائما لهذا السبب. وأحيانا كانت ترى هي وأمها وعيونهما متجهمة ووجهيه متحجرين وهما تقرآن خطابات الحبيب المتردد . كانت ثيكلا ماهرة في الرسم بألوان الم وأحيانا كانت هي وفيليب برفقة الفتيات الأخريات يخرجون لكي ترسم ثيكلا لوحا صغير وكانت الآنسة هيدويج الجميلة تواجه متاعب في حبها أيضا . كانت ابنة تاجر في برلين و وقع في غرامها جندي أوروبي مندفع ولكن والداه اعترضا على زواجه من فتاة في مث وضعها وقد سافرت إلى هايدلبيرج كي تنساه . ولم تستطع أبدا أن تفعل ذلك وراحت تراسل بصفة مستمرة وكان هو من جانبه يبذل كل جهد ليقنع والده الغاضب بأن يغير رأيه . وق قالت كل ذلك لفيليب وهي تتنهد في عذوبة ويحمر وجهها بصورة جذابة وأطلعته علي صو الضابط المرح . وكان فيليب يحبها أكثر من أي فتاة أخرى في المنزل وكان أثناء سيره يحاول دائما أن يسير إلى جانبها. وكان وجهه يحمر خجلا عندما يمازحه الآخرون لتفضيل الواضح للآنسة هيدويج . وأعلن قدم أول تصريح في حياته لها ولسوء الحظ كانت حادثة وق وقعت بهذه الصورة . في الأمسيات التي كانوا لا يخرجون فيها كانت الفتيات يغنون أغنيا صغيرة في حجرة الاستقبال المخملية الخضراء بينما الآنسة «أنا» التي كانت تجعل نفسه شخصا مفيدا دائما تصاحبهم في الغناء بصورة نشطة . وكانت أغنية الآنسة هيدوي المفضلة أغنية ألمانية اسمها «أحبك» . وفي إحدى الأمسيات بعد أن قامت بغناء تلك الأغني عندما كان فيليب يقف بجوارها في الشرفة ، ينظر إلى النجوم ، خطر له أن يدلي بملاحظة عن الأغنية فبدا بأن قال لها بالألمانية :

–أحبك .

وعندئذ انتهت مفردات لغته الألمانية وراح يبحث عن الكلمة التي يريدها . وكان صمته لا نهائي . ولكن قبل أن يستطرد قالت الآنسة هيدويج :

– يجب أن تكلمني بضمير الغائب المفرد .

وشعر فيليب بأنه يغلي لأنه لم يكن أبدا يجرؤ أن يفعل شيئا له طابع حميمي بهذا الشكل ولم يستطع أن يفكر في شيء يرده به عليها . ولن يكون من الشهامة أن يقول أنه لم يكن يدلي بملاحظة من عنده بل كان يردد اسم أغنية فقال :

– أرجو معذرة .

فهمست قائلة :

– لا تبالي .

وابتسمت ابتسامة ودية وأمسكت بيده وضغطت عليها ثم استدارت وعادت إلى حجرة الاستقبال.

وفي اليوم التالي كان يشعر بحرج شديد حتى أنه لم يستطع أن يكلمها ، وفعل كل ما يمكنه وهو خجول لكي يتجنبها. وعندما طلبوا منه أن يصحبهم في الجولة العادية رفض وتعلل بأنه لديه عمل يؤديه. غير أن الآنسة هيدويج استغلت فرصة وجودهما وحدهما لكي تتحدث معه. وقالت برقة :

– لماذا تتصرف بهذه الطريقة معي. فأنت تعرف إني لست غاضبة منك لما قلته الليلة الماضية.فأنت لا تستطيع أن تمنع نفسك إذا كنت تحبني. أنا سعيدة لإطرائك لي. ولكن رغم أني لست بالضبط مخطوبة لهيرمان فأنا لا يمكن أن أحب شخصا آخر غيره وأنا أعتبر نفسي عروسه.

احمر وجه فيليب مرة أخرى ولكن وجهه بدت عليه سمات العاشق المنبوذ.

●●●

كان البروفيسور أيرلين يعطي لفيليب درسا كل يوم. ووضع قائمة من الكتب كان على فيليب أن يقرأها حتى يستعد لقراءة «فاوست» للشاعر الألماني جوتة؛ وفي أثناء ذلك جعله يبدأ في الترجمة إلى الألمانية لمسرحية للشاعر الإنجليزي شكسبير كان فيليب قد درسها في المدرسة.

كانت تلك الفترة في ألمانيا هي الفترة التي راجت فيها شهرة الشاعر الألماني «جوتة» فعلى الرغم من موقف والده المتلطف مع الوطنية فقد اعترف به كشاعر ألمانيا الوطني وظهر منذ حرب السبعينيات أنه أحد أمجاد الوحدة الوطنية. ولكن إحدى علامات عظمة الكاتب هي أن العقول المختلفة يمكن أن تجد فيه إيحاءات مختلفة ؛ وقد أعرب البروفيسور إيرلين ، رغم أنه يكره البروسيين، عن إعجابه بجوتة لأن أعماله كانت هي الملجأ الوحيد الذي يلجأ إليه العقل المتزن هربا من الهجوم الضاري للجيل الحالي. وكان هناك كاتب مسرحي اشتهر اسمه أخيرا في هايدلبيرج وفي الشتاء السابق عرضت إحدى مسرحياته على المسرح وقوبلت بهتافات مؤيديه واستهجان الناس المهذبين. وقد سمع فيليب مناقشات حول تلك المسرحية علي المائدة الطويلة في منزل البروفيسور وفي أثناء تلك المناقشات فقد البروفيسور هدوءه المعتاد ، فضرب المائدة بقبضته وأغرق كل المعارضة بهدير صوته الصافي العميق. لقد كانت كلاما فارغا وكلاما فارغا قذرا. وقد أرغم نفسه على أن يترك المسرحية وهو لا يعرف إن كان قد شعر بالملل أم بالغثيان. وإذا كان هذا ما سيؤول إليه المسرح فقد آن الأوان لكي تتدخل الشرطة لإغلاق

كل المسارح. فلم يكن شخصا متحشما ويمكنه أن يضحك مثل إي شخص على ال اللاأخلاقي في أي مسرحية هزلية في مسرح الباليه رويال، ولكن هنا لم يكن هناك س القذارة. وبإيماءة للتأكيد أمسك بأنفه وأطلق صفيرا من خلال أسنانه. كان ذلك هو العائلة ، والقضاء على الأخلاق وتدمير ألمانيا.

ومن الطرف الآخر من المائدة قالت الأستاذة المدرسة :

– اهدأ يا سيدي ولا تزعج نفسك.

هز قبضته نحوها. لقد كان شخصا لطيفا جدا ولم يخاطر بأي تصرف في حياته ن أن يستشيرها. وصاح قائلا :

– لا يا هيلين.. دعيني أقول لك هذا.. إني أفضل لو أرى بناتي أمواتا عند قدمي ولا أر يستمعون إلى الكلام التافه لهذا الرجل الوقح.

كان اسم المسرحية «بيت الدمية»، ومؤلفها هو هنريك إبسن.

●●●

قضى فيليب ثلاثة أشهر في هايدلبيرج ، وفي صبيحة يوم أنباته صاحبة البيت أن ر إنجليزيا يسمى هايوارد قادم ليقيم فيه. وفي ذلك المساء نفسه وعلى مائدة العشاء فيليب وجها جديدا. وقد عاشت الأسرة قبل مجيئه عدة أيام في حالة هياج نفسي لأن وال الشاب الإنجليزي خطيب الآنسة ثيكلا دعواها لقضاء عدة أيام معهم في إنجلترا ، وجاء ت نتيجة لرجاء متكرز وتهديد مقنع وعدة تدابير لا يعلم أحد ما هي. ورحلت الآنسة ثيكلا و جعبتها مجلد جمعت فيه الصور التي رسمتها بالألوان المائية لتبين مدى ثقافته ومجموعة من الخطابات لتثبت إلى أي حد وقع الشاب في غرامها. وبعد أسبوع من ذلك الو أعلنت الآنسة هيدويج في ابتسامة خلابة أن الضابط فارس أحلامها سيصل إلى هايدلبير في صحبة والديه. وقرر الوالدان أن يتعرفا إلى الفتاة بعد أن سئما إلحاح ابنيهما ، وأث فيهما ضخامة البائنة التي قدمها والد الآنسة هيدويج إلى ابنهما ، وكانت المقابلة مرض وقدمت الآنسة هيدويج حبيبها إلى أسرة إيرلين. وكان الاضطراب باديا على السيدات اللا جلسن عند رأس المائدة. وعندما قالت الآنسة هيدويج أنها يجب أن تذهب إلى المنزل ف الحال لكي تتم الخطبة رسميا ، أعلنت صاحبة الدار أنها ستقدم لهم نوعا نادرا من الشرا رغم ما يكلفها من نفقات ، وراح البروفيسور إيرلين يفاخر بمهارته في إعداد ذلك المس اللطيف الذي وعدتهم به صاحبة الدار ، وبعد العشاء وضع في وقار على المائدة المستدير في حجرة الاستقبال إناء كبير من الخمر الممزوج بالصودا ، وقد طفت على وجهه حشائش ذات أريج عطر ، وفاكهة الفراولة. وراحت الآنسة آنا تغيظ فيليب لرحيل حبيبته ، فشعر بعد

الارتياح بل بقليل من الحزن. وغنت الآنسة هيدويج عدة أغان ، وعزفت الآنسة آنا نشيد الزواج ثم ترنم الأستاذ بأغنية ألمانية. وبين كل هذا المرح لم يكن فيليب يولي القادم الجديد كثيرا من الانتباه. ومع أن كلا منهما قد جلس في مواجهة الآخر أثناء تناول العشاء فقد استغرق فيليب في الحديث مع الآنسة هيدويج. وكان القادم الغريب لا يعرف الألمانية فتناول طعامه في سكون. ولاحظ فيليب أنه يرتدي ربطة عنق زرقاء حائلة اللون، ولذلك انتابه شعور مفاجئ بعدم الميل إليه. وكان الرجل في السادسة والعشرين من عمره، جميل الوجه ذا شعر متموج ، كان يرتبه بيده في تراخ بين الحين والحين. وكانت عيناه واسعتين زرقاوين ولكن الزرقة كانت حائلة إلى حد كبير ، وقد لاح عليهما الإجهاد وان لم يمض عليه في المكان إلا وقت قليل وكان حليق اللحية ذا فم دقيق بالرغم من شفتيه الرفيعتين. وكانت الآنسة «آنا» مولعة بعلم الفراسة وقد جعلت فيليب يلاحظ كيف أن هيكل رأسه الغريب جميل التكوين، وأن الجزء الأسفل من وجهه ضعيف. وقالت إن الرأس رأس مفكر ولكن الفك تنقصه الشخصية.. وقد قدر للآنسة آنا بما كان لها من عظام فك بارزة وأنف ضخم مشوه ، أن تقضى بقية عمرها عانسا ، فراحت تهتم اهتماما كبيرا بمسألة الشخصية. وكان هو يقف بعيدا عنهم وهم يتحدثون عنه ، وراح يراقب الحفل الصاخب في روح مرحة وبقليل من العجرفة. وكان طويلا ممشوق القوام ، وقد شد من قامته في رشاقة متعمدة. وذهب ويكس أحد الطلبة الأمريكيين إليه وراح يبادله الحديث ، بعد أن لاحظ انفراده بنفسه. وكان الاثنان مختلفين اختلافا عجيبا، فالأمريكي أنيق غاية الأناقة بسترته السوداء وسرواله النحيل المزركش بالنقط البيضاء والسوداء وكان نحيلا ضامرا ، وقد بدت في سلوكه سمة الرهبان ، على حين كان الإنجليزي طويل الأطراف بطئ الحركة في سترته الفضفاضة من صوف التويد، ولم يتحدث فيليب إلى القادم الجديد حتى اليوم التالي ، فقد وجدا نفسيهما وحيدين في شرفة حجرة الجلوس قبل موعد الغداء فوجه إليه هايوارد حديثه قائلا :

أنت إنجليزي؟ أليس كذلك ؟

- بلى..

وهل الطعام رديء دائما كما كان بالأمس ؟

- إنه دائما كذلك على وجه التقريب..

- هذا شئ بهيمي ، أليس كذلك ؟

- بهيمي نعم..

لم يكن فيليب قد لاحظ أن هناك ما يعيب الطعام على الإطلاق ، بل إنه في الحق قد أكل منه كميات كبيرة في شهية وتلذذ. ولكنه لم يشأ أن يبدو شخصا عديم التمييز فيقول عن الطعام إنه جيد بينما يرى آخر أنه رديء.

واضطرت الآنسة ثيكلا بسبب زيارة شقيقتها لبريطانيا أن تكثر من عملها في المنزل، ولم تستطع في معظم الأحيان أن تجد من الوقت ما يتيح لها الخروج في نزهاتها الطويلة. أما

الآنسة سيسيلي ذات الشعر الأشقر الطويل والوجه والأنف الأفطس ، فقد أبدت في الفترة الأخيرة نزعة إلى نبذ المجتمع . وكانت الآنسة هيدويج قد رحلت ، والأمريكي ويكس الذي صاحبهم كثيرا في جولاتهم قد سافر في رحلة إلى جنوبي ألمانيا ، وبذلك خلا فيليب إلى نفسه كثيرا. وسعى هايوارد إلى التعرف به ولكن فيليب كان ذا طابع غير مستحب يرجع إما إلى الخجل وإما إلى خصلة موروثة بطريق الرجعة عن أجداده سكان الكهوف. فكان دائما يكره الناس عند أول معرفته بهم ، ولم يكن يستطيع التغلب على أول ما ينطبع في نفسه منهم إلا بعد أن يتعود عليهم ، ومن أجل ذلك كان من الصعب الوصول إليه. لقد واجه محاولات هايوارد للتقرب إليه في خجل شديد ، وعندما طلب إليه في يوم من الأيام الخروج معه في نزهة ، وافق لأنه لم يستطع التفكير في عذر مهذب وكان يبدى أعذاره المعتادة وهو حانق على نفسه لوجناته المحمرة التي لم يكن يستطيع السيطرة عليها. وكان يحاول التخلص من هذا المأزق بالضحك.

وقال فيليب :

– أخشى ألا أستطيع السير معك بسرعة !

– لله درك.. أنا لا أسير لكي أكسب رهانا. وأفضل أن أتمهل..

– ألا تذكر ما كتبه «ماريوس» عندما قال على لسان «باتر» إن رياضة السير الرفيعة هي خير حافز على المحادثة..

وكان فيليب من ذلك النوع الذي ينصت جيدا ، وإن كان في أغلب الأحيان يفكر في أشياء بارعة ليقولها ولكنه قلما كان يقولها في الوقت المناسب بل بعد أن يفوت أوانها، أما هايوارد فكان محبا للحديث ، ولربما أعتقد أي شخص ذي مزيد من الخبرة عن فيليب أن هايوارد هذا يحب سماع نفسه وهو يتكلم ، وقد أثر سلوكه المتعالي هذا في فيليب فلم يستطع إلا الإعجاب به ، ومع هذا فقد روعه من هذا الرجل إنه كان يبدى احتقارا دفينا لأشياء كان فيليب ينظر إليها على أنها تكاد تكون مقدسة، قد نبذ الولع بالرياضة البدنية وأصبح يسم كل من يعنون بأنواعها المختلفة بأنهم يسعون لاصطياد الجوائز لا غير ، ولم يلاحظ فيليب أنه بعمله هذا إنما يستبدل بها الولع بالثقافة..

وسارا في طريقهما حتى وصلا إلى القلعة وجلسا في الشرفة التي تطل على المدينة المستقرة في قلب الوادي على نهر النيكار في اطمئنان وهدوء. وقد علق بالسماء الدخان المتصاعد من مداخنها ، وأضفي عليها ضبابا أزرق خائل اللون، كما أضفت عليها الأسطح المرتفعة، وأبراج الكنائس ، روح العصور الوسطي، وكان فيها بساطة تدفئ القلب. وراح هايوارد يتحدث عن ريتشارد فيفريل ، ومدام بوفارى ، وفيرلين، ودانتي، وماثيو أرنولد. ولم يكن هناك من يعرف ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات عمرالخيام في هذه الأيام غير الطبقة الراقية ، وتلا هايوارد شعر الخيام على فيليب فقد كان مغرما بتلاوة الشعر ، سواء كان شعره

أو شعر غيره، وكان ينشده في رتابة مملة ، وبعد عودتهما إلى المنزل كان شعور فيليب بعدم الثقة في هايوارد قد تغير إلى شعور بالإعجاب الشديد...

وأخذا يخرجان معا بعد ظهر كل يوم وما لبث فيليب أن عرف شيئا عن أحوال هايوارد، فقد كان ابن قاض في إحدى المدن وتوفي أبوه من وقت غير بعيد تاركا له ثلاثمائة جنيه كل عام. وقد أبلى بلاء حسناء في دراسته في تشارتر هاوس ولما التحق بجامعه كامبريدج خرج عميد كلية ترينتى عن عادته وأعرب له عن اغتباطه لذهابه إلى تلك الكلية ، وقد أعد هايوارد نفسه لمستقبل زاهر ، فتنقل بين أكثر المجالس ثقافة ، وقرأ الشاعر براوننج في حماسة شديدة ولم يكن يعبأ بالشاعر تنيسون ، وأدار له أنفه الجميل. وكان يعرف كل تفاصيل ما كتبه الشاعر شيلى عن هاريت وكان يعبث بتاريخ الفن وقد زينت جدران حجرته بصور «لبيرن جونز» و«بوتشيللي» وكتب شعرا تغلب عليه روح التشاؤم ، وكان أصدقاؤه يقول بعضهم للآخر إنه رجل ذو مواهب ممتازة ، وكان هو يستمع إليهم ويقبل كلامهم عنه عن طيب خاطر عندما كانوا يتنبأون بمستقبله العظيم. وأصبح هايوارد على مر الأيام ثقة في الفن والأدب. وأثرت فيه كثيرا آراء نيومان في الدفاع عن الديانة المسيحية، وقد لاقت معتقدات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هوى من نفسه النزاعة للجمال. ولم يعقه عن الأخذ بهذا المذهب إلا خوفه من غضب أبيه وهو (رجل ساذج بسيط ضيق الأفق قرأ ماكولى) وقد ذهل زملاؤه عندما حصل على درجة مقبول فقط ، ولكنه هز كتفيه في استخفاف وأشار في رقة إلى أنه ليس غرا ينخدع أمام الممتحنين ، وكان يجعل المرء يشعر بأن الحصول على درجة عليا في الامتحانات أمر ليس له أهمية ، وراح يصف أحد الامتحانات الشفوية في فكاهة لطيفة ، فقد أخذ شخص يرتدي ياقة قميص غريبة يسأله أسئلة في المنطق ، وكانت أسئلة مملة للغاية ، وفجأة لاحظ أنه يرتدي حذاء برقبة مغطى بالمطاط من الجانبين. وكان هذا في اعتقاده شيئا مضحكا باعثا على السخرية ، وعندئذ أبعد ذهنه وراح يفكر في الجمال القوطي للكنيسة الصغيرة في كنجز ، ولكنه قضي بضعة أيام جميلة في كامبريدج ، وأقام حفلات للعشاء أفضل مما أقامها أي شخص عرفه ، وكانت الأحاديث التي دارت في حجرته خليقة بأن يتذكرها المرء دائما، وتلي هايوارد على فيليب هذا البيت الرائع: «قالوا لي يا هيراقليت»، «قالوا لي إنك مت». وعندما قص هايوارد بعدئذ نادرته اللطيفة عن الممتحن وحذائه ضحك وقال :

– لقد كانت هذه حماقة بطبيعة الحال.. ولكنها حماقة فيها شئ رائع جميل.

وأعتقد فيليب وقد طرب قليلا ، أن هذا شئ رائع..

ثم ذهب هايوارد إلى لندن ليعد نفسه ليدرس لكي يكون محاميا . واتخذ له حجرات جميلة في فندق كليمنت ، وذات حوائط غطى نصفها الأسفل بالخشب ، وقد حاول أن يجعل هذه الحجرات كحجراته القديمة في الكلية، وكانت له مطامع سياسية مبهمة غامضة ووصف نفسه بأنه من حزب الأحرار والتحق بناد له طابع الأحرار ولكن تسوده روح السادة المهذبين.

وكانت فكرة هايوارد هي أن يتدرب على المحاماة (فاختار جانب القضاء الأعلى لأنه أ
فظاظة من غيره) ، وحصل على مقعد في إحدى الدوائر اللطيفة بمجرد أن وفي من وعد
بوعودهم المختلفة ودأب في الوقت نفسه على التردد كثيرا على الأوبرا ، وتعرف إلى ع
صغير من الشخصيات الساحرة التي كانت تعجب بكل الأشياء التي كان يعجب بها ، وانض
إلى ناد للطعام شعاره «الكل والخير والجميل». وعقد صداقة أفلاطونية مع إحدى السيد
التي كانت تكبره بعدة سنوات وكانت تقيم في ميدان كنسنجتون، وقد تناول معها الشاي ب
ظهر كل يوم تقريبا على ضوء الشموع الخافتة ويتحدثان عن جورج ميريديث والتربا
وكان من الأشياء المشهورة رديئة السمعة أن أي أبله يمكنه النجاح في الامتحانات ال
يعقدها مجلس المحامين، ولذلك راح يواصل دراسته في إهمال وتراخ ، وعندما رسب
امتحانه النهائي اعتبر ذلك إهانة شخصية له، وفي هذا الوقت أبلغته السيدة التي تقيم
ميدان كنسنجتون أن زوجها سيعود من الهند في إجازة. وقالت إنه بالرغم من أنه رجل ي
من جميع النواحي إلا أنه ذو عقلية عادية ولن يفهم زيارات شاب إذا تكررت لبيته. و
هايوارد بأن الحياة مفعمة بالقبح، وثارت نفسه حين فكر في مواجهة سخرية الممتحنين م
أخرى ، ورأى أنه من الروعة أن يركل الكرة التي تستقر عند قدميه. يضاف إلى هذا أنه ك
غارقا في الدين إلى حد كبير فقد كان من الصعب أن يعيش في لندن عيشة الرجل المه
بثلاثمائة جنيه في العام فقط، وتاق قلبه إلى مدينتي البندقية وفلورنسا اللتين وصف
جون راسكين وصفا ساحرا. وأحس بأن صخب المحاماة الفظ لا يناسبه، لأنه اكتشف أن
يكفي أن تضع اسمك على الباب لترد إليك الدعاوى، واتضح له أن السياسة الحديثة تفتقر
النبل، وأحس أنه شاعر فتخلص من حجراته في فندق كليمنت، وسافر إلى إيطاليا وكان
قضي شتاء في فلورنسا وشتاء آخر في روما، وهو الآن يقضي الصيف الثاني في الم
بألمانيا حتى يستطيع أن يقرأ جوتة بلغته الأصلية..

وكان لهايوارد موهبة نفيسة للغاية. فقد كان يستطيع تذوق الأدب وكان في مقدوره
يعبر عن شعوره في طلاقة تثير الإعجاب ، وكان يشارك بنفسه شعور الكاتب ويرى
المحاسن التي فيه ثم يمكنه بعد ذلك أن يتحدث عنه بقدر كبير من الفهم ، وكان فيليب
قرأ كثيرا ولكنه قرأ كل ما كان يعثر عليه دون تمييز. وكان من الخير له كثيرا أن يقابل
ذلك الوقت شخصا يوجه ذوقه ، فأخذ يستعير الكتب من مكتبة الإعارة الصغيرة في المد
وبدأ يقرأ كل الروائع التي كان هايوارد يتحدث عنها ولم يكن يستمتع دائما بالقراءة ول
كان يقرأ قراءة دأب ومواظبة ، لأنه كان تواقا إلى أن يرقى بنفسه فقد شعر أنه في غ
الجهل. وما كاد السيد ويكس يعود من جنوب ألمانيا في نهاية شهر أغسطس حتى كان فيل
قد أصبح تحت تأثير هايوارد ، ولم يكن هايوارد يشعر بميل نحو ويكس، ذلك أنه لم ت
تعجبه السترة الأمريكية السوداء والسروال ذي النقط السوداء والبيضاء، وكان يتحدث ع
يهز كتفيه سخرية من الاتجاهات الجديدة في نيوانجلاند ، وكان فيليب يستمع في أدب

سباب رجل تخلي عن طبعه وكان كريما معه. ولكنه كان يفقد صوابه عندما يبدى ويكس ملاحظاته المقذعة عن هايوارد. وقال ويكس في ابتسامة هزيلة من فمه اللاذع :

- إن صديقك الجديد يشبه الشعراء.
- إنه شاعر..
- هل قال لك ذلك ، إننا في أمريكا نسميه المثال الحقيقي للرجل المتبطل.

وقال فيليب في لا مبالاة :

- على أية حال ، نحن لسنا في أمريكا..
- كم عمره ؟ خمسة وعشرون عاما ؟.. ولا يفعل شيئا إلا البقاء في المنزل ليقرض الشعر..

وقال فيليب متحمسا :

- أنت لا تعرفه..
- بل.. إني أعرفه.. لقد قابلت مائة وأربعة وسبعين من أمثاله..

ولمعت عينا ويكس ، ولكن فيليب الذي لم يكن يفهم المزاح الأمريكي زم شفتيه وبدت عليه الصرامة ، وأعتقد فيليب أن ويكس رجل في منتصف العمر ، ولكنه لم يكن في الواقع قد تجاوز الثلاثين إلا بقليل ، وكان طويلا نحيل الجسم وتبدو عليه انحناءة طلاب العلم ، ذا رأس ضخم قبيح عليه شعر خفيف حائل اللون وبشرة ترابية اللون وقد أضفي عليه فمه الرقيق وأنفه الطويل الرفيع وعظام جبهته البارزة مظهرا من الغلظة والخشونة، وكان باردا دقيقا في تصرفاته لا يهتاج أبدا ولا ينفعل رجل بدون عاطفة، وكانت لديه نزعة غريبة إلى الاستخفاف والاستهتار كانت تخيب آمال الجادين من الناس فيه.. أولئك الذين ألقت به طباعه بينهم. وكان يدرس اللاهوت في هايدلبرج ، ولكن طلبة اللاهوت الآخرين من جنسيته كانوا ينظرون إليه في شئ من الريبة ، كان غير قويم الرأي وقد أخافهم هذا وأثار مزاحه الثقيل امتعاضهم. وسأل فيليب في جد :

كيف حدث أن عرفت مائة وسبعة وأربعين من أمثاله ؟

وقال ويكس :

لقد قابلت أمثاله في الحي اللاتينى في باريس وفي البنسيونات في برلين وميونيخ ومنهم من يسكن الفنادق الصغيرة في مدينتي بيروجيا وأسيسي. وهم يقفون بالعشرات أمام لوحات «بوتشيللي» في فلورنسا ويجلسون علي كل المقاعد في كنيسة سيستين في روما ، وأمثاله في إيطاليا يسرفون قليلا في شرب النبيذ ، وفي ألمانيا يشربون كثيرا من الجعة ، وهم يعجبون دائما بما هو صحيح في أي صورة كان ، وهم في يوم ما سيكتبون كتبا رائعة ، ولتتصور هذا.. تصور مائة وسبعة وسبعين كتابا عظيما تستكن في أعماق قلب مائة وسبعة وسبعين عظيما من الرجال. ولكن الشيء المفجع في هذا أن واحدا من تلك المائة والسبعة والسبعين كتابا لن يكتب أبدا. وبالرغم من كل هذا فالعالم سائر في طريقه.

وكان ويكس يتحدث جادا ، ولكن عينيه العسليتين أخذتا تلمعان قليلا في نهاية حديث الطويل. واحمر وجه فيليب عندما أدرك أن الأمريكي يهزأ منه. فقال في غضب :

– إن حديثك هذا هراء..

● ● ●

كان لدى ويكس غرفتان صغيرتان خلف منزل البروفيسور إيرلين، إحداهما مؤث كحجرة استقبال وكانت مريحة إلى حد يسمح له باستقبال الناس فيها. وبعد العشاء، كا يدعو فيليب وهايوارد – مثلما كان يفعل مع أصدقائه في كامبريدج –ليتبادلوا الحديث مع وكان يستقبلها بحفاوة كبيرة ويصر على أن يجلسا علي المقعدين المريحين الوحيدين ف الحجرة. ورغم أنه كان لا يشرب الخمر فبأدب أدرك فيليب ما فيه من لا مبالاة وضع ويك زجاجتين من الجعة قرب مرفق هايوارد وأصر وسط حماس المناقشات علي أن يشعل ع الثقاب لهايوارد كلما انطفأ غليونه. وفي بداية تعرفهما ببعض اتخذ هايوارد بوصفه عض في جامعة شهيرة موقفا متلطفا مع ويكس الذي كان خريج جامعة هارفارد؛ وعندما تنا الحديث بينهما، بالصدفة، التراجيديين اليونانيين، وهو موضوع كان هايوارد يشعر أ يتكلم عنه عن ثقة فكان ينتهج موقف من يتفضل بتقديم المعلومات لا موقف من يتبا المعلومات مع الآخرين. وكان ويكس يستمع في أدب ويبتسم في تواضع ، حتى ينت هايوارد من كلامه ؛ ثم يسأل سؤالا أو سؤالين ماكرين يبدو عليهما البراءة، وكان هايوا يرد عليهما برقة دون أن يدرك المأزق الذي يسير إليه. ويعترض ويكس اعتراضا مهذبا يتلو ذلك تصحيحا للوقائع وبعد ذلك جملة مقتبسة من معلق لاتيني غير معروف ثم إشا إلى مرجع ألماني؛ ثم تتضح الحقيقة بعد ذلك وهي أنه طالب علم ذكي. وفي يسر وابتسا فيها لمسة اعتذار مزق ويكس كل ما قاله هايوارد تمزيقا تاما؛ وبكياسة حصيفة بين م سطحية ما توصل إليه. لقد هزأ به بسخرية رقيقة.

ورأي فيليب أن هايوارد بدا وكأنه مغفل تماما. ولم يكن هايوارد من العقل بحيث يك عن الكلام ، فحاول ، وهو مهتاج وثقته في نفسه، مازالت في أوجها ، أن يجادل : فعر قضايا بحماس شديد وصححه ويكس برفق ، وكان منطقه زائف وأثبت له ويكس أن ما يقو كله سخف واعترف ويكس أنه درس الأدب اليوناني في هارفارد ورد هايوارد علي ذل بضحكة ساخرة وقال.

– كان يمكن أن أعرف ذلك. بالطبع قرأت أنت اليونانية كمدرس ولكن أنا قرأتها كشاع

–وهل تجد اليونانية أكثر شاعرية وأنت لا تعرف معناها ؟ أعتقد أنه في الديانات الت جاءت عن طريق الوحي فقط كان سوء الترجمة هو الذي حسن المعني.

وأخيرا بعد أن شرب الجعة ، ترك هايوارد حجرة ويكس وهو يشعر بسخونة وارتباك، وبإشارة غاضبة منه قال لفيليب :

– هذا الرجل طبعا متحذلق فليس لديه إحساس حقيقي بالجمال. الدقة هي صفة الكتبة إنها روح اليونانيين هي التي نهدف إليها. إن ويكس أشبه بهذا الشخص الذي ذهب ليسمع روبنشتاين ثم شكا أنه لعب أنغاما خاطئة ! ما أهمية ذلك إذا كانت الأنغام قد أديت بشكل رائع.

ولم يكن فيليب يعرف كم من الناس غير الأكفاء قد وجدوا بهجة في تلك الأنغام فتأثر بكلامه كثيرا.

ولم يكن هايوارد يستطيع مقاومة الفرصة التي يتيحها له ويكس لكي يكسب الأرض التي فقدها في مناسبات سابقة وكان في استطاعة ويكس بمنتهى السهولة أن يجره إلى المناقشات. ورغم أنه كان يري ضآلة ما توصل إليه بالمقارنة بالأمريكي فإن عناده البريطاني ، وكرامته المجروحة لم يسمحا له بالتخلي عن الصراع. ويبدو أن هايوارد كان يجد لذة في إظهار جهله ورضائه عن نفسه وتفكيره الخاطئ. وكلما نمت عن هايوارد مقولة غير منطقية كان ويكس بكلمات قليلة يبين زيف منطقه ، ويتوقف للحظة ليستمتع بانتصاره ، ثم ينتقل بسرعة إلى موضوع آخر. وقد حاول فيليب أحيانا أن يقول شيئا لمساعدة صديقه غير أن ويكس سحقه برفق وبصورة لطيفة تختلف عن الصورة التي يرد بها علي هايوارد لدرجة أن فيليب وهو بالغ الحساسية لم يشعر بأي استياء من ويكس. ومن آن لآخر كان هايوارد يفقد هدوءه عندما يشعر أنه ازداد سخفا فيصبح بذيئا وكان أدب الأمريكي المبتسم فقط هو الذي يحول دون أن تتحول المناقشة إلى مشاجرة. وفي تلك المناسبات كان هايوارد عندما يغادر حجرة ويكس يتمتم في غضب :

– الأمريكي الملعون.

وكان هذا يحل كل شيء. فقد كان هذا ردا ممتازا علي جدل لم يكن له رد.

ورغم أنهم كانوا يناقشون كل أنواع الموضوعات في حجرة ويكس الصغيرة إلا أن المناقشة كانت تتطرق في النهاية إلى موضوع الدين : وقد اهتم طالب اللاهوت بالمناقشة اهتمام المحترفين ، ورحب هايوارد بموضوع لا تسبب له الحقائق الواقعية فيه أي إحباط. فعندما يكون الشعور هو المقياس فيمكنك أن تستبعد المنطق ؛ وعندما يكون المنطق ضعيفا يكون هذا مناسبا جدا. وجد هايوارد أنه من الصعب أن يشرح معتقداته لفيليب دون أن يلجأ إلى سيل من الكلمات ولكن كان من الواضح (وقد تمشي ذلك مع فكرة فيليب عن النظام الطبيعي للأشياء) أنه نشأ في الكنيسة وفقا للقانون السائد. ورغم أنه تخلي الآن عن فكرة أن يصبح كاثوليكيا رومانيا فإنه ما زال ينظر إلى تلك الطائفة بنوع من التعاطف معها. فلديه الكثير ليقوله مدحا فيها وقارن مؤيدا حفلاتها الرائعة بالصلوات البسيطة التي تؤدى

في كنيسة إنجلترا. وأعطى فيليب كتاب «فيليب نيومان» عن الدفاع عن العقائد المسيحية لقراءته. وقد وجد فيليب الكتاب مملا جدا ومع ذلك قرأه حتى النهاية. وقال هايوارد :

– اقرأه لأسلوبه لا لموضوعه.

وتكلم بحماس عن الموسيقى في الكنيسة الصغيرة وقال أشياء ساحرة عن العلاقة بين البخور والروح التعبدية. واستمع له ويكس بابتسامته الفاترة.

– هل تعتقد أنه مما يثبت حقيقة الكاثوليكية الرومانية أن «جون هنرى نيومان» كتب أسلوبا إنجليزيا جيدا وأن الكاردينال «مانينج» ظهرت له صور مقدسة ؟

وأشار هايوارد إلى أنه دخل في معاناة كثيرة مع نفسه. وقال إنه ظل عاما يسبح في بحر من الظلمات. ومر بإصبعه خلال شعره وقال أنه لن يستطيع ولو منح خمسمائة جنيه أن يتحمل هذا العذاب الذهني مرة أخرى. ولحسن الحظ فقد وصل أخيرا إلى المياه الهادئة. وقال فيليب الذي لم يكن يرضي أبدا بالكلام الغامض:

–ولكن ما الذي تؤمن به ؟

– أومن بالكمال كله وأومن بكل ما هو طيب وجميل.

وبدا هايوارد وهو يقول ذلك وسيما للغاية بأطرافه الضخمة المرتخية وشكل رأسه الرائ

وسأله ويكس في رفق :

– هل هكذا ستصف ما تؤمن به في ورق إحصاء ؟

–إني أمقت التعاريف الجامدة : فهي قبيحة ومكشوفة. وإذا كنت تحب فسوف أقول إ أومن بكنيسة دوق ويلنجتون ومستر جلادستون.

–هذه هي كنيسة إنجلترا.

ورد هايوارد قائلا :

ياله من شاب حكيم.

قال هذا بسرعة وبابتسامة فاحمر وجه فيليب لأنه شعر أنه إذا وضع في كلمات بسيط ما قاله آخر في صياغة منمقة فإنه سيكون بذلك مذنبا بالسوقية. وواصل هايوارد كلا قائلا أنا أنتمي إلى كنيسة انجلترا ولكني أعشق الذهب والحرائر التي يكتسي بها أسقف رو كما أحب عزوبته وكرسي الاعتراف وأحب فكرة العذاب من أجل التطهر ؛ وأحب رائحة البخ الذي يعبئ ظلمة الكنيسة الإيطالية الصغيرة وغموضها ، وأومن من كل قلبي بمعجزة القدا والصلاة. وفي البندقية رأيت صيادة سمك تدخل الكنيسة حافية القدمين وتضع سلتها ال بها السمك إلى جانبها على الأرض وتجثو على ركبتيها وتصلي للعذراء ؛ وهذا هو ما شعر أنه الإيمان الحقيقي وصليت معها وآمنت. ولكني أومن أيضا بأفروديت (إلهة الحب والجم عند الإغريق) وأبوللو (إله الشعر والموسيقى والجمال الرجولي عند الإغريق) كما أومن بالإ العظيم بأن(إله المراعى والغابات عند الإغريق).

كان صوته ساحرا وكان يخرج الكلمات في تناغم وكان يمكنه أن يستمر غير أن ويكس فتح زجاجة ثانية من الجعة.

–دعني أسقيك شيئا.

واستدار هايوارد إلى فيليب وصدرت منه إيماءة رقيقة مما أثر في فيليب. وقال:

– والآن هل أنت راض ؟

وشعر فيليب أنه حائر بعض الشيء فاعترف أنه راض.

وقال ويكس :

– أنا مستاء لأنك لم تضف قليلا من البوذية.. وأعترف أني أشعر بنوع من التعاطف مع محمد ومما يؤسف له أنك تركته دون الإشارة إليه بشيء.

ضحك هايوارد لأنه كان في حال مرحة في تلك الأمسية ، وكان رنين كلماته وعباراته يتردد لطيفا في أذنيه. وشرب كأسه كلها. ثم قال :

– أنا لم أتوقع أبدا أن تفهمني فبذكائك الأمريكي الفاتر لا يمكنك إلا أن تتخذ موقف الناقد على غرار إيمرسون وأمثاله ، ولكن ما هو النقد أصلا ؟ النقد هو تدمير بمعني الكلمة فأي شخص يمكنه أن ينقد ولكن ليس أي شخص يمكنه أن يبني. أنت متحذلق يا زميلي العزيز. المهم هو أن تبني : أنا بناء : أنا شاعر.

نظر ويكس إليه بنظرة ملؤها الأسى ولكن فيها بريق ابتسامة وقال :

–إذا لم يكن لديك اعتراض علي ما أقول.. فأعتقد أنك مخمور بعض الشيء.

ورد هايوارد بمرح :

– لم أشرب شيئا يذكر ، ولم أشرب ما يكفي لكي يجعلني غير قادر علي التغلب عليك في المناقشة. ولكن تعال هنا ، لقد أفصحت أنا عن نفسي والآن قل لنا أنت ما هي ديانتك ؟

مال ويكس برأسه علي أحد جانبيه وبدا وكأنه عصفور يحتمي بعشه وقال.

– لقد حاولت لسنين أن أعثر على ذلك. أعتقد أنني موحد.

وقال فيليب :

– ولكنك بذلك تكون منشقا.

ولم يستطع أن يتخيل لماذا انفجر الاثنان ضاحكين فقد قهقه هايوارد بصوت مرتفع وارتسمت ابتسامة غريبة على وجه ويكس. وقال ويكس :

– وفي انجلترا الموحدون لا يعتبرون من السادة المبجلين (جنتلمان)

ورد فيليب قائلا :

– لو سألتني بصورة مباشرة فلا شك أنهم ليسوا من السادة المبجلين.

كان يكره أن يضحك أحد عليه ، وراحا يضحكان مرة أخرى. وقال ويكس :

– لكن هل يمكن أن تقول لي من هو الجنتلمان ؟

–لا أعرف.. فكل الناس تعرف من هو الجنتلمان.

–هل أنت جنتلمان ؟

ولم يحدث أن طرأ علي ذهن فيليب شك في هذا الموضوع لكنه لم يكن يستطيع أن ين تلك الصفة إلى نفسه.

– إذا قال لك أحدهم أنه جنتلمان فلتراهن بكل ما لديك أنه ليس كذلك.

– هل أنا جنتلمان ؟

جعل أمانة فيليب من الصعب عليه أن يرد على هذا السؤال ولكنه كان مؤدبا بطبيع وقال:

– حسنا.. أنت شيء مختلف.. أنت أمريكي أليس كذلك ؟

وقال ويكس بأسى :

– أعتقد أننا يحب أن نسلم بأن الإنجليزي هو الجنتلمان.

ولم يعارضه فيليب وقال ويكس :

– هل يمكن أن تعطيني مزيدا من صفات الجنتلمان.

احمر وجه فيليب ولما شعر بالغضب لم يحفل إذا جعل من نفسه سخرية. وقال : يمكن أن أعطيك كثيرا من تلك الصفات. وتذكر عمه عندما كان يقول له أن الأمر يست أجيالا لإعداد الجنتلمان : فأولا وقيل كل شيء يجب أن يكون ابن جنتلمان وأن يدرس مدرسة بارزة ثم في أكسفورد أو كامبريدج.

وقال ويكس متسائلا :

– وجامعة أدنبرة.. لا تنفع على ما أعتقد ؟

– ثم يجب أن يتكلم اللغة الإنجليزية مثل الجنتلمان ويرتدي الملابس اللائقة وإذا ك جنتلمان فإنه يمكنه أن يعرف من هم أمثاله.

وبدا لفيليب أنه من العبث أن يستمر ولكن هذا هو ما يعنيه بتلك الكلمة وكل من عر يعنون ذلك عندما يقولونها. وقال ويكس :

–لقد اتضح لي أني لست جنتلمان. ولا أستطيع أن أرى لماذا دهشتم بهذا الشكل لأني ق أني منشق. وقال فيليب :

– أنا لا أعرف على وجه التحديد ما هو الموحد.

ومال ويكس بطريقته الغريبة برأسه على أحد الجانبين ثم قال :

– الوحدوي أو الموحد يؤمن تقريبا بإخلاص بكل شيء يؤمن به أي شخص آخر ول إيمان دائم حي بشيء لا يعرف ما هو.

وقال فيليب :

– أنا لا أعرف لماذا تسخر مني فأنا أريد أن أعرف فعلا.

–يا صديقي أنا لا أسخر منك. لقد وصلت إلى هذا التعريف بعد سنين من الجهد الش والدراسات القلقة المدرة للأعصاب.

وعندما نهض فيليب وهايوارد استعدادا للرحيل أعطي ويكس لفيليب كتابا صغيرا مغلفا بورق مصقول وقال له :

– أعتقد أنك تستطيع أن تقرأ الفرنسية جيدا الآن وأتساءل ما إذا كان هذا الكتاب سيمتعك. شكره فيليب وأخذ الكتاب ونظر إلى العنوان : «حياة المسيح بقلم رينان».

● ● ●

لم يخطر على بال هايوارد أو ويكس أن المناقشة التي ساعدتهم علي قضاء أمسية في استرخاء ظلت تدور في ذهن فيليب النشط. فلم يعن له من قبل أن الدين أمر يمكن أن يكون موضع مناقشة. فالدين بالنسبة له هو كنيسة إنجلترا، وعدم الإيمان بعقائد هذه الكنيسة هو علامة علي العناد لا يمكن أن ينجو صاحبه من العقاب سواء هنا أو في الآخرة. وكان لديه بعض الشك في عقاب الكفرة. فمن المحتمل أن يعفي قاضي رحيم – يحتفظ بلهيب الجحيم للوثنيين والبوذيين والبقية الباقية من غير المؤمنين – المنشقين عن الكنيسة والرومان الكاثوليك من العقاب (رغم أن ذلك يكون علي حساب قدر المهانة التي سيشعرون بها عندما يدركون أخطاءهم)، ومن الممكن أيضا أن يرثي هذا القاضي لأولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لمعرفة الحقيقة – فهذا معقول إلى حد كبير رغم أنه مع نشاط المجتمع التبشيري لن يكون هناك كثيرين في تلك الحالة – ولكن إذا توفرات لهم فرصة المعرفة فعلا وتجاهلوها (ومن هذه الفئة طبعا الرومان الكاثوليك والمنشقين) فإن العقاب يكون مؤكدا ومستحقا. ومن الواضح أن الكافر في حالة محفوفة بالخطر. وربما لم يتعلم فيليب هذه الحقيقة بأسلوب مسهب ولكن لا شك أنه أعطي الانطباع أن المنتمين إلى كنيسة إنجلترا هم فقط الذين لديهم أمل بالسعادة الأبدية.

ومن الأشياء التي سمعها فيليب فعلا ما قيل من أن الكافر شخص شرير فاسد ، غير أن ويكس رغم أنه لا يؤمن بأي شيء يؤمن به فيليب كان يعيش حياة من النقاء المسيحي.

وقد لقي فيليب قليلا من الحنان في حياته ، وقد تأثر برغبة الأمريكي في مساعدته: ففي المرة التي ألزمته فيها إصابته بالبرد أن يلزم الفراش ثلاثة أيام، قام الأمريكي برعايته وتمريضه كما لو كان أمه. فلم يكن في ويكس رذيلة أو شر ، بل فقط إخلاص وحنان لطيف. وكان من الواضح أنه من الممكن أن يكون المرء فاضلا عفيفا وغير مؤمن.

ولما كان فيليب قد جبل علي أن يفهم أن الناس أدانوا بديانات أخرى فقط من باب العناد أو للمصلحة الذاتية : فإنهم في قلوبهم يعرفون أنهم مخطئون وأنهم يتعمدون خداع الآخرين. والآن فقد اعتاد من أجل تعلم اللغة الألمانية أن يحضر الصلاة في الكنيسة اللوثرية غير أنه عندما حضر هايوارد بدأ يذهب معه إلى القداس. ولاحظ أنه بينما كانت كنيسة البروتستانت خالية تقريبا، وأن الجو العام فيها يخيم عليه الكسل فإن كنيسة اليسوعيين من

ناحية أخرى كانت مزدحمة، وكان المصلون يصلون بهمة من كل قلوبهم. ولم تكن تبد عليهم سمات المنافقين. وقد دهش لهذا التناقض لأنه كان يعلم طبعا أن اللوثريين الذين كانت معتقداتهم أقرب إلى معتقدات كنيسة إنجلترا فقد كانوا من هذه الناحية أقرب إلى حقيقة الرومان الكاثوليك. كان معظم الرجال – وكان الجمع معظمه من الرجال – من جنوب ألمانيا. ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول أنه لو ولد في جنوب ألمانيا فلا شك أنه كان سيصبح كاثوليكيا رومانيا. وكان فيليب على علاقة ودية مع فتي صيني كان يجلس معه على المائدة مرتين في الأسبوع. كان اسمه «سونج».. وكان دائما مبتسما دمث الأخلاق مهذبا. وكان من الغريب أن هذا الشخص المهذب يجب أن يقلى في النار لمجرد أنه صيني؛ ولكن إذا كان الخلاص ممكنا مهما كانت عقيدة الإنسان فلا يبدو أن هناك ميزة خاصة للانتساب إلى كنيسة إنجلترا.

ولما انتابت الحيرة فيليب كما لم يحدث له في حياته من قبل لجأ إلى ويكس. وكان يجب أن يلتزم حذره لأنه كان شديد الحساسية إذا تعرض للسخرية من أحد؛ وكانت الدعابة اللاذعة التي يعامل بها الأمريكي كنيسة إنجلترا تثير استياءه. أما ويكس فقد جعل حيرته تزداد . فقد أقنع فيليب بأن يسلم بأن أولئك الألمان الجنوبيين الذين رآهم في كنيسة اليسوعيين مقتنعين تماما بحقيقة عقيدة الكاثوليكية الرومانية كما هو مقتنع بما تدعو إليه كنيسة إنجلترا وكم هذا المنطلق فإن البوذيين وغيرهم من الديانات الأخرى مقتنعون بصحة عقائدهم. وبدا الأمر وكأن معرفة المرء أنه على حق لا تعني شيئا فكلهم يعرفون أنهم على حق. ولم يكن لدى ويكس أي نية لتقويض إيمان فيليب ولكنه كان مهتما بشدة بالديانات والعقائد ويجدها مادة ممتعة للحديث. وقد وصف آراءه بدقة عندما قال إنه بكل جدية لا يؤمن بكل شيء يؤمن به الآخرون . وذات مرة سأله فيليب سؤالا ، سمع عمه يردده عندما وصل الحديث في بيت القس إلى مؤلف عقلاني كان موضع مناقشات في الصحف. قال فيليب:

– ولكن لماذا تكون أنت علي صواب وكل أولئك الرفاق مثل القديس آنسليم والقديس أوغسطين علي خطأ ؟

وسأل ويكس :

–أنت تعني أن هؤلاء كانوا رجالا أذكياء ومثقفين، بينما تشك كثيرا في أن أكون أنا مثلهم؟

ورد فيليب قائلا : نعم. لأن وضع السؤال بهذا الشكل فيه نوع من الوقاحة.

– كان القديس أوغسطين يعتقد أن الأرض مسطحة وأن الشمس تدور حولها.

– لا أعرف ما الذي يثبته ذلك ؟

– لماذا ، إنه يثبت أن المرء يؤمن بما يؤمن به جيله. لقد عاش هؤلاء القديسون في عصر الإيمان عندما كان من المستحيل عمليا ألا يؤمنوا بما لا يمكن أن نصدقه الآن.

– إذن كيف تعرف أننا لدينا الحقيقة الآن ؟

– لا أعرف.

وفكر فيليب في ذلك مليا ثم قال :

– أنا لا أري لماذا لا تكون الأشياء التي نؤمن بها إيمانا مطلقا الآن خطأ كما كانوا يؤمنون بأشياء خطأ من قبل ؟

– ولا أنا أيضا.

– إذن كيف تؤمن بأي شيء على الإطلاق ؟

–لا أعرف.

وسأل فيليب ويكس عن رأيه في معتقدات هايوارد. فقال ويكس :

– الناس دائما يتصورون الآلهة علي شاكلتهم. إن هايوارد يؤمن بكل ما هو رائع.

توقف فيليب قليلا ثم قال :

–أنا لا أري لماذا يجب على الإنسان أن يؤمن بإله على الإطلاق.

ولم تكد الكلمات تخرج من فيه حتى أدرك أنه توقف فعلا عن ذلك. وقد شعر عندئذ أنه شيئا سحب أنفاسه كما يقفز المرء في حوض من الماء البارد. ونظر إلى ويكس بعينين مرتاعتين. وفجأة شعر أنه خائف. فترك ويكس بقدر ما يستطيع من السرعة. كان يريد أن يكون وحده. لقد كانت التجربة من أكثر التجارب المروعة التي مر بها. وحاول أن يتأمل فيها لقد كانت أمرا مثيرا للغاية لأنه في حياته كلها كان مهتما بهذا الموضوع (وأعتقد أن قراره في هذا الشأن سوف يؤثر بعمق في مجرى حياته) وأن خطأ ما قد يؤدي إلى الخطيئة الأبدية المميتة ؛ غير أنه وجد أنه كلما ازداد تفكيره ازداد اقتناعه، ورغم أنه في خلال الأسابيع القليلة التالية قرأ باهتمام بالغ ،كتبا تساعد على النزوع إلى الشك ، فلم تكن نتيجة ذلك إلا تثبيته فيما شعر به غريزيا. والواقع أنه كف عن الإيمان ليس لهذا السبب أو غيره بل لأنه لم يؤت المزاج الديني. فلقد فرض عليه الإيمان من الخارج. فقد كان مسألة بيئة وقدوة. وثمة بيئة جديدة وقدوة جديدة أتاحتا له فرصة العثور علي ذاته. فقد تخلي ببساطة عن إيمان الطفولة مثل عباءة لم يعد المرء يحتاج إليها. ففي البداية بدت الحياة غريبة وفيها وحدة بدون الإيمان الذي كان سندا لم يخذله رغم أنه لم يدرك ذلك أبدا. وشعر كأنه رجل تعود أن يسير مستندا على عصا وفجأة يرغم علي السير دون مساندة. وحقا بدت الأيام وكأنها أبرد والليالي أكثر وحدة. غير أن الإثارة قوته ، وبدت كأنها جعلت الحياة مغامرة مثيرة؛ وفي فترة وجيزة بدت العصا التي تخلى عنها والعباءة التي ألقى بها من على كتفيه وكأنهما كانا عبئا لايحتمل تخلص منه. وكانت الممارسات الدينية التي فرضت عليه لسنوات كثيرة جزءا لايتجزأ من العقيدة بالنسبة له. وفكر في الصلوات القصيرة وفي آيات الكتاب المقدس التي كان يجبر علي حفظها عن ظهر قلب ، ثم الصلوات التي كانت تستغرق فترة طويلة في الكاتدرائية التي كان يجلس لمتابعتها وكل طرف من أطرافه يرجوه أن يتحرك ؛ وتذكر

المسيرات الليلية الطويلة في الطرق الموحلة، حيث كان يتجه إلى أبرشية الكنيسة في بلاكستابل وبرودة ذلك المبني الكئيب؛ كان يجلس وقدماه مثل قطعتين من الثلج وأصابعه ثقيلة فاقدة الإحساس وكل شيء حوله كانت تفوح منه الرائحة السقيمة لذلك المرهم الذي يدهنون به شعورهم. يا لله لقد كان يشعر بالملل بشدة. وقفز قلبه عندما رأي أنه تحرر من كل ذلك.

وقد دهش من نفسه لأنه كف عن الاعتقاد بهذه السهولة ولم يكن يعرف أن مشاعره سببها طبيعته الرقيقة البارعة وعزا اليقين الذي توصل إليه إلى حذقه الخاص. وكان مسرورا من نفسه بشكل مفرط. وبافتقار الشباب إلى التعاطف مع موقف مغاير لموقفه، فقد شعر باحتقار غير قليل لويكس وهايوارد لأنهما كانا قانعان بالعاطفة الغامضة التي أسموها الإله ولم يتخذا الخطوة الأبعد التي كانت واضحة له كل الوضوح.

وإذ انتشي فيليب بذكائه وبعدم خوفه من شيء دخل حياة جديدة. ولكن فقدانه لإيمانه لم يؤثر في سلوكه كما كان يتوقع. ورغم أنه تخلي عن جانب واحد من العقائد المسيحية فلم يخطر له أبدا أن ينتقد الأخلاق المسيحية. فقد أقر بالفضائل المسيحية ورأي حقا أنه من الخير ممارستها لما فيها من خير دون التفكير في ثواب أو عقاب. وكانت فرصة البطولة بسيطة في منزل البروفيسور ولكنه كان صادقا إلى حد كبير عن المألوف وأجبر نفسه على أن يكون مجاملا أكثر من المعتاد مع السيدات المسنات عندما يزجون به أحيانا في الحديث معهن.

وبعد أن سوى الأمر كله بالطريقة التي ترضيه سعي إلي أن طرده من ذهنه غير أن قول هذا كان أسهل من فعله ولم يستطع أن يمنع الأسف أو يكبت الشكوك والهواجس التي كانت تعذبه. كان صغيرا جدا وكان أصدقاؤه قليلين، ولذلك فلم تكن فكرة الخلود لها جاذبية خاصة لديه وكان يستطيع دون متاعب أن يتخلى عن الإيمان بها ؛ غير أنه كان هناك شيء واحد جعله بائسا ؛ وقال لنفسه أنه ليس عقلانيا ، وحاول أن لا يهتم بمثل هذه الشفقة ، ولكن الدموع ترقرقت في عينيه عندما تذكر أنه لن يستطيع أبدا أن يرى مرة أخرى الأم الجميلة التي ازداد حبها له قيمة كلما مرت السنين منذ وفاتها. وأحيانا كان يبدو أنه يتعرض لتأثير الأجداد الذين لا حصر لهم الخاشعين الذين يخشون الله ، دون وعي منه ، وانتابه خوف مفزع من أنه يمكن قبل كل شيء أن الموضوع كله حقيقي وأن هناك وراء السماوات إله غيور سوف يعاقب في النيران الملتهبة كل كافر أثيم. وفي هذه الأوقات كان منطقه لا يساعده أي مساعدة وتصور آلام العذاب الجسدي التي ستستمر إلى الأبد ، وشعر أنه مريض من شدة الخوف وشعر بالعرق الغزير يتدفق من خلايا جسمه، وفي النهاية استطاع أن يقول لنفسه في يأس :

— إنها ليست غلطتي قبل كل شيء. لا أستطيع أن أرغم نفسي أن أومن. وإذا كان هناك إله سيعاقبني لأني لا أومن. فأنا لا أستطيع أن أدرأ ذلك.

● ● ●

حل فصل الشتاء. وذهب ويكس إلى برلين لحضور محاضرات «بولسين»، وبدأ هايوارد يفكر في السفر إلى جنوب ألمانيا. وقد فتح المسرح المحلي أبوابه وكان فيليب وهايوارد يحضران عروضه مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع من أجل تحقيق الهدف النبيل وهو تحسين لغتهما الألمانية، ووجد فيليب أن تلك طريقة مسلية لتحسين لغته عن السماع إلى الصلوات. ووجدا أنهما في وسط حركة إحياء الدراما. وكان من المقرر أن يعرض المسرح عددا من مسرحيات «هنريك إبسن» في فصل الشتاء. وكان هناك كتاب مسرحيات آخرين كتبوا مسرحياتهم تحت تأثير الموجة الحديثة وشاهد فيليب سلسلة من المسرحيات ظهرت فيها وضاعة الجنس البشري. ولم يكن فيليب قد حضر عرضا مسرحيا في حياته من قبل (كانت فرق مسرحية فقيرة أحيانا تقدم عروضها في قاعة الاجتماعات بالمدرسة في بلاكستابل) غير أن القس كان يرفض حضورها من ناحية بسبب مهنته كقس ومن ناحية أخرى لأنه كان يعتقد أن حضورها يعتبر أمرا سوقيا. وقد استولي علي فيليب جنون المسرح. كان يهتز طربا في اللحظة التي يدخل فيها المسرح الصغير الرث خافت الضوء . وسرعان ما بدأ يعرف الأشياء الغريبة التي تتميز بها الفرقة الصغيرة وبدأ يعرف من الممثلين السمات الشخصية لأشخاص المسرحية غير أن هذا لم يكن يهمه في شيء. فقد كان المسرح بالنسبة له هو الحياة الحقيقية. كانت حياة غريبة مظلمة وفيها آلام، كان الرجال والنساء فيها يظهرون بعيون قاسية الشر الكامن في قلوبهم. الوجه الجميل يخفي عقلا فاسدا فاسقا؛ الفضلاء يستغلون الفضيلة كقناع لإخفاء رذائلهم السرية ، الذين تبدو عليهم القوة يسقطون صرعى ضعفهم ، الشرفاء فاسدون، البسطاء بذيئون. ويبدو كأنك تقيم في غرفة أقيمت فيها حفلة عربدة في الليلة السابقة فالنوافذ لم تفتح في الصباح ، وكان الهواء فاسدا تفوح منه رائحة الجعة الرديئة والتبغ. ولم يكن هناك ضحك في المسرح. وكل ما يحدث هو أن تضحك ضحكة مكبوتة علي المنافق أو الأحمق ، وكانت الشخصيات تعبر عن نفسها بكلمات قاسية تبدو وكأنها خرجت من قلوبهم بخجل ومعاناة.

لقد سقط فيليب صريعا لهوى المسرح ولتلك الخسة الشديدة التي اتسم بها ويبدو أنه بدأ يرى العالم من خلال منظار جديد، وكان أيضا شديد الشوق لمعرفة هذا العالم. وبعد أن انتهت المسرحية قصد إلى حانة وجلس في الدفء المنير مع هايوارد لتناول ساندويتش وشرب كأس من الجعة. وحولهما جلس جماعة من الطلبة يتسامرون ويضحكون، وكانت هناك أيضا عائلة أو اثنتان الأب والأم وولدان وفتاة، وأحيانا كانت الفتاة تقول شيئا يثير الضحك فكان الأب يتراجع إلى الخلف ويستند إلى ظهر مقعده ويضحك من أعماق قلبه. كان الجو وديا وبريئا. كانت هناك ألفة واضحة في هذا المشهد غير أن فيليب لم يلحظ ذلك، فقد كان كل فكره منصبا على المسرحية التي شاهدها.

وقال فيليب في عصبية :

– أنت تشعر أنها الحياة بعينها ، أليس كذلك ؟ هل تعرف أني لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك فأنا أريد الذهاب إلى لندن حتى يمكنني أن أبدأ فعلا. أريد أن أكتسب التجارب. لقد مللت الإعداد للحياة أريد أن أعيشها فعلا الآن.

أحيانا كان هايوارد يترك فيليب كي يعود إلى المنزل وحده. ولم يكن يرد أبدا على تساؤلات فيليب ولكنه كان يشير في ضحكة مرحة وغبية إلى حب رومانسي ويردد عدة أسطر اقتبسها من الشاعر «روزيتي» وفي مرة أطلع فيليب على قصيدة شعرية امتزج فيها التشاؤم بالشفقة عن سيدة شابة اسمها «ترود». وكان هايوارد يحيط مغامراته السوقية القذرة الحقيرة بهالة من الشعر، ويعتقد أنه وصل إلى مرتبة الشاعر بيركينز أو فيدياس لأنه في وصف من يهتم به استخدم بعض العبارات اليونانية بدلا من العبارات الفظة المناسبة التي تستخدم في اللغة الإنجليزية. وكان فيليب بالنهار ينتابه الفضول لكي يمر بالشارع الصغير القريب من الكوبري القديم بمنازله البيضاء الأنيقة ونوافذه الخضراء اللون التي قال هايوارد أن السيدة «ترود» الذي تقيم فيه ولكن النسوة ذات الوجوه المتوحشة والوجنات المتبرجة اللاتي خرجن من أبواب منازلهن ونادوا علي فيليب ملأنه بالخوف منهن. وفر مشمئزا من الأيادي الخشنة التي تحاول. وكان يتوق قبل كل شيء للتجربة وشعر بأنه سخيف لأنه في سنه هذه لم يتمتع بذلك الشيء التي ذكرت كل أقاصيص الأدب إنه أهم شيء في الحياة ؛ غير أنه كانت لديه الموهبة التعيسة التي تجعله يرى الأشياء كما هي ، والحقيقة التي عرضت عليه اختلفت بصورة كبيرة عن أحلامه المثالية.

ولم يكن يدري طول المسافة الشاسعة الجرداء التي يتعين على المسافر في الحياة أن يقطعها قبل أن يصل إلى قبول الحقيقة. هناك وهم وهو أن الشباب سعيد وهو وهم عند أولئك الذين ضاع منهم هذا الشباب ؛ غير أن الشباب يعرفون فعلا أنهم تعساء لأنهم امتلأوا بمثل عليا غير حقيقية غرست فيهم ؛ وفي كل مرة يحتكون بالحقيقة يصدمون ويجرحون. ويبدو الأمر وكأنهم ضحايا مؤامرة؛ لأن الكتب التي قرأوها وهي كتب مثالية من منطلق ضرورة الانتقاء ؛ والكلام الذي سمعوه ممن يكبرونهم سنا الذين كانوا ينظرون إلى الماضي من خلال ستار وردي من النسيان ، كل ذلك هيأهم لحياة غير حقيقية. وعليهم أن يكتشفوا بأنفسهم أن كل ما قرأوه وكل ما قيل لهم هو كذب في كذب في كذب؛ وكل اكتشاف يصلون إليه هو مسمار آخر في نعش هذه الحياة. والشيء الغريب أن كل واحد مر بالتحرر المرير من الوهم يزيد بدوره الوهم في نفسه بدون وعي منه بقوة من داخله أقوى منه. كانت رفقة هايوارد أسوأ شيء ممكن لفيليب، فقد كان رجلا لم ير شيئا بنفسه بل كل ما رآه كان من خلال إطار أدبي، وبأمانة اعتبر أن الانغماس في شهواته شعور رومانسي والتذبذب حساسية فنية وبطالته وتعطله استقرار فلسفي. أما ذهنه الذي كان سوقيا في جهوده نحو التهذيب فقد رأي كل شيء أكبر من حجمه في الحياة والأشكال غير واضحة في ضباب ذهبي من المشاعر العاطفية. كان يكذب ولم يعرف أبدا أنه يكذب وعندما قيل له أنه يكذب قال أن الكذب جميل. كان مثاليا.

● ● ●

كان فيليب قلقا ضجورا ومستاء. وقد أزعجت خياله تلميحات هايوارد الشاعرية وتاقت روحه إلى الغرام.

حدث أن شيئا وقع في منزل السيدة إيرلين كان من شأن ذلك أن ازداد اهتمام فيليب بموضوع الجنس. ففي مرتين أو ثلاث أثناء سيره بين التلال قابل الآنسة «كاسيلي» تسير وحدها. ومر جانبها بانحناءة وبعد ذلك بياردات قليلة رأي الرجل الصيني. ولم يفكر في الموضوع إطلاقا ؛ غير أنه في أمسية ما بينما هو في طريق عودته إلى منزله في ظلمة الليل مر بشخصين يسيران جنبا إلى جنب. ولما سمعا وقع خطواته ابتعدا عن بعضهما بسرعة ورغم أنه لم يتمكن من الرؤية جيدا في الظلام فقد كان واثقا أنهما «كاسيلي» والسيد «سونج». وكانت حركتهما السريعة في الابتعاد عن بعض توحي بأنهما كانا يسيران وقد تشابكت ذراعاهما. وانتابت فيليب الحيرة والدهشة. كانت فتاة عادية ليست جميلة وجهها مربع وقسماتها غير محددة. ولا يمكن أن تكون أكثر من ستة عشر عاما لأن شعرها كان مضفرا. وفي العشاء في ذلك المساء نظر إليها باستغراب ؛ ورغم أنها هي الفترة الأخيرة لم تكن تتكلم كثيرا أثناء تناول الطعام إلا أنها وجهت الحديث إليه قائلة:

– أين تمشيت اليوم يا سيد كارى ؟

– لقد سرت حتى كونيجستول.

– أنا لم أخرج فقد كنت أعاني من الصداع.

واستدار الرجل الصيني الذي كان يجلس إلى جانبها وقال :

– أنا آسف ، أرجو أن تكون حالتك قد تحسنت الآن.

كان من الواضح أن الآنسة كاسيلي كانت قلقة فوجهت كلامها إلى فيليب مرة أخرى:

–هل قابلت كثيرين أثناء سيرك ؟

ولم يسع فيليب إلا أن يحمر وجهه وهو يكذب ويقول:

– أبدا ، لا أعتقد أني قابلت كائنا حيا.

وهُيأ له أن نظرة ارتياح لمعت في عينيها.

وسرعان ، على أية حال ماتيقن ـ دون شك ـ في أن هناك شيئا بين الاثنين، فقد شاهدهما أناس آخرون في منزل السيدة إيرلين يتسكعان في أماكن مظلمة. وبدأت النساء المسنات الجالسات في قمة المائدة في الكلام عما أصبح الآن فضيحة. وكانت السيدة البروفيسور غاضبة ومتضايقة. فقد بذلت كل ما في وسعها كي لا ترى شيئا. فقد كان الشتاء على وشك المجيء ولم يكن الموضوع سهلا كما هو الحال في الصيف لكي يظل منزلها مشغولا بأكمله. وكان السيد سونج زبونا جيدا: فقد كان يستأجر حجرتين في الدور الأرضي وكان يشرب زجاجة من النبيذ مع كل وجبة وكانت السيدة البروفيسور تقاضيه ثلاث ماركات عن كل زجاجة فتحقق مكسبا وفيرا. ولم يكن أحد من بين نزلائها الآخرين يشرب النبيذ وبعضهم حتى لم يشرب الجعة. ولم تكن أيضا تريد أن تفقد الآنسة كاسيلي التي كان لدى والديها

تجارة في أمريكا الجنوبية وكانا يدفعان بسخاء مقابل عناية السيدة البروفيسور بالآنسة كاسيلي ، وكانت تعرف أنها لو كتبت إلى عم البنت الذي يعيش في برلين فإنه سيسحبها من رعايتها على الفور. وقد أرضت السيدة إيرلين نفسها بأن وجهت إليهما نظرات حادة على المائدة، ورغم أنها لم تجرؤ على أن تكون عنيفة مع الرجل الصيني فقد شعرت بارتياح خاص لأنها لم تعامل الآنسة كاسيلي بالكياسة المطلوبة . ولكن السيدات المسنات الثلاث لم تكن راضيات. اثنتان منهما أرملتان والثالثة عانس هولندية ذات مظهر رجولي، وكن يدفعن أقل مبلغ ممكن نظير سكنهن، وكن يسببن متاعب كثيرة غير أنهن كن دائمات التواجد فكان من الضروري تحملهن. وذهبن إلى السيدة البروفيسور وقلن لها أنه لا بد من عمل شيء، لأن ذلك أمر مشين وسوف يصبح البيت غير محترم. وحاولت السيدة البروفيسور معهن العناد والغضب والدموع ولكن الثلاث هزمنها، وبغضب مفاجئ ممزوج بإحساس بالفضيلة قالت أنها سوف تضع حدا للأمر برمته.

وبعد الغداء أخذت السيدة كاسيلي إلى حجرة نومها وراحت تتحدث إليها بجدية وماأدهشها أن اتخذت الفتاة موقفا صفيقا وقالت أنها ستفعل ما تشاء وأنها إذا أرادت أن تسير مع الرجل الصيني فإنها لا ترى أن هذا من شأن أحد ولكن هذا أمر يخصها هي. وهددت السيدة البروفيسور بأنها سوف تكتب إلى عمها.

– وعندئذ قالت : سيجعلني عمي هينريش أقيم مع أسرة في برلين في الشتاء وسيكون هذا أفضل بكثير لي. وسوف يأتي السيد سونج إلى برلين أيضا.

وبدأت السيدة البروفيسور تبكي. وترقرقت الدموع في عينيها علي وجنتيها الحمراوين السمينتين الخشنتين. وضحكت منها الآنسة كاسيلي.

–معنى هذا ثلاث غرف فارغة طوال فصل الشتاء.

ثم حاولت السيدة البروفيسور خطة أخرى. فوجهت الثناء إلى أخلاق الآنسة كاسيلي،فقد كانت رقيقة وعاقلة ومتسامحة ؛ وقالت أنها لم تعد تعاملها كطفلة بل كامرأة ناضجة وقالت أن الأمر ليس فظيعا بهذا الشكل ولكن أن تعرف رجلا صينيا بجلده الأصفر وأنفه الأفطس وعينيه اللتين تشبهان عينا الخنزير فهذا شيء مروع. وهذا شيء يجعل المرء يشمئز إذا فكر فيه.

–من فضلك ، من فضلك ، أنا لن أسمع أي شيء يقال ضده.

وشهقت السيدة إيرلين وقالت :

– ولكن علاقتكما ليست جدية.

– أنا أحبه ، أحبه ، أحبه.

– يا للشيطان.

وحملقت السيدة إيرلين فيها بنظرة ملؤها الفزع والدهشة؛ كانت تعتقد أن المسألة ليست أكثر من شقاوة من جانب الطفلة ، حماقة بريئة، غير أن العاطفة التي امتلأ بها صوتها

كشفت كل شيء. ونظرت كاسيلي إليها لحظة بعينين ملتهبة ثم غادرت الحجرة بهزة من كتفيها.

احتفظت السيدة إيرلين لنفسها بما دار بينها وبين الآنسة كاسيلي وبعد ذلك بيوم أو يومين غيرت ترتيب الجلوس على المائدة. وطلبت من السيد سونج أن يجلس عند طرف المائدة التي كانت هي تجلس إليه وبأدبه الشديد وافق بسرعة. وقبلت الآنسة كاسيلى هذا التغيير بلا مبالاة. ولكن لأن العلاقة بينهما أصبحت معروفة للجميع فقد أصبحا أقل خجلا ولم يجعلا من خروجهما معا سرا يخفى وكانا بعد ظهر كل يوم يخرجان علنا للنزهة معا حول التلال. وكان من الواضح أنهما لم يهتما بما كان يقال عنهما. وأخيرا تغير حتى هدوء البروفيسور إيرلين نفسه وأصر على أن تتكلم زوجته مع الرجل الصيني. فانتحت به جانبا وراحت تجادله : لقد كان يدمر مستقبل البنت ، ويفسد سمعة البيت ولابد أن يعرف سوء سلوكه؛ ولكنها قوبلت بانكار مبتسم ، لم يكن السيد سونج يعرف ما الذي تتكلم عنه السيدة إيرلين وقال أنه لا يولي أي اهتمام للآنسة كاسيلي وأنه لم يتنزه معها أبدا وكل ذلك غير حقيقي كل كلمة منه غير حقيقية.

– يا لله يا سيد سونج كيف تقول ذلك ؟ لقد شوهدتما معا مرارا ومرارا.

– أبدا.. أنت مخطئة. وهذا غير صحيح.

ونظر إليها بابتسامة متواصلة كشفت عن أسنانه البيضاء الصغيرة المنتظمة. كان هادئا جدا. وقد أنكر كل شيء. أنكر بكل وقاحة. وفي النهاية فقدت السيدة إيرلين أعصابها وقالت أن الفتاة اعترفت أنها تحبه. لم يتأثر. واستمر في الابتسام.

– كلام فارغ ! كلام فارغ! كله غير حقيقي.

لم تستطع أن تحصل منه على شيء. وساءت حالة الطقس بشدة. وتساقطت الثلوج ، ثم بدأت الثلوج تذوب مع تتابع أيام كئيبة كان التنزه فيها تسلية فقيرة. وفي إحدى الأمسيات بعد أن انتهي فيليب من درس الألمانية مع البروفيسور وكان يقف لحظات في حجرة الاستقبال يتحدث مع السيدة إيرلين ، دخلت «آنا» مسرعة:

– أمي.. أين ذهبت كاسيلي ؟

–أعتقد أنها في غرفتها.

– ليس هناك ضوء في الغرفة.

وأبدت السيدة إيرلين تعجبها ونظرت إلى ابنتها في رعب. وقد قفزت الفكرة التي كان في رأس آنا إلى رأسها.

– رني الجرس لإيميل.

وإيميل هذا هو الرجل الأخرق الذي ينتظر لخدمة المائدة ويقوم بمعظم أعمال المنزل. وجاء إيميل

– إيميل.. اذهب إلى غرفة السيد سونج وادخل دون أن تطرق الباب. فإذا كان هناك أحد قل إنك جئت لتفحص المدفأة.

ولم تظهر على وجه إيميل البارد أي من علامات الدهشة.

ونزل السلالم ببطء. وتركت السيدة إيرلين والآنسة آنا الباب مفتوحا وأصغينا للسمع وسمعتا إيميل يصعد السلالم ونادتا عليه.

وسألته السيدة إيرلين :

– هل كان هناك أحد ؟

– نعم ، السيد سونج كان هناك.

– هل كان وحده ؟

وابتسم إيميل ابتسامة خبيثة فضاقت مساحة وجهه وقال :

–لا.. كانت الآنسة كاسيلي هناك.

وصاحت السيدة إيرلين :

– آه.. يا للعار.

وازدادت ابتسامة إيميل وقال :

– الآنسة كاسيلي توجد معه كل مساء. إنها تقضي ساعات كل يوم هناك.

بدأت السيدة إيرلين تعصر يديها.

– أوه.. يا للقرف.. ولكن لماذا لم تبلغني بذلك ؟

رد ببطء وهو يهز كتفيه :

– هذا ليس من شأني.

– أعتقد أنهما دفعا لك كثيرا. أغرب عن وجهي...

وسار في تثاقل نحو الباب.

وقالت آنا :

– يجب أن يتركا البيت يا أمي.

– ومن الذي سيدفع الإيجار والفواتير حل موعد سدادها؟! أنت لا تهتمين وتقولين يجب أن يتركا البيت. إذا تركا البيت لن أستطيع دفع الفواتير. والتفتت إلى فيليب والدموع تنهمر من عينيها. «آخ يا سيد كارى ، إنك لن تقول شيئا مما سمعته. فلو علمت الآنسة فورستر» – هذه هي العانس الهولندية – فسوف تترك البيت فورا وبعد ذلك لن أستطيع الإبقاء عليه.

–بالطبع لن أقول شيئا.

وقالت آنا :

– إذا بقيت بالمنزل فلن أتكلم معها.

وفي ذلك المساء على العشاء جلست الآنسة كاسيلي في مكانها في الموعد المحدد وكان وجهها أكثر حمرة من المعتاد وبدت بعينيها نظرة عناد ، غير أن السيد سونج لم يظهر وظن

فيليب للحظة أن السيد سونج سوف يتهرب من المحنة. وأخيرا جاء يبتسم ابتسامة عريضة وعيناه تفيضان بالاعتذار الذي أبداه عن تأخره في الحضور. وأصر كالمعتاد على أن يقدم للسيدة إيرلين كأسا من النبيذ الذي يشربه وقدم كأسا للآنسة فورستر. كان جو الحجرة حارا فقد ظلت المدفأة موقدة طوال اليوم والنوافذ كانت نادرا ما تفتح. وراح إيميل يتخبط هنا وهناك، غير أنه استطاع في النهاية أن يخدم بسرعة وبنظام. وجلست السيدات المسنات الثلاث صامتات وكان من الواضح أنهن رافضات لكل شيء مما حدث: ولم تستطع السيدة إيرلين التخلص من دموعها وكان زوجها صامتا وحزينا. وفتر الحوار. وبدا لفيليب أن هناك شيئا مخيفا في هذا الجمع الذي جلس معه مرارا. وكان شكلهم جميعا مختلفا تحت ضوء المصباحين المعلقين عما كانوا يبدون من قبل؛ وأحس أنه مرتبك. ووقعت عيناه على عيني الآنسة كاسيلي، وأعتقد أنها تنظر إليه في كراهية واحتقار. أصبح جو الغرفة خانقا. ويبدو أن العاطفة لهذا الثنائي أزعجتهم جميعا.

ساد شعور بالفساد الوارد من الشرق ؛ ونكهة واهية لعصي الطعام الصينية ، وغموض الرذائل المستترة كل ذلك جعل أنفاسهم ثقيلة. كان فيليب يشعر بنبض عروقه في جبهته. ولم يستطع أن يفهم ما هو الشعور الغريب الذي جعله تائها غائب الانتباه : ويبدو أنه كان يشعر في الموضوع بشيء جذاب إلى أقصى حد ومع ذلك فقد كان يشعر أيضا بالنفور والرغب.

وسارت الأمور هكذا لعدة أيام. وكان الجو سقيما بسبب الشعور غير الطبيعي الذي انتاب الجميع، ويبدو أيضا أن أعصاب البيت كله كانت ساخطة. وكان السيد سونج هو الوحيد الذي لم يتأثر بشيء وكان مازال مبتسما دمث الخلق ومؤدبا أكثر من ذي قبل : ولا يمكن لأحد أن يعرف هل سلوكه هذا كان تعبيرا عن انتصار المدنية أم تعبيرا عن احتقار الشرق للغرب المهزوم. وكانت الآنسة كاسيلي مزهوة وساخرة. وفي النهاية لم تستطع السيدة إيرلين أن تحتمل الموقف أكثر من ذلك. وقد استولي عليها الفزع لأنها أشارت بصراحة وحشية إلى النتائج المحتملة لمؤامرة أصبحت الآن واضحة للجميع ورأت أن اسمها في هايدلبيرج وسمعة بيتها قد تحطما بسبب فضيحة لا يمكن سترها. ولسبب ما ، فإن هذا الاحتمال لم يخطر ببالها من قبل والآن وقد شوشت أفكارها بسبب الخوف الفظيع، فلم يكن في الإمكان منعها من طرد الفتاة من البيت فورا. وكان بسبب تعقل آنا أن أرسلت رسالة توخي فيها الحذر إلى عم الفتاة في برلين أقترح فيها أن تغادر كاسيلي المنزل في هايدلبيرج.

ولما قررت السيدة إيرين أن تفقد النزيلين لم تستطع أن تقاوم الشعور بالرضا الذي جاءها من إطلاق العنان لسوء مزاجها الذي حرصت ألا تبديه لمدة طويلة. وقد أصبحت الآن حرة في أن تقول أي شيء للآنسة كاسيلي.

–لقد بعثت برسالة إلى عمك كي يأخذك من هنا. فأنا لا أستطيع أن أبقيك في منزلي أكثر من ذلك.

ولمعت عيناها الصغيرتان عندما رأت إصفرار وجه الفتاة. واستمرت تقول :

– أنت مخزية.. مخزية ليس عندك أي حياء.

وواصلت سبها بألفاظ مقذعة.

وقالت الفتاة فجأة بعد أن تخلت عن استقلالها الذي كانت مزهوة به.

– ماذا قلت لعمي أيتها الأستاذة ؟

– سوف يقول لك بنفسه وأنا أتوقع رسالة منه غدا.

وفي اليوم التالي ولكي تزيد من حدة المهانة وتشيعها على الملأ بقدر أكبر نادت الآنسة كاسيلي أثناء تناول العشاء وقالت لها:

– لقد تلقيت رسالة من عمك. عليك أن تجمعي حاجياتك الليلة وسوف نضعك في القطار صباح غد. وسوف يقابلك عمك في برلين في محطة بانهوف.

– جيد جدا يا سيدتي الأستاذة.

ابتسم السيد سونج في وجه السيدة إيرلين وبغض النظر عن احتجاجاتها قدم لها كأسا من النبيذ. أكلت السيدة إيرلين عشاءها بشهية مفتوحة. ولكنها انتصرت بطريقة غير عاقلة وقبل أن تأوي إلى فراشها نادت على الخادم.

– إيميل.. إذا كانت الآنسة كاسيلي قد أعدت حاجياتها فمن الأفضل أن تحملها إلى أسفل الليلة، فسوف يحضر البواب قبل الإفطار لأخذها.

اختفى الخادم ثم عاد بعد لحظة.

– الآنسة كاسيلي ليست في غرفتها وقد اختفت حقيبتها.

أسرعت الأستاذة صائحة نحو الحجرة : كان الصندوق على الأرض مربوطا ومغلقا بقفل ولكن لم تكن هناك حقيبة ولا قبعة ولا عباءة. ولم يكن هناك شيء على منضدة الزينة وهرعت السيدة إيرلين وهي تتنفس بصعوبة إلى أسفل متجهة إلى حجرة السيد سونج. لم تكن قد تحركت بسرعة طيلة عشرين عاما وصرخ إيميل فيها يحذرها كي لا تسقط. ولم تحفل بأن تدق الباب بل اقتحمته فجأة. كانت الحجرة فارغة. واختفي المتاع وكان الباب الموصل إلى الحديقة ما زال مفتوحا مبينا كيف خرجا. وكانت هناك في مظروف ترك على المنضدة أوراق نقدية بقيمة الإقامة لمدة شهر ومبلغ إضافي للنثريات. جلست الأستاذة منهكة على أريكة ليس هناك شك الآن في أن الاثنين خرجا معا .

● ● ●

ظل هايوارد يردد طوال شهر أنه سيسافر إلى الجنوب في اليوم التالي ويؤخر ذلك من أسبوع لآخر بسبب عدم قدرته على اتخاذ قراره وما يلاقيه من المتاعب في حزم متاعه مضافا إلى ملل الرحلة ثم اضطر أخيرا إلى الرحيل قبل عيد الميلاد، بسبب الاستعداد لهذا العيد، ذلك أنه لم يستطع أن يتحمل التفكير في هذه الأفراح التي يقيمها الألمان ، ومن ينتمون

إلى جنسهم. فقد كان بدنه يقشعر عندما تجول في خاطره فكرة هذه الأفراح الباغية التي تقام في هذا الفصل من العام واشتدت رغبته في تجنب هذا الأمر الواضح، فقرر السفر في ليلة عيد الميلاد..

لم يكن فيليب آسفا لفراقه إلا لأنه كان صريحا، وكان يضايقه أن يخفي أي شخص ما يدور بخلده. وهو وإن أصبح إلى حد كبير تحت تأثير هايوارد فلم يسلم بأن الحيرة تشير إلى حساسية محببة وكان يستاء من شبح السخرية التي كان ينظر بها هايوارد إلى أساليب فيليب الصريحة. وتراسلا، وكان هايوارد يكتب رسائل رائعة تثير الإعجاب، إذ كان يعرف في نفسه هذه الموهبة فكان يبذل جهدا كبيرا في كتابة رسائله، وكان ذا طبيعة تعي ما يتصل بها من مؤثرات جميلة فاستطاع أن يبعث إليه في خطاباته من روما بأريج إيطاليا العطر.

وكان يظن أن مدينة الرومان القدامى تتسم بقليل من السوقية، ولم يجد فيها ما يميزها غير تدهور الإمبراطورية الرومانية، ولكن روما الباباوات هي التي استهوت مشاعره ولاح من كلماته التي انتقاها في تأنق ، جمال روما الغابر. فكتب عن موسيقى الكنائس العتيقة وتلال «البان» ورائحة دخان البخور الخفيفة ، وسحر الشوارع في الليل بعد أن يتساقط عليها المطر وتلمع الأرصفة ويبدو الغموض على المصابيح. وربما كان هايوارد قد أعاد كتابة هذه الرسائل الرائعة إلى عدد من الصحاب ولكنه لم يدرك أنها كانت ذات أثر مضن في فيليب الذي خيل إليه أنها جعلت من حياته أمرا تافها مملا. وعندما حل الربيع أصبح هايوارد متحمسا مجنونا واقترح على فيليب أن يأتي إلى إيطاليا وقال أنه يضيع وقته ببقائه في هايدلبرج وأن الألمان شعب فظ والحياة عندهم لا روعة فيها، فكيف تستطيع الروح أن تعود إلى نفسها في مثل هذه البقاع الجامدة؟ أما الربيع في توسكاني فينثر الزهور على الأرض ، وكان فيليب في التاسعة عشرة، فإذا جاء إلى إيطاليا فإنهما سيتجولان في المدن القابعة على جبال أمبريا. وصدحت هذه الأسماء في قلب فيليب بموسيقى عذبة. وكانت كاسيلي قد ذهبت كذلك مع حبيبها إلى إيطاليا، وعندما فكر فيهما فيليب انتابه ضجر لم يعرف علته، فلعن حظه لأنه لم يكن لديه المال الذي يمكنه من السفر، وكان يعلم أن عمه لن يبعث إليه بأكثر من الخمسة عشر جنيها التي اتفقا عليها كل شهر. وهو لم يحسن تدبير أمر مرتبه هذا، فكانت مصاريفه وما يدفعه لدروسه لا تبقى له بعد بذلك إلا القليل، ووجد أن مطاوعة هايوارد ستكلفه الكثير. فكثيرا ما اقترح هايوارد القيام بالرحلات أو الذهاب إلى المسرح ، أو شراء زجاجة من النبيذ، في الوقت الذي مرتب فيليب الشهري قد قارب على الانتهاء ، لم يكن يريد – لحماقته التي تنتاب أمثاله في هذه السن – أن يعترف بأنه لا يحتمل هذا التبذير.

وكانت خطابات هايوارد لحسن الحظ قليلة نادرة، وفي الفترات التي بينها عاد فيليب إلى حياته النشطة، فقد قبل طالبا في الجامعة وحضر المحاضرات في منهج أو اثنين. وكان كينو فيشر وقتئذ في أوج شهرته، وكان في ذلك الشتاء يلقى محاضراته الرائعة عن «شوبنهور». وكانت هذه بداية دراسة الفلسفة بالنسبة لفيليب. وكان ذهنه يتسم بالمنطق العملي فتحرك

في ... بين المعقولات، ولكنه وجد سحرا لم يتوقعه في الاستماع إلى الأبحاث الميتافيزيقية التي كانت تبهر أنفاسه وكان الأمر أشبه إلى حد ما بمشاهدة راقص على حبل مشدود فو[ق] هوة سحيقة يأتي بحركات خطرة ولكنها مثيرة إلى حد لا مزيد عليه..

واستهوت روح الموضوع التشاؤمية شبابه، وأعتقد حينئذ أن العالم يوشك أن يخطو إل[ى] مكان مملوء بالكوارث المروعة، ولكن هذا لم يقلل من شوقه إلى اقتحامه و لما عرضت عل[يه] السيدة كارى التي كانت تقوم بإبلاغ فيليب بآراء وصيه في الوقت المناسب العودة إل[ى] إنجلترا، وافق على اقتراحها في حماسة بالغة. فقد كان عليه حينئذ أن يقرر ماذا يريد أ[ن] يفعل. وقال في نفسه إنه إذا رحل عن هايدلبرج في نهاية شهر يولية لاستطاع أن يناقش الأمور خلال شهر أغسطس، وبذلك يجد متسعا من الوقت ليتخذ ما يشاء من ترتيبات وتحد[يد] يوم رحيله وكتبت إليه السيدة كارى مرة أخرى وذكرته بالآنسة ويلكنسون التي كا[ن] يفضلها، ذهب إلى منزل إيرلين في هايدلبيرج، و أبلغته أنها اتخذت ترتيباتها لكي تقض[ي] معهم بضعة أسابيع في بلاكستابل وأنها ستمر بمحطة فلاشينج في يوم كذا وكذا، وإذا ساف[ر] هو في نفس الوقت فسيكون في وسعه أن يبحث عنها ويعود في صحبتها إلى بلاكستايل. وق[د] اضطره حياؤه إلى أن يبعث إليها برسالة في الحال ويقول أنه لن يتمكن من السفر إلا بعد م[و]الموعد بيوم أو يومين، فقد تخيل فيليب نفسه وهو يبحث عن الآنسة ويلكنسون ثم تخيل الحرج الذي سيصيبه عندما يذهب إليها ويسألها هل هي الآنسة ويلكنسون (ومن المحتمل جدا أن يوجه هذا السؤال إلى شخص آخر فيزجره) ثم تأتى مشكلة وجودها معه في القطار وهل يتحدث إليها أو يتجاهلها ويقرأ كتابه.

وأخيرا غادر هايدلبيرج ولم يفكر طيلة الأشهر التي مضت في شيء إلا في المستقبل وغادر المدينة غير آسف. ولم يعرف أبدا أنه كان سعيداً هناك وقد أعطته الآنسة «آنا» نسخة من كتاب لمؤلف ألماني، وأهداها هو في المقابل نسخة من كتاب وليام موريس وكان كلاهما حكيما كل الحكمة فلم يقرأ هدية الآخر..

● ● ●

ودهش فيليب عندما رأى عمه وعمته (زوجة عمه) ، فلم يكن قد لاحظ من قبل أنهما مسنان إلى هذا الحد ، واستقبله القس في تجاهله المعتاد الذي يتسم بشيء من المودة، وقد بدا أكثر بدانة عن ذي قبل واتسعت صلعته قليلا ، وازداد بياض شعره، ورأى فيليب حينئذ أنه رجل غير ذي شأن، وكان وجهه هزيلا فيه مسحة من التسامح ، وأخذته العمة لويزا بين ذراعيها وقبلته وانسابت دموع الفرح على وجنتيها فتأثر فيليب ذلك لأنه لم يكن يدرك أنها تحبه حبا نهما وتعنى به. وقالت له:

–لقد بدا الزمن طويلا منذ رحيلك يا فيليب..

وربتت على يديه ونظرت إلى وجهه بعينين بدا فيهما السرور وقالت:

–لقد كبرت الآن وأصبحت رجلا حقا..

وكان شارب صغير قد ظهر فوق شفته العليا، وقد اشترى موسى ، وكان بين الحين والحين يحلق الزغب من ذقنه الأملس في عناية فائقة وقالت:

–لقد شعرنا بالوحدة أثناء غيابك..

ثم سألته في خجل وقد تهدج صوتها :

–ألا تسرك عودتك إلى منزلك ؟

–بلى.. إنها تسرني فعلا..

كانت نحيفة إلى حد يخيل إلى من ينظر إليها أنها تكاد تكون امرأة شفافة، وكانت الذراعان اللتان أحاطتا بعنقه عظاما هشة تذكرك بعظام الدجاج، وامتلأ وجهها الهزيل بالتجاعيد، وأضفت عليها حلقات الشعر الرمادية اللون التي صففت بها شعرها كما كانت تصففه أيام شبابها مظهرا عجيبا يدعو إلى الرثاء، وبدا جسدها الذابل كورقة من أوراق الخريف تشعرك بأن أي ريح تهب ستطيح بها. وأدرك فيليب أن حياة هاتين النفسين الهادئتين قد انتهت وأنهما ينتميان إلى جيل مضي، وأنهما ينتظران الموت هناك في صبر بل في غباء. وقد ذهل فيليب لهذا الضياع لأنه كان شابا به ظمأ إلى الحياة والمغامرة.. إنهما لم يفعلا شيئا، وإذا ما فارقا الحياة فسيبدو الأمر وكأنهما لم يأتيا إليها أبدا. وشعر فيليب بعطف كبير على العمة لويزا وأحس فجأة بأنه يحبها لأنها أحبته.

ثم دخلت الآنسة ويلكنسون بعد أن احتجبت بعيدا حتى تتيح للأسرة أن ترحب بابن الأخ. وقالت السيدة كارى:

–هذه هي الآنسة ويلكنسون يا فيليب.

ومدت الآنسة ويلكنسون يدها قائلة:

–ها قد عاد الفتي الكريم. لقد أحضرت زهرة لعروة الفتي الكريم.

وفي ابتسامة مرحة ثبتت الزهرة التي أتت بها من الحديقة بدبوس في عروة فيليب، وتصاعد الدم إلى وجهه خجلا وشعر بالحماقة، فقد كان يعلم أن الآنسة ويلكنسون هي ابنة قس كان آخر رئيس لعمه وليام. وكان له صله قوية ببنات رجال الكنيسة. وكن يرتدين ملابس رديئة التفصيل وينتعلن نعالا ضخمة، وكن غالبا ما يرتدين الثياب السوداء لأن المنسوجات المحلية لم تكن قد وصلت إلي «إيست أنجليا» عندما كان فيليب يقضي أيامه الأولى في بلاكستابل. ولم تكن نسوة الكنيسة يستطبن الألوان الزاهية ولم يكنّ يعنين بتصفيف شعرهن، وكانت تنبعث منهن رائحة غير محببة هي رائحة الثياب الداخلية المنشاة، وكان من رأيهن أن المفاتن الأنثوية لا تتناسب مع مكانتهن وكن جميعا يظهرن بمظهر واحد، الكبيرات منهن أو الصغيرات وكن يتمسكن بدينهن بغطرسة وكانت صلتهن الوثيقة بالكنيسة تجعلهن يقفن من سائر بني الإنسان موقفا يتسم بالطغيان.

أما الآنسة ويلكنسون فقد كانت تختلف عنهن كثيرا. فقد كانت ترتدى ثوبا من الموسل
نقشت عليه رسوم من مجموعات أزهار رمادية اللون وتنتعل حذاء ذا كعب عال مستدر الرأ
وخيل إلى فيليب القليل التجربة أنها ترتدي ثيابها في أناقة بالغة، ولم يلحظ حينئذ أن ثوب
كان رخيصا ومبهرجا، وقد صففت شعرها في عناية فائقة وجعلت به قصة صغيرة ع
منتصف الجبهة، وكان هذا الشعر لامعا في سواد فاحم متماسكا إلى حد خيل إليه معه أنه
الصعب نفشه. وكانت عيناها سوداوين واسعتين وأنفها معقوفا قليلا، فإذا نظرت إليها م
الجنب خيل إليك أنها طير كاسر ولكن وجهها من الأمام كان جذابا وكانت تبتسم كثيرا، ولك
فمها كان كبيرا فكانت كلما ابتسمت تحاول إخفاء أسنانها الكبيرة المائلة إلى الإصفر
ولكن الذي حير فيليب كثيرا هو كثرة المساحيق على وجهها، فقد كانت آراؤه عن سلوك الم
آراء صارمة، وكان يظن أن السيدات المهذبات لا يضعن المساحيق. وكانت الآنسة ويلكنس
بالطبع آنسة مهذبة لأنها ابنة رجل من رجال الكنيسة، ورجل الكنيسة رجل مهذب..

وقرر فيليب أن يكرهها أشد الكره فقد كانت تتكلم بلكنة فرنسية خفيفة، ولم يدر لم
تفعل ذلك وهى التي ولدت ونشأت في قلب انجلترا وظن أن في ابتسامتها تكلفا ، وضايقه
سلوكها ذلك المرح المشوب بالحياء. وظل طيلة يومين أو ثلاثة أيام صامتا معاديا لها، ول
يبدو أنها لم تلحظ ذلك فقد كانت لطيفة للغاية و كانت توجه حديثها إليه وحده، وقد ش
بشيء من الزهو للطريقة التي كانت تبدى بها إعجابها بأحكامه الصائبة. وكانت تج
يضحك أيضا ، ولم يكن فيليب يستطيع أبدا أن يقاوم من يدخل السرور على نفسه. وكانت
أصبحت لديه وقتئذ ملكة ترديد الجميل من القول من آن لآخر. وكان يسره أن يجد من يس
إليه ويقدر حديثه حق قدره، ولم يكن القس أو السيدة كارى يحسنان الفكاهة ولم يضحكا
من أي شئ قاله. ولما ألف صحبة الآنسة ويلكسنون وزال عنه خجله بدأ يشعر بمزيد من ال
إليها ، ووجد أن اللكنة الفرنسية رائعة ، كما رآها في حفل أقامه الطبيب أكثر الحاضر
أناقة، فقد كانت ترتدى ثوبا أزرق به نقط بيضاء كبيرة وسر فيليب لما سببه هذا الثوب
إعجاب بين الحاضرين. وقال لها وهو يضحك :

–أنا واثق من أنهم يعتقدون أنك في أحسن حالاتك.

وقالت ردا عليه :

–إن حلم حياتي أن ينظر إلى الناس على إنى امرأة فاجرة مهجورة.

وحدث في يوم من الأيام أن كانت الآنسة ويلكنسون في حجرتها وسأل فيليب العمة لو
عن عمر الآنسة ويلكنسون فقالت له :

– ياعزيزي.. يجب ألا تسأل أبدا عن عمر سيدة ، ولكنها بكل تأكيد أكبر من أن تليق
زوجة.

وابتسم القس ابتسامته البطيئة البدينة وقال :

–إنها ليست دجاجة صغيرة يا لويزا، فعندما كنا في لينكولنشير منذ عشرين عاما ، كانت فتاة بالغة تقريبا. وكانت تصفف شعرها على هيئة ضفيرة وتلقى بها خلف ظهرها.

وقال فيليب :

–ربما لم تكن تعدت العاشرة..

فأجابت العمة لويزا :

–كانت أكبر من ذلك..

وقال القس :

–أظن أنها كانت تقترب من العشرين..

–لا يا وليم كان يبدو على مظهرها أنها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة..

فقال فيليب :

–إن هذا يجعلها فوق الثلاثين بكثير..

وفي هذه اللحظة نزلت الآنسة ويلكنسون وهى تترنم بأغنية لبنيامين جودار وقد ارتدت قبعتها لكي تخرج مع فيليب في نزهة. ومدت له يدها حتى يوثق أزرار قفازها ، وفعل ذلك وهو مرتبك. وشعر بالحرج ولكنه فعله بشهامة ، وكان الحديث يدور بينهما وقتئذ في يسر ، وكانا في أثناء سيرهما يتناولان جميع الموضوعات ، فحدثته عن برلين وحدثها هو عن السنة التي قضاها في «هايدلبرج» وبينما هو يتحدث إليها بدت له الأمور التي كانت تافهة من قبل وكأنها اكتسبت أهمية جديدة وراح يصف لها من كانوا معه في منزل السيدة إيرلين، وعندما أبلغها بالحديث الذي دار بين هايوارد وويكس والذي بدا في هذا الوقت ذو معنى كبير ، حوره قليلا حتى جعلهما في صورة مضحكة. واغتبط فيليب عندما ضحكت الآنسة ويلكنسون.. وقالت له :

–لشدة ما أنا خائفة منك.. فأنت جد ساخر..

ثم سألته مازحة هل كانت له مغامرات غرامية في «هايدلبرج»..

وأجابها في صراحة دون أن يفكر بأنه لم يكن له شئ من ذلك ، ولكنها أبت أن تصدقه وقالت له :

–يالك من فتى كتوم ، أمن غير المحتمل ألا يحدث ذلك في سنك هذه..

واحمر وجه فيليب خجلا وأجابها ضاحكا :

–إنك تريدين أن تعرفي أكثر مما يجب.

وردت عليه قائلة:

–أعتقد ذلك..

وضحكت وكأنها انتصرت عليه وقالت :

– إنه يحمر خجلا !

سر فيليب لأنها أعتقدت أنه كان كلبا حزينا وغير وجهة الحديث بحيث يجعلها تعتقد أنه لديه كثير من الأشياء الرومانسية التي لم يجرؤ علي خوضها وأنه مستاء من نفسه لذلك، فلم تكن هناك فرصة.

وكانت الآنسة ويلكنسون حانقة على حظها فقدكرهت أن تضطر إلى كسب عيشها بنفسها وحكت لفيليب حكاية طويلة عن خالها الذي كانت تتوقع أن يترك لها ثروة كبيرة ولكنه تزوج طاهيته وغير وصيته. وأشارت إلى فخامة منزلها وقارنت بين حياتها في لينكولنشاير حيث العربات والخيول بحالتها الحالية التابعة الحقيرة. وقد احتار فيليب قليلا وهو يذكر ذلك للعمة لويزا فقالت له أنها عندما كانت تعرف أسرة ويلكنسون لم يكن لديهم سوي فرس قزم وعربة يجرها كلب؛ وقد سمعت العمة لويزا عن الخال الثري ولكنه تزوج وأنجب أطفالا قبل أن تولد الآنسة إيميلي ولا يمكن أن يكون لديها أمل كبير في وراثة ثروته. ولم تمدح الآنسة ويلكنسون في حديثها برلين لأنها كانت هناك في موقف صعب وشكت من سوقية الحياة الألمانية وقارنت بينها بمرارة وبين روعة الحياة في باريس حيث أمضت عدة سنوات لم تقل كم سنة. كانت مربية أطفال في عائلة فنان رسام أنيق تزوج من سيدة يهودية ثرية وفي منزلهم قابلت شخصيات شهيرة كثيرة. وأذهلت فيليب بأسماء تلك الشخصيات. ممثلون من الكوميدي فرانسيز كانوا يزورون البيت كثيرا وكان الشخصية الشهيرة كوكلين يجلس إلى جانبها على مائدة الغداء وقال لها أنه لم يقابل أجنبيا يتحدث الفرنسية بهذه الطلاقة. وكان يزورهم أيضا ألفونس دوديه وقد أهداها نسخة من كتابه «سافو» ووعدها بأن يكتب اسمها على النسخة ولكنه نسي ونسيت هي أن تذكره وقالت أنها تعتز بهذا الكتاب رغم ذلك ووعدت فيليب بأن تعطيه إياه. ثم جاء موباسان.. ونظرت الآنسة ويلكنسون ويضحكة مجلجلة إلى فيليب نظرة متعمدة ، ياله من رجل ! ياله من كاتب. كان هايوارد قد تكلم عن موباسان ولم تكن سمعته غير معروفة لفيليب.

وسألها :

– هل مارس الحب معك ؟

كانت الكلمات تلتصق بحنجرته بصورة غريبة ولكنه تفوه بها والسلام. كان الآن يحب الآنسة ويلكنسون كثيرا وكان حديثها يمتعه، ولكنه لم يستطع أن يتصور أن أحدا يمكنه ممارسة الحب معها. وصاحت قائلة :

– ياله من سؤال. مسكين. لقد مارس الحب مع كل امرأة قابلها لقد كانت عادة لم يستطع التخلي عنها.

تنهدت قليلا ويبدو أنها كانت تفكر في الماضي برقة. وقالت :

– كان رجلا ساحرا.

ومن له خبرة أكثر من فيليب كان يمكن أن يخمن من تلك الكلمات احتمالات اللقاء : الكاتب الشهير يدعى إلى الغداء مع الأسرة. وتجيء مربية الأطفال تصحبها الفتاتان الطويلتان اللتان تعلمهما ؛ التقديم :

– آنستنا الإنجليزية !

–أهلا بك يا آنسة.

ثم يبدأ الغداء الذي تجلس فيه الآنسة الإنجليزية صامتة، بينما يتكلم الضيف مع مضيفيه.

ولكن بالنسبة لفيليب فقد أثارت كلماتها كثيرا من الخيال الرومانسي.

وقال في فضول :

– حدثيني عنه.

وقالت صادقة :

–ليس عندي ما أقوله عنه.

قالت ذلك بطريقة توحي بأن ثلاثة مجلدات يمكن بالكاد أن تحوي الحقائق المثيرة.

–لا تكن فضوليا.

وبدأت تتكلم عن باريس، كانت تحب الشوارع والغابات الفرنسية. كان بكل شارع لمسة ساحرة، والأشجار في الشانزليزيه غير الأشجار في أي مكان آخر. كانا يجلسان على سلم يستخدم في عبور جدار قرب الطريق العام. وكانت الآنسة ويلكنسون تنظر باحتقار إلى أشجار الدردار أمامهما. ثم المسارح : المسرحيات رائعة والتمثيل لا مثيل له. وكثيرا ما كانت تذهب مع السيدة «فوابيه» أم البنتين اللتين كانت تدرس لهما عندما كانت تجرب ملابسها.

وصاحت قائلة :

– من البؤس أن يكون الإنسان فقيرا.. هذه الأشياء الجميلة.. في باريس فقط يعرفون كيف يرتدون ملابسهم وتصور أنك لا تقدر علي شرائها ! مسكينة السيدة فوابيه. فجسمها غير مناسب. وأحيانا كان الترزي الذي يخيط لها الملابس يهمس في أذني يا ليت جسمها مثل جسمك .

ولاحظ فيليب وقتئذ أن الآنسة ويلكنسون تتمتع ببنية غليظة وكانت فخورة بها.

– الرجال أغبياء جدا في إنجلترا. إنهم لا يفكرون إلا في الوجه. أما الفرنسيون وهم أمة من العشاق يعرفون أن شكل الجسم أكثر أهمية.

لم يكن فيليب قد فكر في مثل تلك الأشياء من قبل ولكنه لاحظ الآن أن كعبي الآنسة ويلكنسون سميكان وبشعان. وأشاح بوجهه عن النظر إليهما بسرعة.

– يجب أن تذهب إلى فرنسا. لماذا لا تذهب إلى باريس لمدة عام. فسوف تتعلم الفرنسية وسوف تعلمك باريس كثيرا. (قالت تعلمك بكلمة فرنسية غير معروفة) فتساءل فيليب :

– ما هذا ؟ ماذا قلت ؟

فردت بمكر قائلة :

– ابحث عن هذه الكلمة في القاموس. الإنجليز لا يعرفون كيف يعاملون النساء. فهم خجولون جدا. والخجل شيء سخيف في الرجل. وهم لا يعرفون كيف يمارسون الحب. ولايستطيعون حتى أن يقولوا لامرأة أنها جميلة دون أن تبدو عليهم الحماقة.

شعر فيليب أنه سخيف. وكان من الواضح أن الآنسة ويلكنسون تريده أن يغير من سلوكه. وكان يسره أن يقول كلاما زكيا فيه تودد للجنس اللطيف ، غير أن هذا الكلام لم يخطر له أبدا ، وعندما كان يخطر له أحيانا كان يخاف أن يقوله حتى لا يبدو أحمق.

وتنهدت الآنسة ويلكنسون وقالت:

– أوه ، لقد أحببت باريس. ولكن كان علي أن أذهب إلى برلين. فقد بقيت مع بنتي فواييه حتى تزوجتا ثم لم أجد شيئا أفعله بعد ذلك وواتتني تلك الفرصة في برلين. إنهم أقارب عائلة فواييه وقبلت. كانت لي شقة صغيرة في شارع «بريدا» المتفرع من الشارع الخامس : لم تكن شقة محترمة على أية حال. أنت تعرف ما هو شارع «بريدا». تلك النسوة كما تعرف.

أومأ فيليب برأسه ولم يكن يعرف إطلاقا ماذا تعني. وكان يريد ألا يعطيها الانطباع بأنه جاهل تماما. وقالت :

– ولكن أنا لا يهمني.. وأضافت بالفرنسية التي كانت تتكلمها جيدا وكانت تحب جدا أن تتكلمها – أنا حرة أليس كذلك ؟ وفي مرة كانت لي مغامرة غريبة هناك.

وتوقفت قليلا غير أن فيليب شجعها أن تستمر.

– ألن تحكي لي أنت عن مغامراتك في هايدلبيرج.

فقال فيليب :

–إنها ليست مغامرات على الإطلاق.

– لا أعرف ما يمكن أن تقوله السيدة كاري لو عرفت المواضيع التي نتحدث عنها.

– أنت لا تتخيلين أني سأقول لها.

– هل تعدني بذلك ؟

وعندما وعدها قصت عليه كيف أن طالبا يدرس الفن كان يقيم في غرفة في الطابق الذي يعلو الطابق الذي كانت تقيم فيه – وتوقفت عن الكلام. وقالت :

– ولكن لماذا لا تدرس الفنّ ؟ فأنت ترسم ببراعة.

– ليس إلى درجة أن أدرس الفن.

– هذا الحكم يجب أن يأتي من الآخرين. أنا أعرف وأعتقد أن لديك موهبة فنان عظيم.

– لا يمكن أن تري ما يرتسم على وجه عمي ويليام عندما أقول له فجأة أني أريد أن أذهب إلى باريس لأدرس الفن.

– أنت سيد نفسك ، أليس كذلك ؟

– أنت تحاولين أن تبعديني عن الموضوع. أرجوك أن تستمري في حكايتك.

ضحكت الآنسة ويلكنسون ضحكة قصيرة ثم واصلت كلامها. مر بي الطالب الذي يدرس الفن عدة مرات على السلالم ولم أعره انتباها ما. ولاحظت أن له عينين لطيفتين وكان يرفع لها قبعته بأدب شديد. وفي يوم ما وجدت خطابا زج به أسفل الباب. كان الخطاب منه. وقال لها أنه أحبها حبا كبيرا طيلة شهور وكان ينتظرها عندما تهبط السلم ليراها. أوه. لقد كانت رسالة ساحرة ! وهي بالطبع لم ترد عليها ولكن أي امرأة لا تشعر لا يمكنها أن تشعر بالإطراء ؟ كانت الرسالة رائعة وعاطفية ومؤثرة. وبعد ذلك عندما كانت تقابله أثناء نزوله السلم لم تكن تعرف إلى أين تلتفت «وظلت الرسائل تأتي كل يوم إلي أن رجاها أن تقابله». وقال أنه سيأتي في المساء حوالي الساعة التاسعة ولم تعرف ماذا تفعل. بالطبع كان هذا مستحيلا وقد يستمر في ضرب الجرس ولكنها لن تفتح الباب أبدا. وبعد ذلك بينما كانت تنتظر رنين الجرس ، وكلها أعصاب متوترة وجدته فجأة واقفا أمامها. فقد نسيت أن تغلق باب الغرفة عندما دخلت.

– كانت مصيبة.

– وسألها فيليب :

–وماذا حدث بعد ذلك ؟

وقالت ضاحكة

– تلك هي نهاية القصة.

وظل فيليب صامتا لحظة وقد أخذ قلبه ينبض بسرعة وثمة مشاعر غريبة راحت تتصارع في فؤاده. ورأى السلم المظلم والمقابلات التي كانت تحدث بالصدفة وأعجب بشجاعة الخطابات – لم يكن يجرؤ على أن يفعل ذلك – ثم الدخول الصامت الغامض. وقد بدا له ذلك قمة الرومانسية.

– كيف كان شكله ؟

–كان جميلا. فتي ساحر.

– هل مازلت تعرفينه ؟

وشعر فيليب بضيق قليل عندما سأل ذلك السؤال.

– لقد عاملني معاملة كريهة. الرجال دائما سواء. أنتم جميعا بلا قلب.

وقال فيليب محرجا بعض الشيء :

– أنا لا أعرف شيئا عن ذلك.

وقالت الآنسة ويلكنسون :

دعنا نعود إلى المنزل.

• • •

لم يستطع فيليب أن يبعد حكاية الآنسة ويلكنسون عن ذهنه. لقد كان واضحا بما فيه الكفاية ما كانت تعنيه رغم أنها قطعت قصتها.وصدم هو قليلا. كان كل ذلك شيئا ليس غريبا بالنسبة للنساء المتزوجات، ولقد قرأ كثيرا من الروايات الفرنسية ويعرف أن هذه هي القاعدة في فرنسا غير أن الآنسة ويلكنسون كانت إنجليزية وغير متزوجة ووالدها من رجال الدين. وبذلك خطر له أن طالب الفن هذا لم يكن على الأرجح أول ولا آخر عشاقها ، وشهق. إنه لم ينظر أبدا إلى الآنسة ويلكنسون هذه النظرة ، ويبدو من غير المعقول أن يمارس أحد الحب معها. وبسبب صراحته وسذاجته شك في رواية الآنسة ويلكنسون، كما شك فيما قرأه في الكتب ، وكان غاضبا لأن مثل تلك الأشياء الرائعة لم تحدث له. وكان من المهين أنه إذا أصرت الآنسة ويلكنسون على أن يحكي لها عن مغامراته في هايدلبيرج فلن يكون لديه ما يحكيه. وحقيقة أنه أوتي بعضا من قوة الإبداع غير أنه ليس واثقا من أنه سوف يستطيع أن يقنعها أنه غارق في الرذيلة ؛ فالنساء لديهن حدس طبيعي. لقد قرأ ذلك. وقد تكتشف بسهولة أن ما يقوله ليس سوى ضرب من الكذب. واحمر وجهه بشدة إذ تصورها وهي تضحك ملء شدقيها وهي تسمع كلامه.

راحت الآنسة ويلكنسون تعزف علي البيانو وتغني بصوت مرهق إلى حد ما غير أن الأغنيات التي غنتها كانت جديدة على فيليب وأمضيا عدة ساعات مع البيانو. وفي أحد الأيام سألته ما إذا كان يستطيع الغناء وأصرت على أن يحاول ذلك. وقالت له أن صوته باريتون جميل وعرضت عليه أن تعطيه دروسا. وفي أول الأمر رفض بسبب خجله المعتاد ولكنها أصرت ، وبدأت في كل صباح بعد الإفطار تعطيه درسا يستغرق ساعة. كانت لديها موهبة تدريس طبيعية، وكان من الواضح أنها مربية أطفال ممتازة. ورغم أن لكنتها الفرنسية كانت جزءا لا يتجزأ منها فظلت معها، فقد هدرها سلوكها المعسول عندما بدأت في التدريس. فكانت لا تتهاون في أي سفاسف. وأصبحت في صوتها نغمة استبدادية وبالسليقة كانت لا تقبل الغفلة وتصحح الإهمال. وكانت تعرف ما تفعل فعلمت فيليب السلالم الموسيقية وزودته بالتدريبات.

وعندما ينتهي الدرس كانت تستأنف بدون مجهود ابتسامتها الساحرة ويصبح صوتها رخيما حانيا غير أن فيليب لم يستطع أن يقتنع أنه التلميذ وهي المدرس لأن هذه المشاعر تضاربت مع المشاعر التي أثارتها فيه حكاياتها السابقة. لقد كان ينظر إليها بشكل أكثر دقة فقد كان يحبها أكثر في المساء عنه في الصباح. ففي الصباح كانت الخطوط تظهر على بشرتها وكانت بشرة عنقها أكثر خشونة. وتمني لو تخفيها ، ولكن الطقس كان حارا في ذلك الوقت وكانت ترتدي قمصانا تفصيلها منخفض عند الصدر. كانت مغرمة باللون الأبيض؛ ولكن ذلك لم يكن يناسبها في الصباح. وفي المساء كانت تبدو جذابة جدا فكانت ترتدي ثوبا يمكن أن يكون ثوب دعوة علي وليمة وسلسلة من العقيق الأحمر حول جيدها، أما الشريط الذي كان في الثياب حول صدرها ومرفقيها فقد أكسبها نعومة لطيفة وكان العطر الذي

تضعه (لم يكن أحد في بلاكستابل يستعمل شيئا آخر إلا ماء الكولونيا وذلك في أيام الأحد فقط أو عندما يعاني من صداع مؤلم) مثيرا وغريبا. وكانت وقتئذ تبدو صغيرة جدا.

وأجري فيليب حسابات كثيرة بشأن سنها. فأضاف عشرين إلى سبع عشرة سنة ولم يتمكن من الوصول إلى مجموع مرض.وسأل العمة لويزا أكثر من مرة لماذا تعتقد أنها في السابعة والثلاثين : فيما لا يبدو عليها أنها أكبر من الثلاثين، وكل الناس تعرف أن الأجانب يشيخون بسرعة أكثر من الإنجليزيات ؛ لقد عاشت الآنسة ويلكنسون طويلا في الخارج حتى يمكن أن تسمي أجنبية. وهو شخصيا لا يعتقد أنها تعدت السادسة والثلاثين.

وقالت العمة لويزا :

– إنها أكبر من ذلك.

لم يكن فيليب يطمئن إلى دقة مقولات أسرة كاري. وكل ما يتذكرونه بوضوح هو أن الآنسة ويلكنسون لم يكن شعرها مرفوعا في آخر مرة رأوها في لينكولنشاير. ربما كانت في الثانية عشرة من عمرها في ذلك الوقت، لقد كان ذلك منذ فترة طويلة مضت وكان القس دائما لا يعتمد عليه. قالوا إن ذلك كان منذ عشرين عاما غير أن الناس تستخدم الأرقام الكاملة ومن المحتمل أن يكون ذلك منذ ثمانية عشر عاما مضت أو سبعة عشر عاما. سبعة عشر عاما، بالإضافة إلى اثني عشر عاما معناها تسعة وعشرين عاما، وهذه ليست سنا كبيرة أليس كذلك ؟ لقد كانت كليوباترا في الثامنة والأربعين عندما تخلي أنطونيو عن العالم في سبيلها.

كان صيفا لطيفا. فالأيام كانت حارة والسماء خالية من السحاب ولكن كان البحر يلطف من حرارة الجو. وكان في الجو انتعاش لطيف حتى أن المرء يشعر بالسرور وليس بالانقباض بسبب شمس شهر أغسطس. وكانت هناك بحيرة في الحديقة بها نافورة وأسماك ذهبية تسبح قرب سطح الماء. وقد اعتاد فيليب والآنسة ويلكنسون أن يأخذا معهما سجادة ووسائد ويستلقيان علي المرج بعد الغداء في ظل سياج عال من الورود. وكانا يتحدثان ويقرآن طيلة فترة بعد الظهر. وكانا يدخنان، الأمر الذي لم يكن القس يسمح به في المنزل. فكان يعتقد أن التدخين عادة مقززة وكان يقول دائما أنه من العار على أي شخص أن يصبح عبدا لعادة. وقد نسي أنه هو نفسه كان عبدا لتناول الشاي بعد الظهر.

وفي يوم أعطت الآنسة ويلكنسون لفيليب رواية حياة المتشرد vie de boheme La وكانت قد عثرت عليها صدفة بينما كانت تنقب في كتب مكتبة القس.

وكان القس قد اشتراها مع مجموعة أخرى، كان القس يريدها وظلت عشر سنوات دون أن يكتشفها أحد.

وبدأ فيليب يقرأ التحفة التي كتبها «ميرجر» السخيفة ذات الأسلوب الرديء ووقع فورا صريع سحرها. ورقصت نفسه فرحا لصورة ذلك الجوع القاتل الذي روى بأسلوب مرح وعن قذارة صورت بشكل رائع، وعن غرام خسيس صور بشكل رومانسي، وعن عاطفة مفرطة لها

تأثير عظيم. رادولف وميمي وموزيت وشونارد ! يتجولون في الشوارع القاتمة في الحي اللاتيني يجدون ملجأ الآن في حجرة تحت السطح وأخري بعد ذلك. من يمكنه أن يقاوم سحرهم وهم يسيرون بملابسهم الطريفة التي تعود إلى طراز لويس فيليب، وبسماتهم ودموعهم، متهورين يعيشون وفقا لما تأتي به الرياح. وفقط عندما تعود إلى الكتاب لتحكم حكما أفضل تجد أن مسراتهم كانت رخيصة وأن تفكيرهم كان سوقيا، وتشعر بالتفاهة التامة للفنانين والبشر في هذا الموكب المستهتر. وأبهج فيليب.

وسألته الآنسة ويلكنسون وهي تبتسم لحماسه :

– هل تود لو تذهب إلى باريس بدلا من لندن ؟

وقال:

– لقد فات الأوان الآن، حتى لو كنت أريد ذلك .

دارت مناقشات كثيرة بينه وبين عمه حول مستقبله ، خلال الخمسة عشر يوما التي تلت عودته من ألمانيا ، وقد رفض فيليب نهائيا أن يذهب إلى أكسفورد ، وإذا لم تكن لديه حينئذ الفرصة للحصول على المنحة الدراسية، فقد قال السيد كارى نفسه أنه لا يحتمل نفقات أكسفورد، وذلك أن ثروة فيليب كلها لم تكن تتجاوز ألفين من الجنيهات ، وبالرغم من أنها استثمرت في مشروعات تربح خمسة في المائة، فإن فيليب لم يتمكن من العيش على هذا الربح، فقد نقصت الآن هذه الثروة قليلا ، ومن العبث أن ينفق فيليب مائتي جنيه كل عام في أكسفورد وهو أقل مبلغ يمكن أن يعيش به في الجامعة، ثم يقضي هناك ثلاث سنوات لن تفيده شيئا بعد ذلك من كسب عيشه. وكان يتوق للذهاب مباشرة إلى لندن.. وكانت السيدة كارى تعتقد أن سادة القوم المهذبين لا يعملون إلا في أربع مهن : الجيش، والبحرية ، والقضاء ، أو الكنيسة. ثم أضافت إلى ذلك مهنة الطب، لأن زوج أختها قد مارس هذه المهنة ولكنها لم تنس أنها في صغرها لم يكن أحد يعتبر الأطباء من سادة القوم المهذبين، أما المهنتان الأوليان فقد كانتا خارج الموضوع، وكان فيليب حازما في قراره بعدم الالتحاق بالكنيسة، ولذلك لم يبق أمامه إلا القانون – وقد اقترح الطبيب المحلى أن كثيرا من السادة يتعلمون ليصبحوا مهندسين، ولكن السيدة كارى عارضت الفكرة في الحال وقالت :

– إني لا أحب أن يكون فيليب صاحب مهنة ..

وقال القس :

لا بل يجب أن يكون صاحب مهنة.

ولم لا تجعله طبيبا كوالده ؟

وقال فيليب :

إني أبغض تلك المهنة..

ولم تأسف السيدة كارى، فقد كانت المحاماة خارج الموضوع لأنه لن يذهب إلى أكسفورد، لأن أسرة «كارى» كانت تعتقد أنه لا بد له من الحصول على شهادة للالتحاق بالمحاماة،

وأخيرا اقترح أن يتدرب كارى عند أحد المحامين، وسرعان ما كتبوا إلى «ألبرت نيكسون» محامى الأسرة الذي كان مساعدا لقس بلاكستابل في إدارة أملاك «هنرى كارى» الراحل، وسئل هل يمكنه أن يدرب فيليب عنده. وجاء الرد بعد يوم أو يومين من المحامى يقول إنه ليس لديه مكان خال ، وأنه يعارض الفكرة كلها فإن المهنة مزدحمة إلى حد كبير وإذا لم يكن للمرء رأس مال أو اتصالات فإنه لا تتاح له فرصة لكي يصبح أكثر من كاتب إداري، وقد اقترح على أي حال أن يصبح فيليب محاسبا قانونيا. ولم يعرف القس ولا زوجته أقل شئ عن تلك المهنة ولم يكن فيليب قد سمع من قبل عن أي شخص أصبح محاسبا قانونيا، ولكن خطابا آخر من المحامى أوضح أن اتساع الأعمال الحديثة وزيادة عدد الشركات قد أدى إلى قيام عدد كبير من مكاتب المحاسبين ليقوموا بمراجعة دفاتر الحسابات ولكي يدخلوا على طرق إمساكها وسائل جديدة لتنظيم العملية كان يفتقر إليها المحاسبون القدامى.

وقد صدر بذلك مرسوم ملكي منذ عدة سنوات ازدادت به المهنة أهمية واحتراما، وأصبحت تدر مزيدا من الربح عاما بعد آخر، واتفق أن كان لدى المحاسبين القانونيين الذين وظفهم ألبرت نيكسون منذ ثلاثين عاما مكان خال لطالب جديد ويمكنهم أن يأخذوا فيليب على أن يدفع ثلاثمائة جنيه في العام ويرد إليه نصف هذه المبلغ مرتبا أثناء السنوات الخمس التي يتطلبها تعليمه، ولم يكن المشروع مما يثير اهتمام فيليب ولكنه شعر بأنه لابد أن يستقر رأيه على شئ، وعندما راودته فكرة العيش في لندن زال التردد الطفيف الذي شعر به في أول الأمر وكتب قس بلاكستابل يسأل السيد نيكسون هل هذه مهنة تناسب الرجل المهذب. ورد السيد نيكسون بأنه منذ صدور هذا المرسوم أخذ الرجال المهذبون خريجو الجامعات والمدارس الخاصة ينضمون إلي هذه المهنة. وعلاوة على ذلك فإذا لم يحب فيليب هذا العمل وشاء بعد عام أن يتخلى عنه فإن هربرت كارتر – وهو اسم المحاسب– سيعيد إليه نصف النقود التي دفعها لتدريبه.

وبهذا حسم الأمر.. ودبر كل شئ بحيث يبدأ فيليب عمله في الخامس عشر من شهر سبتمبر..

وقال فيليب:

–ما زال أمامي شهر كامل..

وردت الآنسة ويلكنسون قائلة :

–وتذهب أنت إلى الحرية،و أذهب أنا لأوضع في الأغلال.

ذلك أن أجازتها كانت تمتد ستة أسابيع وستغادر بلاكستابل قبل أن يرحل فيليب بيوم أو يومين لا أكثر.

وقالت:

–ترى هل سنتقابل مرة أخرى..

–ولم لا ؟

-لا تتكلم بهذه الطريقة العملية.. إني لم أر في حياتي شخصا غير عاطفي مثلك..

واحمر وجه فيليب لأنه كان يخشى أن تعتقد الآنسة ويلكنسون أنه فتى مخنث.. لقد كان امرأة صغيرة السن على أي حال تبدو ظريفة في بعض الأحيان وكان هو يقترب من س العشرين وكان من المضحك ألا يتكلما في شئ عدا الفن والأدب،لقد كان يجب عليه أن يبثه حبه. وقد تحدثا كثيرا عن الحب وحدثته هي عن الرسام الذي عاشت مع أسرته طويلا ف باريس وطلب إليها أن تجلس إليه ليرسمها، ثم راح يبثها غرامه بعنف حتى اضطرت أ تختلق الأعذار كي لا تجلس له مرة أخرى. واتضح أن الآنسة ويلكسنون قد اعتادت مثل هذ الاهتمام. وبدت حينئذ جميلة للغاية في قبعتها العريضة المصنوعة من القش.. وكان عص ذلك اليوم حارا بل كان من أشد الأيام التي مرت بهما حرارة. وتناثرت حبات العرق في خ فوق شفتها العليا.. ولاحت له فرصة للغرام، ولما كانت الآنسة ويلكنسون فرنسية فقد أضاف ذلك إلى حماسه في القيام بمظاهرة من نوع ما، وعندما فكر في الأمر ليلا وهو في فراشه عندما جلس في الحديقة وحده يقرأ كتاب شعر بنشوة، ولكنه عندما رأى الآنسة ويلكنسون الأمر أقل روعة.

ومهما يكن من شئ فإنها لن تدهش إذا بثها فيليب حبه بعد ما قالته له وكان يخا شعور بأنها تعتقد أنه من الغريب ألا يأتي بأية بادرة من جانبه، وقد حدث مرة أو مرت خلال اليومين الأخيرين أن تخيل إليه أنها تنظر إليه بشيء من الازدراء ولكن لعل هذا كا وهما لا أساس له من الحقيقة وقالت له الآنسة ويلكنسون وهى تبتسم :

-فيم تفكر؟

فقال :

-لن أنبئك..

وكان يفكر في أنه يجب أن يقبلها في تلك اللحظة بالذات.. ولم يكن يعرف هل تتوقع ذ منه، ولكنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك دون أن تسبقه أي مقدمات.. ولو فعل لعدته مجنو وقد تصفعه على وجهه أو تشكوه لعمه، فإن فعلت كان أمرا في غاية الفظاعة وتعجب م فعل سونج مع الآنسة كاسيلي. وقد كان يعرف طبيعة عمه ولا يشك في أنه سيفضي بالقـ إلى الطبيب، وإلى جوسيا جريفز، وبذلك يبدو في غاية الحماقة. وكانت العمة لويزا تق دائما أن الآنسة ويلكسنون قد بلغت السابعة والثلاثين، وارتعد هو عندما خطر بباله سيتعرض له من سخرية، فسيقولون عنها إنها تصلح لأن تكون أمه. وابتسمت الآن ويلكنسون وهى تقول :

-فيم عدت تفكر؟

فأجاب في جرأة :

-كنت أفكر فيك..

ولكن كلماته هذه لم تربطه بشيء.

-وما الذي كنت تفكر فيه؟

-إنك الآن تريدين أن تعرفي أكثر مما يلزم.

فقالت الآنسة ويلكنسون :

-يالك من فتى خبيث !

ها هي ذي القصة تتكرر له مرة أخرى فكلما نجح في الإقدام على الأمر قالت له في الحال ما يذكره بما كانت تقوله له مربيته بعد أن ينشد أناشيده بطريقة لا ترضيها، فقد كانت تقول له في عبث إنه فتى خبيث. ولكنه في تلك المرة وجم بشدة.. وقال :

-أود لو تكفين عن معاملتي كأني طفل صغير..

-ترى هل غضبت مني ؟

-غضبت جدا..

-لم أقصد ذلك!

و مدت له يدها فأمسك بها. و كان فيليب قد تخيل أنها ضغطت على يده في خفة مرة أو مرتين عندما تصافحا مساء من قبل، و لكنه في هذه المرة لم يعد لديه شك في ذلك. لم يعرف على وجه التحديد ماذا يقول بعد ذلك. هنا في النهاية أمامه فرصة للمغامرة وسيكون أحمق لو لم يستغلها، ولكنها كانت عادية قليلا لقد توقع مزيدا من السحر. لقد قرأ أوصافا كثيرة للحب ولم يشعر أن لديه أيا من تلك العواطف العنيفة التي يصفها الروائيون؛ فلم يشعر أن شيئا من موجات العاطفة المتتابعة قد زلزله؛ وحتى الآنسة ويلكنسون لم تكن هي المثل الأعلى : فكثيرا ما تصور عيونا بنفسجية رائعة وبشرة مثل المرمر لفتاة جميلة، وتخيل نفسه يدفن وجهه بين خصلات شعرها الأحمر. ولم يتخيل نفسه وقد وضع وجهه بين خصلات شعر الآنسة ويلكنسون فقد كان يشعر دائما أنه شعر لزج. وعلى أي حال فمن المريح جدا أن يقوم بخدعة وانتشي بالفخر الذي سوف يشعر به من وراء انتصاره. فإغراؤها يرجع إليه هو. وقرر أن يقدم على تقبيل الآنسة ويلكنسون ، ليس الآن ولكن في المساء فسوف يكون الأمر أسهل في الظلام وبعد أن يقبلها سوف يحدث ما يجب بعد ذلك. وقرر بقسم منه أن يقبلها في ذلك المساء .

ووضع خطته، فبعد العشاء اقترح أن يقوما بنزهة في الحديقة.ووافقت الآنسة ويلكنسون وسارا جنبا إلى جنب. كان فيليب مضطربا للغاية. ولم يعرف لم. فالحديث لايمكن أن يؤدي إلى الاتجاه الصحيح : وكان قد قرر أن أول شيء يفعله هو أن يحيط خصرها بذراعه وهي تتكلم عن سباق الزوارق الذي سيبدأ في الأسبوع التالي. وقادها بحيث وصلا إلى أكثر المناطق ظلاما في الحديقة غير أنه عندما وصل إليها خانته شجاعته. وجلسا علي مقعد طويل. ووقتها قرر فعلا أن فرصته قد جاءت عندما قالت الآنسة ويلكنسون أنها واثقة أن المكان به حشرات وأصرت على الانتقال منه، وسارا حول الحديقة مرة أخرى، ووعد فيليب

نفسه بأنه سيبدأ التنفيذ عندما يصلان إلى ذلك المقعد الطويل مرة أخرى؛ ولكن عندما م بالمنزل شاهدا السيدة كارى تقف عند الباب.

– أليس من الأفضل يا شباب أن تدخلا المنزل أعتقد أن هواء الليل ليس مناسبا لكما.

قال فيليب :

– ربما من الأفضل أن ندخل فلا أريدك أن تصابي بالبرد.

قالها وهو يتنهد بارتياح. فلن يحاول أي شيء آخر الليلة. غير أنه بعد ذلك عندما كا وحيدا في غرفته غضب من نفسه. لقد كان مثال الفتي الأحمق. كان واثقا أن الآنس ويلكنسون توقعت منه أن يقبلها ، وإلا لما سارت معه في الحديقة. كانت تقول دائما أ الفرنسيين فقط هم الذين يعرفون كيف يعاملون النساء. وقد قرأ فيليب الأدب الفرنسي. فل كان فرنسيا لاحتضنها بين ذراعيه وقال لها بوجد أنه يعشقها ثم قبلها في عنقها. ولم يك يعرف لماذا يقبل الفرنسيون النساء في العنق. فهو شخصيا لم ير شيئا جذابا في مؤخر العنق وبالطبع أنه من الأسهل على الفرنسيين أن يفعلوا ذلك : فاللغة عامل مساعد كبير. فقد كا فيليب يشعر دائما أن التفوه بكلمات عاطفية باللغة الإنجليزية شيء سخيف جدا. وتمنى أنه لم يشرع في حصار الفضيلة لدى الآنسة ويلكنسون. فقد كان أول أسبوعين رائعين، ولك الآن يشعر بأنه بائس ولكنه كان مصرا علي ألا يستسلم، فلو فعل فلن يحترم نفسه بعد ذل وأصر على قراره بأنه في الليلة القادمة سوف يقبلها مهما حدث.

وعندما استيقظ صباح اليوم التالي كانت السماء تمطر. وكانت أول فكرة طرأت بباله ه أنهما لن يستطيعا السير في الحديقة في المساء. وكانت روحه المعنوية مرتفعة أثناء الإفط وقد أرسلت الآنسة ويلكنسون مارى آن برسالة تقول فيها أنها سوف تلزم الفراش لأن مصابة بصداع. ولم تنزل من غرفتها إلى أن حان موعد تناول الشاي عندما ظهرت في ث مناسب لها ووجه شاحب ، ولكن عندما حان موعد العشاء كانت قد شفيت تماما وكانت وج العشاء مبهجة جدا. وبعد تلاوة الصلاة قالت إنها سوف تأوي فورا إلى فراشها وقبلت السي كارى ثم استدارت لفيليب وفجأة صاحت :

–معذرة.. كنت أكاد أن أقبلك.

وقال فيليب :

– ولم لا تقبليني.

فضحكت ومدت له يدها وضغطت على يده بوضوح.

كانت السماء في اليوم التالي صافية ليس بها سحاب و كانت الحديقة جميلة ناضرة بع أن تساقط عليها المطر، وذهب فيليب إلى الشاطئ ليستحم قليلاً، وبعد عودته إلى المنز تناول طعاما فاخرا. و استعد الجميع في ذلك اليوم لحفل يقام بعد الظهر إثر مباراة للتنس في منزل القس، و ارتدت الآنسة ويلكنسون أفخر ثيابها، و كانت تعرف حقا كيف ترتديها و يسع فيليب إلا أن يلاحظ أنها في غاية الأناقة و هي واقفة إلى جانب زوجة القس وابن

الطبيب المتزوجة. وقد ثبتت وردتين فوق الحزام الذي وضعته حول خصرها، و جلست على أحد مقاعد الحديقة إلى جانب العشب الأخضر ورفعت فوقها مظلة حمراء و كان الضوء الذي انعكس على وجهها يناسبها خير مناسبة. و كان فيليب يعشق لعبة التنس، فقد كان ماهرا في القذف بالكرة إلى زميله، وكان لا يحسن الجري، ولذا كان يلعب بالقرب من الشبكة.. و كان سريعا في لعبه على الرغم من قدمه الحنفاء.. وكان من الصعب إذا وقف قرب الشبكة أن تمر إلى جانبه كرة. و قد سره أن فاز على كل من كان يلعب معهم. و عندما بدأوا يتناولون الشاي، جلس عند قدمي الآنسة ويلكنسون و هو ساخن لاهث الأنفاس..و قالت:

ـ إن رداء اللعب يناسبك.. فإنك تبدو جميلا اليوم..

و احمر وجه فيليب مغتبطا ، و قال:

ـ إن في وسعي أن أرد هذا الإطراء في صدق و أمانة، فأنت اليوم فاتنة جدا ،

فابتسمت ورمقته بنظرة طويلة من عينيها السوداوين، و بعد أن فرغا من تناول العشاء، ألح عليها فيليب أن تخرج معه، فقالت:

ـ ألم تكفيك الرياضة التي قمت بها اليوم؟

ـ سيكون الجو رائعا في الحديقة الليلة، فقد ظهرت النجوم كلها في السماء..

كان في حالة نفسية رائعة.

وقالت الآنسة ويلكنسون بينما كانا يمشيان الهوينى في حديقة المطبخ :

– هل تعرف ، لقد وبختني السيدة كارى بسببك وقالت لي إني لا يجب أن أغازلك.

– هل كنت تغازليني ؟ لم ألحظ ذلك.

– لقد كانت تمزح معي لا غير.

– لقد كانت قسوة منك ليلة أمس أن ترفضي أن تقبليني.

– لو رأيت النظرة التي رماني بها عمك عندما فعلت، ما قلت.

– هل هذا كل ما منعك ؟

– أفضل أن أقبل الناس بدون شهود.

– ليس هناك شهود الآن.

وأحاط فيليب خصرها بذراعه وقبلها على شفتيها.

ضحكت قليلا ولم تقم بأي محاولة لتنسحب. حدث ذلك بصورة طبيعية جدا. وشعر فيليب بالفخر بنفسه. فقد سبق أن قال أنه سيفعل ذلك وفعل. كان ما فعله أسهل شيء في العالم. وتمنى لو أنه فعل ذلك من قبل. وقبلها مرة أخرى وقالت :

– أوه ، لا يجب أن تفعل ذلك.

–ولم لا.

وقالت ضاحكة :

– لأن الحكاية أعجبتني ،

● ● ●

وفي اليوم التالي بعد الغداء حملا السجادة والوسائد وكتبهما ليجلسا حول النافورة ولكنهما لم ينظرا في الكتب. واتخذت الآنسة ويلكنسون وضعا مريحا لها وفتحت الشمسية الحمراء. لقد زال الخجل عن فيليب الآن ولكنها في البداية لم تسمح له بأن يقبلها. وقالت:

– لقد كان خطأ هائلا مني ليلة أمس. لم أستطع النوم فقد شعرت أني ارتكبت أمرا فظيع

وصاح فيليب قائلا :

– ما هذا الكلام الفارغ ! أنا واثق أنك نمت كالفراش نفسه.

– ما رأيك فيما سيقوله عمك لو عرف ؟

– ليس هناك ما يدعو لأن يعرف.

واتكأ عليها وازدادت ضربات قلبه. وقالت :

– لماذا تريد أن تقبلني ؟

وكان يعرف أنه يجب أن يرد قائلا «لأني أحبك» ولكنه لم يستطع أن يقول ذلك.وبدلا م ذلك سألها :

– لماذا تعتقدين أنت أني أريد أن أقبلك ؟

ونظرت إليه بعينين مبتسمتين ولمست وجهه بأطراف أصابعها وقالت :

– يا لنعومة وجهك.

– أحتاج للحلاقة بشدة.

كان من المدهش أن يجد صعوبة في التفوه بكلام رومانسي. ووجد أن الصمت يسا أكثر من الكلام. وتنهدت الآنسة ويلكنسون وقالت :

– هل تحبني فعلا ؟

–نعم أحبك إلى أبعد حد.

وعندما حاول أن يقبلها مرة أخرى لم تقاوم وتظاهر بأنه عاطفَي بقدر أكبر ونجح أداء دور بدا في نظره جيدا جدا. وقالت الآنسة ويلكنسون :

– لقد بدأت أشعر بالخوف منك.

ورجاها قائلا :

– هل ستخرجين بعد العشاء ؟

– إذا وعدتني بأن تسلك سلوكا حسنا.

– سأعدك بأي شيء.

كان يحترق بنار اللهب الذي تظاهر به جزئيا وفي وقت تناول الشاي، كان مرحا صاخ نظرت إلى الآنسة ويلكنسون بقلق وقالت له فيما بعد :

– يجب ألا تبدي هذا السرور البالغ في عينيك.ماذا سيدور في ذهن العمة لويزا ؟

– لا يهمني ما تفكر فيه العمة لويزا.

وضحكت الآنسة ويلكنسون مسرورة. وبعد أن فرغا فورا من تناول العشاء قال لها :

– هل ستبقين على صحبتي وأنا أدخن لفافة تبغ ؟

وقالت السيدة كارى :

– لماذا لا تترك الآنسة ويلكنسون تستريح.. يجب أن تتذكر إنها ليست صغيرة مثلك.

وردت الآنسة ويلكنسون بحدة :

– أوه.. أنا أحب الخروج.

وقال القس :

اتغدى وأتمدد واتعشى واتمشي.

وقالت الآنسة ويلكنسون بعد أن أغلقا الباب الجانبي وراءهما :

– عمتك سيدة لطيفة ولكنها أحيانا تثير أعصابي.

ألقي فيليب بلفافة التبغ التي أشعلها لتوه بعيدا وأحاطها بذراعيه. وحاولت أن تدفعه بعيدا عنها.

– لقد وعدتني أن تكون لطيفا يا فيليب.

– أتظنين أني كنت سأفي بوعد كهذا ؟

– لا تفعل هذا ونحن قرب المنزل بهذا الشكل فلنفترض أن أحدهم خرج فجأة.

وقادها إلى حديقة المطبخ حيث لا يحتمل أن يجيئها أحد وفي هذه المرة لم تفكر الآنسة ويلكنسون في الحشرات. وقبلها بحرارة. وكان من أحد الأشياء التي حيرته أنه لم يكن يحبها في الصباح وأحبها قليلا بعد الظهر، أما في المساء فإن لمسة يدها كانت تثيره. وقال عبارات لم يكن يتصور أن يقولها، ومن المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يقولها في ضوء النهار واستمع إلى نفسه متعجبا راضيا. وقالت :

– أنت عاشق جميل.

كان هذا ما يعتقده في نفسه. وقال بحرارة :

– آه لو أستطيع أن أقول كل ما في قلبي.

كان كل شيء رائعا. كان أكثر اللعبات التي لعبها إثارة والرائع فيها أنه شعر تقريبا بكل شيء قاله رغم أنه بالغ قليلا. اقترحت الآنسة ويلكنسون في النهاية أن يعودوا إلى المنزل.

وصاح فيليب قائلا :

– لا لا تعودي بعد.

قالت بصوت خفيض :

– يجب أن أعود.. إني خائفة.

وبحدس مفاجئ أدرك ما يصح أن يفعلاه. وقال :

–لا أستطيع أن أعود إلى المنزل الآن. سوف أبقى هنا وأفكر. إن وجهي مشتعل وأريد هواء الليل. عمت مساء.

ومد يده جادا وأمسكت بها في صمت. وظن أنها كبتت تنهدها. وبعد فترة مكث فيه بالحديقة المظلمة شعر بالملل، فدلف إلى المنزل ليجد أن الآنسة ويلكنسون قد أوت إلى فراشها.

وبعد ذلك تغيرت الأمور بينهما. وفي اليوم الذي بعده أظهر فيليب نفسه كمحب تواق إلى حبيبته. وشعر بإطراء لذيذ لأن الآنسة ويلكنسون وقعت في غرامه. قالت له ذلك بالإنجليزية وبالفرنسية. وراحت تكيل له المديح والمجاملات. ولم يحدث من قبل أن قال له أحد أن عينيه ساحرتان وفمه فيه حساسية. ولم يكن يهتم كثيرا بمظهره الشخصي ولكن الآن عندما تجي أي مناسبة فإنه ينظر إلى نفسه في المرآة بارتياح. وعندما قبلها كان شيئا رائعا أن يشع بالعاطفة التي يبدو أنها سرت في روحها. لقد قبلها كثيرا ووجد أنه من السهل أن يفعل ذلك عن أن يقول أشياء شعر أنها تتوقعها منه. وما زال قوله أنه يعبدها يجعله يشعر أنه أحمق وتمني لو أن هناك شخصا يمكنه أن يتباهى معه قليلا ويتناقش معه عن رغبة في نقا صغيرة في سلوكه. وأحيانا كانت تقول أشياء غامضة وكان يشعر معها بالحيرة. وتمني أن هايوارد كان هناك حتى يسأله عن رأيه في معني ما قالت.

وما يفضل أن يفعله بعد ذلك. ولم يستطع أن يقرر هل يتعجل الأمور أم يتركها تأ وقتها، ولم يكن أمامه إلا ثلاثة أسابيع. وقالت :

– لا أتحمل أن أفكر في ذلك فإن قلبي يتحطم، ثم ربما لا نري بعضنا مرة أخرى.

وقال هامسا :

–لو كنت تهتمين بي فلا يمكن أن تكوني بهذه القسوة معي.

–لماذا لا ترضى بأن تدع الأمور تجري كما هي ؟ إن الرجال دائما متشابهون ف لايرضون بشيء أبدا.

وعندما ألح عليها قالت :

– ألا ترى أنه مستحيل. كيف يمكننا هنا ؟

واقترح عليها كل أنواع الخطط ولكنها رفضتها كلها وقالت:

– لا أجرؤ على المخاطرة فسيكون أمرا مرعبا إذا علمت عمتك بالأمر.

وبعد يوم أو يومين واتته فكرة بدت له رائعة.

– ما رأيك لو تظاهرت أنك أصبت بصداع ليلة الأحد واقترحت أن تمكثي بالمن وتقولين أنك ستراعينه. فالعمة لويزا سوف تذهب إلى الكنيسة.

عموما كانت السيدة كارى تبقي بالمنزل ليلة الأحد حتى تتيح لمارى آن أن تذهب الكنيسة ولكنها سترحب بفرصة حضور صلاة المساء.

ولم يجد فيليب أنه من الضروري أن يحدث أقاربه عن التغيير الذي حدث في آرائه المسيحية، الذي حدث في ألمانيا. فلم يتوقع منهم أن يفهموه. وبدا أنه من الأسلم أن يذ

إلى الكنيسة بهدوء. غير أنه كان يذهب إلى الكنيسة في الصباح. واعتبر عدم ذهابه إلى الكنيسة في المساء تأكيدا مناسبا لحرية الفكر.

وعندما عرض اقتراحه لم تتكلم الآنسة ويلكنسون للحظة ثم هزت رأسها وقالت :

– لا.. لن أفعل ذلك.

غير أنها في يوم الأحد وقت تناول الشاي أذهلت فيليب إذ قالت فجأة :

– لا أعتقد أني سوف أذهب إلى الكنيسة هذا المساء.. فأنا أشعر فعلا بصداع فظيع.

وقد أصرت السيدة كاري بعد أن شعرت بالقلق عليها أن تعطيها جرعة دواء كانت هي معتادة علي استخدامه. وشكرتها الآنسة ويلكنسون وأعلنت بعد تناول الشاي مباشرة أنها سوف تذهب إلى غرفتها وتستلقي هناك.

وسألتها السيدة كارى وقد بدا عليها القلق :

– هل أنت متأكدة أنك لا تحتاجين شيئا ؟

–متأكدة تماما وأشكرك.

– لأنه إذا كان الأمر كذلك فسوف أذهب إلى الكنيسة لأن الفرصة لا تتاح لي دائما للذهاب إلى الكنيسة مساء.

– نعم تفضلي واذهبي إلى الكنيسة.

وقال فيليب :

–سوف أبقى بالمنزل، فإذا أرادت الآنسة ويلكنسون شيئا فيمكنها دائما أن تناديني.

وقالت السيدة كارى :

– يستحسن يا فيليب أن تترك باب غرفة الجلوس مفتوحا حتى تسمع جرس الآنسة ويلكنسون إذا أرادت منك شيئا.

– بالتأكيد.

وهكذا بعد الساعة السادسة ترك فيليب في المنزل وحيدا مع الآنسة ويلكنسون. وأحس بالتوعك من شدة الخشية. وتمني من كل قلبه لو أنه لم يقترح تلك الخطة. غير أن الأوان قد فات ويجب أن ينتهز الفرصة التي هيأها بنفسه. فماذا سيكون رأي الآنسة ويلكنسون فيه لو لم ينتهز هذه الفرصة. كان الصمت يخيم على المكان. وتساءل هل الآنسة ويلكنسون مصابة بصداع فعلا ؟ ربما تكون قد نسيت اقتراحه. وازدادت ضربات قلبه بعنف. وصعد السلم حريصا بقدر الإمكان ألا يحدث أي صوت. ووقف خارج غرفة الآنسة ويلكنسون وراح يتنصت. ووضع يده على مقبض الباب. وانتظر. وبدا له أنه انتظر عشر دقائق على الأقل محاولا أن يتخذ قراره وراحت يده ترتعش. وود لو يتراجع ولكنه يخاف من الندم الذي يعرف أنه سيلحق به. كان مثل الصعود إلى منط قفز عال في حمام سباحة وهذا المنط لا يبدو أنه شيء وأنت تنظر إليه من أسفل ولكن عندما تصعده وتنظر أسفل إلى الماء فإن قلبك يتهاوى والشيء الوحيد الذي يرغمك على القفز هو العار الذي سيحل بك

عندما تعود هابطا السلم الذي صعدته من قبل. وتحصن فيليب بشجاعته. وأدار المقبض ودخل الغرفة. وأحس أنه يرتجف كورقة شجرة.

كانت الآنسة ويلكنسون تقف أمام نضد الزينة وظهرها ناحية الباب واستدارت بسرعة عندما سمعت الباب يفتح.

–أوه.. إنه أنت. ماذا تريد ؟

كانت قد خلعت تنورتها وقميصها وكانت تقف وهي مرتدية قميصا تحتانيا. كان قصيرا، ووصل فقط إلى قمة رقبة حذائها وكان الجزء الأعلى منه أسود اللون من قماش لامع وله أهداب حمراء اللون وكانت عليها سترة نسوية قصيرة. كان شكلها غريبا متنافرا. وانقبض قلب فيليب وحملق فيها فلم تبدو هكذا أبدا فاقدة الجاذبية ؛ غير أن الأوان قد فات الآن. وأغلق الباب خلفه ثم أوصده.

• • •

استيقظ فيليب مبكرا وكان نومه قلقا غير أنه عندما مد ساقيه ونظر إلى أشعة الشمس التي تسللت خلال الستائر ورسمت على الأرض أشكالا غريبة تنهد بارتياح. كان مسرورا من نفسه وقد بدأ يفكر في الآنسة ويلكنسون. لقد طلبت منه أن يناديها إيميلي ولكنه لم يعرف لماذا لم يستطع ذلك. لقد كان دائما يفكر فيها على أنها الآنسة ويلكنسون. ولما وبخته لأنه لما يناديها كذلك تجنب أن يستخدم اسمها تماما. وأثناء طفولته سمع كثيرا اسم إيميلي يطلق على شقيقة للعمة لويزا كان زوجها ضابطا بحريا. ولم يكن يشعر بارتياح إذا نادى الآنسة ويلكنسون بهذا الاسم ولا يوجد اسم يناسبها أكثر من اسمها الأصلي. وهذا الاسم يبدو أنه لايمكن أن ينفصل عنها أبدا. وقطب جبينه قليلا..فقد رآها في أسوأ منظر لها ولم يستطع أن ينسى عندما استدارت ورآها في قميصها التحتاني وتذكر الخشونة البسيطة في بشرتها والخطوط الطويلة الغائرة في جانب عنقها. لقد كان انتصاره قصير الأجل. وراح يحسب عمرها ولم ير كيف يمكن أن تكون أقل من أربعين عاما، لقد جعل هذا من علاقته بها أمرا سخيفا. لقد كانت عجوزا قبيحة. وقد أظهرها له خياله امرأة مجعدة منهكة ومصطنعة بتلك العباءات التي ترتديها والتي تبدو فيها مبهرجة وأصغر من سنها. وارتعد..وشعر فجأة أنه لا يريد أبدا أن يراها مرة أخرى. فإنه لا يحتمل فكرة تقبيلها. وشعر بالرعب من نفسه. هل هذا هو الحب ؟

وراح يتلكأ بقدر الإمكان وهو يرتدي ملابسه حتى يؤخر رؤيتها. وعندما ذهب أخيرا إلى حجرة المائدة كان قلبه يغوص بين جنبيه. وتليت الصلاة وكانوا جميعا جالسين للإفطار.

وصاحت الآنسة ويلكنسون في مرح :

– كسول.

فنظر إليها وتنهد بارتياح. كانت تجلس وظهرها للنافذة. كانت حقا لطيفة جدا. وتعجب لماذا فكر تلك الأفكار من قبل. وعاد إليه رضاؤه عن نفسه.

لقد ذهل للتغيير الذي طرأ عليها. وقالت له بعد الإفطار بصوت منتشي بالعاطفة أنها تحبه، وعندما ذهبا إلى حجرة الجلوس بعد ذلك لبدء درس الغناء جلست على مقعد البيانو وقالت له :

– قبلني.

وعندما انحني أحاطت عنقه بذراعيها بشدة حتى أنه شعر بالاختناق. وقالت بلهجتها الفرنسية :

– أحبك.. أحبك.. أحبك.

وتمني فيليب لو تكلمت الإنجليزية. وقال :

– لا أعرف إذا كنت قد فكرت في أن البستاني يمكن أن يمر قرب النافذة في أي وقت.

– أنا لا يهمني البستاني ولا غير البستاني.

وفكر فيليب أن الأمر كله يبدو وكأنه رواية فرنسية ولم يعرف لماذا ضايقه ذلك قليلا.

وأخيرا قال :

– أظن أني سأسير إلى الشاطئ وأغطس في الماء قليلا.

–أوه.. أنت لا تنوي أن تتركني هذا الصباح.. وبالذات هذا الصباح .

ولم يعرف فيليب لماذا لا يتركها غير أنه لا يهم. وابتسم قائلا :

– أتحبين مني أن أبقي معك ؟

– أوه يا عزيزي ..ولكن هيا اذهب إلى الشاطئ. أحب أن أفكر فيك وأنت تتحكم في أمواج البحر المالحة وتستحم أطرافك في المحيط العريض.

أخذ قبعته وسار الهوينى نحو الشاطئ. وقال لنفسه : ياله من حديث نسائي متعفن. ولكنه كان مسرورا وسعيدا. وكان من الواضح أنها وقعت في هواه. وبينما سار يعرج في الشارع الرئيسي في بلاكستابل نظر إلى الناس الذين كانوا يسيرون في الشارع بنوع من التكبر. وكان يعرف الكثيرين منهم فكان يومئ إليهم برأسه، وبينما كان يبتسم لهم أيضا دارت الأفكار في ذهنه..آه لو يعرفون ! كان يريد بشدة أن يعرف أحد. وفكر في أنه قد يكتب لهايوارد وراح في ذهنه يخط الرسالة» سوف يحدثه عن الحديقة والزهور والمربية الفرنسية الصغيرة مثل زهرة غريبة من الزهور عطرة وفاسدة» سوف يقول له إنها فرنسية : نعم فقد عاشت في فرنسا طويلا لدرجة أنها أصبحت فرنسية ثم أنه من السخف أن يروي القصة كلها بالضبط. وسوف يقول لهايوارد كيف رآها في ثوبها الحريري والوردة التي أعطتها إياه وجعل منها قصيدة شعر : فقد أضفت عليها الشمس والبحر عاطفة حارة وسحرا وأضفت عليها النجوم شعرا رقيقا ، وكانت حديقة القس مكانا مناسبا رائعا. وسمع فيليب قلبه يدق بسرعة. كان سعيدا بأحلامه جدا حتى أنه

بدأ يفكر فيها مرة أخرى عندما زحف عائدا إلى حمامه يشعر بالبرد وتتساقط منه قطرات الماء. وفكر في الموضوع الذي يثير حبه . لها أنف صغير فاتن وعيون واسعة بنية اللون – سوف يصفها لهايوارد – وكتل من الشعر البني الناعم، ذلك النوع من الشعر الذي تتلذذ بأن تدفن رأسك فيه. وبشرة مثل العاج وضوء الشمس وجنتاها مثل وردة حمراء كم عمرها ؟ ربما في الثامنة عشرة وسماها «موزيت»صوتها ناعم رقيق وهو أحلي موسيقي سمعتها أذناه.

– فيم تفكر ؟

توقف فيليب فجأة. كان يسير ببطء إلى المنزل.

– كنت ألوح لك طوال ربع الميل الأخير. أنت سارح تماما.

كانت الآنسة ويلكنسون تقف أمامه وهي تضحك من دهشته. وقالت :

–ظننت أني سآتي وأقابلك .

ورد فيليب قائلا :

– هذا لطيف جدا منك.

– هل أفزعتك ؟

– نعم فزعت قليلا.

وكتب رسالته لهايوارد. وكانت من ثماني صفحات.

مر الأسبوعان المتبقيان بسرعة. ورغم أن الآنسة ويلكنسون كانت كل مساء عندما يتنزهان في الحديقة بعد العشاء تقول أم يوما آخر قد مر فقد كان فيليب في حالة طيبة فلم يدع هذا الأمر يضايقه.

وفي إحدى الأمسيات قالت له أثناء حديثها أنه قد يكون من الأفضل أن تستبدل بوظيفتها في برلين أخرى في لندن، و حينئذ يمكن لكل منهما أن يرى الآخر على الدوام. وقال فيليب أن تلك فكرة سارة ولكنها، لم تثر حماسه فقد كان يتوق إلى حياة أكثر بهجة وروعة في لندن، و أراد ألا يعوقه عن هذا الأمل شيء، فراح يتحدث في قليل من التبسط عما يريد أن يفعل، فأتاح بذلك للآنسة ويلكنسون أن تدرك أنه مشتاق إلى السفر.

وصاحت قائلة :

– لو كنت تحبني ما قلت ذلك.

ذهل وظل صامتا.

وأضافت :

– أي حمقاء كنت.

ولدهشته رأي أنها تبكي. وكان له قلب رقيق ويكره أن يري أحدا في بؤس.

–أوه ، أنا آسف جدا ، ماذا فعلت ؟ لا تبكي أرجوك.

– فيليب.. لا تتركني يا فيليب..أنت لا تعرف ماذا تعني لي. إن حياتي بائسة وقد جعلتني سعيدة جدا.

وقبلها بهدوء. وكانت نغمة صوتها توحي بأنها تعاني كربا حقا وقد شعر بالخوف. فلم يخط له أبدا أنها تعني ما تقول بجد.

– أنا آسف جدا. أنت تعرفين أني مغرم بك جدا. وأتمني لو تأتي إلى لندن.

– أنت تعرف أني لا يمكنني أن أذهب إلى لندن. فالأماكن من الصعب الذهاب إليها وأنا أكره العيشة الإنجليزية.

وبدون وعي منه تقريبا أنه يمثل دورا ما.. وقد تأثر بأساها.. فراح يلح عليها أكثر وأكثر. وقد أحس بالإطراء الغامض من دموعها فقبلها بعاطفة حقيقية.

غير أنها بعد يوم أو يومين افتعلت أزمة حقيقية. فكان هناك حفل للعب التنس في منزل القس وحضرته فتاتان جديدتان ، ابنتا ضابط متقاعد في الفوج الهندي استقر مؤخرا في بلاكستابل . كانت الفتاتان فاتنتان للغاية وكانت إحداهما في سن فيليب والأخرى أصغر منه بسنة أو سنتين. وكانتا معتادتين علي مجتمع الشباب من الرجال (كانت لديهن حكايات كثيرة عن محطة هيل في الهند وفي ذلك الوقت كانت قصص الكاتب رايدارد كيبلنج عن الهند في أيادي الناس جميعا) وبدأتا تمازحان فيليب في مرح؛ وكان هو سعيدا بهذا التجديد – فقد كانت الفتيات في بلاكستابل يعاملن ابن أخي القس بنوع من الجدية.

وثمة شيطان في داخله دفعه إلى مغازلة الفتاتين، ولما كان هو الشاب الوحيد في الحفل فقد تماشيا معه في الغزل والمزاح. وكان من المصادفة أنهما تلعبان التنس جيدا جدا وكان فيليب قد سئم اللعب الهزيل للآنسة ويلكنسون (كانت قد بدأت تلعب عندما جاءت إلى بلاكستابل فقط)، ولذلك فعندما رتب اللاعبون بعد تناول الشاي اقترح أن تلعب الآنسة ويلكنسون ضد زوجة راعي الأبرشية على أن يكون راعي الأبرشية زميلها في المباراة وسيلعب هو فيما بعد مع القادمتين الجديدتين. وجلس إلى جانب أكبرهم الآنسة أوكونور وهمس إليها قائلا :

– سوف نبعد الأغبياء عن الطريق ثم نلعب معا مباراة رائعة بعد ذلك.

ويبدو أن الآنسة ويلكنسون سمعت هذا الكلام لأنها ألقت بمضرب التنس على الأرض وقالت أنها تشعر بصداع وغادرت المكان. وتضايق فيليب خشية أن تقوم بإعلان كل شيء علي الجميع. وتم ترتيب المباراة بدونها ، غير أن السيدة كارى نادت فيليب :

– فيليب ، لقد جرحت مشاعر الآنسة ويلكنسون وهي الآن في غرفتها تبكي.

– لماذا استاءت ؟

– كلام عن مباراة الأغبياء.اذهب إليها وقل لها أنك لم تقصد أن تكون قاسيا. فيليب ولد طيب.

– وهو كذلك.

قرع باب غرفة الآنسة ويلكنسون ولما لم يتلق ردا دخل. وجدها مستلقية تبكي ووجهها ملتصق بالفراش. ولمس كتفها.

– ما الحكاية.. ماذا حدث ؟

– اتركني وحدي.. لا أريد أن أتكلم معك مرة أخرى.

– ماذا فعلت أنا ؟ أنا آسف جدا إذا كنت قد جرحت مشاعرك فأنا لا أقصد ذلك.. أرجوك أن تنهضي من فراشك.

–أوه، أنا حزينة جدا ، كيف تكون قاسيا معي بهذا الشكل ؟ أنت تعرف أني أكره هذه اللعبة الغبية . وأنا ألعبها فقط لأني أريد أن ألعب معك.

ونهضت من على الفراش واتجهت إلى نضد الزينة ولكن بعد نظرة سريعة في المرآة جلست علي مقعد. وكورت منديلها وجففت به عينيها.

– لقد أعطيتك أغلى ما يمكن أن تعطيه المرأة للرجل. أوه.. يا لحماقتي ! وأنت ليس لديك عرفان بالجميل. أنت لاشك عديم القلب. كيف تكون بهذه القسوة بحيث تعذبني بالغزل مع هاتين الفتاتين السوقيتين. لم يتبق لنا أكثر من أسبوع. أفلا تعطيني ذلك ؟

وقف فيليب بجانبها عابسا. ورأي أن سلوكها أقرب إلى سلوك الأطفال. وشعر بالغيظ منها لأنها أظهرت غضبها أمام الغرباء.

– ولكنك تعرفين أني لا أعبأ إطلاقا بأي من هاتين الفتاتين.. ماذا دهاك وجعلت تفكرين بهذه الطريقة.

وتخلت الآنسة ويلكنسون عن منديلها. تركت الدموع علامات على مساحيق وجهها وكان شعرها مشوشا. ولم يكن ثوبها الأبيض يناسبها كثيرا عندئذ. ونظرت إلى فيليب بعيون جائعة مشبوبة بالعاطفة. وقالت بصوت أجش :

–لأنك في العشرين وهي كذلك. وأنا عجوز.

واحمر وجه فيليب وتحاشى النظر إليها. فقد أثاره الألم الذي بدا في صوتها وجعله يشعر بعدم الارتياح. وتمني من كل قلبه لو أنه لم تكن له أي علاقة بالآنسة ويلكنسون. وقال وهو مرتبك :

– أنا لا أريد أن أجعلك تعيسة. ويستحسن أن تنزلي الآن وتعتني بأصدقائك. فسوف يتساءلون ماذا حدث لك.

– وهو كذلك.

وسره أن تركها.

وسرعان ما جاءت المصالحة في أعقاب ذلك الشجار غير أن الأيام القلائل التي تبقت كانت مصدر إزعاج لفيليب . فلم يكن يريد أن يتحدث عن شيء سوى المستقبل. وكان الكلام عن المستقبل يثير دموع الآنسة ويلكنسون. كان بكاؤها في البداية يؤثر فيه ولكنه شعر أنه حيوان فضاعف من احتجاجاته بأن عاطفته لم تمت ، غير أن كل ذلك ضايقه الآن. كان يمكن أن تكون الأمور أحسن بكثير لو أن الآنسة ويلكنسون كانت فتاة ولكن من السخف بالنسبة

لامرأة كبيرة السن أن تبكي. ولم تكف أبدا عن تذكيره بأنه مدين لها بجميل لن يستطيع أن يرده أبدا. وكان علي استعداد لأن يقر ذلك ما دامت هي تصر عليه غير أنه لم يعرف حقا لماذا يكون هو مدينا لها بمعروف ولا تكون هي مدينة له بمعروف. وكان متوقعا منه أن يبدى إحساسه بالدين بطرق مزعجة إلى حد ما : وقد اعتاد هو على الوحدة وكانت هذه الوحدة ضرورة في بعض الأحيان، ولكن الآنسة ويلكنسون كانت تري أن عدم وجوده تحت إمرتها نوع من القسوة ، وقد دعتهم الآنسة أوكونر كليهما لتناول الشاي وكان فيليب يحب أن يلبي الدعوة غير أن الآنسة ويلكنسون قالت له أنه ليس أمامهما سوى خمسة أيام وأنها تريده فيهم كلية لنفسها. كان مطلبا فيه إطراء له ولكنه ممل. وحكت له الآنسة ويلكنسون حكايات عن الرقة المتناهية للرجال الفرنسيين في علاقاتهم مع الجنس اللطيف المماثلة لعلاقتها مع فيليب.وراحت تمتدح كياستهم ونزعتهم نحو التضحية بالذات ولباقتهم وحساسيتهم. وكان يبدو أن الآنسة ويلكنسون تطلب الكثير.

واستمع فيليب إليها وهي تتحدث عن السلوكيات التي يجب أن يتحلى بها المحب العظيم. وانتابه شعور بالارتياح لم يستطع أن يقاومه لأنها تعيش في برلين.

– سوف تكتب إلى. أليس كذلك.. اكتب لي كل يوم. أريد أن أعرف كل ما تفعله ولا يجب أن تخفي عني أي شيء.

– سوف أكون مشغولا جدا وسوف أكتب كثيرا بقدر الإمكان.

وأحاطت عنقه بذراعيها بعاطفة مشبوبة. كان أحيانا يشعر بحرج من إظهارها لعواطفها. وكان يفضل لو أنها أكثر سلبية. ومما صدمه قليلا أنها تفوقه في هذا المجال بكثير : ولم يتناسب هذا مع تحيزه لاحتشام المزاج الأنثوي.

أخيرا انتهت أجازتها وحل يوم سفرها، ونزلت لتناول الإفطار مغلوبة على أمرها بادية الشحوب و ارتدت ثوبا للسفر من قماش أبيض و أسود و بدت حينئذ كالمربية المثالية حقا.. و ظل فيليب صامتا لأنه لم يعرف ماذا يقول في مثل هذه المناسبات، وكان يخشى إذا ما ثرثر و قال ما هو غير مناسب أن تنهار الآنسة ويلكنسون أمام عمه. وكان كل منهما قد ودع الآخر الوداع الأخير عندما كانا في الحديقة الليلة قبل البارحة، و شعر فيليب بالارتياح لأنه لم تكن هناك فرصة أخرى لينفرد أحدهما بالآخر. و انتظر في حجرة المائدة بعد الإفطار حتى تستطيع الآنسة ويلكنسون أن تقبله على السلم إذا أرادت..و لم يكن يريد ماري آن أن تراهما في هذا الموقف المثير للشبهات. و قد أصبحت ماري آن حينئذ سيدة متوسطة العمر سليطة اللسان و لم تكن تحب الآنسة ويلكنسون، وكانت تسميها القطة العجوز.

و كانت العمة لويزا متوعكة قليلا في ذلك اليوم ولم تكن تستطيع اصطحاب الآنسة ويلكنسون إلى المحطة ، فودعها القس و فيليب. و عندما هم القطار بمغادرة المحطة مالت برأسها إلى السيد كاري و قبلته ثم قالت:

– يجب أن أقبلك أنت أيضا يا فيليب..

فقال و قد احمر وجهه خجلا :

ـ و هو كذلك..

و صعد درجة السلم فقبلته قبلة خاطفة، و بدأ القطار في التحرك و غرقت الآنسة ويلكنسون في ركن من أركان العربة و راحت تبكي مهمومة، و أحس فيليب و هو في طريقه إلى المنزل بشعور قوي من الارتياح. و عندما وصلا قالت العمة لويزا:

ـ هل أوصلتموها بسلام؟

ـ نعم.. لقد بدا عليها البكاء و أصرت على أن تقبلنا أنا و فيليب..

و قالت السيدة كاري:

ـ ليس هذا بالأمر الخطير من امرأة في مثل سنها.. وأشارت إلى الخوان وقالت : هناك خطاب لك يا فيليب وصل في الدفعة الثانية من البريد.

كان الخطاب من هايوارد وقال فيه ما يلي :

صديقي العزيز.

ها أنا أرد علي خطابك على الفور. لقد غامرت بقراءته على صديقة لي ، سيدة فاتنة كانت مساعدتها لي وعطفها علي شيئا ثمينا لي لديها إحساس حقيقي بالفن والأدب ووافقنا على أن خطابك ساحر. لقد سطرت السطور من أعماق قلبك وأنت لا تعرف البراءة المبهجة الكامنة في كل سطر. ولأنك تحب فأنت تكتب كشاعر. آه يا عزيزي هذا هو جوهر الحياة الحقيقية : لقد شعرت بوهج عاطفتك البريئة وكان النثر الذي كتبته موسيقيا نابعا من نقاء وإخلاص عاطفتك. يجب أن تكون سعيدا. كنت أتمنى أن أكون هناك في الحديقة الساحرة حيثما كنتما تسيران وأشهدكما من مكان خفي تسيران كل يعتصر يد الآخر والحب الوليد يشع من عيونكما وهي بين ذراعيك صغيرة وناعمة ورقيقة وهي تقسم أن لا تستسلم أبدا – استسلمت. آه يا صاحبي كم أغبطك. جميل أن يكون حبك الأول شعرا صافيا. فلتسعد بهذه اللحظات لأن الله الخالد قد منحك أعظم هدية وسوف تظل ذكراها في أعماقك حتى يوم الرحيل العظيم. ولن تتمتع مرة أخرى بهذه النشوة الخالية من الهموم. فالحب الأول هو أعظم حب وهي جميلة وأنت في عز الشباب والعالم كله ملك لك. وقد شعرت بقلبي ينبض بسرعة عندما قلت ببساطتك الرائعة أنك دفنت وجهك بين خصلات شعرها الطويلة. وأنا واثق أن لون شعرها هو هذا اللون الكستنائي المشوب بالذهب. كنت سأجعلكم تجلسان تحت شجرة مورقة جنبا إلى جنب وتقرآن معا روميو وجوليت ثم أجعلك تركع على ركبتيك وتقبل نيابة عني الأرض التي تركت عليها بصمات قدميها، ثم تقل لها إن هذا اعتراف من شاعر بشبابها الوضاء ولحبك لها.

المخلص دائما

ج. إثيريدج هايوارد

وعندما فرغ فيليب من قراءة الخطاب قال «ياله من كلام عفن ملعون». والغريب أن الآنسة ويلكنسون كانت قد اقترحت أن يقرآ رواية روميو وجوليت معا غير أن فيليب رفض ذلك بحزم. ثم بعد أن وضع الخطاب في جيبه شعر بشعور غريب من المرارة لأن الحقيقة بدت مختلفة جدا عن الشيء المثالي.

● ● ●

سافر فيليب إلى لندن بعد بضعة أيام من ذلك الوقت، وقد أوصاه عمه بحجرات في «بارنز» فبعث بخطاب ليحتجزها نظير أربعة عشر شلنا في الأسبوع.

ووصل إلى بارنز في المساء ، و كانت صاحبة المنزل قد أعدت له الشاي، و هي عجوز شمطاء قصيرة ضامرة الجسم ذات وجه مملوء بالتجاعيد. ولاحظ فيليب أن الغرفة المعدة للجلوس قد شغلها الخوان و نضد مربع الشكل وأسند إلى أحد حوائطها مضجع غطى بقماش صنع من شعر الخيل، و إلى جانب المدفأة استقر مقعد يناسب المضجع وقد وضع في أعلاه غطاء للزينة و ضعت على المقعد وسادة صلبة لأن أسلاكه السفلية كانت قد تحطمت.

و بعد أن تناول الشاي أفرغ حقائبه و رتب كتبه ثم جلس و حاول أن يقرأ و لكنه كان مكتئبا فقد ضايقه السكون الذي انتاب الشارع و شعر بوحدة قاسية.

وفي اليوم التالي نهض مبكراً وارتدى سترته وقبعته العالية التي كان يرتديها في المدرسة، ولكنها بدت رثة قد بهت لونها فعرج على أحد المحال في طريقه إلى المكتب وابتاع أخرى جديدة. و بعد أن فرغ من ذلك وجد أن لديه متسعا كبيرا من الوقت فراح يذرع شارع ستراند. وكان مكتب هربرت كارتر و شركاه في شارع صغير في «شانسري لين». واضطر أن يسأل عنه مرتين أو ثلاثا وشعر بأن الناس يحدقون فيه كثيرا وقد خلع قبعته مرة ليرى هل تركت عليها الورقة الدالة على المتجر مصادفة، و عندما وصل إلى المنزل طرق الباب ولكن أحدا لم يجبه و عندما نظر إلى ساعته وجد أنها لم تكد تبلغ التاسعة و النصف فغادر المكان و عاد بعد عشر دقائق ليجد صبيا في المكتب ذا أنف طويل و وجهه به بثور ويتكلم في لكنة اسكتلندية، و فتح الصبي الباب و سأله فيليب عن السيد كارتر فعلم أنه لم يصل بعد، فقال:

ـ و متى يصل؟

ـ ما بين العاشرة و العاشرة و النصف..

فقال فيليب:

ـ من الأفضل أن أنتظره إذن.

فسأله الصبي:

ـ و ماذا تريد؟

و أحس فيليب بثورة أعصابه حينئذ، و لكنه حاول أن يخفي ذلك بمرحه.

- إني سأعمل هنا.. إذا لم يكن لديك مانع؟
فرد عليه قائلا :
- آه أنت الكاتب الجديد..؟ تفضل.. إن السيد جوردورثي سيصل حالا.

و دخل فيليب الحجرة، و لاحظ أن الصبي الذي كان في مثل سنه و الذي كان يطلق عل نفسه اسم «الكاتب الصغير» راح يتأمل قدمه، فاحمر وجه فيليب خجلا ، وعندما جل أخفاها خلف القدم الأخرى. و راح يتأمل الحجرة حوله. فرآها حجرة معتمة رطبة للغاية ين الضوء إليها من كوة في السقف، و كان بها ثلاثة صفوف من المكاتب أمام كل منها مق عال بلا ظهر.. و فوق المدفأة علقت صورة محفورة لمباراة في الملاكمة وقد علاها الغبا وما لبث أن دخل أحد الكتبة، و تبعه آخر بعد قليل، و نظرا إلى فيليب وفي صوت هامس سأ الصبي «عن هذا الزائر» و عرف فيليب أن اسمه ماكدوجال وسمع صوت صفارة على أث نهض الصبي و قال لفيليب:
- لقد وصل السيد جودورثي.. إنه المدير.. هل أنبئه أنك هنا ؟
- نعم إذا سمحت.
و خرج الصبي ثم عاد بعد لحظة و قال:
- هل تتكرم و تتبعني؟

و سار فيليب خلف الصبي و عبرا ممرا حتى وصلا إلى حجرة صغيرة بها أثاث بسيط و بها رجل نحيف ظهره تجاه المدفأة. كان الرجل أقصر من الطول العادي بكثير و قد أكس رأسه الكبير الذي بدا و كأنه التصق بجسده في استرخاء، منظراً عجيباً منفراً، كان غير واض الملامح عريض القسمات ذا عينين شاحبتين جاحظتين و كان شعره متفرق عن بعضه ولو بلون الرمل، له عارضان نما على وجهه في غير انتظام فلا تجد شعراً على الإطلاق ف المواقع التي تتوقع وجود الشعر بغزارة، و كانت بشرته ملساء شاحبة . و مد يده إلى فيل وعندما ابتسم بدت أسنانه المتآكلة، و تكلم بشيء من الترفع و قليل من الجبن كأنه يحا أن يضفي على نفسه شيء من الأهمية لم يكن يشعر بها. و قال أنه يأمل أن يلقى العمل قبو في نفس فيليب، و أضاف إلى ذلك أن فيه كثيرا من الإرهاق ولكنه يصبح ممتعا لمن يعت عليه و يحصل منه على المال و هو أهم شيء.. أليس كذلك؟ وضحك في هذا المزيج العج من التعالي و الخجل، ثم قال:
- إن السيد كارتر سيصل بعد قليل، إنه أحيانا يتأخر قليلا صباح يوم الاثنين، وس أستدعيك فور وصوله.. و إلى أن يجيء سأعطيك شيئا تفعله.. أتعرف شيئا عن الحسابات مسك الدفاتر؟
فأجاب فيليب:
- لا ، أخشى أن أقول إني لا أعرف عن ذلك شيئا..

- إني لم أفترض أنك ستعرف ، فهم في المدرسة لا يعلمونكم أشياء تنفعكم في ميدان العمل..
و فكر قليلا ثم قال :
- أعتقد أنه يمكنني أن أجد لك شيئاً تفعله.

و ذهب إلى حجرة مجاورة ثم عاد و هو يحمل صندوقا من الورق المقوى يضم عددا ضخما من الخطابات موضوعة في غير نظام، وطلب إلى فيليب أن يخرجها جميعا ثم يرتبها في الدرج حسب أسماء كاتبيها بالحروف الأبجدية و قال:
- سأصحبك إلى الحجرة التي يجلس فيها دائما الكاتب المتعاقد معه، وستجد هناك فتى لطيفا للغاية اسمه واتسون و هو ابن واتسون الذي يشترك مع كراج ، و تومسون في مصنع الجعة، ألا تعرفهم؟ إنه يقضي معنا عاما ليتعلم شئون التجارة.

و قام السيد جودورثي بمصاحبة فيليب إلى حجرة المكتب، حيث كان يعمل وقتئذ ثمانية من الكتبة، ثم سارا إلى غرفة ضيقة تقع خلفها. و قد حولت إلى شقة منفصلة بفاصل زجاجي وضع بينهما. وهناك وجدا السيد واتسون و قد استند بظهره إلى المقعد و راح يقرأ صحيفة سبورتسمان (الرياضي). كان السيد واتسون شابا بدينا يرتدي ملابسه في أناقة. و التفت عند دخول السيد جودورثي و ناداه قائلاً : «جودورثي» فقط دون ألقاب، و ذلك ليثبت مكانته لنفسه، وكان رئيس الكتبة يعترض على هذه الألفة، و يناديه بالرغم من هذا بالسيد واتسون ولكن واتسون بدلا من أن يجعل هذا بمثابة تأنيب له تقبل اللقب كأنه اعتراف بمكانته و قال واتسون لفيليب عندما أصبحا وحدهما في الحجرة:
- أرى أنهم أبعدوا ريجوليتو عن السباق.
و رد فيليب رغم أنه لم يكن يعرف شيئا عن سباق الخيل:
- هل فعلوا ذلك حقا ؟

و نظر فيليب و هو مرتاع إلى ملابس السيد واتسون الجميلة ، فقد كانت سترته تلائمه تماما، و على صدره و في منتصف ربطة عنق رائعة استقر دبوس ثمين و كانت قبعته العالية الموضوعة على رف المدفأة في شكل الناقوس لامعة تدل على الرغبة في التظاهر والتأنق. وشعر فيليب إزاء ذلك بأنه رث الملبس بشدة و بدأ واتسون يتحدث عن الصيد ويقول أن من أصعب الأشياء على النفس ألا يستطيع المرء أن يخرج للصيد لأنه يضيع وقته في مثل هذا المكتب الجهنمي.. فهو لا يستطيع الصيد إلا في أيام السبت ، ثم الرماية.. إن لديه دعوات ملحة من جميع أنحاء البلاد غير أنه مضطر ألا يلبيها.. إنه حقا حظ لعين. و لكنه لن يصبر على هذه الحال طويلا، لقد ظل في هذا الجحر اللعين عاما بأكمله وبعد ذلك سيبدأ مشروعه هو ي ثم يصطاد أربعة أيام في الأسبوع ويقضي في الرماية ما يشتهي من الوقت. و حرك ذراعه

مشيرا إلى الحجرة الصغيرة و قال موجها حديثه إلى فيليب مع حركة دائرية من يده تشير إ
أنحاء الحجرة :

ـ إنك ستقضي هنا خمس سنوات.. أليس كذلك؟

ـ أظن هذا؟

ـ أستطيع أن أقول إذن.. إني سأراك كثيرا فيما بعد، فإن كارتر هو الذي يتولى حسابا
كما تعلم..

و غلب فيليب التأثر مما أبداه الشاب نحوه من لطف و تواضع، فقد كانوا في بلاكستا ينظرون إلى صانعي الجعة نظرة احتقار، و كان القس يسخر في بعض الأحيان من ه المهنة، و لذلك دهش فيليب أشد الدهشة عندما وجد أن واتسون شخص لطيف رائع. لقد ذ واتسون إلى أكسفورد ونشستر ، وكثيرا ما تجلى أثر هذه الأسفار في حديثه واضحا أ الوضوح. و عندما علم بدقائق حياة فيليب و كيف قضى فترة دراسته أصبحت تصرف نحوه أكثر رقة و لطفا. و قال:

ـ بالطبع إذا لم يستطع المرء الذهاب إلى المدارس الخاصة فإن هذا النوع من المدارس خير ما يمكن أن يجده بديلا عنها بطبيعة الحال.. أليس كذلك؟

و سأله فيليب عن الرجال الآخرين الموجودين في المكتب ، فقال واتسون:

ـ أنا لا أهتم بهم كثيرا.. إن «كارتر» ليس بالشخص الرديء.. فنحن ندعوه لتناول الع معنا من آن لآخر . أما الباقون فإنهم ثلة من المزعجين.

و لم يلبث واتسون أن شغل بعمل. و شرع فيليب في فرز الخطابات. و بعد قليل عاد الس جودورثي ليبلغهم أن السيد كارتر قد وصل، ثم صحب فيليب إلى حجرة واسعة تجاور حج استقر فيها مكتب ضخم و مقعدان كبيران بمساند و تزدان أرضها ببساط تركي، وقد ز جدران الحجرة برسوم عن الرياضة، و كان السيد كارتر جالسا إلى مكتبه و عندما دخل ع فيليب نهض ليصافحه. و قد ارتدى سترة رسمية سوداء، وبدت عليه سمات الرجل العسكر فقد فتل شاربه وقومه بالشمع و كان شعره الرمادي قصيرا سوي في عناية، و كان معت القامة و تكلم في بساطة ، كان يسكن في «أنفيلد». و كان السيد كارتر يهتم بالمبار الرياضية وبمصالح البلاد، فقد كان ضابطا في فرقة «هيرتفورددشير» ورئيسا لرا المحافظين، و عندما علم أن شخصا مهما في البلدة قال عنه أن أحدا لن يخطئ ويعتقد كارتر من سكان المدينة شعر بأنه لم يضيع حياته هباء. و تحدث كارتر إلى فيليب في ب و بلا تكلف، و قال إن السيد جودورثي سيقوم بالإشراف على عمله، وأضاف أن السيد واتس شخص لطيف حقا و رجل مهذب ورياضي ممتاز، و سأل فيليب هل يصطاد ؟ ثم أعرب أسفه لأنه لا يفعل ذلك.. فالصيد رياضة السادة المهذبين: وقال إنه قد ترك الصيد لابنه عمله لا يتيح له الخروج لممارسته. و كان ابنه في كامبريدج و قد أرسله إلى مدرسة «رجب

وهي مدرسة محترمة. فيها فصول جميلة للصبية، و قال إن ابنه سينهي دراسته فيها بعد سنتين، و أنه يحب أن يكون ابنه رياضيا بكل ما في الكلمة من معنى. وقال كذلك أنه يأمل أن يتمكن فيليب من أن يحب عمله و أن يستمر فيه، و ألا تفوته المحاضرات فإنهم يرتفعون بمستوى المهنة و يريدون لها رجالا مهذبين، و قال إن السيد جودورثي موجود دائما و إذا أراد فيليب أن يعرف شيئا فسيخبره به. و سأل كيف حاله فيما يتعلق بخطه في الكتابة . ثم أضاف أن السيد جودورثي سيهتم بهذه المسألة.

لقد غمرت فيليب رقة الرجل.. إنهم في «إيست أنجيلا» يعرفون من هم الرجال المهذبون و من هم غير المهذبين، و لكن الرجال المهذبين لا يتكلمون أبدا عن ذلك..

●●●

في البداية تأثر فيليب بالعمل لأنه كان شيئا جديدا. فقد كان السيد كارتر يملي عليه الرسائل وكان عليه أن يعد نسخا من كشوف الحسابات.

وكان السيد كارتر يحب أن يدير العمل في المكتب بطريقة مهذبة. فلم يكن يحب الآلة الكاتبة وكان ينظر إلى الاختزال باحتقار : فقد كان صبي المكتب يعرف الاختزال ، ولكن كان السيد جودورثي وحده هو الذي يستفيد من إنجازات الصبي في الاختزال. ومن آن لآخر كان فيليب يخرج في صحبة أحد الكتبة المحنكين لمراجعة حسابات بعض الشركات وعرف عندئذ الزبائن الذين يجب معاملتهم باحترام وغيرهم الذين لا داعي للاحترام الكثير في معاملتهم. وأحيانا كان يكلف بجمع قائمة كبيرة من الأرقام. وحضر المحاضرات من أجل امتحانه الأول. وكان السيد جودورثي يكرر عليه دائما أن العمل يكون مملا في البداية ولكنه سوف يعتاد عليه بعد ذلك.وكان فيليب يغادر المكتب في الساعة السادسة مساء ويسير عبر النهر إلى واترلو. وكان عشاؤه ينتظره عندما يصل إلى مسكنه وبعد ذلك يقضي الأمسية في القراءة. وفي أيام السبت بعد الظهر يذهب إلى المتحف الوطني. وكان هايوارد قد أوصاه بدليل تم جمعه من أعمال راسكن ولما كان هذا الدليل متوفرا لديه فقد راح يزور المتحف ويتنقل فيه من حجرة إلى أخرى : ويقرأ بعناية ما يقوله النقاد عن لوحة معينة وإذا به يرى في تلك اللوحة نفس ما يقوله النقاد. وكان يصيبه الملل في أيام الأحد لأنه لم يكن يعرف كيف يقضي الوقت. فلم يكن يعرف أحدا في لندن ولذلك فكان يقضي هذا اليوم وحيدا مع نفسه. وقد دعاه مرة السيد نيكسون المحامي لكي يقضى معه يوم أحد في هامبستيد وقضي فيليب يوما سعيدا مع غرباء مليئين بالحيوية والمرح فقد أكل وشرب كثيرا وسار في المروج وخرج من ذلك بأن وجهت إليه دعوة عامة بأن يعود إلى الزيارة وقتما يشاء غير أنه خشى تماما أن يكون مصدر ضيق لهم، ولذلك راح ينتظر أن تصله دعوة رسمية . وبالطبع لم تصله هذه

الدعوة أبدا لأن أسرة نيكسون بما لها من عدد كبير من الأصدقاء لم تفكر في هذا الفتي الوح
الصامت الذي لا يهم استضافته. ولهذا كان في أيام الأحد يستيقظ من النوم متأخرا ويق
بجولة طويلة في طريق مقطورات الجر. وكان يحضر مسرحية مساء كل يوم سبت وكان يق
بابتهاج ساعة أو أكثر عند باب المتحف فلم يكن الأمر يستحق العودة إلى بارنز في الفت
بين إغلاق المتحف وتناوله وجبته في محل إيه بي سي وكان هذا الوقت مصدر ملل له. وكا
ينظر إلى الناس الذين يسيرون في الشوارع ويحسدهم لأنهم لديهم أصدقاء وكانوا سع
بينما كان هو تعيس، ولم يكن يتصور أبدا أن المرء يمكن أن يكون وحيدا في مدينة كبير
وفي بعض الأحيان كان الرجل الذي يقف إلى جواره عند باب المتحف يحول أن يتكلم م
غير أن فيليب كان لديه الشك المعروف لدى أهل الريف فكان يرد بطريقة تمنع المزيد م
الحوار. وبعد أن انتهت المسرحية أسرع يعبر جسر واترلو محتفظا بكل آرائه عن المسرح
لنفسه. وعندما عاد إلى حجراته التي لا تكون فيها نيران المدفأة موقده من باب الاقتصا
غاص قلبه بين جنبيه. كانت كئيبة جدا. لقد بدأ يمقت مسكنه والأمسيات الطويلة من الوح
التي يقضيها فيه، وأحيانا كان يشعر بوحدة شديدة حتى أنه لم يكن يستطيع القراءة فيجل
محملقا في نار المدفأة ساعات وساعات في كآبة مريرة.

لقد قضي الآن في لندن ثلاثة شهور وفيما عدا يوم الأحد الذي دعي فيه إلى هامبست
فإنه لم يتكلم مع أحد سوى زملائه الكتبة. وفي إحدى الأمسيات دعاه واتسون إلى العشاء
مطعم وذهبا معا بعد العشاء إلى قاعة الموسيقي ولكنه كان يشعر بالخجل وبعدم الارتيا
وكان واتسون طوال الوقت يتكلم عن أشياء لا تهم فيليب في شيء ورغم أنه كان ينظر إ
واتسون على أنه رجل محافظ لا يأبه للفن إلا أنه لم يتمكن من الشعور بعدم الإعجاب ب
وكان مستاء لأن واتسون لم يبال بثقافته وبطريقته في النظر إلى نفسه حسب نظرة الآخر
له بدأ يحتقر كل ما اكتسبه من علوم وثقافات والتي كانت حتى ذلك الوقت شيئا ليس عل
الأهمية، وشعر لأول مرة بمذلة الفقر. فقد كان عمه يرسل له أربعة عشر جنيها في الشه
وسترته المسائية فقط كلفته خمسة جنيهات فقد كان عليه أن يشتري كثيرا من الملابس. و
يجرؤ أن يقول لواتسون أنه اشتري سترته من محل ستراند الذي يبيع بضائع رخيصة. وق
له واتسون أن هناك خياطا واحدا محترما في لندن. وقال له واتسون في يوم ما وهو ين
إلى قدمه الحنفاء:

– أعتقد أنك لا ترقص.

–بلا.

– يا للأسف.. لقد طلب إلى أن أصحب بعض الرجال للرقص في حفل راقص. كان يمك
أن أقدمك إلى بعض الفتيات الممتازات.

وحدث في مرة أو مرتين أن مكث فيليب في المدينة لأنه كره العودة إلى مسكنه في بار
وراح يتجول في وقت متأخر في المساء في حي لندن الغربي (ويست إند) حتى وجد منز

به حفل. ووقف بين جماعة صغيرة من ناس يرتدون ملابس رثة، خلف الخدم، يراقبون الزائرين الذين يصلون إلى المنزل وراح يتنصت للموسيقي المنبعثة من النافذة. وأحيانا، رغم برودة الجو، كان شخصان يدخلان إلى الشرفة لاستنشاق الهواء الطلق وتخيل فيليب أنهما عاشقان يحب كل منهما الآخر، فاستدار وسار في الشارع يعرج بقلب مثقل بالهم. إنه لن يستطيع أبدا أن يكون في مكان هذا الرجل. وشعر بأن لاتوجد امرأة في العالم ستنظر إليه دون تقزز من عاهته.

وذكره ذلك بالآنسة ويلكنسون. لقد فكر فيها بدون ارتياح. فقبل أن يفترقا اتفقا علي أن توجه رسائلها إلى مكتب بريد «شارينج كروس» إلى حين أن يبعث إليها بعنوانه. وعندما ذهب إلى المكتب وجد ثلاثة خطابات منها. لقد كتبت بالفرنسية على ورق أزرق وبحبر بنفسجي. وتعجب فيليب لماذا لا تكتب بالإنجليزية مثل أي امرأة عاقلة.وعندما قرأ تعبيراتها العاطفية ذكرته بما قرأه في الروايات الرومانسية الفرنسية فشعر ببرودة تسرى في أوصاله. لامته لأنه لم يكتب إليها وعندما رد عليها طلب منها أن تعذره لأنه كان مشغولا. ولم يعرف كيف يبدأ خطابه إليها. ولم يكن مقتنعا أن يكتب لها عزيزتي أو حبيبتي وكره أن يكون الاسم الذي يستخدمه معها هو إيميلي وفي النهاية قرر أن يكتب العزيزة.

كان هذا أول خطاب غرامي يكتبه في حياته وكان يدرك أنه خطاب تافه وشعر أنه يجب أن يقول كل الأشياء الملتهبة ؛ كيف أنه يفكر فيها طول الوقت وكم يتوق إلى تقبيل يديها الجميلتين وكم يرتجف لمجرد التفكير في شفتيها القرمزيتين غير أن ثمة احتشام غير مفهوم منعه من ذلك، وبدلا من ذلك حدثها عن مسكنه الجديد والمكتب الذي يعمل به. وجاء الرد بالبريد العاجل ؛ غاضبة، محطمة القلب، مؤنبة، كيف يكون باردا بهذا الشكل؟ ألا يعرف أنها تنتظر رسائل بفارغ صبر ؟ لقد أعطته كل ما يمكن أن تعطيه أنثي لرجل وتلك هي مكافأتها. هل سئم منها فعلا ؟ ولما لم يرد عليها لعدة أيام راحت تمطره بوابل من رسائلها. إنها لا تستطيع أن تتحمل قسوته. وراحت تنتظر البريد ولم يصلها خطاب منه وراحت تبكي كل ليلة حتى يغلبها النوم. لقد رد عليها المرض حتى أن الجميع لاحظوا ذلك : وإذا لم يكن يحبها فلماذا لا يقول ذلك ؟ وقالت إنها لن تستطيع أن تعيش من غيره وأنه ليس أمامها سوى الانتحار. وقالت له أنه بارد القلب وأناني وناكر للجميل. كل كتابتها كانت بالفرنسية وكان فيليب يعرف أنها تكتب بهذه اللغة للتظاهر ولكنه كان قلقا طول الوقت. فلم يكن يريد أن يتسبب في تعاستها. وبعد قليل قالت له أنها لم تعد تحتمل الفراق أكثر من ذلك وأنها سوف تتخذ ترتيباتها للمجيء إلى لندن في عيد الميلاد. ورد فيليب قائلا أنه لا يتمني أكثر من ذلك غير أنه قد ارتبط بالفعل الآن لقضاء عيد الميلاد مع أصدقاء في الريف ولا يرى كيف يمكنه التراجع عن هذا الارتباط. وردت قائلة أنها لا تريد أن تفرض نفسها عليه وأنه من الواضح تماما أنه لا يريد رؤيتها وأنها استاءت كثيرا لذلك ولم تفكر أبدا أنه سيرد طيبتها بكل تلك القسوة. كان خطابها مؤثرا، ولا حظ فيليب أنه رأى علامات دموعها على الورق، واضطر أن

يكتب لها قائلا أنه آسف كل الأسف ويرجوها أن تأتي إلى لندن. غير أنه ارتاح كثيرا عند تلقي ردها الذي قالت فيه أنها وجدت أنه من المستحيل أن تسافر. وعندما كانت تصل خطاباته بعد ذلك فإن قلبه كان يغوص بين جنبيه وكان يتأخر في فتحها لأنه يعرف بها : تأنيب غاضب وتوسلات سخيفة من شأنها أن تجعله وحشا حقيقيا ومع ذلك فلم يـ يرى سببا للوم نفسه. فكان يؤجل رده من يوم لآخر. وعندئذ يصله خطاب آخر تقول فيه أن مريضة ووحيدة وبائسة.

– وقال لنفسه كنت أتمني من الله لو لم تكن لي علاقة بها.

وكان فيليب معجبا بواتسون لأنه كان يدبر تلك الأمور ببساطة شديدة. كان واتسون بدأ علاقة مع فتاة تعمل في فرقة مسرحية جوالة. وكانت حكايته عن تلك العلاقة تملأ فيلـ بالدهشة والحسد. غير أنه بعد وقت قصير تغيرت المشاعر بينهما وفي يوم وصف لفيلـ كيف انفصلا عن بعض.

– رأيت أنه ليس من الخير أن استمر في إزعاج نفسي ولهذا قلت لها إنني حصلت مـ علي ما فيه الكفاية.

وسأله فيليب :

– ألم تحتج وتحدث ضجيجا لك ؟ –

–الشيء المعتاد أن يحدث كما تعلم ولكني قلت لها أن هذه الأمور لن تجدي معي.

–وهل بكت ؟

–بدأت فعلا تبكي ولكني قلت لها أنها من الأفضل أن تكف عن ذلك.

وسأل فيليب مبتسما :

– لم يكن أمامها شيء آخر تفعله ، أليس كذلك ؟

اقترب موعد إجازة عيد الميلاد. وقد مرضت السيدة كاري في شهر نوفمبر. واقتر عليها الطبيب أن تذهب هي والقس إلى كورنوال لمدة أسبوعين قبل عيد الميلاد كي تستـ صحتها. وكانت النتيجة هي أن فيليب لم يكن لديه مكان يذهب إليه. وأمضي يوم عيد الميلا في مسكنه. وتحت تأثير هايوارد أقنع نفسه أن الاحتفالات التي تصاحب ذلك اليوم هـ احتفالات سوقية وهمجية وقرر ألا يهتم بهذا اليوم. غير أنه عندما حل يوم عيد الميلاد فـ ابتهاج الجميع حوله أثر فيه بشكل غريب. فصاحبة البيت الذي يقيم فيه وزوجها قالا إنهـ سيقضيان هذا اليوم مع ابنة لهم متزوجة. ولكي لا يثير فيليب مشاكل قرر أن يتناول طعامـ في الخارج. فذهب إلى لندن في منتصف اليوم وأكل شريحة من لحم الديك الرومي وحلو البودنج وحده، ولما لم يكن لديه ما يفعله بعد ذلك ذهب إلى كنيسة ويست مينيستر لحضو قداس العصر. وكانت الشوارع خالية تقريبا من الناس، أما السائرون فيها فكان يبدو عليهـ أنهم مشغولون فذلك يكونون يتجولون بل يسيرون وكأنهم يقصدون إلى هدف معين ولم يكـ

هناك تقريبا أي شخص وحده. وأحس فيليب أنهم جميعا سعداء. أما هو نفسه فقد شعر أنه لم يكن وحيدا من قبل مثل ما هو وحيد الآن. وكان هدفه أن يقتل اليوم في الشوارع وبعد ذلك يتناول عشاءه في مطعم ولكنه لم يكن يستطيع مرة أخرى أن يواجه منظر الناس السعداء المبتهجين الذين يتكلمون ويضحكون ويجعلون حياتهم مرحة وهكذا عاد إلى واترلو ، وفي طريقه عبر جسر ويست مينيستر اشترى شريحة من اللحم وفطيرتين ورجع إلى مسكنه في بارنز. وأكل طعامه في غرفته الصغيرة الوحيدة وقضي الأمسية مع كتاب. كان ما يشعر به من اكتئاب أمر لا يحتمل.

وعندما عاد إلى المكتب تألم عندما سمع رواية واتسون عن إجازة عيد الميلاد القصيرة. فقد كانت معهم بعض الفتيات الفاتنات وبعد العشاء نظفوا حجرة الاستقبال ورقصوا فيها.

وقال واتسون :

– لم أذهب إلى فراشي إلا بعد الثالثة صباحا ولا أعرف كيف دخلت الفراش فقد كنت ثملا حقا .

وأخيرا سأل فيليب في يأس :

– كيف يمكن للمرء أن يتعرف على الناس في لندن.

ونظر إليه واتسون مندهشا وقال :

– لا أعرف.. فالمرء يعرف الناس. إذا ذهبت إلى حفلات الرقص فسوف تعرف الكثيرين منهم.

كان فيليب يشعر بكراهية نحو واتسون ولكنه كان علي استعداد لأن يضحي بأي شيء لكي يكون مكانه. لقد عاوده الشعور القديم الذي كان يسيطر فيه في المدرسة وحاول أن يتصور كيف تكون الحياة لو كان هو في مكان واتسون.

● ● ●

وأخذت الأعمال تتراكم في نهاية العام.. و ذهب فيليب إلى كثير من الأماكن بصحبة كاتب اسمه «تومسون» .وكان يقضي اليوم في ملل يتلو بنود المضروفات التي كان الآخر يراجعها. و كان يعطي في بعض الأحيان صفحة طويلة مزدحمة بالأرقام ليقوم بجمعها. وكان فيليب يكره الأرقام بطبعه و لم يكن يطيقها أبدا فكان يقوم بهذه العملية في بطء وكان تومسون متضايقا من الأخطاء التي يرتكبها فيليب. وكان تومسون طويلا نحيفا في حوالي الأربعين من عمره مصفر الوجه شاحب اللون ، ذا شعر أسود و شارب أشعث ، ووجنتين غائرتين وخطوط عميقة على جانبي أنفه، و لم يكن يحب فيليب لأنه كان كاتبا مؤهلا، ولأن فيليب كان يستطيع أن يدخر ثلاثمائة جنيه و يعول نفسه خمس سنوات، فكان يمكنه بذلك أن يجد له فرصة يضمن بها مستقبله على حين أنه بكل ما

أوتي من خبرة و قدرة لن يصبح أكثر من كاتب يتقاضى خمسة و ثلاثين شلنا في الأسبوع، و كان هذا الرجل يحمل على كاهله عبء أسرة كبيرة، مما جعله في غاية الاضطراب و خيل إليه أن فيليب متعجرف فأبدى امتعاضه منه لذلك، وأخذ يسخر منه لأنه أحس أنه أحسن منه تعليما. و لم يترك فرصة يهزأ فيها منه، حتى الطريقة التي كان ينطق بها ، فإن لهجة فيليب لم تكن كلهجة أهالي لندن، وعندما كان يتحدث إليه ساخرا كان يقلد لهجته ويبالغ في كيفية نطقه الحروف و لم يكن مسلكه في أول الأمر يتعدى الغلظة المنفرة و لكنه عندما أكتشف أن فيليب لا يجيد العد والحساب بدأ يتلذذ بتحقيره و إذلاله، و اتسمت حينئذ هجماته عليه بالسخافة والخشونة، ولكنها كانت تجرح شعور فيليب ، وأراد أن يدفع عن نفسه غلو ذلك الرجل فأضفي على نفسه تعالي وكبرياء لم يكن يشعر بهما بحق. وقال تومسون عندما وصل فيليب إلى المكتب متأخرا ذات يوم لأن المحافظة السابقة على مواعيده لم تستمر طويلا:

– هل استحممت هذا الصباح ؟

فرد فيليب قائلا :

– نعم.. ألم تستحم أنت ؟

– لا.. إني لست من السادة المهذبين.. ولست إلا كاتبا ولا أستحم إلا في أمسيات السبت.

– أعتقد إذن أن هذا هو السبب في أنك تبدو سيىء الطبع أكثر من المعتاد يوم الاثنين.

– أتتنازل سيادتك وتقوم ببعض عمليات الجمع البسيطة اليوم ؟ أخشى أن يكون طلبي هذا مما يشق على رجل مهذب يعرف اللاتينية واليونانية ؟

– إن مجاولاتك للتهكم اليوم ليست ناجحة تماما.

ولكن فيليب لم يستطع حقا أن يخفي عن نفسه أن غيره من الكتبة خشني الطباع الذين لايتناولون إلا القليل من الأجر كانوا أكثر منه نفعا.. وحدث مرة أن نفد صبر السيد جودورثي فقال له:

– كان يجب أن تكون الآن أفضل بكثير مما أنت عليه فإنك لم تصل في النشاط إلى مرتبة صبي المكتب نفسه..

واستمع فيليب إلي هذا الحديث وهو عابس ، فلم يكن يحب أن يوجه أحد اللوم إليه ، لأنه كان يحس بالذل إذا ما كلفه السيد جودورثي بعمليات حسابية يبيضها ، ثم لا يرضى عن عمله فيوكله بعد ذلك إلى كاتب آخر ليعيده. وكان العمل في أول الأمر محتملا لجديته ولكنه ما لبث أن غدا باعثا على السأم وعندما أدرك فيليب أنه يعوزه الاستعداد له بدأ يبغضه وكثيرا ما كان يحدث في الوقت الذي يجب عليه فيه أن يؤدي عمله أن يخط بعض الرسوم على أوراق المكتب. فكان يرسم واتسون في جميع الأوضاع التي يمكن تصورها. وقد أعجب واتسون بموهبة فيليب هذه ، وخطر له أن يحمل هذه الرسوم معه إلى منزله. ففعل وعاد في اليوم التالي وهو يبلغ فيليب ثناء أفراد أسرته عليها. وقال لفيليب :

– ترى لماذا لم تصبح رساما ؟.. ولكن المشكلة هي أن تلك المهنة لا تدر الكثير من المال

وتصادف بعد ذلك بيومين أو ثلاثة إن كان السيد كارتر يتناول العشاء مع أسرة واتسو
فأطلعوه على الرسوم.. فبعث في صبيحة اليوم التالي يطلب فيليب. وقلما كان فيليب يرا
فوقف أمامه في شيء من الرهبة، وهنا قال السيد كارتر:

– انتبه إليَّ أيها الشاب.. إني لا أعبأ بما تفعل في غير أوقات العمل، ولكني رأيت هذ
الرسوم التي رسمتها ووجدتها على أوراق خاصة بالمكتب، وقد أبلغني السيد جودورثي أنا
كسول متراخ. ولن تكون محاسبا مؤهلا إذا لم تكن نشيطا. والمحاسبة مهنة طيبة ونحن
نحاول أن نضم إليها فئة من أفضل الرجال.

وراح الرجل يبحث عن الكلمات التي يختتم بها عبارته. ولكنه لم يستطع أن يعبر بالضب
عما يريده فأنهى حديثه في هدوء نوعا ما قائلا:

– مهنة يجب أن تبدو فيها نشيطا..

وربما بدا لفيليب أن يستقر في عمله هذا لولا ما اشترط في الاتفاق من أنه يستطي
ترك عمله بعد عام إذا لم يلق العمل قبولا منه ،ويسترد في هذه الحال نصف ما دفع
من المال نظير تدريبه وشعر أنه ربما لا يصلح لأن يكون شيئا آخر خيرا من إنسا
يجمع الأرقام ، وأن من الحقارة أن يؤدى عملا يبدو بهذا السخف. وكانت تل
المشاحنات المبتذلة التي تجرى بينه وبين تومسون تثير أعصابه. وفي شهر مارس
أنهى واتسون عامه في المكتب، وشعر فيليب بالأسف لفراقه وإن لم يكن يعبأ به كثير
وكان مما يؤلف بينهما أن غيرهما من الكتبة كانوا يشعرون بكراهية نحوهما وأنهم
ينتميان إلى طبقة أعلى قليلا من طبقتهم. وحينما فكر فيليب في أن عليه أن يقض
أكثر من أربع سنوات أخرى مع هذه الجماعة الكئيبة غاص قلبه بين جنبيه. ذلك أن
كان يتوقع أن يرى ما يروعه ويعجبه، ولكنه لم يجد شيئا من ذلك في لندن. فما لب
أن كرهها ولم يكن يعرف إنسانا فيها ولم يجد سبيلا إلى معرفة إنسان ما. وقد أعيا
الذهاب إلى كل مكان بمفرده. وشعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل مثل هذه الحياة أكثر مم
احتمل. وكان إذا ما استلقى على فراشه ليلا يبتهج إذا ما فكر في عدم العودة إلى رؤي
حجرة المكتب الغبراء أو أي إنسان فيها والفرار من ذلك المسكن القذر.

وأصابت فيليب خيبة أمل كبيرة في ربيع ذلك العام، فقد قال صديقه هايوارد إنه ينو
المجيء إلى لندن لقضاء الربيع فيها ، وكان فيليب ينتظر رؤيته على أحر من الجمر، فق
قرأ كثيرا في الفترة الأخيرة وامتلأ رأسه بكثير من الأفكار التي كان يريد مناقشتها مع
ولم يكن يعرف أحدا يعنى بمثل هذه الأشياء المجردة. وما كان أشد ابتهاجه حين فكر ف
أنه سيتحدث مع إنسان آخر، ولهذا شعر بخيبة أمل شديدة عندما كتب له هايوارد يقول أن
لم يعرف في إيطاليا ربيعا أجمل من هذا الربيع، وأنه لا يستطيع أن ينتزع نفسه منه ، ث

راح يسأل فيليب عن سبب عدم مجيئه إليها، وعما يعود عليه من قضاء أجمل أيام الشباب في مكتب مع أن العالم بهيج جميل من حوله؟ ومضى الخطاب يقول:

« إني لأعجب كيف يمكنك أن تتحمل ذلك. فأنا كلما فكرت الآن في شارع فليت وفندق لينكولن أصابتني رجفة من الاشمئزاز. ذلك أنه ليس في العالم إلا أمران خليقان بأن يحيا المرء من أجلهما، هما الحب والفن. ولا أستطيع أن أتخيلك جالسا إلى مكتب وأمامك دفتر من دفاتر الحسابات. ترى هل ترتدى قبعة عالية وتحمل مظلة وحقيبة سوداء؟ إن شعوري هو أن المرء يجب أن ينظر إلى الحياة كأنها مغامرة وعلى المرء أن يمتلئ قلبه بوهج الذي يشبه وهج الدرة ، كما أن عليه أن يغامر ويعرض نفسه للأخطار. لم لا ترحل إلى باريس وتدرس الفن هناك؟ لطالما ظننت أنك فنان موهوب».

جاء هذا الاقتراح عندما كان فيليب تراوده فكرة غامضة بالذهاب إلى باريس لقضاء بعض الوقت فيها وأذهله الأمر في البداية ولكنه لم يستطع أن يكف عن التفكير فيه. وكان يجد في هذا التفكير الدائم المهرب الوحيد من تعاسته. إن الذين يعرفونه كلهم يرون أنه موهوب. ففي هايدلبرج أعجبوا برسومه المائية، وما أكثر ما قالت له الآنسة ويلكنسون مرات ومرات أن هذه الرسوم ساحرة ، وحتى الغرباء من أمثال واتسون قد أخذوا برسومه. لقد خلف كتاب «حياة البوهيمية»، في نفسه أثرا عميقا، وقد اصطحب الكتاب معه إلى لندن، وكان إذا شعر بالاكتئاب يلجأ إلى قراءة بعض الصفحات فيه فتنقله إلى تلك الحجرات الساحرة التي يغنى فيها «رودلف» وصحبه والآخرون ويرقصون ويحبون وعندئذ راح يفكر في باريس كما فكر في لندن من قبل ولكنه لم يخش في هذه المرة أن تخيب فيها آماله مرة أخرى، فقد كان يصبو إلى الخيال والحب والجمال ، وخيل إليه أن باريس تعطيه كل هذا.. ثم أنه مولع بالتصوير فلم لا يرسم ببراعة كما يرسم أي إنسان آخر ؟ فكتب إلى الآنسة ويلكنسون يسألها كم تعتقد يكفيه للعيش في باريس فأبلغته أنه يمكنه أن يدبر أموره في يسر بثمانين جنيها في العام. ووافقت على مشروعه هذا في حماسة كبيرة وقالت أنه شخص ممتاز لايستحق أن يقضي حياته بين جدران مكتب . وسألته بطريقة مثيرة : من الذي يرضى بأن يكون كاتب حسابات وأمامه المجال لكي يصبح فنانا عظيما ؟ وألحت عليه أن يثق في نفسه وقالت : إن هذا أعظم شيء. ولكن فيليب كان حذرا بطبعه. لقد كان مناسبا لهايوارد أن يتحدث عن حياة المغامرة فقد كان لديه ثلاثمائة جنيه كل عام من سندات مضمونة الأرباح ومن الدرجة الأولى ، أما ثروة فيليب بأجمعها فلم تكن تتجاوز ألفا وثمانمائة من الجنيهات. ولهذا تردد طويلا.

ثم حدث أن سأله السيد جوردوثى فجأة في أحد الأيام ما إذا كان يريد الذهاب إلى باريس. ذلك أن المكتب يقوم بمراجعة حسابات فندق في «نوربورج سانت أونوريه» الذي كانت تملكه شركة إنجليزية. وكان السيد جودورثى يذهب إلى هناك مرتين كل عام بصحبة

أحد الكتبة. وحدث أن مرض الكاتب الذي اعتاد أن يصحبه ، وحالت كثرة العمل دون ذهاب واحد من الكتبة الآخرين ، وقد فكر السيد جودورثى في فيليب لأن المكتب يمكن أن يستغني عنه أكثر مما يستغني عن غيره ولأن مؤهلاته تخول له بعض الحق في وظيفة تعتبر إحدى مباهج العمل. وسر فيليب كثيرا من هذا العرض وقال السيد جودورثى:

– ستضطر إلى أن تعمل طول اليوم ، ولكن أمسياتنا ستكون ملكا لنا ، وباريس هي باريس كما تعلم..وابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور ومضى يقول :

– إنهم يخدموننا خدمة حسنة في الفندق ، ويقدمون إلينا جميع وجباتنا، ولذلك فنحن لن نتكلف شيئا مطلقا.. وهذه هي الطريقة التي أحب بها الذهاب إلى باريس.. على حساب الأخري.

وعندما وصلا إليس كاليهس ، ورأى فيليب ذلك الجمع من الحمالين كثيري الحركة قفز قلبه وحدث نفسه قائلا :

– هذه هي الحياة حقا.

وأصبح كله عيونا تحملق عندما تحرك بهما القطار مخترقا تلك البلاد وامتلأت نفسه بحب كثبان الرمال وبدا لونها أحب إلى نفسه من كل ما رآه في حياته، وقد أخذت بلبه القنوات الطويلة والصفوف الطوال من أشجار الحور، وعندما خرجا من محطة «الشمال» وراحا يتجولان في الشوارع المرصوفة في عربة مخلعة مزعجة الصوت وبدا له كأنه يتنفس عبير هواء جديد أسكره ، لم يستطيع أن يمنع نفسه عن الإعراب عن إعجابه بصوت عال.

وعندما وصلا إلى باب الفندق قابلهما مديره ، وهو رجل بدين لطيف حدثهما بلغة إنجليزية مقبولة، وكان السيد جودورثى صديقا له قديما فحياهما الرجل في بشاشة دون تحفظ في إبداء عواطفه. وتناولا الغداء في غرفته الخاصة ومعهم زوجه. وبدا لفيليب أنه لم يذق قبل ذلك طعاما في لذة تلك الشريحة من لحم البقر بالبطاطس ولم يشرب أبدا مشروبا كالنبيذ العادي الذي وضع أمامه.

وكانت العاصمة الفرنسية في نظر السيد جودورثى، رب البيت ذو المبادئ السامية ، جنة الفحش البهيج وسأل مدير الفندق في اليوم التالي هل ثمة شيء دسم يمكن أن يراه هو وصاحبه، وكان السيد جودورثى يستمتع تماما بزياراته هذه لباريس ويقول أنها تحفظ المرء من الصدأ ولما انتهيا من عملهما في المساء وتناولا عشاءهما اصطحب السيد جودورثى فيليب إلى ملهي المولان روج ثم إلى ملهي الفولي بيرجير ولمعت عيناه وكست وجهه ابتسامة شهوانية ماكرة حين أخذ يفكر في كل ما هو إباحي وقصد كل الأماكن التي أعدت خاصة للأجانب ثم قال بعد ذلك أنه لا خير في أمة تسمح بمثل هذه الأشياء. وكان يلكز فيليب كلما رأي في بعض هذه الأماكن امرأة تبدو في ملابسها شبه عارية وكلما سارت عاهرة ممشوقة القوام في الصالة أشار إليها. وكانت باريس المبتذلة هي التي اطلع السيد جودورثى فيليب عليها. ولكن فيليب رأي باريس بعيون أعماها

الخداع فكان في الصباح يندفع خارجا من الفندق ليذهب إلى الشانزلزيه ويقف في ميدان الكونكورد كان ذلك في شهر يونيو والهواء عليل رقيق وشعر فيليب بقلبه يندفع خارجا نحو الناس، وهنا أعتقد أنه وجد الغرام في آخر الأمر.

وقضي الإثنان الأسبوع هناك وغادرا باريس يوم الأحد وعندما وصل فيليب إلى حجرته القذرة في بارنز في ساعة متأخرة من الليل، كان قد اتخذ قراره. فسوف يسلم ما لديه من أعمال ويذهب إلى باريس ليدرس فيها الفن ، ولكنه قرر كذلك أن يبقي في المكتب حتى نهاية العام كيلا يظن أحد أنه طائش فسيطلب أجازته السنوية في النصف الثاني من شهر أغسطس وسيبلغ هيربرت كارتر عندما يهم بمغادرة المكتب أنه لا ينوي العودة. وأخذ فيليب يرغم نفسه علي الذهاب إلى المكتب كل يوم إلا أنه لم يستطع حتى التظاهر بأنه يهتم بعمله. فقد كان فكره مشغولا بالمستقبل. ولم يكن لديه بعد أن انتصف شهر يولية الكثير من العمل فكان يكثر من ترك مكتبه مدعيا أنه ذاهب لتلقي المحاضرات استعدادا لامتحانه الأول. وكان يقضي الوقت الذي يحصل عليه بهذه الطريقة في المعرض القومي للصور. واستغرق في قراءة كتب رسكن وقرأ ما كتبه فاساري عن حياة الفنانين وأعجبته قصة الفنان كوريجيو وتخيل نفسه، وهو يقف أمام إحدى لوحاته صائحا متعجبا. وما لبث أن زال عنه تردده، واقتنع بأنه تكمن فيه كل المواهب الكفيلة بأن تخلق منه فنانا عظيما، وحدث نفسه قائلا: علي أية حال ليس عليَّ إلا أن أحاول.. ذلك أن أعظم شيء في الحياة هو المغامرة والمخاطرة.

وأخيرا حل منتصف شهر أغسطس ، وكان السيد كارتر يقضي شهرا في اسكتلندا وكان رئيس الكتاب يتولي إدارة المكتب ، وكان السيد جودورثي يبدو كأنه قد أنس إلى فيليب منذ رحلتهما معا إلى باريس والآن وقد عرف فيليب أنه سيترك العمل عما قليل ارتأى أنه يستطيع أن يعامل هذا الرجل الصغير في سماحة وقال له السيد جودورثي في المساء :

–إنك ستبدأ إجازتك غدا يا كارى.

وكان فيليب قد ظل طوال هذا اليوم يردد في نفسه أن تلك هي المرة الأخيرة التي يجلس فيها في هذه الحجرة القذرة.وقال:

–نعم.. إن هذه هي نهاية العام بالنسبة لي.

–أخشى أن أبلغك أن السيد كارتر غير راض عنك علي الإطلاق فإنك لم تكن مجيدا في عملك.

ورد فيليب عليه في مرح قائلا:

–إن عدم رضاء السيد كارتر عني لا يقل من عدم رضائي أنا عنه.

–أعتقد أنك يجب ألا تتكلم كذلك يا كارى.

–إني لن أعود إلى المكتب مرة أخرى.. فقد دبرت أموري بحيث يرد إلى السيد كارتر نصف النقود التي دفعتها في فترة تعليمي في نهاية العام إذا لم أجد إلي المحاسبات ميلا.

–يجب ألا تتسرع في اتخاذ هذا القرار.

–لقد كنت أكره كل شيء طوال الأشهر العشرة الماضية لقد كرهت العمل والمكتب ، وكرهت لندن وإني لأفضل أن أكنس معابر الطرق علي أن أقضي أيامي هنا..

–لابد لي أن أقول إذن أن المحاسبات عمل لا يناسبك.

وبسط فيليب يده إليه ثم قال :

–وداعا.. أريد أن أشكرك علي حسن معاملتك لي وإذا كنت قد أثرت أي متاعب فإني آسف لهذا فقد أدركت منذ البداية أني لا يرجى من ورائي خيرا.

–وليكن.. إذا كنت تصر حقا علي أن يكون هذا وداعك لنا.. ولست أعرف ماذا ستفعل ولكن إذا وجدت نفسك بجوارنا أحيانا فتعال في أي وقت لرؤيتنا.

وضحك فيليب ضحكة صغيرة وقال:

–أخشى أن يكون ما سأقوله وقح للغاية.. ولكن الذي أرجوه من أعماق قلبي هو ألا تقع عيناي علي أحدكم مرة أخري.

ولم يرض قس بلاكستابل مطلقا عن ذلك المشروع الذي عرضه فيليب فقد كان يري أن المرء يجب أن يتمسك بأي شيء يبدأ فيه مهما كان ذلك الشيء وكان ككل الضعاف من الرجال يولي أهمية قصوى لعدم تغيير المرء لرأيه.

وقال السيد كارى:

لقد اخترت أن تكون محاسبا بنفسك وبمحض إرادتك.

–لم أخترها إلا لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لكي أذهب إلى المدينة.. أما الآن فإني أمقت لندن وأمقت العمل ولن يضطرني شيء إلى العودة إليه وروع السيد كارى وزوجته حقا لفكرة فيليب بأن يصبح رساما وقالا له أنه يجب ألا ينسي أن والديه كانا من علية القوم وسادتهم وأن الرسم ليس بالمهنة الجدية ، فهو عمل بوهيمي خليع فاسد ثم باريس!!

وقال القس في حزم:

–إذا كان لي رأي أبديه في هذا الشأن فإني لن أسمح لك بالإقامة في باريس إنها بؤرة للفسق.. والفجور فيها عرضت المرأة الفاسقة والأخرى القادمة من بابليون فسقهما ولم تكن أقبح المدن تزيد عليها في شرها.

ومضي القس يقول :

–لقد نشأت نشأة رجل مسيحي مهذب وأني لأكون خائنا للأمانة التي عهد بها إلى أبيك وأمك المتوفيين إذا سمحت لك بأن تعرض نفسك لهذا الإغراء.

فرد عليه فيليب قائلا:

– وليكن..إني أعرف أني لست مسيحيا.. وقد بدأت أشك الآن في أني رجل مهذب.

واشتدت حدة النزاع. وكان قد بقي عام واحد لكي يحصل فيليب علي ميراثه الصغير، واقترح السيد كاري أن يعطيه في ذلك الوقت مخصصا شهريا من حسابه إذا استمر في عمله بالمكتب. وكان واضحا لفيليب أنه إذا شاء ألا يستمر في عمل المحاسبات هذا فيجب أن يتركه في الوقت الذي يستطيع فيه أن يحصل فيه علي نصف المبلغ الذي دفع في العقد الذى وقع مع المكتب ولكن القس صم أذنيه عن سماع طلبه ففقد فيليب صوابه وراح يقول كل ما هو مثير وجارح للشعور.

وكان مما قاله:

-ليس من حقك أن تبذر مالي إنه مالي أنا قبل كل شيء.. وأنا لست طفلا.. ولن تستطيع أن تحول بيني وبين الذهاب إلى باريس إذا أصررت أنا علي الذهاب إليها.. ولن تستطيع أن تضطرني للعودة إلى لندن.

فأجاب القس قائلا:

-كل ما أستطيع أن أفعله هو ألا أعطيك النقود إلا إذا فعلت ما أعتقد أنه صحيح..

-وهو كذلك.. إني لا أعبأ بما تقول لقد صممت علي الذهاب إلى باريس. وسأبيع ملابسي وكتبي وجواهر والدي.

وجلست العمة لويزا في صمت تعيسة قلقة، لقد رأت أن فيليب قد خرج عن طوره وذهب عنه عقله وأن أي شيء تقوله لن يكون له من أثر إلا زيادة غضبه.

وأخير قال القس أنه لا يريد أن يسمع المزيد عن ذلك الموضوع، وغادر الحجرة في اعتزاز. ولم يوجه أي منهما هو أو فيليب أية كلمة إلى الآخر طوال الأيام الثلاثة التالية. وكتب فيليب إلي هايوارد يطلب منه معلومات عن باريس، وقرر السفر بمجرد أن يصل إليه رد هايوارد. وراحت السيدة كارى تفكر في المسألة بلا انقطاع وأحست أن الكره الذي يضمره فيليب لزوجها قد شملها كذلك. وآلمها هذا كثيرا، فقد كانت تحب فيليب من كل قلبها. وأخيرا كلمته واستمعت إليه في انتباه وهو يفضي إليها بكل ما خيب أمله في لندن، وعن أمله العظيم في المستقبل.

وقال فيليب :

-قد أكون غير ذي نفع.. ولكن اتركوا لي الفرصة لكي أحاول علي الأقل.. فلن أكون أكثر فشلا مما كنت في ذلك المكتب الحيواني.. وإني أشعر أني قادر علي أن أصبح رساما.. فأنا أعرف أن لدي هذه الموهبة في أعماقي.

ولم تكن السيدة كارى واثقة بقدر ما يثق زوجها، إنهما أصابا بمعارضة رغبة فيليب الجامحة في أن يجرب حظه في الرسم فقد قرأت عن كبار الرسامين الذين حققوا شهرة وكان آباؤهم يعارضون رغباتهم في الدراسة، وقد تبين فيما بعد أن هذه حماقة، ومهما يكن من شيء فإن في وسع الرسام أن يحيا حياة فاضلة ترضي الله كما يحياها محاسب قانوني. وقالت لفيليب في عطف ظاهر:

-ما أشد ما أنا خائفة من ذهابك إلى باريس.. ولن يخامرني هذا الخوف كله إذا درست في لندن.

-إذا كنت سأدرس الرسم فيجب أن أدرسه بدقة وعناية وفي باريس وحدها يتلقى المرء هذا الفن علي أصوله.

واستجابت السيدة كارى لاقتراح أبداه فيليب فكتبت إلى المحامي تقول له أن فيليب غير راض عن عمله في لندن وسألته رأيه في تغيير هذا العمل.

ورد السيد نيكسون المحامي قائلا:

عزيزتي السيدة كارى:

لقد رأيت السيد هيربرت كارتر وأخشي أن أبلغك أن فيليب لم يكن مجيدا في عمله كما كان يرجى منه وربما كان من الخير أن ينتهز الفرصة التي لديه الآن لكي يقطع فترة تعليمه إذا كان شديد البغض لهذا العمل، وأنا بطبيعة الحال شديد الاستياء لهذا وهم يقولون كما تعرفين «في وسعك أن تقود الحصان إلى النهر ولكن ليس في وسعك أن تجعله يشرب!».

وعرض الخطاب علي القس، ولكن ذلك لم يفلح إلا في زيادة عناده. لقد كان علي استعداد لأن يلتحق فيليب بمهنة أخرى يختارها لنفسه، واقترح مهنة والده وهي الطب، ولكنه لم يوافق أبدا على أن يدفع لفيليب شيئا من المال إذا ذهب إلى باريس وقال:

-إن ذلك مجرد عذر للانغماس في اللذات والشهوات البهيمية.

فرد فيليب في مرارة قائلا:

- يسرني أن أسمعك تلوم غيرك علي الانغماس في اللذات والشهوات.

وما لبث أن تسلم فيليب الرد علي خطابه من هايوارد وقد ذكر له فيه اسم أحد الفنادق حيث يمكنه أن يحصل علي حجرة بثلاثين فرنكا في الشهر. وأرفق بالخطاب توصية إلى مديرة إحدى المدارس، وقرأ فيليب الخطاب علي السيدة كارى وقال لها إنه سيسافر في أول سبتمبر.

فقالت:

-ولكنك ليس لديك أية نقود..

-سأذهب إلي تير كانبرى بعد ظهر اليوم لأبيع المجوهرات.

وكان فيليب قد ورث عن أبيه ساعة وسلسلة ذهبيتين وخاتمين أو ثلاثة خواتم ودبوسين منهما واحد ذو لؤلؤة وبعض أزرار للقمصان ومشبكين قد تباع بمبلغ كبير.. وقالت زوج عمه لويزا:

-شتان ما بين ما يساويه الشيء وما يباع به.

وابتسم فيليب فقد كانت هذه إحدى عبارات عمه المحفوظة وقال:

-إني أعلم ذلك ولكني أعتقد أني سأحصل منها جميعا علي مائة من الجنيهات في أسوأ الأحوال وسيكفيني هذا المبلغ حتى أبلغ الواحدة والعشرين.

ولم تجب السيدة كارى ولكنها صعدت إلى الطابق العلوي ، وارتدت قبعتها السو
الصغيرة وذهبت إلى المصرف وعادت بعد ساعة. وذهبت إلى فيليب الذي كان يقرأ في حج
الجلوس وناولته مظروفا.

وسألها قائلا:

–ما هذا؟ فأجابت وهي تبتسم علي استحياء:

–هدية صغيرة لك.

فتح فيليب المظروف ورأى بداخله عشر ورقات من فئة الخمسة الجنيهات وكيسا صغ
من الورق منتفخا بالجنيهات الذهبية وقالت له:

–أنا لا أحتمل أن تبيع مجوهرات والدك. وهذه هي النقود التي كنت أحتفظ بها
المصرف تعادل مائة جنيه تقريبا.

واحمر وجه فيليب وامتلأت عيناه فجأة بالدموع لسبب لا يعرفه.

–أوه عمتي العزيزة.. إني لا أستطيع أن آخذها إن هذا جميل كبير منك ولكني لا أستط
أن آخذها.

وكان منشأ المال أنه لما تزوجت السيدة كارى كان لديها ثلاثمائة جنيه، وقد حر
كثيرا علي هذه النقود وخصصتها للأحداث الطارئة أو لابتياع هدايا عيد الميلاد لزو
ولفيليب.. ونقص المال علي مر الزمن نقصا كبيرا ولكن ذلك كان بالنسبة للقس موض
للتفكه، فكان يتحدث عن زوجه كأنها امرأة موثرة وراح يتندر باستمرار علي المال ال
يدخر للطوارئ ، وقالت العمة لويزا:

–أرجوك أن تأخذها يا فيليب ويؤسفني أني كنت مبذرة فلم يتبق لي إلا هذا المبلغ
ولكنك إذا أخذته فسوف تسعدني كثيرا.

–ولكنك ستحتاجين إليه.

–لا أعتقد..إني لن أحتاج إليه فقد كنت أحتفظ به حتى إذا ما فارق عمك الحياة قبلي
احتفاظي بشيء يمكنني الحصول عليه عندما أريد سيكون ذا نفع لي، ولكني لا أعتق
سأعيش كثيرا بعد الآن.

–آه لا تقولي ذلك يا زوجة عمي العزيزة. لماذا ؟ إنك بالطبع ستعيشين إلى الأبد
لايمكنني الاستغناء عنك بحال من الأحوال.

–أوه.. إني لست آسفة.

وتهدج صوتها وأخفت عينيها عن فيليب، ولكنها لم تلبث أن جففت دموعها وابت
لفيليب في شجاعة وقالت:

–لقد كنت في أول الأمر أدعو الله ألا أفارق الحياة قبل عمك لأني لا أريده أن يبقي و
حتى لا يقاسي العذاب كله وحده، ولكني عرفت الآن أن الأمر لا يعنيه كثيرا مثل
يعنيني.إنه يريد أن يعيش أكثر مني ولم أكن أبدا الزوجة التي كان يريدها وربما تزوج

مرة ثانية إذا حدث لي شيء، ولذلك أريد أن أفارق الحياة قبله ولست أظنك تعتقد أن هذه أنانية مني يا فيليب؟ ولكني لا أستطيع أن أحتمل رحيله هو قبلي.

وقبل فيليب وجنتيها المجعدتين الهزيلتين ولم يدر لماذا بعث فيه هذا الحب الغامر شعورا بالخجل الغريب، ولم يستطع أن يفهم لماذا تهتم برجل عديم المبالاة وأناني لايعنيه إلا نفسه ، يطلق العنان لرغباته. وراوده ظن خفي أنها تعلم يقينا أنه أناني عديم المبالاة، ولكنها بالرغم من ذلك تحبه في دعة. وقالت في رقة وهي تربت علي يده بلطف:

–إنك ستأخذ النقود يا فيليب، وأنا أعلم أنه يمكنك أن تستغني عنها، ولكنك إذا أخذتها فإن ذلك سيسرني كثيرا، فطالما أردت أن أفعل لك شيئا، وأنت تعلم أنه لم يكن لي ولد أبدا وقد أحببتك كما أحب ولدي، وعندما كنت صبيا صغيرا كنت أتمني أن تمرض لكي أسهر عليك ليل نهار، وإن كنت أعلم أن هذا أمر قبيح مني ولكنك لم تمرض إلا مرة واحدة وكنت حينئذ بالمدرسة. إني أتمني أن أساعدك من كل قلبي، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي أتيحت لي وربما لن تنساني في يوم من الأيام عندما تصبح فنانا عظيما، بل ستذكر أني أنا التي دفعتك الدفعة الأولى.

فرد عليها قائلا:

–إن هذا فضل منك عظيم وإني لجد شاكر لك كرمك.

ولاحت الابتسامة في عينيها المتعبتين، وكانت ابتسامة تنم عن السعادة الخالصة وقالت:

–إني في غاية السرور.

ومضت أيام قلائل ذهبت السيدة كارى بعدها إلى المحطة لتودع فيليب ووقفت إلى جانب باب العربة تحاول أن تكبت دموعها. وكان فيليب قلقا واعتمل في نفسه شوقا شديدا إلى الرحيل.. وقالت له زوج عمه :

–قبلني مرة أخرى يا فيليب.

ومال من النافذة وقبلها. وتحرك القطار ووقفت هي علي الرصيف الخشبي للمحطة الصغيرة، ولوحت له بمنديلها حتى اختفي القطار عن الأنظار. وكان قلبها مثقلا بالهم إلى أقصي حد وبدت المسافة بينها وبين منزل القس في غاية الطول. وراحت تفكر في إصرار فيليب على الرحيل وتقول في نفسها إن ذلك أمر طبيعي، فإنه ما زال صبيا والمستقبل يومئ له بكل شيء ، أما هي.. وعضت على نواجزها حتى تمنع نفسها عن البكاء.. وأخذت تدعو الله سرا أن يحفظه ويبعده عن مواطن الإغراء ويمنحه الحظ والسعادة.

ولكن فيليب كف عن التفكير فيها بعد لحظة قصيرة من جلوسه في عربة القطار وراح يفكر في المستقبل لا غير. لقد كتب إلى السيدة أوتر التي تجمع الاشتراكات من طلبة المدرسة التي بعث إليه هايوارد يعرفه بها وكان في جيبه دعوة لتناول الشاي في اليوم التالي. وعندما وصل إلى باريس وضع متاعه في عربة وراح يسير بها الهوينى في الشوارع المرحة

فسار بها فوق الجسر وعبر شوارع الحي اللاتيني الضيقة وكان قد استأجر غرفة في فندق المدرستين الذي يقع في شارع غير راق بالقرب من ميدان المونبارناس. وكان مكان الفندق مناسبا لأنه يقع قرب مدرسة أميترانو التي سيلتحق بها. وحمل أحد الخدم حقيبته وصع بها خمسة أدوار وقاد فيليب إلى حجرة صغيرة جدا كان هواؤها فاسدا بسبب إغلاق نوافذه وشغل السرير الخشبي مساحة كبيرة منها وكان عليه غطاء من القماش الأحمر، وقد أسدل على النوافذ ستائر ثقيلة من القماش نفسه الذي بدا عليه الغبار.. وقد استغل صوان الملابس لوضع أدوات الغسيل، وكان هناك صوان آخر ضخم للملابس من طراز «لويس فيليب». أ الورق الذي كسيت به جدران الغرفة فقد حال لونه لقدمه فبدا رماديا داكنا تستطيع أن تم فيه بصعوبة رسومات لأزهار ذات أوراق بنية اللون وبدت الحجرة في عيني فيليب ساح فريدة في نوعها. وكان فيليب قلقا إلى حد لم يتمكن معه من النوم رغم تأخر الوقت ، فخر واخترق الميدان متجها إلى الأنوار. وقاده هذا الطريق إلى المحطة وبدا الميدان أمامه واض بمصابيحه القوية وضوضاء عربات الترام الصفراء وقد بدت له أنها تعبره من جم الاتجاهات. وضحك فيليب من فرط السرور.. والتفت المقاهي حول الميدان. وأراد أن يرو ظمأه وشغفه لرؤية الجمهور عن قرب فاختار نضدا صغيرا خارج مقهى فيرساى وجلس إل وكانت الموائد الأخرى مشغولة لأن الليل كان ساحرا، وراح فيليب ينظر في فضول إلى النا فهاهنا أسر وهناك جماعات من الرجال الملتحين وضعوا على رؤوسهم قبعات غريبة الش وراحوا يتحدثون في صوت مرتفع مصحوب بإشارات من أيديهم.. وجلس إلى جواره رجلا بدا عليهما أنهما رسامان وبصحبتهما امرأتان تمنى فيليب ألا تكون زوجتيهما الشرعيت وسمع من خلفه أمريكيين يتكلمون في الفن بصوت عال. واهتزت نفس فيليب طربا و جالسا بحاله هذه إلى ساعة متأخرة جدا حتى شعر بالتعب ولكنه لم يستطع التحرك من فر السرور. وعندما آوى إلى فراشه أخيرا كان النعاس قد طار من عينيه ووصلت إلى سم ضوضاء باريس المختلطة.

وفي اليوم التالي وفي موعد تناول الشاي شق فيليب طريقه إلي سليون دى بيلفور وفي شارع جديد يؤدى إلى ميدان «راسبيل» عثر على السيدة أوتر. كانت امرأة غير ذات ش في الثلاثين من عمرها، عليها سمات القرويات تسلك في تعمد سلوكا كسلوك السيد المهذبات.وقدمته إلى والدتها ، وسرعان ما علم فيليب أنها درست في باريس لمدة ثلا سنوات ، ثم افترقت عن زوجها أخيرا. وكانت لديها في غرفة استقبالها الصغيرة لوحة لوحتان رسمتهما بنفسها. ورأى فيليب الذي لم يكن خبير الفن بعد أن اللوحات في غاية الإتقان. وقال لها :

–ترى هل أستطيع في يوم ما أن أرسم مثل هذا الرسم..؟

–وأجابته في شئ من الزهو والرضا عن نفسها :

–أتوقع هذا ولكنك لا تتوقع أن تفعل كل شئ دفعة واحدة بطبيعة الحال.

وكانت السيدة أوتر لطيفة للغاية فأعطته عنوان متجر يستطيع أن يبتاع منه حقي كاملة تحوي أدوات الرسم أوراق وأصابع فحم ، وقالت :

–سأكون في مدرسة أميترانو في حوالي التاسعة من صباح غد. فإذا رأيتك هنا فسأساعدك في الحصول على مكان جيد وكل شئ من هذا القبيل.

وسألته ماذا يريد أن يفعل ، وشعر فيليب أنه لا يجب أن يجعلها تري أن لديه غموضا في يتعلق بكل شيء في هذا الشأن.

قال :

– أولا أريد أن أتعلم كيف أرسم.

– أنا سعيدة لأن أسمعك تقول ذلك. فالناس دائما يريدون أن يفعلوا ما يريدون بسر غريبة ، فأنا لم أرسم بألوان الزيت إلا بعد أن أمضيت هنا سنتين. وانظر إلى النتيجة.

وألقت نظرة خاطفة للوحة والدتها ، لوحة بغيضة كانت معلقة فوق البيانو. وقالت :

– لو كنت مكانك لالتزمت الحذر الشديد مع الناس الذين ستعرفهم ، فيستحسن ألا تختل بأي أجانب. أنا شخصيا حريصة جدا.

وشكرها فيليب على نصائحها ، ولكنه رأي أنها نصائح شاذة بعض الشيء. فلم يك يعرف أنه لا بد أن يكون حريصا بصفة خاصة.

وقالت والدة السيدة أوتر التي لم تكن قد تكلمت بعد :

– إننا نعيش وكأننا نعيش في انجلترا. وعندما جئنا هنا أحضرنا معنا كل أثاثنا.

نظر فيليب حوله في الحجرة. كانت مملوءة بقطع أثاث ضخمة وعلي النافذة رأي نف الستائر البيضاء المزينة بشرائط من حرير مثل التي كانت في بيت عمه القس. وكان البيا أيضا مغطي بقماش من حرير وكذلك رف المدفأة. وتتبعت السيدة أوتر نظراته التي كا تتجول في الغرفة. وقالت السيدة أوتر:

– في المساء عندما نغلق شباك النافذة نشعر تماما كأننا في انجلترا.

وقالت والدتها :

– ونتناول طعامنا وكأننا في موطننا. إفطار يضم اللحم في الصباح وغداء في منتص اليوم.

وبعد أن ترك السيدة أوتر ذهب لشراء أدوات الرسم. وفي صبيحة اليوم التالي عندما دق الساعة التاسعة ، قدم نفسه إلى المدرسة وحده ليثبت ثقته بنفسه ، ولكن السيدة أوتر كا قد سبقته إليها فتقدمت نحوه في ابتسامة ودية ، لقد كان قلقا من ناحية الاستقبال الذ سيلاقيه لأنه قرأ كثيرا عن المزاح الخشن الذي يتعرض له الجدد من الطلبة في بعض مدار الرسم ولكن السيدة أوتر طمأنته وقالت له :

–لا يوجد هنا شئ من هذا القبيل ، فأنت ترى أن نصف طلبتنا من السيدات وهن يضف جوا خاصا على المكان. وكان المرسم متسعا عاريا ذا جدران رمادية علقت عليها لوح

– غير أن الفكرة هي أن كل المدارس رديئة ، فدراستها أكاديمية وليست عملية. وه
المدرسة لماذا هي أقل ضررا من معظم الأخريات.. لأن التدريس فيها أقل كفاءة عنه في
مكان آخر. فأنت لا تتعلم شيئا.

وقاطعه فيليب قائلا :

– ولكن لماذا تأتي إلى هذه المدرسة إذن ؟

– إني أرى طريق الصواب ولكني لا أتبعه. إن الآنسة بريس ، وهي آنسة مثقفة سوف تتـ
كيف يقال هذا الكلام باللاتينية.

وقالت الآنسة بريس بفظاظة :

– أود لو تتركوني بعيدة عن محادثاتكم يا سيد كلاتون.

واستطرد كلاتون يقول « إن الطريقة الوحيدة لتتعلم كيف ترسم هو أن تستأجر مرسـ
ونموذجا ثم تكافح في الطريق بنفسك».

قال فيليب :

–هذا أمر بسيط جدا.

ورد كلاتون قائلا:

وكل ما تحتاج إليه هو المال.

وبدا يرسم بالألوان. ورمقه فيليب بجنب عينه فرآه شخصا نحيفا إلى درجة غير عاد
يخيل إليك أن عظامه الضخمة تبرز من جسمه وكان مرفقاه حادين كأنهما يبرزان
سترته الرثة. وكان سرواله قد تآكل من عند القدمين ، وكان على كل نعل من نعليه ر
سمجة ونهضت الآنسة بريس وذهبت إلى حامل فيليب ثم قالت:

–إذا أمسك السيد كلاتون عن الكلام لحظة استطعت أن أساعدك قليلا.

وقال كلاتون وهو ينظر إلى قماش رسمه ويتأمله مفكرا فيه:

–إن الآنسة بريس لتبغضني لما أمتاز به من روح مرحة ولكنها تمقتني أشد المقت
لدى من عبقرية.

قال ذلك في جد وقد جعل أنفه الهائل حديثه هذا ظريفا وهو يتأنق في ألفاظه للغا
فاضطر فيليب أن يضحك ولكن الآنسة بريس تميزت غضبا وقالت :

–إنك الشخص الوحيد الذي اتهمك بالعبقرية.

–وإني كذلك الشخص الوحيد الذي يرى أن رأيك أقل الآراء قيمة بالنسبة لي.

وبدأت الآنسة بريس توجه النقد إلى رسم فيليب وراحت تتحدث بطلاقة عن التشر
وتكوين الجسم والمستويات والخطوط وعن أشياء كثيرة أخرى لم يفهمها فيليب ، ذلك أنـ
قضت فترة طويلة في مدرسة أميترانو وعرفت النقط الرئيسية التي يهتم بها أساتذة الفـ
وكان في وسعها أن توضح لفيليب أخطاءه ولكنها لم تستطع أن ترشده إلى إصلاحها. وقـ
فيليب :

–إنه لكرم شديد منك أن تولى عملي هذا الاهتمام كله.

فأجابته على استحياء غير ظريف:

–إني لم أفعل شيئا يستحق الشكر. لقد فعل غيري هذا إلى عندما أتيت هنا لأول مرة.. وأنا على استعداد لأن أفعل هذا لأي إنسان.

وهنا قال كلاتون:

–إن الآنسة بريس تريد أن تقول أنها تتفضل عليك بمعلوماتها أداء للواجب فقط لا افتتانا بشخصك.

ورمقته الآنسة بريس بنظرة مملوءة بالغضب وعادت إلى رسمها. ودقت الساعة الثانية عشرة فترجلت النموذج عن المنصة ونزلت وهى تصيح صيحة الارتياح وجمعت الآنسة بريس أدواتها ثم قالت لفيليب وهى ترمق كلاتون بنظرة من عينيها:

–إن بعضنا يذهب إلى مطعم جرافير لتناول الغذاء، أما أنا فأذهب دائما إلى المنزل.

وقال كلاتون لفيليب :

–سأصحبك إلى جرافيير إذا شئت.

وشكره فيليب، واستعد لصحبته. وسألته السيدة أوتر وهو في طريقه إلى الخارج عما فعل قائلة :

–هل ساعدتك فانى بريس؟.. فلقد وضعتك هناك لأني أعلم أنها تستطيع أن تعاونك إذا أردت ذلك، إنها ليست بالفتاة المقبولة لما لها من مزاج حاد ، وهى لا تستطيع أن ترسم على الإطلاق ولكنها تستطيع أن تبصرك بمواطن الزلل وفي استطاعتها كذلك إفادة الجدد إذا اهتمت بهم.

حدثه كلاتون وهما في طريقهما إلى الشارع :

–لقد أحدثت أثرا في نفس فانى بريس فخير لك أن تلزم جانب الحذر.

وضحك فيليب لأنه لم يكن أقل رغبة من أن يترك أثرا في إنسان خاصة في فانى بريس. ووصلا إلى المطعم الصغير الرخيص الذي كان عدد كبير من الطلبة يتناولون الطعام فيه وقصد كلاتون إلى مائدة كان قد جلس إليها من قبل أربعة رجال.. وحصلوا مقابل فرنك واحد على طبق من اللحم وبيضة وجبنا وزجاجة صغيرة من النبيذ. أما القهوة فكانت مجانا. وكانت المائدة التي جلسوا إليها على طوار الشارع وراحت عربات الترام الصفراء تخترق الميدان أمامهم رائحة غادية تدق أجراسها التي لا تنقطع وعندما اتخذا مجلسيهما قال كلاتون محدثا فيليب:

–وبهذه المناسبة.. ما اسمك؟

–كاري

وقال كلاتون في لهجة جادة:

الطلاب التي فازت بجوائز ، وجلست فتاة كنموذج للرسم على أحد المقاعد وقد ألقى علي
دثار واسع.. وانتشر في المكان حول اثنتي عشر شخصا بعضهم رجال والبعض نسا
بعضهم يتكلمون والآخرون ما زالوا منكبين على لوحاتهم.. وكانت هذه فترة الراحة الأو
للنموذج.. وقالت له السيدة أوتر :

–من الخير لك ألا تحاول رسم شئ صعب في البداية ، ضع حامل الرسم هنا فستجد أ
هذا هو أسهل وضع.

ووضع فيليب الحامل حيث أشارت ، ثم قدمته السيدة أوتر إلي سيدة صغيرة السن كان
تجلس بجانبه.

السيد كارى.. الآنسة بريس.. السيد كارى لم يدرس الرسم أبدا من قبل فهل تمانعين
مساعدته قليلا في البداية ؟

ثم وجهت كلامها إلى النموذج وقالت بالفرنسية :

–عودي إلى جلستك.

وألقت النموذج بصحيفة بيتى ريبابليك «الجمهورية الصغيرة» التي كانت تقرأها جان
وطرحت عباءتها جانبا ثم صعدت إلى المنصة. ووقفت متجهة إليهم على قدميها وقد شبك
يديها خلف رأسها. وقالت الآنسة بريس :

–إن هذا وضع سخيف لا أستطيع أن أتصور كيف انتقوه.

وكان الموجودون في المرسم قد نظروا إلى فيليب عند دخوله بشيء من عدم الاهتم
وكذلك ألقت عليه النموذج نظرة خاطفة بلا مبالاة. ثم ما لبثوا أن كفوا عن الاهتمام به ور
فيليب يحملق في سذاجة في النموذج وأمامه ورقة الرسم . ولم يعرف كيف يبدأ ذلك أنه
يكن قد رأى في حياته من قبل امرأة عارية ، ولم تكن المرأة صغيرة السن وكان ثدياه
منكمشين وكانت عديمة اللون شعرها أشقر ينساب في غير انتظام فوق جبهتها ، وألقي نظ
خاطفة إلى عمل الآنسة بريس ، كانت منهمكة في الرسم بحماس رزين ، وكان حاجباه
منعقدين من شدة اللهفة وكانت في عينيها نظرة قلقة ، كان الجو حارا في المرسم وظهر
على جبهتها نقط من العرق. كانت فتاة في الحادية والعشرين من عمرها ذات شعر لو
ذهبي باهت ؛ ولكنه شعر جميل ولكنه لم يكن قد سوي بعناية قد كان مسحوبا من مقدم
الرأس ومعقوصا بسرعة في عقدة خلف رأسها كان وجهها كبيرا وعريضا ومعالمها مسطح
وعيناها صغيرتين وكانت بشرتها شاحبة غير صحية وقد اختفي اللون من وجنتيها وعمو
لم يكن المرء يمنع نفسه من أن يشعر أنها تنام في ملابسها التي تخرج بها. لقد كانت جا
وصامته وعندما بدأ الوضع الثاني للنموذج تراجعت إلى الخلف وراحت تنظر إلى ما رسمته
ثم قالت :

– لماذا أولي المسألة اهتماما زائدا عن الحد، ولكن كل ما أريده هو أن أرسم رسم
صحيحا. والتفتت إلى فيليب واستطردت تقول «وكيف حالك أنت» ؟

ورد بابتسامة قائلا :

– لا شيء.

ونظرت إلى ما رسمه فيليب ثم قالت :

– لا يمكن أن تتوقع أن تنجز شيئا بهذه الطريقة فيجب أن تضع المقاييس وأن تقسم ورقتك إلى مربعات.

وبينت له بسرعة كيف يبدأ في عمله. وقد تأثر فيليب بإخلاصها ولكنه نفر من افتقارها إلى الجمال. كان ممتنا للملاحظات التي أبدتها له وبدأ في الرسم مرة أخرى. وفي تلك الأثناء كان طلبة آخرون قد جاءوا إلى الفصل ومعظمهم من الرجال لأن السيدات كن يصلن أولا وكان المرسم في ذلك الوقت من السنة (كانت السنة في بدايتها) مشغولا بالكامل تقريبا. والآن دخل شاب صغير شعره متباعد أسود وأنفه ضخم جدا ووجهه طويل يذكرك برأس الحصان. وجلس بجوار فيليب وأومأ برأسه عبارة إلى الآنسة بريس التي قالت له :

– لقد تأخرت كثيرا ، هل استيقظت من النوم توا.

– إنه يوم رائع. ظننت أن أرقد في الفراش وأفكر في روعة الجو في الخارج.

وابتسم فيليب غير أن الآنسة بريس أخذت الكلام علي محمل الجد.

– هذا شيء غريب فعلا.. أعتقد أنه من الأنسب في هذه الحالة أن تنهض من فراشك وتستمتع بالجو في الخارج.

وقال الرجل برزانة :

–إن طريقة الظرفاء صعبة جدا.

وبدا أنه غير ميال إلى العمل. ونظر إلى القماش الذي يرسم عليه. كان يرسم بالألوان وكان قد رسم مخططه للنموذج التي يرسمونها في اليوم السابق. واستدار إلى فيليب وقال له:

– هل جئت توا من انجلترا ؟

–نعم.

– وكيف عرفت مدرسة أميترانو ؟

– إنها المدرسة الوحيدة التي كنت أعرفها.

– آمل ألا تكون قد جئت ومعك فكرة أنك ستتعلم شيئا هنا سيكون ذا أقل فائدة لك.

وقالت الآنسة بريس :

– إنها أحسن مدرسة في باريس وهي المدرسة الوحيدة التي تأخذ الفن بجدية.

وسأل الشاب الصغير :

– وهل يجب أن يؤخذ الفن بجدية ؟

ولما ردت عليه الآنسة بريس بهزة استخفاف من كتفيها استطرد يقول :

– غير أن الفكرة هي أن كل المدارس رديئة ، فدراستها أكاديمية وليست عملية. و المدرسة لماذا هي أقل ضررا من معظم الأخريات.. لأن التدريس فيها أقل كفاءة عنه في مكان آخر. فأنت لا تتعلم شيئا..

وقاطعه فيليب قائلا :

– ولكن لماذا تأتي إلى هذه المدرسة إذن ؟

– إني أرى طريق الصواب ولكني لا أتبعه. إن الآنسة بريس ، وهي آنسة مثقفة سوف تت كيف يقال هذا الكلام باللاتينية.

وقالت الآنسة بريس بفظاظة :

– أود لو تتركوني بعيدة عن محادثاتكم يا سيد كلاتون.

واستطرد كلاتون يقول « إن الطريقة الوحيدة لتتعلم كيف ترسم هو أن تستأجر مرس ونموذجا ثم تكافح في الطريق بنفسك».

قال فيليب :

–هذا أمر بسيط جدا.

ورد كلاتون قائلا:

وكل ما تحتاج إليه هو المال.

وبدا يرسم بالألوان. ورمقه فيليب بجنب عينه فرآه شخصا نحيفا إلى درجة غير عا يخيل إليك أن عظامه الضخمة تبرز من جسمه وكان مرفقاه حادين كأنهما يبرزان سترته الرثة. وكان سرواله قد تآكل من عند القدمين ، وكان على كل نعل من نعليه ر سمجة ونهضت الآنسة بريس وذهبت إلى حامل فيليب ثم قالت:

–إذا أمسك السيد كلاتون عن الكلام لحظة استطعت أن أساعدك قليلا.

وقال كلاتون وهو ينظر إلى قماش رسمه ويتأمله مفكرا فيه:

–إن الآنسة بريس لتبغضني لما أمتاز به من روح مرحة ولكنها تمقتني أشد المقت لدى من عبقرية.

قال ذلك في جد وقد جعل أنفه الهائل حديثه هذا ظريفا وهو يتأنق في ألفاظه للغا فاضطر فيليب أن يضحك ولكن الآنسة بريس تميزت غضبا وقالت :

–إنك الشخص الوحيد الذي أتهمك بالعبقرية.

–وإني كذلك الشخص الوحيد الذي يرى أن رأيك أقل الآراء قيمة بالنسبة لي.

وبدأت الآنسة بريس توجه النقد إلى رسم فيليب وراحت تتحدث بطلاقة عن التش وتكوين الجسم والمستويات والخطوط وعن أشياء كثيرة أخرى لم يفهمها فيليب ، ذلك أ قضت فترة طويلة في مدرسة أميترانو وعرفت النقط الرئيسية التي يهتم بها أساتذة ال وكان في وسعها أن توضح لفيليب أخطاءه ولكنها لم تستطع أن ترشده إلى إصلاحها. وق فيليب :

–إنه لكرم شديد منك أن تولى عملي هذا الاهتمام كله.

فأجابته على استحياء غير ظريف:

–إني لم أفعل شيئا يستحق الشكر. لقد فعل غيري هذا إلى عندما أتيت هنا لأول مرة.. وأنا على استعداد لأن أفعل هذا لأي إنسان.

وهنا قال كلاتون:

–إن الآنسة بريس تريد أن تقول أنها تتفضل عليك بمعلوماتها أداء للواجب فقط لا افتتانا بشخصك.

ورمقته الآنسة بريس بنظرة مملوءة بالغضب وعادت إلى رسمها. ودقت الساعة الثانية عشرة فترجلت النموذج عن المنصة ونزلت وهى تصيح صيحة الارتياح وجمعت الآنسة بريس أدواتها ثم قالت لفيليب وهى ترمق كلاتون بنظرة من عينيها:

–إن بعضنا يذهب إلى مطعم جرافير لتناول الغذاء، أما أنا فأذهب دائما إلى المنزل.

وقال كلاتون لفيليب :

–سأصحبك إلى جرافيير إذا شئت.

وشكره فيليب، واستعد لصحبته. وسألته السيدة أوتر وهو في طريقه إلى الخارج عما فعل قائلة :

–هل ساعدتك فانى بريس؟.. فلقد وضعتك هناك لأني أعلم أنها تستطيع أن تعاونك إذا أردت ذلك، إنها ليست بالفتاة المقبولة لما لها من مزاج حاد ، وهى لا تستطيع أن ترسم على الإطلاق ولكنها تستطيع أن تبصرك بمواطن الزلل وفي استطاعتها كذلك إفادة الجدد إذا اهتمت بهم.

حدثه كلاتون وهما في طريقهما إلى الشارع :

–لقد أحدثت أثرا في نفس فانى بريس فخير لك أن تلزم جانب الحذر.

وضحك فيليب لأنه لم يكن أقل رغبة من أن يترك أثرا في إنسان خاصة في فانى بريس. ووصلا إلى المطعم الصغير الرخيص الذي كان عدد كبير من الطلبة يتناولون الطعام فيه وقصد كلاتون إلى مائدة كان قد جلس إليها من قبل أربعة رجال.. وحصلوا مقابل فرنك واحد على طبق من اللحم وبيضة وجبنا وزجاجة صغيرة من النبيذ. أما القهوة فكانت مجانا. وكانت المائدة التي جلسوا إليها على طوار الشارع وراحت عربات الترام الصفراء تخترق الميدان أمامهم رائحة غادية تدق أجراسها التي لا تنقطع وعندما اتخذا مجلسيهما قال كلاتون محدثا فيليب:

–وبهذه المناسبة.. ما اسمك؟

–كارى

وقال كلاتون في لهجة جادة:

-اسمحوا لي أن أقدم إليكم السيد كارى، وهو صديق قديم أمين.. السيد فلانجان، السيد لوسون.

وضحك الجميع ثم واصلوا حديثهم الذي تناولوا فيه آلاف الموضوعات. وكان الجميع يتكلمون في وقت واحد ، فلم يلق أي منهم أقل انتباه للآخر. تحدثوا عن الأماكن التي زاروها في فصل الصيف وعن المراسم والمدارس المختلفة وذكروا أسماء لم تكن مألوفة لفيليب.. مونى، رينوار، بيسارو، ديجا، واستمع فيليب إلى حديثهم بعناية وانتباه وأخذ قلبه يرقص طربا، وإن كان قد أحس أن الموضوع بعيد قليلا وانقضى الوقت بسرعة ونهض كلاتون وهو يقول:

-أعتقد أنكم ستجدونى هنا مساء إذا حرصتم على المجيء وستجدون أن هذا هو أفضل مكان في الحي يمكنكم أن تصابوا فيه بعسر الهضم بأرخص الأسعار.

• • •

سار فيليب في شارع مونبارناس. لم يكن الشارع مثل ما رآه في الربيع أثناء زيارته لعمل حسابات فندق سانت جورج – لقد فكر في هذا الفصل من حياته برجفة – غير أنه ذكره بفكرته التي كان قد كونها عن المدينة. كانت بها لمسة من التحرر ، واتساع مشمس يدعو الفكر إلى أحلام اليقظة. ترتيب الأشجار والبياض الناصع للبيوت واتساع الأماكن كلها أمور جميلة ، وأحس أنه فعلا في موطنه. وراح يمشي الهوينى ينظر إلى الناس ، ثمة أناقة تبدو على الجميع ، العمال بأحزمتهم الحمراء العريضة وسراويلهم الفضفاضة والجنود الصغار في زيهم الجميل. والآن وصل إلى ميدان الأوبزيرفاتوار وتنهد بسرور عندما رأي هذا المكان الرائع الجميل. ووصل إلى حدائق لوكسمبورج ، كان الأطفال يلعبون ، والمربيات يسرن ببطء كل اثنتين معا بشرائطهن الطويلة ، رجلان نشيطان يحملان حقائب كتب تحت إبطيهما. كان المنظر عاديا لذيذا ، كانت الطبيعة رتيبة ومنظمة ولكن بتأنق لدرجة أن الطبيعة غير المنظمة والمرتبة بدت وكأنها شيء همجي. وشعر فيليب بسرور غامر. وقد شعر بالسعادة لأنه يقف في البقعة التي قرأ عنها كثيرا : كانت أرضا كلاسيكية بالنسبة له.

وبينما هو يتجول تصادف أن رأي الآنسة بريس تجلس وحدها علي أحد المقاعد ، وتردد لأنه في تلك اللحظات لم يكن يريد أن يرى أحدا وكان أسلوبها الفظ لا يتناسب مع السعادة التي تحيط به. غير أنها لما كانت قد رأته رأي أنه من الأدب أن يتحدث إليها.

وقالت عندما اقترب منها :

– ماذا تفعل هنا ؟

-استمتع كما ترين.. هل تفعلين أنت ذلك أيضا ؟

-أوه. أنا أحضر هنا كل يوم من الساعة الرابعة حتى الخامسة. لا أعتقد أن الإنسان يعمل بشكل أفضل إذا استمر في العمل دائما.

– هل تسمحي لي أن أجلس دقيقة.

– إذا كنت تريد ذلك.

وقال ضاحكا :

– هذا كلام لا يبدو أنه ودي تماما ،

– أنا لست من الناس الذين يقولون كلاما جميلا.

استاء فيليب قليلا والتزم الصمت بينما راح يشعل لفافة من التبغ.

وسألته فجأة :

– هل قال كلاتون شيئا عن عملي. ؟

– لا.. لا أعتقد أنه قال شيئا.

– أتعلم ، أنه رجل لا ينفع في شيء أنه يعتقد أنه عبقري ولكنه ليس كذلك. إنه مجنون ، وهو من ناحية أخري كسول جدا. العبقرية هي القدرة غير المحدودة علي تحمل الألم. والطريقة الوحيدة هي الثبات. لو أن المرء يقرر بإصرار أن يفعل شيئا فإنه لا يسعه إلا أن يفعله.

كانت تتكلم بحماس عاطفي شديد وكان ذلك مدهشا. وكانت ترتدي قبعة بحار من القش الأسود وقميصا أبيض لم يكن نظيفا تماما وتنورة بيضاء. لم تكن ترتدي قفازا في يديها وكانت يداها في حاجة إلى الغسل. لم تكن جذابة علي الإطلاق حتى أن فيليب تمني ألا يكون قد بدأ الكلام معها على الإطلاق. ولم يعرف ما إذا كانت تريده أن يبقي أم يتركها. وقال فيليب :

– أشكرك شكرا جزيلا.

ثم في لحظة خاطفة قال :

– هل تتناولين الشاي معي في مكان ما ؟

نظرت إليه بسرعة واحمر وجهها. وعندئذ اكتسبت بشرتها ألوانا متعددة مثل الفراولة أو القشدة عندما تفسد.

–لا ، أشكرك. لماذا تعتقد أني أريد الشاي. لقد فرغت توا من تناول غدائي.

– أعتقد أننا بذلك سنمضي بعض الوقت.

– إذا كنت تري أن الوقت طويل فلا تشغل نفسك بي. فأنا لا يهمني أن أكون وحدي.

وفي هذه اللحظة مر رجلان في يرتديان قمصانا مخملية خضراء اللون وسراويل كبيرة فضفاضة وقبعات من قبعات الباسك. كانا شابين صغيرين غير أنهما كانا ملتحين.

وقال فيليب :

– معذرة ، هل هؤلاء من طلبة الفنون. ربما يكونان قدر خرجا من كتاب حياة البوهيمية
وردت الآنسة بريس باستهزاء :

– إنهما أمريكيان. فالفرنسيون لم يرتدوا مثل تلك الملابس منذ ثلاثين عاما ولكن الأمريكيين من الغرب الأمريكي يشترون هذه الملابس ويتصورون بها بعد أن يصلوا باريس بيوم واحد. وهذه هي صلتهم بالفن. ولكن الأمر لا يهمهم كثيرا فكلهم لديهم من المال ما يكفي.

أعجب فيليب بجرأة الأمريكيين وملابسهم التي اختاروها ورأي أنها تبين الروح الرومانسية. وسألته الآنسة بريس عن الوقت ، وقالت :

– يجب أن أمضي في طريقي إلى المرسم ، هل ستحظر حصص الرسم التخطيطي؟

لم يكن فيليب يعرف شيئا عن فصول الرسم التخطيطي (الاسكتشات)، وقالت له أنه من الخامسة حتى السادسة مساء كل يوم تجلس نموذج لرسمها علي أن يدفع من يرسمها خمسين سنتيم ، وهناك كل يوم نموذج مختلف وهذا تدريب رائع. ثم قالت له :

– لا أعتقد أنك يمكنك ذلك الآن ويستحسن أن تنتظر قليلا.

– لا أري لماذا لا أحاول فليس لدي ما أفعله.

ونهضا وسارا إلى المرسم.ولم يعرف فيليب من طريقة تصرفها هل تود أن يسير معها إلى المرسم أم تفضل أن تسير وحدها. وبقي سائرا معها تجنبا للحرج ولم يعرف كيف يتركها ، ولكنها لم تتفوه بكلمة واحدة : كانت ترد على أسئلته بطريقة غير مهذبة.

كان هناك رجل يقف عند باب المرسم يحمل طبقا صغيرا ليضع فيه من يدخل خمسين سنتيم. وكان المرسم أكثر ازدحاما مما كان في الصباح ولم تكن هناك كثرة من الإنجليز والأمريكيين ، ولم تكن حتى نسبة النساء كبيرة ، ورأي فيليب أن المجتمع في المرسم هو الذي توقعه. كان الجو شديد الحرارة وسرعان ما تحول الهواء إلى هواء نتن. كان النموذج هذه المرة رجلا عجوزا له لحية بيضاء كبيرة وحاول فيليب أن ينفذ المعلومات القليلة التي حصل عليها في الصباح ولكنه لم ينجح كثيرا وكانت النتيجة هزيلة وأدرك أنه لا يستطيع فعلا أن يرسم كما تصور. ونظر بسرعة وبحسد إلى رسم رجل أو اثنين كانا يجلسان بجواره وتعجب هل سيستطيع يوما أن يستخدم الفحم بهذه الأستاذية. ومرت الساعة بسرعة ولم يكن يريد أن يفرض نفسه على الآنسة بريس فجلس بعيدا عنها وفي النهاية عندما مر بها في طريقه وهو خارج سألته بجفاء عما فعل. فقال :

– ليس جيدا على الإطلاق.

– لو كنت تنازلت وجلست بجواري لكنت قد أعطيتك بعض التلميحات. أعتقد أنك ظننت نفسك عظيما جدا.

– أبدا ، الأمر ليس كذلك ، فقد كنت أخشى أن تعتقدين أني شخص مزعج.

– عندما أعتقد ذلك فسوف أقول لك بصراحة كافية.

رأي فيليب أنها تقدم له المساعدة بطريقتها غير المهذبة. وقال :

– وهو كذلك ، غدا سوف أفرض نفسي عليك ،

– لا بأس.

خرج فيليب وكان يسأل نفسه ماذا سيفعل حتى يحين وقت العشاء. كان يريد أن يفعل شيئا مميزا.الأبسينث (شراب مسكر) ! وهكذا سار الهوينى نحو المحطة وجلس خارج المقهى وطلب كأسا من الأبسينث. وشربه بنوع من الغثيان والرضا. وجد طعمه مثيرا للاشمئزاز غير أنه أثره النفسي رائع ، وشعر أن كل بوصة من جسمه هي طالب فن ، ولما كان قد احتسى الكأس على معدة فارغة فإن مزاجه تحسن جدا. شاهد الجماهير وشعر أن كل الرجال أخوة له. كان سعيدا. وعندما وصل إلى جرافيير كانت المنضدة التي جلس إليها كلاتون كاملة العدد ولكنه بمجرد أن رأي فيليب في مشيته العرجاء نادى عليه. وأوسعوا له مكانا. كان العشاء هزيلا : طبق من الحساء وطبق من اللحم وفاكهة وجبن ونصف زجاجة من النبيذ. ولكن فيليب لم يعر ما يأكله اهتماما. ولاحظ الرجال الذين جلسوا حول المنضدة، كان فلانجان هناك أيضا.: وهو أمريكي شاب قصير ومتعجرف وبوجه بشوش وفم مبتسم. يرتدي جاكيت من نورفولك ذات طراز غريب ويضع وشاحا أزرق حول عنقه وعلى رأسه قبعة شكلها خرافي. وفي ذلك الوقت كان المذهب الانطباعي سائدا في الحي اللاتيني غير أن انتصاره علي المذاهب الأقدم منه كان حديثا ووقف كارلوس –ديوران ، و بوجورو وأمثالهم في مواجهة مانيه ومونيه وديجا وكان الاحتفاظ بتقدير هؤلاء علامة من علامات الامتياز. وكان للرسام «ويسلر» تأثير قوي في إنجلترا وعلي معاصريه هناك ، وأصبح الأساتذة الفنانون القدامى يقيمون بمعايير جديدة. وأصبح الشباب الصغير يسخر من التقدير الذي ظل الرسام الكبير «رافائيل» يحتفظ به لمدة طويلة. وقالوا أنه على استعداد للاستغناء عن كل أعماله مقابل اللوحة التي رسمها فيلاسكويز وسماها رأس فيليب الرابع في المتحف الوطني. ووجد فيليب أن مناقشة الفن راحت تستند وتغلي. وقد جلس لوسون الذي قابله أثناء الغداء في مواجهته. كان لوسون شابا نحيفا بوجه مليء بالنمش وشعر أحمر وعينان خضراوان براقتان. وعندما جلس فيليب ركز عليه عينيه وقال فجأة :

– لقد كان رافائيل محتملا عندما كان يرسم صور أناس آخرين. فعندما رسم بيروجينو أو بينتوريكيوس كان ساحرا ! ولكن عندما رسم رافائيل كان – بهزة استخفاف من كتفيه – «رافائيل» كان لوسون يتكلم بطريقة عدوانية لدرجة أن فيليب دهش ولكنه لم يضطر للرد عليه لأن فلاناجان تدخل في الحوار بعد نفاد صبره.

– ليذهب الفن إلى الجحيم ! تصور نفسك في باريس ولا تتحدث عن شيء غير الفن طول الوقت – كان يتكلم بلكنة أمريكية غربية عريضة – الحياة جميلة ومن الجميل أن نكون أحياء وانتظر قليلا ثم ضرب المنضدة بقبضة يده وقال : لقد قلت فليذهب الفن إلى الجحيم.

وقال كلاتون بحدة : إنك لا تقول ذلك فقط بل تقوله بهياج متعب.

كان هناك أمريكي آخر يجلس إلى المنضدة. كانت ملابسه مثل ملابس أولئك الرفاق الذ
رآهم فيليب بعد ظهر ذلك اليوم في لوكسمبورج. كان له وجه رجل متقشف جميل ونحي
وعيناه زرقاوان. وكان شعره كثيفا أسود ينسدل دائما فوق عينيه وكانت أهم إيماءا
الكثيرة هي أن يدفع برأسه إلى الخلف حتى يبعد خصلة طويلة من الشعر سقطت أمام عين
وبدأ يتكلم عن لوحة «أوليمبيا» التي رسمها مانيه والتي كانت معروضة في ذلك الوقت
لوكسمبورج ، وقال :

– وقفت أمامها ساعة اليوم وأقول لكم أنها صورة رديئة.

وترك لوسون سكينه وشوكته. واشتعلت عيناه الزرقاوان بالنار ، وتنهد غضبا ولكنه كا
يفرض الهدوء على نفسه وقال :

– من اللطيف أن نستمع إلى ما يفكر فيه المتوحشون غير المتعلمين ، هل يمكن أن تق
لنا لماذا وجدت الصورة رديئة ؟

وقبل أن يرد الأمريكي دخل في الحوار بقوة شخص آخر.

– هل تريد أن تقول أنك يمكنك أن تنظر إلى رسم تلك البشرة وتقول أنه رسم رديء ؟

– أنا لا أقول هذا ولكني أعتقد أن الجزء الأيمن من الصدر مرسوم جيدا جدا.

وصاح لوسون قائلا :

– اللعنة علي الجزء الأيسر من الصدر.. إن اللوحة كلها معجزة في الرسم.

وراح يصف بالتفصيل جماليات اللوحة غير أنه علي تلك المائدة في جرافيير فإن الذ
يتكلمون بإسهاب يتكلمون لتثقيف أنفسهم ، ولم يستمع إليه أحد. وقاطعه الأمريكي
غضب.

– لعلك لا تريد أن تقول أنك تعتقد أن الرأس مرسوم جيدا ؟

وبدأ لوسون الآن ، وقد ابيض لونه من الحماس ، الدفاع عن الرأس ، غير أن كلاتون الذ
كان يجلس صامتا وعلى وجهه علامات سخرية طيبة انفجر قائلا :

– تفضلوا بإعطائه الرأس. فنحن لا نريد الرأس فإنها لا تؤثر في اللوحة.

وصاح لوسون قائلا :

– وهو كذلك ، سوف أعطيك الرأس ، خذ الرأس واذهب إلى الجحيم.

وصاح الأمريكي في لهجة انتصار وهو يدفع إلى الخلف خصلة من شعره سقطت عل
عينيه :

– وماذا عن ذلك الخط الأسود؟ أنت لا تري خطا أسود حول الأشياء في الطبيعة.

وقال لوسون :

– أوه ، يا إلهي ابعث بنار من الجحيم لتحرق الكافرين. ما علاقة الطبيعة بذلك ؟ لا أح
يعرف ما هو طبيعي وما هو ليس طبيعي ! إن العالم يري الطبيعة من خلال عيون الفنان
طيلة قرون رأي العالم الخيول تقفز سور ا وأطرافها كلها ممتدة وللحق يا سيدي أنها كذلك

وقد رأي العالم الظلال كلها سوداء حتى جاء مونيه واكتشف أنها ملونة وبالله يا سيدي إ
سوداء. فإذا اخترنا أن نحيط شيئا بخط أسود فإن العالم سوف يري الخط الأسود وسوف ير
هناك خط أسود ؛ وإذا رسمنا الأبقار زرقاء والحشائش حمراء فسوف يراها العالم زر
وحمراء.

وقال فلاناجان :

– فليذهب الفن إلى الجحيم..أنا أريد جيني.

ولم يأبه لوسون لمقاطعته وقال :

– اسمع.. عندما عرضت لوحة «أوليمبيا» في المعرض المسمي «الصالون» «قال»
بين استنكارات الناقدين والأكاديميين والجمهور « إني أنتظر اليوم الذي ستعرض فيه لو
مانيه في متحف اللوفر في مواجهة لوحة «إنجريس» المسماة «أوداليسك» ولن ت
«أوداليسك» هي المتفوقة بالمقارنة. سوف تكون «أوليمبيا» هناك وأنا أري الزمن يقت
ففي عشر سنوات سوف تعلق أوليمبيا علي جدران متحف اللوفر.

وصاح الأمريكي وهو يستخدم كلتا يديه لمنع شعره من السقوط علي عينيه :

– أبدا في عشر سنوات ستكون هذه اللوحة قد ماتت. إنها اليوم مجرد بدعة. لا يمكن للو
أن تعيش وهي تفتقر إلى شيء فات عليها بآلاف الأميال.

– وما هذا الشيء ؟

– الفن العظيم لا يمكن أن يوجد بدون أن يكون به عنصر أخلاقي.

وصاح لوسون في غضب قائلا :

– يا الله ! كنت أعرف هذا. إنه يريد الأخلاق.–وضم يديه ورفعهما إلي السماء في ت
واستطرد يقول –أوه يا كريستوفر كولومبوس ماذا فعلت عندما اكتشفت أمريكا ؟
راسكن..

ولكن قبل أن يضيف كلمة أخرى نقر كلاتون علي المائدة بيد السكين وقال في ص
صارم :

– أيها السادة ، لقد ذكر اسم هنا لم أفكر أبدا أن أسمعه في مجتمع محترم. إن حرية ال
شيء عظيم جدا ولكننا ينبغي أن نحترم حدود اللياقة العامة. يمكنكم أن تتكلموا عن ال
«بوجيرو» إذا أردتم : هناك تقزز مبهج في الصوت الذي يثير الضحك ولكن دعونا لا
أفواهنا الطاهرة بأسماء مثل «جون رسكن»، وسجي. إف واتس و«بي جونز».

وسأل فلاناجان :

– من هو راسكن هذا علي أي حال ؟

–كان أحد عظماء الرسامين في العصر الفيكتورى وهو أستاذ الأسلوب الإنجليزي.

وقال لوسون :

– أسلوب راسكن ، مزيج من الخيوط والرقع الأرجوانية. وإلى جانب هذا لعنة الله على الفيكتوريين القدماء. فكلما أفتح صحيفة وأري وفاة واحد من الفيكتوريين العظماء أشكر السماوات علي أن واحدا آخر منهم قد ذهب. فقد كانت موهبتهم الوحيدة هي أنهم كانوا يعمرون طويلا ، فالفنان لا ينبغي أن يعيش بعد الأربعين ؛ ففي ذلك الوقت يكون قد أعطي أحسن ما عنده وكل ما يفعله بعد ذلك هو التكرار. ألا تعتقدون أن من حظ شعراء وفنانين مثل كيتس وشيلي وبونينجتون وبايرون أنهم ماتوا مبكرا ؟ وأن الشاعر سوينبيرن لو مات في اليوم الذي نشرت فيه أول سلسلة من أشعاره لكانت النظرة إليه رأته على أنه عبقري عظيم.

ويبدو أن تلك الاقتراحات لاقت استحسانا فلم يكن أحد من الجالسين يتعدى الرابعة والعشرين من عمره وأيدوها بكل حماس. وكانت تلك المرة الوحيدة التي يتفقون فيها. وزادوا علي تلك الاقتراحات. فقد قال أحدهم أنه يجب أن يشعلوا النار في أعمال الأكاديميين الأربعين الذين يمكن أن يضم إليهم الفيكتوريين العظام وذلك في عيد مولدهم الأربعين. وقد قوبلت تلك الاقتراحات بحماس شديد وبالتصفيق. وقد اقترح أيضا أن تلقى في تلك النيران أعما ل الفيلسوف توماس كارليل ورسكن والشعراء تنيسون ، وبراونينج ، وواتس ، وبي جونز، والكتاب شارلز ديكنز ، وثاكرى وأعمال غيرهم كثيرين وكانت هناك مناقشة استغرقت دقيقة بشأن مصير أعمال جورج ميريديث غير أنه أعفي عن أعمال ماثيو آرنولد وأيمرسون. وأخيرا جاء والتر باتر.

وقال فيليب :

– لا ، ليس والتر باتر.

وحملق فيه لوسون بعينين خضراوين وأومأ برأسه ثم قال.

– أنت محق تماما فإن والتر باتر هو المبرر الوحيد لوجود المونا ليزا. هل تعرفون «كرونشو» قد كان يعرف والتر باتر.

وتساءل فيليب :

– من هو «كرونشو»؟

– كرونشو شاعر وهو يقيم هنا. دعونا نذهب إلى « ليلاس».

ليلاس كانت مقهى كثيرا ما كانوا يذهبون إليه بعد العشاء. وهناك كان يمكن العثور على كرونشو بين الساعة التاسعة مساء والثانية صباحا. غير أن فلاناجان كان قد اكتفى بالمناقشات الثقافية في ذلك المساء. واستدار لوسون إلى فيليب وقال :

– هيا بنا إلى حيث البنات. هيا بنا إلى «جيتيه مونبارنا» وسنقابل «جيني» هناك.

وضحك فيليب وقال :

– أفضل أن أذهب لرؤية «كرونشو» وأحتفظ بيقظتي وأظل غير ثمل.

● ● ●

حدث اضطراب عام. فقد ذهب فلاناجان واثنان أو ثلاثة إلى قاعة الموسيقى، بينما سار فيليب الهوينى مع كلاتون إلى ليلاس. وقال له لوسون :

– يجب أن تذهب إلى «جيتيه مونبارناس» إنها من أجمل الأشياء في باريس وسوف أرسمها في يوم من الأيام.

وكان فيليب بتأثير هايوارد عليه ينظر إلى قاعات الموسيقى بنوع من السخرية ، غير أنه وصل باريس في الوقت الذي اكتشفت فيه أكبر إمكانياتهم الفنية. فنون الإضاءة الغريبة ، وكتل الذهب الأحمر الداكن الذي دهن بحيث فقد لونه وثقل الظلال والخطوط الزخرفية كانت بمثابة أفكار جديدة ، وكانت نصف المراسم في الحي تحوي اسكتشات عن مسارح المدينة. أما الأدباء فقد حذوا حذو الرسامين حاولوا فجأة العثور علي قيمة فنية في تلك التحولات وحصل ممثلو الكوميديا على ترحاب رفعهم إلى السماء، أما المغنيات البدينات اللاتي كن يرفعن أصواتهن بالغناء وهن مغمورات طيلة عشرين عاما فقد اكتشف أنهن يمتلكن ملكات وإمكانيات فذة. وهناك أولئك الذين وجدوا مسرة جمالية في تدريب الكلاب بينما آخرون استنزفوا لغتهم لمدح وإطراء أعمال السحرة والمشعوذين. والجمهور أيضا ، تحت تأثير آخر أصبح موضع اهتمام عاطفي. ومع تأثير هايوارد عليه فقد ازدري فيليب الإنسانية كلها. واتخذ موقف من يحيط نفسه بالعزلة ويراقب في اشمئزاز تصرفات السوقة الغريبة : ولكن كلاتون ولوسون تكلما عن الجماهير بحماسة. ووصفا الزحام الشديد الذي ملأ شتي معارض باريس ، تدفق الوجوه التي لا تكاد ترى إلا نصفها بسبب وهج غاز الأسيتيلين المستخدم في اللحام وبسبب الظلام. ووصفا دوي الأبواق والصفارات التي تشبه أصواتها نعيق البوم ودندنة الأصوات. وكان ما قالاه جديدا وغريبا علي فيليب. وحدثوه عن كرونشو.

– هل قرأت أي من أعماله ؟

– أبدا.

– لقد كتبوا اسمه في الكتاب الأصفر.

لقد نظروا إليه كما ينظر الرسامون للكتاب ، نظرة احتقار لأنه كان رجلا عاديا ونظرة تسامح لأنه كان يمارس الفن ونظرة خشية لأنه يستخدم وسيلة لم يكونوا يرتاحون إليها.

– إنه رجل غير عادي ، وسوف تستاء منه في البداية. ولا يصبح في أحسن حال إلا بعد أن يسكر.

وقال كلاتون :

–والمزعج هو أنه لا يسكر إلا بعد وقت طويل جدا.

وعندما وصلا إلى المقهى قال لوسون لفيليب أنهما لا بد أن يدخلا المقهى. ولم يكن هواء الخريف يتحرك أي حركة ولكن كرونشو كان يخشى خشية الموت تيارات الهواء فكان يجلس حتى في أشد الأيام حرارة داخل المقهى.

وقال لوسون :

–إنه يعرف كل من يستحقون المعرفة. فقد عرف باتر ، وأوسكار وايلد ، ويعرف أ
مالارميه وكل هؤلاء الناس.

كان كرونشو يجلس منزويا في ركن بعيد عن تيارات الهواء تماما يرتدي سترته وياق مرفوعة إلى أعلى وقد ضغط قبعته علي رأسه حتى غطت جبهته حتى يتجنب اله البارد.كان رجلا ضخما تبدو عليه البدانة ولكنه ليس مترهلا وله وجه مستدير وشا صغير وعينان صغيرتان غبيتان. وكان حجم رأسه لا يناسب جسده فكانت تبدو مثل بازلاء وضعت فوق بيضة مسلوقة. كان يلعب الضامة مع رجل فرنسي، وحيا القاد بابتسامة هادئة ولم يتكلم. غير أنه وكأنه يفسح لهم مكانا دفع كومة أطباق الفناجين ب والتي تشير إلى عدد المشروبات التي شربها . وأومأ برأسه لفيليب عندما قدم إليه وم يلعب الضامة. كانت معرفة فيليب باللغة الفرنسية بسيطة ولكن كان ما يعرفه يكفي يعرف أن كرونشو يتكلم الفرنسية برداءة بالغة رغم أنه عاش في باريس.

وأخيرا مال إلى الوراء واستند إلى مقعده في وضع المنتصر. وقال بلهجة قبيحة :

– لقد هزمتك يا ولد.

ثم استدعي الساقي والتفت إلى فيليب وقال :

– هل جئت فورا من انجلترا ؟ هل رأيت أي مباريات للكريكيت ؟

وارتبك فيليب قليلا بسبب هذا السؤال المفاجئ. وقال لوسون مبتسما :

– كرونشو يعرف أكبر لا عبي الكريكيت خلال العشرين عاما الماضية.

وتركهم الفرنسي ليجلس مع أصدقاء له في منضدة أخرى ، وبدأ كرونشو بكلامه ال المعروف عنه والذي كان من صفاته الغريبة يتحدث عن الفارق بين لاعبي الكريكيت فريق كينت وفريق لانكشاير ووصف لهم آخر مباراة بينهما وقال :

– هذا هو الشيء الوحيد الذي أفتقده في باريس : الكريكيت ؛ وقال وهو يحتسي آخر ك قدمت إليه ، هنا لا تري أي كريكيت هنا.

خاب أمل فيليب ونفد صبر لوسون الذي كان يريد أن يقدم فيليب لأحد مشاهير ال استغرق كرونشو وقتا طويلا لكي يستيقظ ذلك المساء رغم أن كثرة الأطباق أمامه المنضدة تشير إلى أنه بذل محاولة مخلصة كي يسكر. راح كلاتون يراقب المنظر علي س التسلية . وخيل إليه أن هناك نوع من التظاهر والتصنع في كلام كرونشو التافه الكريكيت؛ إنه يحب أن يعذب الناس بالكلام عن أشياء من الواضح أنها تضجرهم. و كلاتون إليه بسؤال :

– هل رأيت مالارميه مؤخرا ؟

نظر إليه كرونشو ببطء وكأنه يفكر في السؤال وقبل أن يرد عليه راح ينقر علي المنض ذات السطح الرخامي بأحد الأطباق الصغيرة. ونادي الساقي قائلا :

– احضر لي زجاجة الويسكي الخاصة بي. ثم استدار إلى فيليب وقال :

– إني أحتفظ هنا بزجاجة ويسكي خاصة، فلا يمكنني أن أتحمل دفع خمسين سنتيم كل كأس ملء كستبان أشربه.

وأحضر الساقي الزجاجة ورفعها كرونشو في الضوء ليعرف محتواها.

– لقد شربوا منها.. ونادي الساقي قائلا «من الذي دعا نفسه للشرب من زجاجتي»

– ولكن لا أحد فعل ذلك يا سيد كرونشو.

– لقد وضعت علامة عليها ليلة أمس وانظر إليها الآن.

– سيدي لقد وضعت علامة : نعم ؛ ولكنك ظللت تشرب منها بعد ذلك وبهذه الطريقة سيدي يضيع وقته في وضع العلامات.

كان الساقي شخصا مرحا وكان يعرف كرونشو معرفة حميمة. وحدج فيه كرونشو و

– إذا أعطيتني كلمة شرف كرجل نبيل وجنتلمان بأن أحدا لم يشرب من زجاجتي فس أقبل كلامك.

وقد كانت هذه العبارة إذا ترجمت بدقة إلى الفرنسية تبدو غريبة جدا. وعندما سم السيدة التي تكتب الحسابات لم يسعها إلا أن تضحك بصوت عال وقالت إنه رجل مض فعلا. وقد سمعها كرونشو وهي تقول ذلك فنظر إليها نظرة خجولة – كانت امرأة بدينة وق في متوسط العمر – وقبل يده باحترام لها. فهزت كتفيها. وقال ببطء:

– لا تخش شيئا يا سيدتي فقد تجاوزت السن التي يغريني فيها الثناء والعرفان بالج

وصب لنفسه بعض الويسكي والماء واحتسى الكأس ببطء. ومسح فمه بظهر يده ، وق

–إنه يتكلم جيدا جدا.

عرف لوسون وكلاتون أن كرونشو كان يرد علي السؤال الذي وجه إليه عن ميلار وكان كرونشو كثيرا ما يذهب إلى اللقاءات التي تعقد في أمسيات الثلاثاء عندما كان الش ميلارميه يستقبل الأدباء والرسامين ويتكلم ببلاغة بارعة عن أي موضوع يثار. ويبدو كرونشو حضر أحد هذه الاجتماعات في الفترة الأخيرة.

– لقد تكلم ببراعة غير أنه تكلم كلاما فارغا. تكلم عن الفن وكأنه أهم شيء في العال

وسأل فيليب :

– إذا لم يكن الفن أهم شيء في العالم فلماذا نحن هنا إذن ؟

– لماذا أنت هنا ؟ أنا لا أعرف. وليس هذا من شأني. ولكن الفن نوع من الرفاهية. فالن تولي أهمية كبرى فقط للمحافظة على أنفسهم ونوعهم. وفقط عندما تشبع هذه الغ يوافقون علي أن يشغلوا أنفسهم بالتسلية التي يوفيها لهم الكتاب والرسامون والشعراء.

وتوقف كرونشو لحظة كي يحتسي كأسه. لقد راح طيلة عشرين عاما يفكر في مش الخمر وسواء كان يحبها لأنها تجعله يتكلم، أو ما إذا كان يحب الكلام والسمر لأنهما يجعا ظمئ للشرب. ثم قال :

– لقد كتبت قصيدة شعر أمس.

وبدون أن يطلب منه أحد أن يقرأها بدأ يقرأها ببطء شديد وهو يساير الإيقاع بإصبعه السبابة. وكانت على الأرجح قصيدة رائعة غير أنه في تلك اللحظة دخلت سيدة شابة كان شفتاها قرمزيتان، وكان من الواضح أن لون وجهها المفعم بالحيوية لم يكن نتيجة قسو الطبيعة ، فقد صبغت رموشها وحاجبيها بلون أسود وجفونها بلون أزرق قوي استمر بشك مثلث عند زوايا عينيها. كان كل شيء فيها رائع وغريب. واتجهت عينا فيليب ناحيتها تتأملها. وكان كرونشو قد فر غ من قراءة قصيدته فابتسم لفيليب وقال :

– أنت لم تسمع القصيدة.

– أبدا كنت أستمع إليك.

– أنا لا ألومك ، لأنك قدمت تصورا مناسبا للكلام الذي قلته أنا. ما هو الفن إذا قيس بجانب الحب. إني أحترم وأصفق لعدم مبالاتك بالشعر الرقيق عندما يمكنك أن تتأمل تلك البهرجة الساحرة لتلك الفتاة الشابة الصغيرة.

ومرت بجانب مائدتهم فأمسك بذراعها وقال :

– تعالي يا طفلتي العزيزة واجلسي إلى جانبي ودعينا نلعب كوميديا الحب الإلهية.

وقالت الفتاة :

–دعني وشأني. ودفعته جانبا وواصلت سيرها.

وواصل كلامه وهو يلوح بيده قائلا :

– الفن هو مجرد الملجأ الذي اخترعه أشخاص مبدعون بعد أن زودوا بالغذاء والنس للهروب من ملل الحياة.

وملأ كرانشو كأسه مرة أخرى وبدأ يسهب في الكلام. تكلم بتلقائية وكان يختار كلمات بدقة. وكان يخلط الحكمة بالكلام الفارغ بطريقة مذهلة وأحيانا يسخر من المستمعين إلى في رزانة وبعد ذلك يقدم إليهم نصيحة بالغة العمق. وتكلم عن الفن والأدب وعن والحب وكان أحيانا تقيا خاشعا وأحيانا فاسقا قذرا ، مرح أحيانا وكئيب أحيانا أخرى. وبدأ السـ يبدو عليه بشكل ملحوظ ثم بعد ذلك بدأ يتلو الشعر ، شعره هو وشعر ميلتون ، شعره هو و شعر شيللى ، ثم شعره هو وشعر كيت مارلو.

وأخيرا شعر لوسون بأنه مرهق فنهض ليعود إلى منزله. وقال فيليب :

–سأرحل أنا أيضا.

وبقي كلاتون الذي كان أكثرهم صمتا ليستمع وعلي شفتيه ابتسامة ساخرة لهذيا كرونشو ضحب لوسون فيليب إلى فندقه ثم تمني له نوما هانئا. ولكن فيليب لم يستطع ينام عندما آوي إلى فراشه. فقد كانت في ذهنه دوامة تلك الأفكار التي استمع إليها. وكا متوترا إلى حد كبير. وشعر أن لديه في أعماقه قوة كبيرة. فلم يشعر أبدا من قبل لهذه الثقة في نفسه. وحدث نفسه قائلا أنا أعرف أني سوف أكون فنانا عظيما. فأنا أشعر بذلك في

أعماقي. لقد كان في الواقع ثملا جدا ولكن بما أنه لم يشرب إلا زجاجة واحدة من الجعة فقد يكون مرجع ذلك الشعر إلى مسكر أكبر قوة من الكحول.

● ● ●

كان الأساتذة يقضون صباح الثلاثاء والجمعة في مدرسة أميترانو ليوجهوا النقد لأعمال الطلبة. والرسام في فرنسا لا يكسب من المال كثيرا إلا إذا رسم لوحات كبيرة وأعانه أحد الأمريكيين الأثرياء.. أما مشاهير الفنانين فكان يسرهم أن يقضوا ساعة أو ساعتين مرة كل أسبوع في أحد المراسم المتعددة التي يدرس فيها الفن.. وكانسمايكل رولانس يقصد مدرسة أميترانو يوم الثلاثاء. ورولان رجل ذو لحية بيضاء وبشرة متوردة، رسم من قبل كثيرا من الصور للدولة، ولكن هذه الصور كانت موضوعا للسخرية من جانب الطلبة الذين كانوا يعلمهم، وقد تتلمذ رولان على زانجرس ولم يكن يتأثر بتطور الفن ، وكان ثائرا لايطيق صبرا إلى أعمال من يسمونهم «مانيه» ولكنه كان مدرسا ممتازا، مهذبا، مشجعا لغيره ، يقدم العون لمن يريد هذا على حين كانسفوانيهس الذي يزور المدرسة أيام الجمعة رجلا لا تسهل صحبته ، ضئيل الجسم ضامرا ذا أسنان قبيحة المنظر وذا مزاج صفراوي، ولحية رمادية شعثاء وعينين وحشيتين،وصوت جهوري فيه رنة ساخرة، وقد اشترى منه متحف اللكسومبورج عددا من اللوحات ، وكان وهو في الخامسة والعشرين من عمره يتطلع إلى مستقبل باهر، ولكن موهبته كانت ترجع إلى شبابه لا إلى شخصيته. وقد ظل عشرين عاما بعد ذلك لا يفعل شيئا سوى تكرار صور المناظر الطبيعية التي كانت السبب في نجاحه المبكر، وعندما كانوا يلومونه على هذه الرتابة المملة كان يقول:

–إن كورو قد اقتصر على رسم شيء واحد فلماذا لا أفعل أنا بالمثل ؟

وكان يحسد أي شخص على نجاحه ويكره الفنانين الثائرين كراهية شخصية لأنه يرى أن فشله جاء نتيجة للهوس الذي أصاب الناس بعد أن سحرتهم أعمال هذه الحيوانات القذرة.. وكان الاحتقار الذي يكنه لهم مايكل رولان الذي كان يسميهم المدعين يقابله عنده القذف والسباب الذي كان أخفه أن يصفهم بالتعساء أو الغوغاء. وكان مما يسلي به نفسه أن يفضح حياتهم الخاصة في مزاح ساخر وتفاصيل بذيئة ملعونة يهاجم فيها شرعية مولدهم وطهارة الجنسية. ولم يخف احتقاره للطلبة الذين كان يختبر أعمالهم وكان أولئك يكرهونه ويخشونه.

أما النساء منهم فكان غالبا ما تبكيهن سخريته الوحشية. وكان ذلك يثير المزيد من تهكمه. وظل في المرسم غير عابئ باحتجاج الذين كانوا يعانون الأمرين من هجماته عليهم، لأنه لم يكن هناك شك في أن الرجل من أبرز الأساتذة في باريس. وكان النموذج العجوز– في بعض الأحيان – الذي يدير المدرسة يجرؤ على معارضته ولكن سرعان ما اختفت تلك المعارضات وآلت إلى اعتذارات خسيسة أمام وقاحة الرسام العنيفة.

وكان فوانيه أول من اتصل بهم فيليب من الأساتذة، فقد كان في المرسم عندما وصل إليه فيليب وراح ينتقل من لوحة إلى أخرى وإلى جانبه السيدة أوتر لتشرح ملاحظاته للطلبة الذين لا يفهمون اللغة الفرنسية. وكانت فانى بريس التي تجلس بجانب فيليب تعمل بهمة ونشاط وكانت ذات وجه عابس في عصبية، وكانت تتوقف عن العمل بين آونة وأخرى لتمسح يديها في ثوبها لما كان يبعثه القلق من حرارة فيهما. وقد التفتت فجأة إلى فيليب وحدجته بنظرة قلقة ، حاولت أن تخفيها بتقطيب جبينها، وقالت وهى تومئ برأسها إلى رسمها:

-أتظنه جيدا ؟

فنهض فيليب وتأمل الرسم ودهش أيما دهشة، فقد شعر أن فانى بريس لا بد أن تكون عمياء لا ترى ، فقد كان ما رسمته مشوها تشويها شديدا. وقال لها:

-أتمنى لو استطعت أن أرسم بنصف براعتك.

لا يمكنك أن تتوقع ذلك فقد جئت توا ، أما أنا فقد مضى على عامان هنا..

وقد أثارت فانى بريس حيرته، فقد كان غرورها شديدا إلى أبعد حد واكتشف فيليب أن كل من في المرسم كان يبغضها من صميم قلبه ولم يكن في ذلك ما يثير الاستغراب فقد كانت وكأنها تخرج عن السبيل السوي لتنال من شعور الناس وما لبثت أن قالت:

-لقد شكوت فوانيه إلى السيدة أوتر لأنه لم يطلع على رسمي طيلة الأسبوعين الماضيين لكنه يقضى نصف ساعة أمام لوحة السيدة أوتر لأنها مديرة المدرسة، وأنا أدفع من الأجر مثل ما يدفع أي شخص آخر وأظن أن نقودي مثل نقودهم، ولا أعلم إذن لماذا لا يوليني من الاهتمام ما يوليها لأي إنسان غيري.

وتناولت أصبع الفحم مرة أخرى ولكنها ما لبثت أن أعادته وهى تزمجر قائلة:

-إني لاأستطيع أن أرسم أكثر من ذلك الآن فأنا في حالة عصبية مفزعة ونظرت إلى فوانيه الذي كان قادما نحوهم بصحبة السيدة أوتر وكانت السيدة أوتر وديعة متوسطة الجسم راضية عن نفسها تتكلف العظمة. وجلس فوانيه أمام لوحة آنسة إنجليزية قصيرة القامة غير مهندمة، تسمى روث تشاليس ذات عينين سوداوين جميلتين فيهما فتور ولكنهما مفعمتان بالعاطفة، ووجه رفيع تلوح عليه إمارات الزهو والشهوانية، ولها بشرة كالعاج القديم.. وهو اللون الذي كانت الفتيات يتخذنه لأنفسهن في تشلزى بتأثير بيرن جونز.

وبدا فوانيه في حالة نفسية طيبة فلم يبد لها الكثير من الملاحظات ، ولكنه أوضح لها أخطاءها بلمسات سريعة من قلمها. وتألقت الآنسة تشاليس فرحا عندما نهض. ثم اتجه ناحية كلاتون وعندئذ ازداد اضطراب فيليب أيضا ولكن السيدة أوتر وعدته بأن تسهل الأمور عليه ، ووقف فوانيه لحظة أمام لوحة كلاتون وراح يقضم إبهامه في هدوء ثم بصم وهو ساهم على اللوحة بقطعة الجلد الصغيرة. وقال أخيرا وهو يشير بإبهامه إلى جزء أعجبه:

-هذا الخط جميل.. لقد بدأت الآن تتعلم الرسم.

ولم يجب كلاتون بشيء ، ولكنه نظر إلى الأستاذ بطريقته التهكمية المعتادة من عدم المبالاة بآراء العالم ومضى فوانيه يقول:

-لقد بدأت أعتقد أن لديك على الأقل قدرا من موهبة.

أما السيدة أوتر التي لم تكن تميل إلى كلاتون فقد زمت شفتيها لأنها لم تر شيئا غير عادى في رسمه.. وجلس فوانيه وأخذ يشرح تفصيلات فنية. وملت السيدة أوتر الوقوف. ولم يتفوه كلاتون بشيء ما ، بل كان يومئ برأسه من آن لآخر.. وشعر فوانيه بالرضا لأن كلاتون قد فهم جميع ملاحظاته وأسبابها.وكان معظم الطلبة ينصتون إليه ولكن الذي لا شك فيه أنهم لم يفهموا شيئا مما يقول.. ثم نهض فوانيه واتجه إلى فيليب، وأسرعت السيدة أوتر تقول له:

-لقد جاء هنا منذ يومين لا أكثر فهو مبتدئ ولم يسبق له أن درس من قبل. وقال الأستاذ:

-هذا واضح وأنا أستطيع أن أرى ذلك..

وهمست إليه السيدة أوتر وهو يمر بين الطلبة:

-وهذه هي الفتاة التي حدثتك عنها.

ونظر إليها فوانيه كأنه ينظر إلى حيوان كريه، وازداد صوته علوا وهو يخاطبها قائلا:

-يبدو أنك تعتقدين أني لا أوليك العناية الكافية.. فلقد شكوت إلى السيدة أوتر، وهو كذلك، أريني عملك الذي تريدين أن أوليه عنايتي.

وامتقع لون فانى بريس وبدا أن الدم الذي كان يجرى تحت جلدها السقيم أصبح ذا لون قرمزي غريب ، وأشارت دون أن ترد إلى رسمها الذي كانت تعمل فيه منذ بداية الأسبوع، واتخذ فوانيه مجلسه ثم قال لها:

-ماذا تريديني أن أقول لك؟ أتريدين أن أقول لك أن رسمك جميل؟ إنه ليس كذلك أتريدينى أن أقول لك إنك أحسنت ؟ ليس كذلك..أتريدين أن أقول أن فيه شيئا من المزايا؟ إنه ليس كذلك.. أتريدين أن أدلك على ما فيه من أخطاء؟ إنه كله خطأ.. أتريدين أن أقول لك ماذا تفعلين به؟ مزقيه من أوله لآخره.. هل أنت راضية الآن؟

وامتقع لون الآنسة بريس أشد الامتقاع. لقد ثارت ثائرتها لأنه قال كل هذا الكلام أمام السيدة أوتر ولم تستطع أن تتفوه بكلمتين مع أنه قد مضى عليها عامان في فرنسا وكانت تفهم الفرنسية.

وقالت الآنسة بريس :

-لا يحق له أن يعاملني هذه المعاملة.. إن نقودي مثل نقود غيري وأنا أدفعها له.. أدفع ليعلمني ، وهذا ليس تعليما.

وصاح فوانيه قائلا:

-ماذا تقول..؟ ماذا تقول؟

وترددت السيدة أوتر في ترجمة كلامها إلى الفرنسية. ولكن الآنسة بريس أعادت كلامها في فرنسية ممقوتة.

—إني أدفع لك المال لتعلمني.

وبرقت عيناه بوميض الغضب الجامح، ورفع عقيرته ثم لوح بقبضته قائلا:

—ولكني والله لا أستطيع أن أعلمك ، وأسهل لي أن أعلم جملا.

ثم التفت إلى السيدة أوتر وقال :

—سليها هل تفعل ذلك على سبيل التسلية، أم أنها تتوقع أن تكسب منه مالا.

وأجابت الآنسة بريس:

— سأكسب مالا بأن أكون فنانة.

—إذن فإن واجبي يقتضي مني أن أقول لك أنك تضيعين وقتك سدي. وليس المهم أ عديمة الموهبة الفنية.. فالمواهب لا تجرى في الشوارع في هذه الأيام ولكنك ليس لك أو مراحل الاستعداد.. كم من الوقت مضى عليك هنا؟ إن طفلا في الخامسة من عمره ليرسم خ منك بعد درسين اثنين. وكل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن تقلعي عن هذه المحاولة اليائ فمن الخير لك أن تكسبي عيشك من أي سبيل آخر غير الرسم تأملي هذا وأمسك بإصبع الف فتحطم عندما ضغط به على الورق فسب ولعن، ثم أخذ قطعة متبقية بين أصابعه وراح ير خطوطا جريئة رائعة ، وكان يرسم بسرعة ويتكلم في الوقت نفسه، ويقذف بالكلمات من في غل:

—انظري.. هاتين الذراعين ليستا متساويتين في الطول وهذه الركبة مضحكة ألم أقل أن طفلا في الخامسة.. هل رأيت أنها لا تقف على ساقيها وهذه القدم..

وكان القلم الغاضب يرسم خطا كلما نطق بكلمة، ولم تمض دقيقة واحدة حتى أصب اللوحة التي قضيت فيها وقتا طويلا وبذلت من العناء الكثير لرسمها ، مشوهة الم ومزيجا من البقع والخطوط. ثم قذف بإصبع الفحم ونهض واقفا وهو يقول:

—اقبلي نصيحتي يا آنسة ، جربي تفصيل الملابس.. ثم نظر إلى ساعته وصاح:

—الساعة الآن الثانية عشرة.. إلى اللقاء في الأسبوع القادم أيها السادة.

وجمعت الآنسة بريس أدواتها ببطء، وانتظر فيليب في مؤخرة الخارجين حتى يقول ما يهون عليها فلم يستطع أن يفكر في شيء إلا أن يقول:

—إني لجد آسف.. ياله من حيوان هذا الرجل.

والتفتت إليه في وحشية قائلة:

—أهذا ما كنت تنظر حتى تقوله؟ إني سأطلب عطفك عندما أريده.. أرجوك أن تبتعد طريقي..

وتخطته خارجة من صالة المرسم.. وهز فيليب كتفيه وخرج وهو يعرج قاصدا ج ليتناول الغداء.

وقال لوسون عندما أخبره فيليب بما حدث:

—إنها تستحق ذلك.. تلك القذرة الحادة المزاج.

ولم يجد فيليب العيش في باريس رخيصا كما أوحى إليه من قبل.. وما أن حل شهر فبراير حتى كان قد أنفق كل نقوده التي جاء بها معه.. وكان كبرياؤه يمنعه من أن يطلب من عمه شيئا.. ولم يشأ أن تعرف زوج عمه لويزا أن أحواله قد تأزمت لأنه كان واثقا أنها ستحاول أن تبعث له بشيء من أموالها الخاصة ، وكان يعلم أنها لا تملك إلا القليل ولم يتبق سوى ثلاثة شهور حتى يبلغ الحادية والعشرين من عمره، ثم يحصل بعد ذلك على ميراثه الصغير كله. وراح يدبر نفقات هذه الفترة بأن يبيع الحلي الصغيرة التي ورثها عن أبيه.

ولما قربت الأشهر الثلاثة على الانتهاء اقترح لوسون عليه أن يستأجر مرسما صغيرا في شقة كانت خالية في أحد الشوارع المتفرعة من ميدان راسبايل وكان إيجارها منخفضا، وكانت هناك حجرة ملحقة بالمرسم يمكن أن تستخدم للنوم وسينتفع لوسون بالمرسم في فترة الصباح وحده عندما يكون فيليب في المدرسة، وكان لوسون قد رأى بعد أن راح يتنقل من مدرسة إلى أخرى أن من الخير له أن يعمل بمفرده واقترح أن يأتي بنموذج لمدة ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع وتردد فيليب في البداية إزاء هذا الاقتراح لكثرة النفقات ولكنهما عندما قاما بعملية حسابية وجدا أن المصروفات لن تزيد على التي تتكلفها إقامتهم في أحد الفنادق. وقد عنيا بحساب النفقات عناية عملية لشدة رغبتهما في أن يكون لهما مرسما خاصا. وحين تبينا أن أجر البواب والتنظيف مضافا إلى الإيجار سيزيد على ذلك قليلا وجدا أنهما يستطيعان سد هذا النقص بالاقتصاد في إفطارهما وذلك بأن يعداه بنفسيهما. ولو حدث ذلك لفيليب منذ عام أو عامين لرفض تماما أن يشاركه أحد غرفته لأنه كان شديد الحساسية بالنسبة لقدمه الحنفاء، ولكن نظرته السقيمة إلي هذه المشكلة كانت قد أخذت تخف إلى حد كبير، وبدا أن هذا الأمر لم يكن يهمه كثيرا في باريس ، ولم يعد يشعر أن الناس يعيرونها انتباها وإن كان هو نفسه لم ينسها أبدا.

وانتقلا إلى المسكن الصغير وابتاعا سريرين ومغسلة وعددا من المقاعد وأحسا لأول مرة بلذة التملك. وقد استثارت هذه الحال شعورهما إلى حد أنهما عندما أويا إلى فراشهما في هذا المكان الذي كانا يستطيعان أن يسمياه مسكنهما، ظلا مستيقظين يتحدثان حتى الثالثة صباحا. ثم وجدا في اليوم التالي أن إيقاد النار وإعداد القهوة التي تناولاها وهما في مناميتهما كان عملا مسليا ، فلم يذهب فيليب إلى أميترانو حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة صباحا وأومأ وهو في غاية الابتهاج إلى فاني بريس محييا وقال لها في مرح:

—كيف حالك عملك ؟

فأجابته متسائلة:

—وماذا يهمك من ذلك ؟

ولم يسع فيليب إلا أن يضحك وقال:

—لا تصديني هكذا.. لقد كنت أحاول أن أحدثك في أدب ولا شيء أكثر من هذا.

—أنا لست في حاجة إلى أدبك.

-أتعتقدين أن الأمر يستحق أن تتشاجري معي.. إن عدد الذين تستطيعين أن تتحدثي إليهم حديث مودة قليلون جدا.

-إن هذا من شأني.. أليس كذلك.

-بكل تأكيد.

وبدا فيليب يعمل وهو يعجب لماذا تعمل فاني بريس على أن يبغضها من في المرسم. وأدرك أخيرا أنه لا يحبها على الإطلاق مثله في ذلك كمثل سائر كل الناس.. فلم يكن أحد يظهر لها الأدب إلا لخوفه من سلاطة لسانها ، فقد كانت تذكرهم بكل مكروه من أمامهم ومن خلفهم، ولكنه كان يحس بالسعادة إلى حد لم يشأ معه أن تحقد عليه الآنسة بريس نفسها ، واتبع معها الحيلة التي أجدت من قبل في إزالة غضبها. فقال لها:

-تأتين لتلقى نظرة على ما رسمت.. لقد خلطت فيه خلطا فظيعا..

-أشكرك كثيرا.. ولكن لدى ما هو أفضل من ذلك لقضاء وقتي وحملق فيليب فيها مندهشا، لأن الشيء الوحيد الذي كان يمكنها أن تفعله هو أن تنصح الآخرين. وراحت تقول في عجلة في صوت خفيض فيه وحشية:

-الآن وقد ذهب لوسون، أتعتقد أنك ستلجأ إلى.. أشكرك جدا. اذهب وابحث عن شخص آخر ليساعدك، فإني لا أريد بقايا أي إنسان آخر.

وكان لوسون يتصف بتلك الغريزة التعليمية، فكان إذا عرف شيئا تاق لأن يقوله للناس إذ كان يشعر بلذة حين يعلم الآخرين.

واعتاد فيليب أن يجلس إلى جانبه دون أن يفكر في هذا الأمر ولم يخطر بباله قط أن فاني بريس تأكل قلبها الغيرة منه. وكانت تنظر إلى قبوله تعليم شخص آخر غيرها في غضب شديد وقالت له مرة في حقد شديد:

– كان يسرك أن تلجأ إليّ في الوقت الذي لم تكن تعرف فيه أحدا هنا، ولكنك لم تكد تصادق إنسانا ما هنا حتى ألقيت بي بعيدا كأني قفاز قديم. (وأعادت هذا التشبيه القديم البالي وهى مغتبطة بقولها وكأني قفاز قديم) وهو كذلك فأنا لن أهتم بهذا، ولكنى لن أسمح لأحد أن يهزأ بي بعد ذلك.

وبدا من حديثها شبح للحقيقة أثار غضب فيليب فنطق بأول كلمات تبادرت إلى ذهنه:

-ويل لك ، أنا لم أسألك النصح إلا لأني رأيت أن هذا الأمر يسرك.

وشهقت فاني بريس شهقة ثم رمته بنظرة غضب وانسابت دمعتان على وجنتها.. بدت شعثاء تبعث على السخرية. وعاد فيليب إلى رسمه وهو لا يفهم معنى هذا التصرف الجديد من جانبها ولم يكن مرتاح البال حينئذ وأحس بوخز ضميره ولكنه لم يشأ أن يذهب ويعتذر إليها إذا كان قد سبب لها شيئا من الألم لأنه خشي أن تنتهز هذه الفرصة وتؤنبه وبعد أن تغلب على هذا القلق الذي سببه انتظار تأنيبها إياه شعر بالارتياح لتخلصه من تلك الصداقة المضنية. لقد استاء فيليب قليلا من جو السيطرة الذي كانت تفرضه عليه.

فقد كانت فاني بريس امرأة غريبة ليست ككل النساء.كانت تصل إلى المرسم في الثامنة من صباح كل يوم ، وتستعد لبدء العمل حين تتخذ النموذج المرأة وضعها ثم تعمل عملا متواصلا دون أن تتحدث إلى أحد، تكافح ساعة بعد أخرى مشكلات لم تكن لتستطيع التغلب عليها وتظل هكذا حتى تدق الساعة الثانية عشرة، وكان رسمها لا أمل فيه فلم يطرأ عليه أي تقدم و لم تصل فيه إلى الدرجة المتوسطة التي يستطيع أن يصل إليها أي إنسان بعد بضعة أشهر من التحاقه بالمدرسة.. وكانت ترتدى كل يوم الرداء القبيح البني اللون الذي ظلت آثار وحل باقية على حاشيته من يوم ممطر، وعليها الرثاثة نفسها التي لاحظها فيليب منذ رآها لأول مرة.. كما هي لم تتغير!

ولكنها جاءت إليه في أحد الأيام وسألته وقد علا وجهها الاحمرار:

-هل تستطيع أن تكلمني فيما بعد؟

فابتسم فيليب وقال:

-بالطبع كما تشائين، سأنتظرك خلف المدرسة في الساعة الثانية عشرة.

وذهب إليها بعد أن انقضى الصباح. فقالت وهى تنظر بعيدا في شيء من الارتباك:

-ألا تسير معي قليلا..؟

-بالتأكيد.

وسارا دقيقة أو دقيقتين في صمت ثم سألته فجأة:

-أتذكر ما قلته لي في ذلك اليوم..؟

فأجاب فيليب:

-لقد قلت أننا لا نريد أن نتشاجر، فإن الأمر لا يستحق الشجار.

وهنا تنهدت بسرعة في ألم وقالت:

-أنا لا أريد أن أتشاجر معك لأنك الصديق الوحيد الذي لي في باريس. ولقد ظننت أنك تميل إلى قليلا، وشعرت أن هناك شيئا بيننا، فاتجهت إليك ، وأنت تعرف ما أعنيه. قدمك المشوهة.

واحمر وجه فيليب وحاول بطريقة غريزية أن يسير دون أن يعرج. ذلك أنه لم يكن يحب أن يشير أحد بشيء إلى عاهته ، وأدرك ما تعنيه فاني بريس.. إنها تعنى أنها قبيحة وأنه مشوه القدم، وأن بينهما من أجل ذلك شعورا مشتركا من نوع ما. وغضب منها أشد الغضب ولكنه أرغم نفسه على الصمت ومضت تقول:

-لقد قلت أنك لم تكن تطلب نصيحتي إلا لترضيني. ألا ترى أن عملي لا أمل فيه؟

-إني لم أر رسمك إلا في أميترانو ومن الصعب أن أصدر حكمي بناء على هذا وحده.

-ترى أتأتي لتلقي نظرة على رسومي الأخرى. إني لم أطلب مثل هذا من أي شخص آخر، وأحب أن أريك إياها.

-إن هذا لكرم عظيم منك.. فإني في شوق لرؤيتها.

وقالت في استعطاف:

– إني أسكن بالقرب من هنا.. لن تتطلب منا المسافة إلا عشر دقائق.

فقال:

–لا بأس..

وسارا في الميدان، ثم دلفت به إلى شارع جانبي، وقادته إلى شارع آخر أفقر من الأول، على جانبيه حوانيت فقيرة، ووقفت أخيرا وراحا يصعدان الدرج.. طابقا بعد طابق وفتحت أحد الأبواب ودخلا حجرة صغيرة ذات سقف منحدر، ونافذة صغيرة، وكانت النافذة مغلقة ففاحت من الحجرة رائحة خانقة ، ولم تكن هناك مدفأة بالرغم من برودة انجو ولم يكن هناك أثر لنار ، وكان الفراش غير مرتب، أما الأثاث فكان عبارة عن مقعد ومنضدة للزينة بها أدراج وتستخدم كمغسل، وحاملا رخيصا للرسم، وكان من شأن المكان في حد ذاته أن يبدو قذرا، ولكن ما فيه من الفوضى وانعدام الذوق قد جعله مكانا تعافه النفس، وعلى رف المدفأة التي تناثرت عليها الألوان والفرش، استقر كاس وطبق قذر ووعاء للشاي. وقالت:

–إذا وقفت هناك فسأضع هذه على المقعد حتى تراها أوضح من ذلك.

وأطلعته على عشرين لوحة صغيرة، طولها عشرون بوصة وعرضها اثنتا عشرة بوصة ووضعتها على المقعد الواحدة بعد الأخرى، وراحت ترقب وجهه، وهو يومئ كلما رأى إحداها، وبعد قليل سألته في قلق:

–لقد أعجبت بها بلا شك.. أليس كذلك؟

–إني أريد أن أراها جميعا أولا ثم أبدي رأيي بعد ذلك؟

وكان فيليب يجمع شتات نفسه، فقد انتابه الفزع ولم يعرف ماذا يقول. فلم تكن هذه الصور قد رسمت رسما رديئا فحسب، أو أن الذي وضع ألوانها كان هاويا مبتدئا ليس له دراية بها، بل إنها لم تبذل فيها أي محاولة لتحديد النسب، وكانت الأبعاد تبعث على السخرية فبدت كرسم طفل في الخامسة، ولكن الطفل كان على الأقل يتسم بشيء من السذاجة وكان يرسم ما يراه ولكن رسمها كان عبارة عن إنتاج عقلي ضعيف امتلأ بذكريات من الصور الدنيئة، وتذكر فيليب أنها كانت تتكلم بحماسة عن «مونيه» والتأثيريين، ولكن هذا الرسم كان أسوأ رسم رآه. وقالت أخيرا بعد أن أطلعته على كل اللوحات :

–هذا هو كل ما لدى.

ولم يكن فيليب أكثر صراحة من أي شخص آخر ولكنه كان يجد صعوبة في أن يكذب كذبا صريحا متعمدا واحمر وجهه بشدة عندما أجاب:

–أعتقد أنها في غاية الروعة.

وتلونت وجنتاها السقيمتان بحمرة طفيفة، وابتسمت ابتسامة صغيرة، وقالت:

–إني أريد الحقيقة فلا داعي لأن تقول هذا إذا كنت لا تشعر به.

–ولكنى أرى ذلك بالفعل.

–أليس لك نقد ما ، فلا بد أن بعضها لم يحز إعجابك.

وتلفت فيليب حوله يائسا و رأى لوحة لمنظر طبيعي تعتبر مثالا لصور الهواة من الرسامين، كصورة قنطرة قديمة، وكوخ قديم غطته النباتات المتسلقة، وجسر غطته أوراق الشجر، فقال:

–لن أدعى بطبيعة الحال أني أعرف عنها كل شئ. ولكنى لست متأكدا من نسب هذه اللوحة.

واحمرت وجنتاها، واختطفت منه اللوحة وأدارتها بحيث أصبح ظهرها تجاهه وقالت:

–لا أدرى لماذا اخترت هذه الصورة لتهزأ بها. إنها أحسن صورة رسمتها، وإنى لواثقة من أن نسبي سليمة، وهذا شئ لا أستطيع أن ألقنه لأحد، فإما أن تعرف النسب أو لاتعرفها.

وأعاد فيليب قوله:

–إنى أعتقد أنها كلها في غاية الروعة.

وتأملت فانى بريس الصور في رضاء بالغ وقالت:

–إنى لا أعتقد أنها مما يخجل منه الإنسان.

ونظر فيليب إلى ساعته وقال :

إن الوقت متأخر، فهل تسمحين لي أن أقدم لك غذاء خفيفا؟

–إن غذائي ينتظرني هنا.

ولم ير فيليب أثرا لهذا الغذاء، ولربما كان البواب سيحضره بعد أن يغادرها. وكان في عجلة من أمره وقد سببت له قذارة الحجرة صداعا.

في شهر مارس بدأت حمى إرسال الصور إلى قاعة العرض، ولم يكن لدى كلاتون شئ معد بعد، وقد سخر من صورتي الرأسين اللتين بعث بهما لوسون لأنهما تبدوان من عمل طالب مبتدئ لا أكثر، فهما صورتان لنموذجين ولم يكن فيهما شئ من القوة. ولم يكن كلاتون يطيق صبرا على أى مجهود يتسم بالتردد لأنه كان يهدف دائما إلى الكمال، وقال للوسون وهو يهز كتفيه أن من الوقاحة أن يعرض لوحات كان يجب ألا تخرج من مرسمه.

ولم يخفف كلاتون من احتقاره للصورتين عندما قبلتا في المعرض، وقد جرب فلانجان حظه كذلك ، ولكن لوحته رفضت. أما السيدة أوتر فقد أرسلت لوحة لا بأس بها وهى صورة لاميس لوحة مهذبة من الدرجة الثانية وقد وضعت في مكان بارز.

وجاء هايوارد الذى لم يره فيليب منذ أن ترك هايدلبرج ، لقضاء أيام قلائل في باريس في وقت مناسب لحضور الحفل الذى أقامه لوسون وفيليب في مرسمهما احتفالا بقبول لوحات لوسون في المعرض. وكان فيليب قد تاق لرؤية هايوارد مرة أخرى.

ولكنهما عندما تقابلا أخيرا شعر فيليب بقليل من خيبة الأمل . لقد تغير هايوارد قليلا في مظهره، فقد خف شعره الجميل، واختفي لونه بسبب الذبول السريع الذى أصابه، واصفر لون

عينيه الأزرق عما كان من قبل وكسا ملامحه غشاء من الوجوم. غير أن تفكيره لم يطرأ عليه تغيير على الإطلاق .

وبعثت الثقافة التي أثارت إعجاب فيليب وهو في الثامنة عشرة فيه شيئا من الاشمئزاز عندما أصبح في سن الحادية والعشرين. وكان فيليب نفسه قد تغير كثيرا وبدأ ينظر إلى آرائه القديمة في الفن والحياة والأدب باحتقار ولم يعد يطيق صبرا على أحد يعتنق هذه الآراء.

وقلما كان فيليب يدرك أنه يريد أن يتفاخر على هايوارد، ولكنه عندما اصطحبه حول القاعة الكبرى، كشف له عن كل الآراء الجديدة التي اعتنقها أخيرا، وصحبه إلى صورة أوليمبيا التي رسمها «مانية». وقال له بطريقة مسرحية:

–إني على استعداد لأن أتخلى عن جميع أساتذة الفن القدامى عدا فيلا سكويز ورمبرانت وفيرمير في مقابل هذه اللوحة الفريدة .

وسأله هايوارد:

– ومن هو فيرمير؟

–آه يا صديقي العزيز، ألا تعرف فيرمير إنك لست متحضرا، يجب ألا تعيش دقيقة أخرى إلا إذا عرفته. إنه الأستاذ الوحيد من القدماء الذى كان يرسم مثل المحدثين.

وصحب هايوارد من معرض اللوكسمبورج وأسرع به إلى اللوفر وقبل مغادرتهما اللوكسمبرج سأله هايوارد في شوق السائح الذى يرغب في المزيد من المعرفة:

–ألا توجد لوحات أخرى هنا؟

–ليس هنا لوحات ذات شأن على الإطلاق، وفي وسعك أن تأتى بعد ذلك لتراها بنفسك مستعينا بدليل. وعندما وصلا إلى اللوفر اصطحب فيليب صديقه إلى القاعة الكبرى ، وقال هايوارد:

–أريد أن أرى الجيوكاندا.

وأجاب فيليب :

–يا عزيزى.. أن هذه في الأدب فقط.

وأخيرا وفي حجرة صغيرة وقف فيليب أمام لوحة صانع رباط الأحذية للفنان فيريمرفان ديلت.

وقال:

– هاك.. هذه أحسن صورة في متحف اللوفر.. إنها تشبه بالضبط أعمال زمانيهس. وأشار فيليب بإبهامه إلى اللوحة إشارات العارف الفصيح وأسهب في شرح هذا العمل الساحر وتكلم في لغة أهل الفن في تأثير خلاب وقال هايوارد:

–إني لا أشعر أنى أرى فيها هذه الروائع.

ورد فيليب قائلا:

–بالطبع.. إنها لوحة فنان.. وإني لا أعتقد أن الرجل العادى سيرى فيها أى جمال.

–من؟

–الرجل العادى.

وكان هايوارد شديد الشوق لأن يكون على صواب فيما يبدى من آراء شأن معظم الذين يحبون أن يغرسوا في نفوسهم الاهتمام بالفن فكان يفرض آراءه على الذين يجرءون على توكيد أراءهم، ولكنه كان يبدو متواضعا مع الواثقين من أنفسهم. وقد تأثر هايوارد من توكيد فيليب لآرائه وقبل في وداعة ما قاله فيليب من أن ادعاء الفنان المتعجرف أنه هو الوحيد الذى يستطيع أن يحكم على الفن، ليس له ما يؤكده غير وقاحته.

وبعد يوم أو يومين، أقام فيليب و لوسون حفلهما. وعرضت الآنسة تشاليس أن تطهو لهما الطعام، ولم تكن تميل إلى بنات جنسها فعارضت في دعوة فتيات أخريات لكي يحضرن الحفل تكريما لها. وتكون الحفل من كلاتون وفلاناجان وبوتر واثنين آخرين. وكان الأثاث قليلا ولذلك استخدموا المنصة التي تجلس عليها النموذج كمائدة. وسمح للضيوف أن يجلسوا على حقائبهم إذا استساغوا ذلك وإلا فليجلسوا على الأرض. وسوت الآنسة تشاليس اللحم على النار في ركن من الحجرة.. فخذا من لحم الضأن المحمر، وأحضرته ساخنا لذيذ الطعم. وكانت من قبل قد سوت كذلك البطاطس. وامتلأ المرسم برائحة الجزر الذى حمرته (فقد كان الجزر المحمر هو أهم ما تمتاز به) وتبع ذلك الكمثرى التي مزجت بالخمر ووضعت على النار فانبعثت منها رائحة الخمر المحترق، و تنتهي الأكلة بالجبن الفاخر الذى وضع طبق منه بالقرب من النافذة. وأضاف رائحة جديدة إلى الروائح الأخرى التي ملأ عبيرها المرسم.

وارتدى هايوارد ستره من القماش الإنجليزى ووضع حول عنقه ربطة من ربطات مدرسة زترينتيس وذلك حتى يترك للحاضرين كامل حريتهم فيما يلبسون وبدا حينئذ إنجليزيا باعثا على السخرية وتصرف الآخرون نحوه في أدب جم. وأخذوا أثناء تناولهم الحساء يتحدثون عن الجو والموقف السياسي وجاءت فترة راحة قبل أن تقدم إليهم فخذ الضان. أشعلت الآنسة تشاليس في خلالها لفافة من التبغ وقالت فجأة:

–رابونزيل.. رابونزيل.. أسدلي شعرك.

وفي حركة رشيقة فكت شريطا فسقطت خصلاتها على كتفيها ثم هزت رأسها قائلة:

–إني اشعر دائما بمزيد من الراحة عندما أسدل شعرى .

وبدت وكأنها شخصية خرجت من لوحات بيرن جونز بعينيها العسليتين الواسعتين، ووجهها النحيل ، وجلدها شاحب اللون وجبهتها العريضة. وكانت لها يدان جميلتان طويلتان وأصابع اكسبها دخان التبغ لونا بنيا قويا . وارتدت ثوبا جرجارا ذا لونين اخضر وبنى فاتح وقد أشاعت من حولها ذلك الجو الشاعرى الذى تشعر به في شارع هاى بكنسنجتون ،

وكانت تسرف في تقديرها لحاسة الجمال، ولكنها كانت فتاة ممتازة عطوفا كريمة الطبع، ولم يكن ما تظهره من تكلف يتعدى الظاهر .وسمع طرق على الباب فهلل الجميع في فرح، ونهضت الآنسة تشاليس وفتحت الباب وتناولت فخذ الضان وحملتها فوق رأسها كأنها يوحنا المعدان على طبق وسارت في جد ووقار بخطوات كهنوتية ولفافة التبغ بين شفتيها.

والتهم الجميع فخذ الضان في تلذذ وكانت رؤية السيدة ذات الوجه الشاحب وهى تأكل في شهية ما يبعث على الاغتباط وجلس إلى جانبيها كلاتون وبوتر . وكان كل الحاضرين يعرفون انهما لم يجدوا أنها شديدة الحياء لقد كانت تسأم معظم الناس بعد معرفتهم بستة أسابيع ، ولكنها كانت تعرف تماما كيف تعامل بعد ذلك السادة الذين يلقون بقلوبهم الصغيرة تحت قدميها، فلم تكن تحمل لهم ضغينة وإن كانت بعد أن تحبهم تكف عن حبهم، وكانت تعاملهم معاملة الصديق ولكن في غير ألفة. وكانت بين الحين والحين تنظر إلى لوسون نظرة حزينة مكتئبة. وأحرزت الكمثرى المشوية على النار نجاحا ساحقا. ويرجع ذلك إلى الخمر من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى الآنسة تشاليس التي أصرت على أن تؤكل هذه مع الجبن. وقالت بعد أن تذوقت المزيج جيدا.

–لست أدرى هل هو لذيذ للغاية أو أنى أوشك أن أتقيأ؟

وتلت ذلك القهوة والخمر في عجل حتى لا تحدث أية عواقب مكدرة .

وجلس الجميع يدخنون في ارتياح. أما روث تشاليس التي لم تكن تفعل شيئا إلا في ذوق فني رصين، فقد اتخذت لنفسها وضعا رشيقا وسرحت بنظرة ساهمة في هوة الزمان المظلمة.. وراحت من حين لآخر تنظر إلى لوسون نظرة حالمة ثم تتنهد في عمق.

واتخذ فيليب لنفسه في ذلك الوقت صديقا جديدا، وتفصيل ذلك أن النماذج اجتمعوا في يوم الاثنين في المدرسة لكي يختار أحدهم للأسبوع التالي.. ووقع الاختيار في أحد الأيام على أحد الشبان ليكون النموذج ، وبدا على هذا الشاب في وضوح أن هذه لم تكن مهنته، واسترعى انتباه فيليب الطريقة التي شد بها قامته، فعندما صعد على المنصة وقف في ثبات على كلتا قدميه وواجه الطلبة وقد ضم قبضتيه وألقى برأسه في تحد إلى

الأمام ، وقد أبرزت وقفته جمال جسمه الذى خلا من الشحم فبرزت عضلاته وكأنها قدت من حديد. وكان رأسه الذى قص شعره جميل الشكل ، وكان ذا لحية قصيرة وعينان سوداوين واسعتين، وحاجبين كثيفين . واستمر في وقفته ساعة تلو الأخرى دون أن يبدو عليه أى إرهاق ، وقد لاح على وجهه مزيج من الخجل والإصرار.

وحرك هذا الجو الذى أثاره حوله من النشاط خيال فيليب الجامح ، وعندما انتهت الجلسة ورآه مرتديا ثيابه خيل إليه انه أمير في خرق بالية. ولم يكن الرجل كثير التحدث إلى غيره ولكن حدث بعد يوم أو اثنين أن أبلغت السيدة أوتر فيليب أن النموذج الجديد أسباني وانه لم يعمل نموذجا أبدا قبل ذلك وقال لها فيليب:

ـ أظن انه يوشك أن يموت جوعا.

ـ هل لاحظت ملابسه ؟ أنها أنيقة محترمة.. ألا ترى ذلك؟

وتصادف أن كان بوتر وهو أحد الأمريكيين الذين يدرسون في اميترانو مسافرا إلى إيطاليا ليقضى فيها شهرين، فعرض مرسمه على فيليب ليعمل فيه ، فاغتبط فيليب لأنه كان قد سئم كثيرا نصائح لوسون التي كان يفرضها عليه فرضا أراد أن يقيم بمفرده . وجاء في نهاية الأسبوع إلى الإسباني وادعى انه لم يتم رسمه وسأله هل يستطيع أن يزوره يوما واحدا فأجابه الأسباني :

– إني لست نموذجا ولدى أعمال أخرى في الأسبوع القادم.

وقال له فيليب :

ـ تعال وتناول الغذاء معي الآن وستناول الحديث في هذا الشأن . وعندما بدا تردد الآخر قال فيليب مبتسما :

ـ أن تناول الغذاء معي لن يضيرك في شيء على أية حال . وأبدى الرجل موافقته مصحوبة بهزة كتفيه .. وقصدا إلى أحد محال الألبان وكان الأسباني يتكلم الفرنسية ركيكة في طلاقة ولكن بطريقة يصعب على الإنسان فهمها . ولكن فيليب استطاع أن يتفاهم معه إلى حد ما وعرف منه انه أديب جاء إلى باريس ليكتب القصص وانه يعيش بالطرق التي يتبعها المفلسون ، فهو يعطى الدروس الخاصة ويترجم كل ما يصل إلى يديه وعلى الأخص الوثائق الخاصة بالأعمال ، واضطر في النهاية أن يكسب المال عن طريق جسده الجميل . وكان عمل النموذج بأجر لا بأس به . وقد اكتسب في الأسبوع الماضي ما يفي بحاجته أسبوعين آخرين، ولكن فيليب دهش عندما أبلغه انه يستطيع أن يعيش في يسر بفرنكين في اليوم ، وانه يشعر بالخجل إذ يضطر إلى عرض جسده في سبيل تكسب المال ، وأنه يرى أن في الجلوس أمام المصورين خسة لا يبررها ألا الجوع . وأوضح له فيليب انه لا يريده أن يجلس ليرسم جسده بل لكي يرسم رأسه فقط لأنه يريد أن يرسم صورة يستطيع بعد ذلك أن يبعث بها إلى المعرض القادم . وسأله الأسباني :

ولكن لم تريد أن ترسمني أنا ؟

وقال له فيليب أن رأسه قد أثار اهتمامه فأعتقد انه يستطيع أن يرسمه في صورة جميلة.

ورد عليه الأسباني قائلا :

ـ ليس لدى الوقت الكافي لذلك .. إني أبخل بكل دقيقة أختلسها من وقتي المخصص للكتابة.

ورحب فيليب – وهو صاحب النزعة الشعرية العاطفية – بفرصة تمكنه على تردد الرجل. وقال الأسباني أخيرا

– سأحدثك بما أنوى أن أفعله ، فسأجلس لك كي ترسمني ولكنى لن أتناول منك أجرا . بل سأفعل ذلك من قبيل التسلية لا غير .

وأخذ فيليب يجادله محاولا إقناعه ولكن الأسباني ظل مصرا على رأيه ثم اتفقا أخيرا عل
أن يوافيه يوم الاثنين المقبل في الساعة الواحدة أعطى فيليب التي كتب عليها اسمه «ميج
أجوريا» وجاء الأسباني في أحد الأيام ومعه بعض ما كتب . وراح يترجم وهو مهتاج
اللغة الفرنسية الركيكة عن فقرات يقرأها بلغته وهو يتقدم نحو فيليب أن يفهمها . ور
فيليب يتأمل في حيرة الصورة التي كان يرسمها . لقد كان العقل القابع خلف هذه الجب
العريضة من أتفه العقول .ولم تكن العينان البراقتان المتعلقتان تريدان من الحياة شيئا سو
الجلي الواضح فيها . ولم يشعر فيليب بالرضاء عن لوحته . وكان في نهاية الجلسة يمحو
ما رسمه تقريبا ، على الدوام وذلك أن بأس على الإنسان من أن يهدف إلى ما تبتغيه النف
ولكن هيهات أن يعرف أحد ذلك يبدو الناس وكأنهم كتله من المتناقضات ؟ ..لقد شعر فيلي
بالميل نحو ميجل ولكن كان مما ساءه أن وجد صراع ميجل صراع يائس عديم الجدوى
أوتي كل ما يجعل منه كاتبا ممتازا عدا موهبة الكتابة . وتأمل فيليب رسمه ، ولكنه لم
هل كان فيه شئ من الفن أو أنه ليس ألا مضيعة للوقت ؟ لقد كان من البين أن الإرادة
تعيبك على إنجاز ما تشاء وأن الثقة بمواهبها أشد الإيمان وكانت قوة إرادتها غير عا
وحدث نفسه قائلا :

ـ إذا كنت أعتقد أنى لن أصبح فنانا ناجحا فمن الخير لي أن اقلع عن الرسم فليس
فائدة في أن أصبح رسامة من الدرجة الثانية.

وحدث صبيحة أحد الأيام أن أبلغه بواب المنزل وهو يهم بالخروج أن له رسالة . ولم
أحد يكتب إليه سوى العمة لويزا وهايوارد في بعض الأحيان ولكن عنوان الرسالة كا
يعرف صاحبه وكان نص الخطاب : «أرجوك أن تسرع فور تسلمك هذا الخطاب . إني لا أستط
أن أتحمل المزيد مما أنا فيه . أرجو أن تأتى بنفسك فإني لا أحتمل التفكير في أن شخصا
سيمسني . فإني أريدك أن تنال كل شئ . إني لم أتناول شيئا من الطعام منذ ثلاثة أيام».

«فاني بريس».

وشعر فيليب فجأة بالسقم يغشاه من شدة الفزع ، فهرع إلى المنزل الذى تقطن فيه ف
بريس وقد أدهشه وجودها في باريس على الإطلاق ، ذلك انه لم يرها منذ شهور . وظن أ
عادت إلى إنجلترا منذ وقت طويل وعندما وصل سأل البواب هل هي بالمنزل . فأجابه الر
قائلا :

– نعم .. فإني لم أرها تخرج منذ يومين

أسرع فيليب إلى الطابق العلوى وطرق الباب ولكنه لم يتلق ردا ما وناداها باسمها. وك
الباب موصدا وعندما انحنى وجد المفتاح في القفل وقال في صوت مرتفع :

– .. يا إلهي .. أرجو ألا تكون قد أتت أمرا إدا.

وجرى إلى الطابق الأسفل وقال للبواب أنها بلا شك في الحجرة وانه قد وصلته م
رسالة ويخشى أن يكون قد وقع لها حادث مروع ، واقترح أن يفتحا الباب عنوه ، وارت

البواب من هذا العرض وكان من قبل عابسا لا يريد الإصغاء إلى فيليب ورفض أن يتحمل مسئولية فتح الباب عنوة وقال انه يجب الاستعانة بضابط الشرطة .

وسارا معا حتى مكتب الشرطة ثم بحثا عن صانع أقفال وتبين لفيليب في تلك الأثناء أن الآنسة بريس لم تؤد إيجار المنزل عن الأسبوع الماضي ، ولم تمنح البواب الهدية التي أصبح بحكم العادة القديمة يعتقد أنها حق له في رأس السنة . وصعدا أربعتهم إلى الطابق الذى تقطن فيه وطرقوا الباب مرة أخرى . ولكن أحد لم يجب . ويدأ صانع الأقفال عمله . حتى دخلوا الحجرة آخر الأمر ، وأفلتت من فيليب صيحة فزع وستر عينيه بيديه فقد كانت المرأة التعسة تتدلى من حبل في السقف التف حول عنقهما ، ثبتته في خطاف كان قد وضعه هناك أحد السكان السابقين لستائر الفراش وقد أزاحت سريرها الصغير قليلا بنفسها ووقفت على مقعد ثم ركلته بعيدا فسقط على الأرض على جانبه.. وكان جسدها شديد البرودة .

ولم يستطع فيليب أن يبعد هذا الحادث المشئوم عن فكره ، وكان مما بعث الاضطراب إلى نفسه العبء الذى تحملته فاني بريس . ذلك أن أحدا لم يكن يستطيع أن يبذل من الجهود أكثر مما بذلت هي ، ولا أن يبذله بأكثر منها إخلاصا ، فقد كانت تؤمن بنفسها إيمانا انبعث من كل قلبها ولكن كان من الواضح أن هذه الثقة بالنفس لم تكن تجدى فتيلا فكل أصحابه يثقون بأنفسهم ومن بينهم ميجل أجوريا ، وقد ذهل فيليب عندما قارن بين محاولات الأسباني الباسلة وبين تفاهة إنتاجه .

لقد خلقت الحياة التعسة التي قاساها فيليب في المدرسة في نفسه قوة لتحليل الذات ، واستولت عليه هذه الرذيلة التي تشبه تعاطى المخدرات حتى أصبح لديه حذق عجيب في تحليل مشاعره ، ولم يكن يسعه إلا أن يحس أن الفن يحدث فيه أثرا كبيرا . لقد كانت اللوحة الجميلة تحدث هزة عاجلة في نفس لوسون ، فقد كان تقديره للفن غريزيا فيه . وحتى فلاناجان نفسه كان يحس بأشياء يضطر فيليب إلى التفكير فيها قبل أن يدركها . وذلك أن تقديره للفن كان ينبعث من عقله ولم يكن يسعه إلا أن يعتقد أنه لو كان له المزاج الفني (لقد كان يمقت هذه العبارة ، ولكنه لم يجد عبارة غيرها يعبر بها عن هذا المعنى) لاستساغ الجمال بالطريقة العاطفية الخالية من المنطق ، كما يفعل الآخرون ، وراح يتساءل ترى هل له أكثر من مهارة يدوية سطحية تعنيه على نقل الأشياء في دقة، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا شئ لا يستحق الذكر .. لقد تعلم أن يحتقر كل مهارة فنية إذا كان أهم ما في الأمر هو أن يشعر عن طريق الرسم . لقد كان يرسم بعقله فأحس بروحة قاحلة جدباء ، وأدرك حينئذ أن الرسم إذا كان ذا قيمة فإنما ينبعث من القلب .

ولم يكن لديه إلا القليل من المال الذى لا يكاد يبلغ ألفا وستمائة من الجنيهات ، فأصبح لا بد له أن يراعى أشد الاقتصاد وهو لا يستطيع الاعتماد على أنه سيكسب شيئا طيلة السنوات العشر القادمة . وتاريخ الفن حافل بالفنانين الذين لم يكسبوا شيئا على الإطلاق . فعليه إذن أن يوطن نفسه على الفاقة ، وخليق به أن يقوم بعمل يخلد اسمه ، ولكنه كان يخشى أشد

الخشية ألا يصبح أكثر من فنان عادى في الطبقة الثانية بين الفنانين ، فإذا كان الأمر كذلك فهل يحق للمرء أن يضحي في سبيله بشبابه ومرح الحياة وفرصها الكثيرة ؟ لقد عرف منهم من ظلوا عشرين عاما يزحفون وراء المجد والشهرة، ولكن أبت ألا أن تفر منهم حتى وصلوا إلى الحضيض وغرقوا في رذائل الخمر . ولقد أثار حادث انتحار فاني بريس ذكريات في نفسه .. ووصلت إلى سمع فيليب أقاصيص مروعة عن الوسائل التي نجا بها بعضهم من يأس الحياة، ، وتذكر النصيحة الساخرة التي أسداها فونيه إلى فاني بريس المسكينة ، ولو أنها استمعت إلى هذه النصيحة وأقلعت عن محاولاتها اليائسة لكان ذلك خيرا لها .

وخيل إلى فيليب وهو يفكر في هذه الأمور أن لدى الفنانين الأصليين من الرسامين والموسيقيين والكتاب قوة تدفعهم إلى الانغماس بكليتهم في عملهم فلا يجدون مفرا من أن يخضعوا الحياة للفن فخضعوا بذلك لسطوة لم يعرفوا ماهيتها وساروا فخدعتهم الغريزة التي تملكتهم وتسللت الحياة من بين أصابعهم دون أن يحيوها ، وانتابه إحساس بأن من الخير للمرء أن يحيا الحياة لا يرسمها ، وأراد أن يختبر تجارب الحياة المختلفة، وأن ينتزع من اللحظات كل المشاعر التي تعرضها عليه وقرر في النهاية أن يتخذ خطوة مامن يتحمل تبعتها ، فلما استقر رأيه غلى هذا قرر أن يخطو هذه الخطوة في الحال . وكان من حسن حظه أن اليوم التالي كان أحد أيام فونيه . فاعتزم أن يطلب إليه في صراحة هل من الخير له أن يواصل دراسة الفن . ولم يكن قد نسى صراحته عندما قال له إنه من الخير له أن يواصل دراسة الفن. ولم يستطع فيليب أن يبعد فانى عن تفكيره ، فقد بدأ المرسم غريبا بدونها وكان صوت إحدى السيدات في الحجرة بين آن وآخر أو حركة من إحداهن تفزعه فجأة وتذكره بها .. لقد أصبح وجودها يحس بعد موتها أكثر مما كان يحس أثناء حياتها وكثيرا ما كان يراها في حلمه ويستيقظ من نومه وهو يصيح من الفزع وكان التفكير فيما قاسته فاني بريس من أهوال يبعث بالرعب إلى نفسه .

وكان فونيه يتناول غذاءه في الأيام التي يزور فيها المدرسة في مطعم صغير في شارع أوديسا ، ولهذا أسرع فيليب في تناول غذائه حتى يستطيع الذهاب إلى المطعم وانتظار خروج فونيه .. وراح فيليب يذرع الشارع المزدحم رائحا غاديا ، حتى لمح فونيه آخر الأمر يسير منحنى الرأس نحوه ، وكان فيليب في حالة عصبية ، ولكنه أرغم نفسه على الذهاب إليه وخاطبه قائلا .

- معذرة يا سيدى فإني أود أن أتحدث إليك لحظة واحدة .

ورمقه فونيه بنظرة سريعة ، فعرفه ، ولكنه لم يجبه بابتسامة وقال له :

- تكلم .

فأردف فيليب قائلا :

- لقد أمضيت هنا عامين وأنا أدرس على يديك ، وأريد أن أسأل رأيك في صراحة هل ثمة فائدة في أن أواصل هذه الدراسة ؟

وكان صوت فيليب يرتجف بعض الارتجاف ، واستمر فونيه سائرا في طريقه دون أن يقبع رأسه وكان فيليب يرقب وجهه فلم يلحظ عليه أثر لأى تعبير وقال فونيه :

- إني لا أفهم ماذا تقول.

- إني فقير للغاية .. فإذا لم تكن لدى الموهبة فعلي أن أعجل وأنتقل إلى عمل آخر ٠

-ألا تعرف إذا كانت لديك الموهبة أم لا ؟

- إن كل أصدقائي يعرفون أن لديهم الموهبة ، ولكنى أعلم أن بعضهم ليس على صواب.

وهنا ارتسم على فم فونيه المرير شبح ابتسامة وسأله :

- أتقطن بالقرب من هنا ؟

- وأخبره فيليب بموقع مرسمه ، فاستدار إليه فونيه وقال :

-هيا بنا إلى هناك ، فستريني أعمالك .

-وصاح فيليب :

-الآن .... ؟

- ولم لا ؟

ولم يستطع فيليب أن يتفوه بكلمة ،فسار صامتا إلى جانب الأستاذ ، وأحس حينئذ بأن شعورا فظيعا من السقم قد غشيه ، ذلك أنه لم يخطر بباله أبدا أن فونيه في تلك اللحظة بالذات سيطلب إليه أن يطلعه على لوحاته في مرسمه . واستبد به القلق فأخذ جسمه ينتفض . وكل ما كان يقصده أن يطلب إليه أن يسمح بزيارته في موعد قادم أو يأتي بصورة إلى مرسم فونيه، وذلك لكي يجد متسعا من الوقت يستعد فيه لهذا الفحص . وكان فيليب يرتعد من شدة القلق . وكان يتمنى من أعماق قلبه لو أن فونيه نظر إلى لوحاته ، ثم ارتسمت على أساريره تلك الابتسامة النادرة ثم سلم على فيليب بيده وقال له:

- لا بأس .. استمر يا بنى .. إن لديك الموهبة الحق .

وامتلأ قلب فيليب بالبهجة أزياء هذا الخاطر فيا لها من نشوة ويا له من ارتياح ! سيواصل بعد ذلك عمله في شجاعة، وماذا يعنى الحرمان والمشاق وخيبة الأمل عندئذ مادام سيصل في النهاية إلى بغيته .

لقد أجهد نفسه في العمل ومن القسوة أن يؤول كل هذا إلى لا شئ ، ثم أجفل عندما تذكر أنه سمع فاني بريس تردد مثل هذا الكلام نفسه . وعندما وصلا إلى المنزل تملكه الخوف . ولو كانت لديه الجرأة لطلب إلى فونيه أن يعود أدراجه لأنه لم يكن يريد معرفة الحقيقة . ودلفا إلى المنزل وأعطى البواب فيليب خطابا في أثناء سيره فألقى نظرة على المظروف أدرك منها أنه كتب بخط عمه .. وسار أمام فونيه صاعدا الدرج ، ولم يستطع أن يفكر في شئ يحدثه فيه، كما ظل فونيه صامتا ، وأثار هذا الصمت أعصاب فيليب .

وجلس الأستاذ ووضع فيليب أمامه دون أن ينبس ببنت شفة لوحتين ورسمين أو ثلاثة رسوم لمناظر طبيعية ، وبعض الرسوم الأخرى التمهيدية ثم قال في ضحكة عصبية :

-هذا كل ما لدى ..

لف فونيه لنفسه لفافة من التبغ ثم أشعلها وسأله أخيرا :

-هل مواردك الخاصة بسيطة للغاية ؟

وأجاب فيليب وقد غشى قلبه فجأة إحساس بالبرودة :

-بسيطة للغاية .. لا تكفي المرء كي يعيش عليها .

- ليس هناك ما هو أكثر امتهانا للمرء من ذلك القلق المستمر على مورد رزقه وأن شخصيا لا يسعني إلا أن أحتقر أولئك الذين يحتقرون المال . إنهم إما منافقون أو مغفلون ذلك أن المال كالحاسة السادسة التي لا تستطيع بغيرها أن تستخدم الحواس الخمس الأخرى وإذا لم يكن لك دخل كاف أصبح نصف احتمالات الحياة مقضي عليه . والأمر الوحيد الذ يجب أن تحذره هو ألا تدفع قرشا في مقابل الذى تكسبه . سيصل إلى سمعك قول أناس أ الفقر خير حافز للفنان ، وأنا أقول إن هؤلاء لم يشعروا على الإطلاق بوخز هذا الفقر أجسادهم ، ولا يعرفون كيف يجعل هذا الفقر منك إنسانا خسيسا وضيعا ، ويعرضك لمها ليس لها حد ، إنه يقص بجناحيك ويفت في عضدك كالسرطان وليس الذى يجب أن يبح عنه المرء هو الثراء بل هو ما يكفيه ليحفظ به كرامته ويؤدى عمله في غير ما عوائق ، ويظ حرا كريما يعتمد على نفسه . وإني أشفق من صميم فؤادى على الفنان سواء كان كاتبا أ مصورا إذا لم يكن له مورد يعيش منه إلا فنه .

وأعاد فيليب في هدوء جميع اللوحات التي أطلعه عليها وقال :

-إني لأخشى أن يكون معنى كلامك أنى ليس لدى الكثير من الأمل .

وهز السيد فونيه كتفيه في بساطة ثم قال :

- إن لديك بعض المهارة اليدوية .. وليس هنالك ما يحول دون أن تصبح مصورا دق كفؤا بالعمل الشاق والمثابرة .. إنك لتجد الكثيرين ممن يرسمون مثل رسمك ولست أجد ما على الموهبة فيما أطلعتني عليه، بل أرى فيه أثر الجد والذكاء ولن تصبح أكثر من فن متوسط الحال .

وكبح فيليب جماح نفسه حتى يجيب في هدوء :

-إني أشكر لك ما تجشمت من مشقة . ولا أستطيع أن أوفيك الشكر .

ونهض السيد فونيه عن مقعده ، وتحرك كأنه يهم بالرحيل ولكنه توقف كأن قد خط بباله فكرة أخرى وألقى بيده على كتف فيليب وقال :

-ولكنك إذا سألتني النصح ، فيجب أن أقول لك : اجمع شتات شجاعتك بين يديك وج حظك في شئ آخر .. إن ما أقوله لم يبد في غاية القسوة ولكنى أقول لك هذا .. لو أن أحد وجه إلى مثل هذه النصيحة واستمعت إليها عندما كنت في سنك لوهبته الآن كل ما أملك حطام الدنيا .

وحملق فيه فيليب مذهولا .. ودفع الأستاذ بابتسامة إلا شفتيه ولكن عينيه ظلتا على حالهما من الجد والأسى وقال :

-إن من القسوة ألا يكتشف المرء أنه لا يعدو المرتبة الوسطى ألا بعد أن يفوت الأوان .. فإن ذلك لا يصلح من حاله شيئا .

وعندما قال هذه الكلمات الأخيرة ضحك ضحكة صغيرة وغادر الحجرة مسرعا . وأخرج فيليب في حركة آلية الخطاب الذى بعث به إليه عمه ، وعندما رأى خط عمه انتابه القلق لأن زوج عمه هي التي اعتادت أن تكتب إليه ، لقد كانت مريضة طوال الأشهر الثلاثة الماضية ، وقد عرض عليها أن يسافر لرؤيتها ولكنها رفضت إذ خشيت أن يتعارض ذلك مع عمله ولم تكن تريد أن تسبب له شيئا من التعب . وقالت إنها ستنتظر حتى شهر أغسطس ، وأعربت عن أملها في أن يأتي ويقيم معهم في منزل القس أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، وإذا حدث أن ساءت حالتها لسبب ما فستبلغه لأنها لا تريد أن تفارق الحياة دون أن تراه مرة أخرى . فإذا كان عمه هو الذى يكتب إليه الآن فمعنى ذلك أنها مريضة إلى حد لم تستطع معه أن تمسك بالقلم.

وفتح فيليب الخطاب وكان هذا نصه :

عزيزى فيليب

إني آسف لأن أبلغك أن زوجة عمك العزيزة قد فارقت الحياة في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، لقد ماتت فجأة ، ولكن في سكون وهدوء تام . لقد تدهورت حالتها بسرعة لم نجد لدينا معها من الوقت ما يمكننا من أن نبعث في طلبك .. وقد كانت مستعدة تماما لمواجهة منيتها وخطت إلى عالم الراحة وهى واثقة من أنها ستبعث بعثا مباركا مستسلمة لمشيئة المسيح المباركة .. كانت عمتك تود لو شهدت جنازتها ولهذا آمل أن تأتى بأسرع ما يمكنك ولدى بطبيعة الحال كثير من العمل الملقى على عاتقي ، وإني لفي غاية الاضطراب ، وآمل أن تستطيع أن تعمل كل ما تستطيعه لي .

عمك المحب

وليام كارى

وفي اليوم التالي وصل فيليب إلى بلاكستابل ، ولم يكن قد فقد منذ وفاة والدته شخصا وثيق الصلة به .. لقد صدمته وفاة زوج عمه وملأت قلبه برعب غريب أحس معه لأول مرة بأنه إنسان فإن ولم يدرك كيف تصبح حياة عمه من غير هذه المرأة التي رعته وأحبته طيلة أربعين عاما .. وتوقع أن يجده محطم النفس من قسوة الألم اليائس ، وكان يخشى أول لقاء معه ، وأدرك أنه لن يستطيع أن يقول شيئا ذا جدوى في مثل هذا الموقف.

وراح يعد نفسه ليقول بعض الكلمات الملائمة . ودخل منزل القس عن طريق الباب الجانبي ، وقصد حجرة الطعام .. وكان عمه وليام يطالع في صحيفة ورفع إليه عينيه قائلا:

-لقد تأخر قطارك .

كان فيليب على وشك أن يترك لمشاعره العنان ولكن المقابلة العادية أدهشته وقد
على عمه الحزن ولكنه كان هادئا ، وناوله الصحيفة قائلا :

–هناك كلمة لطيفة عنها في «بلاكستابل تايمز» .

وقرأها فيليب بطريقة آلية وقال عمه :

ـ أتحب أن تصعد لتلقى نظرة عليها ؟

وأومأ فيليب برأسه وصعدا سويا إلى الطابق العلوى وكانت العمة لويزا ممددة على س
عريض وقد تناثرت حولها طاقات الزهور وقال القس :

ـ ألا تجب أن تتلو صلاة قصيرة ؟ .. وركع القس على ركبته وحذا فيليب حذوه لأن هذا
متوقعا منه ، ونظرا إلى الوجه القصير الذابل . ولم يشعر حينئذ إلا بعاطفة واحدة فقط
أن تلك المرأة قد ضيعت حياتها ، وسعل السيد كارى بعد لحظة ثم نهض واقفا وأشار
إكليل عند أسفل السرير ثم قال في صوت خافت وكأنه في الكنيسة :

– هذا الإكليل من رئيس المالك .

وكان القس يشعر المرء بأنه يؤدى عمله ومضى يقول :

– أظن أن الشاى قد أعد .

وعاد إلى الحجرة الطعام مرة أخرى ، وأضفت الستائر المسدلة على الحجرة جوا
وجلس القس عند طرف المائدة التي كانت زوجته تجلس إليه دائما وصب الشاى وهو
الصلاة ، وشعر فيليب بأن الواجب كان يقضى على كليهما ألا يتناولا شيئا من الطعام
عندما وجد أن شهية القس لم تتأثر بدأ يتناول الأكل بشهيته القوية المعتادة . وأحجم
الكلام فترة من الوقت وشرع فيليب يتناول قطعة من الفطير الفاخر في جو من الحزن
بأنه خليق به أن يطهره وما لبث القس أن قال :

ـ لقد تغيرت الأمور كثيرا عما كانت عليه وأنا نائب قس فقد كان المشيعون في
شبابي يهدون زوجا من القفازات السوداء وقطعة من الحرير الأسود لوضعها على قبع
أثناء الجنازة وقد اعتادت المسكينة لويزا أن تجمع قطع القماش الأسود وتصنع منها أ
وكانت تقول دائما أن عشر جنازات تكفينا لصنع ثوب جديد .

ثم حدث فيليب عمن بعثوا إليه بالأكاليل .. وقال إن عددهم بلغ حتى تلك الساعة أ
وعشرين إكليلا .وقال إنه عندما توفيت السيدة رولنجسون زوجة أسقف فرن بلغ عدد أكا
اثنين وثلاثين إكليلا . وقال إنه يرجح أن يأتي المزيد من الأكاليل في اليوم التالي
الجنازة ستبدأ في السابعة صباحا من منزل الأسقفية ، وإنهم سيتوقفون على ال
رولنجسون في عدد الأكاليل لأن السيدة كارى لم تكن تحب السيدة رولنجسون على الإ
وقال :

ـ سأتولى أمر الجنازة بنفسي .. فقد وعدت لويزا ألا أدع أحدا غيرى يواريها التراب، ونظر فيليب إلى عمه في استنكار وهو يلتهم قطعة أخرى من الفطائر . ولم يستطع أن يقاوم شعوره بأن هذا التصرف في مثل هذه الظروف يعتبر نهما .. وقال القس :

– إن مارى آن تصنع فطائر طيبة بلا ريب وأخشى ألا يستطيع أحد بعد ذلك أن يعمل فطائر مثلها .

وصاح فيليب في دهشة :

–وهل سترحل مارى آن ..؟

لقد ظلت مارى آن في منزل القس منذ أن وعى فيليب ، ولم تنس أبدا أعياد ميلاده . وكانت تهتم على الدوام أن تبعث إليه بشيء تافه سخيف ولكن يؤثر فيه . وكان يحتفظ لها بود حقيقي ، ورد السيد كارى قائلا :

–نعم .. لأني أعتقد أنه ليس من اللائق بقاء امرأة غريبة في المنزل .

– ولكن .. مارى آن لا بد قد جاوزت الأربعين .

– نعم أعتقد هذا ولكنها كانت في الفترة الأخيرة مثيرة للمتاعب إلى حد ما . وكانت تميل إلى التدخل في الكثير من الأمور فوجدت هذه الفرصة مناسبة لكي أنذرها .

وقال فيليب :

– إنها بلا شك ليست من الفرص التي يمكن أن تتكرر .

وأخرج فيليب لفافة تبغ ولكن عمه منعه من إشعالها قائلا في رقة :

–لا تدخن قبل الجنازة يا فيليب .

فقال فيليب :

–وهو كذلك .

–ليس من اللائق التدخين في المنزل وزوج عمك المسكينة ما زالت في الطبقة العليا .

وبعد انتهاء الجنازة عاد جوزيا جريفز وكيل الكنيسة ومدير المصرف لتناول الطعام في منزل القس – وقد أحس فيليب بالرغم منه بشعور غريب بالارتياح لأن الستائر كانت قد رفعت ولأن الجثة وهى في المنزل كانت تسبب له شيئا من الضيق .. لقد كانت المرأة المسكينة في حياتها كلها حنانا وعطفا ولكنها وهى في غرفة النوم في الطبقة العليا باردة عارية بدت وكأن لها أثرا باعثا للحزن والأسى على الأحياء، وقد بعث هذا الإحساس بالفزع في نفس فيليب .

وفي حجرة المائدة وجد نفسه وحيدا مع نائب القس الذى بادره قائلا :

آمل أن تتمكن من البقاء مع عمك قليلا .. فلست أظن أنه يجب أن يترك وحيدا في هذه الأيام ..

فأجاب فيليب :

–إني لم أضع لنفسي خطة ما بعد ، ويسرني أن أبقى معه إذا رغب في ذلك .

وأعرب له عمه بعد ذلك بأيام قلائل عن أمله في أن يتمكن من قضاء الأسابيع القليلة التالية في بلاكستابل .

وقال فيليب :

–إن هذا ليلائمني كثيرا ..

– أعتقد أنه لا يضيرك أن تعود إلى باريس في شهر سبتمبر .

ولم يجب فيليب .. لقد فكر كثيرا فيما قاله له فونيه ، ولكنه لم يكن قد استقر على شئ بعـ فلم يشأ أن يتحدث مع عمه عن المستقبل .. لقد كان يسره أن يتخلى عن الفن لأنه مقتنع بأ لن ينبغ فيه .. ولكن من سوء حظه أن الأمر لن يبدو على هذا النحو إلا له وحده، أما غيـ فسيرون أن هذا اعتراف منه بهزيمته ولم يشأ أن يقر بأنه قد غلب على أمره فقد كان فـ عنيدا وأن ارتيابه في أن موهبته لا تميل به ناحية ما قد جعله يخضع للظروف والأهـ لهواة فيوجهها كلها على الرغم من ذلك إلى هذا الاتجاه ذاته . ولم يكن يحتمل سخـ أصدقائه منه ، وكان من شأن هذا أن يمنعه من اتخاذ الخطوة الحاسمة فيتخلى عن درا الرسم ، ولكن تلك البيئة المختلفة التي أحاطت به جعلته فجأة يرى الأشياء على وجه مغـ لهذا . فقد تبين له كما يتبين للكثيرين غيره أن عبور المانش إلى بريطانيا جعل الأشياء ا بدت مهمة من قبل عديمة النفع إلى حد منقطع النظير . وأضحت الحياة الساحرة التى تـ أنه لا يمكنه التخلي عنها سخيفة خرقاء ، واستولى عليه شعور باحتقار المقاهي والمطـ ذات الطعام الرديء الطهو ، والحياة القذرة التي لن يحياها الجميع .. ولم يهتم إطلاقا سيظنه به أصحابه : السيدة أوتر بما لها من احترام ، وروث تشاليس وتكلفها ، ولوسـ وكلاتون ومشاجراتهما .. لقد شعر بالاشمئزاز منهم جميعا ! وكتب إلى لوسون يطلب إليه يبعث إليه بكل متاعه ، ووصله هذا المتاع كله بعد أسبوع من ذلك الوقت . وعندما أ لوحاته وجد أن في استطاعته أن يحكم على أعماله دون أن يتأثر بالعاطفة ورأى الحقيقة ولع وشغف . وكان عمه يتوق إلى رؤية صورة ، وذلك رغم معارضته الشديدة لرغبة فيـ في الذهاب إلى باريس قد قبل الموقف الآن في هدوء . وكانت حياة الطلبة تثير اهتمام ، فكان يسأل فيليب كثيرا عنها . والواقع إنه كان يشعر بشيء من الاعتزاز بفيليب ، لأنه فنانا ، وكان إذا اجتمع عنده بعض الناس يحاول دائما أن يشير إليه ويبرزه ، وكان ينظـ شغف إلى النماذج التي أطلعة فيليب عليها، ومنها الصورة التي رسمها لميجل أجو وسأله القس :

–ولماذا رسمته ؟..

–لقد أردت نموذجا ، وقد أثار رأسه اهتمامي .

– وإذا لم يكن لديك ما تفعله هنا ، فلم لا ترسمني ؟

– إنك ستسأم الجلوس أمامي .

أعتقد أنى سأرحب بذلك .

سنفكر في الأمر .

واتخذ فيليب من غرور عمه مسلاة له .. وكان الواضح أن القس يتحرق شوقا لأن ترسم صورته ، ذلك أن حصوله على شئ بلا مقابل فرصة يجب ألا تفلت منه .. وراح خلال يومين أو ثلاثة أيام يلمح إلى الموضوع ويلوم فيليب على تكاسله ويسأله متى يبدأ عمله .. وفي النهاية راح أخيرا يحدث كل من يقابلهم بأن فيليب سيرسمه . وأخيرا وفي يوم مطير قال السيد كاري لفيليب بعد أن انتهيا من طعام الإفطار :

–والآن ما رأيك في أن تبدأ صورتي هذا الصباح ؟

ووضع فيليب الكتاب الذى كان يقرأه ثم مال إلى الخلف في مقعده وقال :

–لقد أقلعت عن الرسم .

فسأله عمه في دهشة :

–لماذا ؟

– لأني أعتقد أنه لا جدوى في أن يصبح المرء مصورا من الدرجة الثانية وقد أقسمت أنى لن أكون مصورا ولا غير مصور .

– إنك تثير عجبي يا فيليب .. فقد ذهبت إلى باريس وأنت على ثقة من أنك عبقرى .

وقال فيليب :

–لقد كنت مخطئا .

– كنت أعتقد أنك إذا ما اخترت مهنة وجب أن تفخر بتمسكك بها ويخيل إلى أن ما ينقصك هو المثابرة .

انتاب فيليب قليل من الضيق لأن عمه لم يلحظ البسالة الحق التي اتسم بها قراره بتخليه عن الرسم ، ومضى القس يقول :

–إن من لا يثابر على عمل لا ينال النجاح .

وكان فيليب يكره هذا المثل كرها بالغا ويخيل إليه أنه بلا معنى على الإطلاق . وكان عمه يكرر قوله دائما خلال المناقشات التي سبقت ترك فيليب عمله .. ويبدو أن المثل أعاد إلى ذهنه وصيته في تلك المناسبة فقال :

–إنك تعلم أنك لم تعد صبيا ويجب أن تبدأ التفكير في أن تستقر ، لقد صممت في أول الأمر أن تصبح محاسبا قانونيا ثم مللت ذلك وأردت أن تصبح رساما ، والآن اسمح لي أن أقول إنك قد غيرت رأيك مرة أخرى ومعنى هذا ... وتردد القس لحظة حتى يفكر فيما يعنيه ذلك بالضبط من نقص في أخلاق فيليب .. ولكن فيليب أكمل العبارة قائلا :

– وهن العزيمة .. قصر النظر .. عدم الكفاية .. وعدم التصميم .

ونظر القس إلى ابن أخيه ليرى هل كان يضحك منه . وكان وجه فيليب جادا ولكن عينيه لمعتا ببريق ضايق القس . وكان واجب فيليب في واقع الأمر أن يكون أكثر مما بدا جدا. وشعر القس بأنه من الأصول أن يكيل له ضربة على أصابعه . وقال له :

– إن أمورك المالية لم تعد من شأني الآن .. إنك سيد نفسك ولكني أعتقد أنك يجب أن تذكر أن أموالك لن تدوم إلى الأبد وأن عاهتك المشئومة لن تجعل من السهل عليك أن تكتسب عيشك.

وكان فيليب يعلم حينئذ أنه إذا غضب منه أحد فإن أول ما يفكر فيه أن يقول له شيئا عن عاهته ، وكان تقديره لبني الإنسان يقوم على علمه بأنه قلما يعجز إنسان ما عن مقامة هذا الإغراء . ولكنه وطد نفسه على ألا يبدو منه ما يدل أن هذا القول كان يؤلمه ، ذلك أنه أصبح في إمكانه أن يسيطر على حمرة الخجل التي كانت تعلو وجهه والتى كانت أحد مصادر عذابه في أيام صباه .. ورد قائلا :

– إنك محق في قولك .. إن أحوالي المالية لم تعد من شأنك ، وأنا سيد نفسي .

– مهما يكن من هذا فإن عليك أن تعترف بأني كنت على حق عندما عارضت رغبتك في دراسة الفن .

– لست أعرف الكثير عن هذا الأمر وكل ما لا أستطيع أن أقوله إن المرء يستفيد من الأخطاء التي يرتكبها بنفسه أكثر مما لو سار في طريق صحيح ينصحه به غيره .. لقد حاولت ولم أفلح ولن يضيرني أن أستقر الآن .

–في أى شئ تستقر ؟

ولم يكن فيليب قد استعد للرد عن هذا السؤال لأنه في الحقيقة لم يقرر شيئا، بل فكر في كثير من الاحتمالات وقال القس :

–إن أنسب شئ هو أن تزاول مهنة والدك وتصبح طبيبا .

من أغرب الأشياء أن هذا بالضبط هو ما انتويت .

لقد فكر من بين ما فكر فيه فيليب أن يشتغل بالطب وكان أكبر سبب حمله على هذا التفكير أن الطب مهنة تتيح للمرء قدرا كبيرا من الحرية الشخصية .. وكان ما لاقاه أثناء العمل في المكاتب قد جعله يقرر ألا تكون له صلة بعمل مكتبي مرة أخرى .. وكادت إجابته عن سؤال القس تفلت منه دون وعى لأنها كانت من الأجوبة المسكتة.

وأعجبه أن اتخذ قراره بهذه الطريقة المفاجئة وقرر في تلك اللحظة وفي ذلك المكان أن يلتحق بمستشفي والده القديم في الخريف وقال القس :

–إذن فيمكن أن تعتبر السنتين اللتين قضيتهما في باريس كأنهما وقت ضائع .

– إني لا أعرف شيئا عن هذا لقد قضيت سنتين جميلتين نعمت فيهما بالمرح والسرور وتعلمت من الأمور النافعة شيئا أو اثنين .

– وماذا تعلمت ؟

وفكر فيليب لحظة ، ولم تخل إجابته من رغبة رقيقة في مضايقة القس :

–لقد تعلمت أن أنظر إلى بلدان لم أكن أنظر إليها من قبل .. وبدلا من أن أنظر إلى المنازل والأشجار تعلمت أن أتأملها ومن خلفها السماء .. وتعلمت كذلك أن الظلال ليست سوداء ولكنها ملونة .

– أعتقد أنك تظن أنك في غاية الذكاء .. ولكن أقول لك إن طيشك هذا دليل على الجنون !

ودلف السيد كارى إلى حجرة مكتبه والصحيفة في يده . وبدل فيليب مقعده بذلك الذى كان يجلس عليه السيد كارى(وكان هذا هو المقعد الوحيد المريح في الحجرة) .. ونظر من خلال النافذة إلى المطر المنهمر ، ووجد في ذلك الجو الحزين نفسه وفي الحقول الخضراء التي تمتد حتى تلتقي بالأفق ما يبعث على الراحة والاطمئنان لقد كان المنظر الطبيعي سحرا عميقا لم يذكر فيليب أبدا أنه لاحظه من قبل لقد تفتحت عيناه بعد السنتين اللتين قضاهما في باريس على الجمال الذى ينطوى عليه الريف في بلده.

وابتسم وهو يفكر في كلام عمه ورأى أن من حسن الحظ أن ذهنه اتجه إلى النزق كما قال.

وبدأ يدرك الخسارة التي تكبدها بموت أبيه وأمه. فقد كان ذلك هو التباين الذى انتاب حياته وحال دون أن يرى الأمور كما يراها غيره من الناس، ذلك أن حب الآباء لأبنائهم هو العاطفة الوحيدة المنزهة عن الغرض وقد شب فيليب بين قوم غرباء كأفضل ما يمكنه ولكنهم قلما كانوا يأخذونه بالحلم والصبر وشعر بالفخر لقدرته علي السيطرة علي نفسه.. تلك الخصلة التي غرست فيه علي الرغم منه بسبب سخرية رفاقه. وبعد ذلك يقولون إنه ساخر قاسي القلب، أما الحقيقة فهي أنه اعتاد أن يكون هادئ الطبع وألا يبدو عليه شيء من الغضب في معظم الأحوال، وبهذا لم يلبث في النهاية أن أصبح عاجزا عن إظهار شعوره وقال له الناس إنه جامد العاطفة. ولكنه كان يعرف أنه تحت إمرة عواطفه فكان أى عطف يصادفه عرضا يؤثر فيه حتى لا يجرؤ في بعض الأحيان علي الكلام حتى لا يفضحه اضطراب صوته وجال بخاطره شقاؤه في المدرسة وما عاناه من المهانة وتعرض له من السخرية والتى خلفت في نفسه خوفا قاتلا من يصبح أضحوكة للآخرين وتذكر ما أحس من الوحدة عندما واجه العالم لأول مرة وما أصابه من خيبة سببها ما وجد من فرق بين خياله الوثاب بالآمال وما حققته له الحياة منها ولكنه بالرغم من هذا كان يستطيع أن ينظر إلى نفسه من خارجها ويبتسم في متعة وابتهاج وقال في نفسه:

«يا ألله لو لم أكن نزقا لقتلت نفسي» .

● ● ●

وفي اليوم الأخير من شهر سبتمبر رحل فيليب للمرة الثانية إلى لندن بقدمه الحنفاء وألف وستمائة من الجنيهات ليبدأ حياته للمرة الثالثة. وكان الامتحان الذى اجتازه فيليب قبل دخوله مهنة المحاسبة كافيا لقبوله بمدرسة الطب واختار مدرسة «القديس لوقا» لأن أباه كان طالبا فيها وقصد قبل نهاية الفترة الصيفية إلى لندن وقضي فيها يوما قابل فيه الأمين وحصل منه علي قائمة بالغرف الخالية في الحي واختار مسكنه في منزل مظلم كانت ميزته أنه لا يبعد عن المستشفي بأكثر من دقيقتين وكان فيليب قد كون فكرته عن حياة الطلبة في

كلية الطب مما كتبه تشارلز ديكنز عن حياة الجماهير بوجه عام في منتصف القرن التاسع عشر وسرعان ما وجد أن بوب ساوير – إذا كان له وجود علي الإطلاق – لم يعد كطلبة الطب في هذا الوقت.

والذين يدخلون مهنة الطب خليط من الناس منهم بطبيعة الحال من هو كسول مستهتر وأولئك يعتقدون أن حياة طلبة الطب حياة سهلة فيقضون عامين في عبث ثم يتركون المستشفي لأن مالهم ينفد أو لأن آباءهم الذين يغضبون من سلوكهم يرفضون المزيد من إعانتهم، وهناك آخرون يجدون الامتحانات أصعب مما يطيقون ويسلبهم الرسوب مرة بعد أخرى قوة أعصابهم ويصيبهم الذعر فينسون بمجرد دخولهم المباني الكريهة التي بها الممتحنون كل المعلومات التي كدوا في سبيل استذكارها من قبل، ثم يقضون عاما بعد الآخر وهم عرضة للسخرية المرحة ممن يصغرونهم سنا من الشباب، ومنهم من يجتاز امتحانات الصيدلة بصعوبة وبطء، ومنهم من يصبحون مساعدين غير مؤهلين وهو وضع مزعزع يصبحون فيه تحت رحمة مرءوسيهم ومصيرهم الفقر والسكر ولا يعلم أمرهم إلا الله ولكن الأغلبية الكبرى من طلبة الطب شباب مجدون من الطبقة الوسطي ذو دخل كاف يعينهم علي العيش المحترم الذى تعودوه من قبل ومنهم الكثيرون من أبناء الأطباء بدا عليهم بالفعل طابع المهنة ومستقبلهم مرسوم، فهم حين ينالون إجازاتهم يتقدمون في إحدى الوظائف بالمستشفيات (وقد يقوم بعضهم برحلة إلى الشرق الأوسط علي ظهر إحدى البواخر) ثم يعودون بعد ذلك إلى آبائهم ويقضون بقية حياتهم يمارسون مهنتهم في الريف ويبدو النبوغ غير العتاد علي الذين يستحقونها، ثم يحصلون علي وظيفة بعد أخرى في المستشفي ويدخلون في عداد هيئة موظفيه، ثم يفتتحون عيادات الاستشارة في شارع هارلي ويتخصصون في أحد الفروع ويصبحون من الأغنياء المبرزين ذوى الألقاب.

وهيأ فيليب الجو لنفسه في حجراته الصغيرة لكي يشعر بالارتياح. فرتب وعلق اللوحات التي كانت لديه علي الحائط وكان يقطن في الطابق التالي فوق حجرة الاستقبال رجل في السنة الخامسة في المدرسة اسمه جريفث ولم يكن فيليب يراه إلا قليلا لأن جريفث هذا كان مشغولا في أقسام المستشفي من ناحية ومن ناحية أخرى كان من قبل في جامعة أكسفورد، وكان أمثال هؤلاء الطلبة الذين كانوا في الجامعة لا يختلطون إلا بأمثالهم في الكثير من الأوقات، وكانوا يستخدمون وسائل كثيرة طبيعية بالنسبة للشباب يطبعون بها في فقد وجدوا أن هذه الرصانة الأوليمبية مما لا يمكن احتماله.

وكان جريفث طويل القامة ذا شعر ملتو أحمر وعينين زرقاوين وبشرة بيضاء وفم أحمر قاني، وكان من أولئك المحظوظين الذين يحبهم الناس جميعا وكان جم النشاط دائم المرح وكان يعزف قليلا علي البيان ويترنم بأغان هزلية في مرح وكان فيليب كلما جلس في الأمسية تلو الأخرى يقرأ في حجرته الموحشة سمع من فوقه ضحكات أصدقاء جريفث وضجيجهم الصاخب وجالت بخاطره تلك الأمسيات الجملية التي قضاها في باريس عندما

كانوا يجلسون في المرسم؛ لوسون وهو وفانا جان وكلاتون ويتبادلون الحديث حول الفن والأخلاق ثم غرامياتهم في ذلك الوقت وفي المستقبل. وشعر بالكآبة تغشاه إذ وجد أن من السهل علي المرء أن يتصرف تصرفا يوحي بالبطولة ولكن من الصعب عليه أن يتحمل نتائج ذلك التصرف وكان أسوأ ما في الأمر أنه خيل إليه أن هذا العمل متعب وممل للغاية وكان قد تخلص من مشكلة الإجابة عن أسئلة المدرسين وكان ذهنه يشرد أثناء المحاضرات ووجد أن علم التشريح علم جاف لا يعدو أن يكون مجرد حفظ عن ظهر قلب لعدد لا يحصي من الحقائق، أما عمليات التشريح ذاتها فقد كانت تبعث سأمه ولم يعرف ماجدوي التشريح الدقيق للأعصاب والشرايين في حين أن المجهود يصبح أقل عناء إذا اطلع المرء علي الرسوم التوضيحية بالكتب أو معرض التشريح حيث يعرف كل عصب وكل شريان.

واتخذ فيليب له أصدقاء عرضا ولكنهم لم يكونوا بالأصدقاء الحميمين لأنه لم يكن لديه أمر خاص يحدث عنه رفاقه. وعندما حاول أن يبدى اهتمامه بأمورهم شعر بأنهم يرون أنه يتعالى عليهم، ولم يكن هو من أولئك الذين يستطيعون التحدث بما يثير غيره دون أن يعنوا هل حديثهم يبعث علي الملل وسمع أحدهم أن فيليب درس الفن في باريس. وكان الرجل معجبا بذوقه، فحاول أن يناقش فيليب في الفن ولكن فيليب لم يكن يطيق الآراء التي لا تتفق ورأيه ولم يكد يدرك أن آراء ذلك الرجل عن الفن كانت تقليدية حتى أخذ يتحدث إلا في كلمات مقتضبة .

وكان فيليب يبغي الشهرة ولكنه لم يستطع أن يخلع البهجة علي غيره. ودفعه خوفه من أن يصدوه عنهم إلى أن يتودد إليهم، وأخفي خجله وكان لا يزال شديدا تحت ستار من الصمت الجامد، لقد كان يمر بمثل التجربة التي مر بها في المدرسة ولكن الفارق هنا هو أن حرية طلبه الطب جعلت من الميسور له أن يبقي وحيدا في كثير من الأوقات. ولم تكن صداقته مع دنسفورد لأى مجهود بذله. وقد تعلق دنسفورد بفيليب لأنه كان أول شخص تعرف به في مستشفي القديس لوقا ولأنه له أصدقاء في لندن ولهذا أعتاد هو وفيليب في أمسيات الأحد أن يذهبا لإحدى قاعات الموسيقي ويتخذا لهما مكانا في الردهة السفلي أو في دار التمثيل حيث يجلسان في المقاعد العليا. كان دنسفورد يتسم بالغباء ولكنه كان مرحا ولم يكن يغضب أبدا وكان يبدى ملاحظات لا عمق فيها وكان يبتسم عندما يضحك منه فيليب وكان له ابتسامة حلوة، ومع أن فيليب قد اتخذه هدفا لسخريته فإنه كان يحبه وأعجبته طيبته وطباعه السهلة وكان لدنسفورد ذلك السحر الذى أدرك فيليب أنه ينقصه. وكثيرا ما كانا يتناولان الشاى في محل في شارع البرلمان لأن دنسفورد كان معجبا بفتاة صغيرة تعمل ساقية في المحل وأن فيليب لم يجد فيها أية جاذبية فقد كانت طويلة نحيفة ذات ردفين ضيقين وصدر كصدر الصبي.

وقال له فيليب ساخرا:

–إن أحدا لن يعيرها نظرة في باريس.

فأجاب دنسفورد:

-أن وجهها رائع.

-وما قيمة الوجه؟

وكانت ذات ملامح صغيرة منتظمة وعينين زرقاوين وجبهة عريضة منخفضة قال عنها المصورون في العصر الفيكتورى أنها تمثل الجمال الإغريقي وبدا شعرها غزيرا جدا، فقد صففته بإتقان كبير وجمعته فوق الجبهة بطريقة تسميها «أهداب المسكارا»، كانت هزيلة للغاية وقد علا الشحوب شفتيها الرفيعتين وكان جلدها رقيقا يغشاه لون أخضر شاحب وشيء من الاحمرار في وجنتيها، وكانت يداها جد صغيرتين رفيعتين لونهما أبيض ، وتبدو في عينيها نظرة من السأم أثناء تأديتها عملها.

ولم ينجح دنسفورد لشدة حيائه من النساء في أن يتبادل الحديث معها فألح علي فيليب أن يعاونه قائلا:

-كل ما أريده منك هو أن تمهد لي الطريق وأنا كفيل بعد ذلك أن أدبر أموري بنفسي.

وقال فيليب لها كلمة أو اثنتين مراضاة له ولكنها ردت عليه ردا مقتضبا.. وكانت قد قدرتهما حق التقدير وخالت إنهما من الطلبة فقد كانا صبيين ولم تكن بحاجة إلى أمثالهما ولاحظ دنسفورد أن رجلا ذا شعر أصفر وشارب بدا عليه أنه ألماني كان يجذب انتباهها كلما أتي إلى المحل فإذا أتي لم يستطيعا أن يحملانها علي إجابة طلبهما إلا بعد أن يناديانها مرتين وثلاث مرات. وكانت تعامل من لا تعرفهم من رواد المكان في وقاحة جافة وإذا كانت تتحدث إلى صديق كانت تتجاهل نداء من هم في عجلة من أمرهم، وكانت تعامل النسوة اللائى يطلبن المرطبات في وقاحة وكانت تثير ضيقهن دون أن تتيح لهن فرصة للشكوى إلى إدارة المحل. وقد أبلغه دنسفورد في أحد الأيام أن اسمها ميلدريد فقد سمع إحدى الفتيات تناديها بهذا الاسم.

فقال فيليب:

-يا له من اسم كريه.

وسأله دنسفورد:

-لماذا أني أحب هذا الاسم.

-إن فيه عجرفة شديدة

واتفق أن الألماني لم يأت إلى المحل في ذلك اليوم فلما أحضرت لهما الشاى ابتسم فيليب وقال:

-إن صديقك لم يحضر اليوم.

وردت عليه في برودة قائلة:

-لا أعرف ماذا تعني.

- كنت أشير إلى ذلك الرجل ذى الشارب الذى في لون الرمال ترى هل استبدل بك واحدة أخرى؟

فردت عليه قائلة:

-بعض الناس يحسنون إذا لم يتدخلوا في شئون غيرهم.

وتركتهما وجلست تقرأ في إحدى الصحف إذ لم يكن هناك أحد في المحل..

وقال له دنسفورد:

-إنك أحمق إذ جعلتها تولي ظهرها نحونا.

فأجاب فيليب:

-إني لا أبالي على الإطلاق بحالة فقيرات مثلها.

ولكن فيليب شعر بأنها غاظته فقد أثاره أنه كان عندما يحاول أن يكون لطيفا مع امرأة ساءها ذلك منه وعندما طلب الحساب خاطر بعبارة أخرى عسي أن تكون لها ما بعدها فقال وهو يبتسم:

-ألم تعد بيننا صلة تتيح لنا أن نتبادل الحديث؟

-إنني هنا لأ تلقي الأوامر وألبي طلبات الرواد وليس لدى ما أقوله لهم ولا أريد منهم أن يقولوا لي شيئا.

ووضعت قصاصة الورق التي دونت عليها الحساب وعادت إلى المائدة التي كانت تجلس إليها من قبل واحمر وجه فيليب غضبا وقال دنسفورد بعدما خرجا من المحل.

-هذه لكمة بين عينيك يا فيليب.

ورد فيليب قائلا:

-إنها قذرة معدومة الأخلاق ولن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى.. وكان لفيليب علي دنسفورد من النقود ما استطاع معه إقناعه بارتياد مكان آخر يشربان فيه الشاى وسرعان ما وجد دنسفورد فتاة أخرى يداعبها ولكن هذا الصد الذى لاقاه فيليب من خادمة المطعم حز في نفسه فلو أنها عاملته بأدب لما عبأ بها علي الإطلاق ولكنه لم يكن خافيا عليه أنها لم تكن تحبه فجرحت كبرياؤه ولم يستطع أن يقاوم رغبة في نفسه بأن يرد لها كيدها وقد آلمه أشد الألم إن كان لها هذا الشعور الحقير. وانقضي يومان أو ثلاثة من الحزم لم يذهب فيها إلى المحل ولكن هذه الفترة لم تعنه علي التغلب علي ما في نفسه وقرر أخيرا ألا يبالى فإن رؤيتها ليست بالأمر الذى يسبب له أقل عناء وإذا رآها فإنه بلا شك سيكف عن التفكير فيها وزعم في إحدى الليالي أنه علي موعد هناك وذلك لأنه في واقع الأمر كان يستحي أشد الاستحياء من ضعفه وقصد من فوره إلى المحل الذى أقسم إنه لن يدخله مرة أخرى ورأى الساقية في اللحظة التي جلس فيها إلى إحدى مناضدها، وتوقع منها أن تقول شيئا عن تغيبه أسبوعا ولكنها عندما أتت إليه لم تقل شيئا وكان قد سمعها تقول لعميل آخر:

-إنك غريب عن البلدة تماما.

ولم يصدر منها ما يشير إلى أنها رأته من قبل وأراد أن يعرف هل كانت قد نسيته حقا فسألها عندما أحضرت الشاى.

–هل رأيت صديقي الليلة؟

–لا إنه لم يأت إلى هنا منذ عدة أيام.

وأراد أن يتخذ هذه الفرصة بداية لحديث ولكنه كان متوتر الأعصاب إلى حد عجيب لم يستطع معه أن يفكر في شيء يقوله وتركته هي في الحال فلم تتح له الفرصة لذلك، ولم تسنح له الفرصة ليحدثها بشيء حتى تغلب على حياته فقال:

–إن الجو قذر اليوم أليس كذلك؟

كان اضطراره إلى أن يعد عبارة مثل هذه من أشق الأمور علي نفسه ولم يستطع أن يدرك لماذا شعر بهذا الحرج الشديد.

–إن حالة الجو لا تهمني كثيرا لأني مضطرة إلى أن أقضي طيلة يومي هنا.

وكانت في لهجتها وقاحة ضايقته وقفز إلى شفتيه حديث سخرية ولكنه أجبر نفسه على الصمت وحدث نفسه في غضب قائلا: أود لو تقول الآن شيئا وقحا لكي أرد إليها كيدها وأشكوها إلى صاحب المحل فيطردها وسيكون هذا عقابا رادعا لها.

ولم يستطع فيليب أن يبعدها عن فكره وضحك في غضب من حماقته فقد كان من السخف أن يهتم بما قالته له خادمة هزيلة مصابة بفقر في الدم. ولكنه أعتقد أنه امتهن امتهانا غريبا، وبالرغم من أن أحدا لم يعلم بهذا الامتهان إلا دنسفورد الذى نسيه من غير شك فإنه أحس بأنه لا بد أن يمحو هذا العار عن نفسه وراح يفكر في خير طريقة لذلك، وقرر أن يذهب إلى المحل كل يوم. وكان قد ترك في نفسها صورة له غير مستحبة ولكنه أعتقد أن لديه من الحصافة ما يمكنه من أن يزيل هذا الأثر فسيحذر ألا يقول ما من شأنه أن يغضب أكثر الناس حساسية . وفعل كل ذلك ولكنه لم ير أية ثمرة له . فكان إذا جاء المحل وحياها تحية المساء ردت عليه بنفس الألفاظ ، ولما قرر مرة ألا يحييها كي يرى هل تبادر هي إلى تحيته لم تقل شيئا على الإطلاق . وحينئذ تمتم في سريرته بلفظ يستخدم عادة في وصف الجنس اللطيف ولكنه لا يطلق عليهم عادة في المجتمعات المهذبة . لكنه طلب الشاى دون أن يبدو على وجهه أقل أثر وقرر ألا يتفوه بكلمة واحدة وغادر المكان دون أن يلقى إليها بتحية المساء المعتادة واعتزم ألا يذهب إلى هناك مرة أخرى . ولكنه عندما آن موعد تناوله الشاى في اليوم التالي شعر بقلق شديد . وحاول أن يفكر في أشياء أخرى ، ولكن أفكاره لم تكن تطاوعه، وأخيرا حدث نفسه في يأس قائلا :

«ليس هناك على أية حال .. ما يمنعني من الذهاب إن أردت ذلك».

وطال الصراع بينه وبين نفسه ، وكانت الساعة تقترب من السابعة عندما دخل المحل وبادرته قائلة عندما اتخذ مجلسه إلى المائدة :

–اعتقدت أنك لن تأتى الليلة .

وقفز قلبه بين ضلوعه وأحس بوجهه يعلوه الاحمرار وقال :

–لقد حال سبب قاهر بيني وبين مجيئي فلم أستطع المجيء قبل الآن .

– كنت تواصل تشريح الناس على ما أعتقد .

– ليس الأمر بهذه البشاعة .

– أنت طالب طب أليس كذلك ؟

– بلى ...

وبدا أن ذلك قد أرضى فضولها ، فتركته . ولما لم يكن هناك أحد على المناضد التي تقوم بخدمتها في ذلك الوقت المتأخر ، فقد انهمكت في قراءة إحدى القصص الصغيرة .. وكان هذا في الوقت الذى لم تكن قد ظهرت فيه بعض طبعات القصص التي تباع بنسات ستة ، فكان بعض الفقراء من الكتاب يصدرون سلاسل منتظمة من القصص الرخيص إذا طلب إليهم هذا لاستهلاك الجهلة من القراء . وشعر فيليب وقتئذ بنشوة بالغة ، لأنها خاطبته من تلقاء نفسها . ورأى أن الفرصة تقترب وسيحين دوره ليبلغها رأيه فيها بالضبط ، وسيستريح كثيرا عندما يعرب لها عن مدى احتقاره البالغ لها . ونظر إليها فكان وجهها من الجانب جميلا حقا ، ومن الغريب أن الفتيات الإنجليزيات من هذه الطبقة يمتزن بوجوه تحدوها خطوط في غاية الكمال إلى حد يبهر أنفاسك . ولكن وجهها كان باردا برودة الرخام. وكان الاخضرار الشاحب الذى كسا بشرتها يوحي بالسقم وكانت الخادمات كلهن يرتدين نفس الثياب .. الثياب السود العادية التي لا جمال فيها ،مئزر أبيض وكمين من نفس اللون، وقبعة. ورسم لها فيليب صورة تخطيطية على ورقة كانت في جيبه، بينما كانت تجلس منحنية فوق الكتاب (وكانت تحرك شفتيها بالكلمات أثناء القراءة) وترك الورقة على المنضدة عندما غادر المكان .. لقد كان ذلك إلهاما لأنها عندما دخل المحل في اليوم التالي ابتسمت له قائلة:

–لم أكن أعرف أنك تستطيع أن ترسم..

–لقد كنت طالب رسم في باريس مدة سنتين.

–لقد ذهبت بهذا الرسم الذى تركته أمس إلى المديرة وقد ذهلت.. هل كنت تقصدني أنا به؟

–نعم...

وعندما غادرته لتحضر له الشاى جاءته إحدى الفتيات الأخريات وقالت:

لقد رأيت الصورة التي رسمتها للآنسة روجرز، فوجدتها صورة منها طبق الأصل.

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمع فيها فيليب اسمها، وعندما أراد دفع الحساب ناداها به.. وعندما جاءت إليه قالت:

–أرى أنك تعرف اسمي.

–لقد ذكرته صاحبتك أثناء حديثها لي عن ذلك الرسم.

-إنها تريد منك أن ترسم صورة لها .. فلا تفعل لأنك إذا ما بدأت وجب أن تستمر وسيطل
إليك جميعا أن ترسمهن.

ثم انتقلت لموضوع لا صلة له مطلقا بهذا الحديث ودون أن تقطع حديثها بحال:

-أين هذا الشاب الصغير الذى كان يأتي بصحبتك؟ هل رحل؟

وقال فيليب:

-عجيب أن تتذكرى هذا الشاب.

-لقد كان شابا صغيرا جميل المنظر.

وشعر بقلبه وقد انتابه إحساس غريب لم يعرف ماهيته. ولقد كان لدنسفورد شعر م جميل، وبشرة ناضرة ،وابتسامة حلوة ، وفكر فيليب في مميزات دنسفورد هذه في شئ الحـ

وقال ضاحكا :

-أوه ... إنه عاشق.

وانتابه القلق في اليوم التالي. وفكر في الذهاب لتناول غذائه في مشرب الشاى.. ولكـ كان واثقا من أن المكان سيزدحم وقتئذ بالناس ولن تتمكن ميلدريد من التحدث إليه . وكـ قد نجح من قبل أن يتخلص من تناوله الشاى مع دنسفورد، وفي هذه المرة ذهب إلى المشـ في منتصف الساعة الخامسة بالضبط ونقول بالضبط لأنه قد نظر قبلها إلى ساعته أثـ عشرة مرة .

وكان ظهر ميلدريد مواجها له. فقد جلست تتحدث مع الألماني الذى كان فيليب هناك كل يوم كل الأسبوعين الماضيين . ثم لم يعد يراه على الإطلاق . وكانت تضحك يقوله الألماني . وظن فيليب أن ضحكتها رخيصة فاقشعر لذلك بدنه . وناداها ولكنها لم تـ إليه ، فناداها مرة أخرى .. ثم اجتاحه الغضب فقد كان عديم الصبر وقرع المنضدة بعـ بصوت مرتفع وعندما اقتربت منه في عبوس بادرها قائلا :

-كيف حالك ؟

– يبدو أنك في عجلة شديدة من أمرك.

ونظرت إليه بطريقتها الوقحة التي عرفها عنها جيدا .. وسألها قائلا:

-خبريني ماذا بك ؟

– إذا تفضلت وطلبت ما تريد أتيتك به لأني لا أستطيع أن أقف لأتحدث طوال الليل

وأجاب فيليب في اقتضاب :

-شاى وفطير مقدد من فضلك ..

واستشاط غضبا . وعندما أحضرت الشاى راح يقرأ بعناية جريدة «النجم» التي كانت

وقال لها في برود:

-إذا أحضرت لي قائمة الحساب الآن فلن أزعجك بعد ذلك :

ورقمت له الحساب ووضعته على المنضدة وعادت إلى الألماني وسرعان ما راحت تتحدث إليه في فرح . وكان الألماني رجلا متوسط الطول له رأس الألمان المستديرة ووجه شاحب اللون وكان شاربه عريضا منتفش الشعر ، وكان يرتدى سترة طويلة الذيل وسروالا رماديا، وتدلت من صدرته سلسلة ساعة ذهبية ضخمة . وخيل إلى فيليب أن الفتاتين الأخريين أخذتا تنظران إليه ثم إلى الاثنين اللذين جلسا إلى المائدة نظرات ذات مغزى ، ولم يكن يشك في أنهما تضحكان منه فغلى دمه ، وعندئذ احتقر ميلدريد من كل قلبه وأدرك أن خير ما يفعله هو أن يكف عن المجيء إلى المشرب ولكنه لا يستطيع أن يحتمل فكرة هزيمته في هذا الأمر . ووضع خطة يبين لها بها أنه يحتقرها . ففي اليوم التالي جلس إلى مائدة أخرى وطلب الشاى من خادمة غيرها . وكان صديق ميلدريد هنالك وأخذت هي تحادثه . ولم تلتفت إلى فيليب ، ولهذا فإنه لما هم بالخروج اختار لحظة كانت تمر فيها بطريقه . فلما مر بها نظر إليها وكأنه لم يرها أبدا من قبل . وكرر هذا العمل ثلاثة أيام أو أربعة وكان يتوقع أن تنتهز الفرصة لكي تقول له شيئا كأن تسأله مثلا لم لا يجلس الآن إلى إحدى مناضدها ، وأعد لها جواباً مليئا بكل ما يشعر به نحوها من احتقار . وكان يعلم أنه من السخف أن يزعج نفسه إلى هذا الحد ولكنه لم يسعه غير هذا .. ذلك أنها قد غلبته على أمره .... ثم اختفي مرة أخرى الألماني فجأة. ولكن فيليب ظل يجلس إلى موائد غير الموائد التي تقوم هي بخدمتها . ومع ذلك فلم تلق إليه بالا .. وأدرك فجأة أن ما فعله لم يكن يلقي من جانبها أى اهتمام على الإطلاق .. فقد يظل على ما هو عليه حتى يوم الحشر ولن يكون له أى أثر فيها . وحدث نفسه قائلاً :

– إني لم أنته بعد .

وفي اليوم التالي جلس في مقعده القديم وعندما جاءت إليه ألقى إليها بتحية المساء وكأنه لم يتجاهلها طيلة أسبوع.

كان وجهه هادئاً ولكنه لم يستطع أن يسكن ضربات قلبه القوية . وكانت المسرحيات الموسيقية قد بدأت في تلك الأيام تحوز رضاء الجماهير . وكان واثقاً من أن ميلدريد يسرها رؤية إحدى هذه المسرحيات. فقال لها من فوره :

ــ ترى أتتناولين معي العشاء يوما ثم نذهب إلى مسرحية «فتاة نيويورك» الجميلة فإن وافقت فسأبتاع مقعدين أماميين .

وقد ذكر هذه العبارة الأخيرة حتى يغريها بها لأنه كان يعلم أن الفتيات غالبا ما يجلسن في المقاعد الخلفية الرخيصة . وإذا صحبهن الرجال فإنهن قلما يجلسن في مقاعد أفضل من مقاعد الدائرة العليا من شرفة المسرح . ولم يبد على وجه ميلدريد الشاحب أى تغيير وقالت :

ــ ليس لدى مانع ..

ــ متى تأتين ؟

ــ إني أفرغ من عملي مبكرة يوم الخميس ...

وكانت ميلدريد تعيش مع عمة لها في تلال كارين . وكانت المسرحية الموسيقية
في الثامنة فكان عليهما إذن أن يتناولا العشاء في السابعة . واقترحت عليه أن يقابلها
استراحة الدرجة الثانية في محطة فكتوريا .

ولم تبد أى شعور بالاغتباط ولكنها قبلت الدعوة وكأنها تسدى جميلا وانتاب في
شعور بضيق خفي .

ووصل فيليب إلى محطة فكتوريا قبل الموعد الذى حددته ميلدريد ، بنحو نصف سا
وجلس في استراحة الدرجة الثانية وانتظر ، ولكنها لم تأت وبدأ القلق ينتابه ، وسار
المحطة يراقب القطارات الداخلة إليها من الضواحي ومضت الساعة التي حددتها ولم
هناك أثر لها . ونفد صبر فيليب ، وذهب إلى حجرات الاستراحة الأخرى وأخذ يتطلع إلى
فيها . ثم خفق قلبه فجأة خفقانا شديدا وقال :

- ها أنت قد جئت بعد أن أعتقدت أنك لن تأتي أبدا .

– جميل منك أن تقول ذلك بعد أن جعلتني أنتظرك طيلة هذا الوقت لقد كنت على
أن أعود إلى المنزل.

– ولكنك قلت إنك ستنتظرين في استراحة الدرجة الثانية .

– إني لم أقل هذا فمادمت أستطيع الجلوس في الدرجة الأولى فلماذا أنتظر في ال
الثانية ؟ أليس كذلك ؟.

وكان فيليب واثقا من أنه لم يخطئ ولكنه مع ذلك لم يقل شيئا واستقلا عربة . وس

– أين نتناول طعام العشاء ؟

- لقد كنت أفكر في مطعم (أديلفي) .. هل يناسبك ذلك ؟

- إني لا أبالي أين نتناول الطعام ..

وكانت تتكلم في غير رقة . فقد أغضبها انتظارها الطويل فكانت ترد على محا
فيليب للحديث في كلمات مقتضبة . وكانت ترتدى عباءة طويلة من قماش أسود
ووضعت لفاعة مطرزة فوق رأسها . ووصلا إلى المطعم وجلسا إلى إحدى الموائد . و
ميلدريد حولها في اغتباط ، وقد أضفت الظلال الحمراء و الشموع على الموائد وألوان ال
الذهبية والمرايا على الحجرة جوا رائعا .

__ إني لم آت هنا أبدا من قبل .

وابتسمت لفيليب ، وخلعت عباءتها فرأى فيليب أنها ترتدى ثوبا أزرق حائل الل
وكانت قد صففت شعرها بمزيد من العناية . وطلب فيليب مشروب الشمبانيا . ولمعت ع
عندما جاء الشراب .

__ إنك ستثمل ...

وسألها في غير مبالاة وكأنه لا يشرب شيئا غير الشمبانيا :

__ لأني طلبت هذا المشروب الفوار ؟

__ لقد فوجئت عندما دعوتني إلى الذهاب معك إلى المسرح.

ولم يجر الحديث بينهما سهلا لأنها بدت وكأنها لم يكن في جعبتها الكثير مما يقال . وأحس فيليب بشيء من الضيق لأنه لا يسليها . واستمعت هي في غير اكتراث إلى ملاحظاته وعيناها تدور بين الناس الذين يتناولون عشاءهم .

ولم تحاول التظاهر بأنها مهتمة به ونطق بفكاهة أو اثنين ولكنها حملتها محمل الجد، ولم تبد من الحماسة شيئا إلا عندما أخذ يتحدث عن الفتيات الأخريات في المحل فقالت أنها لا تطيق مديرة المحل وحدثته عن كل مشاكلها بالتفصيل .

وفرغا من تناول الطعام وذهبا إلى المسرح ، وكان فيليب شابا مثقفا فكان ينظر إلى العرض الموسيقي باستهجان لأن النكات فيه كانت بذيئة والموسيقى غير رفيعة .. وخيل إليه أنهم في باريس أكثر إتقانا لهذا النوع من المسرح.. و لكن ميلدريد استمتعت أيما استمتاع فضحكت حتى آلمها جنبها، و كانت تنظر إلى فيليب من آن لآخر عندما تبتهج من شيء فتريد أن تبادله نظرة سرور، ثم تصفق في حماسة بالغة. و قالت بعد انتهاء الفصل الأول:

- هذه هي المرة السابعة التي أحضر فيها.. و ليس لدى مانع من الحضور سبع مرات أخرى.

وقد اهتمت ملدريد كثيرا بالنسوة اللائى جلسن في المقاعد حولها. و لم تجد واحدة منهن جديرة بإعجابها و لم تتحدث عنهن إلا لتذمهن.. و قد شعر فيليب بعدم الارتياح إزاء هذا و افترض أنها ستقول لكل الفتيات في المطعم إنه اصطحبها و إنها سئمت وجوده معها أشد السآمة.

و لذلك شعر بأنة لا يحبها، ولكنه بالرغم من هذا كان يريد لسبب لا يعرفه أن يكون معها، ولهذا سألها و هما في طريق عودتهما إلى المنزل:

__ أرجو أن تكوني قد استمتعت..

__ إلى حد ما..

__ هل تخرجين معي مساء آخر؟

__ليس لدى مانع..

ولم يكن يسمع منها غير أمثال هذه العبارات، و قد أثار عدم مبالاتها جنونه..

وعندما استلقى في فراشه خيل إليه أنه لا يمكن أن يكون قد وقع في غرام ميلدريد روجرز.. لقد كان اسمها قبيحا،و لم يكن يعتقد أنها جميلة و كان يمقت نحافتها. و لم يلحظ إلا في تلك الأمسية بروز عظام صدرها من ثوب السهرة التي كانت ترتديه.. وقد تأمل كل ملامح وجهها فلم يعجب بفمها واشمأز بعض الاشمئزاز من السقم الذى بدا على لونها.. لقد كانت فتاة عادية، و كانت عباراتها القليلة المكشوفة التي كانت تكررها بصفة مستمرة تبين تفاهة عقلها. و تذكر ضحكاتها الصغيرة السمجة أثناء المسرحية الموسيقية. و تذكر تلك الأصابع الصغيرة التي امتدت في حذر عندما رفعت كأسها إلى شفتيها. و كان خلقها

كحديثها كريها في رقته. و تذكر كذلك وقاحتها. و كان أحيانا يشعر بميل إلى لكمها على أذنيها. و لم يدرك في هذه اللحظة لماذا انتابت عواطفه حدة مفاجئة.. لم يبد لها سببا. ولربما كان ذلك لتذكره ضربها على أذنيها الصغيرتين الجميلتين. لقد حن إليها، و فكر في ضم هذا الجسد النحيل الهش بين ذراعيه ، وتقبيل فمها الشاحب ، وأراد أن يربت على وجنتيها بلونهما الضارب إلى الخضرة .. لقد كان يشتهيها .

لقد كان يفكر في الحب على أنه شعور بالنشوة والابتهاج يمتلك الفرء فيشعر أن العالم كله أصبح كالربيع . لقد توقع سعادة ذات نشوة ولكن هذه لم تكن سعادة . بل كانت مغص نفسانية وشوقا أليما ، وألما مريرا، لم يعرفه أبدا من قبل . وحاول أن يذكر المرة الأولى التي انتابه فيها هذا الشعور فلم يعرف .. وكل ما كان يذكره أنه في كل مرة كان يذهب فيها إلى المحل بعد المرات الثلاث الأولى كان يغشى قلبه شعور هزيل بالألم، وتذكر أنه عندما كانت تحدثه كان يحس بأنه مبهور الأنفاس انبهارا عجيبا.. لقد كان تركها إياه هو البؤس بعينه وكانت عودتها إليه هي اليأس... تمدد في فراشة كما تفعل الكلاب وتساءل كيف سيحتمل هذا العذاب النفساني الذى لا ينقطع أبدا.

وابتاع فيليب تذكرتين من تذاكر ليلة السبت .. ولم يكن هذا اليوم من الأيام التي تترك فيها عملها مبكرة، ولهذا لم يكن لديها من الوقت ما يتيح لها عودتها إلى منزلها واستبدال ثيابها . ولكنها اعتزمت أن تأتى معها في الصباح بسترة سوداء وأن ترتدى ملابسها مسر فإذا كانت المديرة منشرحة الخاطر سمحت لها بالخروج في الساعة السابعة . واتفق فيليب على انتظارها في الخارج ابتداء من السابعة إلا الربع. وكان ينتظر هذه الفرصة في شوق أل إذ أعتقد أنها ستسمح له أن يقبلها وهما في العربة في طريقهما من المسرح إلى المحطة وكانت متعة هذه اللحظات توازى نفقات السهرة.

ولكنه عندما ذهب إلى المحل بعد ظهر يوم السبت ليتناول الشاى ويؤكد الموعد ، قابل الرجل ذا الشارب الأشقر خارجا منه ، وكان قد عرف اسمه وهو ميللر وكان ألمانيا تجنس بالجنسية الانجليزية وعدل اسمه حتى سار انجليزيا وعاش سنوات كثيرة في انجلترا. و سمعه فيليب وهو يتكلم وبالرغم من أن لغته كانت طبيعية فإن لكنته لم تكن ككل المواطنين بالضبط. وعرف فيليب أن الألماني كان يغازل ميلدريد فأحس بغيرة شديدة م ولكنه استراح للبرود الذى تتسم به طباعها والذى كان يؤلمه في غير هذه المناسبة . وإذ كان يعتقد أنها مجردة من العاطفة فقد كان ينظر إلى غريمه على أنه لن يكون أفضل حالا منه ولكن قلبه خفق الآن خفقانا شديدا لأن أول ما تبادر إلى ذهنه هو أن ظهور ميللر سيفسد عليه النزهة التي طالما تاق إليها. ودخل المحل وقد انتابته الكآبة خشية ما يحدث. وجاءت إليه الساقية، وتلقت طلبه وما لبثت أن عادت بالشاى وقالت له وقد بدا على وجهها شعور حقيقي بالضيق:

–إني لجد آسفة فلن أستطيع أن أخرج معك الليلة.

وقال فيليب:

–لماذا

وضحكت قائلة:

–لا تكتئب لهذا فإنها ليست غلطتي. فقد مرضت عمتي ليلة أمس والليلة هو موعد خروج الخادمة فيجب على أن أبقى معها لأنه لا يمكن أن تترك وحدها. أليس كذلك؟

–هذا ليس بذى أهمية فسأوصلك بدل هذا إلى المنزل.

–ولكن التذكرتين معك ويؤسفنى أن تضيع قيمتهما بهذه الطريقة.

فأخرج فيليب التذكرتين من جيبه ومزقهما .. على مهل في هدوء..

–ولم تفعل هذا؟

–لا أظنك تعتقدين أني أريد الذهاب إلى تلك المسرحية الموسيقية العفنة بمفردى ؟ إنى لم ابتع هاتين التذكرتين إلا من أجلك.

–إنك لا تستطيع أن توصلني إلى المنزل .. إذا كان هذا هو ما تقصد..

–إذن فأنت على موعد آخر..

–إني لا أعرف ماذا تقصد .. ولكن الذى أعرفه أنك أناني كغيرك تماما. وإنك لا تفكر إلا في نفسك .. ولست الملومة إذا كانت عمتي مريضة..

وسرعان ما كتبت قائمة الحساب وتركته.. ولم يكن فيليب يعرف الكثير عن النساء وإلا لعلم أن المرء يجب أن يقبل كذبهن الواضح .. وقرر أن يراقب المحل ليتأكد هل ستخرج ميلدريد مع الألماني.. لقد كان يتوق للتأكد من ذلك الأمر إلى حد سبب له كثيرا من الشقاء .. وفي الساعة السابعة انتظر على الطوار المواجه للمحل وراح يرقب وصول ميللر؛ ولكنه لم يره ثم خرجت ميلدريد بعد عشر دقائق وقد ارتدت العباءة واللفاعة اللتين كانت ترتديهما عندما اصطحبها إلى مسرح سنسافتسبرى.. واتضح له من هذا أنها لا تقصد المنزل. ورأته قبل أن يتمكن من الابتعاد فأبطأت قليلا ثم ذهبت إليه على الفور ، وقالت متسائلة:

–ماذا تفعل هنا؟.

فرد قائلا:

–استنشق الهواء ..

–إنك تتجسس على أيها السافل القذر .. لقد كنت أعتقد أنك رجل مهذب .

فقال بصوت منخفض :

–وهل تعتقدين أن أى رجل مهذب يهتم بك؟

لقد تقمصه الشيطان ودفعه إلى أن يزيد الأمر سوءا على سوء ، أراد أن يؤلمها بقدر ما آلمته.

–أعتقد أني أستطيع أن أغير رأيي إذا شئت ذلك.. فلست مضطرة إلى الخروج معك.. إني أقول لك أني ذاهبة إلى المنزل .. ولا أحب أن يتبعني أو يتجسس على أحد..

–هل رأيت ميللر اليوم؟.

–هذا ليس من شانك.. والحقيقة أني لم أره.. وبهذا قد تكون قد أخطأت مرة أخرى..

–لقد رأيته بعد ظهر اليوم.. فقد خرج من المحل في اللحظة التي دخلت أنا....

وليكن ، وماذا في ذلك ؟ إني إذا شئت أن أخرج معه سأخرج معه أليس كذلك؟ ولا أعر ماذا يصح أن تقوله في هذا الأمر ..

– إنك تنتظرينه.. أليس كذلك؟.

–وليكن، إني أفضل أن أنتظره على أن تنتظرني أنت ..ضع هذا في غليونك ودخنه، والآ لعلك تعود إلى منزلك ولا تهتم بشئون غيرك.

وانقلب حال فيليب فجأة من الغضب إلى اليأس، وارتجف صوته وهو يتكلم:

–أريد أن أقول لك ألا تكوني فظة معي يا ميلدريد.. فأنت تعرفين أني مغرم بك وأعتقد أ أحبك من أعماق قلبي.. ألا تغيرين رأيك؟ لقد كنت أنتظر خروجك معي الليلة بشوق بالغ.. ترين أنه لم يأت.. إنه لا يهتم بك اهتماما حقيقيا على الإطلاق.. تعالى وتناولي العشاء مع وسأبتاع تذكرتين أخريين وسنقصد أى مكان تشائين..

–أقول لك إني لن أذهب معك وأنه لا فائدة من كلامك هذا.. فإنى لن أفعل شيئا مما تقول وعندما أقرر شيئا فإنى أتمسك به.

ونظر إليها لحظة وقلبه يتمزق من شدة الألم..وكان الناس يسرعون مارين بهما عل الطوار .. والعربات تسير في ضجيج شديد ، ورأى فيليب أن عيني ميلدريد كانا زائغتين كانت تخشى أن تفقد ميللر في وسط الزحام..وزمجر قائلا لها :

–إني لا أستطيع أن أستمر على هذه الحال فتلك حال مؤلمة لا أطيقها. وإذا ذهبت ع الآن.. فسأذهب إلى الأبد .. وإذا لم تأت معي الليلة فإنك لن تريني مرة أخرى ..

–يبدو أنك تعتقد أني لن أطيق بعدك.. وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن هذا سيكون تخل جميلا من لمامة قذرة..

–إذن فوداعا..

وأومأ برأسه إليها ثم غادرها وهو يعرج في بطء ولكنه كان يأمل من شغاف قلبه أن تع فتناديه، ووقف عند مصباح النور التالي ونظر إلى الوراء معتقدا أنها قد تشير إليه، وك حينئذ على استعداد لأن ينسى ولأن يتحمل كل امتهان .. ولكنها عادت أدراجها وبدا أنها ك عن الاهتمام به.. وأدرك أنها سرت لتخلصها منه.

ولم يسترح في نومه تلك الليلة . وكان اليوم التالي هو يوم الأحد فراح يستذكر ع الأحياء وجلس والكتاب أمامه وأخذ يقرأ الكلمات ويحرك بها شفتيه حتى يركز انتبا عليها ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئا ووجد أفكاره تعود إلى ميلدريد في كل دقيقة وراح يع الكلمات التي تبادلها أثناء شجارهما،وكان عليه أن يقهر نفسه قهرا لكي يعود بفكره إ استذكاره، ثم خرج في نزهة.وكانت الشوارع على الجانب الجنوبي من النهر رطبة مكتئ

طيلة أيام الأسبوع ولكن كان فيها نشاط أضفي عليها قليلا من الحيوية من النوع الدنيء... غير أنه في أيام الأحاد عندما تكون الحوانيت مغلقة والعربات نادرة المرور في الطرقات يصبح الجو ساكنا وبه كآبة تغدو بها هذه الشوارع موحشة إلى حد يفوق الوصف، وخيل إلى فيليب أن هذا اليوم ليس له نهاية ، ولكنه كان متعبا إلى حد راح معه في سبات عميق . ومن ثم بدا الحياة في يوم الاثنين وبه عزم أكيد. وكان عيد الميلاد يقترب فرحل عدد كبير من الطلبة إلى الريف ليقضوا الإجازة القصيرة بين فترتي الشتاء ولكن فيليب أبي أن يلبى دعوة عمه لقضاء هذه الإجازة في بلاكستابل واعتذر بقرب الامتحان . ولكنه فى الحقيقة لم يرد مغادرة لندن وميلدريد. لقد أهمل دروسه إهمالا شديدا حتى لم يعد لديه إلا خمسة عشر يوما يستذكر فيها دروسه التي كان مقدرا لها أشهر ثلاثة . وشرع يعمل في جد وكلما مر يوم وجد أنه من السهولة أكثر أن يبعد ميلدريد عن فكره وأخذ يمني نفسه على قوة شخصيته ولم يعد الألم الذى قاساه من قبل عذبا مبرحا كما كان، بل غدا نوعا من ذلك الشعور بالتعب الذى قد يشعر به المرء لو ألقى به عن ظهر حصان، وإن لم تصب عظامه بسوء ، ولكن جسده اهتز وامتلأ بالكدمات ووجد فيليب أن في استطاعته أن يرى بعين الفضول تلك الحالة التي مر بها في الأسابيع القلائل التي انقضت وراح يحلل مشاعره ويفسرها في اهتمام ، وسر في نفسه بعض السرور وأذهله أن تفكير المرء وهو خاضع لمثل هذه الظروف ليست له قيمة وأن فلسفته الخاصة التي كان يشعر بالرضاء لأنه اتبعها لم تجد معه فتيلا فانتابته الحيرة لذلك.

ولكنه كان أحيانا إذا لمح في الشارع فتاة قريبة الشبه من مليدريد شعر بقلبه كأنه يوشك أن يكف عن الخفقان . وكان حينئذ يعدو خلفها ليلحق بها وهو غير قادر على السيطرة على نفسه وبه قلق وشوق لكنه لا يلبث أن يجد الفتاة غريبة لا يعرفها قط . وعاد الرجال من الريف، وقصد فيليب بصحبة دنسفورد ليشربا الشاى في أحد محلات الألف باء تاء ولحقه الشعور بالأسى الذى يثيره الرداء المألوف الذى ترتديه خادمات المحل ، فلم يستطع الكلام وخطر بباله أنها ربما قد نقلت إلى مبنى آخر من مباني المؤسسة التي كانت تعمل فيها . وأنه قد يجد نفسه فجأة وجها لوجه أمامها ، وأثارت هذه الفكرة في نفسه الفزع . حتى خاف أن يلاحظ دنسفورد أنه قد انتابه مرض وتظاهر بأنه ينصت إلى حديثه ولكن حديث دنسفورد كاد أن يجنه ، ولم يستطع أن يمانع نفسه من الصياح في وجه دنسفورد وأن يكف عن الكلام إلا بشق النفس .

● ● ●

ثم حان يوم الامتحان وعندما حل دوره قصد من فوره نضد الممتحن وهو في غاية الثقة وأجاب عن ثلاثة أسئلة أو أربعة ثم عرضوا عليه نماذج متعددة ولم يكن فيليب قد حضر إلا القليل من المحاضرات ولهذا فإنهم كانوا يسألونه عن أشياء لم يطلع عليها في الكتب ولم

يستطع الإجابة ، وبذل كل ما في طاقته ليزيل جهله ، ولم يكن الممتحن يصر على أن يتلقى الإجابة عن أسئلته . وما لبثت الدقائق العشر المخصصة له أن انتهت . وشعر بثقة في النجاح ولكنه عندما ذهب في اليوم التالي إلى مبنى الامتحان ليرى النتيجة معلقة على الباب ، ذهل إذ لم يجد رقمه بين أرقام الذين حازوا رضاء الممتحنين وقرأ الكشف في ذهول ثلاث مرات وكان دنسفورد معه وقال له :

–إني آسف لرسوبك .

وكان دنسفورد قد سأل فيليب عن رقمه عندما استدار فيليب أدرك من وجه دنسفورد المتهلل أنه نجح فقال له :

–هذا أمر ليس بذى بال على الإطلاق .. وإني لفي غاية السرور أنك نجحت وسأتقدم إلى الامتحان في شهر يوليو .

وكان يتوق كثيرا إلى التظاهر بعدم المبالاة . ولكن شعورا بالوحدة التامة استولى عليه بعد ذلك . وبدا لنفسه سخيفا لا جدوى منه وأضحى في حاجة ماسة إلى من يواسيه في ذلك الوقت أغراه هذا لرؤية ميلدريد إغراء لم يستطع مقاومته . وحز في نفسه أنه قلما تتاح له الفرصة لرؤيتها ولكنه كان يريد أن يراها حتى ولو لم يتحدث إليها . وقال في نفسه إن ميلدريد أيا كان شأنها ليست إلا خادمة في المطعم ملزمة بأن تقوم بخدمته . وكانت هي الشخص الوحيد في العالم الذى يهمه أمره ، وليس ثمة فائدة تعود عليه من إخفاء هذه الحقيقة عن نفسه . ولقد كان من المهانة بالطبع أن يعود إلى المحل وكأن شيئا لم يحدث ولكنه لم يبق لديه الكثير من الاحترام لذاته – وكان يأمل في كل يوم أن تكتب إليه وإن لا يعترف بذلك في صراحة بينه وبين نفسه . ولم يكن يشك في أن ميلدريد تعلم أن أى خطاب يرسل بعنوان المستشفي سيصله ، ولكنها لم تكتب إليه ، إذا فلا بد إنها لم تكن تهتم به إطلاقا وإن رؤيته أو عدم رؤيته لديها سواء . وراح يردد لنفسه :

«لابد أن أراها .. لا بد أن أراها».

وكانت رغبته جامحة فلم يطق صبرا على الوقت الذى يستغرقه المسير على قدميه ، فقفز في إحدى عربات الأجرة ، مع أنه كان مقتصدا إلى حد يرى معه أن من الإسراف أن يركب العربة في الوقت الذى يمكنه في أن يتجنب ذلك ووقف خارج المحل دقيقة أو دقيقتين .. وخطر بباله أنها ربما تكون قد غادرت المحل فدخل المحل مسرعا وهو في شدة الفزع ووقع نظره عليها في الحال . وجلس فجاءت إليه فأمرها قائلا :

–قدح من الشاى وقطعة من اللحم من فضلك .

وكان يتكلم في صعوبة وهو يخشى أن ينفجر باكيا . وقالت :

–لقد ظننت أنك مت ..

لقد كانت تبتسم ، نعم .. تبتسم .. ويبدو إنها نسيت تماما ذلك المنظر الأخير الذى أعاد فيليب ذكراه لنفسه مائة مرة وقال :

–كنت أعتقد أنك إذا أردت رؤيتي فستكتبين إلى.

– إني لدى من العمل الكثير مما يشغلني عن كتابة الخطابات .

وبدا له أنها لا قبل لها بأن تقول شيئا جميلا .. ولعن فيليب القدر الذى قيده إلى هذه المرأة. وتركته لتجلب له الشاى وعندما أحضرته قالت له :

–أتريد أن أجلس معك دقيقة أو اثنتين ؟

– نعم ..

–أين كنت طوال هذا الوقت ؟

– كنت في لندن .

– لقد ظننت أنك غادرت لندن لقضاء الإجازة .. فلما لم تأت إذا ؟

ونظر إليها فيليب بعينين زائغتين ملتهبتين بالعاطفة .

–ألا تتذكرين أني قلت أنى لن أراك مرة أخرى .

– وما الذى تفعله الآن إذن ؟

وبدت كأنها تتوق لأن تسقيه كأس مهانته حتى الثمالة ولكنه كان يعرفها جيدا ويعلم أنها كانت تتكلم جزافا .. لقد آذته كثيرا بالرغم من أنها لم تحاول إيذاءه ، ولم يجبها بشيء ، وقالت :

–لقد كانت خدعة قذرة تلك التي لجأت إليها معي بتجسسك على بهذه الطريقة ولقد كنت على الدوام أظن أنك رجل كريم بكل ما في هذه الكلمة من معان .

– لا تتصرفي بهذه الوحشية معي ياميلدريد فإني لا أحتمل ذلك .

– إنك فتى غريب الأطوار لا أستطيع فهمك .

–إن الأمر في غاية البساطة .. إنى أحمق ملعون لأني أحبك من أعماق قلبي وروحي، إني لمدرك.. أنك لا تهتمين بي قيد أنملة .

–لو أنك كنت إنسانا مهذبا لعدت في طلبي في اليوم التالي لتعتذر لي.

لقد كانت عديمة الرحمة .. وتأمل جيدها وخطر بباله أنه يود لو مزقه بالسكين التي كان يقطع بها خبزه وكان يعرف من علم التشريح أنه سيخرج شريانها .. لكنه كان يود في الوقت نفسه لو غمر وجهها الشاحب الرفيع بقبلاته.

–ليتني أقدر علي أن أجعلك تفهمين كم أحبك إلى حد الهوس

– أنك لم تطلب الصفح مني بعد.

وكساه بياض شديد. لقد كانت تشعر أنها لم ترتكب شيئا من الخطأ في تلك المناسبة وكانت تريده حينئذ أن يدرك ذلك بنفسه ، أما هو فقد كان شديد الكبرياء وشعر لحظة من الزمن أنه يريد أن يقول لها أن تذهب إلى الجحيم لكنه لم يجرؤ علي هذا لأن عواطفه قد خذلته فكان علي استعداد لأن يستسلم لكل شيء إلا عدم رؤيتها. وقال:

–إني لفي غاية الآسف يا ميلدريد وأرجو المعذرة.

وكان يدفع هذه الكلمات دفعا وتطلب هذا الدفع جهدا مفزعا. وقالت:

–إني لا أبالي أن أقول لك أما وقد قلت ما قلت فإني كنت أود لو خرجت معك في تلك الليلة. لقد كنت أعتقد أن ميللر رجل مهذب ولكني اكتشفت خطئى الآن وتركته يمضي إلى حال سبيله.

وشهق فيليب قليلا ثم قال:

–ميلدريد.. ألا تخرجين معي الليلة؟ هيا بنا نتناول العشاء في مكان ما.

– لا أستطيع ذلك .. فإن عمتي تنتظر عودتي إلى المنزل.

–سأبعث لها ببرقية وفي وسعك أن تقولي لها أنك تأخرت في الغمل، فإنها لن تعرف شيئا .. أوه أرجوك يا ميلدريد أن تأتي معي .. إني لم أرك منذ زمن بعيد. وأريد أن أتحدث إليك.

وأطرقت ميلدريد وأخذت تنظر إلى ملابسها.

قال فيليب:

–دعك من هذا فسنقصد مكانا لا يهتمون فيه بما ترتدين. وسنذهب إلى قاعة الموسيقي بعد ذلك.. قولي نعم من فضلك فسيسرني قولك أعظم السرور.

وترددت ميلدريد لحظة، ونظر إليها بعينين تناشدانها الشفقة.

وقالت:

– وهو كذلك ، ليس لدى مانع من الذهاب معك فإني لم أخرج منذ زمن طويل لا أعلم منذ متي.

ولم يستطع أن يمنع نفسه في تلك اللحظة من إمساك يدها وغمرها بالقبلات.

ولم ينجح فيليب في امتحان علم التشريح في نهاية شهر مارس فقد استذكر هو ودنسفورد هذا العلم معا مستعينين بالهيكل العظمي الذي كان لدى فيليب . وكان كل منها يسأل الآخر حتى حفظتا عن ظهر قلب كل مفصل في عظام الإنسان وفائدة كل عظمة وكل كعبرة . ولكن الرعب استولى على فيليب في غرفة الامتحان، وانتابه خوف مفاجئ خشية أن يجيب إجابات خاطئة على الأسئلة . وأدرك أنه رسب في الامتحان ولم يكلف نفسه في اليوم التالي عناء الذهاب إلى المبني ليرى هل رقمه بين أرقام الناجحين . وبفشله للمرة الثانية دخل فيليب قطعا في زمرة الكسالى الخاملين في فرقته.

ولم يهتم بذلك كثيرا فقد كان لديه أشياء أخرى يفكر فيها . فقد كان يقول لنفسه أن ميلدريد لها من الإحساس ما لأى مخلوق أخر وأن المسالة كلها لا تحتاج إلا إلى أثارة أحاسيسها وكانت له نظريات عن المرأة .. ممزقة القلوب. فأعتقد أنه بالإصرار والمثابرة لابد أن تستسلم يوما وكل ما يحتاج إليه المرء هو أن يترقب الفرصة ويحتفظ بهدوء أعصابه وإنهاكها بدلائل الالتفات الصغيرة وانتهاز فرصة إرهاقها الجسماني الذى يفتح أبواب القلب للرقة ، وأن يجعل من نفسه ملجأ لها مما يسببه لها العمل من كدر وضيق ، وأخذ يحدثها عن العلاقات القائمة بين أصدقائه في باريس والنساء الجميلات اللائى كانوا يعجبون بهن

وكان للحياة التي وصفها سحر لم يكن فيه فحش وراح يضم إلى ذكرياته هو مغامرات ميمي رودلف وموزيت وسائر الأصدقاء ويصب في أذني ميلدريد قصة الفقر مما أدخل عليها البهجة بالضحك والغناء، والحب الطليق الذى خلع عليه الجمال والشباب حلة شعرية روائية. ولم يحاول أبدا أن يهاجم أهوائها بطريقة مباشرة ولكنه كان بسعي إلى التغلب علي ذلك بأن يوحي إليها بأن ذلك أمر يتسم بالريفية ولم يسمح لنفسه قط بأن يضطرب من عدم اهتمامها به، أو يضيق صدرا بسبب عدم مبالاتها ، بل كان يظن أنه قد سبب لها الملل والسأمة واستطاع بجهد أن يكون ظريفا، مسليا وكبح جماح نفسه فلم يغضب ولم يطلب إليها قط شيئا ولم يشك من شيء ولم يؤنبها على شيء . وكان إذا ما أخلفت معه مواعيدها يقابلها في اليوم التالى بوجه بشوش فإذا اعتذرت له قال أن المسالة ليست بذات بال فلم يتح لها أن تدرك أنها تؤلمه.

وأدرك أن هذا العذاب الوجداني قد آلمه وحاول أن يخفي كل شعور منه قد يبعث على الضيق. وقصارى القول أنه تصرف معها تصرف الأبطال.

ولم تشر ميلدريد أبدا إلى هذا التغير الذى طرأ عليه لأنها لم تلاحظه ملاحظة العارف به المدرك له إلا أنها مع ذلك تأثرت به فأطلعته على أسرارها وكانت تحمل إليه مضايقاتها الصغيرة التي تسببها لها مديرة المحل أو إحدى زميلاتها أو عمتها . وراحت تتكلم كثيرا في الفترة الأخيرة، ومع أنها لم تقل شيئا إلا كان تافها فإنه لم يمل الاستماع إليها . وقالت له مرة:

–إنى أحبك عندما تريد مغازلتي.

فأجابها ضاحكا:

–إن هذا إطراء لي.

ولم تدرك ميلدريد كيف جعلت كلماته قلبه يهبط بين جنبيه، ولم تقدر كذلك الجهد الذى بذله

–إني لا أمانع في أن تقبلني من آن لآخر.. فإن هذا لا يضيرني في شيء وهو يسرك.

–و كانت من أن آخر تتمادى فتسأله أن يدعوها للغذاء، وكان ذلك العرض من ناحيتها يملؤه نشوة.. وكانت تقول له بلهجة الاعتذار:

– إني لا أقول ذلك إلى شخص آخر .. ولكني أعلم أنى أستطع أن أقوله لك أنت ..

–إنك لا تستطيعين أن تسربني أكثر من ذلك..

وحدث في إحدى الليالي قرب نهاية شهر أبريل أن طلبت إليه أن يدعوها لتناول الطعام .

–وهو كذلك. وأين تريدين الذهاب بعد ذلك ؟

–يحسن ألا نقصد مكانا ما، بل نجلس ، نتبادل الحديث ، إنك لن تمانع في هذا .. أليس كذلك؟

–أبدا..

وظن أنها لا بد قد بدأت تهتم به.. فمنذ أشهر ثلاثة كانت فكرة قضاء أمسية في تبادل الحديث تورثها الملل الذى لا يفوقه ملل . وكان يوما جميلا، وزاد الربيع من روح فيليب مرحا، وكان يقنع بالقليل حينئذ، وقال لها وهما على ظهر سيارة هائلة في طريقهما إلى مطعم سوهو:

-ألا تعتقدين أن الجو سيكون جميلا حين يحل الصيف ؟

وكانت ميلدريد قد اقترحت أن يكفا عن التبذير وإلا يستأجرا مركبة خاصة وواصل حديثه قائلا:

-سيكون في استطاعتنا أن نقضي أيام الأحد كلها عند شاطئ النهر.. وسنحمل معنا طعامنا في سلة.

وابتسمت ابتسامة خفيفة . وتشجع فيليب فأمسك بيدها ولم تسحبها منه وابتسم وهو يقول:

-إني أعتقد بحق أنك بدأت تميلين إلى قليلا..

-إنك سخيف ..لأنك تعرف أني أميل إليك وإلا لما كنت هنا معك.. وكانا قد أصبحا في نفس الوقت عملاء قدامي في المطعم الصغير في «سوهو» وحيتهم صاحبة المطعم بابتسامة عند دخولهما. وكان الخادم ظريفا.

وقالت ميلدريد:

-دعني أنا أطلب العشاء الليلة..

أعطاها فيليب قائمة الطعام وهو يعتقد أنها في تلك الليلة كانت أجمل منها في أى ليلة مضت. واختارت أطباقها المحببة إليها. ولم تكن أصناف الطعام في المطعم كثيرة، وقد أكلا مرارا من قبل ما يمكن أن يقدمه. وكان فيليب مرحا في هذه اللحظات. وأخذ ينظر في عينيها وراح يتأمل كل ما في وجنتيها الجميلتين الشاحبتين من كمال . وعندما انتهيا من طعامهما أشعلت ميلدريد لفافة من التبغ مع أنها لم تكن تدخن إلا نادرا، وقالت :

-إني لا أحب أن أرى سيدة تدخن .وترددت لحظة ثم أردفت قائلة :

-هل دهشت عندما طلبت إليك الليلة أن تدعوني لتناول العشاء معك ؟

-لقد سرني ذلك كثيرا.

ومضت تقول:

-لدى ما أحدثك به يا فيليب:

ونظر إليها مسرعا .. وخفق قلبه .. ولكنه كان قد درب نفسه جيدا على مثل هذا الموقف وقال وهو يبتسم:

-هيا تكلمي بسرعة.

-إنك لن تتصرف بسخافة إزاء ما أقول؟ الحقيقة هي أني مقدمة علي الزواج .

ورد فيليب قائلا:

-ستتزوجين؟.

ولم يستطع التفكير في شيء آخر يقوله ، وكان قد فكر من قبل في هذا الاحتمال مرات كثيرة وتصور ما سيفعله حينئذ وما سيقوله لها.. وقد عاني الآلام عندما جال بخاطره الأسى الذى سيقاسيه. لقد فكر في الانتحار وفي الغضب الجامح الذى سيملكه ولكن لعله قد طاف بذهنه من قبل ما سوف ينتابه من شعور ولهذا فإن كل ما أحس به وقتئذ هو أنه مرهق خائر القوى، لقد أحس بما يحس به المرء عندما ينتابه مرض خطير فتهبط حيويته إلى أقصى الحدود، فلا يبالى بما يؤول إليه أمره ويغدو كل ما يريده هو أن يترك وشأنه وقالت :

-ألا ترى أني أتقدم في العمر .. إنى في الرابعة والعشرين الآن وقد حان الوقت لكي أستقر.

وصمت فيليب فلم ينبس ببنت شفة . ونظر إلى صاحبة المطعم التي كانت جالسة خلفه تقدم الشراب والطعام وسرحت عيناه في ريشة حمراء في قبعة إحدى الطاعمات واغتاظت من ذلك.

-ظننت أنك ستهنئني بذلك.

-أهنئك .. أليس كذلك ..؟ إني لا أكاد أصدق أن هذا الأمر صحيح.. لطالما فكرت فيه .. لقد سرني أنك طلبت إلى أن أدعوك الليلة .. ومن هو الذى ستتزوجينه؟

وأجابت وقد صعدت إلى وجهها حمرة خفيفة:

-ميللر ..

وهنا صاح فيليب مذهولا:

-ميللر !. ولكنك لم تقابليه منذ شهور؟.

-لقد جاء لتناول الغداء في يوم ما في الأسبوع الماضي وطلب إلى ذلك .. إنه يكسب قدرا من المال، سبعة جنيهات في الأسبوع وأمامه آمال كبيرة .

وصمت فيليب مرة أخرى .. وتذكر أنها كانت تحب ميللر على الدوام فقد كان يسليها . وكان في مولده الأجنبي سحر شاذ تشعر به دون وعي منها. وقال أخيرا:

-أعتقد أن هذا أمر لم يكن منه بد فأنت مضطرة لقبول من يعرض أكبر عطاء ومتي تتزوجين؟

-يوم السبت القادم .. لقد أبلغته ذلك.

وشعر فيليب بألم مفاجئ وقال:

-أبهذه السرعة؟

-سنتزوج في مكتب التسجيل .. أن أميل يفضل ذلك.

وأحس فيليب بأنه في غاية الإرهاق ، كان يريد أن يفر منها ورأى أن يأوى إلى فراشة مباشرة وطلب حسابه. وقال لها:

-هيا بنا سأركبك عربة تقلك إلى محطة فيكتوريا.. وأظن أنك لن تنتظرى القطار طويلا.

-ألن تأتي معي؟..

وظن أنها لا بد قد بدأت تهتم به.. فمنذ أشهر ثلاثة كانت فكرة قضاء أمسية في تبادل الحديث تورثها الملل الذى لا يفوقه ملل . وكان يوما جميلا، وزاد الربيع من روح فيليب مرحا، وكان يقنع بالقليل حينئذ، وقال لها وهما على ظهر سيارة هائلة في طريقهما إلى مطعم سوهو:

-ألا تعتقدين أن الجو سيكون جميلا حين يحل الصيف ؟

وكانت ميلدريد قد اقترحت أن يكفا عن التبذير وإلا يستأجرا مركبة خاصة وواصل حديثه قائلا:

-سيكون في استطاعتنا أن نقضي أيام الأحد كلها عند شاطئ النهر.. وسنحمل معنا طعامنا في سلة.

وابتسمت ابتسامة خفيفة . وتشجع فيليب فأمسك بيدها ولم تسحبها منه وابتسم وهو يقول:

-إني أعتقد بحق أنك بدأت تميلين إلى قليلا..

-إنك سخيف ..لأنك تعرف أني أميل إليك وإلا لما كنت هنا معك.. وكانا قد أصبحا في نفس الوقت عملاء قدامي في المطعم الصغير في «سوهو» وحيتهم صاحبة المطعم بابتسامة عند دخولهما. وكان الخادم ظريفا.

وقالت ميلدريد:

-دعني أنا أطلب العشاء الليلة..

أعطاها فيليب قائمة الطعام وهو يعتقد أنها في تلك الليلة كانت أجمل منها في أى ليلة مضت. واختارت أطباقها المحببة إليها. ولم تكن أصناف الطعام في المطعم كثيرة، وقد أكلا مرارا من قبل ما يمكن أن يقدمه. وكان فيليب مرحا في هذه اللحظات. وأخذ ينظر في عينيها وراح يتأمل كل ما في وجنتيها الجميلتين الشاحبتين من كمال . وعندما انتهيا من طعامهما أشعلت ميلدريد لفافة من التبغ مع أنها لم تكن تدخن إلا نادرا، وقالت :

-إني لا أحب أن أرى سيدة تدخن .وترددت لحظة ثم أردفت قائلة :

-هل دهشت عندما طلبت إليك الليلة أن تدعوني لتناول العشاء معك ؟

-لقد سرني ذلك كثيرا.

ومضت تقول:

-لدى ما أحدثك به يا فيليب:

ونظر إليها مسرعا .. وخفق قلبه .. ولكنه كان قد درب نفسه جيدا على مثل هذا الموقف، وقال وهو يبتسم:

-هيا تكلمي بسرعة.

-إنك لن تتصرف بسخافة إزاء ما أقول؟ الحقيقة هي أني مقدمة علي الزواج .

ورد فيليب قائلا:

-ستتزوجين؟

ولم يستطع التفكير في شيء آخر يقوله ، وكان قد فكر من قبل في هذا الاحتمال مرات كثيرة وتصور ما سيفعله حينئذ وما سيقوله لها.. وقد عاني الآلام عندما جال بخاطره الأسى الذى سيقاسيه. لقد فكر في الانتحار وفي الغضب الجامح الذى سيملكه ولكن لعله قد طاف بذهنه من قبل ما سوف ينتابه من شعور ولهذا فإن كل ما أحس به وقتئذ هو أنه مرهق خائر القوى، لقد أحس بما يحس به المرء عندما ينتابه مرض خطير فتهبط حيويته إلى أقصي الحدود، فلا يبالى بما يؤول إليه أمره ويغدو كل ما يريده هو أن يترك وشأنه وقالت :

-ألا ترى أني أتقدم في العمر .. إنى في الرابعة والعشرين الآن وقد حان الوقت لكي أستقر.

وصمت فيليب فلم ينبس ببنت شفة . ونظر إلى صاحبة المطعم التي كانت جالسة خلفه تقدم الشراب والطعام وسرحت عيناه في ريشة حمراء في قبعة إحدى الطاعمات واغتاظت من ذلك.

-ظننت أنك ستهنئني بذلك.

-أهنئك .. أليس كذلك ..؟ إني لا أكاد أصدق أن هذا الأمر صحيح.. لطالما فكرت فيه .. لقد سرني أنك طلبت إلى أن أدعوك الليلة .. ومن هو الذى ستتزوجينه؟

وأجابت وقد صعدت إلى وجهها حمرة خفيفة:

-ميللر ..

وهنا صاح فيليب مذهولا:

-ميللر !. ولكنك لم تقابليه منذ شهور؟.

-لقد جاء لتناول الغداء في يوم ما في الأسبوع الماضي وطلب إلى ذلك .. إنه يكسب قدرا من المال، سبعة جنيهات في الأسبوع وأمامه آمال كبيرة .

وصمت فيليب مرة أخرى .. وتذكر أنها كانت تحب ميللر على الدوام فقد كان يسليها . وكان في مولده الأجنبي سحر شاذ تشعر به دون وعي منها. وقال أخيرا:

-أعتقد أن هذا أمر لم يكن منه بد فأنت مضطرة لقبول من يعرض أكبر عطاء ومتي تتزوجين؟

-يوم السبت القادم .. لقد أبلغته ذلك.

وشعر فيليب بألم مفاجئ وقال:

-أبهذه السرعة؟

-سنتزوج في مكتب التسجيل .. أن أميل يفضل ذلك.

وأحس فيليب بأنه في غاية الإرهاق ، كان يريد أن يفر منها ورأى أن يأوى إلى فراشة مباشرة وطلب حسابه. وقال لها:

-هيا بنا سأركبك عربة تقلك إلى محطة فيكتوريا.. وأظن أنك لن تنتظرى القطار طويلا.

-ألن تأتي معي؟..

—أعتقد أنه من الأفضل ألا أفعل ذلك . إذا لم يكن لديك مانع.

وأجابت في كبرياء:

—كما تشاء.. أظن أني سأراك غدا في موعد الشاي..

—لا ... أعتقد أنه من الأفضل أن نكف عن ذلك الآن فلست أعلم لم أظل أسبب لنفسي الأل.. لقد دفعت أجر العربة وأومأ إليها برأسه ودفع بابتسامة إلى شفتيه ثم قفز في إحد السيارات العامة واتخذ طريقة إلى منزله . ودخن غليونه قبل أن يأوى إلى فراشه ولكنه وج صعوبة كبيرة في أن يبقي عينيه مفتوحتين ولم يكن يعاني أى ألم ولم يكد رأسه يحس الوسادة حتى راح في سبات عميق.

وكان فيليب يتوجس خيفة من اليوم الذى ستتزوج فيه ميلدريد، فقد كان يتوقع أن يثي فيه ذلك الحادث ألما لا يستطيع أن يحتمله.. ولهذا شعر بالارتياح عندما وصله خطاب م هايوارد في صباح السبت يقول فيه أنه قادم في ساعة مبكرة من هذا اليوم نفسه وسيحاو العثور علي فيليب ليساعده في البحث عن مسكن له. وكان فيليب يتوق إلى انتزاع نفسه مم هو فيه فبحث في أحد الجداول وعرف القطار الوحيد الذى يمكن أن يكون قد وصل في هيوارد وذهب لمقابلته، وكان جمع شمل الصديقين اجتماعا حماسيا وتركا المتاع ف المحطة وغادراها في مرح واقترح هايوارد كعادته أن يذهب قبل كل شيء لزيارة المعرض القومي لأنه لم ير لوحات ما منذفترة من الوقت وقال إنه في حاجة كي يلقي نظرة علي حتى يسترد انسجامه مع الحياة وكان فيليب نفسه قد قضي شهورا دون أن يجد من يتحد إليه عن الفن والأدب .. كان هايوارد منذ أيام باريس قد أنهمك في قراءة الشعراء المحدثي الفرنسيين وفي فرنسا طائفة كبيرة منهم وكان هايوارد قد عرف عددا من العباقرة يستط أن يحدث فيليب عنهم، وراحا يجولان في المعرض وكل منهما يشير إلى اللوحات التي تحو إعجابه، وانتقلا في حديثهما من موضوع إلى آخر وتكلما في حماسة بالغة وكانت الشمس ساطعة والهواء دافئ .

وقال هايوارد:

—هيا نذهب ونجلس في الحديقة وسنبحث عن المسكن بعد الغداء...

وكان الربيع جميلا.. وبدا اليوم من تلك الأيام التي يشعر المرء فيها بأنه يكفيه أنه (حي فقد كانت خضرة الأشجار الغضة زاهية أمام زرقة السماء، وكانت قطع السحاب الصغير البيضاء تتناثر في السماء الزرقاء الشاحبة. وفي نهاية نهير المياه الصغير الذى تزدان ب الحديقة كانت الكتلة الرمادية من حرس الفرسان وكان لأناقة المنظر المنتظمة سحر يمث صورة القرن الثامن عشر التي لا تذكر المرء بصورة «واتو» ذات الطبيعة البسيطة الممتع التي تصور غابات الوديان التي يراها المرء في الأحلام بل تذكر بالصور العادية التي رسمه «بابتست باترس» وأفعم قلب فيليب خفة وأحسن بما سبق أن قرأه من قبل بأن الفن يحر النفس من الألم (لأن نظرة فيليب إلى الحياة كان يحدوها الفن) . وقصد الإثنان مطعم

إيطاليا لتناول الغداء، وطلبا زجاجة من النبيذ وراحا يتبادلان الحديث وهما يتناولان الطعام على مهل. وذكر كل منهما الآخر بمن عرفا في (هايدلبرج) وتحدثا عن أصدقاء فيليب في باريس وعن الكتب واللوحات والأخلاق والحياة وفجأة سمع فيليب دقات الساعة وهي تعلن الثالثة وتذكر أن زواج ميلدريد قد بدأ ، وشعر أنه هناك شيئا يحز في قلبه وظل دقيقة أو دقيقتين لا يستطيع سماع حديث هايوارد، ولكنه ملأ كأسه بالنبيذ ولم يكن معتادا على الخمر فصعد إلى رأسه ومهما يكن ما أصابه منه فقد أحس في هذه اللحظة أن قلبه قد خلا من الهم. ذلك أن عقله النشيط ظل خاملا عدة شهور وما لبث الحديث الآن أن أسكره، وسره أن وجد من يتحدث إليه ويهتم بما يتهم به من موضوعات وأفاد فيليب من زيارة هايوارد أكبر فائدة وكلما مر يوم قل تفكيره في ميلدريد وأخذ ينظر إلى الماضي وهو مشمئز منه كاره له وتعجب كيف استسلم لمثل هذا الحب المهين وعندما خطرت بباله ميلدريد صحب صورتها شعور بالمقت والغضب لما عرضته له من الامتهان الشديد ، وصورها له خياله الآن بكل ما تتصف به من نقص في جسمها وآدابها مبالغ فيه أشد المبالغة فكان جسمه يرتجف من مجرد التفكير في أنه كانت له صلة بها.

وحدث نفسه قائلا: إن هذا يبين شدة ضعفي اللعين . لقد كانت مغامرته أشبه بمن يأتي في إحدى الحفلات فعلة كريهة لا يمكن الاعتذار عنها بحال من الأحوال وكان العلاج الوحيد لهذه الحال هو النسيان وساعده عليه فظاعة ما عاناه من تحقير ومهانة ، فقد كان أشبه بالثعبان الذى يبدل جلده القديم بآخر جديد .. ونظر إلى الجلد القديم وغثت نفسه وابتهج فيليب لأنه استعاد سيطرته علي نفسه من جديد وأدرك حينئذ كم من لذات في الدنيا أضاعها بانغماسه في هذا الجنون الذى يسمونه الحب .. لقد لاقي منه الكفاية حتى سئمه ولم يكن يريد الوقوع في شراك الحب مرة أخرى إذا كان هذا هو الحب وقص فيليب علي هايوارد بغض ما مر به وتساءل فيليب :

—أليس هو سوفو كليس الذى راح يدعو ربه أن يفك أسره من وحش العاطفة الكاسر الذى ابتلع أوتار قلبه؟

لقد بدا علي فيليب حقا أنه ولد من جديد ، فراح يتنفس الهواء المحيط به وكأنه لم يتنفس مثله من قبل وانغمس كما ينغمس الطفل في أحوال هذا العالم وكان يسمي فترة الجنون التي قضاها هذه «ستة شهور من الأشغال الشاقة».

لم يستقر هايوارد في لندن إلا أياما قلائل حتى وصلت فيليب من بلاكستابل، بطاقة دعوة لزيارة خاصة معارض الصور فصحب هايوارد معه وعندما كانا يتأملان فهرس الصور لاحظا أن للوسون لوحة في المعرض وقال فيليب :

—أعتقد أنه هو الذى بعث بالبطاقة .. هيا بنا نبحث عنه فلست أشك في أنه سيكون واقفا أمام لوحته.

وكانت اللوحة رسما جانبيا لروث تشاليس وقد قبعت في أحد أركان المعرض ولم يكن لوسيون بعيدا عنها وبدا عليه أنه تائه قليلا في قبعته العريضة وثيابه الفضفاضة الحائلة اللون وهو بين الجماهير الأنيقة التي تجمعت لمشاهدة المعرض. وحيا لوسون فيليب في حماسة وبلغه بطلاقته المعهودة أنه جاء ليعيش في لندن ، وأن روث تشالي فاجرة وأنه أستأجر مرسما وأنه ضاق ذرعا بباريس وأنه كلف برسم إحدى اللوحات وأنه يجب أن يتناولا الغداء سويا وأن يتحدثا حديثا طيبا كالذى كان يتحدثان به في الماضي وذكر فيليب بأنه سبق أن عرف هايوارد وسره إذ وجده قد ارتاع قليلا لأناقة ثياب هايوارد وخلق المتعالي، وكانت هذه الثياب منسجمة عليه خيرا مما كانت تنسجم عليه ثيابه في المرسم القذر الصغير وجلسا إليه في حال أفضل مما كان عليه في المرسم الذى تقاسمه لوسون وفيليب في باريس.

●●●

واصل فيليب عمله في إتقان ويسر وكان لديه عمل كثير فقد كان عليه أن يؤدى في شـ يوليه الأجزاء الثلاثة من الامتحان المشترك الأول وكان قد رسب في اثنين من قبل ولكن وجد الحياة بهيجة وأصبح له صديق جديد. فبينما كان لوسون يبحث عن نموذج له و فتاة كانت تكمل دراستها في إحدى دور التمثيل وأراد أن يقنعها بالجلوس لكي يرسم فأقام لها حفل غداء صغيرا يوما من أيام الأحد، وصحبت معها رقيبا، ، وقدم إليها فيليب وطلب إلى فيليب أن يكون رابعهم كما طلب إليه أن يخصها باهتمامه، ووجد أن ذلك السهولة بمكان فقد اتضح له أنها ثرثارة لطيفة حديثها مسل وطلبت إلى فيليب أن يزور فقد كانت تسكن في ميدان فنسنت وكانت تتناول الشاى دائما في هذا المسكن في السا الخامسة وذهب إليها فيليب وسرته الحفاوة التي قوبل بها وزارها مرة أخرى ولم تكن السـ «نينزييت» قد تعدت الخامسة والعشرين وكانت صغيرة الجسم جدا لها وجه قبيح يبعث النفس السرور وعينان شديدتا اللمعان ووجنتان حمراوان برزت عظامهما وفم واسع و التناقض الشديد في ألوان جسمها يذكر المرء بلوحات المحدثين من الفنانين الفرنسيين كانت بشرتها شديدة البياض وجنتاها شديدتي الاحمرار وحاجباها سميكين وشعر وشعر رأسها أسودان وكان لكل هذا أثر غريب فيه شيء غير طبيعي ، ولكنه لا يبعث الامتعاض إطلاقا وقد افترقت السيدة نيزييت عن زوجها وكانت تكسب قوتها بكتـ القصص القصيرة الرخيصة . وكان هناك ناشران متخصصان في نشر هذا النوع القصص فكانت تعمل في كتابتها أكثر ما تستطيع وكان أجر هذا العمل قليلا فلم تكن تحـ

منه على أكثر من خمسة عشر جنيها في مقابل قصة مكونة من ثلاثة آلاف كلمة ولكنها كانت قانعة وقالت :

–مهما يكن ما تأخذه فإنها لا تكلف القارئ أكثر من بنسين والقراء يقرأون القصة أكثر من مرة وما علي إلا أن أبدل الأسماء وهذا كل ما في الأمر فإذا شعرت بالسأم فكرت في أجر غسيل الثياب ، وإيجار المنزل وثمن الملابس اللازمة للطفل فأعود إلى الكتابة مرة أخرى .

وإلى جانب هذا كانت السيدة نيزييت تنتقل بين عدد من دور التمثيل التي تحتاج إلى بعض الممثلين الإضافيين وكانت تكسب من ذلك ستة عشر شلنا تصل أحيانا إلى جنيه في الأسبوع في المدة التي تعمل فيها وبانتهاء اليوم شعرت بالتعب الشديد ونامت نوما عميقا أشد العمق وكانت تستغل ظروفها الصعبة إلى أقصي حد ممكن واستطاعت بروحها الفكهة الشديدة، أن تجد التسلية في كل الظروف الباعثة علي الغضب وكانت تسوء حالتها أحيانا فلا تجد معها شيئا من المال وعندئذ تجد أشياءها التافهة طريقها إلى محال الرهون عند طريق جسر فوكسهول وتكتفي بأكل العيش والزبد حتى تتحسن الأحوال ولكنها لم تكن تفقد مرحها أبدا.

وقد أثارت حياتها التي لا تتغير أبدا اهتمام فيليب وكانت تثير ضحكة فتجعله يضحك بطريقتها الخيالية في قص كفاحها عليه وسألها لماذا لا تحاول أن تكتب عملا أدبيا من نوع أفضل ، ولكنها كانت تعرف أنها تعوزها هذه الموهبة وأن القصص الكريهة التي كانت تكتبها وتجازى عليها بقدر مقبول من المال كانت خير ما تستطيع كتابته . ولم يكن لديها من الآمال غير أن تدوم الحياة التي تحياها ويبدو أنها لم يكن لها أقارب .. وكان أصدقاؤها فقراء مثلها. وقالت يوما لفيليب :

– إني لا أفكر في المستقبل طالما كان لدى من المال ما يكفي إيجار المنزل ثلاثة أسابيع وجنيه أو جنيهان للطعام ، ثم لا أهتم بشيء بعد ذلك ، ذلك أن الحياة لا تستحق أن يحياها المرء إذا كان يشغل باله بالحاضر والمستقبل معا. فإذا ما ساءت الأحوال إلى أقصي حد فإن الله يحدث بعد ذلك أمرا . وسرعان ما اعتاد فيليب أن يذهب لتناول الشاى معها كل يوم وكان يحمل كعكة أو رطلا من الزبد أو قليلا من الشاى حتى لا يثقل عليها بزياراته وبدأ كل منهما ينادى الآخر باسمه الأول ، وكان العطف الأنثوى شيئا جديدا علي فيليب ، وكان يبتهج عندما يجد شخصا يعير مشاكله أذنا صاغية .. وكانت الساعات تمر سراعا، ولم يخف عنها إعجابه بها فقد كانت له رفيقا ولم يستطع إلا أن يقارنها بميلدريد فوجد الفرق بينهما كبيرا .

وجد في ميلدريد غباء وعنادا يجعلانها ترفض الاهتمام بأى شيء لا تعرفه ووجد في هذه البديهة الحاضرة والفهم السريع وغاص قلبه بين جنبيه عندما جال بخاطره أنه كان من المحتمل أن يربط نفسه إلى الأبد بامرأة مثل ميلدريد . وحدث في إحدى الأمسيات أن قص علي نورا قصة حبه كلها ولم يكن في القصة ما يدعوه لأن يفخر بنفسه وكان من أسباب سروره أن تستمع إليه بمثل هذا العطف الساحر وقالت عندما انتهى من حديثه:

-أظن أنك قد تخلصت من هذه المشكلة تماما.

وكانت لها في بعض الأحيان طريقة لطيفة في إمالة رأسها علي أحد الجانبين كأن
إحدى غرائب «ابردين». وكانت في يوم ما جالسة في مقعد قائم الظهر، تحيك ملابسها، لأن
لم تكن تستطيع قضاء الوقت بلا عمل واستراح فيليب عند قدميها . وتنهد قليلا:

-إني لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتن لأن هذا الأمر قد انتهي ..

وتمتمت قائلة :

-يا لك من شخص مسكين لا بد أنك قضيت وقتا عصيبا ..

وأرادت أن تظهر عطفها عليه فوضعت يدها علي كتفه فأخذها وقبلها ولكنها سحبت
بسرعة . وسألته وقد علت حمرة الخجل وجهها :

-لماذا فعلت ذلك؟

-أتمانعين ؟.

وتأملته لحظة وقد تلألأت عنياها ثم ابتسمت قائلة :

-لا أمانع

ونهض جالسا علي ركبتيه وواجهها ، ونظرت في عينيه في ثبات وارتعد فمها الكبير في
ابتسامة وقالت :

-ماذا تريد .. ؟

-هل تعلمين أنك ساحرة .. إني لممتن لك أنك كنت لطيفة معي لشد ما أنا مغرم بك .

-كف عن هذا الغباء.

وأمسك فيليب بمرفقها وجذبها نحوه ولم تبد مقاومة ما ولكنها انحنت إلى الأمام قبل
فقبل شفتيها الحمراوين وسألته مرة أخرى:

-لماذا فعلت ذلك ؟

-لأني أجد فيه راحتي .

ولم تجبه ولكن نظرة حنونا بدت في عينيها ومرت بيدها برقة فوق شعره وقالت :

-هل تعلم أنه من الحماقة منك أن تتصرف هذا التصرف ؟ لقد كنا صديقين حميم
وكان يحسن بك كثيرا أن تترك الأمر عند هذا الحد.

فرد عليها فيليب قائلا:

- إذا كنت تريدين إرضائي حقا فلا تربتي علي وجنتي وأنت تتكلمين .

فضحكت ضحكة صغيرة ولكنها لم تمتنع عما كانت تفعل وقالت :

- لقد كان خطأ كبيرا من جانبي .. أليس كذلك .. ؟

ونظر فيليب إلى عينيها في دهشة مصحوبة بالسرور فوجدهما تترقرقان بالدموع ود
فيهما ما بعث السرور إلى نفسه واهتز قلبه فجأة وأغرورقت عيناه بالدموع وقال لها و
لا يكاد يصدق ما يرى :

- نورا .. ألا تحبيني.. ؟

- أيها الولد الذكي .. أنك تسال أسئلة بلهاء .

- عزيزتي نورا .. لم يخطر ببالى أبدا أنك قد تحبينى .

وأحاطها بذراعيه وقبلها وأسلمت هي نفسها راضية إلى أحضانه وهى تضحك وتصيح وتحمر خجلا . وما لبث أن رجع إلى الخلف وجلس على كعبيه وتركها ، ونظر إليها في فضول قائلا :

- لقد قضيت على ..

- لماذا ؟ ..

- إني لفي غاية الدهشة ..

- ومسرور ؟

وصاح من كل قلبه :

-وإني مبتهج وفخور وشاكر ..

وأمسك بيدها وغمرها بقبلاته .. وكانت هذه بالنسبة لفيليب بداية سعادة بدت قوية باقية وأصبحا عاشقين ولكنهما ظلا صديقين .. وكانت لدى نورا غريزة أمومة ارتوت بحبها لفيليب. لقد كانت تريد شخصا تدلله وتؤنبه وتنهمك فيه . وكانت ذات طباع أنيسة تجد لذة في خدمة غيرها من الناس فوجدت متعة في السهر على صحة فيليب والعناية بملابسه الداخلية، وكانت تشفق وترثى لعاهته التي كان شديد الحساسية بها ... وقد أعربت عن رثائها هذا بطريقة غريزية وذلك بالرأفة التي أبدتها نحوه ، وكانت صغيرة السن قوية البنية صحيحة الجسم وكان من الطبيعي أن تهب حبها وكانت دائما مبتهجة مسرورة مرحة وقد أحبت فيليب لأنه كان يضحك معها لكل الأشياء المسلية التي كانت تستأثر بخيالها وقد أحبته قبل كل شئ لأنه كان هو فيليب نفسه لا يتكلف شيئا .. وعندما أخبرته بكل هذا أجابها في مرح :

-هراء .. إنك تحبينني لأني شخص صامت .. ولا أريد أن أتفوه بشيء ..

ولم يكن فيليب يحبها على الإطلاق ولكنه كان مغرما بها إلى أقصى الحدود سعيدا لوجوده معها وكان حديثها مشوقا مسليا ويسبب له المتعة وقد أعادت إليه إيمانه بنفسه ، وبدا كأنها وضعت بلسما على الجراح التي أصابت روحة وقد شعر بالفخر لأنها كانت تهتم به وأعجب بشجاعتها وتفاؤلها ، وتحديها الجرىء للقدر ، وكانت لها فلسفة خاصة بسيطة وعملية وسليمة.

وقالت له ذات يوم :

– هل تعلم أني لا أومن بالكنائس ولا بالقساوسة ومن إليهم ولكنى أومن بالله وأعتقد أن الله يريدك أن تعمل لبلوغ الغاية التي تصبو إليها وتهب العون لكل كلب أعرج كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . وأعتقد أن الناس جميعهم لطاف ، وإني لأسفة لأولئك الذين ليسوا كذلك ..

وسألها فيليب :

–ما رأيك في الدار الآخرة ؟

–إن علمها عند ربى !

وكانت لنورا موهبة أنثوية في الثناء الرقيق على الآخرين ، وأعتقدت أن فيليب كان شجاعا عندما ترك باريس بعد أن أدرك أنه لن يصبح فنانا مرموقا. وقد سحرته بلطفها عندما أعربت عن إعجابها به في حماسة لأنه لم يكن واثقا كل الثقة هل تصرفه يدل على الشجاعة أو على العزيمة . وقد سره أن يعلم أنها ترى في هذا التصرف روح البطولة. وأثارت نورا موضوعا كان أصدقاؤه يتجنبونه بفطرتهم فقالت :

–إن من السخف أن تكون شديد الحساسية بالنسبة لقدمك الحنفاء.

ورأت عندئذ أن حمرة الخجل قد علت وجهه بشدة ولكنها استمرت تقول:

–أنت تعلم أن الناس لا يفكرون في هذا الأمر بقدر ما تفكر فيه أنت، أو بما يقرب من هذا القدر . إنهم يلاحظونه عند أول مرة يرونك فيها ثم ينسون كل شيء عنك.

ولم يجب فيليب فقالت:

–إنك لست غاضبا منى.. أليس كذلك ؟

–لا...

وطوقت عنقه بذراعها.

–إنك تعلم أنى لا أتحدث عن هذا الأمر إلا لأني أحبك ولست أريد أن أسبب لك شيئا من الشقاء.

فأجابها فيليب مبتسما :

–تستطيعين أن تحدثيني عن أى شيء تريدين وأود لو أستطيع أن أفعل ما أبدى لك به شكري

وكانت تنتقل به إلى موضوعات أخرى تستحوذ بها على تفكيره ولا تجعله يغضب وتضحك منه عندما يثور . وجعلت منه شخصا أكثر رقة . وقال لها ذات مرة :

–إن في مقدورك أن تجعليني أفعل أى شئ تريدين .

–وهل تمانع في ذلك .. ؟

–لا .. إني أريد أن أفعل ما تشائين .

وكان في مقدور فيليب أن يدرك مقدار ما نال من سعادة فقد خيل إليه أنها منحته ما تستطيع أن تمنحه إياه زوجة ، مع احتفاظه بحريته فقد كانت نورا أكثر الأصدقاء الذين عرفهم سحرا وقد وجد لديها عطفا لم يجده عند أى شخص ما .

وكانت امتحانات فيليب يقترب موعدها ، واهتمت بها نورا كما اهتم بها هو ، وتأثر لهذا الاهتمام وازدهى به . وجعلته يعدها بأن يعود إليها من فوره ويبلغها النتيجة ..

أبلى فيليب في هذه المرة بلاء حسنا في الامتحانات الثلاثة ، وعندما أبلغها ذلك انهمرت دموعها وقالت :

–إني ليسرني ذلك كل السرور وقد كنت في شدة القلق .

–أيتها الحمقاء الصغيرة .

وضحك ولكن كانت هناك غصة في حلقه. ولم يكن أحد ليستطع أن يقاوم السرور الذى ينتابه للطريقة التي تلقت بها نبأ نجاحه .

● ● ●

شعر فيليب وهو ينهض من فراشه في صبيحة أحد الأيام كان رأسه يدور ، فعاد إلى فراشه مرة أخرى واكتشف فجأه أنه مريض ، فقد كان جسمه كله يرتجف من البرد وأحس بالألم في جميع أطرافه . وعندما جلبت له صاحبة المنزل فطوره ، ناداها من الباب المفتوح وقال لها إنه مريض ، وطلب قدحا من الشاى وكسرة من العيش المقدد ، وبعد دقائق سمع طرقا على الباب ودخل جريفث وكانا قد عاشا في المنزل نفسه ما يزيد على عام ، ولكن علاقتهما لم تزد على إيماءة من أحدهما للآخر إذا تقابلا في الممر ، وقال جريفث :

–سمعت أن بك وعكة .. فرأيت أن أمر لأرى ما بك .

واحمر وجه فيليب خجلا لغير سبب يعرفه واستهان بالأمر كله وقال إنه سيتحسن في ظرف ساعة أو ساعتين .

وقال جريفث :

–دعني أقيس حرارتك .

وأجاب فيليب وهو منفعل :

لا ضرورة لذلك على الإطلاق .

– هيا ... هيا .

ووضع فيليب مقياس الحرارة في فمه . وجلس جريفث على طرف الفراش وأخذ يحدثه في مرح لحظة من الزمن ثم أخرج مقياس الحرارة ونظر فيه . وقال له :

–والآن استمع إلى أيها الفتى العجوز .. لا بد أن تلزم الفراش وسوف أحضر معي ديكون العجوز ليلقى عليك نظرة .

فقال فيليب :

–هراء .. ليس في الأمر شيء وأحب ألا تزعج نفسك بشأني .

–ليس في الأمر إزعاج على الإطلاق ، إن حرارتك مرتفعة ويجب أن تلزم الفراش، إنك ستلزم فراشك .. أليس كذلك ؟

كان في حديث جريفث سحر غريب . كان فيه مزيج من الجد و الرقة وكان في هذا جاذبية لا حد لها وهمهم فيليب وهو يغمض عينيه ويبتسم :

-إن لك لطريقة في التسرية عن المرضى .

وسوى جريفث الوسادة ، ورتب له ملاءات الفراش بمهارات ثم دثره وذهب إلى غرفة الجلوس الخاصة بفيليب بحثا عن دورق قارورة ماصة (سيفون) فلم يجدها فذهب وأحضرها من حجرته . وأسدل ستائر النافذة .

وقال له :

-والآن فلتنم .. وسآتى بالرجل العجوز حالما يفرغ من عمله في العنابر .

وخيل إلى فيليب أن ساعات طوالا مرت قبل أن يزوره أحد .. وشعر بأن رأسه يكاد يتصدع ومزق الألم أطرافه وكان يخشى أن يبكى من شدة الألم . ثم سمع نقرا على الباب ودخل جريفث قويا صحيحا مرحا وقال :

-ها هو ذا دكتور ديكون .

وتقدم الطبيب وكان رجلا مسنا ذا خلق رقيق ، وكان فيليب يعرفه بصوته لا غير وبعد قليل من الأسئلة وكشف سريع ثم التشخيص سأل جريفث وهو يبتسم :

-ماذا تظن نوع مرضه ؟

-انفلونزا .

-هذا عين الصواب .

وجال دكتور ديكون ببصره في الحجرة الرطبة المظلمة وقال :

-ألا تحب أن تذهب إلى المستشفي ؟ فسيضعونك هناك في غرفة خاصة وستلقى هناك من العناية أحسن مما تلقاه هنا .

وقال فيليب :

-إني أفضل البقاء حيث أنا .

ذلك أنه لم يكن يحب أن يزعج ، وكان الخجل ينتابه كلما احتواه مكان جديد ، ولم يطق تصور الممرضات وهن يرحن ويجئن حوله ثم نظافة المستشفي الكئيبة . وقال جريفث في الحال :

-إنى أستطيع العناية به يا سيدى .

-وهو كذلك .

ووصف الطبيب الدواء .. وأدلى إليهما بالتعليمات ثم غادرهما . وقال جريفث :

-والآن عليك أن تنفذ ما أقوله لك بالضبط .. فأنا ممرضتك النهارية والمسائية معا .

ورد فيليب قائلا :

-إن هذا لكرم جميل منك .. ولكنى لن أحتاج إلى شئ .

-سأحمل هذه إلى الصيدلية لإعداد ما بها ثم أعود إليك .

وبعد قليل ، جاء جريفث بالدواء ، أعطى فيليب جرعة منه ثم صعد إلى الطابق العلوى ليحضر كتبه وقال عندما عاد :

-ألديك مانع من أن أعمل في حجرتك هذا المساء ؟ وسأترك الباب مفتوحا حتى يمكنك أن تناديني إذا أردت منى شيئا .

واستيقظ فيليب في ساعة متأخرة في ذلك اليوم بعد نوم غير مريح وسمع أصواتا في حجرة الجلوس . لقد جاء صديق لرؤية جريفث .. وسمع جريفث يقول :

-أرى من الأفضل ألا تأتى الليلة .

ثم دخل الحجرة إنسان آخر بعد دقيقة أو اثنتين وأعرب عن دهشته لأنه وجد جريفث هناك . وسمعه يشرح له سبب وجوده فيها .

-إني أسهر على طالب في السنة الثانية يشغل هذه الحجرات ، إن المسكين مصاب بالأنفلونزا ، لن نلعب الورق أيها العجوز .

وسرعان ما ترك جريفث وحده فناداه فيليب وسأله :

-أخبرني .. إنك لن تتخلى عن حفل الليلة .. أليس كذلك ؟

-هذا ليس بسببك .. فإن على أن أستذكر دروس الجراحة .

-لا تتخل عن حفلك فإنني سأكون في خير حال ، ولا تزعج نفسك بشأني .

- ليس في الأمر إزعاج .

وازدادت حال فيليب سوءا ، ولما جن الليل بدأ فيليب يهذى قليلا ، ولكنه استيقظ قبيل الصباح من نوم غير مريح ، ورأى جريفث ينهض من مقعد كبير ذى مسندين ، ويحبو على ركبتيه ، بأصابعه قطع الفحم ويلقيها في النار قطعة قطعة . كان يرتدى منامته وعليها عباءة ، وسأله فيليب :

- ماذا تفعل هنا ؟

-هل أيقظتك ؟ لقد حاولت أن أشعل النار دون أن أحدث ضوضاء .

-ولم لم تأو إلى فراشك .. كم ساعة الآن ؟

-حوالي الخامسة .. ولقد رأيت أن من الخير أن أبقى معك الليلة ، فجئت بمقعد ذى ساندين لأني ظننت أنى إذا افترشت حشية فسأنام نوما عميقا ولن أسمعك إذا أردت شيئا.

فقال فيليب في أنين :

-أود لو لم تكن كريما معي إلى هذا الحد . فلنفرض أن العدوى انتقلت إليك .

فقال جريفث وهو يضحك :

- عندئذ ستقوم أنت بتمريضى أيها الفتى العجوز .

وفتح جريفث النافذة في الصباح وبدا عليه الشحوب والإرهاق بعد سهرة طول الليل ، ولكنه كان في غاية المرح وقال لفيليب وهو مبتهج:

- والآن سأغسل لك جسمك .

فأجاب فيليب في خجل :

- إني أستطيع أن أغتسل بنفسي .

– هراء .. لو أنك كنت في العنبر الصغير لغسلت لك ممرضة جسمك وفي وسعى أن أفعل ذلك كما تفعله الممرضة .

وكان فيليب ضعيفا منهوك القوى لا يستطيع المقاومة فسمح لجريفث أن يغسل له يديه ووجهه ، وقدميه وصدره وظهره . وفعل ذلك كله في رقة ساحرة ، وهو يحدثه حديثا وديا ، ثم بدل الملاءة كما يفعلون في المستشفي ، وسوى الوسادة ورتب الفراش ، وقال :

– إني لأود أن تراني الأخت أرثر .. فسيثير ذلك أرقها وسيأتى ديكون لعيادتك مبكرا .

وقال فيليب :

– إنى لا أستطيع أن أتصور لماذا تتصرف بهذا الكرم نحوى .

– إنه تدريب جيد لى ومن أحسن الفرص التي تتاح للمرء أن يجد مريضا .

وأعد جريفث له فطوره وخرج لارتداء ملابسه وتناول فطوره، ثم عادة في الساعة العاشرة إلا بضع دقائق يحمل عنقودا من العنب وبعض الازدهار وقال فيليب :

– إنك لفي غاية العطف .

ولزم فيليب الفراش خمسة أيام ، وتبادلت نورا وجريفث العناية به وتمريضه وكان تصرف جريفث معه تصرف الأم الحنون الفكهة وإن لم يكن أكبر منه سنا . فقد كان شخصا مفكرا رقيقا ومشجعا ولكن ميزته الكبرى هى حيويته التي يبدو أنها كانت تضفي الصحة الكاملة على كل شخص على اتصال به .

ولم يكن فيليب معتادا على التدليل الذى يستمتع به معظم الناس من أمهاتهم أو أخواتهم وأثرت فيه كثيرا تلك الرقة التي يتصف بها هذا الشاب القوى ، وتحسنت حال فيليب ، وكان جريفث يجلس في تراخ في حجرة فيليب ويسليه بأقاصيص مرحة عن مغامرات، فقد كان شخصا محبا لمغازلة النساء في مقدوره أن ينغمس في ثلاث مغامرات غرامية أو أربع في وقت واحد . وكان من اللطيف أن يستمتع المرء إلى الوسائل التي كان يضطر إلى اتباعها لتتخلص من المآزق وقد أوتى القدرة على إضفاء بهاء خيالي على كل شئ حدث له . وكان غارقا في الدين وكان كل شئ ذا قيمة لديه مرهونا ، ولكنه استطاع دائما أن يظل مرحا مبذرا كريما . وقصارى القول إنه كان مغامرا بطبعه يحب الناس ذوى المهن المريبة والأهداف المتغيرة . وكان معارفه من بين الغوغاء الذين يترددون على مشارب لندن جد كثيرين وكان منهم نساء خليعات يعاملنه معاملة الصديق ويقصصن عليه متاعبهن، ومشاكلهن ومآزقهن، والنجاح الذى لقينه في حياتهن ، ومقامرون نصابون يحترمون إفلاسه ويقيمون له المآدب ويقرضونه بالخمسة الجنيهات . ورسب في امتحاناته مرة بعد أخرى . ولكنه كان يتحمل ذلك في مرح واستسلم في رشاقة ساحرة إلى تأنيب أبيه وهو طبيب في ليدز يعز عليه أن يشتد في غضبه عليه وقال جريفث في مرح :

– إنى مولع بالكتب .. إلى حد الجنون ولكننى لا أستطيع أن أعمل لقد كانت الحياة لدي البهجة . ولكن كان من الواضح أن جريفث إذا قضى فترة شبابه الفائر وحصل على أجازته

العلمية فسيصيب في الحياة العلمية نجاحا عظيما وسيشفي الناس بسحر طباعه وحدها وقد أحبه فيليب لدرجة العبادة .. كما أحب من قبل الصبية الطوال ذوى القامات المعتدلة والروح المرحة . وقبل أن يشفي فيليب كانوا قد أصبحوا أصدقاء وكان من أعظم ماسر منه أن جريفث كان يستمتع بالجلوس في حجرته واضاعة وقته في حديثه المسلى وتدخين لفافات لاعدد لها . وكان فيليب يصحبة أحيانا إلى مشرب الخمر في شارع ريجنت .

أما هايواردفكان يرى أن جريفث غبى . ولكن لوسون لاحظ ما يتصف به من فتنة ويتوق لرسمه . فقد كان شكله جميلا بعينيه الزرقاوين ، وبشرته البيضاء . وشعره المتلوى .

وكثيرا ما كانا يتنافسان في موضوعات لايعرف جريفث عنها شيئا ، فكان يجلس صامتا وعلى وجهه ابتسامة سمحة. وهو يشعر بحق أن في وجوده اهتماما كافيا منه لتسلية الجماعة . وعندما علم أن ماكاليستر سمسار في سوق الاوراق المالية تاق لأن يقامر وحدثه ماكاليستر وهو يبتسم في جد عن الثروات التي كان يمكن أن يصيبها لو اشترى أسهما في أوقات معينة ، وأسال ذلك لعاب فيليب لأنه كان ينفق من نقوده بطريقة ما وكان يظن أكثر مما توقع أن يكسب بعض المال بالطريقة السهلة التي عرضها عليه ماكاليستر . وقال السمسار :

– حين أعلم في المرة الثانية بأية صفقة طيبة بحق فسأبلغك عنها ، فإن هذه الفرص تتاح للمرء أحيانا والأمر يتوقف على اختيار الوقت المناسب ولم يستطع فيليب أن يمنع نفسه من التفكير في لذة كسب خمسين جنيها حتى يستطيع أن يهب نورا الفراء التي كانت في مسيس الحاجة إليها لفصل الشتاء . وراح يتأمل المتاجر في شارع ريجنت . واختار ما يستطيع أن يبتاعه بالنقود، فقد كان يرى أنها تستحق كل شئ لأنها جعلت حياته سعيدة كل سعادة .

وفي عصر ذات يوم ، عاد فيليب من المستشفي إلى مسكنه ، ليزيل ما علاه من غبار ويصلح من هندامه ، قبل ذهابه لتناول الشاى مع نورا كعادته ، وما أن أدار مفتاحه في القفل، حتى فتحت صاحبة المسكن وهى تقول :

هنا سيدة تريد أن تراك .

فتساءل في عجب :

– ترانى أنا ؟ !

ودهش فيليب . فلن تكون سوى نورا ، ولكنه لا يدرى ما الذى جاء بها إلى مسكنه .

قالت صاحبة المسكن :

ما كنت لأدخلها ، لو لا أنها حضرت ثلاث مرات وقد بدا عليها القلق والانزعاج عندما علمت أنك قد خرجت ، ولهذا طلبت إليها أن تدخل وتنتظرك . ولم يلق فيليب بالا إلى صاحبة المسكن التي كانت مستمرة في الكلام ، بل اندفع إلى داخل الحجرة وشعر فيليب بالألم يعتمل

في قلبه ، ولقد كانت ميلدريد جالسة ولكنها أسرعت بالوقوف عند دخوله دون أن تتحرك أو تتكلم وبلغت به الدهشة حدا جعله لا يدرك ما يقول .

وسألها :

– ويلك.ماذا تريدين ؟

ولم تجب ميلدريد ، ولكنها بدأت تبكى ، ولم تضع يديها على عينيها بل تركتهما مرسلتين إلى جانبها ، فكانت تبدو كخادمة . تطلب عملا وبدت على وجهها علامات الذلة والانكسار . ولم يدرك فيليب أى شعور خامره في ذلك الوقت وكأن خاطرا مفاجئا كان يراوده هو أن يفر من الحجرة وأخيرا قال لها :

– ما كنت أظن إنني سأراك مرة ثانية .

فأجابته بما يشبه الأنين .

– كنت أتمنى لو مت ؟

وتركها فيليب واقفة حيث كانت . ولم يكن يفكر في تلك اللحظة إلا في أن تسكن ثائرته. فقد كانت ساقاه ترتعدان ونظر إليها – وسألها في أنين يائس :

– ماذا بك ؟

فأجابت :

– لقد تركني إميل .

وتوالت ضربات قلب فيليب فعرف أنه ما زال يحبها وأنه لم يفتر يوما عن حبها ، وكانت تقف أمامه ذليلة لا تستطيع مقاومة . وتمنى لو أخذها بين ذراعيه وأمطر بقبلاته وجهها المبلل بالدموع . فما أطول الفراق .. إنه لا يدرى كيف استطاع تحمله . وأخيرا قال فيليب لميلدريد :

– من الأفضل أن تجلسي ، وأن تشربى شيئا !!

وسحب المقعد قريبا من الموقد ، فجلست عليه ، ومزج له الويسكى بالصودا فشربته من خلال دموعها وهى تنظر إليه بعينين حزينتين ، رسمت الأحداث تحتها خطوطا سوداء كبيرة، وكانت أكثر نحافة وأبيض لونا مما رآها أخيرا .

قالت ميلدريد لفيليب :

– كنت أتمنى لو تزوجتك يوم أن طلبت يدى .

وقد بدا فيليب وكأن هذه الملاحظة أثارت آلام قلبه ، ولم يستطع أن يبقى كما فرض على نفسه ، فيفصل بينهما فاصل من مسافة فتقدم منها ، ووضع يده على كتفها قائلا :

– إننى جد لآسف لما أنت فيه من متاعب .

فمالت ميلدريد برأسها على صدره وانفجرت تبكى في عصبية شديدة وتخلصت من قبعتها التي كانت تحول بين رأسها وصدره ، وما كان فيليب يقدر يوما أنها تستطيع أن تبكى كما بكت أمامه فقبلها مرة ومرات وكان لقبلاته أثر في تهدئتها ولو قليلا .

– لقد كنت دائما طيبا معى يافيليب وهذا هو السبب في التجائى إليك .

– أخبرينى ماذا حدث ؟

– أوه .. لا أستطيع ، لا أستطيع .

قالتها وهى تصرخ مبتعدة عنه .

وركع فيليب إلى جانبها ، واضعا خده على خدها ، ثم سألها :

– ألا تعلمين أنه لا يوجد شئ لا تستطيعين الإفضاء به إلى، أننى لن ألومك أبدا [illegible] أى شئ.

فقصت ميلدريد قصتها على فيليب شيئا فشيئا . وكثيرا ماكان نحيبها الذى يتخلل السرد يطغي عليه حتى يصعب على فيليب فهم ما تقول .

قالت ميلدريد :

– في يوم الاثنين من الأسبوع الماضى ، سافر أميل إلى برمنجهام ووعد أن يعود يوم الخميس. ولكنه لم يحضر، ولم يحضر كذلك يوم الجمعة. فكتبت إليه أسأله السبب، [illegible] يرد على، فكتبت ثانية أقول له إننى إذا لم أسمع منه خبرا برجوع البريد ، فسألحق [illegible] في برمنجهام وفى صبيحة هذا اليوم وصلنى خطاب من محاميه يقول بألا حق لى عليه [illegible] إذا أزعجته فسوف يلجأ إلى حماية القانون .

وصاح فيليب :

– ولكن هذا مستحيل ، فليست هذه معامله رجل لزوجته هل تشاجرتما ؟

فأجابت ميلدريد :

– أجل تشاجرنا يوم الأحد ، وأبدى ضيقه بى ، ولكن مثل هذا حدث قبلا ، ثم [illegible] العلاقات حسنة كما كانت . ولم أعتقد أنه كان يعنى مايقول، لقد كان خائفا لأننى [illegible] بأننى سأكون أما عما قريب . لقد أخفيت هذا الخبر عنه ما استطعت ولكنى وجدت [illegible] لا مندوحة لى عن إخباره به ، وقد أجاب على ذلك بأنها غلطتى أنا وأن الواجب كان يقتضى أن أكون أكثر معرفة، آه ليتك استمعت إلى ما قاله لى .. ولكننى استطعت بسرعة أن [illegible] أنه لم يكن مهذبا على الإطلاق ولقد تركنى دون نقود ، ولم يدفع إيجار المسكن . [illegible] يوجد معى مال أدفعه وقد تفوهت صاحبة المسكن بكلمات قاسية ، لاتقال إلا للصوص

– لقد ظننت أنكما ستعيشان في شقة .

– هذا كما كان يقوله ، ولكننا أستأجرنا شقة بأثاثها في هاى يورى ، لقد كان [illegible] كان يقول إننى مسرفة مع انه لم يعط شيئا أسرف فيه .

وكانت لميلدريد طريقة شاذة في مزج التافه بالهام ، مما حير فيليب ، فقد كان الموضوع بأكمله غير مفهوم .

– لايمكن أن يتصف إنسان بهذا الشر كله .

– إنك لاتعرفه . لن أعود إليه الآن حتى ولو جاء وركع امامى ، لقد كنت بلهاء إذ فكرت في أنه لم يكن يكتسب النقود كان يزعم أنها له كم كان كاذبا !

فكر فيليب دقيقة أو اثنتين . لقد تأثر تأثيرا عميقا لما كانت فيه من محنة حتى أنه لم يعد يفكر في نفسه .

– أتريدين أن أسافر إلى برمنجهام ؟ أن في وسعى أن أقابله وأحاول أن أصلح ما فسد بينكما.

– أوه .. لم يعد هناك أمل في ذلك فلن يعود الآن ، إننى أعرفه !

– ولكن واجبه أن ينفق عليك . إنه لايملك التهرب من ذلك . حقا إننى لا أدرى شيئا عن هذه الأمور ، وخير لك أن تستشيرى محاميا .

– وكيف أستطيع ذلك وأنا لا أملك نقودا ؟

– سأدفع كل المصاريف وسأكتب مذكرة لمحاميى الخاص ذلك الرجل الزياضى الذى كان المنفذ لوصية أبى . هل تريدين منى الذهاب معك الآن ؟

– أتوقع أنه مازال في مكتبه !

– كلا . اكتب له خطابا وسأذهب وحدى .

وكانت ميلدريد قد هدأت قليلا بعد هذه المناقشة، أما فيليب فقد جلس ليكتب المذكرة عندما تذكر أنها خالية الوفاض. ومن حسن الحظ أنه كان قد صرف صكا من البنك في اليوم السابق واستطاع أن يعطيها خمسة جنيهات فقالت له :

– مازلت طيبا معى يافليب .

– إننى سعيد إذ أستطيع أن أعمل شيئا من أجلك .

– ألا تزال مغرما بى ؟

– كما كنت دائما .

وقربت شفتيها فطبع عليها قبلة . لقد رأى منها استسلاما لم يره من قبل وكان هذا الاستسلام كفيلا بإزالة كل ما قاساه من ألم سابق .

وخرجت ميلدريد ، وتبين بعد خروجها إنها قضت معه ساعتين . وكان فيليب سعيدا أكثر من المعتاد ، وأخذ يهمس في نفسه قائلا :

– يالها من مسكينة .. يالها من مسكينة ! واشتعل قلب فيليب غراما بها أكثر من ذى قبل.

ولم يفكر فيليب في نورا بتاتا حتى وصلته برقية حوالى الساعة الثامنة . وقبل أن يفض فيليب البرقية كان يعلم أنها منها .

وكانت البرقية تقول «ماذا حدث ؟ نورا ... »

ولم يعرف فيليب ماذا يفعل أو بماذا يجيب .. لقد كان بوسعه أن يعثر عليها بعد انتهاء اللعب الذى تمارسه .. ويصحبها إلى المنزل كما كان يفعل أحيانا .. ولكن روحه عافت رؤيتها

ذلك المساء .. وفكر في الكتابة إليها . ولكنه لم يستطع أن يرغم نفسه على أن يكتب إليها تحت عنوان «عزيزتى نورا» كما اعتاد وأخيرا حزم أمره على إرسال برقية يقول فيها :

آسف لا أستطيع الخروج . فيليب.

وتصورها فيليب بعين خياله .. كان وجهها الصغير غير الجميل يبعد فيليب عنها .. فعظام خديها ناتئة ولون وجهها معتم ، وملمس بشرتها خشن وكان فيليب يعلم أن لبرقيته رد فعل من جانبها . ولكنها على كل حال ستؤجل هذا الأثر .

وفي اليوم التالي أبرق فيليب إلي نورا :

«آسف لاأستطيع الحضور . سأكتب إليك» .

وكانت ميلدريد قد اقترحت عليه الرابعة بعد الظهر موعدا لحضورها ولم يشأ فيليب أن يخبرها أن هذا الموعد غير مناسب ، ومع هذا فقد حضرت أولا وكان على أحر من الجمر وهو ينتظر حضورها ، وراقبها من نافذة مسكنه وهى في طريقها إليه .. ثم فتح لها الباب الخارجى بنفسه ..

– هل قابلت نيكسون ؟

– نعم لقد ألهمنى عدم جدوى الشكوى ، وأن ليس هناك ما يمكن عمله ، وأن أهدى من غضبى وأتحمل .

وصاح فيليب :

– ولكن هذا مستحيل ..

وجلست ميلدريد متعبة . فسألها فيليب :

– هل أبدى نيكسون لك الأسباب ؟

وأعطته ميلدريد خطابا لم يعتن بطيه حتى تكرمش وهى تقول :

– إليك خطابك يافيليب .. لم آخذه إلى نيكسون لأنى لم أستطع الإفضاء إليك بالحقيقة أمس ، حقيقة أننى لم أستطع ، فاميل لم يتزوجنى ، لأنه لايستطيع الزواج ، فهو زوج فعلا وله ثلاثة أطفال .

وشعر فيليب بغصة مفاجئة من الغيرة والحنق والضيق .. وكانت مما لا يستطيع احتماله.. ومضت ميلدريد تقول :

– وكان هذا سبب عدم عودتي إلى عمتي . ولم أجد من ألجأ إليه سواك وسألها فيليب في صوت خفيض حاول أن يجعله حازما :

–وما الذى جعلك تذهبين معه ؟

–لا أدرى . وما كنت أعلم إنه متزوج وعندما أخبرني بعد ذلك لم أرفض عرضه رفضا قاطعا ثم إنى لم أره بعد ذلك عده شهور ، فلما زار المحل ثانية لم أدر ماذا حل بي . لقد شعرت أنني لا أستطيع الرفض وأن على أن أذهب معه .

–وهل كنت تحبينه ؟

– لست أعلم . لم أكن أستطيع الإمساك عن الضحك لما يقول . وهناك شئ آخر ، لقد كان يقول إنني لن آسف على ما فعلت ، ووعد بإعطائي سبعة جنيهات أسبوعيا . وكان يقول إن يتقاضى خمسة عشر جنيها كل أسبوع . ولكنه كان كاذبا في كل ما قال .. وكنت في ذلك الوقت قد ضقت ذرعا بالذهاب إلى المحل كل صباح . ولم تكن علاقتي بعمتي على ما يرا لقد أرادت أن تعاملني كخادم لا كقريبة .. وكانت تقول بأن من واجبي إعداد حجرتي الخاص .. وإنني إذا لم أعدها فلن يعدها أحد غيرى ، أوه .. كم أتمنى لو لم أكن ذهبت معه ، ولكن عندما جاء إلى المحل ، وطلب إلي أن أكون له زوجا شعرت أنني لا أستطيع الرفض .

وتحرك فيليب بعيدا عنها ، وجلس إلي جوار المنضدة ، وقد دفن وجهه بين يديه . لقد شع بأنه ذليل ذلا شديدا .

– لست غاضبا على يا فيليب ؟

فأجابها فيليب وقد رفع رأسه إلى أعلى بعيدا عنها :

–كلا .. كل ما هناك أنني أهنت .

–لماذا ؟

–لقد كنت تعلمين مقدار حبي لك . وقد بذلت كل ما أستطيع من جهد ليتحول اهتما إلى، حتى ظننت أنك ممن لا يستطيعون أن يحبوا أحدا فكان فظيعا حقا أن أعلم عن استعدا التام لبذل كل تضحية في سبيل ذلك الأفاق ، وإنى لأعجب ماذا رأيت فيه ؟

وقالت ميليدريد :

–إني جد آسفة يا فيليب لقد أسفت أسفا شديدا فيما بعد ، وإني أعدك بهذا .

وسرح فيليب بتفكيره إلى أميل ميلر ، بمنظرة السقيم ، وعينيه الخضراوين المحتال وأناقة منظره السوقية المبتذلة . لقد كان يكثر من ارتداء الصدرة الحمراء اللامعة .

وتنهد فيليب . فقامت إليه ميليدريد وطوقت عنقه بذراعها وهى تقول :

–لن أنسى قط أنك طلبت الزواج منى يا فيليب .

وأخذ فيليب يدها وتطلع إليها فانحنت وقبلته قائلة:

–أى فيليب .. إذا كانت لاتزال بك رغبة في فسأفعل الآن ما يحلو لك . إني لأعلم أنك مه بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وشعر فيليب أن قلبه قد توقف وأن كلماتها قد هزت كيا

–هذا فضل كبير منك ولكنى لا أستطيع .

–ألم تعد تهتم بي إلى هذا الحد ؟

–بلى ، إني أحبك من كل قلبي .

وتخلص فيليب منها ثم قال :

–إنك لا تفهمين الأمر على حقيقته .. لقد أغرمت بك منذ رأيتك ، ولكن الآن .. ذلك الر لسوء حظي إن خيالي من النوع الجامح المتيقظ ، ولذا فإن مجرد التفكير فيه يجعلني أتق

وأخذ فيليب يدها مرة أخرى وابتسم لها ثم قال :

–يجب ألا تظني أنى جاحد لك فضلك . لن أستطيع إيفاءك الشكر الواجب ولكن أرجو أن تدركي أن خيالي أقوى منى .

–إنك لنعم الصديق يا فيليب .

واستمر بينهما الكلام وسرعان ما عادا إلى عهد صداقتهما الأولى . لقد نمت هذه الصداقة أخيرا واقترح فيليب أن يتعشيا معا ثم يذهبا بعد ذلك إلى قاعة للموسيقى ، وكانت ميلدريد في حاجة إلى بغض الإقناع .. فقد كانت فكرة تخامرها بأن يكون تصرفها متلائما مع موقفها ، وشعرت بغريزتها إنه مما لا يتفق مع حالتها المحزنة أن تذهب إلى مكان للترفيه وأخيرا طلب إليها فيليب أن تلبى رغبته لكي تسعده وقبلت ميلدريد الذهاب بعد أن نظرت إلى الأمر على أنه عمل من أعمال التضحية الذاتية .

وقد اتجهت ميلدريد إلى نوع جديد من التفكير سر له فيليب ، فطلبت إليه أن يصحبها إلى مطعم صغير في حي «سوهو» كان غالبا ما يذهبان إليه وشكر لها فيليب هذا التفكير فقد أظهر اقتراحها هذا مقدار استمساكها بذكرياتهما السعيدة ، وزاد مرحها أثناء العشاء .. فقد أدفأ قلبها «البرجاندى» الذى شرباه من الحانة القائمة على زاوية الشارع .. ونسيت أن عليها أن تحتفظ بطابع الحزن والكآبة . مما جعل فيليب يعتقد أن في وسعه أن يتحدث إليها عن المستقبل . وقد انتهز فرصة لاحت له فسألها :

–أعتقد أنك لا تملكين فلسا واحدا ، أليس كذلك ؟

–معي ما أعطيتني بالأمس فقط . وكان على أن أدفع منه لصاحبة المسكن ثلاثة جنيهات.

–أفضل أن أعطيك عشرة جنيهات أخرى تعيشين منها .وسأذهب للمحامى وأطلب إليه أن يكتب إلى ميلر . ولا شك عندى في أننا نستطيع أن نجعله يدفع شيئا من المال . فإذا استطعنا مثلا أن نجعله يدفع مائة جنيه فإن هذا المبلغ سيكفيك إلى ما بعد ولادة طفلك.

–لن آخذ منه قرشا واحد . بل إني لأفضل الموت جوعا على ذلك .

–ولكن من المفزع أن يتركك دون مساعدة .

–إني اعتد بكبريائي .

كان الموقف صعبا بالنسبة لفيليب . فقد كان في حاجة إلى أن يراعى أشد الاقتصاد حتى يكفيه ما لديه من نقود حتى ينتهي من دراسته ، وكان عليه أن يحصل على مبلغ آخر يعيش منه خلال العام الذى اعتزم أن يقضيه كطبيب امتياز باطني أو جراح .. إما في عيادة خاصة أو في مستشفي . ولكن ميلدريد قصت عليه الكثير من حقارة إميل فمضى يجادلها ويعترض إذا اتهمته أيضا بأنه ينقصه الكرم .

– لن آخذ منه قرشا واحدا . وخير لي من ذلك أن أستجدى طعامي لقد كنت أستطيع أن أجد لي عملا قبل الآن بزمن طويل ولكن قد لا يكون ذلك من صالحي في حالتي الراهنة .

–إن عليك أن تراعى صحتك. أليس كذلك ؟ لا تقلقي بالك بالحاضر . ففي استطاعتي أ
أمدك بكل ما تريدين حتى تستطيعي العمل مرة أخرى .

–كنت أعلم أن بوسعى الاعتماد عليك . لقد أخبرت إميل ألا يظن أنني لن أجد من أذه
إليه وقلت له هناك سيد مهذب بكل ما في هذه الكلمة من معنى ..

وعرف فيليب تدريجيا كيف حدث الانفصال . ظهر أن زوجة إميل اكتشفت مغامراته م
ميلدريد خلال زياراته المتوالية للندن . فذهبت إلى رئيس المؤسسة التي كان يعمل في
وهددته بالطلاق . وقد أعلن أصحاب المؤسسة أنهم سيفصلونه إذا نفذت تهديدها . وكان إمي
متفانيا في حب أطفاله ولم يكن يحتمل مجرد التفكير في الافتراق عنهم . وما أن ترك ل
الاختيار بين زوجته وعشيقته حتى اختار زوجته . ولقد كان دائما قلقا خشية أن تكو
ميلدريد حاملا فتتعقد الأمور أكثر مما هي ولم تستطع ميلدريد صبرا على إخفاء ما يتحر
في أحشائها فأخبرت أميل بالحقيقة فاستبد به الفزع فاختلق شجارا وتركها دون ضجة

وسألها فيليب :

–متى تتوقعين الولادة؟

فأجابته :

–في أوائل شهر مارس .

–بعد ثلاثة أشهر ؟

وكان من الضرورى أن يتناقشا في خطط المستقبل . وأعلنت ميلدريد أنها لن تبقى ف
مسكنها بشارع هابيرى، وكان فيليب يعتقد أنه من الخير لها أيضا أن تكون قريبة من
ووعد بأن يبحث عن سكن لها في اليوم التالي فاقترحت ميلدريد «فوكسهول بردج رو
مكانا مناسبا لقربة من مسكنه وقالت له :

–وسيكون صالحا كذلك لما بعد .

–ماذا تعنين ؟

أقصد أنني لا أستطيع أن أبقى هناك إلا شهرين أو أكثر من ذلك بقليل وبعدها سيكون
الواجب أن أذهب للولادة وإني لأعرف مكانا محترما جدا يقبلون أمثالي فيه نظير أر
جنيهات أسبوعيا لا أكثر ما عدا الطبيب طبعا . وهذا كل ما يدفع . لقد سكنت هناك صد
لي . وعلمت أن السيدة التي تؤجر المسكن سيدة مهذبة حقا . سأخبرها أن زوجي ضابط
الهند وإنى قد حضرت إلى لندن لأضع طفلي لأنها أفضل لصحتي .

وقد بدا حديثها بهذه الطريقة غريبا على مسامع فيليب . وبدت هي أمامه رزينة با
ومحتشمة بملامحها الرقيقة الصغيرة ووجهها الشاحب، وعندما فكر فيليب في العواطف ال
تحترق في داخلها على غير انتظار استولى عليه الاضطراب وازدادت في قلبه سرعة النبض

● ● ●

كان فيليب يتوقع أن يجد خطابا من نورا عندما عاد إلى مسكنه . ولكنه لم يجد شيئا . و
يصله شئ في صبيحة اليوم التالي. وقد آلمه السكون كما أزعجه في الوقت نفسه . لقد كا
يراها وتراه كل يوم طيلة أقامته في لندن في شهر يونيو الماضي ، وكان غريبا بالنسبة ل
أن يمضى يومان دون أن يزورها أو يفسر لها سبب غيابه وكان يخشى أن يكون سوء الطا
قد جعلها تشاهده مع ميلدريد . ذلك أنه لم يكن يحتمل مجرد التفكير في أنه سبب لها شي
من الألم أو أنها غير سعيدة . وعزم على زيارتها عصر ذلك اليوم . وكان يميل إلى لوم نفس
لأنه سمح لها باستثارة علاقة الصداقة معها، أما فكرة الاستمرار في هذه الصداقة فقد ملأ
اشمئزازا .

ووجد فيليب حجرتين لميلدريد في الطابق الثاني من منزل في حي فوكسهول بردج رو
.. وكانتا في منطقة صاخبة . ولكنه كان يعلم أنها تحب ضوضاء حركة المرور تمر تح
نافذتها وقالت له ميلدريد :

– لا أحب الشارع الميت الحي حيث لا ترى إنسانا يمر طيلة اليوم، اعطني قطعة م
الحياة.

وذهب فيليب بعد ذلك مكرها إلى ميدان فنسنت . واستبد به الخوف عندما دق جرس
الباب. وكان ضميره يؤنبه لسوء معاملته لنورا . ويخشى أن تكون قد تأثرت لهذه المعام
فقد كان يعلم أنها سريعة التأثر . وهو يكره الشجار وقد تكون الطريقة المثلى في هذه الحا
أن يصارحها بأن ميلدريد قد عادت إليه وأن حبه لها ما زال قويا كما كان وأنه يأسف لذل
أشد الأسف ، إذ لم يعد لديه ما يقدمه لنورا . وعندئذ فكر فيليب فيما سيصيبها من إيلام لأن
تحبه . لقد تملقه ذلك الحب من قبل واعترف لها بالفضل . ولكنه الآن شئ مروع لأنها لم تك
تستحق أن يؤلمها وقد سأل نفسه كيف تحبه الآن . وكان أثناء صعوده السلم يستعرض ف
ذهنه كل أنواع السلوك الممكنة التي قد تقابله بها . وطرق فيليب الباب وهو يشعر بأنه كا
شاحبا ويعجب كيف يستطيع أن يتحكم في أعصابه.

وكانت نورا جالسة تكتب في جد ولكنها قفزت واقفة عندما دخل .

–لقد غرفت خطواتك . أين كنت مختفيا أيها الولد الشقي ؟

وسارت إليه نشوى وطوقت رقبته بذراعيها . فلقد كانت فرحة لرؤيته وقبلها . وأراد أ
يظل مسيطرا على أعصابه ، فقال لها أنه يتحرق شوقا إلى فنجان من الشاى . وانهمكت نو
في إشعال النار لتحقيق رغبته . ثم قال فيليب في تعثر :

–كنت مشغولا إلى درجة كبيرة .

وبدأت نورا تثرثر بطريقتها الأخاذة ، فأخبرته عن عرض جديد لتوريد قصة صغي
لمؤسسة لم تعاملها نورا من قبل . وقالت إنها ستربح من وراء ذلك خمسة عشر جنيها
مضت تقول:

– سيل هبط علينا من السماء ، وسأدبر لك خطة للعمل . يجب أن نقوم بنزهة صغيرة فنقضى يوما في أكسفورد ، ألا توافق ؟ أود أن أرى الكليات .

ونظر إليها ليرى هل هناك أثر للألم في عينيها ، ولكنهما كانتا صريحتين مرحتين كطبيعتها دائما وكانت نشوتها لرؤيته طاغية ، فغاص قلبه ، ولم يستطع الإدلاء إليها بالحقيقة المرة .

وقد أخذت نورا تقطع العيش المحمر الذى صنعته من أجله قطعا صغيرة وتعطيه إياها ثم سألته :

–هل طعمه ردىء ؟

فأشار برأسه مبتسما ، وأشعلت له لفافة تبغ ، وبعدها قامت لتجلس على ركبتيه كما كان يحلو لها دائما أن تفعل وبدت له جد خفيفة ، وقد استرخت بين ذراعيه وهى تتنهد في سعادة عارمة . ثم غمغمت تقول :

–أسمعني كلاما جميلا ..

–ماذا أقول ؟

–تستطيع أن تستنجد بخيالك فتقول إنك تحبنى .

–إنك تعلمين أني أحبك .

ولم يكن يملك من الشجاعة وقتئذ ما يستطيع معه إنباءها بالحقيقة، ورأى ألا يع صفوها طيلة ذلك اليوم مهما كانت الظروف . وربما استطاع الكتابة إليها بما يريد فيما ب فهذا أسهل من مواجهتها بالحقيقة ولم يكن يحتمل التفكير في رؤيتها وهى تبكى .لقد جع يقبلها . وكان في أثناء تقبيله إياها ، يفكر في ميلدريد وفي شفتي ميلدريد الشاحبتين الرقيقتين ، وظل طيف ميلدريد يراود خياله طول الوقت كشكل غير منفصل كأنه صورة مجسمة ولكنها أكثر مادية من الظل وكان هذا المنظر سببا دائما في تشتيت انتباه فيلي وعدم تركيزه .

قالت نورا :

– إنك اليوم جد هادئ ..

وكانت ثرثرة نورا موضع التندر الدائم بينهما مما جعل فيليب يجيبها قائلا :

–إنك لم تعطني فرصة للكلام . وقد تخلصت من عادة الكلام ..

–ولكنك لست مصغيا . وليس هذا من الأخلاق في شئ .

واحمر وجه فيليب قليلا ، وخشى أن تكون قد اطلعت على شئ من سره فأدار عينيه ع في ضيق، لقد أزعجه ثقلها في ذلك اليوم ، وكره حتى مجرد لمسها إياه .

وقال فيليب :

–لقد تخدرت قدماى .

فقفزت نورا قائلة :

–آسفة جدا . يجب أن أتخلص من عادة الجلوس على ركب الرجال.

وبدا فيليب يحرك رجليه ويضرب بهما الأرض ثم يسير في الحجرة وأخيرا وقف أم المدفئة حتى لا يمكنها من تكرار هذا الجلوس . وعندما أخذت في الكلام تبين له أنها أفض من عشرة من أمثال ميلدريد ، فقد كانت خيرا منها في إدخال السرور عليه وكان الحديث إلي أكثر بهجة ، كما كانت أكثر مهارة وأجمل طبيعة . كانت فتاة طيبة وشجاعة وأمينة ، أ ميلدريد فلم يكن لها نصيب من هذه المميزات ، ولو أن فيليب كانت عنده ذرة من الإدر لتمسك بنورا .. فهي كفيلة بجعله أسعد بكثير مما لو كان مع ميلدريد . وفوق كل هذا فه تحبه، أما ميلدريد فكل ما عندها أنها شاكرة له فضل مساعدته لها . ومهما كانت المقار غير متكافئة فإن أهم شئ في نظر فيليب هو أنه لا يحب نورا. وقد كان غارقاً بكل جوارح في حب ميلدريد. كان يفضل عشر دقائق مع ميلدريد على قضاء مساء بأكمله مع نورا. وك يعتز بقبلة واحدة يأخذها من شفتي ميلدريد الباردتين ويراها خيرا من كل القبلات الت تمنحها إياه نورا.

وقال فيليب في نفسه لا أستطيع المقاومة (إن حبها قد امتزج بلحمي ودمى)

ولم يعد يهمه إذا كانت ميلدريد بلا قلب أو شريرة أو سوقية، أو غبية أو انتهازية.

فإنه يحبها وكفى ويفضل الشقاء والتعاسة مع ميلدريد على السعادة والهناء مع نور

وعندما نهض للذهاب، قالت نورا عرضاً:

–سأراك غدا أليس كذلك؟

فأجاب:

–بلى

وكان فيليب يعلم أنه لن يستطيع الحضور فقد كان عليه أن يذهب لمساعدة ميلدريد ف الانتقال إلى مسكنها الجديد. ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لأن يقول لنورا إنه لن يحضر

وحزم أمره على أن يرسل لها برقية يعتذر فيها.

وشاهدت ميلدريد حجراتها في الصباح ورضيت بها. وذهبت مع فيليب بعد الغذاء إ هابرى. وكانت لها هناك حقيبة للملابس وأخرى لمختلف حاجاتها من وسائد وأغط مصابيح، وبراويز تصوير وغيرها من الأشياء التي أرادت بها أن يكون لمسكنها الجد طبيعة المنزل الحق. وكان لها كذلك صندوقان كبيران أو ثلاثة صناديق من الورق المقو ومع هذا فكل ما كان لها يمكن وضعه على سطح عربة من ذوات العجلات الأربع وقد حر فيليب على الجلوس في الجزء الخلفي من العربة وهى مارة بشارع فكتوريا مخافة أن تكو نورا مارة به عفوا فتراه. ولم يجد فرصة ليبرق إلى نورا. ولم يستطع أن يفعل ذلك من مك بريد فوكسهول بردج رود، حتى لا تتساءل عن سبب وجوده في هذه المنطقة ومادام هو ذلك المكان فلن يكون له عذر في عدم ذهابه إلى الميدان المجاورة حيث تسكن نورا. وقد ر فيليب أنه من الأفضل له أن يذهب ليراها لمدة نصف ساعة، ولكن ضرورة الذهاب إلي

أزعجته، فقد كان غاضباً عليها لأنها أرغمته على اتباع الوسائل المبتذلة المهينة. أما ميلدريد فقد كانت سعيدة بوجوده معها ... وكان يسره أن يساعدها في فك أربطة حقائبها وحاجياتها. وكان يحس لأول مرة الإحساس الجميل بالسيطرة حيث تولى إسكانها في الحجرات التي وجدها والتى يدفع إيجارها. ولم يتركها تجهد نفسها،فقد كان مما يسعده أن يقوم بعمل من أجلها كما أنها لم تكن راغبة في القيام بعمل يشعر غيرها برغبة في أدائه لها.

أخرج فيليب ملابسها ووضعها جانبا، ولم تكن تنتوى الخروج إلى الشارع مرة أخرى ولذلك أحضر لها حذاءها المنزلي ونزع عن رجليها حذاء الخروج وكان يسره أن يقوم بهذه الخدمات الحقيرة.

قالت ميلدريد لفيليب وأصابعها تعبث في نشوة بشعره وهو راكع أمامها يحل رباط حذائها.

-إنك تفسدنى بهذا التدليل.

فأخذ فيليب يدها وقبلها ثم قال :

-إن وجودك هنا لهو الإفساد.

وأصلح فيليب من وضع الوسائد وإطارات الصور وكان عندها عدة أوعية من الخزف الأخضر.

-سأحضر بعض الزهور لتوضع في هذه الأوعية.

ثم نظر فيليب حوله إلى ما قام به في زهو وخيلاء.

وعادت تقول:

-مادمت سأبقى هنا فسألبس ثياب المنزل. هل تسمح بفك أزرار الثوب؟

واستدارت ميلدريد غير هيابة كما لو كان فيليب امرأة لا رجلا. فما كان جنسه ... اهتمامها .. ولكن قلبه كان مفعما بالشكر لها للصلة الوطيدة التي استشعرها من طلبها فك أزرار ثوبها الخلفية .. وقام فيليب بالعملية بإصبع غير محنكة وهو يغتصب الضحك ويقول.

-ما كنت أظن أول يوم دخلت فيه المحل أنى سأفعل لك ما أفعله الآن.

-لابد أن يقوم شخص ما بهذه العملية.

ومضت إلى غرفة نومها ، ولبست ثوبا منزليا أخضر اللون فاتحة تحليه عدة أشرطة المحرمات الرخيصة الثمن. أجلسها فيليب على أريكة ثم أعد لها الشاى ولكنه قال لها مع...

-أخشى ألا أستطيع البقاء لتناول الشاى معك، فإن لدى موعدا لا يمكن التخلف ... ولكنى سأعود ثانية في نصف ساعة.

وساءل نفسه ماذا يكون ردها لو سألته عن ماهية هذا الموعد. ولكنه لم يظهر أى ... في الاستطلاع وكان فيليب قد طلب عشاء لاثنين عندما انتقل إلى المسكن الجديد وقصد يقضى الأمسية في هدوء مع ميلدريد وكان على عجلة من أمره في العودة حتى إنه ...

الترام في شارع فوكسهول بردج وفكر في أنه من الأنسب أن يقضى بالحقيقة كاملة إلى نورا في الحال بحيث لا يمضى عندها أكثر من دقائق معدودة. وبعد أن وصل فيليب إلى مسكن نورا ودخل حجرتها قال لها.

-ليس لدى من الوقت ما يكفي إلا للسؤال عن حالك فحسب فإني جد مشغول.

أطرقت نورا برأسها وقالت :

-لماذا؟ وماذا حدث؟

أحنقه منها أنها ستضطره للكذب و عرف أن وجهه قد علاه الاحمرار عندما أجابها بأن هناك مظاهرة في المستشفي التي كان يزمع الذهاب إليها و تخيل أنها نظرت إليه و كأنها لا تصدق ما يقول و هذا ما آلمه أشد الألم.

قالت نورا :

-لا ضير في ذلك فسوف تكون عندى غدا بأكمله.

ونظر إليها فيليب في بلاهة ، فقد كان غدا يوم الأحد وكان ينتظره ليقضيه مع ميلدريد .. وقد قرر أن يفعل هذا بدافع التأدب والمجاملة، فما كان ينبغي أن يتركها وحيدة في منزل غريب.

- إنني آسف أشد الأسف. فأنا مشغول غدا.

وكان يعلم أن اعتذاره هذا سيكون بداية لثورة يحاول بكل الطرق أن يتحاشاها وازداد لون خدى نورا لمعانا وقالت :

-ولكنى دعوت أسرة جوردون على الغداء وقد أخبرتك بذلك منذ أسبوع .

وكانت أسرة جوردون هذه تتألف من ممثل وزوجته يطوفان بالريف ثم يعودان إلى لندن يوم الأحد.

وتردد فيليب وهو يقول :

- آسف أشد الأسف. لقد نسيت . أخشى ألا أستطيع الحضور .. ألا تستطيعين إحضار غيرى؟

- وماذا تفعل غدا إذن؟

- أود ألا تستجوبيني.

- ألا تريد أن تخبرني .

-لا يهمني بحال أن أخبرك، ولكنه من المزعج حقا أن يرغم المرء على إعطاء بيان بكل حركاته وسكناته.

تغيرت نورا لكنها كظمت غيظها بعد أن بذلت مجهودا في السيطرة على نفسها واتجهت نورا إلى فيليب وأخذت يده وهي تقول:

-لا تخيب أملى غدا يا فيليب فقد ظللت أترقب مشتاقة أن أقضي ذلك اليوم معك، إن أسرة جوردون تريد أن تراك. وسنقضي وقتا سعيدا معا .

-كنت أود ذلك لو استطعت.

-لست ممن اعتاد الإلحاح. أليس كذلك..؟ ولم أعتد أن أطلب إليك إتيان عمل تراه عنتا. ألا تستطيع الفكاك من هذا الموعد الفظيع..؟ وهذه المرة فحسب.

أجابها فيليب في إصرار:

-آسف جد الأسف. لا أدرى كيف أستطيع ذلك.

قالت نورا مداعبة:

-قل لي ما هو؟

واستطاع فيليب أن يجد وقتا يلفق فيه سببا.

- حضرت شقيقتا جريفث لقضاء عطلة آخر الأسبوع وسنصحبهما في تجوالها.

فردت نورا مبتهجة، قائلة:

-هل هذا كل ما هنالك؟ أن من السهل على شقيقتي جريفث أن تصحبا رجلا سواك.

وتمنى فيليب لو أنه فكر في سبب آخر أكثر قوة من ذلك الذى اخترعه، لقد كذب كذبة غير محبوكة.

-كلا آسف. لا أستطيع فقد وعدت ولابد من الوفاء بالوعد.

-ولكنك وعدتني أيضا. ومن المؤكد أن وعدك لي كان سابقا لهذا الوعد.

- أود ألا تصرى.

وثارت ثائرة نورا.

-إنك لن تحضر لأنك لا تريد أن تحضر.. ولست أعلم ماذا كان يشغلك خلال الأيام القليلة الماضية.

ونظر فيليب إلى ساعة يده ثم قال:

-لقد حان وقت انصرافي.

-ولن تحضر غدا؟

-كلا

وصرخت نورا وقد فقدت أعصابها قائلة:

-في هذه الحالة لا تتعب نفسك بالحضور إلى هنا مرة أخرى.

أجاب فيليب :

-كما تحبين

فردت بسخرية:

-لا تدعني أؤخرك أكثر مما أخرتك .

وهز فيليب كتفيه ومضى. لقد أنقذه منها عدم تطور الموقف إلى أسوأ. فلم تكن هنالك دموع. وقد هنأ نفسه أثناء سيره على التخلص من الموقف بهذه السهولة وعرج على شارع فيكتوريا ليشترى زهورا لأصص ميلدريد.

ونجح العشاء البسيط نجاحا عظيما. فقد أرسل فيليب وعاء صغيرا من البطارخ الذى كان يعلم أن ميلدريد مغرمة به. أحضرت لها صاحبة المسكن ضلعا من اللحم مع الخضر والحلوى وكان فيليب قد طلب لها البرجاندى، وهو شرابها المفضل. وعندما أسدلت الستائر أضرمت النار في الموقد، ووضع الغطاء فوق المصباح،أصبحت الحجرة غاية في الأناقة.

وابتسم فيليب وهو يقول:

-حقا إنها تشبه البيت. لقد كان من الجائز أن أكون أسوأ حالا وأشد فقرا.

وعندما انتهيا من تناول العشاء، سحب فيليب كرسين من ذوات المساند أمام المدفئة ، وجلسا، وأخذ فيليب يدخن غليونه في راحة وهدوء فقد كان يشعر بأنه سعيد وكريم، وسألها قائلا:

-ماذا تودين أن تفعلى غدا؟

-سأذهب إلي تلزهل ، إنك تذكر بلا شك مديرة المحل. لقد تزوجت وقد طلبت إلى أن أقضي يوما معها. وهى تعتقد طبعا أنني متزوجة كذلك.

وغاص قلب فيليب وقال :

- ولكنني رفضت دعوة لكي أقضي معك يوم الأحد.

وأعتقد فيليب أنها لو كانت تحبه حقا لقالت أنها من أجل ذلك ستبقى معه، وكان يعلم تماما أن نورا ما كانت لتتردد في ذلك لو كانت مكانها .

-لقد كنت مغفلا في تصرفك هذا. ولقد وعدت بالذهاب من مدة ثلاثة أسابيع أو أكثر.

-ولكن كيف تستطيعين الذهاب وحدك؟

-أوه، سأقول لهم سافر في عمل . إن زوجها تاجر قفازات وهو شخصية ممتازة جدا.

ووقف فيليب صامتا، وقد تخللت الأحاسيس المرة قلبه. أما هي فقد نظرت إليه شذرا ثم قالت :

-لا أظنك تحرمني من متعة بسيطة يا فيليب فستكون هذه آخر مرة أستطيع فيها الذهاب إلى أى مكان. لأنني أعلم المدة الباقية وقد وعدت .

وأمسك بيدها وابتسم ثم قال :

- كلا يا عزيزتي. أريدك أن تتمتعي ما استطعت بخير الأوقات . كل ما أبغيه أن تكوني سعيدة .

وكان على الأريكة كتاب صغير مغلف بغلاف أزرق، وقد قلب مفتوحا. ورفع فيليب الكتاب بتثاقل. وكان قصة صغيرة مما يباع مقابل بنسين.ومؤلفه «كورتناى باجت»وهو الاسم الذى تنتحله نورا للكتابة.

وقالت ميلدريد:

-إنني أحب كتب هذا الرجل واقرأها جميعا. إنها كتب راقية جدا.

وتذكر فيليب ما قالته نورا عن نفسها: إني محبوبة كثيرا بين فتيات المطابخ وهن يعتقدن إنني جد ظريفة.

• • •

كان فيليب قد أخبر جريفث، موضع ثقته، بتفاصيل غرامياته المعقدة.

وفي صبيحة يوم الأحد تناول الصديقان طعام الإفطار – وجلسا بجانب المدفئة بملابسهما المنزلية يدخنان، وأخذ فيليب يقص على صديقه ما حدث في اليوم السابق. وقد هنأه جريفث لأنه خرج من الصعوبات التي اعترضته بسهولة تامة قائلا:

–إن أسهل شئ في الوجود، أن تعقد علاقات صداقة مع امرأة، ولكن من أصعب الصعاب أن تحاول أن تخرج من هذه العلاقات.

وشعر فيليب بميل إلى أن يثق في مهارته في حل مشكلاته؛ وعلى كل حال فقد تحرر وسرح بتفكيره إلى ميلدريد وهي تمتع نفسها في «تلزهل». ووجد نفسه في حال من الرضى الحقيقي، لأنها كانت سعيدة . كانت تضحية منه ألا يستاء من متعتها، حتى ولو كان ذلك على حساب خيبة أمله وقد فاض قلبه من أجل ذلك بوهج السعادة المريح.ولكن فيليب وجد على منضدته في صبيحة يوم الاثنين خطابا من نورا كتبت فيه تقول:

عزيزى..

آسفة لما حدث يوم السبت. اعف عنى وتعال تناول الشاى معي ظهر اليوم كالمعتاد أحبك...

غاص قلب فيليب بين جنبيه ولم يدر ماذا يفعل، وأخذ الخطاب وأراه لجريفث. فقال له:

–من الأفضل ألا ترد عليه.

فقال فيليب:

–لا أستطع، فسيؤلمني أشد الألم أن أفكر أنها ستظل تنتظر مني الرد ، إنك لم تذق ألم انتظار أن يدق رجل البريد الباب. لقد جربته ، ولن أعرض غيرى لهذا العذاب.

–ليس بوسع أى إنسان يا صديقي العزيز أن يفصم مثل هذا النوع من العلاقات دون أن يسبب ألما للآخرين. يجب أن تروض نفسك على ذلك . ومن خصائص هذا النوع من الألم أنه لا يستمر طويلا.

وشعر فيليب أن نورا لم تكن تستحق منه أن يسبب لها هذا الألم. وماذا يعرف جريفث عن مقدار الألم الذى يمكن أن تتحمله نورا. لقد تذكر فيليب ألمه الخاص عندما أخبرته ميلدريد أنها بسبيل الزواج.

وقال له جريفث:

–إذا كنت حريصا على ألا تؤلمها فاذهب إليها.

–لا أستطيع ذلك.

ونهض فيليب وأخذ يمشي في الحجرة ذهابا وإيابا في عصبية ظاهرة .

وكان غاضبا على نورا لأنها لم تترك الأمور تهدأ ، وما من شك في أنها رأت أنه لم يعد يحبها. إنهم يقولون أن النساء سرعان ما يفطن إلى هذه الأشياء.

وقال لجريفث:

–قد تستطيع أن تساعدني.

–يا صديقي العزيز، لا تثر ضجة حول هذا الموضوع، فالناس كثيرا ما يتغلبون على مثل هذه الأشياء كما تعلم وأكبر الظن ألا يكون حبها لك بالدرجة التي تظنها. فالمرء دائما ميال إلى المبالغة في تقدير العواطف والآلام التي أوحى بها إلى غيره.

وسكت جريفث عن الكلام ونظر إلى فيليب في هدوء... ثم قال :

–استمع إليَّ، هناك شيء واحد تستطيع عمله. اكتب إليها وأخبرها أن ما بينكما قد انتهى. قل لها ذلك بصراحة حتى لا يكون هناك لبس. سيؤلمها ذلك ولكن آلمها بالمصارحة القاسية سيكون أقل منه لو أنك حاولت فعل ذلك بأساليب ضعيفة غير واضحة.

وجلس فيليب وكتب إلى نورا الخطاب التالي:

عزيزتي نورا....

آسف أن أكون سببا في شقائك ولكنى أعتقد أن من الأفضل لنا أن نترك الأمور حيث تركناها يوم السبت الماضي. ولا أظن أن هناك أدنى فائدة في أن نجعل مثل هذه الأمور تستمر متراخية بعد أن أضحت لا تسر . لقد طلبت إلى أن أذهب وقد ذهبت . ولست أنتوى العودة. وداعا.

فيليب كارى

واطلع فيليب صديقه على الخطاب وسأله رأيه فيه.وقرأ جريفث الخطاب وتطلع إلى فيليب بعينين براقتين ولكنه لم يفصح عن حقيقة شعوره.

قال جريفث:

–أعتقد أن هذا الخطاب كاف للقيام بالمهمة.

وخرج فيليب لإلقاء الخطاب في صندوق البريد، وقضى الصباح كله وهو غير مستريح، لأنه تصور بالتفصيل الدقيق شعور نورا عندما يصل إليها خطابه، وعذب نفسه بالتفكير في دموعها . ولكنه في الوقت نفسه قد أزاح عن عاتقه عبئا ثقيلا. ذلك أن تحمل الحزن المتخيل أيسر من تحمل الحزن المرئي.

وقد أصبح الآن حرا في أن يحب ميلدريد بكل ما أوتى من عاطفة. لقد قفز قلبه في صدره عندما فكر في الذهاب لرؤيتها عصر ذلك اليوم بعد انتهاء عمله اليومى في المستشفي. وعندما ذهب كالمعتاد إلى مسكنه للإصلاح من هندامه سمع وهو يضع المفتاح في الباب صوتا خلفه:

-هل أستطيع الدخول؟ لقد انتظرتك نصف ساعة.

وكان المتحدث نورا. وشعر فيليب أنه قد احمر خجلا حتى منابت شعره.وكانت تتكلم وهى مبتهجة. ولم يظهر على صوتها أى أثر للاستياء، أو ما يدل على أن شقاقا قد حدث بينهما.

وشعر فيليب بالحرج واستشعر أشد الخوف ، ولكنه بذل كل ما في وسعه كى يظهر ابتسامة على وجهه.

وقال فيليب لنورا:

-أجل، ادخلى.

وفتح الباب وسبقته إلى حجرة الجلوس. وكانت أعصاب فيليب ثائرة فأراد أن يهدىء من نفسه بأن قدم لفافة إلى نورا وأشعلها لها، ثم أشعل أخرى لنفسه، ونظرت إليه نورا مبتهجة وقالت :

-لماذا كتبت إلى هذا الخطاب الفظيع أيها الولد الخبيث؟ ولو أننى أخذته مأخذ الجد لأصبحت بائسة كل البؤس؟

اجابها فيليب في صرامة:

-أعنى ما فيه جديا!

-لا تكن مغفلا . فقد ثرت في ذلك اليوم وكتبت إليك اعتذار.. ولم يكف هذا الاعتذار فأتيت إليك هنا لأكرره. ومع هذا فأنت سيد نفسك، وليس لى حق عليك، ولست أريد منك أن تتصرف تصرفا لا ترضاه.

قالت هذا وقامت من المقعد الذى كانت تجلس عليه لتذهب إليه وبسطت إليه يديها وهى تقول:

-لنعد أصدقاء كما كنا يا فيليب. وأنا جد آسفة إذا كنت قد أسأت إليك.

ولم يكن في وسع فيليب أن يمنعها من أخذ يديها في يديه، ولكنه لم يستطع النظر إليها وقال لها.

-أخشى أن يكون الأوان قد فات .

فارتمت نورا على أرض الحجرة عند قدميه قائلة:

-فيليب لا تكن سخيفا، إنى سريعة الغضب كذلك، أستطيع أن أفهم أننى جرحتك، ولكن من الغباء أن يثير هذا تجهمك وحزنك. ماذا يفيد كلانا من هذه التعاسة ، لقد كانت صداقتنا مبهجة مفرحة.

وكانت أصابع يدها تمر في بطء على يد فيليب وهى تقول له :

-أحبك يا فيليب !!

ونهض فيليب ،وتخلص منها، ثم سار نحو الجانب الآخر من الحجرة، وقال لها :

-آسف أشد الأسف. لا أستطع عمل أى شىء فكل ما كان بيننا قد انتهى.

- أتعنى أنك لم تعد تحبني؟

-أخشى أن أقول ذلك.

-إذن فلقد كنت تبحث عن فرصة لتنبذى وقد واتتك.

ولم يجب فيليب . ونظرت إليه نورا في ثبات، وبدا له أنه لا يستطيع تحمل نظراتها وك
لا تزال جالسة على أرض الحجرة حيث تركها وقد انحنت بجسمها على الكرسي ذى المس
وبدأت نورا تبكى في صمت تام، ودون أن تحاول إخفاء وجهها، وتساقطت الدموع الك
على خديها الواحدة تلو الأخرى، ولم تكن تنتحب. وكان من المؤلم حقا أن يراها على
الحال، فحول فيليب بصره عنها وقال لها:

- آسف جدا لما سببته من ألم، ولكنها ليست غلطتى إذ لم أكن أحبك.

ولم تجب نورا . بل جلست بعيده محطمة والدموع تنحدر على خديها .

لقد كان أيسر له أن يتحمل هذا الموقف لو أنها قد لامته وكان فيليب يعتقد أنها لم تس
كظم غيظها وقد أعد نفسه لهذا . وكان عقله الباطن يحدثه بأن شجارا حقيقيا يتبادل
الطرفان الشتائم والسباب - سيبرر مسلكه حيالها نوعا ما- ومر الوقت وقد أخافه أ
نحيبها الصامت، فذهب إلى الحجرة نومه وأحضر كوبا من الماء وانحنى إليها وهو يقو

- هل لك في قليل من الماء فإنه سوف سيخفف آلامك.

ووضعت نورا شفتها دون اكتراث على الكوب وشربت جرعتين أو ثلاث ،

ثم همست إليه في وهن أن يعطيها منديلا، وجففت دموعها . ثم قالت في أنين:

- كنت أعلم طبعا. انك لا تحبنى، كما كنت أحبك .

- أخشى أن أقول أن هذه الحقيقة دائما. فهناك على الدوام شخص يحب وشخص آخر
الناس يحبونه.

وفكر فيليب في ميلدريد وقد اخترق قلبه ألم شديد، وظلت نورا وقتا طويلا في صم
قالت:

- إننى تعسة وبائسة. وحياتى أصبحت بغيضة جدا.

لم توجه نورا الحديث إليه ولكنها كانت تحدث نفسها. ولم يسمعها فيليب قبل ذلك
من حياتها أو من فقرها، بل كان دائما معجبا بقوتها على مواجهة أحداث الزمان.

وقالت نورا :

- ثم اعترضت أنت طريق حياتى وكنت طيبا معى. وأعجبت بك لأنك كنت ماهرا،
من نعم الله أن يجد المرء شخصا يضع فيه ثقة . فأجبتك ، وما كنت أظن أن ما بيننا س
يوما إلى نهاية . ودون أى خطأ من جهتى.

وبدأت دموعها تنساب من جديد، ولكنها عادت رابطة الجأش مرة أخرى وأخفت و
في منديل فيليب وتحاملت على نفسها لكى تتحكم في عواطفها وقالت له :

أعطنى قليلا من الماء للمرة الثانية .

ومسحت نورا دموعها وقالت –

– آسفة إننى أظهرت نفسى أمامك بمظهر الغباء والغفلة، فلم أكن مستعدة لما حدث

– آسف جدا يا نورا، وأود أن تعلمي أننى جد شاكر لك كل ما قمت به من أجلي .

وتساءل فيليب ما الذى رأته نورا في شخصه .

وتنهدت نورا وقالت :

– أوه.. إنها هي المشكلة نفسها دائما. فإذا أرادت المرأة أن يسلك الرجل معها سلوكا طيبا، فعليها . أن تعامله بوحشية . أما إذا عاملت المرأة الرجل بأدب وحسن لياقة ، فلا بد أن تقاسى معه الأمرين نتيجة هذه المعاملة الطيبة .

ونهضت نورا من مجلسها على أرض الحجرة وقالت إنها يجب أن تذهب .

ونظرت إلى فيليب نظرة طويلة ثابتة ، ثم تنهدت وقالت:

– هذا تصرف لا يمكن تفسيره، ولا أدرك سر ما حدث.

وفجأة وصل فيليب إلى قرار .. وقال لنورا:

– أظن أنه من الأفضل أن أشرح لك الأمر، فلا أريد أن تظني بي السوء.

– أريدك أن تفهمي أنني لا أستطيع التصرف. لقد عادت ميلدريد.

وعاد وجه نورا إلى لونه الطبيعي .

– ولماذا لم تكن صريحا من أول الأمر؟ أننى أستحق كل هذا ولا ريب.

– خشيت أن أخبرك به.

ونظرت نورا إلى نفسها في المرآة وأصلحت من وضع قبعتها ثم قالت:

– هلا طلبت لي عربة فإني أشعر بأنني لن أستطيع المشي.

ذهب فيليب إلى الباب وأوقف عربة كانت مارة، وعندما تبعته نورا إلى الشارع أفزعه ما بدا على وجهها من شحوب. وكانت حركاتها ثقيلة، وكأن عمرها قد زاد سنوات فجأة. وبدا عليها المرض حتى أن قلبه لم يطاوعه أن يتركها تذهب وحدها فقال لها :

– سأركب معك إذا لم يكن هذا يضايقك.

لم تجب نورا، وركب فيليب معها العربة، وسارت بهما في صمت فوق الجسر وخلال الشوارع الحقيرة حيث يثير الأطفال الصخب وهم يلعبون . وعندما وصلت العربة إلى مسكن نورا لم تغادرها في الحال، وكأنها لم تجد في رجليها من القوة ما يعينها على الحركة.

وقال فيليب مخاطبا نورا:

– آمل أن تسامحيني يا نورا.

فأدارت نورا عينيها إلى ناحيته. ورأى فيليب أن الدموع ما زالت تترقرق فيها ولكنها اغتصبت ابتسامة من شفتيها وقالت:

– أيها المسكين، إنك جد قلق على، لا تبتئس ، فلن ألومك، وسأتغلب على كل شئ.

وربتت نورا في خفة على وجه فيليب لتريه إنها لا تحمل له سوءا.

ولم تكن هذه الإيماءة منها لتزيد عما كان يراد بها، وبعدها قفزت نورا من العربة ودخلت منزلها.

ودفع فيليب للسائق أجرة ، ثم سار إلى مسكن ميلدريد . وكان قلبه مثقلا ثقلا لم يألفه.

كان فيليب ميالا إلى لوم نفسه، ولكن لماذا ؟ إنه لا يدرى ماذا كان يستطيع أن يصنع غير ما صنع. وتذكر فيليب عند مروره أمام محل الفاكهى أن ميلدريد مغرمة بالعنب. وكان يسعده أن يستطيع إظهار حبه لها بتذكر كل نزوة من نزواتها.

وظل فيليب يذهب كل يوم طيلة الأشهر الثلاثة التالية لزيارة ميلدريد وكان يأخذ كتبه معه ويستذكر بعد الشاى على حين تستلقي ميلدريد على الأريكة وتقرأ القصص. وكان أحيانا يتطلع إليها ويرقبها قليلا فترتسم على شفتيه ابتسامة ويشعر بالغبطة والسعادة...فكانت تقول له.

– لا تضيع وقتك في النظر إلى أيها الأبلة واستمر في عملك.

وكان يجيبها في فرح قائلا:

– أيتها الظالمة!!

وكان الأمل الذى يجيش في قرارة قلبها هو أن يولد الطفل ميتا. ولم تفعل ميلدريد شيئا سوى التلميح إلى هذا الموضوع، ولكن فيليب كان يرى إن هذا الخاطر يراودها. لقد أخذ فيليب بادئ ذى بدء حين خطر له هذا الخاطر ولكنه بعد التفكير في هذا الموضوع مليا، وجد نفسه مضطرا إلى الاعتراف بأن هذا الحادث كان أمرا مرغوبا فيه من كل من يهمهم الأمر.

قالت ميلدريد لفيليب تجادله:

– جميل جدا أن تقول هذا أو ذاك، ولكن من الصعب جدا على فتاة أن تحصل على قوتها بنفسها. ولن يسهل من هذه الصعوبة وجود طفل لها.

وابتسم فيليب وقال وهو يمسك بيدها:

– من حسن الحظ إنني إلى جانبك وتستطعين الاعتماد على.

– لقد أحسنت إلى كثيرا.

– أوه ما هذا الكلام الفارغ.

– لن تستطيع القول بأنني لم أمنحك ما يقابل صنعتك معي.

– رباه إنني لا أريد مقابلا، وإذا كنت قد قدمت لك يدا فإنما فعلت ذلك بدافع من حبي لك، فلست مدينة لي بشيء، ولا أريدك أن تفعلي شيئا إلا إذا كنت تحبينني.

وقد روعه بعض الشيء شعور ميلدريد بأن جسمها سلعة تستطيع أن تقدمها دون مبالاة عرفانا بما يقدم إليها من خدمات.

– ولكنى أريد ذلك يا فيليب . لقد أحسنت إلى.

– لن يضير الانتظار، وعندما تستعيدين صحتك، سنذهب لقضاء شهر عسل قصير

وابتسمت ميلدريد وهى تقول:

– إنك لخبيث.

وجاء وقت انتقال ميلدريد إلى دار الحضانة حيث تضع حملها. وكان باستطاعة فيليب وقتذاك أن يزورها بعد الظهر فحسب. وغيرت ميلدريد قصتها فزعمت إنها زوجة جندى ذهب إلى الهند للانضمام إلى فرقته أما فيليب فقد قدمته إلى رئيسة المؤسسة على أنه أخ لزوجها وقالت ميلدريد لفيليب:

– على أن أكون حريصة نوعا ما فيما أقول، فهناك سيدة أخرى زوجها موظف مدني في حكومة الهند.

– لو كنت مكانك لما جعلت هذا الأمر يزعجني ، لأنى أعتقد أن زوج هذه السيدة قد سافر إلى الهند على القارب الذي سافر عليه زوجك.

فتساءلت ميلدريد في براءة:

ـ أى قارب؟

– الهولندى الطائر!!

وضعت ميلدريد طفلة بسلام، وعندما سمح لفيليب أن يراها كانت الطفلة إلى جوارها وكانت ميلدريد ضعيفة، ولكنها سرها أن كل شئ قد انتهى. وأرت ميلدريد الطفلة لفيليب ونظرت إليها بدورها في عجب وهى تقول:

– إنها مخلوقة تثير الضحك. أليست كذلك؟ لا أكاد أصدق أنها ابنتي.

كانت الطفلة حمراء مجعدة غريبة. وابتسم فيليب عندما نظر إليها ولم يدر ماذا يقول وقد زاد من حيرته أن الحاضنة صاحبة الدار كانت تقف إلى جواره، وشعر فيليب من أسلوب نظرتها إليه إنها كانت تعتقد أنه والد الطفلة ، غير مصدقة قصة ميلدريد المعقدة.

وسألها فيليب:

– ما الاسم الذى ستختارينه لها؟

– لا أستطيع أن أجزم، هل أطلق عليها اسم مادلين أم سيسليا؟

وتركتهما الحاضنة في خلوة دامت دقائق، وانحنى فيليب يقبل ميلدريد في فمها وهو يقول:

– إنني لسعيد أن كل شئ قد انتهى بخير يا عزيزتي.

وأحاطت ميلدريد عنق فيليب بذراعيها النحيلتين وقالت:

– لقد كنت عوني أيها العزيز فيليب.

– أشعر الآن أنك لي أخيرا. لقد انتظرت طويلا من أجلك يا عزيزتي.

وأحسا أن الحاضنة بالباب فنهض فيليب. ودخلت الحاضنة وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة .

● ● ●

وبعد أسابيع ثلاثة من ذلك الوقت ودع فيليب مليدريد وطفلتها إلى سبرايتونس . لقد شفيت سريعا وظهرت عليها دلائل العافية أكثر مما اعتاد أن يراها . وكانت ميلدريد في طريقها إلى الإقامة بمنزل تطعم فيه وتقيم حيث كانت قد قضت نهايتي أسبوعين مع أميل ميللر. وقد كتبت ميلدريد لصاحبته تقول إن زوجها اضطر إلى الذهاب إلى ألمانيا في عمل وإنها قادمة مع طفلتها. وكانت ميلدريد تتلذذ من سرد هذه القصص التي تلفقها وتظهر قدرة خاصة على الاختراع والتلفيق عند ذكر التفاصيل.

وفكرت ميلدريد في أن تجد في «برايتون» امرأة تقبل أن يعهد إليها بأمر الطفلة. وقد أفزع فيليب تحجر قلب ميلدريد الذى ظهر في إصرارها على التخلص من وليدها بهذه السرعة. ولكنها ناقشته في تعقل ومنطق. وبينت له أنه من الأفضل للطفلة أن توضع في مكان ما قبل أن تعتاد وجودها معها. بينما كان فيليب يتوقع أن تثور غريزة الأمومة فيها عندما أصبحت لها طفلة. عاش معها أسبوعين أو ثلاثة، واعتمد فيليب على هذه الغريزة في إغرائها بإبقاء الطفلة معها. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ولم تكن ميلدريد قاسية على طفلتها ، فقد قامت بكل ما كان ضروريا لها ، وكانت تسر لرؤيتها أحيانا ، وتتحدث كثيرا عنها. ولكنها في قرارة نفسها كانت غير عابئة بها. ولم تكن تنظر إليها على أنها قطعة منها، لأنها كانت تتخيلها شبيهة بأبيها. وكانت تفكر على الدوام ، فيما تعمله مستقبلا عندما تكبر الطفلة وتحنق على نفسها لأنها كانت ساذجة إذ حملت بها أصلا. قالت ميلدريد :

– ليتنى كنت عرفت وقتها كل ما أعرفه الآن ..

وكانت تضحك من فيليب لأنه كان يهتم كثيرا برفاهية الطفلة وتقول له :

– ما كنت لتثير ضجة أكثر من هذه لو أنك كنت والدها، وكم أود لو أرى أميل في مثل ما أنت فيه من اضطراب بشأنها.

– ستكتبين إلى يا عزيزتي، أليس كذلك؟ وسأنتظر أوبتك بصبر نافد..

– يجب أن تعمل على الفور لامتحانك.

وكان فيليب يعمل جاهدا للنجاح في الامتحان. وهو يبذل اليوم مجهودا أخيرا في هذا السبيل، بعد أن لم تعد هناك غير عشرة أيام ويأتي هذا الامتحان.. وكان فيليب جد حريص على النجاح. أولا ليوفر على نفسه الوقت والمال. فقد أخذت النقود تنسال من بين أصابعه خلال الشهور الأربعة الأخيرة بسرعة لا يمكن أن تصدق. وثانيا لأن هذا الامتحان سيكون بشير بنهاية حياة الكد والعناء بالنسبة له. إذ يستطيع الطالب بعد ذلك أن يعمل في العلاج والتوليد «القبالة» والجراحة، وهى أكثر طرافة من التشريح وعلم الوظائف الأعضاء، وهما المادتان اللتان كان يعنى بهما حتى الآن. وتطلع فيليب باهتمام إلى بقية البرنامج الدراسي.

وفضلا عن هذا فإن فيليب لم يكن يريد أن يضطر إلى الاعتراف أمام ميلدريد بأنه فشل، ورغم صعوبة الامتحان ورغم أن غالبية المتقدمين فشلوا عند أول محاولة ، فإنه كان يعلم أنها ستسيء الظن به إذا لم ينجح وكانت لها طريقتها الخاصة المذلة في التعبير عن رأيها.

وذهب فيليب إلى الامتحان في ثقة عظيمة ممتلئ القلب سرورا ولم يجد في كلتا ورقتي الامتحان ما يضايقه.

وتأكد من أنه أجاب الإجابة الصحيحة. ورغم أن الجزء الثاني من الامتحان كان شفويا، وأنه كان عصبيا إلى حد كبير. فإنه قد أجاب عن الأسئلة إجابة طيبة.

وأبرق فيليب إلى ميلدريد عندما أعلنت النتيجة. وكتب إليها في اليوم التالي، وأرسل إليها ورقة من ذات الجنيهات الخمسة. وقال فيليب لميلدريد في نهاية خطابه إنها إذا كانت بصحة جيدة ويهمها أن تراه في عطلة نهاية الأسبوع فإنه سيكون سعيدا في الذهاب إليها. ولكنه طلب إليها ألا تغير من أية خطة وضعتها لسبب من الأسباب.

وانتظر فيليب رد خطابه بفارغ الصبر. وجاءه الرد تقول فيه أنها لو كانت تعلم نبأ رغبته في الحضور من قبل ، لدبرت أمورها. ولكنها أعطت وعدا من قبل بالذهاب إلى إحدى قاعات الموسيقى ليلة السبت، وفوق هذا فإن وجوده معها في المنزل الذى تقيم فيه سيجعل من فيه يتلفظ بالكلام عليها. فلماذا لا يأتي يوم الأحد صباحا ويقضى اليوم معها؟ إنهما يستطيعان تناول طعام الغداء في المتر وبول، ثم تصاحبه بعد ذلك ليرى السيدة العظيمة التي ستأخذ الطفلة.

وأتى يوم الأحد. وقد حمد فيليب الله لأنه كان يوما جميلا. فعندما اقترب القطار من برايتون ألقت الشمس بأشعتها الدافئة في العربة من خلال النافذة. وكانت ميلدريد تنتظره على الرصيف.

وصاح فيليب وهو يمسك يدها قائلا:

– كم هو جميل منك أن تأتي لتقابليني..

– لقد كنت تتوقع مجيئي . أليس كذلك؟

– كنت أرجو أن تأتي، وإني يسرني ما أراه عليك من دلائل الصحة.

– لقد نلت بحضورى إليك خيرا كثيرا ولكنى أعتقد أنه من العقل أن أمكث هنا ما استطعت فهنا جماعة طيبة جدا من سكان المنزل . وأنا في حاجة إلى المرح بعد أن قضيت كل هذه الشهور دون أن أرى إنسانا. ولم تكن الحياة سارة في بعض الأحايين.

وبدت ميلدريد رشيقة في قبعتها الجديدة المصنوعة من القش الأسود الكبير وال يزينها الكثير من الزهور الصناعية الرخيصة. وكانت تضع حول عنقها عقدا على شكل أفعوان طويل. وكانت نحيلة جدا كالعهد بها وتنحني قليلا أثناء السير ولم تبد عيناها واسعتين جدا. ومع أن جلدها لم يكن بلون خاص في يوم من الأيام إلا أنه زال عنه ن المنظر الذى كان عليه.

وسارت ميلدريد مع فيليب ناحية البحر. وما أن تذكر فيليب أنه لم يمش معها منذ أشهر حتى أحس فجأة بعرجة. فمشى بقوة محاولا إخفائه.

وسأل فيليب ميلدريد والحب يرقص بجنون في قلبه:

– هل سرتك رؤيتي؟

– دون شك.. ما كان لك أن تسأل هذا السؤال.

– حتى لا أنسي، جريفث يبعث إليك بحبه.

– ياللصفاقة!

وحدثها فيليب كثيرا عن جريفث، وعن مغازلاته، وقص عليها على سبيل التسلية بعض مغامرات جريفث التي أفضي بها إليه على أنها سر يجب كتمانه.

واستمعت ميلدريد إليه مدعية التقزز أحيانا. ومدفوعة بحب الاستطلا ع عامة.

وكان فيليب بدافع من إعجابه بصديقه يبالغ في وصف جمال شكل صاحبه وسحره وقال:

– من المؤكد أنك ستحبين جريفث كما أحبه تماما. فهو جميل، ومسل ،ومن عنصر طيب جدا. وقص عليها فيليب كيف أن جريفث قد اعتني به أثناء مرضه. بينما كانا لا يزالان غريبين. ثم أخذ يعدد لميلدريد تضحيات صديقه، لم يدع شيئا .

قال فيليب:

– لن تستطيعي إلا أن تحبيه.

وردت عليه ميلدريد :

– لا أحب الرجال ذوى المنظر الجميل إنهم في نظرى مغرورين جدا.

– إن جريفث يريد إن يتعرف إليك. لقد تحدثت إليه طويلا عنك.

– وماذا قلت له؟

لم يجد فيليب سوى جريفث يبثه غرامه بميلدريد فأخبره شيئا فشيئا بالقصة الكاملة لاتصاله بها ووصفها خمسين مرة. وأطنب من فرط حبه في وصف دقائق منظرها. وعرف جريفث بالضبط شكل يديها وبياض وجهها،وضحك من فيليب عندما حدثه عن سحر شفتيها الشاحبتين الرفيعتين..

قال جريفث:

– يا إلهى أنني سعيد لأنني لا أخذ الأمور بهذا الشكل الشنيع .. وإلا لما أصبحت الحياة جديرة بأن نحياها.

وابتسم فيليب. أن جريفث لم يعرف لذة الجنون في الحب حتى يصبح الحب للمرء كاللحم والخمر والهواء الذى يستنشقه وكل ما هو ضرورى للوجود.

وكان جريفث يعلم أن فيليب أحاط الفتاة بعنايته خلال الوضع وأنه يخرج معها الآن.

– يجب القول بأنك تستحق الحصول على شيء.. فقد كلفت نفسك غاليا ومن حسن الحظ أنك مستطيع الإنفاق.

قال فيليب :

– لست مستطيعة . ولكن ذلك لا يهم.

وسار فيليب و ميلدريد إلى المحطة بعد العشاء وقد اشتبكت ذراعاهما. وأخذ فيليب يحدث ميلدريد عن الإجراءات التي اتخذها لرحلتهما إلى فرنسا . وكان عليها أن تحضر إلى لندن في نهاية الأسبوع. ولكنها أفهمته أنها لا تستطيع ذلك حتى يوم السبت من الأسبوع التالي. وكان فيليب قد استأجر حجرة في أحد فنادق باريس. وكان ينتظر في شوق موعد الحصول على التذاكر.

– لن يضايقك أن يكون السفر بالدرجة الثانية. أليس كذلك إذ يجب ألا نكون مسرفين وسيكون من صالحنا لو أننا استطعنا أن نمتع أنفسنا هناك.

لقد تحدث إليها فيليب عن الحي «اللاتيني» مئات المرات. سيتجولان خلال شوارعه الحبيبة القديمة وسيجلسان في تخاذل وخمول في حدائق اللوكسمبورج الساحرة، وقد يذهبان إلى ضاحية «فونتنبلو» إذا كان الجو صحوا. وبعد أن ينتهيا من زيارة كل ما يريدان زيارته في باريس ستكون الأشجار قد بدأت تورق، وخضرة الغابة في الربيع هي أجمل ش عرفه فيليب. إنها لتشبه الأغنية وإنها لشبيهة بألم الحب السعيد.

واستمعت إليه، ميلدريد في صمت والتفت فيليب إليها محاولا أن يخترق بنظراته أعما عينيها وقال لها:

– تريدين الذهاب إليها، أليس كذلك؟

وأجابت ميلدريد مبتسمة:

– طبعا أريده.

– إنك لا تعلمين كيف أنتظر ذلك اليوم. ولست أدرى كيف أقضي الأيام القادمة . ثم إنن أخشى أن يحدث ما يحول دون ذهابنا. وإنه ليكاد يذهب بعقلي أحيانا ألا أستطيع مصارحتك بمقدار حبى لك وأخيرا... وأخيرا...

وصمت فيليب، فقد وصلا إلى المحطة ولكنهما كانا قد سرا ببطء ولم يجد فيليب متس من الوقت ليودعها قبل أن يستقل القطار. وقبلها فيليب سريعا ثم جرى نحو الكوة بأسرع يمكن. ووقفت ميلدريد حيث تركها فيليب وكان غريبا وهو يجرى.

وعادت ميلدريد إلى لندن في يوم السبت التالي، وابتاع له ولها تذكرتين في المسر وكانت هذه أولى لياليهما الجميلة في لندن منذ زمن طويل فانطلقت في التمتع فيها بك أنواع المتعة، واحتضنت ميلدريد فيليب أثناء عودتها في العربة من المسرح في طريقهما إل الحجرة التي استأجرها لها فيليب في حى بمبلكو.

قال فيليب لميلدريد:

– أرى حقا أنك سعيدة جدا لرؤيتي.

ولم تجب ميلدريد بل ضغطت برفق على يده. فقد كانت مظاهر الحب نادرة الحدوث من وكان فيليب يفتتن بذلك أيما افتتان وقال لها:

– لقد دعوت جريفث إلى الغذاء معنا غدا.

– لقد سرني إن فعلت هذا فإنى أريد مقابلته.

ولم يكن هناك مكان للترفيه يستطيع فيليب أن يأخذ ميلدريد إليه ليلة الأحد، وكان يخشى أن تسأم إذا ظلت معه بمفرده طوال اليوم ولكن جريفث كان مسليا، وباستطاع يساعدهما على قضاء فترة المساء . وكان فيليب مغرما بكليهما ويود لو عرف أح بالآخر وأحبه.

وغادر فيليب ميلدريد وهو يقول:

– لم يبق إلا ستة أيام .

وتواعدا على العشاء في «الرومانو» يوم الأحد ، لأن العشاء هناك ممتاز، ويبدو أغلى خقيقته بكثير.

ووصل فيليب و ميلدريد أولا، وكان عليهما أن ينتظرا بعض الوقت حتى يحضر جر

وقال فيليب عن جريفث :

– إنه شيطان غير دقيق في مواعيده ، ولعل سبب تأخره إنه يغازل إحدى جمي الكثيرات..

ولكن جريفث ما لبث أن ظهر . وكان شابا جميلا طويلا نحيلا رأسه متناسب الوضع جسمه مما أكسبه مظهر الانتصار، وجعله جذابا. وزاد في سحره وفتنته إن كان شعره م وعيناه جريئتين صافيتين زرقاوين وفمه أحمر . ورأى فيليب ميلدريد تتطلع إلى جريف إعجاب وتقدير ، فشعر بارتياح عجيب وحياهما جريفث بابتسامة ، ثم خاطب ميلدريد وهو يأخذ يدها في يده .

– لقد سمعت كثيرا عنك .

– ليس بقدر الذى سمعته عنك.

وقال فيليب :

– ولم يكن فيما سمعتماه سوءا.

وسأل جريفث:

– هل كان يسئ سمعتي؟

ثم ضحك جريفث ، ورأى فيليب أن ميلدريد لاحظت بياض أسنانه وانتظامها كما لاح جمال ابتسامته وعذوبتها.

– يجب أن تشعرا كأنكما صديقان من زمن طويل. فقد تكلمت عن كل منكما للآخر .

وكان جريفث في خير حالات مرحه. فقد نجح أخيرا في امتحانه النهائي، وأصبح مؤ وقد عين منذ وقت قريب في وظيفة جراح امتياز بمستشفي في شمال لندن. وسيتسلم واج عمله في أوائل شهر مايو ، ولذا فهو يعتزم القيام بإجازة عائدا إلى بلده . وكان هذا أسبوع له يقضيه في المدينة . وقد قرر قراره على أن يستمتع ما أمكنه الاستمتاع خلال الأسبوع. وراح جريفث يبدي هذا المرح الذى طالما أعجب به فيليب لأنه لم يكن يس

مجاراته فيه . ولم يأت جريفث في حديثه بشيء ذى بال ولكن طريقته الممتعة في الإلقاء هي التي جعلت منه شخصا ظريفا . وكانت قوة الحياة تفيض من جريفث وتؤثر في كل من عرفه، ويكاد يحسها الإنسان كما يحس حرارة الجسم سواء بسواء.

وكانت ميلدريد أكثر ما عرفها فيليب نشاطا وحياة .وسر فيليب أن يرى نجاح جماعته الصغيرة . واستمتعت ميلدريد بنفسها غاية الاستمتاع . فضحكت عاليا، ونسيت في غمرة مرحها تحفظها المهذب الذى أصبح لها طبيعة ثابتة.

وفي الحال قال جريفث:

– اسمحي لي أن أقول إنه من الصعب جدا على أن أناديك باسم السيدة ميلر فإن فيليب لم يدعك قط إلا باسم ميلدريد.

ورد فيليب عليه ضاحكا:

– أستطيع أن أقول لك إنها لن تخرج عينيك إذا ناديتها بذلك الاسم أيضا

– إذن فعليها أن تناديني «هارى».

وجلس فيليب صامتا بينما أخذت ميلدريد وجريفث يثرثران، وقال في نفسه: «ما أجمل أن يرى المرء الناس في سعادة»

وكان جريفث بين الفينة والفينة يعابث فيليب في رفق لأن فيليب كان دائما جادا في حديثه وابتسمت ميلدريد قائلة:

– أعتقد أنه مغرم بك جدا يا فيليب.

وأجاب جريفث وقد أمسك بيد فيليب وأخذ يهزها في فرح:

– إنه ليس إنسانا خبيثا !!

وظهر أن حب جريفث لفيليب قد أضاف جديدا إلى جاذبية جريفث وسحره وكانوا جميعا ممن لا يفرطون في الشراب ومن أجل ذلك ذهب النبيذ الذى شربوه بألبابهم . فأصبح جريفث أكثر ثرثرة وأشد جلبة حتى لقد طلب إليه فيليب، وهو في نشوته، أن يلتزم بالهدوء.

وكانت لدى جريفث موهبة سرد القصص، ولم تفقد قصص مغامراته شيئا من روعتها وقدرتها على إثارة الضحك خلال سردها. وكان له في كل قصة دور صاحب الشهامة والفكاهة.

وقد أغرت ميلدريد جريفث بمتابعة قصصه، ولمعت عيناها ببريق الاستثارة. وأخذ جريفث يحكى القصة بعد القصة. وعندما بدأت الأضواء تطفأ ظهرت على ميلدريد الدهشة وقالت :

– حقا لقد مضت الليلة سريعا. فلقد كنت أظن أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف.

ونهضوا لمغادرة المكان. وبعد أن ألقت ميلدريد على جريفث تحية المساء أضافت قائلة:

– سأحضر لتناول الشاى عند فيليب غدا. آمل أن تحضر إذا استطعت .

فابتسم جريفث وقال:

– سأحضر..

ولم يكن حديث ميلدريد في طريق عودتها إلى مسكنها في بمبلكو يدور إلا عن جريفث. لقد أخذت ميلدريد بنظراته الجميلة، وبملابسه التي أحسن هندامها وبصوته ومرحه. وقال فيليب لميلدريد:

– إنني مسرور لإعجابك به . هل تذكرين أنك كنت عازفة نوعا عن مقابلته؟

– أعتقد أنه جميل منه أن يكون مغرما جدا بك يا فيليب . إنه خير صديق تصطفيه .

ورفعت ميلدريد وجهها إلى فيليب ليقبلها ، وقلما كانت تفعل ذلك .

– لقد تمتعت الليلية يا فيليب . وأشكرك كثيرا جدا .

وضحك فيليب وقد أثر فيه تقديرها لعمله حتى اغرورقت عيناه بالدموع وقال لها :

– لا تكوني سخيفة .. إلى هذا الخد ..

وفتحت الباب وقبل أن تدخل التفتت ثانية إلى فيليب وقالت :

– أبلغ هارى إنني مغرمة به إلى حد الجنون .

فضحك فيليب وقال :

– سأفعل . عمى مساء .

وحضر جريفث في اليوم التالي وهما يشربان الشاى . وجلس في تكاسل في أحد الكراسي الكبيرة .

وكانت الحركات البطيئة التي تصدر عن أطرافه الكبيرة تنم عن وجود إحساس شهواني غريب يسرى بين جوانحه . وظل فيليب صامتا ، بينما أخذت ميلدريد وجريفث يتحدثان . ولكنه كان مسرورا كل السرور وكان هو معجبا جدا بكليهما حتى بدا طبيعيا جدا أن يعجب كل منها بالآخر . ولم يكن يهمه أن يستغرق جريفث كل انتباه ميلدريد فلن يكون انتباهها موجها إلى غيره خلال فترة المساء . لقد كان شعوره وقتئذ شعور الزوج المحب الواثق من حب زوجته له ، الذى ينظر بعين التسلية إليها وهى تغازل أجنبيا دون أى قصد سيئ .

وعندما حانت السابعة والنصف نظر فيليب إلى ساعته وقال :

– لقد حان وقت ذهابنا لتناول طعام العشاء يا ميلدريد .

وصمتوا برهة ، وبدا أن جريفث فهم القصد فقال :

– إني ذاهب فما كنت أعلم أننا قد تأخرنا إلى هذا الحد .

وسألته ميلدريد :

– هل لديك عمل الليلة ؟

– كلا .

وساد الصمت مرة أخرى . وشعر فيليب بقليل من الضيق . قال فيليب :

– سأذهب توا لأغسل يدى .

وأضاف قائلا لميلدريد :

– هل تريدين غسيل يديك ؟

ولم تجب ميلدريد .. وقالت لجريفث :

– لماذا لا تأتي للعشاء معنا ؟

ونظر جريفث إلى فيليب فوجده ينظر إليه في اكتئاب . وضحك جريفث وقال :

– لقد تعشيت معكما بالأمس . سأضايقكما إذا كنت معكما الليلة .

وقالت ميلدريد في إصرار :

– وأى ضير في هذا . دعه يحضر يا فيليب انه لم يضايقنا ، أليس كذلك ؟

وقال فيليب :

– لا أمانع قط في حضوره إذا أحب .

وقال جريفث في الحال :

– إذن . سأذهب إلى مسكني وأصلح من هندامي .

وما أن غادر جريفث الحجرة حتى التفت فيليب إلى ميلدريد وهو غاضب وقال :

– بالله لم دعوته للعشاء معنا ؟

لم أستطع الصمت . ولو إنني لم أقل شيئا ماحين قال هو أنه ليس لديه ما يشغله . لك هذا مما يدعو إلى الضحك .

– كلام فارغ وأى حق لك في أن تسأليه هل لديه عملا أو لا .

وانطبقت شفتا ميلدريد الشاحبتين قليلا ثم قالت :

– أريد شيئا من التسلية في بعض الأحايين لأني أشعر بسأم عندما أكون دائما معك انفراد .

وسمعا وقع قدمي جريفث الثقيلتين على السلم ، ودخل فيليب حجرة نومه ليغسل ي وتناولوا عشاءهم في مطعم إيطالي قريب . وكان فيليب عابس الوجه صامتا . ولكنه س ما أدرك أن ذلك لم يكن في صالحة ، عندما تعقد مقارنة بينه وبين جريفث . لذا فقد ا إلى إخفاء ضيقه . وشرب فيليب كمية كبيرة من النبيذ ، ليذهب به الألم الذى كان ينهش وأعد نفسه للكلام . وكأن ميلدريد قد شعرت بتأنيب ضميرها على ما قالت من قبل ، ف كل جهد وسعها في سبيل إرضائه . فبدت لطيفة محبة . وبدأ فيليب يدرك أنه كان س لانصياعه لشعور الغيرة . وبعد العشاء ركب الثلاثة في عربة إلى إحدى دور الموس وكانت ميلدريد تجلس بين فيليب وجريفث وقد أعطت يدها من تلقاء نفسها إلى فيليب . ف عنه غضبه . ثم أدرك فجأة ، دون أن يدرى كيف عرف ، إن جريفث يمسك بيدها الأخ واستبد به الألم العنيف مرة ثانية ، وكان ألما جسمانيا حقيقيا . وقد سأل نفسه وهو ف للجزع نفس السؤال الذى كان يصح له أن يسأله إياها من زمن : «هل قامت بين ج وميلدريد علاقة حب وغرام ؟»

ولم يستطع أن يرى شيئا بسبب ظلال الشك والغضب والرعب والبؤس أمام عينيه . ولكنه أرغم نفسه على إخفاء حقيقة ما كان يحس به . وظل وبعدها تملكته رغبة غريبة في تعذيب نفسه . فنهض قائلا أنه يريد الذهاب إل شرب شئ ما . ذلك أن جريفث وميلدريد لم يكونا قد اختليا قبل الآن ، فأراد لهما تلك الفرصة . وقال جريفث :

– سآتي معك . إني أيضا أشعر بالعطش .

– هراء . ابق حيث أنت وتحدث إلى ميلدريد .

ولم يدر فيليب لماذا قال ما قال . لقد تركهما سويا ليجعل الألم الذى يعتم محتمل أكثر مما هو . ولم يذهب فيليب إلى محل الشراب ولكنه سار إلى الشرف مراقبتهما من حيث لا يريانه . وكان ما رآه أن جريفث وميلدريد لم يعود ينظر أخذ كل منهما يبتسم في عين الآخر . وكان جريفث يتحدث بطلاقته المرحة وبدت ميلدريد وكأنها تلتصق بشفتيه . وبدأت رأس فيليب تدور بشدة ووقف لا يتحرك وأدرك أنه سيعترض طريق سعادتهما لو أنه عاد ، فلقد كانا يستمت كان هو يتعذب .. ويتعذب .

ومضى الزمن وقد غشيه خجل غريب من أن يقتحم عليهما خلوتهما . أنهما لم يفكرا قط في وجوده ، وتذكر في مرارة أنه هو الذى دفع لهما ثمن المقاعد في دار الموسيقي . إلا ما أشد سخريتهما منه ! وثار الدم في عروقه م من العار .

• • •

لقد كان فيليب يرى مقدار سعادتهما في غيبته وكان ينتوى أن يتركه المنزل . ولكن قبعته ومعطفه لم يكونا معه ، وقد يجر تركه إياهما إليتفسيرات فعاد فيليب إلى حيث كانا يجلسان وشعر بشئ من الضيق يطل من عيني ميلدر فغاص بين جنبيه .

وقال جريفث في ابتسامة ترحيب :

– لقد غبت زمنا طويلا .

– لقد قابلت بضع أشخاص أعرفهم . وأخذنا نتحدث سويا ، ولم أستطع ا وأعتقدت أنكما كنتما على ما يرام معا .

قال جريفث :

– لقد تمتعت متعة كاملة . ولكني لا أعرف شيئا عن ميلدريد .

وندت عنهما ضحكة صغيرة تنبئ عن غبطة وسعادة وكانت تتخللها نبرة مبتذلة أفزعت فيليب. واقترح أن يعودا .

فقال جريفث :

– تعال ، سنوصلك كلانا إلى منزلك .

وظن فيليب أن ميلدريد هى التي اقترحت هذا التدبير لكى لاتترك وحدها معه .

ولم يأخذ يدها وهما في العربة ولم تقدمها هى إليه . ولكنه رأى يدها كانت طول الوقت في يد جريفث .

وكان أهم ما يفكر فيه فيليب وقتها أن كل ما حدث منها كان ابتذالا مروعا .

وسأل فيليب نفسه أثناء سير العربة أى خطة دبراها ليلتقيا دون علمه . ولعن فيليب نفسه لأنه تركهما منفردين وأدرك أنه أخلى لهما الطريق وعندما وصلت العربة إلى حيث كانت ميلدريد تسكن قال فيليب :

– لنحتفظ بالعربة فإني متعب جدا لا أستطيع العودة إلى منزلي راجلا .

وأخذ جريفث وهما عائدان يتحدث وهو مبتهج جذلان ولم يبال بأن ردود فيليب عليه كانت مقتضبة . وشعر فيليب أن جريفث لابد قد لاحظ أن في الأمر شيئا . وأخيرا أصبح صمت فيليب ذا معنى ، أكبر من أن يقاوم . أما جريفث فقد أصبح فجأة عصبيا ثم وقف عن الكلام. وأراد فيليب أن يقول شيئا ، ولكن حياءه حال بينه وبين الكلام . ولكنه أحس بأن الوقت يمر والفرصة توشك أن تضيع . وكان من الخير الوصول إلى الحقيقة في الحال ، ولهذا تحامل فيليب على نفسه وسأل جريفث فجأة :

– هل وقعت في غرام ميلدريد ؟

وضحك جريفث وقال :

– أنا ؟ هل هذا ما كنت تبدو سخيفا من أجله الليلة ؟ طبعا لا . يا صديقي العزيز .

وحاول جريفث أن يدخل يده في ذراع فيليب ، ولكن فيليب ابتعد عنه ، فقد كان يعرف أن جريفث يكذب عليه . وما كان فيليب بمستطيع أن يرغم جريفث على القول بأنه لم يكن ممسكا بيد الفتاة . ثم شعر فجأة بأنه ضعيف جدا ومحطم ، وقال :

– لن يضيرك هذا يا هارى . فلديك الكثير غيرها من النساء .. ولكن لا تسلبني إياها . فإن في بعدها يعنى ضياع عمرى إنني جد بائس .

وتهدج صوته ، ولم يستطع منع عبراته وأناته التي كانت تقطع ذات نفسه . واستحى من نفسه إلى حد كبير .

– يا صديقي العزيز أعلم أني لن أفعل قط ما يؤذيك ، وأن حبي الشديد لك ليحول بيني وبين هذا ، وكل ما هو مجرد عبث ، ولو أنني كنت أعلم أنك تأخذ المزاح مأخذ الجد لكنت أكثر حرصا .

وسأل فيليب :

– أحق ما تقول ؟

وتنهد فيليب في ارتياح ، ووقفت بهما العربة أمام المنزل .

وكانت معنويات فيليب عالية في اليوم التالي. وقد حرص على ألا يرهق ميلدريد بطول مرافقته لها . ولهذا قرر ألا يراها حتى موعد العشاء . ووجدها مستعدة عندما ذهب إليها ليأخذها معه . ومازحها على دقتها غير العادية في المحافظة على المواعيد .

وكانت ميلدريد تلبس رداء جديدا اشتراه لها فأبدى فيليب ملاحظة على أناقته .. قالت ميلدريد:

– لابد أن نعيده لإصلاحه . فالياقة ليست مضبوطة مطلقا .

– يجب أن تحثي الحائك على إنهائه سريعا إذا أردت أن تأخذيه معك إلى باريس .

– سيكون معدا قبل ذلك الوقت .

لم يتبق إلا ثلاثة أيام كاملة ، وسنذهب إلى هناك بقطار الحادية عشرة .أليس كذلك ؟ إذا شئت .

وكان بوسع فيليب أن يستبقيها لنفسه ما يقرب من الشهر وتسمرت عيناه عليها في افتتان نهم ، وكان في استطاعته أن يضحك قليلا من عواطفه . وابتسم فيليب قائلا :

– إني لأعجب ما الذى يعجبني فيك .

أجابت ميلدريد :

– حسن جدا أن تقول هذا .

لقد كان جسمها نحيلا جدا حتى يكاد المرء أن يرى هيكلها العظمى من خلاله .

وكان صدرها مستويا كصدر الغلام . أما وجهها بشفتيه الضعيفتين الشاحبتين فقد كان قبيحا . كما كان جلدها أخضر بعض الشيء .

وقال فيليب وهو يضحك :

– سأعطيك كمية من حبوب «بلود» عندما نسافر ، وسأعود بك سمينة ووردية اللون .

فردت عليه قائلة :

– لا أريد أن أسمن .

ولم تتحدث ميلدريد عن جريفث . ولكن حدث عندما كانا يتناولان طعام العشاء أن قال فيليب في حدة وخبث وقد تأكد من نفسه ومن سيطرته عليها :

– يبدو لى أنك كنت تقومين بمغازلة كبرى مع هارى في الليلة الماضية .

وضحكت ميلدريد ثم قالت :

– لقد أخبرتك إنني أحبه .

– إني ليسرني أن أعرف أنه لا يحبك .

– وكيف عرفت ؟

– سألته .

وترددت برهة ، وهي تنظر إلى فيليب ، ثم ومضت عيناها ببريق غريب وقالت :

– هل لك أن تقرأ خطابا وصلني منه هذا الصباح ؟

ومدت إليه يدها بمظروف . وعرف فيليب عليه خط جريفث الكبير الواضح . وكان الخطاب مكونا من ثماني صفحات وقد كتب بإتقان وصراحة وجمال . كان خطاب رجل أعتاد كتابة خطابات الغرام للنساء . كتب جريفث لميدريد يبثها غرامه الذى وقع فيه منذ أول لحظة وقعت عيناه عليها . وقال إنه لم يرد أن يحبها لأنه كان يعلم غرام فيليب بها . ولكنه لا يسعه إلا أن يحبها . إن فيليب عزيز عليه . وهو لذلك يشعر بالخجل من نفسه ، ولكن الخطأ ليس خطأه . فقد دفع إلى هذا الحب دفعا . واحتوى الخطاب سطورا من المديح الجميل لها . وفي خاتمته شكر جريفث لميدريد قبولها دعوته للغداء معه في اليوم التالي وأعرب عن عظيم اشتياقه لرؤيتها .

وقد لاحظ فيليب أن تاريخ إرسال الخطاب كان الليلة الماضية . ومعنى هذا أن جريفث كتبه بعد أن افترق عن فيليب . وأنه كلف نفسه عناء الخروج لإلقائه في صندوق البريد، بينما كان فيليب يظنه هاجعا في فراشه .

وقرأ فيليب الخطاب بقلب ضعيف . ولكنه لم يظهر الدهشة . وأعاد فيليب الخطاب إلى ميلدريد في هدوء وهو يبتسم ويقول :

– وهل تمتعت بغدائك .

وردت ميلدريد عليه قائلة بصيغة التأكيد

جدا ... !

وشعر فيليب بأن يديه ترتعشان فوضعهما تحت المنضدة وهو يقول :

– لا تحملي تصرفات جريفث محمل الجد فهو كالفراشة كما تعلمين .

واستعادت ميلدريد الخطاب ، وتطلعت إليه مرة أخرى وهي تقول في صوت حاولت أن تجعله يعبر عن عدم المبالاة .

– وأنا بدورى لا أستطيع المقاومة ولا أدرى ماذا حل بى .

وقال فيليب :

– إنه موقف شائك بالنسبة لي ، أليس كذلك ؟

ورمته ميلدريد بنظرة سريعة ثم قالت :

– إنك تنظر إلى المسألة في هدوء تام . هذا ما أراه .

– وماذا تتوقعين أن أفعل ؟ هل كنت تنتظرين أن أمزق خصلات شعرى .

– كنت أعتقد أنك ستغضب على .

– المضحك في الأمر أنني لست غاضبا مطلقا . وكان يجب أن أعلم أن هذا سيحدث فقد كنت مغفلا عندما جمعتكما . أعرف أنه له ميزات كثيرة لا أتمتع بها ، فهو أجمل منى ، وأكثر رشاقة ، وأقدر منى على التسلية ، ويستطيع أن يتحدث معك ويثير اهتمامك .

وقالت ميلدريد :

– لست أدرى قصدك من وراء ما تقول .. فإذا لم أكن حصيفة فليس لي في ذلك حيلة . لكنني لست بلهاء كما تظنني ، أؤكد لك أنني أبعد ما أكون من البلاهة ولكنك أرقى وأسمى مني أيها الصديق الصغير .

وسألها فيليب في اعتدال :

– هل تريدين إثارة شجار معي ؟

كلا . ولكني لا أعلم لماذا تعاملني كما لو كنت .. لا أدرى لو كنت ماذا .

آسف . فلم أقصد اهانتك . وإنما أردت أن أوضح الأمور في هدوء .

– إننا لا نريد أن نخلق منها ورطة ما دام ذلك في استطاعتنا . لقد لاحظت أنك معجبة به وهذا فيما يبدو لي شئ طبيعي جدا . إنما الأمر الوحيد الذى يؤلمني حقا أن يكون جريفث قد شجعك على هذا . فهو يعلم كم أنا شغوف بك وأظن أنه من غير اللائق منه أن يكتب إليك هذا الخطاب بعد خمس دقائق من تأكيده لي أنه لا يعيرك أدنى اهتمام .

– إنك لتخطئ إذا أعتقدت أن بوسعك أن تقلل من حبي له بما تقوله عنه من أمور شائنة..

وغشى الصمت فيليب لحظة قصيرة . ولم يدر أى كلمات يستطيع استخدامها ليجعلها تؤمن بوجهة نظره . وكان فيليب يريد أن يتكلم في هدوء وتدبر ، ولكنه كان في عاطفة من الانفعالات لم تمكنه من توضيح أفكاره . فقال :

– من العبث أن نضحي بكل شئ في سبيل نزوة حب تعلمين أنها لن تستمر . وفوق هذا فإن جريفث لا يهتم بأى أنثي أكثر من أيام عشرة . وأنت بطبعك باردة ، ومثل هذه الأمور لا تعنى شيئا بالنسبة إليك .

– هذا ما تعتقده أنت .

وزاد من صعوبة الموقف بالنسبة لفيليب إن كانت ميلدريد تستخدم في مخاطبته لهجة التحدى والعناد ، ورد عليها بقوله :

– إذا كنت تحبينه فلن تستطيعى رد الحب . وعلى أن أتحمل هذا بقدر ما أستطيع وفي وسعنا أن نسير معا على خير حال . فأنا لم أسلك معك يوما سلوكا شائنا ، أليس كذلك ؟ وكنت أعلم أنك غير مغرمة بي ، ولكنك معجبة بسلوكي . وحسبي هذا . وأعتقد أننا عندما نذهب إلى باريس ستنسين كل شئ عن جريفث . ولو أنك حزمت أمرك على إقصائه من مجال تفكيرك فإنك لن تجدى في الأمر من الصعوبة ما تظنين . ولا شك إنني أستحق منك أن تفعلي شيئا من أجلي .

ولم تجب ميلدريد ، واستمرا في تناول عشائهما . ولما ضايقهما الصمت اضطر فيليب إلى قطعه بالتحدث في مواضيع ليست بذات أهمية . وتظاهر فيليب بأنه لم يلاحظ أن ميلدريد غير متنبهة لما يقول ، وأن إجاباتها كانت عن غير اهتمام وأنها لم تبد من تلقاء نفسها أى ملاحظة من جانبها . وأخيرا قطعت كلامه فجأة قائلة :

– فيليب ، أخشى ألا أستطيع السفر يوم السبت . فالطبيب ينصح بذلك وكان فيليب يعرف أن ذلك غير صحيح ولكنه أجاب بقوله :

ومتى تستطيعين السفر ؟

ونظرت ميلدريد إليه ، ورأت شحوب وجهه وصرامته ، فأدارت عينيها عنه في عصبية. لقد كانت في تلك اللحظة خائفة منه .

– أستطيع أن أقولها لك كلمة نهائية إنني لن أسافر معك أبدا .

– كنت أعتقد أنك ترمين إلى هذا . ولكن مضى الوقت الذى تستطيعين فيه تغيير رأيك ، فالتذاكر معي وكل شئ معد .

– سبق لك القول إنك لن تجعلني أسافر ما لم أرغب في ذلك ، ولست راغبة في السفر .

– لقد غيرت رأيي . ولن أسمح بأن تحاك لي المؤامرات أكثر من ذلك يجب أن تسافرى.

– أحبك جدا يا فيليب بوصفك صديقا . ولكنى لا أحتمل أن يتطرق إلى نفسي أى ظن آخر عنك . ولا أحب أن تسلك هذا السلوك . لا أستطيع يا فيليب.

– لقد كنت راغبة في السفر منذ أسبوع مضى .

– كانت الحال على غير ما نحن فيه الآن .

– ألم تكوني قد قابلت جريفث ؟

– لقد قلت أنت نفسك إنني إذا كنت أحبه فإني أكون مدفوعة إلى هذا الحب .

وعلا وجه ميلدريد العبوس ، وتعلقت عيناها بالطبق الذى كان أمامها . أما فيليب فقد أبيض وجهه غيظا وغضبا وتمنى لو ضربها على وجهها بقبضته المضمومة وتخيل منظرها وقد أصيبت عينها . وكان حول المائدة المجاورة لمائدتهما ولدان في حوالي الثامنة عشرة من عمرهما . وكانا بين الفينة والأخرى يختلسان النظر إلى ميلدريد . ولم يدر فيليب هل كانا يغبطانه على العشاء مع فتاة حسناء ، ولعلهما كانا يتمنيان أن يكونا مكانه .

وكانت ميلدريد هي التي قطعت الصمت بقولها :

– أى فائدة تعود علينا في سفرنا معا ؟ سأفكر فيه طول الوقت ولن يسرك هذا كثيرا .

وأجاب فيليب :

– هذا شأني وحدى .

وفكرت ميلدريد في إجاباته كلها متحيرة ، وقالت وقد احمر وجهها :

– ولكن هذا تصرف وحشي .

– ماذا فيه ؟

– ظننتك رجلا مهذبا بكل معني الكلمة .

– كنت مخطئة .

وقد راقته إجابته عن نفسه وضحك وهو ينطق بها .

– بالله عليك ، لا تضحك . لن أستطيع السفر معك يا فيليب وإنى جد آسفة لذلك ، وأنا

– أعلم أنني أسأت في سلوكي نحوك ، ولكن الإنسان لا يستطيع مقاومة عواطفه .

– أنسيت أنني فعلت كل ما أستطيع من أجلك عندما ضاقت بك الأرض ؟

فقد قترت على نفسي لأنفق عليك إلى أن تضعي طفلك . ودفعت أجر الطبيب ومستلزمات الولادة ، كما دفعت أجر سفرك إلى «برايتون» ولا زلت أدفع من أجل حضانة طفلك وأدفع ثمن ثيابك ، إني أدفع ثمن كل خيط تلبسينه الآن .

– لو أنك كنت رجلا مهذبا لما قذفت في وجهي بكل ما فعلت من أجلى .

– اخرسي ! بالله عليك ما الذى يهمني إن كنت مهذبا أو لم أكن ؟ لو كنت مهذبا لما أضعت وقتي مع قذرة سوقية مثلك . لم ، ولا يهمني إن كنت تحبينني أو لا تحبينني ، لقد سئمت سخريتك بي . وستذهبين معي إلى باريس يوم السبت المقبل وإلا فتحملي عواقب تصرفك .

وتضرجت وجنتاها باللون الأحمر غضبا ، وعندما أجابت ، كان لصوتها تلك النغمة غير المهذبة التي طالما أخفتها بالنطق الرتيب الواضح .

– لم أحبك أبدا ، منذ اللحظة الأولى . ولكنك فرضت نفسك على فرضا لقد كنت دائما أكره أن تقبلني . ولن أدعك تمسني الآن حتى ولو كنت أتضور جوعا .

وحاول فيليب أن يبتلع الطعام الذى كان في حلقه ، ولكن عضلات حلقه توقفت عن العمل ، وجرع ماء وأشعل لفافة التبغ ، وارتجف كل جزء في جسمه ولم ينبس ببنت شفة وانتظر أن تقوم من مكانها ، ولكنها جلست في صمت وعيناها معلقتان بغطاء المائدة . ولو أنهما كانا على انفراد لطوقها بذراعيه وقبلها في نشوة وتصورها فيليب وقد مالت إلى الخلف برقبتها الطويلة البيضاء وهو يضغط على فمها بشفتيه .

وانقضت ساعة دون أن ينبس أحدهما بكلمة . وأخيرا ظن فيليب أن الساقي قد بدأ ينظر إليهما في عجب فطلب إليه قائمة الحساب .

وقال فيليب لميلدريد في نغمة عادية :

– هلم بنا .

ولم تجب ميلدريد بل جمعت حقيبتها وقفازها وارتدت معطفها ، وقال لها :

– متي ترين جريفث مرة ثانية ؟

وأجابت ميلدريد دون اكتراث :

– غدا .

– من الخير أن تتحدثي إليه في الموضوع .

وفتحت ميلدريد حقيبتها بطريقة آلية ورأت فيها قطعة من الورق أبرزتها لفيليب قائلة في تردد :

– وماذا تريد مني أن أفعل ؟

لقد وعدتها أن أدفع لها الثمن غدا

– أحق هذا ؟

– هل معنى هذا أنك لن تدفع بعد أن أفهمتني أن باستطاعتي الحصول عليه ؟

– فعلا .

قالت ميلدريد وقد علا وجهها الاحمرار سريعا :

– سأطلب إلى هارى أن يدفع .

– سيسره أن يساعدك . إنه مدين لي في هذه اللحظة بسبعة جنيهات . وقد رهن مجهره في الأسبوع الماضي لأنه كان مفلسا .

– لا تظن أنك تستطيع أن تخيفني بما تقول. فأنا قادرة تماما على كسب عيشي بنفسي.

– إنه لأفضل ما تعملين . فإني لا أعتزم إعطاءك فلسا واحدا بعد الآن .

وفكرت ميلدريد في أجر المسكن الذى يحل موعده يوم السبت وكذلك أجر حضانة الطفل ، ولكنها لم تتفوه بكلمة .. وغادر فيليب وميلدريد المطعم ، وسألها فيليب في الطريق :

– هل أطلب لك عربة ؟ أما أنا فسأقوم بجولة قصيرة .

– لست أملك نقودا . كان على بعض الدين دفعته بعد ظهر اليوم .

– لن يضيرك المشى . وإذا أردت رؤيتي غدا فسأكون موجودا في موعد الشاى أو حواليه.

ورفع فيليب قبعته محييا وسار في طريقه . ثم ما لبث أن استدار فوجدها ما زالت واقفة في يأس حيث تركها تراقب المارة . فعاد إليها فيليب ووضع قطعة نقود في يدها وهو يضحك وقال :

– إليك شلنان لتركبي بهما .

وقبل أن تنطق بكلمة تركها مسرعا .

● ● ●

وجلس فيليب في حجرته بعد ظهر اليوم التالي يسائل نفسه هل تأتي ميلدريد أم لا . لقد نام غير هادئ ، وأمضي الصباح في نادى مدرسة الطب يقرأ الصحيفة بعد الصحيفة . وكانت عطلة ، ولا يوجد في لندن إلا القليل من الطلبة . ولكنه وجد شخصا أو أثنين أخذ يتحدث إليهما. ولعب دور شطرنج قضي فيه بعض الوقت وبهذه الطريقة أمضي ساعات الصباح المملة . وشعر بأنه متعب بعد تناول طعام الغذاء وأن رأسه يدور فذهب إلي مسكنه واسترخى وحاول أن يقرأ قصة ..

ولم يكن قد رأى جريفث فلم يكن بالمنزل عندما عاد فيليب في الليلة الماضية . وسمع وقع أقدامه وهو عائد ، ولكنه لم يطل برأسه في حجرة فيليب كما اعتاد ، ليرى هل هو متيقظ أو نائم . وفي الصباح سمع فيليب وقع أقدام جريفث وهو يغادر المنزل في وقت مبكر . وكان من الواضح أنه يتجنب رؤية فيليب .

وفجأة سمع فيليب دقا على الباب . وقفز من فراشه ليفتح للطارق . فوجد ميلدريد تقف عند مدخل الحجرة ولم تتحرك عند رؤيته .

قال لها فيليب :

– تفضلي بالدخول .

وأغلق الباب خلفها . وجلست ميلدريد وترددت في الكلام ، وأخيرا قالت:

– شكرا لك على إعطائي الشلنين في الليلة الماضية .

– لا موجب للشكر .

وعلت وجهها ابتسامة شاحبة . كان منظر ميلدريد أشبه بمنظر جرو خجول مستعطف ، ضربه سيده لخبثه وقد أتي يصلح ما بينه وبينه .

قالت ميلدريد :

– كنت أتغدى مع هارى ؟

– أحق هذا ؟

– إذا كنت لا تزال تريد منى السفر معك يوم السبت يا فيليب فإني مستعدة .

وسرت في قلب فيليب هزة سريعة من الانتصار ، ولكنها لم تدم إلا لحظة قصيرة ثم حلت محلها موجة من الشك .

وسألها فيليب :

– بسبب النقود ؟

وأجابت في بساطة :

– هذا بعض السبب . فهارى لا يستطيع عمل شئ . انه مدين بإيجار خمسة أسابيع هنا . ومدين لك بسبعة جنيهات والخياط يستحثه لاداء ما عليه انه مستعد لرهن أى شئ ولكنه رهن كل شئ من قبل . لقد استطعت بمشقة تأجيل ثمن الثوب الجديد . ولكن على أن أدفع ايجار المسكن يوم السبت . ولن أستطيع أن أحصل على عمل في دقائق معدودة . ومعنى هذا دائما الانتظار بعض الوقت حتى تخلو وظيفة .

قالت ميلدريد كل هذا في نغمة تذمر واضحة ، كما لو كانت تعدد ظلم القدر الذى يجب على المرء أن يتحمله لأنه جزء من النظام الطبيعي للأشياء . ولم يجب فيليب فقد كان يعرف جيدا كل ما تقول .

وأخيرا أبدى فيليب ملاحظة على كلام ميلدريد ، وقال فيليب أخيرا :

– لقد قلت أن هذا بعض السبب .

– نعم لقد قال هارى انك كنت عمادا لنا نحن الاثنين . فقد كنت له صديقا صادقا ، كما يقول ، ولقد فعلت من أجلي ما لا يستطيع أى إنسان أن يفعله . وهارى يقول أن علينا أن نلزم جادة الصواب ، وقد اعترف بكل ما قلته عنه فهو شخص متقلب بطبيعته ، وليس مثلك في شئ ، وأنني أكون غبية لو إنني تركتك من أجله . فهو غير دائم لي أما أنت فستدوم . لقد قال هذا بنفسه .

وسألها فيليب :

– هل تريدين أن تسافرى معي ؟

– لا ضير .
ونظر إليها فيليب ، وقد أنقلبت زاويتا فمه في تعبير ينم عن التعاسة لقد أنتصر حقا وتم له ما أراد . وضحك فيليب ضحكة سخرية من نفسه وما أصابه من ذله . وألقت ميلدريد عليه نظرة سريعة ولكنها لزمت الصمت .
وقال فيليب :
– لقد كنت أتمني من كل قلبي أن أسافر معك ، وأعتقدت إنني أخيرا وبعد كل ما مر بي من بؤس ، سأكون سعيدا .
ولم يتم فيليب ما كان يريد قوله . وفجأة وبدون سابق إنذار ، انفجرت ميلدريد باكية وكانت جالسة في نفس الكرسي الذى جلست عليه نورا وبكت ، وفعلت كما فعلت نورا إذ أخفت وجهها في ظهر اتجاه الجانب حيث يوجد منخفض يوضح الرأس عليه .
وقال فيليب :
– لست حسن الحظ مع النساء .
وكان جسم ميلدرد النحيل ينتفض من النحيب . ولم ير فيليب في حياته امرأة تبكى بمثل هذه الغزارة من الدموع . كان المنظر مؤلما مروعا تمزق منه نياط قلبه . وذهب إليها فيليب دون أن يدرى ما هو فاعل وأحاطها بذراعيه ، ولم تقاوم ميلدريد . ولكنها استسلمت في تعاستها ، لتهدئته . وهمس فيليب لها ببضع كلمات للسلوى . وما كان يدرى ماذا يقول، ثم أنحني عليها وقبلها مرارا .
وأخيرا قال لها :
– هل أنت تعسة حقا ؟
وأجابته في أنين :
– تمنيت لو مت ، تمنيت لو مت يوم أن ولد الطفل .
وكانت قبعتها تحول بينها وبينه ، فخلعها لها فيليب ، وأراح رأسها على الكرسي ثم ذهب ليجلس بجوار المنضدة وأخذ ينظر إليها .
قال فيليب :
– ما أقسى الحب. أليس كذلك ؟ تخيلي أى إنسان يريد أن يقع في شراكه وسرعان ما انحسرت مدة نحيبها ، فجلست على الكرسي متهالكة ورأسها إلي الخلف وذراعاها مدليان إلي جانبيها . وما كان أشبه منظرها بمنظر الدمى التي تعلق عليها الأقمشة .
وقال فيليب :
– ما كنت أدرى أنك تحبينه إلي هذه الدرجة .
كان فيليب يعرف حب جريفث جيدا. فقد وضع نفسه مكانه، ورأى بعينيه ، ولمس بيديه وكان قادرا على أن يتخيل نفسه في جسم جريفث ويقبلها بشفتيه ، ويبتسم لها بعينيه الباسمتين الزرقاوين وكانت عاطفتها هي التي أدهشته ، فما كان يعتقد أنها تعرف معنى

العاطفة . وكان ما تفعله الآن عاطفة لاشك فيها . وشعر فيليب بشيء يهوى في قلبه ، وكان شيئا كان يتكسر فيه . وشعر بأنه ضعيف ضعفا عجيبا .
– لست أريد أن أشقيك . ففي استطاعتك ألا تسافرى معي ، إذا لم تكن لديك رغبة في السفر وسأعطيك النقود ، رغم هذا .
وهزت ميلدريد رأسها وقالت :
– كلا . لقد قلت سأسافر ، وسأسافر
– وما الفائدة ، إذا كنت تقاسين من حبك له ما تقاسين .
– أجل ، كلمة حق أقولها ، انني أقاسي من الحب . أعلم انه لن يدوم . كعادته ولكني الآن...
وتوقفت عن الكلام وأغمضت عينيها كما لو كانت في إغماءة . وقد خطرت لفيليب فكرة غريبة وعبر عنها فيليب كما هي دون أن يفكر فيها .
– لماذا لا تسافرين معه ؟
– كيف أستطيع ذلك ، وأنت تعلم أن ليس لدينا نقود ؟
– سأعطيكما النقود .
– أنت ؟
واعتدلت ميلدريد في جلستها، ثم نظرت إلى فيليب. ولمعت عيناها وعاد اللون إلي وجنتيها.
– ربما كان من الأفضل أن ينتهي الأمر على هذا النحو ثم تعودين بعد ذلك إلى.
وما أن عرض هذا الاقتراح حتى بان عليه الألم . وقد بعث العذاب إحساسا غريبا رقيقا .
وتطلعت ميلدريد إليه بعينين مفتوحتين ثم قالت :
– كيف نستطيع ذلك ، على حسابك ؟ إن هارى لا يمكن أن يقبل هذا .
– سيقبل إذا أقنعته .
وقد أثار رفضها تصميمه . ومع هذا فقد كان يتمنى من كل قلبه لو رفضت العرض بشدة.
– سأعطيكما خمسة جنيهات، ويمكنكما أن تسافرا من السبت إلي الاثنين، تستطيعان في سهولة. وفي يوم الاثنين سيذهب إلي قريته إلي أن يتسلم عمله في شمال لندن .
وصاحت ميلدريد وقد ضمت يداها :
– أوه يا فيليب هل تعنى ذلك حقا ؟ لو سمحت لنا بالذهاب لأحببتك أعظم الحب بعدئذ ، وسأفعل أى شئ تريده انى متأكدة أنني سأنسي كل شئ لو انك فعلت هذا . هل تعطينا النقود حقا ؟
وأجاب فيليب :
– أجل .
وتغيرت ميلدريد تماما . فبدأت تضحك واستطاع فيليب أن يرى أنها كانت في سعادة جنونية . ونهضت ميلدريد وركعت إلى جانب فيليب وقد أمسكت بيده وهى تقول :

– أنت عوني يا فيليب . إنك خير من عرفت . ألن تغضب مني فيما بعد ؟

وهز فيليب رأسه وهو يبتسم بينما العذاب ينهش قلبه.

هل لي أن أذهب لأخبر هارى الآن ؟ وهل أستطيع أن أخبره أن هذا لا يسوءك ؟ انه لن ي ما لم تعده بأن ذلك لا يضيرك ولا يهمك ، أوه أنك لا تدرى كم أحبه.. وبعد ذلك سأفعل كل يرضيك سأسافر إلي باريس معك أو إلي أى مكان آخر يوم الاثنين .

ونهضت ميلدريد ثم ارتدت قبعتها .

– إلي أين ؟

– سأذهب لأسأل جريفث هل يأخذني معه .

– أبهذه السرعة ؟

– هل تريد أن أبقى ؟ سأبقى إذا شئت .

وجلست ميلدريد ولكن فيليب ضحك ضحكة قصيرة ثم قال :

– كلا . لا ضير .. تستطيعين الذهاب في الحال ، غير أن هناك شيئا واحدا هو أ أستطيع رؤية جريفث الآن فإن رؤيته تؤلمني أشد الألم قولي له أنني لا أشعر نحوه بع ما يشابهه ، وكل ما أطلبه إليه هو أن يبتعد عن طريقي .

– سأفعل ، وستعرف منى ما يقوله .

وبعد أن تغدى فيليب في مطعم مدرسة الطب ، عاد إلي مسكنه . وكان هذا يوم السـ الظهر وقد أخذت صاحبة المنزل في تنظيف السلم .

وسألها فيليب :

– هل مستر جريفث موجود ؟

– كلا ياسيدى . لقد خرج هذا الصباح بعد خروجك مباشرة .

– ألن يعود ؟

– لا أظن يا سيدى . فقد أخذ متاعه معه .

وتساءل فيليب ما معنى هذا ، ثم أخذ كتابا وبدأ يقرأ . كان كتابا من تأليف بيـ عنوانه رحلة إلي مكة وقد استعاره فيليب من المكتبة العامة وستمستر وقرأ فيليب الـ الأولى ولم يستطع إدراك معنى ما قرأ . فقد كان عقله في مكان آخر . وظل طول الوقت أن يدق جرس الباب . وما كان فيليب يجسر أن يأمل في أن يكون جريفث قد سافر فعـ ميلدريد إلي بلده في كمبرلاند، وأن ميلدريد في طريقها إليه من أجل النقود . وجز فيليـ أسنانه واستمر في القراءة وحاول جاهدا أن يركز انتباهه فيها . وقد استطاعت الـ تحفر لنفسها مكانا في عقله بقوه مجهوده . ولكن العذاب الذى كان يقاسيه شتتها . من كل قلبه لو لم يعرض ذلك الاقتراح الفظيع ، وهو إعطاؤها النقود . ولكنه الآن ، ا اقترح ما اقترح كانت تعجزه القوة التي يستطيع معها الرجوع فيه لا لحساب ميلدر لمصلحته هو . وكان عنده نوع من العناد السقيم يرغمه على تنفيذ ما يقرره . و

الصفحات الثلاث التي قرأها لم يكن لها أى تأثير منه ، فعاد وبدأ القراءة من أولها ووجـ يقرأ جملة واحدة ، المرة بعد الأخرى . ووجد الآن أن ما قرأه يمتزج بأفكار امتزاجا امتزاج الكابوس .

ووجد فيليب أن شيئا واحدا يستطيع أن يفعله ليحول بينهما وبين السفر ، وهـ يقضى اليوم حتى منتصف الليل خارج المنزل . وتخيلهما يحضران إلي المنزل كل سـ ليسألا عنه . وأمتعته فكرة خيبة أملهما. وأعاد فيليب قراءة تلك الجملة إلي لنفسه ، لكـ يستطع .. فليأتيان للحصول على النقود. وعندئذ سيعرف إلي أى درك من العار يمكن للإنـ أن يهوى إليه. ولم يستطع الاستمرار في القراءة فما عاد يرى الكلمات .

وانحنى فيليب إلي الخلف في كرسيه وأغمض عينيه ، وقد خدرته تعاسته وأخذ ينـ حضور ميلدريد .

ودخلت عليه صاحبة المسكن تقول :

– هل لك في رؤية السيدة ميللر يا سيدى ؟

– أدخليها .

وجمع فيليب شتات نفسه حتى يستطيع أن يستقبل ميلدريد ، دون أن يظهر عليه ما عن شعوره ، كانت مشاعر فيليب توحي إليه أن يركع على ركبتيه أمام ميلدريد ، وأن يمـ بيديها ويستعطفها ألا تذهب . ولكنه كان يعلم أن ليست هناك وسيلة لتحويلها عن عزمـ فإنها ستخبر جريفث بما قال وما فعل . وعلاه الخجل .

وقال فيليب لميلدريد وهو فرح :

– ماذا عن الرحلة الصغيرة ؟

– سنذهب وهارى في خارج الدار ، قلت له انك لا تود رؤيته ، فابتعد عن طريقك ، و يريد أن يعرف هل يستطيع أن يدخل مدة دقيقة واحدة ليودعك .

قال فيليب :

– كلا . لن أراه .

ورأى فيليب من عينيها أنه لن يضيرها أن يرى جريفث أو لا يره . وما دامت قد حضـ فإن فيليب أراد أن تذهب سريعا .

– هذه هي الجنيهات الخمسة . وأفضل أن تذهبي توا .

وأخذت ميلدريد النقود وشكرته ، ثم استدارت للخروج .

وسألها فيليب :

– متى تعودين ؟

– يوم الاثنين . فإن على هارى أن يذهب إلي بلدته بعد ذلك .

وشعر فيليب بأن ما كان ينتوى أن يقوله مذل له ، ولكنه كان محطما من أثر الـ والرغبة الجامحة .

– وبعد هذا سأراك ، أليس كذلك ؟

ولم يستطع فيليب أن يتغلب على نغمة الرجاء التي كانت في صوته :

– طبعا . وسأتصل بك بمجرد وصولي .

وصافحت فيليب . وقد استطاع من خلال الستار أن يرقبها وهى تقفز إلي العربة التي كانت بالباب وسارت العربة . وارتمى فيليب في فراشه وقد أخفي وجهه بين كفيه . وشعر بالدموع تملأ عينيه . فحنق على نفسه وحاول أن يغالب البكاء . وأخذ ينتحب انتحابا مؤلما على الرغم منه .

● ● ●

وجاء يوم الاثنين . وشعر فيليب بكراهية مريرة لجريفث. أما عن ميلدريد فرغم كل ما حدث فإن كل ما كان عنده هو الرغبة لها التي تقطع نياط القلب. وما كان يضيره إذا كانت تلك الرغبة تدعو إلي الفزع أو تدعو للاشمئزاز فقد كان مستعدا لكل ترضية قابلا لكل إذلال جديد، مهما كان محقرا في سبيل إشباع رغبته.

وما أن اقترب المساء حتى قادته خطواته، رغم إرادته، إلي المنزل الذى تسكن فيه ميلدريد، ونظر إلي نافذتها فرآها مظلمة، ولم يجرؤ على أن يسال هل عادت لانه كان واثقا من وعدها إياه. وفي الصباح لم يصله خطاب منها وحوالي الظهر، ذهب ثانية إلي المنزل وأخبرته الخادم إنها لم تصل بعد.

ولم يستطع فيليب أن يفهم ما هنالك فجريفث كان مرغما على السفر في اليوم السابق لأنه كان وميلدريد لا نقود معهما. وأخذ يقلب في ذهنه كل احتمال.

وفي المساء ذهب كذلك وترك لها مذكرة، يدعوها فيها للعشاء معه وقد فعل ذلك في هدوء كأن حوادث الأسبوعين الأخريين لم تكن. وذكر لها فيليب مكان المقابلة وموعدها و حرص، يدفعه الأمل، حيث لا أمل. على الحضور في الموعد المحدد.

ورغم انتظار فيليب ساعة كاملة فإنها لم تحضر.

وفي صباح يوم الأربعاء، خجل فيليب من السؤال عن مليدريد في منزلها فأرسل رسولا يحمل خطابا وتعليمات منه وأوصاه أنيحضر الرد معه. ورجع الرسول بعد ساعة وبيده خطاب فيليب لم يفتح ، وكان الرد الذى حصل عليه الرسول أنالسيدة لم تعد بعد من الريف. وجن جنون فيليب فإن الخدعة الأخيرة كانت اكثر مما يحتمل. وأخذ فيليب يكرر لنفسه مرات ومرات انه يك مليدريد. ويعزو إلي جريفث خيبة أمله الجديدة. فاشتدت كراهيته له وزادت عنفا حتى لقد عر وقتئذ لذة القتل. وسار فيليب يفكر في لذة الهجوم عليه في ليلة مظلمة. وقطع رقبته بسكين ع الشريان ، وترك جثته في الشارع كالكلب . وفقد فيليب رشده من الحزن والغيظ. ولم يكن فيلي يحب شرب الويسكي ولكنه شربه ليهدئ من ذات نفسه. وذهب إلي فراشه ثملا ليلة الثلاثاء ول الأربعاء .

وفي صباح يوم الخميس. صحا فيليب من نومه متأخرا جدا، وأخذ يجر نفسه جرا بعين زائغتين. شاحبتين، إلي غرفة الجلوس ليرى هل جاء إليه خطاب. وقد سرى شعور عجيب قلبه عندما تعرف على خط جريفث على إحدى الرسائل .

عزيزى الصديق القديم..

لا أكاد أعرف كيف أكتب إليك. ومع هذا فأني اشعر بأن واجبي أناكتب. وآمل ألا تك حانقا على وأنا أعلم انه لم يكن ينبغي لي أن أسافر مع ميلي، ولكنى أقول أنني لم استطع أتغلب على عواطفي. لقد غلبتني على أمرى وأنا لا املك ألا تنفيذ رغباتها. وعندما أخبرت انك قد عرضت عليها النقود لنسافر معا لم أستطع المقاومة.

والآن، وقد انتهى كل شئ فإني أشعر بخجل شديد من نفسي، وكنت أود ألا أكون مغ كما كنت. وبودى لو كتبت إلي تقول أنك لست حاقدا على. وآمل أن تسمح لي بالعودة لرؤيت لقد حز في نفسي كثيرا أن تقول لميلي أنك لا تريد رؤية وجهي. اكتب لي ولو سطرا واح فأنت إنسان طيب وقل لي أنك عفوت عنى، فإن ذلك يريح ضميرى . ولقد كنت أظن انك يفيدك أن تسافر والا لما عرضت علينا المال . ولكنى أعلم الآن انه لم يكن لي أن أخذ ه النقود. لقد ذهبت إلي بلدتي يوم الاثنين، أما ميلي فقد أرادت أن تبقى يومين وحدها اكسفورد وستعود إلى لندن يوم الأربعاء وعلى هذا فعندما يصلك خطابي هذا تكون قد رأيت وآمل أن يسير كل شئ بينكما على أحسن حال . أرجوك أنتكتب إليّ أنك سامحتني. أرجوك تكتب من فورك.

صديقك إلي الأ

ها

ومزق فيليب الخطاب في غضب. ولم يعتزم الرد عليه، وقد احتقر جريفث لاعتذاراته و يعد يطيق تأنيب الضمير. فإن المرء يستطيع أن يأتي عملا مشينا لو شاء. ولكن من الحقا أنيعتذر عنه فيما بعد. وقد نظر إلي الخطاب على أنه جبن ونفاق، وأثار تقزز ما ورد عبارات عاطفية.

وغمغم فيليب يقول لنفسه:

من السهل جدا أن تعمل عملا دنيئا ثم تقول انك آسف فيكن هذا كافيا لاصلاح كل ما فس

وتمنى فيليب من كل قلبه لو وجد فرصة ينتقم فيها من جريفث.

لكنه على أية حال عرف أنمليدريد في لندن . وارتدى فيليب ملابسه في عجلة، ولم ينتظر حت يحلق لحيته، وشرب كوبا من الشاى ثم اكترى عربة إلي مسكنها. وقد بدا له أن العربة لا تسير تزحف، فقد كان شغوفا جدا لرؤيتها. ودعا الله دون وعى منه ، أن يجعل ميلدريد أن تحس استقباله، كان يريد أن ينسى. ودق فيليب الباب ووجيب قلبه يشتد. ونسي كل آلامه في غم رغبته الشديدة في احتضانها مرة أخرى بين ذراعيه.

وسأل فيليب الخادم في فرح:

هل السيدة ميللر موجودة؟

وأجابت الخادم:

– لقد خرجت.

ونظر إليها في بلاهة:

– لقد جاءت منذ ساعة ثم أخذت متاعها وخرجت:

ومضت لحظة دون أن يعرف ماذا يقول .

– وهل أعطيتها خطابي ؟ وهل قالت أين هى ذاهبة؟

وعرف فيليب مرة أخرى أن مليدريد قد خدعته. وأنها لن تعود إليه،وبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بماء وجهه.

سأسمع منها قريبا ما يطمئنني. ربما تكون قد أرسلت الخطاب إلي عنوان آخر. واستدار فيليب وذهب يائسا إلي مسكنه.. لقد كان من واجبه أن يعلم إنها ستفعل ما فعلته فإنها ما اهتمت يوما به . لقد سخرت منه منذ البداية ولم تأخذها به رحمة ولم تعرف معنى الخير أو الإحسان. ولم يكن أمامه إلا أن يقبل الواقع المحتوم. وكان عذابه شديدا. كان يفضل معه الموت على تحمله.

وواتته فكرة الخلاص من هذا العذاب كله ففي استطاعته أن يرمى بنفسه في النهر أو يضع رقبته على شريط السكة الحديدية. وما كاد يترجم التفكير حتى ثار عليه. وقد هداه عقله إلي أن في استطاعته التغلب على تعاسته في الوقت المناسب ، فلو انه استخدم قوة ارادته لاستطاع أن ينساها . وأن من السخرية أن يقتل نفسه من أجل فتاة حقيرة سوقية كميلدريد. ذلك أن له روحا واحدة وأنة من الجنون أن يطيح بها. وكان فيليب يشعر انه لن يستطع التغلب على عاطفة حبه، ولكنه يعلم انه مهما كان الأمر فالمسألة مسألة وقت لا أكثر.

لن يبقى في لندن فكل ما فيها يذكره بتعاسته وشقائه . وكتب فيليب إلي عمه ينبئه برغبته في الحضور إلي بلاكستابل . وسرعان ما حزم حقائبه واستقل أول قطار.. لقد أراد الهرب من مسكنه الحقير الذى قاسى فيه كل أنواع العذاب. أراد أن يتنسم هواء نظيف. وكان يشعر بالاشمئزاز من نفسه ويحس أنه كاد يجن..

وعاد فيليب مرة ثانية إلى لندن، وكان ذلك قبل بدء الدراسة بيومين لكي يبحث لنفسه عن مسكن. وسار على غير هدىً في الشوارع المؤدية إلي شارع جسر وستمنستر لكنه عاف قذارتها. وأخيرا أراد أن يجد مسكنا في كننجتون يتمتع بالهدوء ويظهر عليه أثر الطراز القديم. وكانت المنازل التي ركز فيليب عليها من ذوات الدورين وعلى نوافذ معظمها إعلانات تقول بأن المسكن معد للإيجار. ودق فيليب باب مسكن مكتوب عليه أن حجراته غير مفروشة. وأرشدته سيدة عبوس صامته إلى حجرات أربع صغيرة جدا، في أحدها مطبخ وبالوعة وكان إيجارها تسع شلنات في الأسبوع، ولم يكن فيليب في حاجة إلي هذه الحجرات كلها ولكن الإيجار منخفض وكان يريد أن يستقر في الحال. وسأل فيليب صاحبة المسكن هل تستطيع

أن تقوم بنظافة المسكن وبتجهيز طعام الإفطار له، ولكنها أجابت بأن لديها الكثير من العمل فلا تستطيع. وقد سره ذلك نوعا ما لأنها أظهرت أنها لا تريد أن تعمل أى عمل آخر أكثر من تسلم الإيجار. وأخبرته السيدة أنه إذا سأل عند البقال القائم محله عند زاوية الشارع وهو كذلك مكتب البريد، فإنه سيسمع منه عن امرأة تستطيع أن تقوم له بما يريد.

وكان عند فيليب قليل من الأثاث جمعه أثناء تجواله: كرسي ذو مسا ند اشتراه من باريس، ومنضدة وبعض اللوحات، وقد منحه عمه سريرا يمكن طيه ، أستغني عنه بعد أن أصبح يؤجر منزله في شهر أغسطس . ثم أضاف إلي ثمنه عشرة جنيهات أخرى، فاستطاع أن يشترى ما تجمع له كل ضروراته . كما أنفق عشرة شلنات على وضع ورق ملون في حجرة أختارها ليجعل منها حجرة استقبال . وعلق على الجدان رسما كان لوسون قد أعطاه إياه ، صورة شمسية من رسم أنجريز ومانت كانت موضع تأملاته في باريس أثناء حلاقة لحيته . ولكي يذكر نفسه بأنه كان يوما ما شغوفا بممارسة الفن . علق على الحائط رسما بالفحم لصورة «ميجويل ليريا» الأسباني الصغير. كانت أحسن ما رسم، وهي تمثل صبيا عاريا من الملابس، واقفا وقد مد يديه، بينما قدماه الصغيرتان تلتقيان بالأرض في قوة خارقة وعلى وجهة علائم التصميم، تترك في الناظر إليها أشد التأثير. ورغم أن فيليب بعد هذه الفترة الطويلة قد أدرك عيوب رسمه بوضوح فإن ارتباطاتها جعلته ينظر إليها وهو راض عنها متسامح عن أخطائها. ولم يكن يدرى ما حل بمجويل. ولكنه كان يحس أنه لاشيء أفظع من السير وراء الفن لمن ليست لهم مواهب فقد يكون ميجويل قد انتهى أمره إلى الفضيحة، أو الجوع أو المرض أو واجه نهايته فى مستشفى أو أنه فى نوبة يأس عارمة لاقي حتفه غرقافى نهر السين. ولكنه كذلك ربما كان على عادة أهل الجنوب غير المستقرة، قد ابتعد عن الصراع من تلقاء نفسه. وأصبح الآن كاتبافى مكتب ما بمدريد وقد حول حماسته إلى السياسة ومصارعة الثيران.

وقد طلب فيليب إلى لوسون وهيوارد أن يحضرا ليريا مسكنه الجديد وقد حضرا وسر فيليب عندما امتدحا ذوقه. وكان يريد أن يدعو السمسار الاسكتلندى كذلك ولكنه كان لا يملك إلا ثلاثة كراسي. وهذا من شأنه أن يقصر الترفيه على عدد محدود من الضيوف. وأخذ فيليب يحضر محاضرات فى الطب والجراحة. وكان يقوم فى صباح أيام خاصة فى الأسبوع بالتمرين على عمليات التضميد لبعض المرضى فى العيادة الخارجية وهو جد مسرور لحصوله على القليل من المال. وتعلم فيليب التسمع على الصدر وعرف كيف يستعمل مسماع الصدر. كما تعلم الصيدلة. وكان يستعد لامتحان. وقد أجرى امتحانا فى شهر يولية فى علم الأقرباذين. وكان يسره أن يجرب العقاقير وعمل المخاليط والحبوب والمراهم وبحث فيليب فى نهم عن كل شيء يمكن أن يستخرج منه نفع لمصلحة بني الإنسان ورأى فيليب جريفث مرة عن بعد، لكنه تجنبه لكيلا يكلف نفسه عناء قتله. لقد شعر فيليب بنوع خاص من الاعتداد بالنفس مع أصدقاء جريفث الذين أصبح بعضهم الآن أصدقاء لفيليب عندما علم أنهم عرفوا كل شيء عن خصامه مع جريفث. وألهمه حدسه أنهم على بينة من

السبب ومن بين هؤلاء الأصدقاء «رامزدن»، ورامزدن هذا شاب طويل جدا له رأس صغير ومنظر خائر. وكان رامزدن من أخلص خلصاء جريفث، يقلدهفى اختيار رابطات عنقه، وأحذيته وفي أسلوبهفى الكلام وحتىفى التفاتاته وإيماءاته. وقد أخبر رامز دن فيليب أن جريفث يشعر بإهانة بالغة لأن فيليب لم يرد على خطابه وأنه يريد أن يتصالح معه.

وسأله فيليب :

– هل طلب إليك إبلاغي هذه الرسالة.

– كلا إني أقول ما قلت بدافع من نفسي. وإنه جد آسف لما فعل وهو يذكر أنك كنت دائما أقوى معين له، وأعتقد أنه سيكون سعيدا لو سويت المسألة وهو أنه لا يأتي إلى المستشفي مخافة أن يقابلك فهو يعلم أنك قد تنتقم منه.

– فعلا.

– هذا يجعله يشعر بتعاسة كما تعلم.

– أستطيع احتمال المضايقة التافهة التي يشعر بهافى جلد كبير.

– إنه مستعد لأن يبذل كل مافى وسعه لإنهاء المسألة.

– يا للطفولة والجنون! لماذا يهتم بي هكذا ؟ فأنا شخص عديم القيمة وبوسعه أن يستغني عن صحبتي فلست مهتما به بعد الآن.

وأعتقد رامز دن أن فيليب جاف وبارد وسكت لحظة وهو ينظر إليه نظرة مضطربة ثم قال:

– إن هارى يتمني على الله إن لم يكن له علاقة أصلا بتلك المرآة

أحق هذا؟

وكان فيليب يتكلم بغير اكتراث كان راضيا عنه وما كان أحد مستطيعا أن يحدس مقدار عنف ضربات قلبهفى ذلك الوقت وأنتظرفى صبر نافد أن يستمر رامزدنفى كلامه.

– أعتقد أنك تغلبت على عواطفك تماما الآن أليس كذلك؟

وقال فيليب:

– أنا.. تماما..

وقد استطاع شيئا فشيئا أن يكتشف قصة علاقة ميلدريد جريفث. فاستمع إليها والابتسامة تفارق شفتيه متصنعا رباطة الجأش وخدع بذلك الصبي الغر الذى كان يتحدث إليه وقد عرف م أن نهاية الأسبوع التي قضتها ميلدريد مع جريفثفى أكسفورد أشعلت ولم تطفيء غرام الفجائي به وعندما عاد جريفث إلى بلدته صممت بشعور لم يكن صدوره متوقعا من مثلها تبقي يومين وحيدةفى أكسفورد، لأنها نعمت بالسعادة فيها ورأت ألا شيء يستطيع أن يغري بالعودة إلى فيليب. فهي تشمئز منه وذعر جريفث من نار الحب التي أوقدهافى صدرها مع أ كان يشعر بالملل طول اليومين اللذين قضاهمافى الريف بصحبتها ولم تكن به رغبةفى تحو قصة مسلية إلى عمل ممل مسئم لقد كانت ميلدريد قد جعلته يعد الكتابة إليها وقد كتب إل خطابا طويلا سارا عندما وصل إلى بلدته لأنه كان صادق الوعد مهذبا ذا أدب طبيعي ولأنه ي

أن يكون محبوبا من الجميع وردت عليه ميلدريد بصحائف من العاطفة الخرقاء لأنها ل موهوبةفى تعبيرها ولافى خطها فجاء كلامها مبتذلا. وقد ضايقه خطابها. وعندما بأخرفى اليوم التالي وبثالثفى اليوم الثالث بدأ يعتقد أن حبها لم يعد رحبا بل أصبح إز مروعا ولم يرد جريفث على الخطابات فأخذت تقذفه بالبرقيات تسأله فيها هل هو مريض تسلم خطاباتها وتقول أن صمته قد جعلها جد قلقة عليه واضطر جريفث أن يكتب إليها حرص على أن يجعل رده عليها عرضيا ما أمكن دون أن يسيءْ إليها وطلب إليها جريفث ألا إليه لأن من الصعب شرح البرقيات لوالدته وهي سيدة من الطراز القديم الذى لا يزال ير البرقيات حادثا يثير الرعب وردت ميلدريد على خطاب جريفث برجوع البريد قائلة أنه رؤيته وأعلنت عن عزمها على رهن أشياء كانت عندها. حقيبة ملابس قدمها إليها فيليب بمناسبة زواجها وتستطيع أن ترهنها على ثمانية جنيهات لكي تذهب إليه وتقيم فى مدينة ال التي تبتعد أربعة أميال عن القرية التي كان والد جريفث يزاول فيها عمله. وقد أخاف هذا ا جريفث واستخدم جريفث هذه المرة البرق ليطلب إليها ألا تنفذ ما اعتزمته، ووعد أن يكتب ساعة حضوره إلى لندن وعندما كتب إليها بذلك وجد أنها قد سألت عنه فعلافى المستشفي عين به وضايقه هذا التصرف فأبلغها عندما رآها ألا تحضر إلى المستشفي بأية حجة والآن غياب أسابيع ثلاثة وجد جريفث ميلدريد تصر على مضايقته وسأل نفسه لماذا سولت له نفس يهتم بها وعزم على قطع كل صلته بأسرع ما يستطيع وكان جريفث إنسانا يخشي الشجار و أن يؤلم غيره ولكنهفى الوقت ذاته كان عنده من العمل الشيء الكثير، وقد صمم ألا يدع ميل تضايقه بعد الآن. ولما قابلها جريفث كان مرحا مسليا عاطفيا واخترع لها أعذارا قهرية الفترة التي مرت منذ أن رآها آخر مرة، ولكنه بذل غاية جهده لكي يتجنبها ولما أرغمته مواعيد للمقابلة عمد إلى إرسال – فى اللحظة الأخيرة برقيات – يعتذر فيها عن الموعد المض وكانت صاحبة المنزل الذى يقيم فيه قد تلقت منه أوامر بأن تقول أنه بالخارج كلما سألت ميلدريد. وكانت ميلدريد أحيانا تكمن لهفى الطريق وكان جريفث يعلم أنها تنتظره حين ي لتقضي ساعتين خارج المستشفي فيلقي إليها ببعض كلمات لطفية حبيبة، ثم يعتذر إ بانشغاله بالعمل وأصبح جريفث ماهرافى التسلل من المستشفي دون أن يراه أحد وذات وعندما كان عائدا إلى المسكن عند منتصف الليل رأى امرأة واقفة فظنها هي وذهب إلى م رامز دن ليهرب منها وفي اليوم التالي أخبرته صاحبة المسكن أن ميلدريد جلست تبكي عند مد باب مسكنه ساعات وأنها اضطرت إلى تهديدها بإبلاغ الشرطة إذا لم تغادر المكان.

وقال رامزدن لفيليب بعد أن قص عليه قصة ميلدريد مع جريفث:

– اسمع يا بني، لقد نجوت من هذه الورطة.

– إن هارى يقول إنه لو شك نصف ثانيةفى أنها ستجعل من نفسها آفة له، لتمني لنفسه ال قبل أن تكون له علاقة بها.

وتخيل فيليب جلوسها عند مدخل الباب الساعات الطويلة من الليل ورأى وجهها وهي تنظرفى غباء إلى صاحبة المسكن التي طردتها.

وقال فيليب:

– لست أدرى ماذا تفعل ميلدريد الآن.

– أحمد الله لقد وجدت عملافى مكان ما يشغل كل يومها.

وكان آخر ما سمعه رامزدن قبل نهاية الفصل الدراسي الصيفي مباشرة، أن دماثة جريفث قد انهارت أخيرا تحت عبء غيظه من مطاردتها الدائمة له. وأن جريفث أفهم ميلدريد أنه يضيق بها، وأن من الأفضل لها أن تبتعد عنه ولا تزعجه بعد ذلك.

قال رامزدن لفيليب:

كان هذا هو الحل الوحيد الذى استطاعه جريفث بعد أن أصبحت المسألة شديدة التعقيد.

وسأل فيليب :

– إذن قد انتهى كل ما كان بينهما ؟

– لم يرها منذ عشرة أيام وأنت تعلم أن هارى ذى قدرة عجيبة على التخلص من الناس وقد كانت هذه آخر مشكلة لابد له أن يتخلص منها وقد تخلص منها فعلا وانتهى الأمر.

وبعد ذلك لم يسمع فيليب شيئا قط عنها فقد تلاشت الكتل البشرية الهائلة التي يضمها تعداد مدينة لندن.

وفي الربيع وبعد أن انتهى فيليب من عملهفى العيادة الخارجية أسند إليه عمل كاتبفى العيادة الداخلية. واستمرفى هذا المنصب ستة شهور. وكان من عمل الكاتب أن يقضي الصباح كلهفى عنابر المرضي :فى عنابر الرجال أولا ثمفى عنابر السيدات مع طبيب الامتياز، يدون الحالات ويقوم بعمل الاختبارات ثم يقضي بقية اليوم مع الممرضات. وفي بعد الظهر من يومينفى الأسبوع يمر الطبيب المنوب مع فريق من الطلبة يفحص الحالات ويلقي التعليمات وكان هذا العمل خاليا من روح الإثارة والتغير الدائم والاتصال الصحيح بعالم الحقيقة والواقع كما هو الحالفى قسم العيادة الخارجية ولكن فيليب اكتسب قسطا كبيرا من المعرفة وكانت علاقة فيليب بالمرضي أحسن ما يكون، وقد اغتبط بما يراه على وجوههم من علائم السرور والبشر عند قيامه بالإشراف عليهم ولم يكن يحس بعطف شديد على آلامهم ولكنه كان يميل إليهم وإذ لم يكن متصنعافى مسلكه فقد كان محبوبا من المرضي أكثر من غيره.

وكان لطفيا مشجعا وصديقا للجميع وقد وجد فيليب، كما وجد غيره ممن يتصل عمله بالمضى، إن التفاهم مع المرضى الذكور أسهل بكثير من التفاهم مع المرضي الإناث. فالإناث دائما متذمرات، غاضبات دائمات الشكوى من الممرضات المجهدات اللائى لم يولينهن العناية التي يرين أنها من حقهن وكن متعبات غير شاكرات غير مهذبات.

وسرعان ما أسعد الحظ فيليب فوجد صديقا فقد عهد إليه نائب القسم فى صباح أحد الأيام بفحص حالة جديدة، حالة رجل. وجلس فيليب على سرير هذا الرجل وبدأ يملأ «الصحيفة الخاصة

بمرضه» وقد لاحظ فيليب وهو يملأ الصحيفة أن مهنة الرجل كانت الصحافة وكان اسمه
إثلني، ومثل هذا الرجل يعتبر زائرا غير عادى للمستشفي وكان عمر هذا الصحفي ثمانية و
عاما ويشكو الرجل أزمة من أزمات مرض اليرقان وقد أدخل إلى المستشفي بسبب وجود أ
غير معروفة للمرض كان من الضرورى تتبعها ومراقبتها. وقد أجاب الصحفي المريض
الأسئلة المختلفة التي وجهها إليه فيليبفى صوت مهذب لطيف. وكان من الصعب أن يعر
الرجل طويل أو قصير لأنه كان مستلقيا فى الفراش ولكن رأسه الصغير ويديه الصغيرتين
تدل على أنه دون متوسط الطول وكان من عادة فيليب أن يفحص يدى المريض، وقد أثا
اثلني دهشته. فقد كانتا صغيرين، ذواتي أصابع مستدقة الطرف طويلة تنتهي بأظافر
جميلة. وكانت يدا الرجل ناعمتين جدا ولولا مرض اليرقان لكانتا بيضاوين بياضا يثير ال
وكان المريض يضعهما خارج الغطاء، إحداهما مبسوطة قليلا بينما كان اصبعاها ا
والثالثة ملتصقين معا ولاحظ فيليب أثناء كلام الصحفي معه أنه كان يتأملهافى رضي وا
وقد نظر فيليب إلي وجه الرجل فظهر له رغم الاصفرار الذى علاه وجها متميزا عن غي
الوجوه : كانت له عينان زرقاوان وأنف أشم، ولكنه ليس أخرق ولحيته صغيرة مستدقة
وكان الرجل أصلع تقريبا:
ولكنه كان واضحا أن شعره كان جميلا جدا، متثنيا طريفا.

قال فيليب :

– أرى أنك صحفي. فلأى صحيفة تكتب؟

– أكتب لجميع الصحف. لا تكاد تفتح صحيفة دون أن تجد شيئا من كتابتي.

وكانت هناك صحيفة بجانب الفراش وعندما أحضرت له أشار إلى إعلان فيها. وكان ال
مكتوبا بحروف كبيرة عن مؤسسة معروفة جدا لفيليب، هي مؤسسة «لين وسدلي»فى
«ريجنت» بلندن وكان مكتوبا، تحت اسم المؤسسة وبخط أصغر وإن كان كبيرا نوعا، هذه ا
الجازمة التسويف مضيعة للوقت وبعدها سؤال مدهش لمعقوليته: لماذا لا تسارع بالطلب
وقد تكرر السؤالفى حروف كبيرة كواخزات الضميرفى قلب قاتل: لم لا؟ وبعدها بكل قوة
الأزواج من القفازات من أشهر الأسواق العالمية بأسعار مذهلة. آلاف الأزواج من الجوار
أشهر مصانع العالم الموثوق فيها بتخفيض هائل، وأخيرا يظهر السؤال مرة ثانية كأن
للبروان. لماذا لا تسارع بالطلب اليوم؟

– أنا المندوب الصحفي لمؤسسة لين وسدلي.

قالها إثلني وهو يهز يديه الجميلتين قليلا. وزاد عليها قوله:

– ألا ما أحقر العمل..!

واستمر فيليب فى توجيه الأسئلة التقليدية التي يكون بعضها عاديا رتيبا محضا وا
الآخر يقصد به إلى اكتشاف معلومات يحرص المريض على إخفائها.

سأله فيليب:

– هل عشت في الخارج يوما ما ؟
– قضيت في أسبانيا إحدى عشر سنة..
– وماذا كنت تعمل هناك؟
– كنت أمين شركة المياه الإنجليزية في طليطلة.

وقد أثارته أجابه الصحفي فجعله ينظر إليه باهتمام. ولكن فيليب وجد من غير اللائق إظهار هذه الحقيقة. فقد كان من الضروري الاحتفاظ بالتباعد الموجود بين مرضي المستشفي وبين الهيئة العاملة فيه. ولما انتهى فيليب من فحصه انتقل إلى غيره من المرضي.

ولم يكن مرض ثورب إثلني بالخطر. فرغم الاصفرار العظيم فقد شعر بالتحسن. ولم يبق بالمستشفي إلا لأن الطبيب كان يرى بقاءه تحت الملاحظة حتى تصبح بعض الأعراض طبيعية. وقد ازدادت معرفة فيليب بالصحفي خلال الأيام القليلة التي تلت دخول الصحفي المستشفي وأثناء اللحظات التي كان يختلسها فيليب من وقته كلما سنحت له فرصة وكان الصحفي محدثا لبقا. لم يكن يقول أشياء هامة ولكنه كان يتكلم بحيوية حماسية تلهب خيال فيليب وإذ كان فيليب قد عاش طويلا في عالم الرياء والتكلف فقد وجد خياله قد اكتظ بالصورة الجديدة. وكان أثلني على خلق حميد جدا، ويعرف أكثر مما يعرفه فيليب عن الحياة وعن الكتب كما كان أكبر منه سنا. وقد وهبه حسن استعداده للكلام والمحادثة نوعا من السمو ولكنه كان بالمستشفي يلتمس الخير والرحمة خاضعا للقواعد الصارمة الدقيقة، وقد استطاع أن يوفق بين الحالين في يسر وبروح مرحة وقد سأله فيليب ذات مرة لماذا أتي إلى المستشفي.

وأجاب إثلني :

– إن المبدأ الذى أسير عليه أن أستفيد من الخدمات التي يقدمها المجتمع.

– وأن أجني فوائد الزمن الذى أعيش فيه فإذا مرضت طلبت الشفاء في المستشفي دون أن أشعر بخجل زائف، وأرسل أبنائي إلى التعلم في المدارس الداخلية.

وسأله فيليب :

– أحق هذا؟

وهم يحصلون على تعليم أفضل بكثير مما حصلت عليه أنا شخصيا في ونشستر كيف تظن أني أستطيع تعليم أطفالي كلهم بغير هذه الطريقة؟ أن عندى تسعة منهم يجب أن تحضر لتراهم جميعا عندما أعود إلى المنزل هل تحضر؟

وقال فيليب:

– ليس أدعي لسرورى من هذا.

وشفي ثورب أثلني تماما بعد عشرة أيام وأصبح في استطاعته أن يغادر المستشفي وأعطي عنوانه لفيليب فوعده أن يتعشى عنده يوم الأحد التالي وكان أثلني قد أخبر فيليب أنه يسكن في منزل بناحية «أينجو جو نس» وكان يهذر ويمزح كما أعتاد أن يهزر ويمزح دائما وما ذهب ليفتح الباب لفيليب حتى جعله في الحال يعجب بالحفر الأنيق الموجود بشرفة الباب، وكان شكل المنزل

مهوشا في حاجة إلى طلاء ولكنه ما زال يحتفظ بعظمة الفترة التي بني فيها وكان يقع في شارع صغير بين «شاترى لين» و هولبورنس، وكان يوما من الأيام من الأحياء الحديثة الطراز ولكنه الآن لا يزيد على أى حي في الأحياء القذرة الحقيرة، وقد كانت هناك فكرة لهدم هذا المنزل وإقامة مكاتب جميلة مكانه وخاصة أن ايجاره كان رخيصا. إثلني استطاع أن يستأجر الطابقين العلويين بإيجار يتفق ودخله ولم يكن فيليب قد رأى إثلني واقفا من قبل ولذلك أدهشه صغر حجمه إذ لم يزد طوله على خمس أقدام وخمس بوصات وكان إثلني يلبس سراويل من التيل الأزرق من ذلك النوع الذى يلبسه العمال في فرنسا وسترة قديمة جدا من القطيفة البنية كما كان يرتدى «يتمنطق» بشريط أحمر فاتح حول وسطه وياقة منخفضة وربطة عنق من ذلك النوع الذي يلبسه المهرجون الفرنسيون الذين تظهر صورهم على صفحات مجلة «بانش» وحيا إثلني فيليب في حماس. وبدأ يتحدث في الحال عن المنزل وهو يمر بيده في حنان على حاجز السلم.

انظر إليه، تلمسه أنه كالحرير.. إنه معجزة من معجزات الرشاقة.. ومع هذا فبعد خمس سنوات سيبيعه الهدام ليكون طعاما للنيران وأصر إثلني على أن يأخذ فيليب إلى حجرة بالطبقة الأولى حيث كان رجلا يلبس قميصا وامرأة وثلاثة أطفال، يتناولون عشاء يوم الأحد.

قال إثلني للرجل:

– لقد أحضرت معي هذا السيد لاريه سقفكم. هل رأيت في حياتك أعجب منه؟

وكيف حالك يامستر هوجسن؟ هذا مستر كارى الذى كان يعتني بي يوم أم كنت بالمستشفي.

وقال الرجل:

– تفضل يا سيدى. إني أرحب بأصدقاء مستر أثلني. أن مستر اثلني يرى السقف لكل أصدقائه ولا يهمه ماذا تعمل وقتها. لا يهمه أن تكون في الفراش أو أن تكون في الحمام للاغتسال فهو يدخل على أى حال. واستطاع فيليب أن يعرف أنهم يعتبرون أثلني شاذا نوعا ما ولكنهم رغم هذا يحبونه ويصغون إليه مشدوهين وهو يتحدث إليهم بطلاقته المعهودة عن جمال سقوف القرن السابع عشر.

– أى جريمة يمكن أن ترتكب بهدم هذا السقف أليس كذلك يا هو جسن؟ إنك مواطن ذو نفوذ فلماذا لا تكتب إلى الصحف محتجا؟

وقال هو جسن لفيليب :

– إن مستر أثلني يردد مزحته الصغيرة يقولون أن هذه المنازل غير صحية وأن.. السكن فيها مأمون.. لعنة الله على الصحة.. الفن هو المهم. إن عندى تسعة أطفال يعيشون فيه رغم حالة المجارى السيئة. كلا، كلا، ليس معني هذا أن هناك خطرا لا أريد أن أتبنى أحد أفكارك الحديثة فعندما أنتقل من هذا النزل سأتأكد من أن المجارى فاسدة قبل أن أسكنه.

ودق الباب وفتحته فتاة صغيرة ذات شعر أشقر.

– بابا، مامي تقول لك حسبك ثرثرة وتعال معي لتناول عشائك.

قال إثلني مشيرا إليها بإصبعه السبابة حركة تمثيلية:

– هذه ابنتي الثالثة واسمها «ماريا دبلار» ولكننا نفضل أن نناديها باسم جين. جين نظفي أنفك.

– ليس معي منديل يا بابا.

– صه صه يا بنية ولماذا خلق الله لنا أصابع إذن؟

قال إثلني هذا وهو يخرج منديلا كبيرا من جيبه لا بنته.

وصعد فيليب معه إلى الدور العلوى ودخل حجرة ذات وزرة من خشب البلوط.فى وسطها منضدة من خشب الساج لها عمادتان من الحديد. كان المفروض أن يتعشيا عليها فقد أعدت لاثنين ووضع كرسيان أمامها لكل كرسي منهما ذراعان عريضا ومستويان من البلوط وظهر كل منهما من الجلد وكذلك المقعد.مكان الكرسيان قاسيين وغير مريحين.ولم يكن بالغرفة من الأثاث بعد ذلك إلا الشيء القليل وعلي الجدران كانت صور الفنانين القدامى من رجال المدرسة الأسبانية والتصوير موضوعةفى إطارات جميلة وإن كانت محطمة. ولم يكن هناك شىء ذو قيمةفى الحجرة ولكن التأثير الذى أحدثته كان محببا. كانت عظيمة مع أنها قديمة وشعر فيليب أنها تعطي الروح الأسبانية الحقة.

وفي أثناء ما كان أثلني يتحدث مع فيليب دخلت طفلة طويلة ذات غديرتين من الشعر البني الجميل المدعى خلفها، وقالت:

– تقول أمي أن العشاء معد وينتظر وسأحضره بمجرد جلوسكما. واستدار أثلني إلى فيليب وقال للطفلة:

– تعالي يا سالى صافحي مستر كارى.

ثم قال لفيليب :

– أليست عظيمة أنها كبرى بناتي كم عمرك يا سالى؟

– خمسة عشر عاما،فى شهر يونية القادم.

– عمدتها باسم ماريا دل سول لأنها كانت أول طفل رزقته وأهديتها لشمس قشتالة المجيد ولكن أمها تدعوها سالى وأخوها يدعوها «وجه البودنج».

وضحكت الفتاةفى خجل وظهرت أسنانها بيضاء مستوية وأحمر وجهها وكان شكلها متناسقا وأطول مما تؤهلها له سنها وعيناها عسليتان جميلتان وجبهتها عريضة ووجنتاها حمراوان.

– اذهبي وقولي لأمك أن تحضر لتصافح مستر كارى قبل أن يجلس.

– أمي تقول أنها ستحضر بعد العشاء فهي لم تغتسل بعد.

– إذن سنذهب لنراها نحن. فلا ينبغي أن يأكل بودنج يوركشير قبل أن يصافح اليد التى صنعتها.

وسار فيليبفى إثر مضيفه إلى المطبخ وكان المطبخ صغيرا ومزدحما للغاية وكانت فيه ضجة كبيرة ولكنها خفت بمجرد أن دخل الرجل الغريب وكانت بوسط المطبخ مائدة كبيرة جلس

حولها أطفال أثلني متأهبين للعشاء وعند الفرن كانت تقف سيدة تأخذ البطاطس المشوية الواحدة بعد الأخرى.

وقال إثلني :

– هذا هو مستر كارى يابنتي.

– وأتيت به إلى هنا؟ ماذا يظن بنا؟

وكانت ترتدى ميدعة قذرة وكانت كما ردائها القطني مرفوعين إلى مرفقيها وكان بشعرها بعض الدبابيس تلويه بها. وكانت مسز أثلني سيدة كبيرة الجسم أطول من زوجها بثلاث بوصات جميلة ذات عينين زرقاوين ومنظر وديع لقد كانتفى شبابها مخلوقا رشيقا. ولكن تقدم السن وحملها مثل هذا العدد من الأطفال جعلها سمينة ومكتنزة وشحبت عيناها الزرقاوان، واخشوشن جلدها واحمر وذهب لون شعرها واعتدلت مسز أثلني ثم مسحت يديهافى ميدعتها ومدتهما وقالتفى صوت خفيض وبنبرة بدت مألوفة لفيليب ،

– مرحبا بك يا سيدى لقد قال أثلني أنك كنت عطوفا عليهفى المستشفي.

وقال إثلني لفيليب :

– والآن يجب أن أقدمك إلى بقية النسل هذا ثورب.. (وأشار إلى طفل مكور ذى شعر مجعد) أنه أكبر الصبيان وارث اللقب والأملاك وتبعات الأسرة وهؤلاء اثليستان وأدوار وهارولد (وأشار بسبابته إلى أطفال ثلاثة صغار كلهم من ذوى اللون الوردى وعليهم مظاهر الصحة وتعلو وجوههم الابتسامات بالرغم من أنهم نظروافى خجل إلى صحونهم عندما شعروا بعيني فيليب تبتسمان لهم) والآن البنات بالترتيب ماريا وسول.

قال أحد الأولاد الصغار:

– وجه البودنج.

وقال إثلني:

– إن روح المزاح فيك بدائية يابني ماريا دلوس مرسيدس، ماريا ول بيلار، وماريا دلا كتسبشن، ماريا روزا ريو.

وقالت مسز إثلني:

– أنا أدعوهم سالى مولي كوني، روزى، جين، والآن أذهب يااثلني إلى حجرتك وسأرسل لكما العشاء وسأدع الأطفال يدخلون عليكما بعد ذلك لفترة قصيرة بعد أن يغتسلوا.

– يا عزيزتي لو كان لي أن أسمي على طريقتك لدعوتك ماريا رغوة الصابون فإنك دائما تعذبين هذه المخلوقات المسكينة بالصابون.

أذهب أولا يامستر كارى، وإلا لن أستطيع أن أجعله يجلس لتناول العشاء.

وألقي إثلني وفيليب نفسيهما على الكرسيين العتيقين وأحضرت لهما سالى طبقين من لحم العجول وبودنج يوركشير والبطاطس المحمرة والكرنب. وأخرج اثلني قطعه من ذات الستة البنسات من جيبه وأرسل سالى تشترى بها أبريقا من الجعة.

وقال فيليب:

– آمل ألا تكون قد أعددت المائدة هنا من أجلي. لقد كان يسعدني أن أتعشي مع الأطفال.

– كلا. فإني دائما أتناول وجباتي وحيدا. فأنا أحب تلك العادات القديمة. ولا أوافق على أن تجلس السيدات إلى مائدة واحدة مع الرجال. أن ذلك يفسد الحديث وأني متأكد أن هذا ليس من صالحهن إنه يملأ رؤوسهن بالأفكار. والنساء لا يسترحن مطلقا إذا كانت لهن أفكار. وأكل كل من المضيف والضيف بشهية كبيرة.

– هل ذقتفى حياتك مثل هذه البودنج إلى وركشيرية ؟ لا أحد غير زوجتي يستطيع صنعها هكذا. وهذه ميزة من ميزات عدم زواج المرء من سيدة. لقد لا حظت أنها ليست سيدة أليس كذلك؟

وكان هذا سؤالا محرجا ولم يستطع فيليب الرد عليه.

وقال فيليبفى تعثر:

– لم أفكرفى هذا.

وضحك إثلني وكانت له ضحكة مرحة خاصة. وقال:

– كلا إنها ليست سيدة ولا أى شيء من هذا القبيل فأبوها كان مزارعا، ولم تضايق نفسها يوما بأصول آداب المجالس، وقد ولد لنا اثنا عشر طفلا عاش منهم تسعة وطلبت منها أن تكتفي بهذا العدد ولكنها امرأة عنيدة ولا زالت تحمل حتى الآن. ولا أعتقد أنها ستقتنع إلا إذا أوصلتهم إلى عشرين. وفي هذا اللحظة حضرت سالى بالجعة وبعد أن أفرغت كأسا لفيليب ذهبت إلى الجانب الآخر لتصب آخر لأبيها الذى وضع يده حول خصرها.

– هل رأيت مثل هذه الفتاة الرشيقة ؟ عمرها خمس عشرة وتشبه بنت العشرين. أنظر إلى وجنتها. أنها لم تعرف المرض يومافى حياتها وسيكون سعيدا ذلك الرجل الذى تكون من نصيبه، أليس كذلك يا سالى؟

واستمعت سالي إلى كل هذا بابتسامة بطيئة بسيطة، ولم تحرج، لأنها اعتادت نزوات أبيها ولكنها فعلت هذا بأدب واضح كان جذابا جدا.

قالت سالى وقد سحبت نفسها بعيدا عن ذراع أبيها:

– لا تدع عشاءك يبرد وناديني عندما تريد البودنج هل تسمح؟

وبقي فيليب مع إثلني وحدهما ورفع إثلني قدح الشراب إلى شفتيه وشرب طويلا.

قال إثلني:

– بالله عليك هل وجدت خيرا من الجعة الإنجليزية ؟ فلنشكر الله على هذه المتع الصغيرة لحم العجل المشوى وبودنج الأرز الشهية المفتوحة مع الجعة. لقد تزوجت مرة سيدة ياإلهي! لا تتزوج سيدة يا بني.

وضحك فيليب فقد سره المنظر، الرجل الصغيرفى ملابسه العجيبة والحجرة ذات الوزرة والأثاث الأسباني والطعام الإنجليزى لقد كان المنظر ممتعا بديعافى غير تناسقه.

– أتضحك يابني. لا تستطيع أن تتصور الزواج ممن هي أقل منك. فأنت تريد زوجة تكا في عقليتها. فتكتظ رأسك بالافكار عن الزمالة والصداقة، ذلك حشو وهراء يا ولدى. ليس الرجل حاجة إلى زوجة يتحدث إليهافى السياسة وماذا يهمني من آراء حتيفى حساب التك والتفاصيل. إنهفى حاجة إلى زوجة تعرف كيف تطبخ طعامه وتعتني بأطفاله لقد جربت الحا وعرفتهما دعنا نأتي البودنج.

وصفق أثلني بيديه فحضرت سالى. وعندما أزاحت الأطباق والصحون، أراد فيليب أن ينه ليساعدها ولكن أثلني منعه من ذلك:

– دعها وحدها يا بني أنها لا تحب أن تقوم من مكانك أليس كذلك يا سالى؟

ولن تعتبر جلوسك هنا ساكنا أثناء خدمتك غلطة منك فإنها لا تهتم بآداب الفروسية أل كذلك يا سالى؟

قالت سالى في رصانة وحشمة:

– لا يا أبي..

– هل تعرفين عم أتكلم يا سالى؟

كلا يا أبي ولكنك تعلم أن أمي لا تحب أن تسمع منك سبابا.

وضحك أثلني بقوة. وأحضرت سالى أطباق بود نج الأرز الدسمة ذات القشدة اللذيذة وها إثلني طبقه بشراهة.

– من تقاليد هذا البيت أن عشاء يوم الأحد لا يتغير أبدا. إنه مقدس كالطقوس الدينية. ش من لحم البقر، بود نج أرز يتكرر خمسين أسبوعافى العام. وفي يوم عيد الفصح حمل وبـ خضراء، وفي عيد سانت ميشيل –٢٩ سبتمبر–، أوزة مشوية وتفاح. وبهذا نحافظ على تقا قومنا. وعندما تتزوج سالي ستنسي كثيرا من الأشياء المعقولة التي علمتها إياها، ولكنها تنسي أنه إذا أراد المرء أن يعيش سعيدا موفقا فعليه أن يأكل شواء لحم العجل وبودنج الأرزفى ي الأحد.

قالت سالى دون أن تتأثر:

– ناديني عندما تريد الجبن.

وسأل إثلني فيليب :

– هل تعرف أسطورة الطائر المسمي كينجز الصياد؟

وكان فيليب قد أخذ يعتاد انتقال أثلني السريع من موضوع إلى آخر قال إثلني:

– عندما تخور قوى كينجز الصياد أثناء طيرانه فوق البحر تضع أنثاه نفسها تحته وتح فوق جناحيها القويين. وهذا ما يريده الرجل من الزوجة أن تكون زوجة ملك صياد. لقد عشت زوجتي الأولي ثلاث سنوات، وكانت سيدة ذات دخل يبلغ ألف جنيه وخمسمائةفى العام واعت إقامة حفلات عشاء جميلةفى بيتنا الصغير ذى الواجهة المصنوعة من الأجر الأحمر كينسنجتون وكانت ساحرة. كما كان الجميع يقولون وكان المحامون وزوجاتهم يتعشون مـ

وكذلك السماسرة ورجال السياسة الناشئون. أوه لقد كانت فاتنة وكانت تحتم على الذهاب إلى الكنيسةفى قبعة حريرية وحلة السهرة وتصحبني إلى الحفلات الموسيقية الكلاسيكية، وكانت جد مغرمة بالمحاضرات بعد ظهر يوم الأحد. وكانت تتناول طعام إفطارها كل يومفى الثامنة والنصف ولو تأخرت فسيبرد الأكل. وكانت تقرأ الكتب الصحيحة وتعجب باللوحات الصحيحة وتعبد الموسيقي الصحيحة. يا إلهي، كم ضايقتني تلك المرأة.. أنها لا زالت فاتنة، ولازالت تسكنفى البيت الصغير الأحمرفى كينسنجتون مع أوراق موريس وصور هويسلر على الحائط ولازالت تعد حفلات العشاء الجميلة الصغيرة حيث تقدم قشدة اللحم البقرة ومثلجات جنتر الشهيرة كما كانت تفعل منذ عشرين عاما.

ولم يسأل فيليب كيف افترق الزوجان غير المتوافقين ولكن إثلني أخبره بذلك فقال:

– إن بتي ليست زوجتي، فزوجتي لم تطلقني، أما الأطفال فغير شرعيين كل منهم من أب وماذا يضيرها من هذا ؟ فقد كانت بتي إحدى الخادماتفى البيت الصغير الأحمر القائمفى كينسنجتون ومنذ سنوات أربع أو خمس.

كنت فى حالة عوز شديد، وكان عندى من الأطفال سبعة وذهبت إلى زوجتي وطلبت إليها المساعدة. ووعدت بعطائي مصروفا خاصا لو هجرت بتي وسافرت إلى الخارج.. لم أتصور هجراني لبتي، تضورنا جوعا بدلا من ذلك وقتا ما.

وكانت زوجتي تقول إنني أحب ضيق الرزق والحق أني انحدرت إلى الدرك الأسفل. إني اكتسب اليوم ثلاثة جنيات فى الأسبوع من عملي مندوبا صحفيا لمحل تجارة أقمشة تيلية وأني لأشكر الله على أنني لستفى المنزل الصغير الأحمرفى كينسنجتون.

وأحضرت سالى الجبن واستمر أثلنيفى حديثة الطلق:

إن أكبر خطأفى العالم أن يعتقد الإنسان أنهفى حاجة إلى النقود لإعالة أسرة. فأنت تريد النقود لتجعل منهم سادة وسيدات. ولكني لا أريد لأطفالي أن يكونوا سادة وسيدات فسالي ستكسب عيشها بعرق جبينها بعد عام. فستلحق بمحل حائكة للثياب لتتمرن عندها على العمل، أليس كذلك ياسالى؟ وسيعمل جميع الأولادفى خدمة وطنهم. فأنا أريد أن يلتحقوا جميعا بالبحرية، إنها حياة مرحة وصحية، طعام جيد، ومرتب ومعاش ينالونه إلى آخر أنها حياتهم.

وأشعل فيليب غليونه. ودخن إثلني لفافة من تبغ هافانا لفها بيديه. وخرجت سالى من الحجرة كان فيليب متحفظافى حديثه. وقد أحرجه أن يكون محلا لكل هذه الثقة. وكان إثلني بصوته القوىفى جسمه الضئيل وبشقشقته وبنظراته الغريبة وبتأكيداته. كان بهذا كله مخلوقا مدهشا. كما كان معتزا بأسرته الريفية. وقد أطلع فيليب على صور لبيت من العهد اليصاباتي وقال له:

– لقد عاشت أسرة إثلني هناك سبعة قرون يابني. آه لو رأيت المداخن والسقوف.

وكان هناك صوان أخرج منه أثلني شجرة الأسرة وأراها لفيليب بنظرة رضي كالأطفال وكانت رائعة فعلا. وعلق أثلني عليها بقوله:

– إنك ترى أن أسماء الأسرة تتكرر فهي ثورب، إثلستان، وهارولد، وإدوار، وهي الأسماء التي اتخذتها لأولادى، أما البنات فإنني كما ترى قد اخترت لهن أسماء أسبانية.

وطاف برأس فيليب شعور ممض بأنه من الممكن أن القصة التي سمعها من إثلني بأكملها لا تعدو أن تكون خدعة محكمة الوضع لم يكن يقصها بقصد سيىء بل لمجرد الرغبةفى التأثيرفى المستمع وإثارة دهشته وذهوله. لقد أخبره إثلني أنه كانفى ونشستر ولكن فيليب ذى الحساسية الشديدة لمختلف الأخلاق لم يشعر بأن مضيفه له ميزة من مميزات الرجل الذى تعلمفى مدرسة خاصة. وفي أثناء ما كان أثلني يشير إلى المصاهرات التي أقامها أسلافه، كان فيليب يسلي نفسه بالتساؤل هل كان أثلني أبن أحد تجار ونشتر أو تجار الفحم، وهل كان التشابهفى اسم الأسرة هو العلاقة الوحيدة بينه وبين الأسرة القديمة التي كان يطلع فيليب على شجرتها.

وسمع فيليب دقا على الباب ثم دخلت كتيبة من الأطفال. كانوا جميعا نظيفين ومرتبين تلمع وجوههم من الصابون وكانت شعورهم مرسلة، فقد كانوا ذاهبين إلى مدرسة الأحدفى رعاية سالى. وأخذ أثلني يمزح معهم على طريقته التمثيلية العزيزة. وكنت ترى أنه متعلق بهم جمعيا. وكان اعتزازه بصحتهم الجيدة ومظهرهم الحسن مؤثرا. وشعر فيليب انهم خجلونفى حضرته ولما سمح لهم أبوهم بالخروج تسللوا من الحجرة وكأنهم تخلصوا من واجب ثقيل قاس. وبعد قليل ظهرت السيدة إثلني وقد خلصت شعرها من الدبابيس التي تلويه وارتدت ثوبا أسود بسيطا وقبعة تزينها زهور رخيصة. وكانت تحاول بقوة إدخال يديها الحمراوين الخشنتين بسبب العمل الكثير فى قفاز أسود من جلد الماعز.

قالت السيدة إثلني:

– إنى ذاهبة إلى الكنيسة ياإثلني. ليس لديك ما تريده مني. أليس كذلك؟

– دعواتك فقط يا عزيزتي بتي.

– لن تفيدك دعواتي كثيرا، فأنت بعيد جدا عن الخير.

وابتسمت السيدة، ثم التفتت إلى فيليب وقالت:

– لست أستطيع حمله على الذهاب إلى الكنيسة. إنه ليس خيرا من الملحدين.

وقال إثلني:

– ألا تشبه زوجة روبين الثانية؟ ألا تكون فاتنة لو أنها لبست لباس القرن السابع عشر. إنها من النوع الذى يجب أن يتزوجه الإنسان يابني انظر إليها.

وقالت السيدةفى هدوء:

– إنك كثير الكلام يا إثلني.

ونجحت مسز إثلني فى أحكام أزرار قفازها وقبل أن تغادرهما، التفتت إلى فيليب بابتسامة رقيقة ولكنها مرتبكة نوعا ما وقالت له:

– ستبقى حتى موعد الشاى، أليس كذلك ؟ أن أثلنى يريد شخصا يتكلم معه.. ولا يوجدفى الغالب شخصا ماهرا مثلك.

وقال إثلني .

– طبعا، سيبقى حتى موعد الشاى.

وما أن خرجت زوجة حتى قال :

– إنى أهتم بأن يذهب الأطفال إلى مدرسة الأحد، وأحب أن تذهب بتي إلى الكنيسة. لأني أعتقد أن السيدات ينبغي أن يكن متدينات. أنى لست أومن شخصيا، ولكنى أحب أن يؤمن النسا والأطفال.

ولم يفارق فيليب أسرة إثلني حتى الساعة العاشرة، ولقد ألقى الأطفال عليهم تحية المساء في الثامنة وكان طبيعيا جدا أن يتقدموا بوجوههم إلى فيليب ليقبلها. وتعلق بهم قلبه. أما سال فاكتفت بمد يدها له لتصافحه.

وقال أبوها :

– إن سالى لاتقبل أحدا أبدا إلا بعد أن تراه مرتين.

وقال فيليب :

– إذن عليك أن تدعوني مرة أخرى.

وقالت سالى في ابتسامة :

– لا تهتم بما يقوله أبى.

وأضاف والدها قائلا :

– إنها شابة قوية الشخصية إلى حد كبير.

وتناولا عشاء من العيش والجبن والجعة بينما كانت مسز إثلني تضع الأطفال فى فراشه وعندما ذهب إليها فيليب فى المطبخ ليحييها وكانت بتي جالسة هناك، تريح نفسها وتق صحيفة ويكلي ديسباتش دعته بإخلاص لزيارة ثانية.

وقالت :

– ستجد عندنا دائما طعاما طيبا يوم الأحد، ما دام إثلني يعمل، وإنك لتفعل خيرا إن أت لتتحدث معه.

وقد وصلت إلى فيليب بطاقة من إثلني يوم السبت تقول بأنهم ينتظرونه على العشاء فى ال التالي. ولكن فيليب كان يخشى ألا تكون مواردهم كافية بحيث تمكنهم من ذلك. فرد عليهم ب يقبل الحضور لتناول الشاى فحسب.

واشترى فيليب كعكة كبيرة محشوة بالبرقوق حتى لا يكلفهم حضوره شيئا. ووجد أن الأ بأكملها فرحة لقدومه وحققت الكعكة غزوه لقلوب الصغار. وأصر فيليب على أن يتناول الج الشاى سويا فى المطبخ. وكانت الأكلة صاخبة ومفرحة وسرعان ما أصبح من عادة فيليب يذهب إلى أسرة إثلني كل أحد كما أصبح معبود الأطفال، لأنه كان بسيطا غير متكلف، ولأنه ات لهم أنه مولع بهم. وكانوا عندما يسمعونه يدق جرس الباب يجرى الواحد منهم ويطل برأسه الشباك ليتأكد من أنه هو. وعندها يندفعون جميعا ليفتحوا له الباب. ثم يرتمون فى أحضا

وعند تناول الشاى يتشاجرون للحصول على امتياز الجلوس إلى جانبه. وسرعان ما بدأ عليه اسم «العم فيليب».

وكان إثلني ممن لا يحتفظون كثيرا بالسر. وقد عرف فيليب مراحل حياته المختلفة فقد اشتغل بعدة مهن. وفهم فيليب أن إثلني لم يفلح فى كل محاولة حاولها. فقد عمل ف للشاى فى سيلان، ومندوبا منتقلا فى أمريكا لبيع النبيذ الإيطالى، وعلم فيليب كذلك أمينا لشركة المياه فى طليطلة، وكانت تلك أطول مدة قضاها فى عمل ما. واشتغل بـ فعمل فترة من الزمن مندوبا فى دوائر الشرطة والقضاء لصحيفة مسائية. وكان مساع تحرير صحيفة فى ميدلاند ثم رئيسا لتحرير صحيفة أخرى فى الريفيرا، وقد جمع إثلن الأعمال التي قام بها قصصا مسلية كان يقصها فى لذة أكيدة وبقدرته العجيبة عل وإدخال السرور على سامعيه.

وقد قرأ الكثير وخاصة الكتب غير المتداولة. وقد أخذ يصب ما اختزنه من معلومات «عسرة الفهم» ويستمتع كما يستمتع الأطفال بدهشة سامعيه. ولقد دفعته حاجته وفقره وظيفة مندوب إعلانات لمؤسسة كبيرة للأقمشة، بالرغم من شعوره بأن هذا العمل لا ي موهبته التي يقدرها تقديرا عاليا جدا، إلا أن حزم زوجته وحاجة أسرته قد جعلاه يحتف

وبعد أن غادر فيليب منزل آل إثلني، سار فى شارع «تشانسرى لين» ثم سار على طو ستراند، ليستقل السيارة العامة من ناصية شارع البرلمان.

• • •

وحدث ذات يوم أحد. بعد أن عرف هذه الأسرة بستة أسابيع أن قام بهذه الجولة ك ولكنه وجد أن سيارة شارع كينسنجتون كاملة العدد. كان ذلك فى شهر يونية، ولكن أمطرت أثناء النهار وكانت الليلة باردة. وسار فيليب إلى ميدان بيكاديللى لعله يجد مقعد وجد السيارة العامة تنتظر عند النافورة، وعندما وصلت لم يكن بها إلا شخصان أ أشخاص. وكانت الخدمة مستمرة كل ربع ساعة، فكان لديه متسع من الوقت للانتظا فيليب فى كسل إلى الجمهور. كانت المحال تستعد لكى تغلق أبوابها، والشارع مزدحما ب وكان ذهنه مشغولا بالأفكار التي تفتقت عنها موهبة إثلني الساحرة.

و فجأة كف قلبه عن الخفقان، لقد رأى ميلدريد. لم يكن ذكراها قد جال فى خاط أسابيع. كانت تعبر الشارع من ناصية ناحية شافتسبيرى، ثم وقفت تحت واقية المطر ح سرب العربات، وكانت ترقب فرصة لعبور الشارع فلم تهتم برؤية ما عدا ذلك. و كانت ترتد عريضة سوداء من القش تزينها كمية من الريش و ثوبا من الحرير الأسود.

وكان من الأناقة فى تلك الأيام أن يكون للرداء ذيل طويل.

ولما أصبح الطريق خاليا أمامها عبرته و ذيل ردائها يصل إلى أرض الشارع و سارت ميلدريد إلى شارع بيكاديللى. و تبعها فيليب بقلب يخفقفى ثورة و لم يكن يرغبفى الكلام معها. و لكنه كان يتساءل أين تذهبفى مثل هذه الساعة و كان يريد أن يلقى نظرة على وجهها. وواصلت هي السير فى بطء، ثم اتجهت إلى شارع أير وبهذا أصبحتفى شارع ريجنت. و سارت بعد ذلك مرة أخرى نحو الميدان. و حير هذا فيليب لأنه لم يستطع أن يفهم قصدها. ترى هل تنتظر أحدا من الناس، و دفعه حب الاستطلاع إلى محاولة معرفة من يكون هذا الشخص و رآها تلحق برجل قصير يلبس قبعة على شكل مستدير كبيرة، و كان يسيرفى نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه.

وألقت ميلدريد على الرجل نظرة جانبية عندما مر بها. ثم سارت خطوات قليلة حتى وصلت محلات «سوان وإدجار»، و عندئذ وقفت و انتظرت و هي تواجه الطريق و عندما وصل الرجل إلى حيث كانت تقف ابتسمت له ونظر إليها الرجل لحظة فى تفرس فيها ثم استدار وسار. وعندئذ فهم فيليب كل شيء.

وغشيه الفزع، و بعد لحظة شعر بأنه أصبح من الضعف بحيث لم تعد رجلاه تقوي على حمله. و سار خلفها بسرعة و لمس ذراعها بيده و صاح:

– ميلدريد!

واستدارتفى رجفة عنيفة. و ظن فيليب أن وجهها قد علاه الاحمرار.

و لكنه لم يستطع أن يحسن الرؤيةفى الظلام. و تطلع كل منهما الأخر مدة دون أن ينبس إحداهما ببنت شفة. و أخيرا قالت ميلدريد:

– تصور، أنى أراك ثانية.

ولم يدر فيليب بماذا يجيب، فقد كان مأخوذا لدرجة عظيمة. و قد أخذت العبارات يطارد بعضها بعضا فى ذهنه بشكل مريع. و أخيرا قال: كيف حالك ياميلدريد؟.

ولم تقل ميلدريد اكثر مما قالت، و استدارت بعيدا عنه ثم نظرت إلى الطوار. و أحس فيليب أن وجهها قد شوهه البوس. و قال لها:

– ألا يوجد مكان ما نستطيع الذهاب إليه لنتحدث فيه؟

و أجابتفى اكتئاب قائلة:

– لا أريد الكلام. دعني وشأني. هل تسمح؟

و خطر بذهنه أنها قد تكون فى حاجة ماسة إلى نقود، وليس معها ما تركب بهفى مثل هذه الساعة من الليل.

و قال فيليب لميلدريد و هو يتلعثم:

– معي جنيهان إن كنت فى حاجة إلى المال.

– لا أفهم قصدك. لقد كنت أسيرفى طريقي إلى سكني، وكنت أتوقع مقابلة إحدى الفتيات ممن يعملن معي.

وقال فيليب:

– بالله عليكى، لا تكذبي.

ورأى فيليب إنها تبكى. وأعاد عليها السؤال :

– هل نستطيع الذهاب إلى مكان ما لنتحدث معا؟ هل أستطيع العودة إلى مسكنك؟

وأجابت وهى تنتحب :

– كلا. لن نستطيع ذلك إذ لا يسمح بأخذ الشبان الرجال إلى هناك. فإن شئت قابلتك

وكان فيليب متأكدا من أنها لن تف بوعدها، ولم يكن ليتركها تذهب.

– كلا لا بد وأن أذهب معك إلى أى مكان ما الآن.

– توجد حجرة أعرف مكانها. ولكنهم سيتقاضون منك ست شلناتفى نظير ذلك.

– لا يهمني هذا. أين هي ؟

وأعطته ميلدريد العنوان، ونادى فيليب عربة وسارت بهما العربةفى شارع غير نظيف المتحف البريطاني بجوار شارع «جراى». وأوقفت ميلدريد العربة على الناصية ثم قالت:

– إنهم لا يريدون أن تقف العربة أمام الباب.

وكانت هذه أولى الكلمات التي قيلت منذ ركوبهما العربة. وسار فيليب وميلدريد ياردات قليلة حتى وصلا المنزل. ودقت ميلدريد الباب ثلاث دقات شديدة. ولاحظ فيليب ورقة مقواه مكتوب عليها أنفى الدار حجرات للإيجار. وانفتح الباب فى هدوء وأدخلتهم عجوز طويلة.

وحدجت فيليب بنظرها ثم تحدثت إلي ميلدريدفى نغمة خفيضة، وقادت ميلدريد فيليب أحد الممرات إلى حجرةفى الخلف وكان الظلام مخيما على المنزل، فسألته عن عود ثقاب، وأ مصباح الغاز. ولما لم يكن للمصباح غطاء فقد خرج منذ الغاز بقوة ووجد فيليب أنهفى قذرة، فيها طائفة من الأثاث طليت حتى تكون شبيهة بخشب البلوط وهي أكبر كثيرا مما ي الحجرة، أما ستائرها فقذرة جدا وكان الموقد مختفيا وراء مروحة كبيرة من الورق. وج ميلدريدفى أحد المقاعد بجانب المدفأة. بينما جلس فيليب على حافة السرير وهو يشعر بال ورأى لأول مرة وجنتي ميلدريد ملطختين بالدهان الأحمر أما حاجباها فكانا مزججان، منظرها لا زال نحيفا سقيما وقد ضاعف الأحمر الذى وضعته على وجنتيها من اخضرا بشرتها. ونظرت ميلدريد إلى المروحةفى إهمال. ولم يستطع فيليب التفكير فيما تقول، بغصةفى حلقه كما لو كان على وشك البكاء فغطي عينيه بيديه ثم قالفى أنين:

– يا إلهي. هذا مروع.

– لست أدرى علام هذه الضجة التي تقيمها. فقد كنت أعتقد أنك ستكون مسرورا.

ولم يجب فيليب وما هي إلا اللحظة حتى انفجرت ميلدريد تبكي:

– لعلك لا تظن أنني آتي هذا لأنني أحبه، هل تظن ذلك؟

أوه يا عزيزتي. أنا آسف. أنا آسف كل الأسف.

– هذا يتيح لي الكثير من الراحة النفسية.

ولم يجد فيليب مرة أخرى ما يقول. كان يخشى جدا أن يقول شيئا تجد فيه معني الإيلام أو السخرية وسألها أخيرا:

– أين الطفلة؟

– لقد أحضرتها معي إلى لندن. فلم يكن معي نقود أدفعها لحضانتهافى برايتون. ولهذا اضطررت أخذها. ولي حجرةفى طريق هابرى وقد أخبرتهم هناك أني أعملفى المسرح. والطريق طويل للوصول إلى: الوست إند كل يوم ولكن من النادر أن تجد من يؤجر سكنا للسيدات.

– ألا يرجعونك إلى المحل الذى كنت تعملين به؟

– لم أستطع الحصول على عملفى أى مكان. لقد حفيت قدماي من السير بحثا عن عمل. ولقد حصلت يوما على عمل، ولكني غبت عنه أسبوعا لأنني كنت متوعكة. وعندما عدت إليه قالوا إنهم لا يريدونني بعدئذ وليسفى وسعك أن تلومهم، أليس كذلك؟ فهذه الحال لا يمكن أن تعطي عملا لفتاة ضعيفة البنية مثلي.

وقال فيليب:

– مظهرك يدل على أنك متوعكة.

– لم أكن صالحة للخروج الليلة، ولكنني لم أستطع، فأنافى حاجة إلى نقود، ولقد كتبت إلى إميل أخبره أنني أصبحت محطمة، ولكنه لم يتكرم حتى بالرد على الخطاب.

– كان من واجبك أن تكتبي إلي.

– لم أرد أن أكتب إليك بعدما حدث. ولم أكن أود أن تعلم أننيفى ضائقة. وما كنت أدهش لو أنك قلت أنني أستحق ما أنا فيه من شقاء.

– إنك لا تعرفينني جيدا حتى الآن، أليس كذلك؟

وتذكرفى لحظة كل العذاب الذى قاساه بسببها، وضاق عندما استعاد ظروف هذا الألم ولكنها كانت استعادة لا أقل ولا أكثر. وقد عرف بعد أن نظر إليها أنه لم يعد يحبها، وإنما كان آسفا لما حدث لها وكان سعيدا لتحرره منها. وعندما راقبها فيليب باهتمام سأل نفسه لماذا كان مسلوب اللب هياما بها.

وقالت ميلدريد لفيليب :

– إنك إنسان مهذب بكل مافى هذه الكلمة من معني وأنت الرجل الحق الوحيد الذى قابلتهفى حياتي.

وصمتت برهة ثم احمر وجهها وقالت:

– إني أبغض أن أسألك يا فيليب ولكن هل لديك فضلة من المال تقدمها لي؟

– لحسن الحظ أن معي نقودا ولكني أخشى ألا يكون معي أكثر من جنيهين.

وأعطاها الجنيهين.

سأردهما لك يا فيليب.

– وابتسم وهو يقول:

– لا تقلقي بالك بهذا.

ولم يقل فيليب شيئا كان يريد أن يقوله. وتحدثان معا كما لو كان الذى جرى طيا. و
عليها أنها ستعود إلى بشاعات حياتها، وأنه غير مستطيع أن يمنعها ونهضت ووقفا

وسألت ميلدريد:

– هل احتجزتك؟ أعتقد أنك تريد العودة إلى المنزل.

وأجاب فيليب :

– كلا لست فى عجلة.

وقالت ميلدريد:

– إني سعيدة إذ أتيحت لي الفرصة لأجلس.

وقد قطعت هذه الكلمات بما تضمنته من معان نياط قلبه، وكان من المؤلم حقا أن
حالة الإعياء التي كانت بادية عليها والتى جعلتها تغوصفى الكرسي.

واستمر بينهما الصمت طويلا حتى أشعل فيليب لفافة من حيرته:

– كان جميلا منك ألا تقول شيئا يسئ إلى يا فيليب ظننتك تقول أنك لا تعرف كل

ورأى فيليب ميلدريد تبكي من جديد، وتذكر كيف جاءت إليه عندما هجرها إميل و
بكت أمامه، وظهر أن استعادة آلامها واستعادة إذلاله سببافى زيادة شعوره بالرحمة
الآن.

وقالت ميلدريدفى أنين:

آخ لو استطعت أن أهرب مما أنا فيه.. إنني أكره هذه الحياة ولا أصلح لها ولست من
من الفتيات. إني مستعدة لعمل كل ما أستطيع للهرب منه أريد أن أعمل خادمة لو
ليتني مت قبل هذا.

وانهارت أشد الانهيار من فرط حزنها على نفسها، فبكت بشكل هستيرى وأخذ جسم

– آه إنك لا تدرى ما هو، ولا أحد يعرفه حتى يجربه.

ولم يتحمل فيليب أن يراها تبكي، لقد عذبته شناعة موقفها فهمس قائلا:

– ياللطفلة المسكينة !.. ياللطفلة المسكينة..

لقد تأثر أشد التأثر، وفجأة هبطت عليه فكرة ملأته بالغبطة الغامرة التامة.

– اسمعي. إذا أردت الخروج مما أنت فيه فإن لدى فكرة، إن حالتي المالية ليست
الآن، ولهذا فإني مضطر إلى أن أكون مقتصدا ما أمكن، ولكن عندى مسكنا صغيرا فى
وفيه حجرة خالية فإذا أردت أن تقيمي فيها أنت وابنتك فليس هناك ما يمنع. وأني
شلنات ونصف شلن كل أسبوع لامرأة تقوم على نظافة المسكن وطهو الطعام وفي
تحلي محلها ولن يكلفك طعامك أكثر من هذا المال. فلن يزيد إطعام اثنين كثيرا على
ولا أعتقد أن طفلك يأكل كثيرا.

وتوقفت ميلدريد عن البكاء ونظرت إليه:

– هل معني هذا أنك ستأخذني عندك ثانية بعد كل ما حدث؟

واحمر وجه فيليب قليلا وقد شعر بالحرج مما يريد أن يقول:

– أرجو أن لا تخطني قصدى. كل ما سأفعله أنني أعطيتك حجرة لا تكلفني شيئا. ولست أتوقع منك أن تقومي إلا بما كانت تقوم به المرأة التي عندى. وبعد هذا لا أريد منك شيئا قط. وإني ليسعني أن أقول أن باستطاعتك طهو الطعام خيرا من الأخرى.

وقفزت ميلدريد على قدميها وكانت على وشك الذهاب إلى حيث كان:

– إنك تحسن إليَ يا فيليب.

وقال فيليب بسرعة وقد مد يده وكأنه يريد أن يمنعها.

– كلا. من فضلك قفي حيث أنت.

ولم يدر فيليب لم فعل هذا، ولكنه لم يكن يحتمل فكرة أن تمسه ميلدريد.

– لا أريد منك أكثر من أن أكون لك صديقا.

وأعادت ميلدريد قولها :

– أنت تحسن إلى، تحسن كل الإحسان.

– أيعني هذا أنك ستحضرين؟

– نعم سأفعل المستحيل لأخلص مما أنا فيه لن تندم على ما فعلت يا فيليب أبدا.

– متى أحضر يا فيليب.

– خير لك أن تأتي غدا.

وفجأة وانهمرت الدموع من عينيها.. وابتسم فيليب وقال لها:

– بالله مم تبكين الآن؟

– إني شاكرة لك فضلك ولا أدرى كيف أستطيع التعبير عن هذا الشكر.

– لا يهمك هذا وخير لك أن تعودى.

وكتب لها العنوان وأفهمها أنها إذا جاءتفى النصف بعد الخامسة فستجده فى انتظارها. وكان الوقت قد تأخر بهما وكان عليه أن يعود إلى بيته. ولكن المسافة إلى البيت بدت قصيرة فقد كان ثملا بالفرح وسار وكأنه يسيرفى الهواء.

وصحا فيليب من نومه مبكرا فى اليوم التالي لإعداد حجرة ميلدريد وأفهم المرأة التي كانت تعمل عنده أنه لم يعد بحاجة إليها. وحضرت ميلدريد حوالى الساعة السادسة، ونزل فيليب الذى كان يرقبها من النافذة، إلى الباب. ليفتحه لها، وليساعدهافى نقل متاعها. ولم يكن هذا المتاع أكثر من ثلاث لفافات لفتفى ورق بني، لأنها اضطرت إلى بيع كل ما لم تكن فى أشد الحاجة إليه. وكانت ميلدريد ترتدى نفس الثوب الحريرى الأسود الذى كانت تلبسهفى الليلة السابقة. مع أنها لم يكن تضع الصبغ الأحمر على وجنتيها فقد ظل السواد حول عينيها حتى بعد أن غسلت وجههافى غير عناية فى الصباح، وقد جعلها هذا تبدو جد سقيمة. ونزلت ميلدريد من العربة

كأنها شبح يستوجب الرثاء وطفلتها بين ذراعيها وبدت خجله بعض الشىء، ولم تجد هي ولا فيليب ما يقوله أحدهما للآخر سوى بعض أشياء عادية:

– وهكذا أتيت إلى هنا سالمة.

– لم أسكن هذا الجزء من لندن من قبل.

وكانت الطفلة نائمة نوما هادئا. وقالت ميلدريد:

– إنك لا تعرفها كما أتوقع.

– لم أرها منذ أن أخذناها إلى برايتون.

– أين أضعها؟ إنها ثقيلة ولا أستطيع حملها طويلا.

فأجاب فيليب وهو يضحك بعصبية:

– أخشى ألا يكون عندى مهد أطفال.

– ستنام معي. لقد اعتادت هذا.

ووضعت ميلدريد طفلتهافى كرسي ذى مساند وألقت نظرة على جوانب الحجرة. وتعرفت على الكثير من الأشياء التي كانت تعرفهافى مسكنه القديم، ولم يكن فيها إلا شىء واحد وهو صورة ملونة لرأس فيليب وكتفاه رسمها له لوسون فى نهاية الصيف السابق وقد علقها على رف المدفأة. ونظرت إليه ميلدريد نظرة ناقد.

– أحبها من بعض النواحي ولا أحبها من بعضها الآخر وأعتقد أنك تبدو أجمل من ذلك منظرا.

وضحك فيليب وقال:

– لقد أخذت الأمور تتحسن فإنك لم تقولي يوما أنني حسن المنظر.

– لست ممن يهمهن منظر الرجال،ولا أحب الرجال حسني المنظر. إنهم مغرورون فوق ما يليق.

ودارت عيناهافى الحجرة تبحث بغريزتها عن مرآة. ولكنها لم تجد فرفعت يدها وربتت على أهدابها الطويلة. ثم سألته فجأة:

– ماذا يقول سكان المنزل الآخرون عن وجودى هنا؟

لا يوجد هنا سوى رجل وزوجته والرجل طول النهار خارج المنزل ولا أرى السيدة أبدا إلا يوم السبت لادفع لها أجر الحجرات. وهما منطويان على نفسها ولم أتحدث مع أى منهما منذ جئت إلى هنا. وذهبت ميلدريد إلى حجرة النوم لتنزع الأربطة عن أشيائها وترتبها وحاول فيليب أن يقرأ ولكنه كانفى حالة معنوية عالية واسترخيفى كرسيه وأخذفى تدخين لفافة، وقد نظر إلى الطفلة النائمة بعينين باسمتين وشعر بالسعادة كان واثقا من أنه لا يحمل لميلدريد أى بقية من حب. وعجب كيف مات فيه هذا الشعور القديم بل إنه أصبح يحس بشىءٌ من شعور الاشمئزاز نحوها وكان يعتقد أنه إن مسها فسيصاب بذلك المرض الذى يجعل الجلد خشنا نتيجة للخوف. أن فيليب لا يستطيع فهم نفسه.. وسمع طرقا بالباب، ودخلت ميلدريد. قال فيليب:

– لا داعي لأن تطرقي الباب قبل الدخول هل تجولتفى القصر؟

– إن المطبخ أصغر مطبخ وقعت عليه عيناى.

– ستجدينه متسعا بما فيه الكفاية لطبخ أكلاتنا الفاخرة!
– لست أرى شيئا فيه للطبخ.من الأفضل أن أذهب لاحضار شئ.
– أجل. ولكننى أذكر بأننا يجب أن نراعي الاقتصاد إلى أقصي الحدود.
– ماذا أحضر للعشاء.
وضحك فيليب وقال :
– احضرى ما تستطيعين طبخه.
وأعطاها نقودا فتركته وخرجت ثم عادت بعد حوالي نصف الساعة. ووضعت ما اشترته على المنضدة وهي تلهث من طلوع السلم.
وقال فيليب:
– أنت مصابة بفقر الدم وسأعالجك بحبوب بلود،
– ضاع مني وقت كبيرفي البحث عن المحلات. اشتريت كبدة إنها لذيذة أليس كذلك.. ولايستطيع المرء أن يأكل منها كثيرا وعلي هذا فإنها أرخص بكثير من لحم القصاب.
وكان بالمطبخ موقد غاز فوضعت مليدريد الكبدة عليه ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس لتعد المائدة. وسألها فيليب:
– لماذا تعدين المائدة لشخص واحد فقط؟ ألن تأكلي؟
واحمر وجه ميلدريد خجلا وقالت:
– ظننت أنك لا تود أن أتناول طعامي معك.
– ولم لا
– لأني لست إلا خادمة، ألست كذلك؟
– لا تكوني حمارة. كيف تكونين غبية إلى هذا الحد؟
وابتسم فيليب. ولكن ذلتها جعلته يشعر بألم عجيبفى قلبه. يالها من مسكينة! وتعجبفى نفسه لحالتها عندما رآها لأول مرة وحالها اليوم وتردد قليلا ثم قال :
– لا تعتقدى أنني أتفضل عليك بشيء. بل إن المسألة مسألة عمل فأنا أمنحك مسكنا وغذاءفى مقابل عمل تقومين به من أجلي فلست إذن مدنية لي بشيء وليسفى هذا ما يحقرك.
ولم تجب ميلدريد ولكن الدموع سالت بغزارة على وجنتيها لقد عرف فيليب من خبرته فى المستشفي أن النساء اللائىفى طبقتها يعتبرون الخدمة حقارة وإذلالا.. ولم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بنفاد صبره قليلا معها ولكنه أنحي على نفسه باللائمة، فقد كان من الواضح أنها مجهدة ومريضة. ونهض فيليب وساعدها فى إعداد المكان الآخر بالمائدة وهنا استيقظت الطفلة فأعدت مليدريد لها بعض الطعام الصناعي «طعام ملسن» ونضجت الكبدة واللحم وجلس فيليب وميلدريد للعشاء ،وكان قد امتنع عن الشرب بدافع الاقتصاد ولكنه كان يحتفظ فى منزله بنصف زجاجة من الويسكي. ظن أن قليلا منه يفيد ميلدريد صحيا وقد بذل كل ما يستطيع من جهد

ليجعل العشاء يمرفى مرح ولكن ميلدريد كانت ذليلة ومجهدة وعندما فرغا من الأكل،
لتضع طفلتهافى الفراش.
وقال فيليب:
– أظن أنه من الأحسن لصحتك أن تنامي أنت أيضا مبكرة فإنه يبدو عليك الإجهاد الـ
– سأذهب لأنام بعد أن أغسل الصحاف.
وأشعل فيليب غليونه وبدأ يقرأ. وكان مسرورا لسماعه حركات شخص آخرفى الغرفة المـ
فقد قتلته الوحدة. ودخلت ميلدريد الحجرة لتنظف المائدة وسمع فيليب صوت ارتطام الا
عندما كانت ميلدريد تغسلها وابتسم فيليب عندما فكر أن من الخصائص التي تميزها عن
أنها تقوم بهذا العمل كله وهيفى ثوبها الحريرى الأسود ولكنه لم يطل تفكيرهفى هذا فقـ
لديه ما يعمله ولهذا جاء بكتابه إلى المنضدة. يقرأ كتاب من أوسلرفى «الطب» وكان هذا
محل كتاب تيكر فأصبح الطلبة يؤثرونه عليه بعد أن ظل هذا مرجعهم عدة سنين. ودخلت مـ
الحجرة وهي تنزل كميها اللذين كانا مرفوعين وقت العمل. ونظر إليها فيليب ولم يتحرك.
الموقف عجيبا وشعر فيليب بقليل من اضطراب الأعصاب وخشي أن تتصور ميلدريد أنه
إلى مسلكه السابق ولم يدر كيف يوضح لها أنه لا يفكرفى هذا دون أن يسئ إليها. فقال لها
– أحب أن أذكر لك أن لدى محاضرةفى الساعة التاسعة.. وعلي هذا أريد الإفطارفى الربـ
الثامنة. أتستطيعين ذلك؟
– أجل، أستطيع فعندما كنت أعيشفى شارع البرلمان اعتدت أن أركب عربة الساعة الـ
واثنتي عشرة دقيقة يوميا من «هيرن هل»
– آمل أن تكون حجرتك مريحة وستكونين غدا امرأة أخرى بعد أن تنامي طويلا.
– أعتقد أنك تعمل إلى وقت متأخر من الليل.
– أعمل عادة حتى الحادية عشرة أو منتصف الثانية عشرة.
– سأقول، تصبح بخير إذن؟
– وأنت بخير.
كانت المنضدة بينها.. ولم يتقدم لمصافحتها، فأغلقت الباب بهدوء وسمع فيليب حركتـ
حجرة النوم وبعد قليل سمع صرير السرير وهي تلقي بنفسها عليه.
وكان اليوم التالي يوم الثلاثاء وتناول فيليب طعام إفطارهفى عجلة كالمعتاد واندفع خـ
ليستمع إلى المحاضرة التي ستلقيفى التاسعة ولم يجد إلا قليلا من الوقت لتبادل بعض الكـ
مع ميلدريد وعندما عاد إلى المسكنفى المساء وجدها جالسة بالقرب من الشباك ترتق جوا
وابتسم لها فيليب وهو يقول:
– إنك لمجدةفى العمل. ماذا فعلت بنفسك طوال اليوم؟
– لقد نظفت المسكن كله، ثم خرجت بالطفلةفى نزهة قصيرة.

وكانت ميلدريد ترتدى ثوبا قديما أسود، كذلك الزى الرسمي الذي كانت ترتديه عندما كانت تعملفى محل الشاى. وكان منظره عليها غير أنيق، ولكنها بدت فيه خيرا من ذلك الثوب الحريرى الذى كانت ترتديهفى اليوم السابق. أما الطفلة فكانت جالسة على الأرض وقد نظرت إلى فيليب بعينين غامضتين كبيرتين، وانفجرت ضاحكة عندما جلس بجوارها، وبدأ يلعب بأصابع رجليها العارية. ودخلت شمس العصر الحجرة فغزتها بأشعتها الهزيلة. وقال فيليب:

– من أحسن الأشياء أن يعود المرء إلى منزله فيجد فيه إنسانا. وأن سيدة وطفلة لهما حياة جميلةفى أية حجرة.

وكان فيليب قد ذهب إلى صيدلة المستشفي وأحضر زجاجة من حبوب «بلود» أعطاها ميلدريد وأوصاها أن تأخذ منها بعد كل أكلة. وكان هذا دواء اعتادت تعاطيه منذ كانتفى السادسة عشرة من عمرها.

وقال لها فيليب:

– إني متأكد من أن «لوسون» سيحب لون جلدك الأخضر. وسيقول أنه صالح للرسم ولكنيفى هذه الأيام لا أميل قط لغير المألوف. ولن أكون سعيدا حتى تعودين إلى احمرارك وبياضك كأنك حالبة لبن.

– أشعر بتحسن فعلا.

وبعد أن تناول فيليب طعام عشاءه الاقتصادى، ملأ كيس تبغه ولبس قبعته.. وقد اعتاد فيليب أن يذهب إلى حانةفى شارع بيك كل ثلاثاء.. وقد سره أن يأتي هذا اليوم بعد وصول ميلدريد بقليل أنه كان يريد أن يعجل العلاقات معها واضحة لا غموض فيها.

وسألته مليدريد:

– هل أنت خارج؟

وأجاب فيليب:

– أجل ففي يوم الثلاثاء أمنح نفسي إجازة بالليل.. سأراك غدا. طابت ليلتك

وكان من عادة فيليب أن يذهب إلى الحانة مغتبطا مسرورا. وكان ماكليستر السمسار المتفلسف يوجد هناك عادة وعلي أتم استعداد للمناقشةفى أى موضوع تحت الشمس.. أما هيوارد فقد اعتاد أن يزور الحانة بانتظام كلما حضر إلى لندن ورغم أنه وماكليستر لم يكونا متحابين فقد كانا يلتقيان عادة فى تلك الليلة من كل أسبوع. وكان ماكليستر يرى أن هيوارد مخلوق مسكين وكان يهزأ من رقة عواطفه ولما سألهفى سخرية عن أعماله الأدبية وأشار هذافى غموض بأنه سيخرج روائع من الأدبفى المستقبل تلقي قوله هذا بابتسامه تحقير. وكثيرا ما حمي وطيس الجدل بينهما. ولكنهما غالبا ما كانا ينسيان خلافاتهمافى نهاية الليل ويكبر كل منهما أخاه وقد وجدهما فيليب فى هذه الحالة كما وجد لوسون. وقلما كان يأتي لوسون إلى الحانة غير أنه يأتي الآن بعد أن بدأ يتعرف على الناس فى لندن، ويذهب كثيرا إلى مواعيد العشاء .

كان الجميع على وفاق تام.. فقد تسبب ماكليستر لهمفى الحصول على ربح من مصفي الأور المالية. وحصل كل من هيوراد ولوسون على خمسين جنيها. وكان ذلك غنما عظيما للوسون، ذ المتلاف الذى لا يكسب إلا القليل وكان قد وصل إلى تلك المرحلة في رسم اللوحات التي أصبح فيـ موضع أنظار النقاد... ووجد عددا كبيرا من سيدات الطبقة الراقية يسمحن له برسم صورهن دو مقابل فقد كان هذا إعلان للطرفين لأنه يظهر هؤلاء السيدات بمظهر راعيات الفنون ولكنه قل وجد شخصا مستعدا لدفع مبلغ محترم من المال للحصول على صورة لزوجته لقد طفح كأ، لوسون بالقناعة. وكان لوسون يصيح قائلا:

– إن هذه لأسوأ مهنة للحصول على المال حتى إنني أكاد أصعق، إذ لا أجد نصف شلن في جيبي عندما أضع يدى فيه.

وقال ماكليستر لفيليب:

– يا إلهي ! ولماذا لم تكتب إلى؟ ألا ليتك تعلم مقدار نفع المائة جنيه لي..

– لم يكن هناك متسع من الوقت للكتابة إليك إذ يجب أن يكون المرء حاضرافى اللحظ المناسبة لقد سمعت عن صفقة طيبة يوم الثلاثاء الماضي وسألت هذين الرجلين هل يرغبانفي الاشتراك، واشتريت لهما ألف سهم صباح يوم الأربعاء، وارتفع السعر عند الظهر فبعتهافى الحا وحصلت بهذا على خمسين جنيها لكل منهما، وحصلت أنا شخصيا على مائتين.

وحسدهم فيليب أشد الحسد لقد باع أخيرا آخر شيء رهنه، ولم يبق له إلا ستمائة جنيه وكان أحيانا يصاب بالهلع كلما فكرفى المستقبل. فقد كان عليه أن يعول نفسه سنتين أخريين حتى يصبح أهلا للعمل وكان ينوى بعدئذ أن يحاول الالتحاق بوظيفةفى المستشفي. وعلي هذا فلم يكن يتوقع أن يكتسب قرشا قبل ثلاث سنوات على الأقل ومهما تقشف واقتصد فلن يتبقى له وقتئذ أكثر من مائة جنيه وهذا مبلغ بسيط جدا يمكن الاعتماد عليهفى حالة المرضي وعدم استطاعة الكسب أو التعطل. وإذن فإن مقامرة ناجحة كهذه كفيلة بتغيير الموقف أشد التغيير.

وقال ماكليستر:

لا ضير. سيأتي غيرها سريعا وبكل تأكيد.. فسترتفع أسعار أسهم جنوب أفريقيا مرة أخرى هذه الأيام. وسأرى ما يمكن عمله لك.

وكان ماكليستر يعملفى السوق الخاصة بأسهم بلاد كافير بجنوب أفريقيا وكثيرا ما قص عليهم أبناء الثروات المفاجئة التي حصل عليها بعض الناس نتيجة لارتفاع الأسعار منذ سنة أو سنتين.

– لا تنس إذنفى المرة القادمة.

وجلسوا جميعا يتكلمون حتى أوشكت الساعة على منتصف الليل فكان فيليب أبعدهم سكنا، ولهذا كان أول من غادر المكان، لأنه إذا لم يستطع اللحاق بالترام الأخير فسيضطر إلى السير على قدميه. وهذا يؤخره.. ومع هذا فإنه لم يصل إلى منزله حتى النصف بعد الثانية عشرة وصعد السلم، وكم كانت دهشته عندما وجد ميلدريد لا زالت جالسةفى كرسيه ذى المساند.

فصاح بها قائلا:

– بالله لم لم تذهبي إلى فراشك؟

– لم أشعر بالرغبة فى النوم.

– ولكن يجب أن تكوني فى الفراش رغم هذا، فإن ذلك يريحك.

ولم تتحرك ميلدريد، وقد لا حظ أنها منذ انتهى العشاء قد غيرت ثوبها وارتدت الثوب الحريرى الأسود.

– ظننت أن من الأوفق أن أنتظر قدومك لعلك تكون فى حاجة إلى شيء.

ونظرت إليه وقد لعب ظل ابتسامة على شفتيها النحيلتين الشاحبتين. ولم يستطع فيليب أن يعرف هل فهم أو لم يفهم. كان فى حيرة نوعا ما. ولكنه حاول أن يظهر إنسانا مرحا عاديا. وقال لها:

– طابت ليلتك.

– أتريد الذهاب إلى الفراش توا.

– لقد اقتربت الساعة من الواحدة ولست معتادا على النوم متأخرا فى هذه الأيام.

فأخذت ميلدريد يده و أمسكتها، ثم نظرت إلى عينيه فى ابتسامة وقالت:

– يا فيليب. فى الليلة الماضية، وفي تلك الحجرة، عندما طلبت إلى أن آتي وأمكث هنا. لم أكن أعني ما ظننت أنت أنني كنت أعنيه، عندما قلت أنك لا تريد مني إلا أن أطبخ وأقوم لك بمثل هذه الأعمال.

قال فيليب وقد سحب يده من يدها :

– أحق أنك لم تكوني تقصدينه؟ لقد كنت أنا أقصد ما أقول.

فضحكت ميلدريد وقالت:

– لا تكن أبله.

وهز فيليب كتفيه وقال:

كنت أعني ذلك جديا. وما كنت لأطلب إليك الإقامة هنا على أية شروط أخرى.

ولم؟

أحس أني لا أستطيع ولا يمكنني الشرح. ولكن ذلك يفسد كل شيء.

وهزت كتفيها وقالت :

– ليكن الأمر كما تشاء. لست ممن يركعن على أيديهن وأرجلهن من أجل هذا.. لك ما تشاء.

وخرجت بعد أن أغلقت الباب بقوة خلفها.

وسارت الحياة هادئة هانئة بفيليب وميلدريد. وكان فيليب يقضي النهار بأكمله فى المستشفي ويعمل فى البيت مساء إلا فى الأمسيات التي يذهب فيها إلى آل إثلني أو إلى الحانة فى شارع بيك. وذات يوم دعاه الطبيب الذى يعمل معه إلى عشاء كما دعي مرتين أو ثلاثا إلى حفلات نظمها زملاؤه فى الدراسة. وكانت ميلدريد راضية بحياتها التي تسير على وتيرة واحدة، وكا

فيليب بين الخين والحين يصحبها إلى دار الموسيقي، وقد عمل على تنفيذ ما اعتزمه من أن تك الرابطة الوحيدة بينهما دائما هي رابطة الخدمة المنزلية التي تقوم بها نظير الطعام والمس وتأكيد ميلدريد إلا فائدة من الحصول على عمل فى هذا الصيف وعزمت بموافقة فيليب على البق حيث هي حتى الخريف، وهي تعتقد أنه سيكون من السهل عليها أن تجد عملا وقتذاك.

– أما من جهتي أنا فإنك، تستطيعين البقاء هنا عندما تجدين عملا إذا كان هذا يروق فحجرتك هنا، ومن الممكن أن تعود المرأة التي كانت تقوم بالخدمة لي قبلا إلى هنا لرعاية الطف

وقد حدثت مفاجأة سارة لفيليب حوالي نهاية الفصل الدراسي الثاني له وهو يعمل مساعدا القسم الداخلي بالمستشفي كان ذلك فى منتصف شهر يوليو عندما ذهب إلى حانة شارع بيك مس يوم ثلاثاء ولم يجد أحدا سوى ماكليستر السمسار وجلسا سويا يتحدثان عن إملاء الغائب وبعد قليل قال ماكليستر.

– لقد سمعت اليوم عن صفقة طيبة نوعا. أسهم الذهب فى منجم كلينتين فى روديسيا.

لقد كان فيليب متلهفا للحصول على مثل هذه الفرصة. ولكنها ما إن واتته حتى تردد. ك يخشى أن يفقد كل ما يملك فقد كانت روح المقامرة فيه غير كبيرة.

– أود ذلك، ولكن لا أدرى هل أجرؤ على المخاطرة. كم سأخسر لو سارت الأمور سيئا؟

وأجاب ماكليستر فى برود:

– كان يجب ألا أتكلم على هذه الصفقة، لولا أنك شغوفا بمثلها وشعر فيليب أن ماكليستر ن إليه إلى حمار.

فضحك وقال:

– إني حريص على كسب قليل من المال من هذه الناحية.

– لا يمكنك أن تربح المال ما لم تكن مستعدا للمخاطرة بالمال.

وبدا ماكليستر يتحدث إلى فيليب فى أمور أخرى. وكان فيليب أثناء إجابته على كلام ماكليس يفكر فى أنه إذا انتهت المغامرة نهاية سعيدة فإن السمسار سيكون مضحكا وهو يط مصاريفه فى أول مقابلة بعدها. فقد كان لماكليستر لسان حاد فى السخرية.

وقال فيليب فى شغف:

– أعتقد أن باستطاعتي المقامرة إذا سمحت؟

– سأشترى لحسابك مائتي سهم وخمسين سهما، وعندما يرتفع السعر نصف كراون سأبيع فى الحال.

وحسب فيليب ما سيصل إليها مبلغه وسال لعابه، فإن ثلاثين جنيها فى نظره كانت نعمة السماء فى ذلك الوقت. وأعتقد أن القدر مدين له بالكثير.

واخبر فيليب ميلدريد بما فعله عندما رآها على مائدة الإفطار فى الصباح التالي فظ إنسانا أبله وقالت:

– لم أعرف قط إنسانا أثرى عن طريق المضاربة. هذا ما كان أميل يقوله دائما إنك لا يمكن أن تتوقع أن تغتني عن طريق البورصة.

واشترى فيليب صحيفة مسائية أثناء عودته إلى المنزل وفتحها على صفحة الأوراق المالية. ولم يكن يعرف شيئا عن هذه الأمور، ووجد صعوبة حتى وجد الأسهم التي أشار إليها ماكليستر ووجد أنها ارتفعت ربع كراون وقفز قلبه خشية أن يكون ماكليستر قد نسى أو أن يكون، لسبب من الأسباب، لم يشتر. فقد وعده ماكليستر أن يبرق له. ولم يستطع فيليب الانتظار حتى يأتي الترام ليعود إلى منزله. بل قفزفى عربة. وكان ذلك منه إسرافا لم يفنده من قبل.

وما أن دخل المنزل حتى سأل:

– هل وصلت برقية لي؟

وأجابت ميلدريد:

– كلا...

وأطرق برأسه وغاص فى كرسيه وهو يشعر بخيبة أمل مريرة.

– وعلى هذا، لم يشتر ماكليستر الأسهم!. لعنة الله عليه.

ثم أضاف بعنف:

– ياله من حظ قاسٍ.. لقد أمضيت اليوم كله أفكرفى الأغراض التي سأنفق فيها النقود.

وسألته مليدريد:

– وماذا كنت تنوى أن تفعل؟

– وما فائدة التفكيرفى ذلك الآن؟ إنىفى مسيس الحاجة إلى النقود.

وضحكت ميلدريد وسلمته برقية:

– كنت أمزح معك. وقد فتحها.

وانتزعها من يديها. لقد اشترى ماكليستر مائتي سهم وخمسين سهما وباعها بربح قدره نصف جنيه للسهم الواحد كما اقترح من قبل. على أن تصل مذكرة السمسرةفى اليوم التالي. وغضب فيليب لحظة قصيرة من مليدريد لمزاحها القاسي لكنه لم يعد يفكر إلافى فرحته وسعادته.

وصاح فيليب:

– سيكون لهذا أثر كبير بالنسبة إلى. وسأشترى لك ثوبا جديدا إذا شئت.

وأجابت ميلدريد:

– ما أشد حاجتي إليه..

وكانت مسألة النقود تحتل كل فراغفى ذهن فيليب تقريبا. واكتشف ما ينطوى عليه من كذب ذلك الذى طالما ردده وهو أن باستطاعة اثنين أن يعيشا بنفس التكاليف التي يعيش بها شخص واحد.

لقد بدأت تكاليف المعيشة تزعجه. ولم تكن ميلدريد بالسيدة المدبرة، وكانت تكاليف معيشتهما لا تقل عنها لو كانا يأكلان فى المطاعم. وفوق هذا، فقد كانت الطفلة فى حاجة إلى

ملابس، وميلدريد فى حاجة إلى حذاء ومظلة، وغير ذلك من الأشياء البسيطة التي لم تكن
عنها بحال. وكانت ميلدريد قد أعلنت عزمها على البحث عن عمل، ولكنها لم تتخذ خط
فى هذا السبيل ولم تلبث أن أصابها برد ألزمها الفراش مدة أسبوعين. وبعد إن شفيت
إعلان أو اثنين من إعلانات طلب الوظائف، ولكنها لم تحصل على عمل، إما لأنها وصل
فشغلت الوظيفة الخالية أو لأن العمل كان أشق مما تحتمل. وذات مرة وجدت فرصة، و
كان أربعة عشر شلنافى الأسبوع، وهى ترى أن هذا مبلغ بسيط جدا بالنسبة لها.

وقالت ميلدريد:

– من الخطأ أن تحتقر نفسك.. فالناس لا يحترمونك إذا سمحت لنفسك أن تكون رخ

ورد عليها فيليب بجفاف :

– أظن أن أربعة عشر شلنا أجر سيئ.

ولم يستطع فيليب أن يمنع نفسه من التفكيرفى أن هذا الوضع سيفيده فى نفقا
وبدأت ميلدريد تشير إلى أنها لا تجد مكانافى أى محل لأنها لا ترتدى ملابس محتر
لمقابلة أصحاب الأعمال. واشترى لها فيليب ثوبا وحاولت مرة أو اثنتين أن تجد لها عما
فيليب انتهى إلى أنها لم تكن جادةفى البحث عن عمل ولم تكن تريد أن تعمل.

وكان الطريق الوحيد لفيليب للحصول على المال هو المضاربةفى سوق الأوراق المال
متلهفا على إعادة التجربة السعيدة التي قام بهافى الصيف ولكن نيران الحرب قد ا
الترنسفال، وتعطل العملفى مناجم جنوب أفريقيا.

وعلم أن القائد «رد فرس بلر» سيزحف علي بريتوريا فى خلال شهر سترتفع الأثمان
وليس عليه إلا أن يصبر وكل ما كان مطلوبا هو أن يكون لدى كل بريطاني مال احتياط
من ثمن الأشياء قليلا، وعندئذ يكون من المصلحة أن تشترى هذه الأسهم. وبدا فيليب يقرأ
صفحة المال فى صحيفته اليومية المفضلة وأصبح وقتئذ قلقا سريع الانفعال.

وحدث أن تكلم مرة أو اثنتين مع ميلدريد. ولما كانت تنقصها الكياسة والصبر، فقد
غضب وتشاجرا. وكان فيليب على الدوام يبدى أسفه لما يقوله، ولكن ميلدريد لم يكن من
التسامح، فتجهمت له مدة يومين.. كانت تثير أعصابه بكل الوسائل، بطريقة أكلها، وبعد
وترتيبها، حتى لقد كانت تترك قطع الثياب مبعثرة فى حجرة الجلوس.

وضاق فيليب بغباء ميلدريد. ولكنه لم يعد يكترث، ولهذا لم يكن يغضب منها إلا ف
النادر وخاصة أن فيليب قد اعتاد وجودها. وأتى عيد الميلاد.

ومعنى هذا أن هناك إجازة يومين لفيليب. فأحضر شجرة عيد الميلاد، وجاء ببعض
وأخذ فى تزيين المسكن. وفي يوم عيد الميلاد منح ميلدريد وطفلتها بعض الهدايا. ولما كا
لا أكثر فإن الحاجة لم تكن تدعو إلى شراء ديك رومي، واكتفت ميلدريد بشوى دجاجة، وطه
عيد الميلاد الذى اشترته من البقال. كما اشترى فيليب زجاجة من النبيذ.

وبعد العشاء جلس فيليبفى كرسيه بجوار المقعد وأخذ فى تدخين لفافة وقد أنساه النبيذ الذى لم يعتد شربه، قلقة من ناحية النقود، ذلك القلق الذى كان متسلطا عليه دائما وشعر بأنه سعيد وهانيء. وما لبثت ميلدريد أن دخلت عليه تقول له إن الطفلة تريد أن تحييه قبل النوم. وابتسم فيليب وذهب إلى غرفة نوم ميلدريد. ثم عاد إلى حجرة الجلوس بعد أن طلب إلى الطفلة أن تنام، وبعد أن أطفأ النور. ترك الباب مفتوحا ليسمع صراخها إذا صاحت:

وسأل ميلدريد:

– وأين تجلسين؟

– إجلس أنت مكانك فى الكرسي، كما أنت، أما أنا فسأجلس على الأرض.

وعندما جلس فيليب، استقرت بجسمها أمام الموقد وانحنت على ركبته. ولم يستطع أن يغالب نفسه. فتذكر أن هذه الجلسة بعينها هي الجلسة التي كانا عليهافى مسكنهافى شارع فوكسهول بردج ولكن الوضع هنا قد انعكس، فقد كان هو الذى ينحني برأسه على ركبتها. ألا ما كان أعظم حبه لها يومئذ، ولقد شعر الآن نحوها برأفة لم يعرفها منذ وقت طويل. ولقد بدا أنه لا يزال يشعر بيدى الطفلة الصغيرتين الناعمتين حول عنقه.

وسألها:

– هل أنت مستريحة؟

ونظرت إليهفى ابتسامة بسيطة ثم هزت رأسها. وتسمرت عيناها بنار الموقدفى حلم، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة. وأخيرا استدارت ميلدريد ونظرت إلى فيليب نظرة عجيبة وقالت فجأة:

– هل تدرى أنك لم تقبلني مرة واحدة منذ قدمت إلى هنا.

وابتسم فيليب وقال لها :

– وهل تريديني أن أقبلك؟

– أعتقد أنك لم تعد تهتم بي من هذه الناحية.

– إنني مغرم بك.

– إن غرامك بالطفلة أكبر.

ولم يجب فيليب، ووضعت ميلدريد وجنتها على يدها. سألتهفى الحال وعيناها على الأرض

– لم تعد حانقا على الآن؟

– ولم أحنق عليك...؟

– لم أهتم بك من قبل اهتمامي بك الآن، فلقد تعلمت أن أحبك منذ أن اكتويت بالنار.

وارتعش فيليب عند سماعه إياها تستخدم ذلك التعبير الذى قرأته فى القصص الصغيرة الت تباع ببنس واحد، والتي تلتهمها ميلدريد التهاما.

وتساءلفى نفسه هل تفهم معنى ما تقول، أو لعلها لا تجد وسيلة غير تلك لتعبر بها ع شعورها الحقيقي وهى وسيلة أخذتها عن قصة «أسرة هرالد».

– إنه لمن المضحك حقا أن تعيش معا على هذا النمط.

ولكن هذا لم يؤثر فيه، فقد كانت هى من ذلك النوع من النساء الذى لا يمكن أن يدرك أن قد لا يكون مثلها، يطغى عليه التفكيرفى العلاقة الجنسية. وكانت علاقتها مع الرجال قائمة على هذه الأفكار. وما كانت تفهم أن لهم نواحي أخرى للاهتمام بها غير الجنس. وكان هذا فى انها أعتقدت أن فيليب إنما كان واقعا فى غرام امرأة أخرى. فراقبته واتجه شكه الممرضات فى المستشفي، وإلي من يقابلهم خارجها. ولكنها توصلت، عن طريق اسئلتها ال الماكرة إلى أنه ليس هناك أى خطر من هذه الناحية فى أسرة إثلني.

وتغلبت عليها فكرة أخرى. وهى أن.فيليب كغيره من طلبة الطب، لم يكن يشعر باللاتى اتصال به. فقد ارتبطن فى ذهنه برائحة اليود الضئيلة. ولم يمكن فيليب يتلقى خطابات، ولا صور لفتيات بين حاجاته. فإذا كانت له صلة حب مع أية مخلوقة فقد كان بارعا جدا فى ا ذلك. وأجاب فيليب عن أسئلة ميلدريد بكل صراحة ووضوح دون أن يشكفى دوافعها إلى الق

وأخيرا قالت لنفسها:

«لا يمكن أن أصدق أنه يحب أى فتاة أخرى».

وشعرت براحة لأنها فى هذه الحالة، تصبح متأكدة من أنه لازال يحبها هى.. ولكن س نحوها حيرها أشد الحيرة. فإذا كان يعتزم أن يعاملها بهذه المعاملة، فلماذا طلب إليها إذ تأتى لتعيش معه فى مسكن؟ إن هذا فى رأيها تصرف غير طبيعي. لأن ميلدريد لم تكن من ال اللاتى يؤمن باحتمال أى يكون السبب هو دافع الرحمة أو الكرم أو الشفقة. وعلى هذا خرجت بحثها بنتيجة وهى أن فيليب شخص عجيب. وقد خطر بذهنها أن أسباب سلوكه تجاهها قد ت هى للشهامة والمروءة. وكان خيالها قد اكتظ بمبالغات كتب الأدب الرخيص، فصورت لنفسه التفسيرات الخيالية لوداعته ورقته وشط بها الخيال إلي سوء فهم مرير، وهو أن يكون فيليب ي إلى التطهير بالنار أو الموت فى ليلة عيد الميلاد قاسية البرد. وبعد أن وجدت ميلدريد أنه ل هناك شيء ما يغرى فيليب بمشاركتها نفس حجرة النوم. وعندما وجدته يتكلم معها عن بنغمة لم تسمعها منه من قبل، تأكدت فجأة أنه لا يريدها. وأثار هذا دهشتها. تذكرت كل ما يقوله لهافى الماضى وكيف كان يخبها حبا جازفا.

وشعرت بالحقارة وبالغضب ولكنها كانت تتميز بنوع من القحة الطبيعية جعلتها تتغلب هذا الشعور.

وما كان لفيليب أن يظن أنها تحبه، لأنها لم تكن تحبه. بل فقد كانت تكرهه أحيانا، تتوق إذلاله، ولكنها لم تجدفى نفسها قوة تساعدها على ذلك.. وعلى هذا لم تعرف الطريق ال لمعاملته. وأخذت تثورفى وجهه. فبكت مرة أو اثنتين، وظهرت أمامه مرة أو اثنتين بمظهر ال وطيب المعاشرةوالظرف. ولكنها لاحظت أنه كان يعتذر إليها إذا ما أمسكت بذراعه أثناء السير ويطلب إليها ترك ذراعه وكأنه كان يزعجه أن تمسكه. ولم تجد لذلك تعليلا.

وكانت الطفلة هى القوة الوحيدة التي تجعل لها سلطانا عليه فقد ازداد حبا لها.

لم يجب ومضت فترة طويلة جدا لم يجب فيها فيليب على هذا الكلام.

وساد الصمت بينهما مرة ثانية. ولكنه تكلم أخيرا، وكأن لم تكن هناك فترة من الصمت.

– يجب ألا تحنقي علي، فالإنسان لا يستطيع منع هذه الأشياء. لقد كنت أراك شريرة وقاسيةلأنك تفعلين هذا الشيء أو ذاك أو أي شئ آخر. ولكن هذا كان غباء مني. إنك لم تحبيني. وكان من العبث أن ألومك على هذا. وظننت باستطاعتي أن أجعلك تحبينني. ولكنني أعلم الآن أن ذلك كان مستحيلا ولست أعلم ما الذي يجعل الإنسان يحب الآخر. ومهما يكن الأمر، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يجب الاهتمام به. وإذا لم يكن هذا الشيء موجودا فلا يمكن خلقه أو افتعاله عن طريق الشفقة أو السخاء أو أي شئ من هذا القبيل.

فأجابته قائلة:

– كنت أعتقد أنك لو كنت قد أحببتني حقا لظللت على حبك لي حتى اليوم.

وكان يجب أن أعتقد ذلك أيضا.

إني لأذكر كيف كنت أظن أن حبي لك سيستمر إلى الأبد وكنت أشعر أنني أفضل الموت على البقاء بدونك.. وكنت أتوق إلى ذلك الوقت الذي تصبحين فيه ذابلة ومجعدة حتى لا يهتم بك أحد وحتى تصبحين لي وحدي.

ولم تجب ميلدريد بل نهضت في الحال وقالت إنها ذاهبة إلى الفراش بعد أن منحته ابتسامة صغيرة تنم عن الخجل.

– إنها ليلة عيد الميلاد يا فيليب. ألا تقبلني تقول طابت ليلتك؟

وضحك فيليب وقد احمر وجهه قليلا ثم قبلها. وذهبت ميلدريد إلى حجرتها، وبدا فيليب يقرا. وبلغ الموقف ذروته بعد ذلك بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع. فلقد دفع سلوك فيليب مليدريد إلى هوة من الحنق والسخط العجيب. وكانت تتنازع نفسها انفعالات كثيرة مختلفة.. واستطاعت الانتقال من حالة نفسية إلى أخرى في سهولة ويسر. وكانت تقضي وقتا طويلا وحدها تفكر بعمق في موقفها ولم تستطع أن تترجم كل إحساساتها إلى كلمات. بل إنها لم تكن تدري ماهية هذه الاحساسات. ولكن كانت هناك أشياء بعينها استقرت في ذهنها. وفكرت فيها وأعادت التفكير. فهي لم تستطع للآن أن تفهم فيليب، ولا أن تحبه لدرجة كبيرة. ولكنها كانت تسر لوجوده بجوارها، لأنها تعتقد أنه رجل مهذب. وكان من أسباب تأثيره فيها أن والده كان طبيبا وأن عمه من رجال الكنيسة. ثم إنها كانت تحتقره قليلا لأنها استطاعت خداعه، ولم تكنفي نفس الوقت تشعر أبدا براحة تامة في وجوده. فلم تكن تستطيع أن تكون على سجيتها. وكانت تشعر بأنه ينتقد أخلاقها وتصرفاتها.

وعندما أتت أول الأمر لتعيشفي مسكنه الصغير في كينسنجتون، كانت منهوكة القوى وخجله. وكان يسرها أن تترك وحدها. وكان يريحها إنها لم تكن تدفع إيجارا، ولم تكن تضطر للخروجفي مختلف الأجواء، بل أصبح باستطاعتها أن ترقدفي الفراش إذا ما أحست بوعكة. فقد كرهت حياة الليل التي كانت تحياها. وكان مما يروعها فيها أن تضطر إلى المودة والخضوع. لقد

وكانت ميلدريد تجعله يستشيط غيظا بأن تصفع الطفلة أو تدفعها عنها، ولا تعود الابتسامة القديمة الرفيعة إلى عينيه إلا عندما تقف أمامه والطفلة بين ذراعيها.

لقد كانت تفكر وهي حزينة في هذا كله. واقتنعت أثناء غضبها، انها ستجعله يندم يوما على هذا كله، ولم تستطع ميلدريد. أن تروض نفسها على أن فيليب لم يعد يحفل بها. وقالت انها سترغمه على ذلك.

لقد تألمت كثيرا من جرحه لشعورها. ولكنهافي بعض الأحيان كانت تشعر شعورا عجيبا بأنها تشتهيه. وقد آلمها أن فيليب أصبح باردا جدا. وهذا ما أصبحت تعتقده فيه باستمرار. لقد كانت تعلم أنه يعاملها أسوأ معاملة، ولكنها لم تكن تدري ماذا فعلت لتستحق منه هذه المعاملة. ودأبت ميلدريد على القول لنفسها بأن بقاءهما معا على هذه الحال أمر غير طبيعي. وفكرت ميلدريد في أنه لو سارت الأمور سيرا مختلفا، وحملت منه فسيضطر إلى الزواج منها. نعم أنه إنسان مضحك، ولكنه كان مهذبا بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومامن أحد يستطع أن ينكر هذا. تسلطت هذه الفكرة على تفكير ميلدريد. وصممت على أن تحدث تغييرافي علاقتها به. إنه لم يقبلها حتى الآن وهي تريد منه أن يقبلها.

وتذكرت ميلدريد كيف اعتاد أن يعتصر شفتيها في نهم، لقد أثارت فيها هذه الذكرى شعورا غريبا. جعلها تتطلع باستمرار إلى فم فيليب، وذات مساءفي أوائل فبراير بالذات، أخبر فيليب ميلدريد أنه سيتناول عشاءه مع لوسون الذي دعاه إلى حفلةفي مرسمه الخاص احتفالا بعيد ميلاده.

أضاف فيليب أنه لن يعود إلا متأخرا.

وقد اشترى لوسون زجاجتي نبيذ من النوع المفضل عنده وعند فيليب من حانة شارع بيك، واقترحا أن يمضيا مساء حافلا بالسرور والمرح. وسألته ميلدريد هل بين المدعويين سيدات، فأجابها فيليب بأنه لن يكون معهم نساء، فلم يدع لوسون إلا الرجال، وستقصر الأمر على الجلوس والحديث التدخين.

ولم تجد ميلدريدفي هذا مجالا للتسلية. فلو أنها كانت رساما مثل لوسون لدعت إلى مثل هذه الحفلة ستا من الفتيات النماذج.

وذهبت ميلدريد إلى الفراش لكنها لم تستطع النوم، وفجأة خطرت ببالها فكرة، فنهضت وأحكمت رتاج الباب الصغير لكيلا يستطيع فيليب الدخول. وعاد فيليب حوالي ساعة الرابعة صباحا وسمعته يسخط ويلعن عندما وجد الباب مغلقا. فنهضت من فراشها وفتحت له.

وقال فيليب :

– لماذا حبست نفسك ؟ آسف جدا لأنني اضطررتك لمغادرة الفراش.

لقد تركت الباب مفتوحا عن قصد، ولست أدرى كيف أغلق.

– أسرعي إلى الفراش وإلا أصابك البرد.

كانت مليدريد حتى اليوم تفزع وتبكى حسرة على نفسها كلما مرت بذهنها ذكرى تلك الأيام. وتذكرت ميلدريد خشونة الرجال ووحشية لغتهم معها. ولكن هذه الذكرى أصبح نادرة الطواف بذهنها. وكانت ميلدريد عارفة بجميل فيليب فى إنقاذها. وعندما تذكرت كيف كان يحبها بإخلاص، أساءت إليه، شعرت بوخز التأنيب والندم.

لقد كان من السهل عليها أن تعوضه عما فرط منها ولم يكن ذلك الأمر بذى البال عليها. ودهشت كل الدهشة عندما رفض اقتراحها. فهزت كتفيها وهى تقول لنفسها دعيه، فليتظاهر ما شاء فلن أهتم وسوف يدفعه الشوق بعد قليل.

وسيأتى دورىفى الرفض. ولو ظن أن تمنّعه حرمانا لى فإنه سيكون مخطئا. لم تكن مليدريد تشك الآنفى تفوقها عليه. ورغم ذلك فلم يكن هو إنسانا عاديا ولكنها كانت تعرفه حق المعرفة، فقد كان أحيانا يتشاجران، معها ويقسم أن لن يراها بعدها أبدا، ثم لا تمضى لحظة حتى يكون على ركبتيه أمامها يطلب إليها الصفح والمغفرة.

وكانت ميلدريد تشعر بهزة فرح عندما تتذكر كيف كان يتذلل أمامها. حتى لقد كان يسرها لو استلقى على الأرض لكى تمر عليه. ولقد راته يبكى.

وكانت تعرف تماما كيف تعامله، وكيف لا تهتم به، وكيف تتظاهر بأنها لم تلاحظ غضبه، وكيف تتركهفى قسوة وحيدا وهى واثقة من أنه بعد فترة قصيرة سيأتى زاحفا على ركبتيه.

وضحكت ميلدريد قليلا لنفسهافى نشوة عندما فكرت أنه أتى إليها، وأكل القذارة مرة أمامها. وقد أتى دورها اليوم. إنها تعرف الكثير عن الرجال ولا تريد أن تكون لها بهم منذ الآن صلة. وكانت على استعداد تام للاستقرار مع فيليب. فهو رغم كل شىء رجل مهذب بكل معنى الكلمة. وليس هذا بالشىء القليل. وعلى أية حال لم تكنفى عجلة من أمرها، ولم تكن تريد أن تأتى الخطوة الأولى من جانبها. وكانت تسر لما تراه من مظاهر حبه الشديد لطفلتها.

وإن كان ذلك يثير غيرتها إلى درجة كبيرة. ولقد كان مضحكا حقا أن يشغل نفسه كثيرا بالعطف على ابنة رجل غيره، لقد كان فيليب عجيبا دون شك.

ولكن أمرا أو اثنين أثارا دهشة ميلدريد... لقد تعودت خضوعه لها، فقد كانفى الماضى يتمنى لو قام لها بخدمة.... واعتادت أن تراه حزينا كئيبا إذا سمع كلمة غاضبة منها. فرحانا جذلان إذا بدرت كلمة رقيقة عنها.

ولكنه تغير الآن وكانت تقول لنفسها إنه لم يتحسن خلال السنة الأخيرة. ولم يدر بخلدها لحظة احتمال وجود تغييرفي مشاعره. إن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلا، عندما يتجاهل ثورة غضبها. كان أحيانا يطلب إليها الهدوء لأنه يريد أن يقرأ. ولم تكن تدرى هل تثور لذلك أو تعبس، وتبلغ بها الحيرة إلا تفعل هذا أو ذاك. وتأتى بعد ذلك المناقشة التي قال فيها إنه يعتزم أن تكون العلاقة بينهما عذرية طاهرة. وتذكرت حادثافى ماضيها، وخطر لها أنه كان يخشى احتمال حملها منه وأنها حاولت كثيرا أن تطمئنه.

فيليب. فلقد كانت تحاول دائما أن تبدو مهذبة وتروعها غلظة الألفاظ. ولهذا فقد أخذ فيليب من قذارة لغتها حتى أنه لم يدركفى خلده أنها كانت تفهم الكلمات التي كانت تنطق بها وقتئذ. وسارت إليه ودفعت بوجهها إلى وجهه. لقد أعمتها العاطفة. وسال اللعاب على شفتيها خلال ثورتها الكلامية الصاخبة.

– إننى لم أهتم بك قط، ولا مرة واحدة. وكنت أهزأ منك دائما. لقد ضايقتنى، وضايقتنى بعنف. وأنا أكرهك. وما كنت لأدعك تلمس جسدى، لولا الحاجة إلى المال. لقد كنت أتقزز عندما أسمح لك أن تقبلنى. لقد ضحكنا عليك.. جريفت وأنا، ضحكنا لأنك كنت مغفلا لاتفقه!..

ثم انفجرت مرة ثانيةفى قذفة بأشنع الأوصاف وأحط النعوت. وقالت عنه أنه بخيل، وقالت عنه أنه غبى، وقالت عنه أنه مغرور وأنانى. وتناولت بالسخرية اللاذعة كل ما كان فيليب يشعر بحساسية شديدة من ناحيته.. وفي النهاية استدارت ميلدريد لتخرج ولكنها ظلت ترميهفى ثورتها الهستيرية بنعوت حقيرة معيبة. ثم أمسكت بمقبض الباب ودفعته فانفتح على مصراعيه وعندها استدارت ميلدريد ثانية وقذفته بالكلمة التي كانت تعلم أنها الوحيدة التي يتألم لها. وقد أفرغت فى هذه الكلمة كل سموم حقدها عليه وكراهيتها له وكأنها كانت تقذفه بقنبلة وهى تنطق بها. قالت ميلدريد لفيليب (يا معقد).

وصحا فيليبفى يومه الثانى فزعا، فقد أدرك أنه تأخر. وعنددما نظر إلى ساعته وجدها التاسعة. فقفز من فراشه وذهب إلى المطبخ، ليسخن ماء لحلاقة ذقنه. ولم يكن هناك أثر لميلدريد، وقد بقيت الادوات التي استخدمتهافى عشائها الليلة الماضيةفى مكانها عند البالوعة لم تغسل. وذهب فيليب إلى باب حجرتها وطرقه قائلا :

– استيقظى يا ميلدريد، فقد تأخر الوقت كثيرا.

ولم تجب ميلدريد حتى بعد أن طرق الباب مرة ثانية طرقا أشد من الأولى. وقد ظن فيليب إنها كانت لا تزال غاضبة. وكانفى عجلة من أمره فلم يضايق نفسه بمشكلتها، بل وضع قليلا من الماء على الموقد ليغلى، وقفز إلى الحمام الذى كان معدا من الليلة الماضية لكى تزول عنه قشعريرة البرد.

وقدر فيليب أن ميلدريد ستطهو طعام إفطاره وهو يرتدى ملابسه ثم تتركهفى حجرة الجلوس. فقد فعلت هذا مرتين أو ثلاثا عندما كانت غاضبة منه.

ولكنه لم يسمع صوتا لحركتها. وأدرك أنه إذا أراد أكلا فعليه أن يحضره بنفسه. وقد آلمه أن تتخلى عنه فى هذا الصباح بالذات الذى استيقظ فيه متأخرا. ولم يكن هناك أى أثر لميلدريد عندما انتهى فيليب من ارتداء ملابسه ومن طعامه وأصبح على استعداد للخروج. ولكنه سمع خطواتها فى حجرتها. وما من شكفى أنها قد بدأت وقتئذ تستيقظ من نومها . وأعد فيليب لنفسه كوبا من الشاى، وقطع قطعتين من العيش والزبد، أكلها وهو يلبس حذاءه. ثم هرع ينزل الدرج وسارفى الشارع إلى الطريق الرئيسى كى يلحق بالترام. وبينما كان فيليب يتطلع إلى واجهات محال الصحف ليقرأ أخبار الحرب على اللافتات طاف بذهنه منظر ما حدثفى الليلة الماضية. فلم يسعه

وسار فيليب الى حجرة الجلوس وأضاء المصباح الغازى، وتبعته ميلدريد وأسرعت إلى الموقد وهى تقول:

- أود تدفئة قدمى قليلا إنهما باردتان كالثلج.

وجلس فيليب وبدأ يفك رباط حذائه وقد لمعت عيناه واحمرت وجنتاه وظنته ميلدريد ثملا، فسألته بابتسامة:

- هل تمتعت الليلة؟

- أجل لقد قضيت وقتا ممتعا.

وكان فيليبفى تمام وعيه، ولكنه كان أثناء السهرة يتكلم ويضحك، ولا يزال مهتاجا مستبشرا فقد ذكرته هذه الليلة بلياليه القديمة فى باريس، وكانت روحه المعنوية غايةفى السمو وأخرج غليونه من جيبه وبدا يحشوه.

وسألته ميلدريد:

- ألن تذهب إلى الفراش؟

- كلا ليس الآن، فإنى لا أشعر بميل للنوم لقد كان لوسون عظيما الليلة. وكان يحتكر الحديث لنفسه منذ أن وطأت قدماى مرسمه إلى اللحظة التي غادرته فيها.

- وفيم تكلمتم؟

- الله يعلم. فى كل موضوع تحت الشمس. ولو كنت هناك لرايتنا جميعا نتكلم بأعلى أصواتنا ولا أحد منا يستمع.

وضحك من فرط السرور عندما تذكر ما حدث وضحكت ميلدريد كذلك، لقد كانت متأكدة من أنه شرب أكثر مما يحفظ عليه توازنه. وهذا ما توقعت حدوثه لأنها تعرف الرجال حق المعرفة.

وقالت ميلدريد لفيليب :

- هل أستطيع الجلوس؟

- وقبل أن يتمكن من الإجابة استقرت فوق ركبتيه.

وقال فيليب :

- إذا لم تذهبى إلى الفراش فمن الأفضل أن تذهبى فترتدى ثوبا منزليا.

أوه .. إنى على مايرام، كما أنا.

ثم وضعت ميلدريد يديها حول عنقه ووجهها على وجهه وقالت:

- لماذا أنت مزعج بهذا الشكل يا فيليب؟

وحاول أن ينهض ولكنها لم تمكنه من ذلك بل قالت:

- أحبك يا فيليب أشد حب.

لا تنطقي بهذا الهراء السخيف.

- إنه ليس هراء إنه الحقيقة، إنى لا أستطيع الحياة بدونك، أريدك يافيليب.

وانتزع فيليب نفسه من بين ذراعيها وهو يقول:

بعد أن نام وهجع إلا أن يراه غريبا. وظن أن تصرفه كان سخيفا. ولكنه لم يكن وقتئذ مسيطرا على مشاعره. فقد طغت هذه المشاعر عليه.

● ● ●

واشتدت حفيظة فيليب على ميلدريد لأنها اضطرته إلى هذا الوضع السخيف. كما أنه عاد وفكر من جديد وفي دهشة بالغة،فى انفجارها بالأمس وما صاحبه من لغة حقيرة بذيئة. وقد اهتاج علي الرغم منه عندما تذكر جموحها الأخير ولكنه هز كتفيه احتقارا لها.. فقد اعتاد أن يعايره أصدقاؤه بعاهته عندما يغضبون منه ولا يتورعون عن ذلك مطلقا.

لقد رأى زملاء له فى المستشفي يقلدون مشيته، ولم يكن ذلك يصدر منهم أمامه كما كان زملاء الدراسة يفعلون، بل عندما يظنون أنهم بمنأى عن موقع بصره. وقد عرف فيليب الآن أن هؤلاء وهؤلاء لم يكونوا يقلدونه عن قسوة متعمدة. ولكن بل لأن الإنسان بطبيعته حيوان مقلد، ولأنه من أسهل الأمور على المرء أن يثير ضحك الآخرين. عرف فيليب هذا، ولكنه لم يستطع أن يروض نفسه علي قبوله.

وسره أن يقبل بجد على عمله. وبدت له حجرات المرضى مبهجة وتسودها روح الود والصداقة حين يدخل بابها. وحيته كبيرة الممرضات بابتسامة عاجلة لا تزيد على ابتسامة من يضمهم عمل واحد، وقالت له :

- لقد تأخرت كثيرا يا مستر كارى.

- لقد كنت فى سهرة طويلة ليلة أمس.

- يبدو ذلك عليك.

- شكرا لك.

ومضى فيليب، ضاحكا لفحص أول حالة. وكانت حالة طفل عنده قرحة درن، وفك فيليب أربطة الطفل فنظر هذا إليه وهو مسرور لرؤيته، ومازحه فيليب أثناء وضع الغيار النظيف على الجرح. لقد كان فيليب يتمتع بحب جميع المرضي، فهو يعاملهم بروح مرحة، ويده رقيقة حساسة لا تؤذى أحدا منهم وقت قيامه بعمله بينما كان بعض زملائه غلاظا إلى حد ما ومستهترين بعض الشيءفى عملهم.

وتناول فيليب غداءه فى ذلك اليوم مع زملائه فى النادى وكان غداء اقتصاديا يتكون من كعك وزبد، وقدح من الكاكاو، وكان حديث الجميع يدور حول الحرب. وكانت هناك حاجة لذهاب الكثيرين منهم إلى الميدان، ولكن السلطات كانت حازمة ودقيقة فرفضت ذهاب كل من لم يحمل أمر تعيين بمستشفي. ولقد أشار بعضهم إلى أنه إذا طالت الحرب، فإن ولاة الأمور لن يلبثوا أن يلبوا رغبة كل من كان مؤهلا، غير أن الفكرة السائدة وقتئذ كانت هي أن الحرب لن تستمر أكثر من شهر. والآن وقد أرسل «روبرتس» إلى ميدان القتال فإن الأمور ستستقيمفى لمح البصر.

– أرجو أن تنهضي إنك بهذا تجعلين من نفسك هزأة وتجعلينني أشعر بأنني أبله معتوه.

– أحبك يافيليب، أريد أن أعوضك عما أصابك من أضرار بسببي ولاأستطيع العيش على هذه الحال فهذا يخالف الطبيعة البشرية.

وانسل من الكرسي وتركها فيه وقال لها:

– آسف جدا ولكن الوقت قد فات.

فانهمرت الدموع من عينيها وانتحبت انتحابا يقطع نياط القلب وقالت:

– ولماذا هذا؟ ما أشد قسوتك.

– أعتقد أن ذلك لأنني أحببتك حبا شديدا حتى أبليت عاطفتك. إن أية فكرة من هذا النوع لتروعني ولا أستطيع أن أنظر إلى وجهك الآن دون أن أتذكر إميل جريفث وليس في وسع الإنسان أن يتحمل ذلك، وأعتقد أن هذا يرجع إلى الأعصاب.

وأمسكت ميلدريد بيديه وأمطرتهما بالقبلات. وصاح فيليب :

– إياك ؟

وغاصت في مقعدها وهي تغمغم :

– لا أستطيع الاستمرار كما أنا. فإما أن تحبني وإما أن أفارقك.

– لا تكوني بلهاء إنك لن تجدي مكانا تذهبين إليه، وتستطيعين البقاء هنا كما تشائين على أساس من التفاهم المحدد بيننا وهو أننا أصدقاء لا أكثر.

وفجأة انتابت ميلدريد ثورة عاطفية، وضحكت ضحكة ناعمة مغرية، ثم سارت في حركة جانبية، ولفت يدها حوله، وحاولت أن يكون صوتها خفيضا وفيه نغمة الملق.

– لا تكن ابلة سخيفا. أعلم أنك عصبي ولكنك لا تدري كيف أستطيع أن أكون لطيفة.

ووضعت ميلدريد وجهها على وجهه. ومرغت وجنتها على وجنته.

لقد كانت ابتسامتها في نظر فيليب سخرية كريهة لا حد لها وكانت ومضة عينيها الإيجابية تملؤه فزعا. وتراجع فيليب إلى الخلف لا شعوريا ثم قال :

– لا أستطيع..

ولكنها لم تدعه يبتعد عنها. لقد عضت على فمه بشفتيها فأمسك بيديها وأبعدهما عن جسده في عنف ودفعها بعيدا عنه وهو يقول :

– إني لأشمئز منك.

– مني ؟..

واستندت بيدها على المدفأة، ثم نظرت إليه برهة فجأة ظهرت على وجنتيها بقعتان حمراوان. وأطلقت ميلدريد ضحكة غضب حادة وهي تقول له :

– أنا التي أتقزز منك.

وسكتت ثم شهقت في حدة وانفجرت في سيل صاخب من الشتائم وكانت تصيح بأعلى صوتها وقد نعتت فيليب بكل نقيصة وعتها حافظتها، مستخدمة أفظع الكلمات مما أثار دهشة

وكان الشيء الوحيد الذي يفكر فيه فيليب في هذا الوقت هو إخلاء المسكن. فانتوى [illegible] للمالكة بذلك في اليوم التالي. ولم يكن لديه ما يستطيع به إصلاح ما حل بأثاثه من أضرار [illegible] الباقي لديه من المال قليلا جدا اضطره إلى أن يفكر في استئجار مسكن أرخص. وكان يس[illegible] عن هذا أن يترك المسكن فقد ضايقته كثرة النفقات وستظل ذكريات ميلدريد مرتبطة [illegible] يستطع صبرا، ولم يعد إلى الراحة حتى قام بتنفيذ ما انتواه. وعلى هذا، استدعى، في مساء [illegible] التالي، متعهدا لشراء الأثاث المستعمل، إعطاءه ثلاثة جنيهات ثمنا لكل ما حطم من متاعه [illegible] لم يحطم، وبعد ذلك بيومين انتقل إلى المنزل المقابل للمستشفي الذي كان يسكنه أولا عندما [illegible] حياته طالب طب، وكانت صاحبة المنزل سيدة مهذبة، أستأجر منها حجرة النوم في الطابق الأعلى مقابل ستة شلنات في الأسبوع. وكانت صغيرة وغير حسنة المنظر، وتطل على فناء المنزل لكن فيليب لا يملك الآن سوى ملابسه، وصندوق كتب وقد سره أن يجد مسكنا بهذا الأجر القليل.

وحدث بعد ذلك أن تأثر مصير فيليب كاري، وهو المصير الذي لا يهتم به أحد سواه، بالأحداث التي كانت بلاده تجتازها. لقد كان تاريخ البلاد يصنع في تلك الأيام، وكانت الأحداث الجارية ذات خطر كبير، وكانت هذه العملية ذات دلالة حتى بدا من أبعد الأمور عن العقل أن تمس حياة طالب طب مجهول مثل فيليب.

ولقد أذل الأمة خسرانها المعارك الواحدة تلو الأخرى. وكان ذلك ضربة قاضية لهيئة الأرستقراطية والأشراف الذين لم يوجهوا قبل اليوم من يعارض جديا استعلاءهم واعتقادهم أنهم خلقوا بطبيعتهم للغلبة والحكم.

لقد أخذ العهد القديم ينهار وبدا تاريخ البلاد يكتب من جديد حقا. وظهرت قوة العملاق وتوالت الأخطاء، حتى تحولت أخيرا إلى نصر، وأنقذت بلدة ليد سميث، وفي أوائل مارس دخل لورد روبرتس بلوم فونتيني.

وحدث أن تقابل فيليب وماكليستر، في حانة شارع بيك، بعد يومين أو ثلاثة من وصول هذه الأنباء إلى لندن، وأنهى ماكليستر إلى فليب، وهو جذلان أن الأمور تبشر بالخير في سوق الأوراق المالية فقد اقترب يوم السلام. وهذا روبرتس سيدخل بريتوريا خلال أسابيع قليلة ونتيجة لهذا سيرتفع سعر الأسهم وتتصاعد بلا شك أسعار الأوراق المالية.

وقال ماكليستر يستحث فيليب :

– هذا وقت الشراء، فلا خير في الانتظار حتى يشترك الجمهور في العملية فالفرصة اليوم وإلا فلن تكون أبدا.

وكانت لدى ماكليستر معلومات خاصة، فقد أبرق أحد مديري المناجم في جنوب أفريقيا إلى الشريك الأكبر للمؤسسة التي يعمل على رأسها، بأن المصانع لم يمسسها ضر. وأنها ستبدأ العمل من جديد وبأسرع ما يمكن. فالمسألة لم تعد مسألة مضاربة مالية، ولكنها استثمار لنقود . ولكي يبرهن ماكليستر على حسن فهم الشريك الأكبر للأمر على النحو الجديد، أفهم فيليب أنه قد اشترى

خمسمائة سهم لأخته. ولم يحدث قط أن أقحمهمافى صفقة لا يثقفى متانتها ثقتهفى متانة بنك إنجلترا.

وقال ماكليستر :

– سأضع آخر بنسفى جيبيفى هذه الصفقة.

وكان الثمن يتراوح بين جنيهين إلى جنيهين وربع للسهم. وقد نصح ماكلستر فيليب ألا يكون جشعا بل يقنع بصعود عشرة شلنات. وقال ماكليستر إنه سيشترى ثلاثمائة سهم لنفسه، واقترح على فيليب أن يشترى نفس العدد من الأسهم. وتعهد بأن يحتفظ له بها إلى أن يبيعها عندما تلوح له الفرصة المناسبة. وكان فيليب يثق بماكليستر كل الثقة لسببين أولهما. أن ماكليستر اسكتلندى فهو إذن حريص بطبعه، وثانيهما: أنه لم يخطئ الظنفى المرة السابقة، وعلى هذا سر فيليب من اقتراح ماكليستر وقال هذا :

– أعتقد أنه سيكونفى مقدورنا أن نبيع قبل أن ندفع باقى الثمن. فإذا لم يمكن فسأفعل على استبقائها لك للاحتفاظ بها لك.

وبدا لفيليب أن الصفقة جد رابحة. فما عليه إلا أن يستبقى الأسهم حتى يحصل على الربح دون أن يضطر إلى وضع يده فى جيبه. وبدا فيليب يراقب أعمدة الأوراق المالية فى الصحف ويطالعها باهتمام شديد. وحدث فى اليوم التالي أن ظهر ارتفاع قليل فى السوق فى جميع الأثمان، وكتب ماكليستر يقول إن عليه أن يدفع اثنين وربعا من الجنيهات. كما قال أن السوق متماسكة. ثم حدث بعد يوم آخر أو يومين هبوط فى الأسعار، والآن لم تكن الأخبار التي وصلت من جنوب أفريقيا مطمئنة بالدرجة التي كانت عليها من قبل. ورأى فيليب بعين قلقة، أن الأسهم قد هبط ثمنها إلى مائتين جنيه. ولكن ماكليستر كان متفائلا، فلن يستطيع البوير الصمود طويلا. وكان على استعداد للرهان بأية قيمة، على أن روبتس سيدخل جوهانسبرج قبل منتصف أبريل. وكان على فيليب أن يدفع نحو أربعين جنيها تقريبا ليغطي حسابه. وقد أزعجه ذلك كثيرا، ولكنه وجد أن السبيل الوحيد هو أن يظل صامدا. رغم أن الخسارة كانت كبيرة عليه فى الظروف التي كان يجتازها. ولم يحدث شئ خلال الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع التالية. فإن البوير لم يقتنعوا بأنهم هزموا وأنه لم يبق أمامهم إلا التسليم، والحق انهم حصلوا على انتصار أو اثنين صغيرين. ونزلت قيمة أسهم فيليب نصف كراون آخر. وبدأ واضحا أن الحرب لم تنته. فكثر البيع. وعندما قابل ماكليستر فيليب هذه المرة رآه متشائما.

قال ماكليستر :

– لعل خير ما نفعلفى هذه الظروف هو ألانتمادى فى الخسارة فلقد دفعت كل ما استطعت دفعه لتغطية الفروق.

واستبد القلق بفيليب. ولم يطرق النوم جفنيه طول الليل. وتناول طعام إفطاره الذى قصره الآن على الشاى والخبز بالزبد لكي يستطيع الإبقاء على أجر الحجرة، وقراءة الصحف. وكانت الأنباء أحيانا سيئة، وأحيانا أخرى لا ترد أنباء على الإطلاق، وكانت الأسهم إذا تحركت فإلي النزول. ولم

وكانت هذه فكرة ماكليستر كذلك، فقد أفهم فيليب أن الواجب يقضي أن يرقبوا الفرصة، فيشتروا أسهما قبل إعلان السلم. فسترتفع الأسعار وقتئذ، وفي هذه الحالة يستطيعان الحصول على قدر كبير من الربح. وعهد فيليب إلى ماكاليستر أن يشترى أسهما كلما لاحت له فرصة. فقد أثار رغبته فى الربح، مبلغ الثلاثين جنيها التي حصل عليها فى الصيف الماضي، وهو يريد اليوم أن يحصل على مائتين من الجنيهات.

وانتهى فيليب من عمله فى المستشفي، واستقل الترام عائدا إلى مسكنهفى كينسنجتون وتساءل ماذا عسي أن تكون معاملة ميلدريد لهفى تلك الليلة. وضايقه أن يفكرفى أنها ستكون فى أغلب الظن جافة الطبع لا ترد علي أسئلته.

وكانت الليلة دافئة بالنسبة لهذا الوقت من العام، وحتى شوارع جنوب لندن الكالحة كانت تعانى من الاسترخاء والكلالفى شهر فبراير، ذلك أن الطبيعة تكون عادة ثائرةفى مثل ذلك الوقت بعد شهور الشتاء الطويلة وتبدأ الكائنات الحية النامية تصحو من سباتها وتشعر الأرض بالحركة والحفيف، إيذانا بمقدم الربيع، عندما يستعيد نشاطه الدائم. وود فيليب لو استمر الترام في السير مسافة أطول، فقد كان يكره أن يعود إلى مسكنه كما أنه كانفى حاجة إلى الهواء. ولكن رغبتهفى رؤية الطفلة هزت فجأة أوتار قلبه، فابتسم لنفسه، حين تصور حبوها إليهفى غمرة من البهجة والسرور.

وكم كانت دهشة فيليب عندما وصل إلى المنزل وتطلع إلى النوافذفى حركة إليه فلم يجد خلالها ضوءا، وصعد الدرج وطرق الباب فلم يتلق على طرقه ردا وكان من عادة ميلدريد إذا خرجت أن تترك المفتاح تحت ممسحة الباب. وقد وجده فيليب الآنفى مكانه فدخل المسكن وأشعل ثقابا عند دخوله حجرة جلوسه وأحس أن شيئا ما قد حدث، ولكنه لم يستطع معرفته بادئ ذى بدء. وفتح فيليب مصباح الغاز وأشعله، فغمر النور الحجرة فجأة وتطلع فيليب حواليه.. وانطلقت من بين شفتيه شهقة. فقد كان كل مافى الغرفة مخربا لقد حطمت ميلدريد كل شئ تماما. وتملك الغضب من فيليب، واندفع إلى حجرة ميلدريد فرآها مظلمة وخالية فلما أضاءها وجد أنها قد أخذت كل حاجياتها وحاجيات طفلتها. وكان قد لاحظ فيليب عند دخوله أن عربة الطفلة لم تكنفى مكانها المعتاد عند المدخل. ولكنه ظن أن ميلدريد قد خرجت بالطفلة للرياضة، وكان كل ما على الحوض مكسورا. وقد مزقت ميلدريد بالسكين المقاعد الجلدية للكرسيين ذوى المساند. وشقت الوسائد وأخرجت ما بها. وأحدثت بالملاءات والأغطية الخارجية قطوعا طولية وعرضية. ويدت المرآة وكأنها حطمت بمطرقة. وارتبك فيليب، ودخل حجرته الخاصة فوجدهافى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب.. حوض الغسيل مهشم، الإبريق محطم. والمرآة متناثرة قطعا صغيرةفى أرجاء الحجرة والأغطية ممزقة. وقد شقت ميلدريد الوسادة شقا يتسع لإدخال يدها فيه وأخرجت محتوياتها من الريش ثم بعثرته على أرض الحجرة وأغمدت سكينهافى قماش البطاطين فمزقته، وقد حطمتفى ثورة غضبها إطارات صور لأم فيليب كانت على نضد الآنية وأطاحت

بزجاجها وذهب فيليب إلى المطبخ ليجد كل ما يستطاع تحطيمه محطما، الزجاج والأوعية والصحاف والصحون.

ولهث فيليب غيظا وحنقا وضاق صدره عن التنفس. ولم تترك ميلدريد خطابا.. لا شئ إلا هذا الخراب الذي أنبأ عن ثورتها العارمة. وكان في وسعه أن يتمثل منظر وجهها المعاند وهى تقوم بعملية التحطيم والتخريب ثم عاد إلى الجلوس ونظر فيما حواليه.

وقد أثار دهشته أن غضبه قد زال. ونظرفى عجب ألي سكين المطبخ وإلي مطرقة الفحم اللتين كانتا على المنضدة حيث تركتهما ميلدريد ثم لمح سكينا كبيرة مكسورةفى بناء المدفئة. وما من شك فى أن هذا التخريب قد استنفد منها وقتا طويلا. لقد مزقت صورته التي رسمها له لوسون. كما مزقت كل رسوماته والصور الشمسية بضربات قاسية من مطرقة الفحم. ومزقت كذلك أغطية الموائد والستائر والكرسيين ذوى المساند. لقد تحطم كل شئ تحطيما تماما.

وكان عند فيليب طبقان أو ثلاثة أطباق بيضاء وزرقاء اللون، ليست لهما قيمة كبيرة ولكنه قد اشتراها واحدا بعد الآخر بأثمان بخسة جدا وكان يعتز بها لارتباطها ببعض الذكريات. وقد وجدها فيليب حطاما متناثرة فى أرض الحجرة، كذلك الكتب لم تسلم من غضب ميلدريد، فقد مزقت أغلفتها تمزيقا، وامتدت يدها إلى الكتب الفرنسية غير المغلفة فانتزعت بعض أوراقها وتناثرت أجزاء قطع الزينة التي كانت فوق بناء المدفأة بعد أن تحطمت وقصارى القول أن ميلدريد أتلفت كل ما يمكن أن يتلف بسكين أو بمطرقة..

إن كل ممتلكات فيليب لم تكن تتجاوزفى قيمتها ثلاثين جنيها، ولكن معظمها كانت له بمثابة الأصدقاء القدامى وكان فيليب مخلوقا محبا لمنزله، يرتبط بكل ما فيه من أدوات وتحف. لأنها كانت تخصه... ولأنه كان فخورا بمنزله الذى استطاع أن يجعل منه تحفة جميلة ممتازة بمبلغ بسيط من المال. وتملكه اليأس فجلس وسأل نفسه كيف استطاعت ميلدريد أن تقسو هذه القسوة ثم ساوره خوف مفاجئ جعله يقفز من كرسيه ليذهب إلى الممر حيث يوجد صوان يحتفظ فيه بملابسه وفتح فيليب الصوان، وتنفس الصعداء. لقد نسيته على ما يبدو فلم تمس شيئا مما كان به.

وعاد فيليب إلى حجرة الجلوس، وألقى نظرة فاحصة، على منظرها وعجب من أمر نفسه ولم يكن شعوره ليقوى على أن يبدأ إصلاح هذا الفساد. وفوق هذا فليس في البيت طعام وهو جائع فخرج من المنزل واشترى لنفسه ما يأكله. وعندما عاد وجد أنه أهدا من ذى قبل، كما أنه أحس بوخز عندما طاف بذهنه منظر الطفلة الصغيرة. ثم فكر فى أنها قد تفتقده في أول الأمر ولكنها ستنساه بعد أسبوع. وقد حمد الله على أنه تخلص منها. ولم يشعر وهو يذكرها بثورة غضب عليها ولكنه كان يشعر بإحساس طاغ من الضيق من وجودها.

وقال لنفسه فى صوت مرتفع :

«أتمنى على الله ألا أرى وجهها ثانية أبدا»...

وصمت فيليب لحظة كان يجمع فيها شتات أفكاره ثم قال :

– هل تعنى أن تقول إنها لم تعد تساوى شيئا بالمرة.

– كلا. لست أقول هذا فهي تساوى شيئا بالطبع ولكنك ترى أنه ليس هناك من يريد شراء الآن.

– إذن يجب أن تبيعها بأى مبلغ يمكنك الحصول عليه.

وتطلع ماكاليستر إلى فيليب متفحصا إياه خشية أن يكون قد أساء إليه إساءة بالغة ثم قال

– آسف جدا، يا صديقي العزيز. ولكننا جميعافى ذلك سواء. فما كان أحد يظن أن الحر سيطول أمدها بهذا الشكل. لقد أوقعتك فى مأزق ولكنني أنا نفسي واقع فيه.

وقال فيليب :

– لا بأس فكل إنسان وحظه.

وعاد فيليب إلى المنضدة التي نهض منها ليتحدث مع ماكليستر، وقد عقد الصمت لسانه، وب رأسه يدور بعنف فجأة. ولكنه لم يرد أن يجعل هايوارد وماكليستر يشكان في قوة احتمال واستمر معهما زهاء الساعة يضحك محموما من كل ما يقولانه، وأخيرا نهض يريد الخروج.

وقال ماكليستر وهو يشد على يده :

– لقد أخذت الأمر بهدوء عجيب ولا أظن إنسانا يتقبل خسارة مبلغ يتراوح بين المائتى جنب بهذا الهدوء.

وعندما عاد فيليب إلى خجرته الصغيرة الحقيرة ألقى بنفسه على فراشه واستسلم لليأس ث أخذ يؤنب نفسهفى مرارة على غفلته، ومع أنه أقنع نفسه بعدم جدوى التأنيب والأسف على م حدث لأن هذا الذى حدث كان لا مفر منه بدليل أنه حدث فعلا، فإنه لم يستطع أن يكتم عواطف ولاح له أنه أتعس إنسانفى الوجود ولم يستطع النوم وأخذ يستعرضفى ذهنه كل النواحي الت أضاع فيها ماله خلال السنوات القليلة الأخيرة. وأحس بصداع شديد.

وجاء إليهفى البريد الأخيرفى المساء اليوم التالي كشف حسابه. وقام بفحص البيان فوج أنه بعد أن يدفع كل ماعليه تتبقى له سبعة جنيهات. سبعة جنيهات لاغير وحمد الله أنه استطا أن يوفي بديونه، فقد كان يروعه أن يعترف لماكليستر أنه لايملك مالا، فقد كان يعملفى قس أمراض العيونفى الصيف الماضى وقد اشترى منظار فحص من طالب ولم يدفع له الثمن وأعوزته الشجاعة التي يقول بها للطالب أنه قد تراجع عن الصفقة كما أنه كانفى خاجة إل بعض الكتب. فلم يتبق معه بعد ذلك سوى خمسة جنيهات، عاش عليها أسابيع ستة، وبعدها كت إلى عمه القس خطابا كخطابات رجال الأعمال، قال فيه إن الحرب قد أصابته بخسارة جسيم وأنه لن يستطيع مواصلة الدراسة ما لم يبادر عمه إلى مساعدته واقترح أن يقوم القس بإقراض مائة جنيه وخمسين جنيها خلال الأشهر الثانية عشرة التالية علي أن يدفعها على أقساط شهري ويتعهد فيليب بأداء فائدة عليها، وأن يرد رأس المال تدريجيا عندما يصبح قادرا على الكسب فبعد عام ونصف عام على الأكثر سينال درجته العلمية، ولا شك مطلقافى أنه سيحصل عل

وظيفة مساعد تدر عليه ثلاثة جنيهات أسبوعيا، ورد عليه عمه قائلا أنه لا يستطيع عمل شئ له وانه ليس من العدل أن يطلب إليه بيع شئ والكساد سائد وأنه يرى من واجبه نحو نفسه أن يحتفظ بالقليل الذى يملكه، لينتفع بهفى حالة مرضه. وختم العم رسالته بموعظة صغيرة جاء فيها أنه حذر فيليب المرة بعد المرة، ولكن فيليب لم يلق بالا إلى تحذيره وأنه لم يدهشه ماوصل إليه حاله فقد توقع من زمن طويل أن تكون هذه نهاية إسرافه وعدم اتزانه. وصعق فيليب عندما أتم قراءة الرسالة. ذلك أنه لم يخطر قط فى بال فيليب أن عمه سيرفض مساعدته فاستشاط غضبا، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يعيش فى فراغ تام فما دام عمه لن يساعده فلن يكون باستطاعته أن يستمرفى المستشفي، وتملكه الروع فتخلى عن كبريائه، وكتب مرة أخرى إلى عمه يشرح له الأمر شرحا أوفي من ذي قبل. ولكن لعله لم يستطع أن يشرح ظروفه لعمه كما ينبغي أو أن عمه لم يدرك ما كان فيه من عسر شديد لأنه أجاب علي رسالته بأنه لن يغير من رأيه الأول، وقال إنه أصبح فى الخامسة والعشرين وعليه أن يكسب عيشه بنفسه، ومضى يقول إنه بعد حين سيرث فيليب القليل عنه، ولكنه اليوم، يرفض أن يمده ببنس واحد حتى يحين ذلك الوقت واشتم فيليب من ثنايا رسالة عمه روح الرضا والاقتناع من رجل ظل السنين الطوال غير راض عن سلوكه، وقد حانت له الفرصة ليبرر موقفه.

وبدأ فيليب يرهن ملابسه، وخفض من مصروفاته بأن وطن نفسه على الاكتفاء بأكلة واحدة إلى جانب الإفطار. وكانت تقتصر على الخبز والزبد والكاكاو يأكلهافى الساعة الرابعة ليظل مفعولها ساريا معه حتى صباح اليوم التالي. وكان الجوع يعضهفى نحو الساعة التاسعة مساء فيسرع بالذهاب إلى الفراش.

وقد خطرت له فكرة الاقتراض من «لوسون» ولكن خوفه من رفضه أرجعه عنها. وأخيرا اضطر لسؤاله أن يقرضه خمسة جنيهات فأقرضه لوسون إياها عن طيب خاطر ولكنه قال له وهو يعطيه إياها :

– سترجعها خلال أسبوع أو أكثر قليلا. أليس كذلك ؟ لأني مضطر أن أدفع حساب صانع الإطارات وأنا مفلس الآن أشد الإفلاس.

وكان فيليب يعلم أنه يستطيع رد المبلغ فى موعده، وقد شعر بالخجل من نفسه عندما فكر فيما سيظنه لوسون إذا علم بالحقيقة فأعاد له نقوده لم تمس بعد مضى يومين اثنين.. وكان لوسون فى طريقه لتناول طعام الغذاء وطلب إلى فيليب أن يرافقه. وكان من أصعب الأشياء على فيليب أن يأكل، وقد سره أن حصل على أكلة دسمة. كان فيليب واثقا من الحصول على غذاء طيب يوم الاحد عند آل إثلنى. وقد تردد فى أخبار هذه الأسرة بما حدث له، فقد كانوا ينظرون إليه على أنه رجل غنى إلى حد ما. وخشى أن يقل قدرهفى نظرهم إذا علموا أنه مفلس.

ومع فيليب كان دائما فقيرا إلا أن احتمال عدم حصوله على طعام كاف لم يخطر قط بباله فلم يحدث أن هذا لمن كان يعيش بينهم. وعلى هذا فقد كان يشعر بخجل كما لو كان مصابا بمرض خبيث. وكان الموقف الذى وجد نفسه فيه خارجا عن نطاق تجاربه. وأخذ فيليب يفكر، ولم

يدر فيليب ما يفعل، فلو أنه باع أسهمه الآن لخسر حوالي ثلاثمائة وخمسين جنيها. ومعنى هذا أن يتبقى له ثمانية جنيهات لاغير يعيش عليها، وتمنى من كل قلبه لو أنه لم يكن مغفلا يجرفه تيار المضاربةفى سوق الأوراق المالية ولكنه لم يكن لديه من وسيلة إلا الاستمساك بأوراقه. فقد يحدث أمر حاسم يوما ما، فترتفع السوق. ولم يعد فيليب يأمل الآنفى الربح بل كل أمله هو تعويض الخسارة.

لقد كانت هذه فرصته الوحيدة لإتمام دراسته بالمستشفي. ذلك أن الفصل الدراسي الصيفي يبدأفى مايو، وكانت نهايته تعنى دخوله الامتحانفى علم القبالة «التوليد» وعندئذ تصبح أمامه سنة دراسية واحدة لا أكثر. لقد قدر فيليب التكاليف بدقة ووصل إلى أن باستطاعته أن يدبر الأمر، من مصاريف مدرسته وغيرهافى حدود مائة وخمسين جنيها، وهذا أقل مبلغ يستطيع به أن يوفي طلباته.

وذهب فيليب، فى أوائل شهر أبريل، إلى حانة شارع بيك لعله يرى ماكليستر، فقد كان مما يريح نفسه بعض الشئ أن يناقش معه الموقف، وأن يعلم أن هناك كثيرين غيره يقاسون ما يقاسيه هو من الخسارة فإن هذا كان يخفف قليلا جدا من آلامه، ويعينه بعض الشئ على احتمالها. ولكن فيليب لم يجد بالحانة حين أقبل غير هايوارد وما أن جلس حتى بادره هايوارد قائلا :

– سأبحر إلى مدينة الرأس يوم الأحد..

وصاح فيليب عن عجب :

– أحق هذا ؟

فقد كان هايوارد آخر شخص يتوقع منه أن يقوم بعمل من هذا النوع. أما المستشفي فقد كان الناس يغادرونه أفواجا بعد أن أعلنت الحكومة أنه يسرها الحصول على المؤهلين، وقد كتب غيرها ممن ذهبوا إلى الميدان جنودا يقولون إنهم الحقوا بالعملفى المستشفيات حينما علم ولاة الأمور أنهم كانوا طلبة طب. وجرف تيار الشعور الوطني جميع المواطنين، وتدفق المتطوعون من جميع طبقات المجتمع.

وسأل فيليب هايوارد :

– وماذا سيكون عملك ؟

– سأعمل،فى كتيبة دورست للفلاحين.

وكان فيليب يعرف هايوارد من ثماني سنوات. لقد تلاشت من زمن علاقة الشباب الوطيدة التي كان أساسها إعجاب فيليب الحماسي بالشخص الذى كان يحدثه عن الفن والأدب، وحلت العادة محلها. وكان هايوارد لا يزال يتحدث إلى فيليب عن الكتبفى تقدير رفيع ولكن فيليب لم يعد يتمتع بفضيلة الصبر، فقد كان أحيانا يضيق بحديث هايوارد، ولم يعد يعتقد جازما أنه ليسفى العالم كله شئ جليل سوى الفن، وكره احتقار هايوارد للعمل والنجاح. وتذكر فيليب وقد تحركت فيه ذكريات الماضي، صداقته المبكرة لهيوارد، وما كان يتوقعه له من القيام بجلائل

الأعمال. لقد مضي وقت طويل منذ طرد فيليب كل هذه الأوهام، وعرف الآن أن هايوارد لا يستطيع إلا الكلام، ووجد كذلك أن جنيهاته الثلاثمائةفى العام لاتكفي لكي يعيشفى حدودها الآن بعد أن أصبحفى الخامسة والثلاثين، وأن ملابسه، وإن كانت قد صنعت بيد حائك ماهر، قد بليت إلى حد بعد أن طال لبسها وقتا أطول مما كان يظنه مستطاعا لهافى سالف الأيام.

وكان بدينا ولم يفلح أى تسريح منه لشعره الأشقر فى أن يخفي أنه أصلع وأصبحت عيناه الزرقاوان مكتئبتين شاحبتين، وجمله القول أنه لم يكن من الصعب أن يتبين الإنسان أنه يدمن الشراب.

– وما الذى جعلك، تفكرفى السفر إلى مدينة الرأس.

– لا أدرى، وإنما اعتقدت أنني يجب أن أسافر.

وظل فيليب صامتا وشعر بأنه سخيف نوعا ثم أدرك أنه مدفوع إلى هذا العمل بشئ من القلق النفساني لا يدرى له سببا. كأن قوة داخلية قد أوحت إليه بأن عليه أن يذهب ويحارب من أجل وطنه. وكان هذا غريبا منه فلم يكن هايوارد يرى الوطنية إلا إنها نزعة لا أساس لها من الحقيقة. ولم يكن دائم الفخر بالوطنيه هذه، ويرى أن انجلترا منفي له، وأن مواطنيه جملتهم يجرحون إحساسه، وعجب فيليب كيف يأتى الناس أفعالا تناقض نظرياتهم فى الحياة. وكان الأحرى بهايوارد أن يقف بعيدا ويرقب البرابرة يقتل بعضهم بعضا، والابتسامة على شفتيه، لكنه قد خيل إليه أن الناسفى هذا العالم دمى تحركها قوى خفية، وتدفعها إلى فعل هذا الشئ أو ذاك. فهم تراهمفى بعض الأحيان يستخدمون عقولهم ليبرروا أعمالهم، وإذا ما أصبح ذلك مستحيلا قاموا بالعمل رغم مخالفته لعقولهم.

وقال فيليب لهايوارد :

– عجيب جدا أمر الناس. ما كنت أتوقع أن تذهب إلى الحرب.

وابتسم هايوارد وقد ارتبك قليلا ولم يتكلم وأخيرا قال :

– لقد فحصت طبيا بالأمس. وكان خليقا بالإنسان أن يفحص ليعلم أنه صالح كل الصلاحية للعمل الذى هو مقدم عليه. ولاحظ فيليب أنه قد حشرفى كلامه لفظة فرنسية يستطيع أن يستعمل بدلها كلمة إنجليزية. ولكن قابل ماكليستر الذي قال له: إن الذين معهم أسهما لايرغبون فى الاحتفاظ بهذه الأسهم بعد الآن والسوق فى حالة مخيفة. وهم يريدونك أن تتسلمها.

وذعر فيليب من هذا النبأ فقد كان يدرك أن هذا مستحيل، والأمر معناه أن عليه أن يتقبل الخسارة ودفعه كبرياؤه إلى أن يجيب فى هدوء.

«لست أدرى هل يهمنى هذا، وخير لك أن تبيعها».

– جميل جدا أن تقول ذلك، ولكنى لا أجزم أن ذلك باستطاعتي، فالسوق راكدة، وليس هناك مشترون.

– ولكن سعرها محدد فى سوق الأوراق المالية بجنيه ونصف.

– حقا ولكن هذا لا يعنى شيئا. فإنك لا تستطيع الحصول على هذا الثمن لو بعتها.

يدر ماذا يفعل غير الاستمرارفى المستشفي، وكان يراوده بعض الأمل الغامضفى أن يحدث ما يغير الموقف. ولم يكن يصدق أن ما يحدث له الآن حقيقة، وتذكر، كيف كان، خلال الفصل الدراسى الأولفى المدرسة يظن حياته حلما سيصحوا منه ليجد نفسة مرة أخرىفى موطنه الأصلى. ولكن سرعان ما أدرك أنه لن يمضى أسبوع أو نحوه حتى يكون قد فقد كل ما معه من النقود وأن عليه أن يبحثفى الحال عن عمل يقتات منه. ولو أنه كان قد حصل على درجته، لذهب إلى مستعمرة الرأس رغم عاهته، لأن الطلب شديد على الأطباء هناك فى تلك الناحية. كان بوسعه لولا عاهته أن يتطوع فى إحدى فرق الخيالة التي كان أفرادها يسافرون باستمرار. وذهب فيليب إلى أمين مدرسة الطب وطلب إليه أن يسمح له بتدريب بعض الطلبة الضعفاءفى دراستهم، ولكن الأمين خيب أمله فى الحصول على شئ من هذا القبيل. وأخذ يقرأ أعمدة الإعلاناتفى المجلة الطبية. وتقدم بطلب للالتحاق بوظيفة مساعد غير مؤهل لصاحب صيدلية فى شارع فولهام. وذهب فيليب لمقابلته، ورأى الرجل ينظر إلى رجله المريضة. وعندما سمع أن فيليب لايزال فى السنة الرابعةفى المستشفي قال فى الحال أن خبرته غير كافية. وأدرك فيليب أن ذلك كان مجرد اعتذار عن عدم قبوله. فالرجل لا يريد مساعدا لا يكون له النشاط الذى يرتجيه. وحول فيليب اتجاهه إلى نواح أخرى للكسب. فقد كان يعرف الفرنسية والألمانية، وأعتقد أن فى مقدوره أن يعمل كاتب مراسلات. وقد آلمته هذه الفكرة ولكنه كظم غيظه لأنه لم يجد أمامه سبيلا غيرها. ومع أنه كان حبيسا لا يستطيع الرد على الإعلانات التي تتطلب الحضور شخصيا، فقد كان يرد على الذين يطلبون الرد كتابة. ولكنه كانت تنقصه الخبرة فى الكتابة ولم تكن لديه توصيات وكان يدرك أن ألمانيته أو فرنسيته تنقصها الاصطلاحات التجارية. ولم يكن يعرف الاختزال أو الكتابة على الآلة الكاتبة، ولم يسعه إلا الاعتقاد بأن حالته ميئوس منها. وفكرفى الكتابة إلى المحامى الذى كان المنفذ لوصية والده ولكنه لم يستطع حمل نفسه على ذلك، لأن بيع فيليب للرهنيات التي كانت نقوده مستغلة فيها، كان ضد نصيحة المحامى وقد علم من عمه أن مستر نيكسون لم يكن راضيا عنه. وأنه أدرك أن السنة التي قضاها فيليب فى مكتب المحاسب قد أكدت له أنه كسول وغير كفء.

وغمغم فيليب لنفسه :

– خير لى أن أموت جوعا...

ومرة أو اثنتين راودت فيليب فكرة الانتحار. وقد كان من السهل عليه استحضار بعض السموم من صيدلية المستشفي. وشعر بالراحة عندما فكرفى أنه إذا وقع المحظور وسارت الأمور إلى أقصى حدفى السوء فإن لديه الوسائل الكفيلة بجعل نهايته خالية من الألم. ولكنه لم يكن جادافى هذا الاتجاه. فعندما تركته ميلدريد لتذهب مع جريفث آلمه ذلك ألما شديدا فكر معه أن يموت ليتخلص منه ولكنه لا يشعر الآن بمثل ما كان يشعر به وقتذاك، بل كانت رغبته تنحصرفى أن يتحدث إلى أى إنسان بما يقلقه. ولكنه لم يجدفى نفسه القدرة على الاعتراف بمتاعبه، فقد غلبه الحياء وصمم على أن يبحث عن عمل. ولم يدفع إيجار الحجرة ثلاثة أسابيع موهما صاحبة المنزل أن نقودا ستصله فى نهاية الشهر. ولم تقل السيدة شيئا بل زمت شفتيها وعبست، وعند نهاية الشهر

سألته السيدة هل يستطيع أن يدفع شيئا على الحساب، حزفى نفسه أن يجيب بالنفي. ولكنه أفهمها أنه سيكتب إلى عمه، وأنه واثق من أنه سيستطيع أن يسدد الحساب يوم السبت التالي:

وقالت المالكة :

– أرجو أن تستطيع أن تدفع فى هذا الموعد يامستر كاري لأن على أن أؤدى الإيجار ولاأستطيع أن تظل الحسابات غير موفاة.

– ولم تكن تتكلمفى غضب بل فى عزم وتصميم يخيفان. وصمتت لحظة ثم قالت :

– وإذا لم تدفع يوم السبت القادم، فسأشكوك إلى أمين المستشفي.

– أجل هذا حسن.

وتطلعت إليه قليلا ثم جالت بنظرهافى أرجاء الحجرة العارية. وعندما تكلمت كان كلامها خاليا من التأكيد كما لو كان ما تقوله شيئا طبيعيا.

– عندى فخذة لحم طيبة حارةفى الطابق الأسفل فإذا شئت النزول معى إلى المطبخ فإنى أرحب بتناولك شيئا من طعام الغذاء معي.

وشعر فيليب بالاحمرار يعلوه من رأسه إلى أخمص قدميه، وشعر بغصة في حلقه قال بعدها :

– شكرا كثيرا يامسز هيمنجز، ولكنى لست جائعا.

– كما تشاء يا سيدى.

وما أن غادرت الحجرة حتى ألقى فيليب بنفسه على الفراش. وكان يجمع قبضته لكى يمنع نفسه من الصراخ.

وأقبل يوم السبت.. وهو اليوم الذى وعد بأداء الإيجار لصاحبة المنزل وقد ظل طوال الأسبوع يتوقع حدوث ما يغير الموقف. لكنه لم يجد عملا. ولم يكن قبل اليوم قد وصل إلى هذه النهاية وطاش عقله فلم يدر ماذا يفعل. وكان يحس إحساسا غامضا لا شعوريا بأن هذا كله لا يعدو أن يكون مزاحا غير مقبول عقلا ولم يعد يملك إلا بعض قطع النقود النحاسية بعد أن باع كل الملابس التي كان يستطيع الاستغناء عنها، وما زال عنده بعض الكتب وقليل من الأشياء التي يمكنه أن يحصل منها على شلن أو اثنين. ولكن صاحبة المسكن كانت ترقب روحاته وجيئاته. وكان يخشى أن تمنعه من أن يخرج أى شئ آخر من حجرته. ولم يكن أمامه إلا أن يخبرها أنه لن يستطيع أداء الإيجار إليها. ولكنه لم يجدفى نفسه الشجاعة لذلك.

● ● ●

وانتصف شهر يونيو. وكانت ليلة جميلة دافئة واعتزم فيليب أن يقضيها خارج المسكن. وظل يسير على شاطئ تشلزى فقد كان النهر وادعا هادئا، حتى أدرك فيليب التعب. فجلس على مقعد

وراحفى سبات عميق. ولم يدر فيليب كم من الزمن ظل نائما، ثم استيقظ فيليب فزعا فقد حلم بأن أحد رجال الشرطة كان يهزه ويأمره بمغادرة المكان، ولكنه وجد نفسه وحيدا عندما استيقظ. وسارفى طريقه وهو لا يدرى السبب حتى وصل أخيرا إلى شيزويك حيث نام مرة ثانية ولكنه ما لبث أن أيقظته صلابة المقعد. وبدت له الليلة طويلة جدا. وأخذ يرتعد فقد تملكه شعور بالتعاسة، ولم يدر ماذا فعل، وشعر بالخجل لنومه على شاطىء النهر فقد كان هذا إذلالا شديدا له. وشعر أن وجنتيه قد امتلأتا بالدمفى الظلام. واستعاد فيليبفى ذهنه القصص التي سمعها من قبل عن أولئك الذين كانوافى مثل حالته، وكيف كان من بينهم الضباط ورجال الدين وخريجو الجامعات وتساءل هل سيكون مصيره مثل مصيرهم، فيقففى الصف ليحصل على بعض الحساء من إحدى الجمعيات الخيرية. إنه يفضل الانتحار على ذلك. وهو لا يستطيع الاستمرار كما هو. إن لوسون سيساعده إذا علم بما هو فيه من ضيق، ومن السخف أن يقف كبرياؤه حائلا بينه وبين الحصول على مساعدة منه. وعجب من حاله كيف أصبح فاشلا إلى هذا الحد لقد كان من عادته دائما أن يحاول عمل ما يعتقده أنه خير، ولكن الأمور كانت تسير دائما على عكس ما كان يشتهي. لقد ساعد الناس عندما كان قادرا على مساعدتهم، ولم يعتقد أنه كان يوما ما أكثر من غيره أنانية وحب الذات. فمن الظلم البين إذن أن ينزل إلى هذا الدرك من الإذلال.

وفكر فيليبفى عمه الذى أخبرهفى خطابه بأنه إن مات سيترك له القليل الذى يملكه ولم يكن يعرف قط مقدار ما يملك هذا العم. ولكنه على أى حال لايمكن أن يزيد على بضعة مئات من الجنيهات. وتساءل هل بوسعه أن يحصل على نقود بضمان هذا المال الذى سيعود إليه. ولكنه علم أن هذا غير ميسور بغير موافقة العم وهو لن يحصل على هذه الموافقة. وقال فيليب لنفسه :

– إن الشئ الوحيد الذى يمكن عمله هو أن أعيش بطريقة ما حتى يموت الرجل.

واستمر حاله على هذا النحو أياما، لا يتناول فيها إلا أقل الطعام حتى ساءت حالته، وبدأ يشعر بالضعف والمرض. حتى لم يعد يجد من القوة والنشاط ما يمكنه من البحث عن عمل وقد أصبح الحصول عليه من الصعوبة بمكان واعتاد الانتظار الطويل خلف أحد المحال التجاريةفى انتظار فرصة منحه عملا، أو الرفض الجاف وطرق كل أجزاء لندن تلبية للإعلانات، حتى لقد أصبح يعرف جميع من كانوا على شاكلته يقدمون الطلبات دون ثمرة. وحاول واحد أو اثنين من هؤلاء التعساء أن يعقد أواصر صداقة معه ولكنه كان متعبا جدا ويائسا جدا لا يستطيع قبول هذه الصداقات. ولم يذهب مرة أخرى إلى لوسون لأنه كان مدينا له بخمسة شلنات. وبدأ يحس أنه قد طاش عقله فلا يستطيع التفكير جديا ولم يعد يهتم قط بما سيحدث له. وبكى كثيرا. وغضب أول الأمر واستحي من نفسه لهذا الضعف ولكنه وجد فى البكاء عزاء وتنفسا، بل لقد جعله البكاء لسبب ما أقل شعورا بالجوع. وكان فيليب يقاسي من قشعريرة البردفى الصباح الباكر وذات ليلة ذهب إلى حجرته ليغير ملابسة الداخلية بعد أن اطمأن إلي أن كل من فى المنزل مستغرق فى النوم انسل إلى فراشه فى الثالثة صباحا ثم غادره الخامسة ونام فى الفراش وكانت نعومته ساحرة وكانت عظامه كلها تؤلمه وأحس وهوفى الفراش بلذة غامرة. فقد كان هذا الفراش ممتعا إلى حد لو كان

يشعر معه برغبةفى النوم وقد بدأ يعتاد قله الطعام. ولم يعد يشعر بالجوع الشديد بل كل ما يشعر به هو الضعف. كان الخاطر الذى يراوده دون أن يشعر به هو التخلص من حياته ولكنه استخدم كل ما يملك من قوة لكي يبعده عن ذهنه، فقد كان يخشى أن يتملكه أغراؤء فلا يستطيع أن ينقذ نفسه منه. واستمر يقول لنفسه أنه لمن السخف أن ينتحر إذ لابد أن يحدث شئ بعد قليل. ولم يستطع أن يقاوم اعتقاده بأن موقفه غير مقبول عقلا فلايمكن أن يؤخذ على مأخذ الجد فقد كانفى نظره أشبه بمرض يرغم صاحبه على تحمله ولكنه لابد له أن يشفي منه. وكان يقسم كل ليلة أن لا شئ سوف يغريه بالاستمرار على هذه الحال، فكان يصمم على أن يكتبفى الصباح لعمه أو لمستر نيكسون فإذا أصبح الصباح حتى أحجم عن إذلال نفسه بالاعتراف بفشله التام. ولم يكن يدرى على أى وجه يفسر موقفه للوسون فقد كان لوسونفى عهد صداقتهما شخصا مستهترا. وكان فيليب يزهو عليه بالتعقل وحسن التصرف. ووجد فيليب أنه سيضطر إلى سرد التاريخ الكامل لتصرفة الاحمق، وخامرة شعور قاسى بأن لوسون بعد أن يساعده، سيدير له ظهره أما عمه والمحامى فأنهما دون شك سيقومان بعمل ما من أجله، ولكنه يخشى تأنيبهما، وهو لا يريد أن يؤنبه أحد وصر فيليب على أسنانه وكرر قوله لنفسه أن ماحدث كان لابد من حدوثه. فالأسف على ما حدث عمل سخيف. وبدت الأيام طوالا لانهاية لها. وتاق فيليب إلى مجئ يوم الأحد حتى يذهب إلى آل أثلنى ولم يدر ما الذى منعه من الذهاب إليه قبل ذلك اليوم. اللهم إلا إذا كان السبب رغبته الكامله فى أن يتغلب على الموقف بوسائله الخاصة. فأثلنى كان الشخص الوحيدفى نظر فيليب الذى يستطيع الآن أن يعمل شيئا من أجله. ومع ما يعرفه هذا عن حالة الضيق واليأس التي يعيش فيها الرجل وأسرته. وظن فيليب أن باستطاعته أن يتحامل على نفسه بعد العشاء ويخبر أثلنى بما هو فيه من كرب. وأخذ يعيد على نفسه مرارا كثيرة، الكلمات التي سيقولها للرجل. وكانفى نفس الوقت يخشي أن يرده أثلنى خائبا بعبارات جوفاء وقد روعه هذا وود لو يؤخر ما أمكنه التأخير وضع نفسهفى هذا المأزق، لقد فقد فيليب كل ثقته بأصحابه.

وكانت ليلة السبت باردة وقد عانى فيليب كثيرا إذ لم يكن قد تناول طعاما من منتصف يوم السبت إلى أن جر نفسهفى ضعف إلى منزل أثلنى. لقد أنفق آخر بنسين كانا معهفى صبيحة يوم الأحدفى مقابل غسل جسمه وتسريح شعرهفى مغسل عند محطة تشاريخ كروس.

وما أن ضغط فيليب جرس الباب حتى أطل رأس من النافذة. وسرعان ما سمع وقع أقدام عاليا على الدرج هو صوت أقدام الأطفال يتسابقون لفتحه له. وانحنى فيليب بوجهه الشاحب، القلق، الناحل ليقبل الأطفال. وقد تأثر بعاطفتهم الفياضة تأثرا بلغ من شدته أن أخذ ينتحل الأعذار للتلكؤفى صعود الدرج لكى يكتسب وقتا يهدئ فيه عواطفه، لقد كان حاله هستيرية وكان أقل انفعال كاف لإبكائه وسأل الأطفال فيليب عن سبب عدم حضوره لزياراتهم يوم الأحد الماضى وأجابهم بأنه كان مريضا وأرادوا أن يعرفوا نوع مرضه فأراد أن يرفه عنهم وذكر لهم علة غامضة ذات اسم بربرى مزدوج. هو خليط من اللغتين اليونانية واللاتينية. وما أن سمعوا هذا الاسم حتى صاحوافى ابتهاج وسحبوا فيليب إلى البهو وطلبوا إليه أن يعيد الاسم كى يعرفه أبوهم

ونهض أثلنى وصافح فيليب وحملق فيه وكان أثلنى يبدو دائما محملقا بعينيه الدائرتين المنبعجتين. ولم يدر فيليب السبب الذى جعله فى هذه المرة بالذات يهتم بهذه الحملقة.

قال إثلنى :

– لقد افتقدناك يوم الأحد الماضي.

وما كان فيليب يستطيع أن يكذب دون أن يظهر عليه الارتباك والحيرة وقد اصطبغ وجهه باللون القرمزى عندما انتهى من شرح أسباب عدم زيارته لهم فى الأسبوع الماضي.

ثم دخلت مسز إثلنى وصافحت فيليب وقالت :

– أرجو أن تكون أحسن حالا. يامستر كارى.

ولم يدر فيليب لماذا تصورت مسز أثلنى أن شيئا حدث له، فالمطبخ كان مغلقا عندما صعد الدرج مع الأطفال. وهم لم يتركوه منذ ذلك الوقت.

ثم قالت فى بطء شديد كعادتها :

– لن يكون العشاء جاهزا قبل عشر دقائق أخرى. فهل أضرب لك بيضة في كوب من اللبن خلال فترة الانتظار ؟

وكانت تلوح على وجه السيدة دلائل القلق مما شعر معه فيليب بشئ من عدم الارتياح. ولكنه اغتصب ابتسامة وأجاب بأنه ليس جائعا قط. ودخلت سالى لتعد المائدة، وبدأ فيليب يمازحها، وكانت فرحة الأسرة تعنى أن سالي سترث السمنة من عمه لوالدتها تدعى العمة إلى صابات. لم يرها الأطفال أبدا ولكنهم يرونها المثل الأعلى للسمنة الفاحشة.

وبدأها فيليب قائلا :

– ماذا حدث منذ رأيتك آخر مرة ياسالى؟

– لا شئ فيما أعلم.

– أعتقد أنك تزدادين وزنا.

– وأنا متأكدة من أنك على النقيض. لقد أصبحت هيكلا عظميا.

واحمر وجه فيليب :

وصاح أبوها :

– ما هذا ياسالى؟ سأوقع عليك غرامة قدرها عشرة من شعرك الذهبى.. اذهبى يا جين واخضرى المقص.

فاعترضت سالى قائلة :

– إنه نحيل يا أبى إنه جلد على عظم ولا شئ غير هذا.

وليست هذه المشكلة يا طفلتي فله مطلق الحريةفى أن يكون نحيلا ولكن سمنتك هى التي تتنافي والحشمة.

وكان الأب يتكلم وقد أحاط خصر ابنته بذراعهفى فخر. ثم نظر إليها بعينى إعجاب وقالت سالى:

– دعنى أنتهى من عملى فى إعداد المائدة يا أبي فلو أننى أرحت نفسي فسيكون هناك من لا يهتم بها.

فصاح أثلنى وقد لوح بيده فى حركة تمثيلية :

– الوقحة ! إنها تعيرنى بالحقيقة المؤسفة المعروفة وهى أن يوسف ابن ليفي الذى يبيع المجوهرات فى هلبورن قد تقدم لخطبتها.

وسألها فيليب :

وهل وافقت يا سالى؟

– ألا تعرف، حتى الآن، إن أبى خيرا من هذا ؟ لا توجد كلمة صدق واحدة فيما قال..

وصاح إثلنى قائلا :

– إذا لم يكن قد عرض عليك الزواج فبحق سانت جورج وبحق إنجلترا المرحة سأمسكه من أرنبة أنفه وأساله أن يجبني فى الحال عما يعتزمه.

– اجلس يا أبى، فالعشاء جاهز. والآن، اذهبوا أيها الأطفال فاغسلوا أيديكم جميعا ولاتحاولوا النصب والاحتيال فسأنظر إلى أيديكم قبل أن تمتد إلى الطعام هلموا..

وكان فيليب يعتقد أنه سيكون لهما كالوحش الكاسر، حتى بدأ يأكل.. ثم اكتشف أن معدته عازفة عن الطعام. ولم يكد يجد شهية له. لقد كان عقله متعبا، ولم يلاحظ أن إثلنى كان قليل الكلام على غير عادته وشعر فيليب بالهدوء لوجوده فى منزل مريح ولكنه كان بين الفينة والفينة لا يملك نفسه من التطلع من النافذة. كان اليوم عاصفا. وقد انتهى الجو اللطيف فأصبح البرد قارسا والريح صرصرا عاتيه. وصكت الزجاج ضربات هطول المطر. من حين إلى حين ولم يكن فيليب يدرى ماذا يستطيع أن يفعل فى تلك الليلة فمن عادة آل إثلنى أن يأووا إلى فراشهم فى وقت مبكر. وهو لا يستطيع أن يبقى حيث هو بعد العاشرة وغاص قلبه عندما فكر فى خروجه فى هذا الليل إليهم. وبدت له المشكلة وهو بين أصدقائه أكثر رهبة منها حين كان وحده خارج المنزل. واستمر يقول لنفسه أن كثيرين غيره يقضون ليلهم فى الخلاء، وقد جاهد كثيرا ليصرف ذهنه عن التفكير فى هذا الموضوع بالكلام ولكن كل قذيفة من المطر على زجاج النافذة أثناء كلامه كانت كافية لإشاعة الفزع فى نفسه.

وقال إثلنى :

– إن هذا الجو شبيه بجو مارس. وليس من الأيام التي يحسن فيها عبور القناة.. وسرعان ما انتهوا من العشاء، ودخلت سالى لرفع المائدة.

وسأل إثلنى فيليب وهو يمد إليه يده بلفافة كبيرة :

– هل لك فى لفافة رخيصة ؟

وأخذها فيليب ودخنها بابتهاج، لقد هدأته هدوءا كثيرا. وعندما أنتهت سالى، أمرها أبوها بإغلاق الباب بعد خروجها ثم قال لفيليب :

– والآن، لن يكون هنا ما يزعجنا، فقد اتفقت مع بتي ألا تدخل الأطفال هنا حتى أدعوهم.

ونظر إليه فيليب نظره فزع، ولكن أثلنى ثبت منظاره فوق أنفه، بإيماءة اعتادها قبل أن يفهم فيليب معنى كلماته، واستمر يقول :

– لقد كتبت إليك يوم الاحد الماضي أسالك ماذا بك. ولما لم ترد ذهبت إلى مسكنك يوم الأربعاء.

وأدار فيليب رأسه ولم يجب. وخفق قلبه بشدة ولم ينبس إثلني ببنت شفة وسرعان ما بدا الصمت غير محتمل لفيليب. ولم يسعفه تفكيره بكلمة واحدة يستطيع النطق بها.

– لقد أخبرتنى صاحبة المسكن أنك لم تطأه منذ ليلة السبت، كما أبلغتني أنك مدين لها بأجر الشهر الماضي، فأين كنت تنام طيلة هذا الأسبوع؟

وأخذ من فيليب الألم كل مأخذ وهو يرد على هذا السؤال. ولكنه قال وهو يحملق خارج النافذة :

– لم يكن لى مكان أنام فيه..

– لقد حاولت العثور عليك.

– لماذا ؟

– لقد كنت أنا وبتى مفلسين تماما مثلك ولكن عندنا أطفال نرعاهم.. فلماذا لم تأت إلى هنا؟

– لم أستطع.

وخشي فيليب أن يفلت منه زمام نفسه فيبكى بصوت عال. وشعر بضعف شديد فأغمض عينيه وعبس، وحاول ضبط أعصابه. وانتابته نوبة غضب مفاجئة من أثلني لأنه لم يدعه لنفسه. ولكنه كان محطما. ولم تمض لحظات، وعيناه ما زالتا منخفضتين حتى بدأ يقص على إثلنى قصة ما لاقاه خلال الأسابيع القليلة الماضية، وكان يتكلم فى بطء لكى يحافظ على اتزان صوته. وبدا له وهو يتكلم أنه قد تصرف تصرفا أحمق وزاد هذا الاعتقاد من عدم قدرته على الكلام.

لقد شعر بأن أثلنى سيظن أنه أحمق لا يعى.

وما أن فرغ فيليب من حديثه حتى بادره أثلنى قائلا :

– ستقيم معنا حتى تجد لنفسك عملا.

واحمر وجه فيليب ولم يدر السبب :

– إنه لكرم عظيم منك، ولكننى لا أظن أننى مستطيع ذلك.

– ولم لا ؟

ولم يجب فيليب. لقد رفض العرض خشية أن يكون فى إقامته مضايقة للأسرة يضاف إلى ذلك أن ما فى طبيعته من حياء كان يجعله على الدوام يرفض قبول أفضال الناس عليه. لقد كان فيليب يعلم أن آل إثلني يعيشون على الكفاف وأن كثرة عددهم لاتترك متسعا فى المكان أو المال لاستضافة غريب..

وقال إثلنى :

–ستأتي طبعا هنا. وسينام ثورب مع أحد أشقائه لتحتل أنت فراشه. ولا تظن أن طعامك سيكلفنا زيادةفى الإنفاق.

وخشي فيليب أن يتكلم، واتجه أثلنى إلى الباب ونادى زوجته. وما أن قدمت حتى قال:

– بتي سيقيم مستر كاري معنا.

قالت بتي :

– هذا حسن، سأذهب لأعد له الفراش.

وكانت بتي تتكلم بنغمة حبيبة صادرة من القلب. ليس فيها شئ من التكلف وكان لها أبلغ الأثرفى نفس فيليب. فما كان يتوقع رحمة من البشر. فلما وجدها دهش لها وتأثر منها.

ولم يستطع أن يحبس دمعتين كبيرتين من السقوط على وجنتيه.

وإذ إثلنى وزوجته يناقشان الترتيبات اللازمة لإقامة فيليب متظاهرين بعدم ملاحظة ما وصلت إليه حالة فيليب من الضعف. وما أن غادرتهما مسز إثلنى حتى استلقى فيليبفى كرسيه وضحك قليلا وهو يتطلع من النافذة ثم قال :

– ليست هذه بالليلة التي يمكن أن يقضيها الإنسانفى الخارج، أليس كذلك ؟ وقال أثلنى لفيليب أن من السهل لا عليه أن يجد له عملافى مؤسسة الأقمشة القطنية الكبيرة التي يعمل هو بها بعد أن ذهب كثيرون من المساعدين بها بعد الحرب وقد وعدهم أصحاب المؤسسة بدافع من الغيرة الوطنية، أن يحتفظ لهم بوظائفهم حتى يعودوا. وقد وقع عبء عمل هؤلاء الأبطال على الباقين. ولم ترفع الأجور تبعا لذلك بل استغلت المؤسسة الروح الوطنيةفى القيام بعملية اقتصادية. ولكن الحرب استمرت تتأثر بها التجارة إلا قليلا. وأصبحت الإجازات على الأبواب وسيقوم عدد من موظفي المؤسسة بعطلاتهمفى نفس الوقت مدة أسبوعين، فلا بد إذن من استخدام مساعدين جدد للقيام بالعمل. وكانت تجارب فيليب قد جعلته يشك فى. إنهم سيقبلونه فى المؤسسة حتى فى هذه حال ولكن أثلنى تظاهر بأنه شخص ذو مكانهفى المؤسسة وأن المدير لا يرد له طلبا، وقال أن فيليب بما لديه من التدريب الذى حصل عليه أيام أن كانفى باريس سيكون شخصا عظيم النفس فما عليه إلا أن ينتظر وقتا قصيرا يستطيع بعده أن يحصل على عمل ذى مرتب مناسب، وكان يصمم أزياء أو يرسم إعلانات، وقد رسم فيليب إعلانا عن ملصقة لأزياء الصيف أخذه إثلنى، ثم عاد بعد يومين ليعلن أن المدير أعجب به كثيرا ولكنه أبدى أسفه من كل قلبه، بعدم وجود وظيفة خالية وقتئذفى هذا القسم وسأله فيليب أليس هناك عمل آخر، يستطيع أن يقوم به :

– أخشي أن أقول أنه لا يوجد..

– أمتأكد أنت ؟

فقال إثلنى وهو ينظر إليهفى شك من خلال منظاره :

– الحقيقة أنهم سيعلنون غن وظيفة بائع جائل.

– هل تظن أن هناك أملافى الحصول عليها ؟

وارتبك إثلنى قليلا. فهو قد جعل فيليب يتوقع أنه سيجد عملا أعظم شأنا من هذا، ثم هو من ناحية أخرى أفقر من أن يستطيع الاستمرارفى إمداده إلى الابد بالمأكل والمسكن فقال له:

– تستطيع أن تشغلها مؤقتا حتى تعثر على خير منها. وإذ يمكنك وأنت تعمل أن تجد دائما فرصة أحسن.

وابتسم فيليب وقال :

– لست متكبرا، كما تعلم..

– إذا ما قررت هذا فإن عليك أن تكون هناكفى الربع قبل التاسعة من الصباح غد.

لقد كان من الواضح أن الحصول على عمل أمر من الصعوبة بمكان رغم قيام الحرب، فقد [illegible] فيليب عند ذهابه إلى المحل كثيرا من الناس منتظرين. وقد عرف من بينهم بعض من التقى [illegible] من قبل أثناء بحثه. ووجد من بينهم واحدا كان قد شاهده مستلقيا بعد ظهر اليوم السابق و[illegible] إليه وجوده أنه مشرد مثله يقضى لياليهفى الخلاء. وكان المنتظرون من مختلف الأ[illegible] والاوصاف فمنهم المسن والشاب، والطويل والقصير، ولكن كل واحد منهم كان يحاول أن [illegible] بمظهر الرشاقة استعدادا لمقابلة المدير. وقد صفف كل منهم شعره بعناية واهتم بنظا[illegible] وانتظر الجميعفى ممر، عرف فيليب فيما بعد أنه يؤدى إلى قاعة الطعام ثم إلى غرفة [illegible] ويقطع هذا الممر خمس درجات أو ست درجات كل بضع ياردات. ومع أن المحل [illegible] بالكهرباء فإن هذا الممر كان مضاء بالغاز، وكان يعلو مصابيحه حواجز سلكية لوقا[illegible] تحدث وهى مضاءة صوتا عاليا. وكان فيليب قد وصلفى الموعد المقرر. ولكنه لم يست[illegible] إلا قبل العاشرة بقليل. وكان مكتب المدير ذا أر كان ثلاثة كأنه قطعة من الجبن مو[illegible] جنبها. وكان على الجدران صور لسيداتفى تصفيات وإعلانات كبيرة أحدهما لرجل [illegible] «بيجاما» ذات خطوط حمراء وبيضاء كبيرة والثانية لمركب يمخر عباب البحر، وكان [illegible] شراعه بخط كبير «مزاد اختيارى عظيم» وكان أوسع جانب للمكتب هو الذى يقوم [illegible] الواجهات التي كانت مغطاةفى ذلك الوقت بينما كان عامل يتمشى جيئة وذهابا [illegible] وكان لون شاربه أسود، وكانت تتدلى من منتصف سلسة ساعته حزمة من ميدالي[illegible] وكان يجلس وعليه قميصة، والاكمام امام مكتب كبير على جانبه آله تليفون و[illegible] اليوم، التي قام بعملها إثلنى وكذلك قصاصات الصحف كلها ملصقة على ورق[illegible] المدير إلى فيليب، ولكنه لم يقل كلمة. قام أملى رسالة على كاتبه وهى فتاة [illegible] منضدة صغيرة في أحد الأركان وسأل فيليب بعدئذ عن اسمه وعمره والتجارب التي [illegible] يتحدث بلكنة أهل لندن في صوت رنان مرتفع ، بدا وكأنه لا يستطيع دائما التحكم [illegible] فيليب أن أسنان المدير العليا كبيرة وبارزة. وتوحى أنها غير ثابت وأن من السهل [illegible] حادة.

وقال فيليب :

– أظن أن مستر إثلنى تحدث معكم عنى.

– أنت الشخص الذى رسم هذا الإعلان الكبير ؟

– أجل ياسيدى..

– إنك لاتصلح لنا.. لاتصلح بتاتا..

ونظر إلى فيليب من رأسه إلي قدمه. ويبدو أنه لاحظ أن فيليب يختلف بعض الشئ غمن سبقوه.

– يجب أن ترتدى حلة سوداء رسمية. أعتقد أن ليس عندك واحد منها ويبدو أنك شاب محترم وأظن أنك وجدت أن الفن لا يقيم الأود.

ولم يستطع فيليب أن يعرف هل يعنى أنه قد سيستخدمه أم لا ، فقد كان يلقى عليه الأسئلة بطريقة عدائية.

– وأين موطنك الأصلى ؟

– توفي والداى ، وأنا طفل صغير.

– أود أن أمنح الشبان فرصة. وقد منحتها للكثيرين حتى أصبح منهم الآن مديرون للأقسام وكلهم معترف بفضلى. وأنا أشهد لهم بذلك ، وهم يدركون ماذا فعلت لهم. أبدا من أول السلم فهذا خير الطرق لفهم العمل. فإذا تمسكت بعملك بعد ذلك فليس من أحد يدرى ماذا تصبح في المستقبل ، ومتى أحسنت العمل فإنك ستجد نفسك يوما من الأيام في مركز كالذى أشغله الآن.. ضع هذا نصب عينيك أيها الشاب.

وأجاب فيليب :

– إنى شغوف بأن أبذل جهدى يا سيدى.

وقد عرف فيليب أن من واجبه أن يضيف إلى قوله كلما استطاع كلمة سيدى مع أنها كانت غريبة على سمعه وكان يخشى أن يفرط في استعمالها وكان المدير يحب كثرة الكلام فقد كان ذلك يشعره بعظمته وبأهميته. ولهذا فإنه لم يعلن فيليب قراره إلا بعد أن ألقى خطبة طويلة.

وأخيرا قال المدير لفيليب في عظمة :

– أستطيع القول بأنك مقبول ومهما يكن من شئ فلا مانع عندى من أن أجربك.

– أشكرك شكرا عظيما يا سيدى

– تستطع البدء في الحال وسأعطيك ستة شلنات في الأسبوع ، مع نفقات الأكل والمسكن. فكل ما تريده موجود كما والشلنات الستة للمصروفات الخاصة تفعل بها ما تشاء. وسيكون الدفع شهريا بدأ عملك يوم الاثنين المقبل وأعتقد أنه لن يكون لديك أى سبب للشكوى من ذلك.

– لا يا سيدى

– شارع هارنجتون ، أتعرف أين هو ؟ طريق شافتسبرى. ستنام هناك في رقم ١٠ تستطيع أن تنام هناك ليلة الأحد لو شئت أو ترسل حقائبك إليه يوم الاثنين.

– وهز المدير رأسه قائلا :

– عمت صباحا..

وقد أقرضت مس أثلنى فيليب نقودا ليدفع لصاحبة المسكن مبلغا يكفي لأن يجعلها تسمح له بأخذ متاعه واستطاع أن يحصل على حلة سوداء مناسبة مقابل دفع خمسة شلنات ورهن حلة من حلله كما تمكن من فك رهن بقية ملابسه. وأرسل حقيبته مع حوذى النقل بترش إلى شارع هارنجتون وفي صبيحة يوم الاثنين. ذهب إلى المحل برفقة أثلنى وقدمه هذا إلي رئيس قسم الملابس الجاهزة وتركه.

وكان هذا الرجل لطيفا كثير الحركة في حوالى الثلاثين من عمره يدعى سامبسون. وصافح الرجل فيليب وأراد أن يظهر له مقدار كماله وتهذيبه وكان دائم الفخر بهما ، وسأله هل يعرف الفرنسية ، وكم كانت دهشته عندما أجابه فيليب بأنه يعرفها.

– وأى لغة أخرى ؟

– أتكلم الألمانية.

فقال له :

– إنى أذهب إلى باريس من حين إلى حين هل زرت حانة مكسيم ؟

وعين لفيليب مكانه على رأس السلم في قسم الملابس الجاهزة. وكان عمله إرشاد العملاء إلى مختلف الاقسام ، ، وما كان أكثر هؤلاء لأن مستر سامبسون كان يستهويهم بزلاقة لسانه. وقد لاحظ سامبسون كما لا حظ الكثيرون أن فيليب يعرج في مشيته.

وسأله سامبسون :

– ما بال رجلك ؟

– إنها عرجاء ، ولكنها لا تمنعني من المشي أو ما شاكلة.

ونظر إليها سامبسون في شك ، واستنتج فيليب أنه يعجب كيف عينه المدير رغم عاهته. وكان فيليب يعرف أن المدير لم يلاحظ فيه نقصا.

واستدار سامبسون وحاول فيليب أن يتذكر أين هذا القسم أو ذاك ، وراقب باهتمام عميلا يسأل عن معلومات. وقد سر فيليب لعودته إلي القسم المخصص له. وبدأ فيليب يذكر أين يوجد كل قسم. وقل سؤاله لغيره المساعدين إذا ما سأل عميل عن الطريق إلي أى قسم. فكان يقول مثلا :

الأولى إلى اليمين.. الثانى على اليسار ، يا سيدى..

وما أن انتهي فيليب من عمله اليومي في السادسة والنصف حتى كان خائر القوى. وقد تطوع هاريس جاره على المائدة بأن يصاحبه إلى الشارع هارنجتون ليريه أين ينام. وأفهمه أن بحجرته فراشا خاليا وأن الغرف الأخرى مشغولة كلها فإنه يظن أن سيكون مكانه معدا في حجرته. وكان بيت شارع هارنجتون من قبل ذلك مملوكا لصانع أحذية وقد استعمل حانوته حجرة نوم. ولكنها كانت حالكة الظلام. فقد غطى ثلاثة أرباع النافذة بالالواح الخشبية. ولم يكن من المستطاع أن تفتح. وكانت التهوية الوحيدة تأتى من كوة عليا في الطرف البعيد من الحجرة. وكانت رائحة الغرفة تزكم الأنوف ولهذا فإن فيليب حمد الله على أنه لن ينام فيها. وأخذه هاريس إلي حجرة الجلوس في الطابق الاول ورأى فيها معزفا قديما تشبه لوحة مفاتيحه صفا من السنان النخرة. وعلى المنضدة صندوق لفافات

تبغ كبيرة من غير غطاء وبداخله مجموعة من أحجار الدومينو وعلى المنضدة كذلك أعداد من مجلتي ستراند وجرافيك. أما بقية الغرف فكانت تستخدم للنوم. وكانت حجرة نوم فيليب في الطابق الأعلى من المنزل وهى تضم ستة سرر بجانب كل منها حقيبة أو صندوق. ولا يوجد بها من الأثاث إلا صوان ذو أدراج أربعة كبيرة واثنين صغيرين ، وإذ كان فيليب ضيفا جديد على الحجرة فقد أخذ أحد الأدراج الصغيرة. وكان لكل من الأدراج مفتاحه ولكن تشابهها جعلها غير ذى قيمة كبيرة. وقد نصحه هاريس أن يضع أشياءه الثمينة في حقيبته. وفوق بناء المدفئة وضعت مرآة. وأرشد هاريس فيليب إلي مكان الغسيل ، وهو حجرة متسعة نوعا تضم ثمانية أحواض فى صف واحد يستخدمها للغسيل جميع الساكنين. وتتصل هذه الحجرة بحجرة أخرى بها حمامان ، وحال لونهما ولطخ الصابون أخشابهما.

وذهب فيليب لينام وصحا فى السابعة على صلصلة جرس وفي الثامنة إلا ربعا انتهى الجميع من ارتداء ملابسهم وهرعوا إلى الطابق الاسفل بجواربهم ليبحثوا عن أحذيتهم وقد ربطوها فى أثناء جريهم إلى المحل فى شارع اكنفورد، حيث يتناولون طعام الإفطار ، وهم يعلمون انهم إذا تأخروا عن الثامنه فلن يجدوا فطورا ، ولم يكن فى وسعهم متى بدأوا العمل أن يحضروا لأنفسهم شيئا يطعمونه ، وكانوا فى بعض الأحايين إذا ما وجدوا أنهم يستطيعون دخول البناء فى الموعد المحدد ، يتوقفون عند محل صغير بجانب حيهم ليشتروا قطعتين من الفطير ، ولكن هذا كان يكلفهم بعض المال ، ولهذا فكثيرا ما كانوا يعملون دون فطور حتى وقت الظهر ، وأكل فيليب خبزا وزبدا وشرب كوبا من الشاى وفي الثامنة والنصف بدأ عمله اليومى من جديد. الأول:

ثم بدأ يجيب علي الأسئلة التى توجه إليه. وكان العمل مملا ومتعبا وما انقضت أيام على وجوده فى العمل حتى شعر بألم فى قدميه لا يكاد يستطيع معه الوقوف. وأثر فيهما البساط اللين الكثيف وكأنهما كانتا تحترقان وأصبح يتألم عندما ينزع عنهما الجورب ليلا. وكانت هذه شكوى عامه.. وقد أخبره زملاؤه فى العمل أن الجوارب والأحذية تتعفن من العرق المستمر.

وكان كل من فى حجرته يقاسون نفس الألم ، ويحاولون التخلص منه بإخراج أقدامهم من الغطاء عند النوم. ولم يستطع فيليب ، أول الأمر أن يمشى واضطر أن يقضي كثيرا من أمسياته فى حجرة الجلوس بشارع هارتجتون وهو يضع قدميه فى دلو مملوء بالماء البارد.

وكانت أجور العمال تؤدى شهريا من أمين المؤسسة. وكانت كل طائفة من المساعدين تذهب يوم استلام الأجور ، بعد تناول الشاى ، إلى الممر لتقف فى الصف الطويل ينتظرون فى نظام كما يفعل جمهور النظارة خارج أبواب المسارح ثم يدخلون المكتب واحدا فى أثر الآخر. وكان الأمين يجلس أمام منضدة عليها أوعية خشبية بها النقود ، ويسأل العمال عن اسمه، ويرجع إلى دفتر أمامه ويلقى نظرة شط سريعة على الموظف ثم ينطق بقيمة مايستحق بصوت عال ثم يأخذ النقود من الوعاء وبعدها فى يده يقول :

– شكرا.. بعده !

وتكون الإجابة «شكرا».

ووجد فيليب أن الباقى له أجر الشهر هو ثمانية عشر شلنا، وكانت أول نقود يكتسبها فى حياته. ولم تشعره هذه النقود بما كان يتوقعة من فخر بل أثارت فيه شعورا بالفزع. وقد أكدت له ضآلة المبلغ حقارة عمله. وحمل خمسة عشر شلنا إلى مسز إثلنى وفاء لبعض ما عليه، ولكنها لم تقبل منه الا نصف جنيه فقال لها :

– هل تعلمين أنى بهذه النسبة ، سأظل شهورا ثمانية حتى أوفي بقيمة ما اقترضته..

فأجابته قائلة :

– ما دام إثلنى يعمل فإنى أستطيع الانتظار ، ومن يدرى لعلهم يمنحونك علاوة.

وقد حاول فيليب أول الأمر أن يستمر على الاطلاع فى كتب الطب لكيلا ينسى ما تعلمه ، ولكنه وجد أخيرا أن هذا عبث لا فائدة منه. فلم يكن يستطيع تركيز انتباهه فيما يقرأ بعد ذلك المجهود المضـني الذى يبذله فى عمله اليومى المرهق ، وقد بدا أنه لافائدة من الاستمرار فى العـمل، مادام لايدرى متى يستطيع العودة إلى المستشفي ، وكان يحلم دائما بأنه فى عنابر المرضي، وكان استيقاظه من النوم مؤلما له. وكان الإحساس المنبعث من وجود عمال آخرين نائمين معه فى الحجرة مزعجا له ، ذلك أنه كان قد اعتاد العزلة ، وكان وجودة دائما مع غيره، وعدم انفراده لحظة بنفسه مرعبا فى ذلك الوقت. وكانت هذه هى الساعات التي صعب عليه منها أن يقاوم يأسه. ورأى نفسه منساق فى هذه الحياة ، «إلى اليمين.. إلى اليسار يا سيدى» .. إلى ما لانهاية له وعليه أن يحمد الله على بقائة فيها فسيعود الرجال الذين ذهبوا إلى الحرب ، ولما كانت المؤسسة قد ضمنت لهم عودتهم إلى اعمالهم فإن هذه سيعنى الاستغناء عمن حل محلهم. وعليه إذن أن يبذل للاحتفاظ بهذه الوظيفة الحقيرة التي حصل عليها. ولم يكن ينجيه منها إلا شئ واحد هو موت عمه. ذلك أنه سيحصل بهذا على بضع من الجنيهات يستطيع بها أن يتم دراسته فى المستشفي. وبدأ فيليب يتمنى بكل قلبه، أن يموت هذا الرجل المسن. وأخذ يحسب فى ذهنه كم سنة يتحمل أن يعيشها الرجل لقد جاوز السبعين. ومع أن فيليب لم يكن يعلم سنه بالضبط فإنه لابد أن يكون فى الخامسة والسبعين على أقل تقدير وهو يشكو من نزلة شعبية مزمنة تسبب سعالا حادا كل شتاء. ورغم أن فيليب كان يحفظ أعراضها عن ظهر قلب ، فقد أخذ يقرأ فى كتاب الطب المقرر ، التفاصيل الخاصة بالنزلة الشعبية إذا أصابت كبار السن. إن شتاء قاسى البرد قد يكون خطرا على حياة الرجل العجوز. وتمنى من كل قلبه أن يشتد البرد والمطر. وظل على هذا التفكير حتى أصبح ناحية من نواحي الجنون. كان العم وليم يتأثر أيضا بالحرارة الشديدة ، وقد مرت به فى شهر أغسطس ثلاثة أسابيع من الجو الحار الخانق. وتصور بعينى خياله أنه سيتلقى يوما برقية تقول بأن القس قد مات فجأة. وتخيل نفسه وقد تخلص من همومه وكان وهو واقف على رأس السلم يرشد الناس إلى حيث يريدون ، يشغل ذهنه بالتفكير فى إنفاق الأموال التي سيرثها ، إنه لايعرف مقدارها بالضبط. قد لا تزيد على خمسمائة جنيه ولكنها حتى إذا كانت كذلك تكفيه فإذا حدث هذا فسيترك المحل على الفور ولن يهتم بالأخطار عن تركه للعمل بل يحزم صندوقه ويرحل دون أن يبادل أحد كلمة.. ثم يعود إلى المستشفي ، وسيكون هذا أول عمل يقوم به. ترى هل

نسي الكثير من معلوماته ؟ إن فى استطاعته أن يسترجع كل شئ فيما لا يزيد على ستة شهور ، وعندئذ يدخل الامتحانات الثلاثة بأسرع ما يمكن ، القابلة أولا ثم الطب وبعدئذ الجراحة. وقد تملك فيليب الخوف من أن يترك عمه ، رغم وعوده كل ما يملك للأبروشيه أو الكنيسة. وقد أزعجته هذه الفكرة. وقال فى نفسه أن عمه لن يكون بهذه القسوة. أما إذا وقع المحظور ، فقد قرر ما ينتوى عمله.. إنه لن يستمر فى عمله هذا إلى الأبد ! لقد كانت حياته محتملة لمجرد أنه يتوقع شيئا أحسن. فإذا ما فقد الأمل فلن يخشى شيئا وسيكون الدليل الوحيد على شجاعته هو الانتحار. وعندما تعمق فى بحث هذه الفكرة ، حدد بدقة العقار غير المؤلم الذى يستطيع أخذه ، وكيف يحصل عليه وكان مما شجعه على ذلك أنه إذا تحرجت الأمور واستعصي حلها فسيجد منها مخرجا على كل حال.

«الثاني إلى اليمين يا سيدتي ، ثم أنزلي الدرج ، الأول على اليسار ثم رأسا الإمام تقدم من فضلك يامستر فيلبس».

وكان فيليب يتحاشى ورود الأماكن التي كان يعرفها فى أسعد أيامه ولقد أنفرط عقد الاجتماعات الصغيرة التي كانت تحدث فى حانة شارع بيك. فلم يعد ماكليستر يذهب إلى هناك، بعد أن غرر بأصدقائه. أما هايوارد فكان فى مدينة الرأس. ولم يبق إلا لوسون وحده ولم يرغب فيليب فى رؤيته بعد شعوره بأنه لم يبق ما يربطه بالمرسم، ولكن حدث فى أحد أيام السبت، بعد الغذاء وكان قد بدل ملابسه وسار فى شارع ريجنت أن تقابل فجأة مع لوسون وجها لوجه وكان فيليب فى طريقه إلى المكتبة الحرة فى شارع سان مارتن ليقضي فيها بعض الوقت. وكانت الفكرة الأولي التي طافت بذهنه أن يمر به دون كلام ولكن لوسون لم يتح له هذه الفرصة فقد بادره بقوله:

– ألا تأتي إلى المرسم لنتحدث؟

وقال فيليب:

– كلا.

– ولم لا؟

– ليس ثمة ما نتحدث فيه.

ورأى فيليب آلاما يجول فى عيني لوسون ولكنه لم يكن يسعه إلا أن يعلل ما فعل، فقد كان عليه أن يفكر فى نفسه ولم يكن يحتمل مجرد التفكير فى مناقشة موقفه أنه لم يكن يستطيع أن يحتل هذا الموقف إلا فى حالة واحدة هي الإصرار على ألا يفكر فيه. كان يخشي أن يضعف إذا ما بدأ يكشف عن خبيئة نفسه وفوق هذا، فقد كان يكره الأماكن التي ذاق فيها مرارة البؤس وتذكر ما تحمله من إذلال وتحقير عندما كان ينتظر فى ذلك المرسم وهو يتلوى من الجوع حتى يقدم له لوسون وجبة غداء. وتذكر المرة الأخيرة التي أخذ فيها منه خمسة شلنات لقد كره منظر لوسون لأنه أعاد إلى ذهنه ذكرى تلك الفترة أيام المهانة التامة.

– اسمع يا فيليب.. تعال إليَّ لنتعشى معا ليلة من الليالي واختر الليلة التي توافقك.

وتأثر فيليب من كرم الرسام فإن الناس على مختلف أنواعهم كرماء معه كرما يسترعي النظر وقال:

– ذلك كرم منك يا صديقي القديم، ولكني لا أستطيع.

ثم رفع يده قائلا:

– وداعا..

وضاق لوسون بهذا التصرف الذى لم يدر له سببا، ولكنه صافحه وسار فيليب فى طريقه وهو يعرج فى عجلة. وهو مثقل القلب وشرع كعادته يؤنب نفسه على ما فعل. ولم يذكر كيف جعله جنون الكبرياء يرفض الصداقة المعروضة عليه ولكنه سمع وقع أقدام تجرى خلفه، وسرعان ما كان صوت لوسون يناديه. ووقف عن المسير وتملكه العداء نحو لوسون فجأة ونظر إليه نظرة نتور ثم سأله :

– ماذا تريد ؟

– أعتقد أنك سمعت عن هايوارد أليس كذلك ؟

– أعرف أنه رحل إلى المدينة الرأس.

– لقد مات بمجرد وصوله إلى هناك.

وصمت فيليب لحظة ولم يحر جوابا ، ولم يصدق أذنيه.

وسأل :

– أوه. مرض معوى. إلا ما أسوا حظه ، أليس كذلك ؟ ظننت أنك لا تعلم. ولقد ذهلت عندما سمعت الخبر.

وأطرق لوسون بسرعة ثم سار فى طريقه. وشعر فيليب بقشعريرة تسرى فى قلبه. ذلك أنه لم يفقد من قبل صديقا من نفس سنه، ومن أجل ذلك أحدث له هذا الخبر صدمة شديدة غير عادية وذكره بأن الموت مصيره. ذلك انه وإن كان يعلم حق العلم ، وأن مصير الناس كلهم إلى الموت ، لم يكن يحس فى خبيئة نفسه كما لم يكن يحس سائر الخلق بأن ما يصيب الناس سيصيبه هو أيضا. هذا سبب فى أن موت هايوارد كان له أعمق الأثر فى نفسه، رغم مضي مدة طويلة فترت فيها حرارة الصداقة بينهما. فقد تذكر فيليب فجأة كل ما دار بينهما من أحاديث طيبة، وحزفى نفسه كثيرا أن يدرك أنه لن يتحدث معه للأبد بعد الآن وتذكر أول لقاء بينهما والشهور الجميلة التي قضياها معا فى هيندلبرج غاص قلب فيليب عند التفكير فى تلك الأيام الخوالي.

وفكر فى هايوارد ،إعجابه الشديد به عندما التقيا لأول مرة، ثم كيف تخلص من ذلك الوهم وأصبح لا يبالي به حتى لم يعد حتى هناك ما يربطهما معا غير العادة والذكريات القديمة.

إن من عجائب هذه الحياة أن ترى شخصا كل يوم عدة شهور، وتصبح وثيق الصلة به ،حتى لا تتصور أن فى وسعك أن تحيا بدونه. ثم يأتي الفراق، وتسير الأمور فى طريقها الطبيعي، ويثبت لك أن الرفيق الذى بدأ من قبل ألا غني عنه كان غير ضرورى وتستمر حياتك، ولاتفتقده. وتذكر فيليب تلك الأيام الأولى التي قضاها فى هيندلبرج ، عندما كان هايوارد ، الذى كان فى نظره

قادرا على كل أمر عظيم، شديد التحمس للمستقبل وكيف أنه أذعن تدريجا للفشل بعد إن لم يستطع تحقيق شيء من أهدافه وقد مات الآن وكان موته غير ذى شأن كما كانت حياته لقد مات ميتة حقيرة، من مرض حقير بعد أن فشل مرة أخرى فى آخر حياته فى إنجاز أى شيء. فكأنه وهذه حاله الآن لم يعش قط.

ومضي الخريف وأتي الشتاء، وكان فيليب قد ترك عنوانه لمسز فوستر مديرة بيت عمه؛ حتى تستطيع الاتصال به ولكنه ظل يذهب مرة كل أسبوع إلى المستشفي على أمل ورود خطاب وحدث ذات مساء أن وجد اسمه على غلاف رسالة بخط كان يتمني ألا يراه أبدا. وشعر بشعور غريب، وظل لحظة قصيرة لا يجسر على أخذه. لأنه يعيد إلى نفسه ذكريات بغيضة إليه ولكنه أخيرا قاوم نفسه ومزق الغلاف ليفتحه ووجد بداخله الرسالة التالية:

٧ شارع وليم – ميدان فتزورى.

عزيزى فيل...

هل لي أن أراك مدة دقيقة أو اثنتين بأسرع ما يمكن أني أعاني متاعب شديدة ولا أدرى ماذا أعمل والمسألة لاعلاقة لها بالنقود.

المخلصة ميلدريد...

ومزق فيليب الخطاب إربا إربا وبعثر قصاصاته فى ظلام الشارع بعد خروجه ثم غمغم يقول:

– عليها اللعنة!

وغمره شعور من الاشمئزاز عندما فكر فى رؤيتها مرة ثانية. ذلك أنه لم يعد يهمه أن تحل بها المصائب، فهذا جزاؤها الحق أيا كان. إنه لا يفكر فيها إلا وقلبه مفعم بكرهها. وأن حبه القديم لها ليثير فى نفسه بغضه إياها واشمئزازه منها. لقد ملأته ذكرياته بالغثيان والتقزز. وقد حاول وهو يسير فوق جسر نهر التيمس، أن ينأى بنفسه عن التفكير فيها وأوى إلى فراشه ولكنه لم يستطع النوم. وتساءل عما ألم بها، ولم يستطع أن ينزع من رأسه فكرة الخوف من أن تكون مريضة وجائعة وقال فى نفسه أنها لم تكتب إليه إلا بعد أن وصلت حالتها حافة اليأس. وثار على نفسه لهذا الضعف. ولكنه كان يعلم أنه لن يجد سلاما أو راحة إلا إذا رآها. ولهذا كتب لها فى الصباح بطاقة أودعها صندوق البريد وهو فى طريقه إلى المحل وكانت كلماتها جافة وضمنها أسفه الشديد للمتاعب التي تعانيها، وعزمه على الحضور فى الساعة السابعة مساء إلى العنوان الذى أعطته. كان مسكنا فى منزل حقير يقع فى شارع قذر وكان يشعر وهو يسأل هل هي موجودة بألم لمجرد التفكير فى أنه سيراها. وتملكه أمل قوى فى أن تكون قد رحلت فقد كان منظر المكان يوحي بأنه من النوع الذى ينتقل إليه الناس ثم يرحلون منه باستمرار. ولم يكن فيليب قد عني بالنظر إلى خاتم البريد على الرسالة فلم يعرف كم يوما ظلت على الرف. ولم تجب السيدة التي فتحت الباب عن استفهامه بل تقدمته وهي صامتة إلى الممر، وطرقت بابا فى الجهة الخلفية ونادت:

– مسز ميللر هنا سيد يريد أن يراك.

وفتح الباب قليلا وأطلت ميلدريد منه فى توجس ثم قالت:

– أنت هو؟ ادخل!

ودخل فيليب وأغلقت ميلدريد الباب. وكانت حجرة نوم صغيرة جدا غير منظمة كمثيلاتها من الغرف التي سكنتها من قبل. وعلي الأرض حذاؤها أحد جزئيه فى جانب والثاني فى جانب آخر، وهو غير نظيف وعلي الصندوق ذى الأدراج كانت قبعتها. وإلي جانبها خصلات من الشعر المستعار، وبحث فيليب عن مكان يضع فيه قبعته. فالمشاجب التي خلف الباب كانت محملة بملابسها وقد لا حظ فيليب أنها جميعا ملطخة بالطين عند نهايتها.

وقالت ميلدريد لفيليب:

– هلا جلست..

وأطلقت ضحكة صغيرة سمجة وقالت:

– أظنك دهشت عندما سمعت مني مرة ثانية..

وأجابها فيليب:

– إنك مبحوحة الصوت جدا.. هل تقاسين من ألم فى حلقك؟

– أجل أقاسيه منذ وقت..

ولم يقل فيليب شيئا، وأنتظر حتى تشرح له لماذا طلبت رؤيته. وقد أوحي إليه منظر الحجرة فى وضوح أنها عادت إلى الحياة التي انتشلها منها. ولم يعرف ما حدث للطفلة فقد كانت صورتها فوق المدفأة، ولكن لم يكن بالحجرة ما يدل وجودها. وكانت ميلدريد ممسكة بمنديلها وقد حولته إلى كرة صغيرة أخذت تتقاذفها من يد إلى أخرى. ولاحظ أنها عصبية جدا. وكانت تحملق فى النار، استطاع أن ينظر إليها دون أن تتقابل عيناهما. وكانت أنحف كثيرا مما كانت يوم أن فارقته. وكان جلدها، الأصفر المائل إلى الجفاف، ملتصقا إلى درجة كبيرة بعظام وجنتيها وكانت قد صبغت شعرها حتى أصبح الآن كستنائى الشكل، وقد غيرها هذا كثيرا وجعلها تبدو أكثر سوقية.

وقالت ميلدريد أخيرا:

– لقد روح عني كثيرا وصول خطابك.. وقد ساورني الشك فى وجودك بالمستشفي..

ولم يتكلم فيليب:

– أعتقد أنك قد نلت الآن درجتك العليا، أليس كذلك؟

– كلا...

– كيف كذلك ؟

– لم أعد ملتحقا بالمستشفي فقد اضطررت إلى تركه منذ ثمانية عشر شهرا.

– إنك إنسان متقلب.. ويبدو أنك لا تستطيع الثبات على حال.

وصمت فيليب برهة أخرى، وعندما عاد للكلام كان يتكلم فى برود:

لقد فقدت النقود القليلة التي كنت أملكها فى مضاربة مشئومة ولم يعد عندي ما أستطيع معه الاستمرار فى دراسة الطب، وكان على أن أشتغل لأعيش.

– وماذا تعمل إذن؟

– أعمل فى محل.

– عجبا.

وحدرجته ميلدريد بنظرة ثم حولت عينيها عنه فى الحال. وظن أن وجهها قد أحمر وأخذت تضرب راحتيها بمنديلها فى عصبية. وقالت وهي تخرج الألفاظ من فمها متقطعة:

– إنك لم تنس بعد كل ما درسته فى الطب، أليس كذلك؟

– لم أنسه تماما.

– لهذا أردت رؤيتك.

ثم تحول صوتها إلى همس مبحوح وقالت:

– لا أدرى ماذا أصابني.

– ولماذا لا تذهبين إلى مستشفي؟

لا أريد ذلك ولا أحب أن أرى كل الطلبة يحملقون في، أخشى.. أن يحتجزوني هناك.

وسألها فيليب فى برود وبنفس العبارة التقليدية التي تستعمل فى العيادات الخارجية:

– مم تشكين؟

– أصبت بطفح فى جسمي ولا أستطيع التخلص منه الآن.

وروع فيليب وشعر بوخز فى قلبه، وتندى جبينه بالعرق.

– دعيني أنظر إلى حلقك.

وأخذها فيليب إلى النافذة وفحصها بقدر المستطاع ثم لمح عينيها فجأة. فرأى فيهما الخوف وعلائم الرعب والفزع، وارتاعت هي من نظرته إليهما وأرادت أن يطمئنها على حالتها ونظرت إليه فى توسل وهي لا تجسر على طلب كلمة مواساة ولكن أعصابها كلها كانت متوترة تود سماع هذه الكلمة. ولكنه لم يجد ما يطمئنها به وقال لها:

– أخشى أن أقول لك فى أشد حالات المرض.

– ماذا تظن بي؟

وعندما صارحها فيليب، شحب وجهها شحوب الأموات وحتى شفتيها أصفر لونهما. وبدأت تبكي فى يأس، بدأت تبكي فى هدوء ما لبث أن استحال إلى نحيب خانق.

وأخير قال لها فيليب:

– آسف كل الأسف كان لابد لي أن أخبرك.

– هذا معناه أن أقتل نفسي وانتهى.

ولم يلتفت فيليب إلى هذا التهديد بل قال:

– هل لديك نقود؟

ستة جنيهات أو سبعة.

يجب أن تطرحي هذا النوع من الحياة. ألا تظنين أنك تستطيعين الحصول على عمل؟

أخشى ألا أستطيع معاونتك كثيرا فأنا لا أحصل على أكثر من اثني عشر شلنا فى الأسبوع.

وصاحت ميلدريد.. وقد عيل صبرها.

– وأى عمل أصلح له الآن؟

– لعنة الله على العمل كله.. يجب أن تحاولي الحصول على أى عمل.

وكان فيليب يتكلم فى جد، وهو يطلعها على ما هي فيه من خطر، وعلي الخطر الذى تتعرض له، وكانت تستمع إليه وهي واجمة. وحاول هو أن يواسيها حتى استطاع أخيرا أن يجعلها بعد أن تنفذ ما يشير عليها به وكتب لها ما يلزمها من الدواء وقال إنه سيتركها عند أقرب صيدلي. وشدد عليها بضرورة تعاطي هذا الدواء فى أدق نظام ومد إليها يده بعد أن هم بالخروج وهو يقول لها:

– لا تستسلمي لليأس فسيشفي حلقك قريبا.

ولكنه ما كاد يخطو حتى انقلبت سحنتها، وأمسكت بسترته وهي تصرخ بصوت مبحوح.

– لا تتركني، فأنا جد خائفة.. أرجوك ألا تتركني وحدى الآن يا فيليب.

ليس لي سواك أذهب إليه.. فلم يكن فى حياتي صديق سواك.

وأحس فيليب بما تملكها من فزع.. وأطرق بعينيه إلى الأرض. لقد اقتحمت هذه المرأة حياته مرتين وسببت له أشد البؤس. نعم إنها ليس لها حق عليه، ومع هذا فقد كان يحس بألم عجيب فى أعماق قلبه لا يدرى له سببا. وهو نفس الألم الذى أقض مضجعه، حين تلقي رسالتها، ولم يترك له سبيلا للراحة والهدوء.

وقال لنفسه :

– أعتقد أنني لن أستطيع أبدا التغلب على هذا الشعور.

وكان الذى يحيره أنه يشعر بتقزز طبيعي غريب، يجعله غير مرتاح إلى وجوده بجانبها وسألها:

– ماذا تريدين مني أن أفعل؟

– لنخرج معا للعشاء وسأدفع الثمن.

وتردد فيليب. وشعر بأنها تتسلل مرة ثانية إلى حياته فى الوقت الذى كان يظن أنها خرجت منها إلى الأبد. وراقبته ميلدريد فى قلق مؤلم.

– أعلم أنني عاملتك بقسوة. ولكن لا تتركني وحدى الآن فلقد انتقمت لنفسك. ولو أنك تركتني الآن وحدى فلن أدرى كيف أتصرف.

وقال فيليب:

– لا ضير. على أن يكون ذلك بأقل النفقات، فلم تعد معي نقود أبعثرها فى هذه الأيام.

وجلست ميلدريد ولبست حذاءها، ثم بدلت ملابسها ولبست قبعتها وسارا معا حتى وجدا مطعما فى طريق توتنهام كورت. وكان فيليب قد تخلص من عادة تناول الطعام فى تلك المواعيد. كما كان حلق ميلدريد يؤلمها فلم تستطع بلع الطعام، وتناولا قليلا من اللحم البارد. وشرب فيليب كوبا من الجعة، وكانا يجلسان متقابلين، كما كانا يفعلان كثيرا من قبل، وسأل فيليب نفسه هل تذكر ميلدريد ذلك. ولم يجدا ما يقوله أحدهما للآخر، وكاد الصمت يطول بينهما لو لم يرغم فيليب نفسه على الكلام. وكانت ميلدريد تبدو عجوزا شاحبة ضامرة فى الضوء اللامع للمطعم ، ذى المرايا الرخيصة التي تعكس الصور واحدة وراء واحدة فى سلسلة لا نهاية لها. وكان فيليب مشوقا إلى معرفة ما حل بالطفلة، ولكن الشجاعة لم تواته ليسألها وأخيرا قالت هي:

– أتعلم أن الطفلة ماتت فى الصيف الماضي؟

وأجاب فيليب:

– لم أعلم بهذا...

– كان أولي بك أن تقول أنك حزنت لهذا النبأ.

وأجابها:

– لست حزينا بل أنا مسرور.

ونظرت إليه وقد فهمت قصده، ثم حولت بصرها عنه وقالت:

– لقد كنت يوما شديد التعلق بها، أليس كذلك ؟ لقد كنت دائما أتحير من شدة تعلقك بابنة رجل سواك.

– ولم فرغا من تناول الطعام، ذهبا إلى الصيدلي لإعداد الدواء الذى أمر به فيليب.

وبعد عودتهما إلى حجرتهما الحقيرة سقاها جرعة منه. وجلسا معا حتى حل موعد عودته إلى شارع هارنجتون. وقد حل به ضيق شديد.

واعتاد فيليب أن يذهب لزيارتها يوميا.. وكانت تتناول الدواء الذى وصفه وتتبع تعليماته، وسرعان ما ظهرت النتائج فبعثت فى نفسها أشد الثقة فى مهارة فيليب. وكانت كلما تحسنت حالتها قل قنوطها، وأصبحت تتحدث فى حرية أكثر.

وقالت ميلدريد:

– ستصلح حالي بمجرد حصولي على عمل، لقد تلقيت درسا وأنتوى الانتفاع به. ولن أعود لحياة العربدة.

وكان فيليب يسألها فى كل مرة يزورها، هل وجدت عملا. وكانت تطلب إليه ألا يشغل نفسه بأمرها فإنها ستجد ما تعمله حين تريد ذلك ففي قوسها أكثر من وتر، ومن الخير ألا تعمل شيئا مدة أسبوع أو اثنين. ولم يكن فيليب ينكر هذه الحقيقة، ولكنه بدأ يصر على اشتغالها بعد انتهاء هذه الفترة وكانت هي تضحك منه فقد أصبحت الآن مرحة إلى حد كبير وقالت له أنه إنسان مزعج كعهدها به. وأخذت تقص عليه قصصا طويلة عن المديرات اللاتي

التقت بهن فقد كانت تفكر فى العمل فى محل للأكل، وتذكر له ما قلن لها وما قالت لهن. ولكن شيئا محددا لم يتم، وإن كانت متأكدة من أن شيئا ما سيتقرر فى أوائل الأسبوع القادم. وليس ثمة فائدة من التسرع فمن الخطأ أن يقبل المرء عملا لا يناسبه.

وقال لها فيليب وقد نفذ صبره:

ـ من الغباء أن تتكلمي هكذا.. يجب أن تقبلي أى عمل تحصلين عليه فلن أستطيع معونتك كما أن نقودك لن تبقي إلى الأبد.

– إني لم أصل بعد إلى نهاية المطاف وسأترك ذلك للظروف.

ونظر إليها نظرة حادة لقد مضت أسابيع ثلاثة منذ زارها أول مرة وكان لديها في ذلك الوقت أقل من سبعة جنيهات. وتملكه الشك، وتذكر بعض ما قالته، وأخذ يضيف بعضه إلى بعض وأخذ يشك فى أنها قد بحثت فى الواقع عن عمل أو لعلها كانت تكذب عليه طول الوقت. فمن الغريب حقا أن تستمر نقودها القليلة هذا الزمن الطويل وسألها.

– كم تدفعين أجرا لهذا المكان؟

– إن صاحبة المنزل سيدة لطيفة تختلف عن غيرها وهي تقبل راضية أن تصبر حتى يسهل على أن أؤدى الأجر.

وظل هو صامتا. ذلك أن موضوع شكه كان مروعا إلى حد تردد معه فى الإفصاح عنه. ولم تكن هناك فائدة من سؤالها عنه، فستنكر كل شيء وعليه أن يبحث بنفسه إن شاء أن يعرف، ولقد أعتاد أن يغادرها فى الساعة الثامنة مساء. وما أن دقت الساعة حتى نهض، ولكنه لم يذهب إلى شارع هارنجتون، انزوى فى ركن بميدان فتزورى، بحيث يستطيع رؤية أى إنسان يسير فى شارع ويليام. وخيل إليه أنه انتظر وقتا لا نهاية له. وأوشك أن يغادر مكانه، بعد أن ظن أن تقديره كان خاطئا، ولكنه وجد باب المنزل رقم ٧ يفتح وتخرج منه ميلدريد. وتراجع فيليب إلى الخلف فى الظلام، وراقبها وهي تسير تجاهه. وكانت تلبس القبعة ذات الريش الكثير التي رآها فى حجرتها وترتدى ثوبا يعرفه. فقد كان خارجا عن حدود الحشمة لا يليق للسير فى الشارع ولا يصلح لذلك الوقت من السنة. وتبعها فى بطء حتى وصلت إلى طريق توتنهام كورت، حيث أبطأت من خطواتها، ثم وقفت عند زاوية فى شارع أكسفورد، وتلفتت حولها ثم عبرت الشارع إلى قاعة الموسيقي. ذهب هو إليها ولمس ذراعها. ورأى منها أنها قد صبغت باللون الأحمر وجنتيها وطلت شفتيها وقال لها:

– إلي أين يا ميلدريد؟

وأفزعها صوته فاحمر وجهها كما كان يحدث دائما عندما تضبط متلبسة بالكذب. وما لبث بريق الغضب الذى كان يعرفه جيدا، أن ظهر فى عينيها، عندما تحاول بغريزتها أن تدافع عن نفسها بألفاظ السباب، ولكنها لم تنطق بالألفاظ التي كانت على طرف لسانها.

– لقد كنت ذاهبة لرؤية العرض لا أكثر. فإن جلوسي وحيدة كل ليلة سيحني ظهرى.

ولم يتظاهر بأنه مقتنع بقولها بل انفجر يقول:

– يجب ألا تعودى إلى ذلك.. لقد أفهمتك خمسين مرة ما فى هذا من خطر عليك. يجب أن تمتنعي عن هذا العمل حالا.

وصاحت فى خشونة:

– أمسك لسانك، وكيف أستطيع أن أعيش فيما تظن؟

وأمسك فيليب بذراعها وحاول أن يجرها بعيدا عن ذلك المكان دون أن يفكر فيما يفعل.

– بالله عليك. سيرى معي إلى منزل، إنك لا تدركين خطورة ما تفعلين أنه عمل إجرامي والرجال خطرين.

– وماذا يهمني من أمرهم فلنتركهم لحالهم.. إن الرجال لم يحسنوا إلى حتى أضايق نفسي من أجلهم.

ودفعته بعيدا عنها، وسارت إلى شباك التذاكر ودفعت النقود.

ولم يكن مع فيليب إلا ثلاثة بنسات فلم يستطع أن يتبعها فاستدار ومشي فى بطء فى شارع أكسفورد.

وقال لنفسه:

– لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت.

وكانت هذه هي النهاية، فلم يرها بعدها أبدا.

● ● ●

ومضت الأسابيع، ومضت الشهور وقرب الشتاء من نهايته. وفي الحدائق وفي المتنزهات ظهرت البراعم ثم الأوراق وخيمت السأمة والخمول على فيليب. وكان الزمن يمر ولكن بخطوات ثقيلة. وظن أن شبابه سيولي، وأنه سرعان ما سيفقده دون أن يكون قد حقق شيئا من آماله. ودهش فيليب، وكان قد انصرف تفكيره إلى أشياء أخرى عندما جاءت الأنباء أخيرا بخطورة حالة القس. وكان هذا فى شهر يوليو. وكانت أجازته ستبدأ بعد أسبوعين ووصله خطاب من السيدة فوستر تقول فيه أن الطبيب يقرر أن ما بقي للقس فى الحياة لايعدو أن يكون بضعة أيام، وأن علي فيليب إن شاء رؤيته أن يحضر حالا. وذهب فيليب إلى رئيسه وأخبره بعزمه على السفر. وكان السيد سامبسون رجلا مهذبا وما أن علم بالظرف حتى وافق.. وودع فيليب زملاءه فى القسم، وكان خبر رحيله انتشر بينهم انتشار مبالغا فيه كثيرا، وظن الجميع أنه قد أصبح من الأغنياء.

كان هذا غريبا، ولكن فيليب كان بالفعل آسفا لتركه هؤلاء الزملاء، وقد ظن أنه كان يكرههم وتشمئز نفسه منهم، وعندما غادر منزل شارع هارنجتون لم يكن مبتهجا. لقد كان يتنبأ بما سيظهر عليه من انفعالات فى هذه المناسبة ولكنه لم يشعر بشيء منها. ولم يبال بها قط وكأنه ذاهب إلى قضاء إجازة لبضعة أيام.

وقال هو لنفسه:

«إن لي طبيعة خبيثة.. أتطلع بها إل حدوث الأشياء فى اهتمام وما أن تحدث حتى أشعر بخيبة أمل». ووصل إلى بلاكستابل مبكرا بعد ظهر نفس اليوم. وقابلته السيدة فوستر بالباب، وقد نم وجهها على أن القس لم يمت بعد.

وقالت السيدة فوستر:

– إنه اليوم أحسن حالا. إن له بنية عجيبة

وقادته إلى حجرة النوم حيث يرقد السيد كاري على ظهره وابتسم الرجل لفيليب ابتسامة خفيفة فيها ظل من المكر والرضا. وقال الرجل العجوز فى صوت خائر:

– ظننت أن كل شيء قد انتهى بالأمس وسلم الجميع للقدر أليس كذلك يامسز فوستر؟

– إن لك بنية عجيبة، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.

– مازالت فى الكلب العجوز بقية من حياة

وقالت السيد فوستر إن القس ينبغي أن يمتنع عن الكلام فإن ذلك يجهده وكانت تعامله بشيء من الاستبداد الرحيم وكأنه طفل. وكان فى تصرف الرجل العجوز شيء من الطفولة فى إحساسه بالرضي إذ استطاع أن يخدعهم فيما توقعوه لقد خطر فى باله من فوره أن فيليب قد استدعي وسر لأنه حضر فى مهمة خادعة. ذلك انه استطاع أن يتجنب أزمة أخرى من أزمات القلب، فإنه سيشفي فى مدى أسبوع أو اثنين وقد سبق له أن اجتاز أزمات عديدة من قبل. كان يشعر فى أثنائها دائما بأنه سيموت ولكنه لم يمت. وكانوا كلهم يتحدثون طويلا عن بنيته ولكن أحدا منهم لم يعرف مدى قوتها

وسأل فيليب وهو يتظاهر بأنه يعتقد أنه إنما جاء فى إجازة

– هل تبقي هنا يوما أو اثنين؟

وأجاب فيليب فى مرح:

– كنت أفكر فى ذلك.

– إن تنفس نسيم البحر يفيدك كثيرا.

وحضر الدكتور ويجرام وقتئذ وتحدث الى فيليب بعد أن فحص القس قائلا:

– أخشى أن تكون نهايته قد حانت هذه المرة وسيكون موته خسارة عظيمة لنا جميعا لقد عرفناه خمسا وثلاثين سنة.

وقال فيليب:

– يبدو أنه أحسن حالا الآن.

– إني أبقي على حياته بالدواء، ولكن ذلك لا يدوم. فقد كانت الحالة خطيرة فى اليومين الأخيرين ولقد ظننته مات أكثر من ست مرات.

وصمت الطبيب دقيقة أو اثنتين، ولكنه قال فجأة لفيليب عند مدخل الدار:

– هل قالت لك السيدة فوستر أى شيء؟

– ماذا تعني؟

– إن هؤلاء الناس يعيشون على الخرافات. هذه السيدة تظن أن فى ذهن الرجل شيئا، وأنه لن يموت حتى يتخلص من هذا الشي وأنه لا يريد أن يتحامل على نفسه ويعترف به ولم يجب فيليب واستمر الطبيب يقول:

– وهذا هراء بطبيعة الحال. لقد كان طول حياته رجلا صالحا وعندما يموت نستشعر أننا خسرناه. ولا يمكن أن يكون قد أتى شيئا يستوجب أن يؤنب نفسه عليه وإني لا أشك فى أن يتجاوب معنا القس التالي نصف ما تجاوب معنا عمك.

وظل السيد كارى دون أن يطرأ عليه تغيير يذكر عدة أيام ثم فقد بعد ذلك شهيته الممتازة، وقل طعامه ولم يتردد دكتور ويجرام الآن في إيقاف ألم الأعصاب الذى يعذبه.

وكان ذلك يجهده بالإضافة إلى عملية تحريك أطرافه المصابة بالفالج. ولكن ذهنه ظل صافيا. وتولي فيليب مع السيدة فوستر تمريض القس بالتبادل. وقد أجهدتها العناية بالرجل هذه الأشهر الطوال التي ظلت تلازمه فيها وتقضي كل حاجاته، ولهذا أصر فيليب على الجلوس إلى جانب المريض لكي تستطيع الحصول على ما يلزمها من الراحة ليلا. وكان يقضي الساعات الطويلة جالسا فى كرسي ذى مساند حتى لا يستغرق فى النوم. وكان يقرأ فى كتاب ألف ليلة وليلة على ضوء الشموع المحجوب ولم يكن قد قرأ هذه القصص منذ أن كان صبيا. وقد ذكرته الآن بطفولته. وكان أحيانا يجلس ليستمع إلى هدوء الليل. ثم يحدث أن يذهب تأثير الدواء فيصبح الشيخ قلقا ويسبب لفيليب الانشغال الدائم.

وحدث أخيرا وفي الصباح المبكر من أحد الأيام، وبينما كانت الطيور تشقشق على الأشجار، أن سمع فيليب من يناديه، وذهب إلى فراش المريض، فوجد السيد كارى مستلقيا على ظهره، وعيناه تنظران ألي سقف الغرفة، ولم يحولهما إليه. ورأى فيليب أن العرق يندى جبينه، فأخذ منشفة ومسحه.

وسأله الرجل العجوز:

– أهذا أنت يا فيليب.

وفزع فيليب لأن صوت الرجل قد تغير فجأة، فقد كان مبحوحا وخفيضا كصوت رجل يرتجف خوفا.

– أجل، هل تريد شيئا؟

وساد الصمت. ومازالت العينان اللتان لا تبصران تحملقان فى السقف، ثم مرت بوجه الرجل رجفة وقال:

– أظن أنني أموت.

وصاح فيليب:

– ما هذا الهراء.. لن تموت قبل سنين..

وانحدرت دمعتان من عيني الرجل العجوز وأثر ذلك أشد التأثير فى فيليب. ذلك أن عمه لم يظهر قط انفعال ما فى أى شأن من شئون الحياة فكان من المفجع الآن أن يظهر عليه هذا الانفعال لأن هذا معناه وجوده فى حالة من الفزع لا يستطيع التصريح بها.

وقال القس لفيليب:

– أرسل فى استدعاء السيد سيموندس فإنى أريد أن أتناول العشاء الربانى.

وكان السيد سيموندس هذا نائبه.

وسأله فيليب :

– الآن؟

– حالا، وإلا وصل متأخرا.

وذهب فيليب ليوقظ السيدة فوستر، ولكنه كان متأخرا فقد كانت متيقظة فعلا. وطلب إليها أن ترسل الخادم برسالة، وعاد فيليب إلى حجرة عمه فسأله:

– هل أرسلت تستدعي السيد سيموندس؟

– أجل.

وساد السكون. وجلس فيليب إلى جانب الفراش، وأخذ يمسح العرق عن جبين عمه بين الحين والحين. وأخير قال الرجل العجوز:

– دعني أمسك يدك يا فيليب.

وأعطاه فيليب يده، وأمسك بها الرجل كأنه يمسك بالحياة، ليشعر بالراحة فى آخر ساعاته، ولربما لم يكن هذا القس قد أحب إنسانا فى حياته كلها، ولكن الآن ولي وجهه بحكم الغريزة نحو كائن إنساني. وكانت يده مبتلة وباردة، وقد أمسكت بيد فيليب فى جهد هزيل يائس، كان الرجل الشيخ يحارب الخوف من الموت، وفكر فيليب أن الناس سيمرون جميعا بهذه الأزمة. إلهي ما أفظع أن يقاسي الإنسان مثل هذا العذاب ومع أن فيليب لم يهتم يوما بعمه. وأنه ظل طيلة السنتين الأخيرتين يتمني موته، ولكنه لا يستطيع الآن أن يقاوم الحنان الذى يملأ قلبه. إلا ما أغلي الثمن الذى يدفعه الإنسان ليكون شيئا آخر غير الحيوان الأعجم.

ودام الصمت بينهما ثم قطعه استفهام ضعيف من السيد كارى:

– ألم يحضر بعد؟

وأخيرا حضرت مديرة المنزل لتعلن فى لطف أن السيد سيموندس قد حضر. وكان يحمل حقيبة بها عباءته البيضاء وقلنسوته، وأحضرت السيدة فوستر طبق العشاء الرباني.

وصافح مستر سيموندني فيليب فى صمت، ثم ذهب إلى جانب الرجل المريض وقد بدأ عليه الوقار الذى تتطلبه مهنته. وخرج فيليب والخادم من الحجرة.

وسار فيليب فى الحديقة التي كانت كلها أشجار، ومازالت قطرات ندى الصباح تعلو أوراقها. وكانت الطيور تغرد فى بهجة، والسماء صافية الأديم، وكان الهواء المشبع بالملح لذيذا وباردا والورود مزدهرة، كما كانت خضرة الأشجار، وخضرة المروج جميلة وممتعة،

وسار فيليب وكان فى أثناء سيره يفكر فى ذلك اللغز الذى يجرى فى حجرة نوم القس. وأثار فيه هذا التفكير انفعالا خاصا. وسرعان ما جاءته السيدة فوستر لتقول له أن عمه يرغب فى رؤيته. كان نائب القس يضع أشياءه فى حقيبته السوداء، وأدار الرجل المريض رأسه وحياه بابتسامة. ودهش فيليب، فقد طرأ على الرجل تغيير، غير عادى. ذلك أن عينيه لم تبق فيهما نظرة الفزع وذهب التقطيب الذى كان يعلو وجهه، وبدا سعيدا وهادئا.

قال العم فى صوت تختلف نبراته عن الأولي:

– أنا مستعد الآن.. وعندما يريد الله أن يناديني فإن روحي بين يديه.

ولم ينطق فيليب، فقد كان فى وسعه أن يدرك أن عمه مخلص فيما يقول، وكان معجزة قد حدثت له فبدلته، وكأنه قد تناول مع الخبز جسم المنقذ ودمه، فبقى فيه من القوة ما يستطع أن يتغلب على الخوف فى أثناء مروره المحتوم إلي ظلمة الآخرة. وكان يعرف انه سيموت. واستسلم لما لابد منه ولم يقل إلا شيئا واحدا:

– سألحق بزوجتي العزيزة..

وأفزع هذا القول فيليب. فقد تذكر أنانية عمه المتحجرة التي كان يعامل بها زوجته، وكيف كان يقابل حبها المخلص المتواضع له. وخرج نائب القس وهو شديد التأثر وصاحبته السيدة فوستر إلى الباب وهى تبكى.

وراح السيد كاري فى سنة خفيفة بعد أن أنهكه المجهود الذى بذله. وجلس فيليب بجوار الفراش ينتظر النهاية.

ومضى الصباح، وأصبح تنفس الرجل العجوز يشبه الشخير. وجاء الطبيب وأعلن أن الرجل يموت. لقد غاب عن الوعي وأخذ ينقر فى ضعف على غطاء الفراش. كان قلقا، وصرخ واضطرب فأعطاه الطبيب ويجرام حقنة مسكنة وقال:

– ليس فى عملي هذا أية فائدة له وقد يموت فى أية لحظة.

ونظر الطبيب إلى ساعته ثم إلى المريض. ورأى فيليب إنها كانت الساعة الواحدة. وكان الدكتور ويجرام يفكر فى غذائه.

وقال فيليب:

– لا فائدة من انتظارك.

وأجاب الطبيب:

– لا أستطيع عمل شئ.

وراقب فيليب، فى عجب، عملية الموت. ورأى أنه لم يعد شئ إنساني فى الكائن غير الواعي الذى يقاوم فى ضعف. وكانت تصدر فى بعض الأحايين صرخة مكتومة من فمه المسترخي. وأرسلت الشمس أشعتها الحارة من سماء لا سحب فيها. ولكن أشجار الحديقة كانت سارة وباردة وكان اليوم جميلا. وكانت حشرة تطن وهى ملتصقة بلوح النافذة وسمع فيليب فجأة

حشرجة عالية أفزعته فقد كانت مخيفة مرعبة وسرت حركة فى أطراف الرجل العجوز، ومات القس. لقد تعطلت الآلة، وظلت الحشرة تطن أمام شباك النافذة.

وأعد جوسيه جريفز بمهارته المألوفة، الترتيبات اللائقة بالجنازة فى حدود الاقتصاد. وبعد أن انتهت مراسيمها عاد إلى الأبرشية مع فيليب. وكانت الوصية فى حوزته، وقد قرأها على فيليب فى أثناء تناولها الشاى فى الصباح الباكر مراعيا ظروف الوقت أتم مراعاة. وكانت الوصية مكتوبة على نصف صحيفة من الورق، وقد أوصى فيها السيد كارى بكل ما كان يملك لابن أخيه، الأثاث، وحوالي ثمانين جنيها فى المصرف، وعشرين سهما فى شركة إيست، وقليل من أسهم شركة السوب للجعة، وبعض أسهم من قاعة موسيقى أكسفورد، وعدد آخر قليل من مطعم فى لندن. اشتريت جميعها بإشراف جريفز الذى قال لفيليب مغتبطا:

ها أنت ذا ترى أن الناس يجب أن يأكلوا وأن يشربوا وهم يتوقون إلى التسلية. وستظل آمنا ما دمت تنفق نقودك فيما تعتقده ضروريا.

وقد أظهرت هذه الكلمة دقة التمييز بين خشونة السوقية، التي أسف فيليب لها ولكنه وافق عليها، وبين ذوق الطبقة الراقية. وكانت جملة المبلغ المستثمر كله ما يقرب من خمسمائة جنيه يضاف إليها رصيده فى المصرف وما يساويه، وهى ثروة لفيليب لم يكن سعيدا ولكنها أشعرته بأنه نجا من التعب وإن لم يشعر بالسعادة.

● ● ●

وما أن انقضت أيام قليلة حتى رحل فيليب إلى لندن ودخل بالنهار لأول مرة من سنتين بهو مستشفي القديس لوقا. وذهب إلى أمين مدرسة الطب الذى دهش لرؤيته. وسأله فى عجب ماذا كان يفعل. وكانت التجارب قد أكسبت فيليب ثقة فى نفسه ، وبدلت نظراته إلى كثير من الأمور. وكان هذا السؤال يحرج فيليب فى الماضي ولكنه الآن أجاب عنه فى برود . وبغموض متعمدا أن يمنع الأمين عن الاستمرار فى الاستعلام. قال فيليب أن شئونا خاصة اضطرته إلى قطع برنامج دراسته وأنه الآن جد شغوف لأن ينال درجته بأسرع ما يمكن، ومن أول امتحان يدخله خاصا بالقبالة وأمراض النساء. وقد سجل اسمه للتمرين فى أحد العنابر المخصصة للمريضات من النساء ولما كان الوقت وقت إجازة. فإنه لم يلق صعوبة فى الحصول على مكان فى قسم الولادة واتفق على أن يباشر واجباته خلال الأسبوع الأخير من أغسطس والأسبوعين الأولين من سبتمبر. وسار فيليب فى مدرسة الطب بعد هذه المقابلة، وكانت وقتئذ خالية أو تكاد لأن امتحانات آخر الفصل الدراسي الصيفي كانت قد انتهت وأخذ يتجول على طول الشرفة بجانب شاطئ النهر وقلبه ممتلئ بالآمال. فقد كان يفكر الآن فى أنه سيبدأ صفحة جديدة ، فى حياته. ويلقى وراء ظهره كل أخطاء الماضي وعبثه وتعاسته وأوحى إليه

منظر النهر الجارى، بأن كل شئ مضى فى طريقه المرسوم، وأنه ليس هناك ما يستدعى القلق، والمستقبل أمامه غنى بالإمكانيات.

وقضى فيليب الأسابيع القليلة التي كانت تسبق بدء الفصل الدراسي الشتوى فى قسم العيادة الخارجية واستقر فى عمله المنتظم فى أكتوبر وإذ كان قد بعد عن المستشفي زمنا طويلا فقد وجد نفسه بين أناس يكادون أن يكونوا كلهم جدد عليه، وقلما كانت هناك علاقة بين من هم من أعمار مختلفة، أما معاصرو فيليب فقد نالوا الآن درجاتهم. ولقد غادر بعضهم المستشفي ليعمل مساعدا. أو فى إحدى الوظائف. الأخرى فى مستشفيات الريف وملاجئه، بينما حصل البعض الآخر على عمل فى نفس مستشفي القديس لوقا. وظن فيليب أن السنتين اللتين كان فيهما عاطلا من الدراسة قد أنعشتاه ، وإنه أصبح اليوم قادرا على العمل فى نشاط وقوة.

سر آل إثلنى لما حل بساحة فيليب من خير. وكان قد احتفظ بأشياء قليلة من متاع عمه، لم يبعها ، فأهداها كلها لهم، فأعطى سالي سلسة ذهبية كانت لعمته. لقد كبرت سالى الآن وأصبحت مساعدة عند حائكة، وهى تخرج صباح كل يوم فى الساعة الثامنة لتعمل طول اليوم فى محل بشارع ريجنت، وكانت سالى تتمتع بعينين زرقاوين صريحتين، وحاجبين عريضين وكمية وفيرة من الشعر اللامع وكانت مرحة ممتلئة الجسم، وكان والدها مغرما بمناقشة منظرها وكان يحذرها دائما من السمنة. وكانت جذابة لأنها صحيحة الجسم. تتمتع بأنوثة طاغية. وكان لها معجبون كثيرون، ولكن أحدا منهم لم يثر عواطفها فلقد كانت تُشعر الإنسان بأنها تنظر إلى الحب على أنه أمر سخيف. ولهذا تخيل الشبان أنه ليس من السهل التقرب إليها.

والحقيقة أن سالى كانت تبدو أكبر من سنها. فقد اعتادت أن تساعد أمها فى عمل المنزل وفي العناية بالأطفال ، فاكتسبت بذلك روح الإدارة والتنظيم ، مما جعل أمها تقول أن سالى مغرمة فوق ما يجب بالتصرف كما تريد. ولم تكن كثيرة الكلام. ولكنها كانت كلما كبرت سنا اكتسبت روحا من الفكاهة الوديعة. وكانت تلقى، فى بعض الأحايين، بملاحظة توحي بأن وراء ظاهرها العادى تفكهه بأبناء جنسها. ووجد فيليب انه لم يصل أبدا معها إلى درجة الصداقة الحقيقية التي وصل إليها مع بقية أسرة إثلنى الكبيرة. وكان يضايقه ما تظهره أحيانا من عدم المبالاة به. فقد كان عدم مبالاتها يثيره نوعا، كما كان فى طبعها شئ من الغموض.

وقد أصر إثلنى، بأسلوبه العاصف، على أن تقبل سالى فيليب عندما أعطاها العقد ولكن سالى احمرت خجلا وتراجعت قائلة:

– كلا، لن أقبله.

وصاح إثلنى:

– أيتها السليطة يا ناكرة الجميل.. لم لا تقبلينه؟

وقالت سالى:

– لأني لا أحب أن يقبلني الرجال.

ورأى فيليب ارتباكها، وسر من ذلك ثم حول انتباه إثلنى إلى موضوع آخر ولم يكن هذا بالأمر الصعب ولكنه كان واضحا أن أمها تكلمت فى هذا الموضوع فيما بعد، لأن سالى انتهزت فرصة انفرادها بفيليب يوما ما لمدة دقيقتين، فى المرة التالية التي حضر فيها إلى الدار وأشارت إلى مسالة القبلة فقالت:

– لا أظنك قد ساءك منى أن أرفض تقبيلك فى الأسبوع الماضي.

وضحك فيليب وقال:

– لا أبدا..

واحمر وجه سالى قليلا عندما نطقت بالعبارات الشكلية التي أعدتها من قبل:

– لم يكن ذلك منى نكرانا للجميل. وسأظل أقدر هذا العقد قدره، وقد كان جميلا منك أن تهديني إياه.

وكان فيليب يجد الكلام معها صعبا لدرجة ما. فقد كانت تؤدى كل ما يجب أن تؤديه على أكمل وجه ولكنها كانت تبدو غير راغبة فى الدخول فى محادثات. ومع هذا فلم يكن هناك ما ينفر منها من حولها.

وحدث فى أحد الأيام الآحاد أن خرج إثلنى وزوجته معا، وجلس فيليب الذى كان يعامل كأحد أفراد الأسرة ، يقرأ فى البهو ، وأتت سالى وجلست بجوار النافذة تحيك. ذلك أن ملابس الفتيات كانت تصنع فى المنزل. وما كانت سالى تستطيع أن تقضى أيام الأحد خاملة.

وظن فيليب أنها تريد الحديث معه فوضع الكتاب من يده.

وقالت سالى لفيليب:

– استمر فى القراءة. لقد ظننت أن باستطاعتي أن اجلس بجوارك ما دمت وحيدا.

وقال فيليب:

– إنك أكثر من رأيت صمتا.

فردت عليه سالى قائلة:

– لا نريد ثرثارا آخر فى هذا المنزل؟

ولم يكن فى نبراتها سخرية من أحد. بل كانت تقرر الحقيقة المجردة.ولكن فيليب فهم أنها كانت تقصد أباها. لقد انتهى عهد الطفولة الذى كانت تراه فيه بطلا. وارتبط فى ذهنها حديث والدها المسلى، بالإسراف الذى كثيرا ما أثار الصعاب فى حياتهم. وقارنت بين بلاغته وبين تفكير أمها العملي. ورغم أن مرح والدها كانت فيه تسلية لها، فإنها كانت فى كثير من الأحايين تضيق به. ونظر إليها فيليب عندما انحنت فوق عملها. فرأها صحيحة الجسم ، قوية سوية، وما من شك فى أنها كانت تبدو غريبة إذا رأيتها فى محل العمل بين الفتيات الأخريات ذوات الصدور المفلطحة والوجوه التي تشكو من فقر الدم. وكانت ميلدريد تعاني من هذا الداء.

وظهر بعد زمن ، أن لسالي خطيبا. فقد اعتادت أن تحرج أحيانا مع بعض صديقاتها فى العمل، وإنها التقت بشاب يعمل مهندسا كهربائيا، وعلى درجة كبيرة من النشاط، وكان هذا الشاب مقبولا إلى حد كبير. وذات يوم أخبرت سالى أمها أنه طلب إليها الزواج.

وسألتها الأم:

– وماذا قلت؟

– قلت إنني لست مشوقة جدا إلى الزواج من أى إنسان فى هذا الوقت.

وسكتت برهة كما كانت تفعل عادة بين الكلام ثم استمرت قائلة:

– لقد فهم هذا على أن باستطاعته أن يحضر لتناول الشاى معنا يوم الأحد.

وكانت فرصة راقت كثيرا لإثلنى. فأخذ يردد طوال فترة بعد الظهر،كيف يمثل دور الوالد الثقيل فى تثقيف الابن، حتى اضطر الأطفال على الرغم منهم أن يضحكوا ويقهقهوا. وقبل حضور الشاب فى موعد الشاى جد إثلنى فى البحث عن طربوش، وصمم على أن يلبسه وقالت له زوجته:

– استمر يا إثلنى فى عبثك وستقضي على مستقبل ابنتك.

وكانت الزوجة تلبس أفخر ثيابها وهو ثوب مصنوع من القطيفة السوداء، وقد ضاق عليها، بسبب سمنتها سنة بعد أخرى.

وحاولت الزوجة أن تخلع عن رأس زوجها الطربوش، ولكن الرجل الصغير قفز بخفة بعيدا عن طريقها:

– لا تمسيني يا امرأة فلا شيء يحملني على خلعه يجب أن يرى الشاب فى الحال أن الأسرة التي يستعد للدخول فيها ليست أسرة عادية.

وقالت سالى بطريقتها العادية الخالية من الاهتمام:

– دعيه يا أمي فإن السيد دونالدسون إذ لم يأخذ الأمر على المقصود منه فله أن ينأى بنفسه عنا. ويكون فى هذا خير خلاص لنا منه.

ورأى فيليب أن هذه محنة قاسية سيمر بها الشاب. فإن إثلنى، بحلته المصنوعة من القطيفة البنية، وربطة عنقه السوداء المهفهفة، وطربوشه الأحمر، سيجعل من نفسه منظرا مدهشا لمهندس كهربائى ساذج. وما أن أتى الشاب حتى أقبل مضيفه علي تحيته فى بشاشة عظيم أسبانى وحيته السيدة إثلنى بطريقتها الودية الطبيعية. وجلسوا جميعا حول منضدة كى الملابس القديمة، على كراسيهم ذات الظهر العالي الشبيهة بكراسى الأديرة، وصبت السيدة إثلنى الشاى من ابريق براق أضفي على الوليمة رونق الاحتفالات فى انجلترا وريفها. وكانت السيدة إثلنى قد صنعت الكعك بيديها كما كان على المائدة مربى صنعت فى المنزل. والخلاصة أن هذا الشاى كان شبيها بحفلات الشاى فى الضياع، وقد بدا لفيليب فى هذا المنزل الشبيه بمنازل انجلترا فى القرن السابع عشر عجيبا وممتعا معا.

وخطر لإثلنى، لباعث وطرأ على ذهنه، أن يتحدث عن التاريخ البيزنطى وكان قد قرأ المجلدات الأخيرة من كتاب انهيار الدولة الرومانية وسقوطها، وأخذ إثلنى يصدع أذنى الشاب الطالب الزواج بقصص مجلة عن تيودورا وإيرينه. وهو يمد سبابته فى حركة تمثيلية، وكان يتكلم لضيفه فى موجة من الفخر عاتية. وكان الشاب ، الذى لزم الصمت البائس وعلاه الخجل، يوميء برأسه فى فترات ، وهو يظهر اهتمامه. الواعى بما يقول إثلنى.

أما السيدة إثلنى فإنها لم تعر كلام زوجها أى اهتمام بل كانت تقاطعه بين الحين والحين لتقدم إلى الشاب شايا جديدا أو لتحثه على تذوق الكعك أو المربى.

وراقب فيليب سالى وكانت تجلس وعيناها مسبلتان، وساكنة هادئة ترقب ما يجرى أمامها، وتلقى أهدابها الطويلة ظلالا جميلة على وجنتيها.

وقالت أمها:

– أرى أنه شاب لطيف مؤدب في حديثه. وأعتقد أن مثله كفيل بأن يجعل أية فتاة سعيدة.

– ولم تجب سالي مدة دقيقة أو دقيقتين. ونظر إليها فيليب في عجب لعلها كانت تفكر فيما قالته أمها، أو لعلها ، من ناحية أخرى كانت تسبح في بحر من الأوهام.

ورأى فيليب الشاب ولم يكن المرء يستطيع أن يدرك هل كانت سالي مبتهجة للمنظر الذي تشاهده، لم يكن أحد يستطيع أن يتبين أمرها، أمر واحد كان مؤكدا لا شك فيه، هو أن المهندس الكهربائى كان حسن المنظر، مقبولا حليق اللحية، ذا ملامح جميلة ومنتظمة ووجه ينم على الإخلاص والأمانة.

وكان طويلا وحسن البنية، ولم يكن يسع فيليب إلا أن يعترف بأنه سيكون زوجا ممتازا لسالي، وشعر في نفسه بوخز الحسد والغيرة للسعادة التي لهما في ذمة المستقبل. وسرعان ماأعلن الشاب أن وقت ذهابه قد جان ونهضت سالي دون أن تنبس ببنت شفة ورافقته حتي الباب، وماأعادت حتي انفجر أبوها قائلا:

– إننا نظن ياسالي إن فتاك لطيف جدا، ونحن علي استعداد للترحيب به عضوا في أسرتنا وعندما يعلن الزواج سأتولي بنفسي تأليف أغنية العرس.

وبدأت سالي في تنظيف المائدة من آثار الحفل، ولم تجب. وفجأة صوبت نظرة سريعة إلى فيليب وقالت:

– وماذا تري فيه يا سيد فيليب؟

وكانت سالي ترفض دائما أن تدعوه العم «فيل» كإخوانها، أو تدعوه فيليب مجردا.

– أعتقد أنكما ستكونان زوجين جميلين إلى درجة كبيرة.

وألقت عليه نظرة أخرى سريعة، ثم احمر وجهها واستمرت تؤدى عملها.

وقالت السيدة إثلنى:

– لم لا تجيبين يا سالى عندما تسألين؟

أعتقد أنه كان سخيفا.

– ألا تنوين الزواج منه الآن؟
– كلا. لن أتزوجه.

● ● ●

واجتاز فيليب امتحان الجراحة فى أوائل أغسطس، وكان آخر امتحان له فتسلم إجازته الدراسية بعد أن أمضى سنوات سبع فى مستشفي القديس لوقا. وأصبح فى حوالي الثلاثين من عمره. ونزل فيليب درج كلية كينجز للجراحين وفي يده ملف يخوله حق ممارسة المهنة. وكان قلبه يركض رضا وفرحا.

وقال فى نفسه:

«اليوم أبدأ حياتى حقا».

وذهب فى اليوم التالي إلى مكتب الأمين ليسجل اسمه لإحدى وظائف المستشفي. وكان هذا الأمين رجلا صغير الجسم لطيفا. له لحية سوداء.

– لا أظنك تود أن تعمل نائبا مدة شهر على الساحل الغربى نظير ثلاثة جنيهات فى الأسبوع مع المسكن والمآكل.

وأجاب فيليب:

– لا مانع لدى.

– سيكون مقرك في بلدة فارنلى فى مقاطعة دورست شاير. مع الدكتور ساوث. وعليك أن تتسلم عملك حالا فقد أصيب مساعدة بالغدة النكفية.وفي رأيى أن المكان جميل.

وكان فى ملامح الأمين ولهجته ما حير فيليب وأثار شكه بعض الشيء.

وسال فيليب الأمين:

– ماعيب هذه الوظيفة؟

وتردد الأمين لحظة ثم ضحك وقال محاولا استرضاءه.

– الحقيقة إننى أعتقد أن دكتور ساوث شخص جاف مسن. يثير الضحك، لا تبعث له الهيئات بمرضى لأنه يتكلم بصراحة عما فى ضميره والناس لا يحبون ذلك.

– وهل تعتقد أنه سيرضى عن وجود رجل حديث التخرج مثلى. عديم الخبرة؟

وقال الأمين فى لباقة:

– ينبغي أن يسر لذلك.

وفكر فيليب مليا أنه لم يكن لديه ما يشغله طيلة الأسابيع القليلة القادمة، وقد سره أن تتاح له الفرصة ليكسب القليل من المال. ففي استطاعته أن يوفر مالا للأجازة التي وعد نفسه بقضائها فى أسبانيا، عندما ينتهى من عمله فى مستشفي القديس لوقا، أو إذا لم يهيئوا له عملا فى أى مستشفي آخر.

وقال:

– لا مانع لدى، سأذهب.

– المهم أن تذهب بعد ظهر اليوم، أيناسبك هذا؟ فإذا وافقت فسابرق لهم فى الحال.

وكان فيليب يريد أن يستمتع بنفسه أياما قلائل قبل أن يبدأ عمله.

لكنه كان قد رأى آل إثلنى فى الليلة الماضية عندما ذهب لينهى إليهم اخباره الطيبة. فلم يكن ثمة ما يعوقه عن البدء فى عمله من فوره. وكانت حاجاته قليلة فلم يستغرق حزمها زمنا طويلا. وما أن وافت الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، حتى كان فيليب يغادر محطةسفارنايس فى عربة إلى عيادة الدكتور ساوث. وكانت العيادة فى منزل متسع قليل الارتفاع، جدرانه من الجص، قد نمت عليها فروع أشجار اللبلاب. وكان بالعيادة رجل متقدم فى السن يكتب على منضدة وما أن أدخلت الخادم فيليب حتى تطلع الرجل إليه دون أن يقف أو يتكلم. بل أخذ يحملق فى وجه فيليب. وأخذ فيليب لحظة من الزمن ثم قال :

– أظنك تنتظر قدومى؟ لقد أبرق إليك أمين مستشفي القديس لوقا هذا الصباح.

– لقد أخرت العشاء نصف ساعة. هل تريد أن تغتسل؟

وأجاب فيليب:

– أجل.

وكان فى تصرفات الدكتور ساوث ولقائه بعض التفكهه لفيليب، ونهض الآن، ورأى فيليب فيه رجلا متوسط القامة نحيل الجسم، أبيض شعر الرأس حيق اللحية، لولا عارضاه الأبيضان الصغيران اللذان زادا من مظهر وجهه المربع الذى أكسبه إياه فكة القوى.

وكان يرتدى حلة من الصوف البنى وجوربا أبيض. وملابس متهدلة كأنها قد صنعت لشخص أكبر منه جسما. وبدا كأنه مزارع محترم من مزارعى القرن التاسع عشر، وفتح الرجل الباب ثم قال وهو يشير إلى باب فى الجهة المقابلة :

– هذه حجرة الطعام ، أما حجرة نومك فهى أول باب يقابلك فى أول طابق فأنزل عندما تستعد للنزول.

وقد عرف فيليب فى أثناء الطعام أن دكتور ساوث كان يتفحصه ولكنه كان قليل الكلام وشعر فيليب أن ساوث لا يحب من مساعده أن يتكلم كثيرا.

وسأله الدكتور ساوث فجأة:

– متى حصلت على إجازتك العلمية؟

– أمس.

– هل عملت فى جامعة؟

– كلا

– عندما حصل مساعدى على أجازة فى العام الماضى، بعثوا إلىّ بأحد خريجى الجامعة. وقد طلبت إليهم ألا يعاودوا الكرة معى هذا العام. فهم متأنقون إلى حد لا أطيقه.

وتوقفت عن الكلام مرة أخرى. وكان العشاء بسيطا ولكنه كان جيدا جدا. وحرص فيليب على الظهور أمام الرجل بمظهر الرزانة. وإن كان فى داخله يمج بالانفعال فقد ابتهج بأن يعمل نائبا. فقد أشعره هذا بأنه قد كبر كثيرا. وراودته رغبة جنونية فى أن يضحك دون سبب معقول. وكان كلما فكر فى مركزه ، ازداد ميلا إلى القهقهة ولكن دكتور ساوث اقتحم عليه أفكاره فجأة :

– كم عمرك؟

– اقترب من الثلاثين.

– وكيف إذن لم تنل درجتك إلا حديثاً ؟

– لأنى لم أبدأ دراسة الطب إلا وأنا حوالي فى الثالثة والعشرين ، واضطررت لترك دراستى مدة سنتين فى وسط الدراسة.

– لماذا ؟

– الفقر.

وحدجه الدكتور ساوث بنظرة غريبة ثم التزم الصمت ، وعندما انتهى العشاء نهض وغادر المائدة قائلاً :

– أتعلم أى نوع من العمل هذا ؟

وأجاب فيليب قائلاً :

– كلا.

– أغلب المترددين على هذه العيادة من صائدى السمك وأسرهم ، فأنا طبيب اتحادهم وطبيب مستشفي البحارة ، وقد كنت من قبل الطبيب الوحيد فى هذا المكان ولكن حدث أن أنشأ رجل عيادة أخرى على الجبل المطل على البحر عندما ظهرت فكرة تحويل هذا المكان إلى بلد للاستجمام والراحة من الطراز الحديث على شاطئ البحر ، وإلي هذه العيادة الأخرى يذهب المقتدرون ، فلا يتبقى لى إلا من كان غير قادر على أداء أجر الطبيب.

ورأى فيليب أن المنافسة كانت موضع إيلام شديد للرجل العجوز وقال :

– تعلم أن ليس لى بعدد خبرة بالعمل.

– ليس فيكم من يعرف شيئا.

وأخذ الرجل يرقب فيليب فى دقة شديدة مدة يومين أو ثلاثة أيام ، وهو على استعداد تام لمهاجمته بسخرية لاذعة إذا أتيحت له فرصة ، وكان فيليب يدرك ذلك فسار فى عمله بروح هادئة طروب ، وسره أن يوجد فى عمل مغاير غن أعماله السابقة. وأحب الشعور بالاستقلال والمسئولية.

وكان يتردد على غرفة الاستشارة أناس من مختلف الطبقات. ورضى فيليب عن نفسه لأنه استطاع أن يوحى إلى مرضاه بالثقة فى الشفاء ، وكان من أسباب سروره أن شاهد عمليات العلاج ، وهى العمليات التي ما كان يراها فى المستشفي إلا فى فترات متباعدة ،

واستطاع خلال زياراته للأكواخ ذات السقوف قليلة الارتفاع أن يشاهد حبال السفن والأشرعة ، وأن يعثر هنا وهناك على بعض التذكارات عن رحلات فى البحار العميقة.. صندوق مدهون بالورنيش من اليابان ، وحراب ومجاديف من ميلانيزيا، وخناجر من أسواق استانبول وغيرها وغيرها مما يثير روح الخيال والجمال فى أرجاء هذه الغرف الصغيرة المكتظة ، وقد أضفي عليها ملح البحر نضارة مريرة. وكان فيليب يحب الحديث مع البحارة. وعندما وجد هؤلاء أنه ليس من النوع المتعجرف أخذوا يقصون عليه قصصا طويلة عن رحلات بعيدة قاموا بها فى شبابهم.

ولقد أخطأ فيليب مرة أو اثنين فى تشخيص بعض الأمراض فمثلا لم يكن فيليب قد رأى من قبل حالة من حالات مرضى الحصبة، وعندما واجهته واحدة منها تسرع واعتبرها مرضا جلديا غامضا. واختلف مرة أخرى أو مرتين مع الدكتور ساوث فى طريقة علاجه. وقد هاجمه دكتور ساوث فى أول مرة بسخرية قاسية، فقبلها فيليب بصدر رحب. وقد أوتى فيليب قليلا من موهبة الردود المهدئة. فأجاب بسخرية على دكتور ساوث مما جعله يمتنع عن الاستمرار فى الهجوم عليه، وينظر إليه فى دهشة. وكان وجه فيليب رصينا ، ولكن عينيه كانتا تلمعان. فقد اعتاد الرجل كراهية مساعديه له وخوفهم منه. أما فيليب فكان تجربة من نوع جديد. وقد أوشك أن يندفع فيعيده من حيث أتى فى القطار التالي كما فعل بغيره من قبل. ولكن الطبيب مالبث أن خامره شعور مضطرب بأنه سيقابل تصرفات فيليب ببساطة ويضحك منه. فما كان من فيليب إلا أن أحس بشىء من السرور. وانطبعت على فمه ابتسامة لا إرادية على الرغم منه ، ثم استدار ومشى. وقد أدرك الرجل ، بعد مدة قصيرة ، أن فيليب كان يسلى نفسه على حسابه. وقد أخذ لذلك فى أول الأمر ولكنه تلهى عنه فيما بعد. وتمتم لنفسه:

– اللعنه على وقاحته.. واللعنة على وقاحته!

وكتب فيليب إلى إثلنى يخبره بأنه يقوم بعمل نائب فى دورست شاير.

وقد تلقى فيما بعد ردا على هذا الخطاب.. كان مكتوبا بالطريقة الرسمية التي يؤثرها إثلنى، ومرصعا بالنعوت الضخمة كما ترصع التيجان الفارسية بالأحجار الكريمة، وكتب بخط جميل. وقد اقترح عليه إثلنى فى خطابه أن يشاركه فى زيارة إلى حقول حشيشة الدينار فى مقاطعة كنت. حيث يذهب كل عام وأراد أن يقنعه بهذه الزيارة هو وأسرته فأخذ يروى له أشياء جميلة معقدة عن نفسه وعن خيوط حشيشة الدينار الملتوية.

ورد فيليب فى الحال بأنه سيذهب إليهم فى أول فرصة يخلو فيها من العمل.

ومضت سراعا الأسابيع الأربعة المقررة له فى فارنلى.

وقد حدث ذات مساء وفي الأسبوع الرابع لمقام فيليب عند الدكتور ساوث أن طرقت طفلة باب العيادة فى أثناء انشغاله هو والدكتور ساوث بتحضير بعض الوصفات، وكانت بنتا صغيرة ترتدى أسمالا بالية، وجهها قذر، وقدماها عاريتان. وفتح لها فيليب الباب وقالت الطفلة:

– أتسمح يا سيدى بزيارة السيدة فلتشر حالا فى حارة إيفى؟

وسألها دكتور ساوث فى صوته الأجش:

– ومم تشكو السيدة فلتشر؟

ولم تعره الطفلة التفاتا، بل خاطبت فيليب للمرة الثانية قائلة:

– وقع حادث ياسيدى لابنها، فهلا أتيت حالا؟

وقال دكتور ساوث:

– قولى للسيدة فلتشر إنى سآتى فى الحال.

وترددت الطفلة لحظة، ثم وضعت أصبعا قذرا فى فم قذر، ووقفت صامته ثم نظرت إلى فيليب وابتسم فيليب وقال لها:

– ما خطبك يا صغيرتى؟

– من فضلك يا سيدى، إن السيدة فلتشر تطلب الطبيب الجديد.

وارتفع صوت دكتور ساوث فى الصيدلية ثم وصل إلى الممر وهو يصيح:

– أليست السيدة فلتشر مكتفية بى؟ لقد عنيت بها منذ ولادتها ، فهل لم أعد أصلح الآن للعناية بابنها القذر؟

وبدا على الطفلة الصغيرة كأنها موشكة أن تبكى ولكنها فكرت قليلا،ثم أخرجت عن عمد لسانها إلى دكتور ساوث. وقبل أن يستفيق لنفسه من الدهشه أخذت الطفلة تجرى بأسرع ما يمكن.

ورأى فيليب أن الرجل العجوز قد أغضبه ما حدث. فقال له محاولا أن يوجد له عذرا فى عدم الذهاب إلى السيدة فلتشر بنفسه:

– إنك تبدو مجهدا والطريق إلى حارة إيفي ليس مريحا.

وزمجر الدكتور ساوث مرة أخرى وقال:

– أيهما يصلح لهذا الطريق، رجل يستطع السير على رجليه الاثنتين أو رجل يستعمل رجلا ونصف رجل؟

واحمر وجه فيليب، ووقف صامتا لحظة ثم قال فى خشونة ظاهرة:

– أتريد أن أذهب أو تذهب أنت؟

وما فائدة ذهابى وهم يريدونك أنت؟

وأخذ فيليب قبعته وذهب لعيادة المريض. ولم يعد إلا فى حوالي الثامنة وقد وجد دكتور ساوث واقفا فى حجرة الطعام وظهره إلى المدفأة.

وقال ساوث:

– لقد مكثت هناك طويلا.

– آسف. لماذا لم تبدأ عشاءك؟

– لأنى آثرت الانتظار. وهل كنت طوال هذا الوقت عند السيدة فلتشر؟

– كلا.. أخشى أن أقول إننى لم أكن هناك طول الوقت، بل وقفت فى أثناء عودتى ، لأتطلع إلى منظر الغروب، فلم أحسب للزمن حسابا.

ولم يجب دكتور ساوث. وأحضر الخادم بعض المشويات، فأكل فيليب بشهية. وفجأة وجه إليه دكتور ساوث سؤالا:

– ولماذا كنت تتطلع إلى الغروب ؟

وأجاب فيليب وفمه ملآن بالطعام:

– لأنى كنت سعيدا ؟

وحدجه ساوث بنظرة غريبة، ولاحت ابتسامة على وجهه المجهد العجوز وساد الصمت بينهما فى أثناء تناول طعام العشاء. وما أن قدمت إليهما الخادم النبيذ وغادرت الحجرة حتى مال دكتور ساوث إلى الوراء على كرسيه، وسدد إلى فيليب نظرة حادة ثم قال:

– لقد آلمك قليلا أننى ذكرت أن رجلك مريضة، أيها الشاب؟

– إن الناس دائما يتعرضون لذلك بشكل مباشر، أو غير مباشر عندما يغضبون منى.

– أعتقد أنهم يعرفون إنها نقطة الضعف فيك؟

وواجهه فيليب ثم نظر إليه فى ثبات وقال:

– أمسرور أنت لأنك اكتشفت هذا؟

ولم يجب الطبيب، ولكنه أطلق ضحكة تنم عن فرح مرير. وجلسا لحظة فحدق كل منهما فى الآخر ، ثم إذا الطبيب العجوز يفاجىء فيليب مفاجأة شديدة بقوله:

لماذا لا تبقى هنا فأتخلص من ذلك الأبلة المأفون وغدته النكفية؟

– هذا فضل منك، ولكنى آمل أن أحصل على وظيفة بالمستشفي فى الخريف وسيساعدنى ذلك فى الحصول على عمل آخر فيما بعد.

وقال دكتور ساوث في تجهم:

– لكنى أعرض عليك المشاركة فى العيادة.

وسأله فيليب فى دهشة:

– لماذا؟

– يبدو أنهم يحبونك هنا.

وقال فيليب فى خشونة:

– لم أكن أظن أن هذه الحقيقة تنال موافقتك.

أتظن أننى بعد أن قضيت أربعين عاما فى المهنة، أعير أدنى اهتمام لتفضيل الناس مساعدى علىّ؟ لا يا صديقى.. ليست هناك عاطفة متبادلة بينى وبين مرضاى، ولست أنتظر منهم عرفانا بالجميل بل كل ما انتفعته منهم لايعدو أن يكون أداء أحرى ، والآن ما رأيك؟

ولم يحر فيليب جوابا ولم يكن هذا لأنه كان يقلب الأمر على وجوهه بل لأنه كان دهشا فمن الواضح أنه لم تجر العادة بأن يعرض إنسان المشاركة فى عمله على شخص حديث التخرج.

وأدرك وهو فى منتهى العجب أن دكتور ساوث قد ارتاح إلى وجوده رغم عدم قيام ما يدفعه إلى ذلك وتخيل مقدار سرور أمين مستشفي القديس لوقا عندما يبلغه هذا الخبر. وقال الطبيب الكبير:

– تدر العيادة دخلا سنويا يقدر بحوالي سبعمائة جنيه. وفي الاستطاعة حساب ما يخصك، على أن تسدد ما عليك أقساطا. وعندما أموت تستطيع أن تخلفني. وأعتقد أن هذا أفضل كثيرا من طرق باب المستشفي مدة سنتين أو ثلاث سنين، تحصل بعدها علي وظيفة مساعد تستمر فيها إلى أن تستطع الوقوف على قدميك.

وكان فيليب يعلم أن هذه فرصة يتمنى معظم من يشتغلون بالمهنة أن يصلوا إليها، فقد كانت مهنة الطب تضيق بشاغيلها، ويعلم كذلك أن نصف هؤلاء لا يترددون فى شكر من يقدم لهم عملا ذا دخل ثابت مهما كان متواضعا المعروض عليهم.

ولكن فيليب قال للرجل:

آسف جدا ياسيدى ، فلن أستطيع القبول ، لأن معنى هذا أن أتخلى عن كل الأهداف التي تعلقت بأهدافهما سنين طويلة. لقد مرت بى أيام قاسية من هذا النوع أو ذاك. ولكنى رغم كل هذا كنت أضع هدفا وحيدا أمام عينى، هذا الهدف هو أن أصبح مؤهلا لكى أجوب العالم الآن، ولست أهتم بمعرفة أى مكان بالذات أذهب إليه.. فكل ما هو مطلوب السفر.. السفر إلى أماكن لم أرتدها من قبل.

واليوم يبدو الهدف قريبا.. ففيليب ستنتهى مدة عمله بمستشفي القديس لوقا فى منتصف العام القادم، وعندها سيرحل إلى أسبانيا حيث يقضى عدة أسابيع بين ربوع البلد الذى طالما بدا له أرضا شاعرية خيالية. وبعد ذلك يستطيع أن يسافر بحرا إلى الشرق وما دامت الحياة فسيحة أمامه فليس للزمن عنده حساب. ففي وسعه أن يجول أعواما إذا شاء ، ويرتاد مختلف الأماكن التي لا يتردد عليها الكثيرون من الناس ويعيش به بين أناس لا يعرفهم، ولا ما ستسفر عنه رحلاته. ولكنه يحس بأنه سيعرف نواحي جديدة من الحياة. وحتى إذا لم يجد فيها جديدا، فإنه سيكون قد هدأ جذوة الشعور بالقلق التي تأكل قلبه. لكن دكتور ساوث كان به حفيا. ومن نكران الجميل أن يرفض فيليب عرضه دون سبب كاف. وعلى هذا فقد حاول فيليب فى خجل أن يكون واقعيا، فأخذ يشرح السبب الذى يجعل من الأهمية بمكان لديه أن يقوم بتنفيذ خطته التي رسمها لنفسه.

واستمع إليه دكتور ساوث فى هدوء، وبرقت عيناه الماكرتان العجوزتان بنظرة رقيقة لطيفة ، ورأى فيها فيليب مزيدا من العطف عليه إذ لم يعمد الرجل الكبير إلى الضغط عليه لقبول عرضه. فالخير غالبا ما يتخذ صورة الأمر القاطع وبدا أن دكتور ساوث اقتنع بأسباب

فيليب. فقد كان فيه ما يجذبه إليه ووجد نفسه يبتسم له دون أن يعرف السبب. أن فيليب لم يضايقه، وقد وضع يده مرة أو اثنتين على كتفه. وعندما حانت ساعة رحيله،رافقه دكتور ساوث إلى المحطة وأحس فيليب بضيق شديد.

– لقد قضيت معكم زمنا ممتعا كنت أنت كريما معى إلى أبعد حدود الكرم.

– أعتقد أنه يسرك الخروج من هذا المكان!

– لقد تمتعت كثيرا هنا.

– ولكنك تريد أن تجوب العالم ؟ آه، انك شاب....

ثم تردد الشيخ لحظة وقال:

– أود أن تذكر دائما أن العرض سيظل قائما، إذا ما غيرت رأيك فى أية لحظة.

– هذا كرم عظيم منك ياسيدى.

ومد فيليب يده من نافذة عربة القطار يصافح دكتور ساوث. وغادر القطار المحطة،وفكر فيليب فى الأسبوعين اللذين سيقضيهما فى حقول حشيشة الدينار. وأسعده أن يفكر فى أنه سيرى أصدقاءه مرة أخرى فتملكه الفرح، وكان اليوم بديعا. أما دكتور ساوث فقد عاد إلى منزله الحالي فى خطى وئيدة ، وهو يشعر أن عمره زاد عدة سنين. وأحس بالوحشة والوحدة.

ووصل فيليب إلى بلدة فيرون فى وقت متأخر من المساء. وكانت فيرن هذه مسقط رأس السيدة إثلنى. وقد اعتادت، منذ نعومة أظفارها أن تذهب إلى حقول حشيشة الدينار. ومازالت تذهب إليها مع زوجها وأطفالها كل عام. وقد خرجت أسرة السيدة إثلنى كما تفعل جميع أسر مقاطعة كنت إلى ظاهر البلدة، وهى فرحة بالحصول على مقدار من المال وخاصة بعد بيع المحصول السنوى الذى ينتظرونه شهورا وبعد خير ما يعمل فى أيام العطلات ولم يكن العمل فى الحقول شاقا فقد كان عملا جماعيا، فى الهواء الطلق، وكان الأطفال يرونه نزهة طويلة مفرحة وكان حاصدو الحشيشة فى الزمن السالف ينامون فى الأجران، ولكن حدث منذ حوالي عشر سنوات أن أقيم صف من الأكواخ إلى جانب أحد المراعى وأصبح آل إثلنى كما أصبح لغيرهم كوخ يقيمون فيه كل عام.

وقابل إثلنى فيليب فى المحطة. وكان قد استعار عربة من الفندق الذى استأجر لفيليب غرفة فيه. ويقع على بعدربع ميل من حقول حشيشة الدينار.

وترك فيليب حقيبته فى الفندق، ومشى مع إثلنى إلى المراعى حيث الأكواخ التي لم تكن سوى صف طويل من الحظائر وقسم إلى حجرات صغيرة تبلغ مساحة كل منها اثنا عشر قدما مربعا وأمام كل كوخ منها نار موقدة من العصى تتجمع حولها كل أسرة ترتقب طهو عشائها. وقد أكسب هواء البحر. والشمس المشرقة ، وجوه أطفال إثلنى لونا بنيا أسمر كما بدت مسز إثلنى وكأنها إمراة أخرى فى قبعة الشمس التي كانت تضعها على رأسها أن الناظر إليها لا يكاد يشعر بأن السنين الطويلة التي عاشتها فى المدينة قد أحدثت فيها تغييرا حقيقيا.. فقد كانت نفس السيدة ريفية مولدا وتربية وكنت تحس بأنها هنا فى بيئتها

الحقيقية. وكانت تحمر لحم الخنزير فى الوقت الذى ترقب فيه أطفالها وعندما وصل فيليب استقبلته استقبالا طيبا حارا فصافحته وهى تزجي إليه ابتسامة جميلة. أما إثلنى فقد بدأ متحمسا لمباهج الحياة الريفية.

وقالت السيدة إثلنى لأطفالها :

تعالوا نتناول العشاء أيها الأطفال.. أين سالى؟

– أنا هنا، يا أماه!

وقفزت سالى من كوخهم الصغير وقد اكتسى وجهها بلون أحمر حاد من أثر لهب نار الخشب ولم يكن فيليب قد رآها من قبل إلا فى ثيابها الأنيقة التي اعتادت لبسها منذ أن كانت تعمل عند الحائكة، أما الثوب المطبوع الذى ترتديه الآن فقد كان فيه الشيء الكثير من السحر والجمال كان واسعا ومريحا بحيث تستطيع أن تعمل وهى ترتديه وكان كماه مرفوعين إلى أعلى بحيث تظهران ذراعيها القويتين المستديرين، وكانت سالى أيضا تضع قبعة شمس على رأسها.

وصفها فيليب وهو يقول :

– إنك تشبهين بائعة اللبن التي نقرأ عنها فى القصص الخرافية.

وجلست سالى صامتة ولكنها أخذت ترعى طلبات فيليب فى حصافة سحرته وفرح لوجودها إلي جانبه وكان بين الفينة والأخرى يتطلع إلى وجهها الذى لوحته شمس الشتاء والذى ينم عن صحة سابقة وقد تلاقت عيناهما مرة فابتسمت له فى هدوء وقالت السيدة إثلنى لفيليب قبل أن يفارقها إلى الفندق:

– إننا نتناول طعام الإفطار فى الساعة السادسة إلا ربعا، ولكنك فيما أعلم لا تريد أن تستيقظ من النوم فى هذا الوقت المبكر فنحن كما ترى نبدأ العمل فى الساعة السادسة.

طبعا يجب أن يستيقظوا مبكرا ويجب أن يعملوا كما نعمل جميعا لكى يكسبوا قوتهم فإذا لم نعمل فلن نأكل يا ابنى. إن الأطفال يذهبون للاستحمام قبل الإفطار وبوسعهم أيضا أن يمروا عليك وهم عائدون فهم يمرون فى طريقهم بفندقك.

وقال فيليب:

– لو أيقظونى ذهبت لأستحم معهم.

وصاحت جين وصاح هارولد وإدوارد فرحا بهذا الاقتراح وفي الصباح التالي استيقظ فيليب من نوم عميق على صوت اندفاعهم إلى حجرته وقفز الأولاد على سريره فأخذ يطاردهم بخفة، ثم ارتدى فيليب معطفه وسرواله ونزل معهم وكان النهار يوشك أن يشرق والجو يميل إلى البرودة، وإن كانت السماء صافية الشمس ساطعة فى اصفرار وكانت سالى واقفة فى منتصف الطريق وقد أمسكت بيد كونى وعلى ذراعها منشفة وملابس حمام ووجد فيليب أن قبعة الشمس التي كانت ترتديها سالى كانت فى لون زهر الخزامى يقابل هذا وجهها الذى جمع بين اللونين الأحمر والأسمر فأصبح فى لون التفاح، وحيته سالى

بابتسامتها الحلوة البطيئة ولاحظ فجأة انتظام أسنانها وصفارها وبياضها الشديد وعجب كيف لم يلفت هذا نظر من قبل.

وقالت سالى لفيليب:

– كنت أريد أن يتركوك نائما ولكنهم أيقظوك وكنت أقول لهم إنك أم تكن تريد المجيء بحق.

– بل كنت أريد.

وسار فى الطريق ثم اجتاز المستنقعات إلى ساحل البحر الذى كان على بعد أقل من الميل من نقطة ابتدائها وبدت مياه البحر سنجابية اللون وارتعد فيليب عند رؤيتها ولكن الأطفال خلعوا ثيابهم وجروا إليها وهم يصخبون وفعلت سالى كل ما فعلته فى بطء فلم تنزل إلى الماء إلا بعد أن نزل إليه الجميع وأخذوا ينثرون الماء عاليا حول فيليب وكانت السباحة هى الشيء الوحيد الذى يتقنه وكان يشعر وهو فى الماء بأنه حيث يحب أن يكون وسرعان ما جعل الجميع يقلدونه وهو يمثل لهم سباحة الحوت والرجل الغارق والسيدة السمينة التي تخاف أن يبتل شعرها وأصبحت السباحة صاخبة، وكان لابد أن تتصنع سالى القسوة والحزم لحمل الجميع على الخروج من البحر.

وقالت سالى لفيليب بطريقتها التي تجمع بين الأمومة والصرامة تلك الطريقة التي كانت مضحكة ومؤثرة فى وقت واحد:

– إنك لا تقل سوءا عن أى فرد منهم. فهم لم يكونوا أشرارا كما هم الآن عندما كنت بعيدا عن هنا.

وعاد الجميع وكانت سالى تمسك بقبعتها فى يدها وقد تهدل شعرها الجميل على إحدى كتفيها وما أن وصلوا إلى كوخ حتى كانت السيدة إثلنى قد ذهبت إلى الحديقة، أما إثلنى فقد كان يلبس أقدم سروال لبسه إنسان فى حياته وقد زرر معطفه ليظهر أنه لا يرتدى قميصا تحته وعلى رأسه قبعة لينة واسعة الأطراف وقد أخذ يقلى السمك السالمون على نار الخشب وكان فرحا بنفسه وهو يبدو كقطاع الطرق لا فرق مطلقا فى كل شيء وما أن شاهد الجماعة حتى بدأ يغنى أغنية جماعة السحرة فى مسرحية ماكنتز وقال لهم:

يجب ألا تتأخروا فى إفطاركم وإلا أغضبتم أمكم.

ولم تمض دقائق معدودة حتى كان هارولد وجين يقفزان بين المراعى إلي حقول حشيشة الدينار وقد أمسكا بأيديهما قطع الخبز بالزبد كانا آخر من غادر المائدة، وكانت حديقة حشيشة الدينار أحد المناظر المرتبطة بطفولة فيليب، كما كانت أفران التجفيف هى الطابع المألوف فى مناظر مقاطعة كنت.

ولم يكن فيها شيء من الغرابة، بل إن فيليب تبع سالى خلال الحشيشة كما لو كان موطنه الأصلى وكانت الشمس ساطعة فى ذلك الوقت وقد ألقت ظلالا واضحة للأشياء ومتع فيليب

نظره بخضرة الأوراق وكانت حشيشة الدينار آخذة فى الاصفرار كانت بالنسبة له تحمل نفس الجمال ونفس الشعور اللذين وجدهما شعراء صقلية فى لون عينيها الأرجوانى.

وأحس فيليب خلال سيره مع سالى بأنه مأخوذ بهذه النضارة العظيمة فقد هبت رائحة عطر جميل من أرض كنت الخصبة وكان نسيم سبتمبر العليل مثقلا برائحة حشيشة الدينار الجميلة.

ولم يكن لفيليب سبت خاص يجمع فيه المحصول ، فجلس مع سالى. ووجدت جين من المريع حقا أن يساعد أختها الكبيرة ولا يساعدها هى ، فوعدها بأن يكون معها بعد أن يمتلئ سبت سالى. أما سالى فكانت سريعة كأمها.

وسألها فيليب :

– ألا يؤذى جمع الحشيش يديك ، فلا تستطيعين الحياكة ؟

– كلا ، أن هذه العملية تتطلب يدا ناعمة ، وهذا هو السبب فى أن النساء خير من الرجال فى جمعها فإذا كانت يداك خشنتين وأصابعك جافة من عملك الشاق ، فلن تستطيع أن تقطف كما ينبغي.

وكان يحب أن ترى حركتها الماهرة ، وكانت هى ترقبه بين الحين والحين بروح الأمومة الطاغية عليها ، تلك الروح التي كانت ممتعة وساخرة إلى أبعد حد.وكان فيليب أول أمره غير بارع فى عمله فكانت تضحك منه وقد تلاقت يديهما عندما انحنت عليه لتريه خير الطرق فى معالجة (اقتطاف) صف بأكمله. وقد أثار دهشته أن علا وجهها الاحمرار ، ذلك أنه لم يستطع أن يقنع نفسه يوما ما بأنها امرأة فقد عرفها مداعبة ، ومازال غير قادر على اعتبارها أكثر من طفلة رغم أن عدد المعجبين بها يؤكد أنها لم تعد طفلة بعد.

ورغم أنه حدث بعد أن سافروا ببضعة أيام ، أن أظهر أحد أقارب سالى اهتماما عظيما بها ، كما سبب لها كثيرا من الضيق ، وكان اسمه بيترجان ، وهو ابن أخت السيدة إثلنى التي تزوجت مزارعا فى قرية فيرن. وأدرك الجميع لماذا كان بيتر يجد من الضرورى أن يتجول يوميا خلال حقول الحشيشة.

وكان وقت انتهاء العمل يتحدد على أساس الحالة فى بيت أفران التجفيف فقد كان أحيانا يمتلئ مبكرا إذ يقطف الكثير من الحشيشة ، ليجفف خلال الليل. وهنا يقف العمل. ولكن الذى كان يحدث غالبا أن يعمل الجساب اليومي للعمل بقدر آخر تقديرا للعمل اليومي فى الساعة الخامسة ، وكان لكل شركة مستودعاتها التي تجمع فيها أشياءها ، ثم يبدأ الجميع فى السمر بعد انقضاء العمل ويخرجون على مهل من الحدائق. ويعود السيدات إلى الأكواخ لتنظيفها وإعداد العشاء ، بينما يتسكع عدد كبير من الرجال فى الطريق إلى الحانة ، فإن كأسا من الجعه تضفي الكثير من اللذة على الشخص بعد انتهاء عمله اليومي.

وقالت السيدة إثلنى لفيليب :

أتوقع أن تستعد للنوم ، فلم تعتد الاستيقاظ مبكرا فى الخامسة والبقاء فى الخلاء طول اليوم.

وصاح الأطفال :

– ستأتي لتستحم معنا يا عم فيل ، أليس كذلك ؟

– تقريبا.

وكان مجهدا وسعيدا. وقد جلس بعد العشاء بجوار حائط الكوخ على كرسي دون ظهر ، وأخذ يدخن قصبته وهو ينظر إلى الليل. أما سالى فكانت مشغولة تدخل الكوخ وتخرج منه. وهويرقب فى كسل بالغ ما تقوم به من أعمال منظمة. وكانت مشيتها تجتذب انتباهه ، نعم فلو أنها لم تكن على درجة كبيرة من الرشاقة فقد كانت تمشى سهلة متئدة ، وكانت رجلاها تتأرجحان من ردفيها وقدماها تطآن الأرض فى عزم وتصميم. وكان إثلنى قد ذهب ليثرثر مع بعض جيرانه ، وسرعان ما سمع فيليب زوجته تخاطب العالم كله قائلة :

اسمعوا ، لقد نفد الشاى ، وكنت أريد أن يذهب إثلنى ليحضر بعضه.

ومضت فترة ارتفع بعدها صوتها تقول :

– سالى.. اذهبي إلى مسز بلاك لتحضرى نصف رطل من الشاى ، لقد نفد من عندى كله.

– سمعا وطاعة يا أماه.

وكان لمسز بلاك كوخ يبعد عن كوخهم نصف ميل على طول الطريق بين مكتب البريد ومكتب التموين العام. وخرجت سالى من الكوخ وهى تنزل كميها.

وسألها فيليب :

– هل أصحبك يا سالى؟

– لا تتعب نفسك ، فلست أخشى الذهاب وحدى !

– لا أقول أنك خائفة ، ولكن وقت نومي قد حان ، وكنت أفكر حالا فى تمشية رجلي.

ولم تجب سالى وسارا معا وكان الطرق خاليا من كل حركة. فلم يكن هناك ما يعكر سكون الليل. ولم يتحدثا كثيرا ، حتى قال فيليب أخيرا :

– أعتقد أنه جو حار حتى فى هذه الساعة.

– أظنه جو بديع بالنسبة لهذا الوقت من العام.

ولكن صمتهما لم يبد مزعجا ، فقد وجدا من الممتع أن يسيرا جنبا إلى جنب ، ولم يشعرا بحاجة إلى الكلام. وفجأة وعندما درج يصعد إلى السياج النباتى سمعا أصواتا خافتة ورأيا فى الظلام شبح اثنين ، كانا جالسين جنبا إلى جنب ، ولم يتحركا عندما مر بهما فيليب وسالى.

قالت سالى:

– ترى من يكون هذان ؟

– يبدو أنهما سعيدان جدا ، أليس كذلك ؟

– أعتقد أنهما قد ظنا أنهما عاشقان أيضا.

وأبصرا نور الكوخ أمامهما ، وبعد هنيهة دخلا المحل الصغير. وقد أعشاهما الضوء اللامع لحظة من الزمان.

وقالت مسز بلاك :

– لقد تأخرتما.. فقد كنت على وشك إغلاق المحل.

ثم نظرت إلى ساعة وقالت :

– إنها تقترب من التاسعة.

وطلبت سالى نصف رطل شاى ، ذلك أن السيدة إثلني لم يكن أحد يستطيع أن يقنعها بأن تشترى يوما أكثر من نصف رطل فى المرة الواحدة. وعادا مرة أخرى إلى الطريق. وكانت وحوش الليل ، تأتى بين الحين والآخر بأصوات حادة قصيرة ، ولكنها كانت أصواتا تجعل السكون أوضح مما كان وأكثر ظهورا.

وقالت سالى:

– أظن أنك إذا وقفت استطعت أن تسمع صوت ماء البحر.

وأرهفا أذنيهما ، وذهب بهما الخيال إلى أنهما يسمعان أصوات الموج الصغيرة الخافتة مع حصباء الشاطئ وعندما مرا بالدرج مرة أخرى كان العاشقان لا يزالان حيث هما. ولكنهما لم يكونا يتكلمان بل كانا يتعانقان ، وقد ضغطت شفتا الفتى على شفتى الفتاة.

وقالت سالى:

– يظهر أنهما مشغولان.

وانعطف بهما الطريق ، وهب نسيم دفئ على وجهيهما لحظة وواجهتهما الأرض بنظرتها وكأن هناك شيئا غير عادى فى ذلك الليل المرتجف ، شئ لا تعرف ما هو ، يبدو أنه سيقع وشيكا. وأصبح الصمت فجأة مليئا بالمعنى. وخامر قلب فيليب شعور غريب. إن قلبه كان يذوب ! كان فيليب يشعر بالسعادة وبالقلق وبمرارة الانتظار. ولم يدرِ فيليب ماذا كان فى الهواء ، حتى جعل حواسه على هذا الوضع من اليقظة العجيبة. وبدا له أنه كان روحا نقية طاهرة يستمتع برائحة الأرض وأصواتها وطعمها. ولم يشعر من قبل بمثل هذه القدرة الشائقة على إدراك الجمال. وكان يخشى أن تفسد سالى هذا السحر إذا ما تكلمت ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة ، وكان يتوق إلى سماع صوتها ذلك أن خصوبة هذا الصوت الخفيض تمثل فى نظره صوت الليل فى الريف.

ووصلا إلى الحقل الذى لابد أن تجتازه حتى تعود إلى الأكواخ. ودخل فيليب ليفتح لها الباب:

– هنا أستطيع أن أقول لك (نعمت مساء).

– أشكرك لاصطحابي طول هذا الطريق.

ومدت له يدها وقال وهو يتناولها :

– لو كنت ظريفة لمنحتنى قبلة المساء ، كما تفعلين مع بقية أفراد الأسرة

وردت عليه قائلة :

– لا مانع لدى..

وكان فيليب يتكلم وهو يمزح. فقد كان كل ما يعنيه أن يقبلها ، لأنه كان سعيد
يحبها ، كم كانت الليلة رائعة جميلة !

وقال وهو يضحك قليلا ، وقد جرها إليه :

– طابت ليلتك إذن.

ونام فيليب وكأنه كتلة من الخشب ، وصحا فزعا ليجد هارولد يداعب وجهه بريش
وندت عن الأطفال صيحة فرح عندما فتح عينيه. فقد كان ثملا من كثرة النوم. وقال

– هيا أيها الكسول. لقد قالت سالى إنها لن تنتظرك ما لم تسرع.

وتذكر فيليب ما حدث بالأمس. وغاص قلبه ، وما كاد يغادر الفراش حتى توقف.
يدرى كيف يواجهها. لقد طغى عليه شعور مفاجئ من تأنيب الضمير ، وأسف أشد
وبكل مرارة لما فعل. ترى ماذا تقول له هذا الصباح ؟ لقد كان يخشى أن يقابلها ، وس
كيف أمكن أن يكون بهذا الحمق ، ولكن الأطفال لم يتركوا له فرصة للتفكير، فقد أخ
لباس استحمامه ومنشفته ، وأزالت أثلمستان غطاء الفراش ، وما أن انقضت دقائ
حتى كان الجميع فى الطريق. وقابلته سالى بابتسامة حلوة ، بريئة كما كانت دائم
وقالت له :

– إنك تضيع وقتا طويلا فى ارتداء ملابسك. لقد ظننت أنك لن تحضر !

ولم تكن هناك ذرة من التغيير فى سلوكها أو حالتها ، فقد كان يتوقع أن ير
التغيير سواء أكان تغيرا دقيقا صغيرا أم مفاجئا. وكان يتخيل أنه سيبدو عليها ال
الغضب فى طريقة معاملتها له ، أو ربما بعض الزيادة فى عدم التكلف. ولكن شيئا
لم يحدث. فقد كانت على حالتها الأولى تماما. وساروا جميعا إلى البحر، وهم يـ
ويتحدثون. وكانت سالى هادئة ولكنها كانت كذلك دائما متحفظة ومهذبة. ولم ير
على غير ذلك ولم تفكر فى محادثته كما أنها لم تتحشاها. وتملكت فيليب الدهشة..
يتوقع أن تثير حادثة ليلة أمس بعض الثورة فى نفسها ولكن كل شئ سار فى طريق
شيئا لم يحدث ، أو كأن ما حدث كان حلما. وأخذ فيليب يفكر فى تعليل لهذه الحال
سيره فى الطريق ممسكا ببنت فى يده وبصبى فى الأخرى وهو يثرثر دون اهتمام ،
فى تعليل ما لهذه الحال. وتساءل فى نفسه هل تقصد سالى أن ينسى هذا الموضو
مشاعر سالى قد سارت فى نفس الطريق الذى سارت فيه مشاعره ، ووجدت فيما جر
كان نتيجة لظروف غير عادية وعلى هذا قررت أن تصرفه عن ذهنها. ولكنه فى هذ
يعزو إليها قدرة على التفكير والحكمة الناضجة ، لا تتناسب مع سنها وأخلاقها.
أدرك أنه لا يعرف عنها شيئا وأن فيها على الدوام شيئا غامضا.

ولعبوا جميعا لعبة قفز الضفدع فى الماء ، وكانت السباحة صاخبة ، كما كانت فى اليوم السابق. أما سالى فقد كانت للجميع بمثابة الأم. تراقبهم جميعا وتستدعيهم إذا سبحوا بعيدا جدا. وكانت تسبح فى رزانة إلى الأمام وإلي الخلف بينما كان الآخرون يعبثون ، وبين الحين والحين كانت تتقلب على ظهرها وتطفو وسرعان ما خرجت من البحر وبدأت تجفف جسمها.

ونادت الجميع للخروج بصوت الأمر الناهى ، فخرجوا جميعا غير فيليب من الماء ، فقد انتهز الفرصة لكى يقوم بسباحة شاقة جيدة. بعد أن أصبح فى يومه الثانى أكثر قدرة على السباحة فى المياه الباردة. وقد تملكه المرح وهو يسبح مستعملا أطرافه فى حرية تامة. وقطع مياه البحر بضرباته الثابتة الطويلة. ولكن سالى نزلت إلى حافة الماء والمنشفة حولها وقالت له كما لو كان طفلا صغيرا تحت رعايتها.

– يجب أن تخرج من الماء حالا ، يا فيليب.

وعندما ذهب إليها ، وهو يبتسم فى سرور لطريقتها التحكمية ، عنفته قائلة :

– من العبث أن تمكث فى الماء طويلا كما فعلت. لقد ازرقت شفتاك ثم انظر إلى أسنانك ، إنها تصطك.

– إنك على حق. سأخرج.

ولم تكن سالى قد تحدثت إليه بهذه اللهجة من قبل. وكأن ما حدث بينهما قد رتب لها نوعا من الحقوق عليه. فاعتبرته طفلا من واجبها رعايته وما أن انقضت دقائق معدودة ، حتى ارتديا ملابسهما وبدأ سيرهما عائدين إلى كوخ. ولا حظت سالى يدى فيليب وقالت :

– انظر.. لقد أصبحتا زرقاوتين.

– إنها الدورة الدموية ولا شئ أكثر من هذا وسيعود الدم حالا بعد دقيقة.

– أعطنى إياهما.

وأخذت يديه فى يديها وبدأت تدلكهما ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى عاد إليهما لونهما وقد لاحظها فيليب وهى تقوم بذلك فى تأثير وحيرة. ولم يتحدث معهما بشئ لوجود الأطفال ، ولم تلتق عينيهما لم تتحاشيا الالتقاء بعينيه عن قصد. بل كان مجرد صدفة ، ولم يبد من تصرفها خلال اليوم ما يدل على أنها تفكر فى أن شيئا ما حدث بينهما. ولربما كانت اليوم أكثر ثرثرة من عادتها. وعندما جلسوا جميعا مرة أخرى فى حقل حشيشة الدينار ، أخبرت سالي أمها كيف كان فيليب خبيثا فلم يخرج من الماء الابعد أن أصبح لونه أزرق من شدة البرد ، كان هذا كله بعيدا عن أن يصدفه فيليب ، وقد بدا أن الأثر الوحيد لحادث ليلة أمس هو إنه أثار فيها شعورا بالحماية فقد أصبحت لها نفس الرغبة الغريزية فى رعايته ، كما كانت بالنسبة لإخوتها وأخواتها.

ولم يحدث أن اختلى بها عند المساء. فقد كانت تطهو العشاء ، وكان هو جالسا على الكلأ إلى جانب النار. وقد ذهبت السيدة إثلنى إلى القرية لتبتاع بعض حاجاتها وتناثر الأطفال فى جهات شتي يقومون ببعض أعمالهم الخاصة ، وتردد فيليب قبل أن يتكلم.. فقد كان

عصبيا جدا ، واستمرت سالى في عملها فى مقدرة رصينة ، وقد ارتضت هذا السكون الذى كان يحيره. ولم يدر كيف يبدأ كلامه. أما سالى فإنها لم تكن لتتكلم إلا إذا تحدث غيرها إليها أو كان لديها شئ خاص تريد قوله. وأخيرا لم يستطع صبرا فقال فجأة :

– لست حانقة على يا سالى؟

ورفعت سالى عينيها فى هدوء ونظرت إليه دون أن يبدو عليها أى انفعال وقالت :

– أنا ؟ كلا.. ولماذا أحنق عليك ؟

وأخذ فيليب.. فلم يستطيع الإجابة، ورفعت غطاء القدر، وحركت ما بداخله ثم أعادت تغطيته ثانية وانتشرت فى الجو رائحة شهية. ونظرت إليه مرة أخرى، بابتسامة هادئة لم تكن تنفرج عنها شفتاها حتى لكأنها ابتسامة بالعينين وقالت :

– كنت أحبك دائما !

واختلج قلبه بشدة داخل ضلوعه ، وشعر بالدم يندفع إلى وجنتيه ، واغتصب ضحكة باهتة وقال :

– ما كنت أعرف ذلك..

– ذلك لأنك غبى...

– لست أدرى لماذا أحببتنى ؟

– ولا أنا..

ووضعت سالى مزيدا من الخشب فى النار ثم قالت :

كل ما أعرفه أننى أحببتك منذ ذلك اليوم الذى زرتنا فيه ، عندما كنت تنام فى الشارع ، ولم تكن تجد ما تأكله ، أتذكر ذلك ؟ وقد أعددت لك أنا وأمى فراشا وثوبا لتنام فيه.

واحمر وجه فيليب ثانية فلم يكن يدرى أنها كانت تذكر هذا الحادث ، وقد تذكره هو فى هلع وخجل ثم تابعت سالى حديثها قائلة :

– وهذا هو السبب فى عدم قيام علاقة لى مع الآخرين. ولعلك تذكر ذلك الشاب الذى كانت أمى جد راغبة فى زواجى منه ؟ لقد دعوته للشاى لأنه ألح فى الطلب ولكننى كنت مصرة على أن أقول «لا»..

وبلغ من دهشة فيليب أنه لم يجد ما يقوله.. لقد كان فى قلبه شعور غريب ، لم يدر ما هو إن لم تكن السعادة. وحركت سالى القدر مرة أخرى وقالت :

– أود لو أسرع الأطفال بالمجئ. فلست أدرى أين هم ، والعشاء معد الآن..

وقال فيليب :

– هل أذهب لأرى إن كان فى استطاعتى العثور عليهم ؟

وكان الكلام فى الأمور العملية خلاصا لفيليب مما هو فيه.

– ليست هذه فكرة سيئة على كل حال ، وها هى ذى أمى قادمة.

وعندما نهض نظرت إليه سالى دون أن يعلوها أى ارتباك وقالت له :

– هل أستطيع أن آتى للمشى معك الليلة بعد أن أضع الأطفال فى فراشهم ؟!

– نعم..

– إذن فانتظرنى عند الدرج الموصل إلى السياج النباتى وسأحضر بعد أن أنتهى من عملى.

وانتظر فيليب تحت النجوم ، جالسا على الدرج ، وقد تدلى السياج بعوسجة الناضج على الجانبين. وانبعثت من الأرض رائحة الليل ، ولم يكن يفهم شيئا مما حدث له. فقد كان يربط عاطفة الحب بالبكاء والدموع والانفعال الشديد. ولم يكن فى سالى شئ من ذلك ولكنه لم يدر أى شئ آخر غير الهيام قد جعلها تسلم إليه نفسها. ولكن ، أهو الهيام به ؟ لم يكن فيليب ليعجب لو أنها هامت بحب ابن خالتها بيتر جان. فقد كان طويلا ، مستقيم العود نحيلا نحيف القوام ، ذا وجه لفحته الشمس ، وخطى طويلة سهلة. وعجب فيليب ما الذى ارتأته فيه هو ؟..

ولم يكن يعرف هل أحبته الحب الذى يعرفه. وكان مؤمنا بطهارتها وكان يتناوبه شعور غامض غير واضح بأن هناك عوامل عدة قد تضافرت عليها ، عوامل شعرت بها رغم عدم إدراكها لها. فقد أسكرها الهواء وحشيشة الدينار والليل ، وغريزة الأنوثة الطبيعية السليمة والرقة الطاغية ، والعاطفة التي تجمع بين الأمومة والأخوة. وهكذا منحت كل ما تستطيع أن تمنحه لأن قلبها كان عامرا بالخير.

وسمع خطوا فى الطريق ، وبرز شبح من الظلام ، وتمتم فيليب قائلا :

– سالى..

ووقفت سالى ثم أتت إلى الدرج وأتى معها طيب الريف الحلو النظيف. وقد بدا أنها تحمل معها روائح الدريس حديث الحصاد ، وطعم حشيشة الدينار الناضجة ونضارة الأعشاب الصغيرة.

وأخذه العجب من جمالها فقد كانت تتلألأ فى الظلام وكان لها نفس الجلد الذى رسمه روبين ، ذلك الجلد الذى يدهش الناظر بجماله وشفيفه ، وعلى أحد جانبيها نما بعض الشعر الذهبى الصغير. فلم يكن للبشر مثل هذه الطبيعة البسيطة الشيقة ، وفكر فيليب وقتئذ فى كوخ ذى حديقة تحتوى الأزهار العزيزة كالوردتين البيضاء والحمراء اللتين يسميانهما «بيت لانكستر ويورك وما إلى ذلك من الأزهار». وقال لها :

– كيف تهتمين بى ؟ إنى حقير ، عاجز ، عادى قبيح المنظر.

وأمسكت سالى وجهه ثم قالت :

– أنت غبى عجوز ، هذا هو أنت !

وبعد أن انتهى حصاد حشيشة الدينار عاد فيليب مع آل إثلني إلى لندن وفي جيبه نبأ تعيينه فى وظيفة نائب فى مستشفي القديس لوقا. وقد اكترى لنفسه مسكنا متواضعا فى وستنمستر، وبدأ عمله فى أوائل شهر أكتوبر وكان العمل لذيذا ومتشعباً، يتعلم فيه كل يوم

شيئا جديدا. وشعر بأنه أصبح إنسانا ذا شأن فى الحياة. واعتاد أن يرى سالى كثيرا ووجد الحياة سارة على غير ما اعتاد. وكان عمله ينتهي فى الساعة السادسة إلا فى الأيام التي يذهب فيها إلى العيادة الخارجية، فكان يذهب إلى المحل الذى تعمل فيه سالى ليرافقها بعد خروجها.

وكان هناك عد من الشبان يتسكعون أمام المدخل التجارى أو على بعد منه عند أول ركن فى الشارع، وعندما يخرج البنات مثني مثني أو فى مجموعات صغيرة يتغامزون ويقهقهون. أما سالى في ثوبها الأسود البسيط، فكانت تختلف تماما عن فتاة الريف التي قطفت الحشيشة معه جنبا إلى جنب. فقد كانت تسير من المحل مسرعة، ثم تبطيء فى خطوها عندما يتقابلان وتحييه بابتسامتها الهادئة، فيسيران معا خلال الشارع المزدحم يحدثها عن عمله فى المستشفي، وتحدثه هي عما كانت تفعله فى ذلك اليوم وأصبح يعرف أسماء الفتيات اللائى يعملن معها. ووجد أن سالى تتميز بحاسة انتقادية تهكمية مكبوحة وإن كانت حادة. فهي تبدى ملاحظات عن الفتيات وعن الرجال الذين يتعلق بهم، وتعمل وكان ما تنطوى عليه هذه الملاحظات من مزاح غير متوقع مما يسر فيليب، ففيه بعض التسلية وكانت لها طريقتها الخاصة فى التحدث عما تريد أن تتحدث عنه. فهي تتكلم فى رصانة مكينة كأن لم يكن فى الأمر شيء يضحك. ومع هذا فقد كان حديثها قويا بحيث يجعل فيليب ينفجر بالضحك. ثم تحدج فيليب بنظرة بسيطة توحي فيها عيناها الباسمتان بأنها تدرك فى كلامها روح الفكاهة. وكانا دائما يتصافحان عند اللقاء ويفترقان بصورة رسمية، وقد دعاها فيليب مرة إلى تناول الشاى فى مسكنه ولكنها رفضت قائلة:

– كلا لا أستطيع ذلك فإنه لوحدث لبدا أمرا مضحكا.

ولم تجر على لسان أى منهما كلمة من كلمات الحب. وبدت وكأنها لا تريد أكثر من مصاحبة فيليب فى روحاته وغدواته وكان هو يدرك كل الإدراك أنها يسرها أن تكون معه. وقد حيرته الآن كما حيرته فى بادىء الأمر ولم يبدأ بعد فى تعرف سلوكها على حقيقته. ولكنه كان كلما عرفها جديدا ازداد غراما بها. فقد كانت ذات كفاءة ممتازة تتميز بقدرتها على ضبط النفس وبأمانتها الفائقة الساحرة، حتى ليشعر المرء أن باستطاعته الاعتماد عليها فى كل الظروف.

قال لها فيليب يوما دون أن يكون هناك موجب لهذا القول:

– إنك شخصية طيبة إلى درجة كبيرة..

فأجابته:

– أظن أنني لا أفترق فى شيء عن سائر الخلق.

ثم عرف فيليب أنه لم يكن يحبها، وأن ما كان يشعر به إنما هو فى الحقيقة مجرد عاطفة شديدة نحوها، فقد كان يحب مصاحبتها لأنه يجد فى ذلك ترفيها عن نفسه، وكان يخالجه نحوها شعور خيل إليه أن من السخف أن يكون له نحو عاملة فى متجر فى التاسعة عشرة

من عمرها ذلك أنه يحترمها ويعجب بصمتها وبسمعتها الطيبة. فهي كائن عظيم لا عيب فيه. وكان هذا الكمال الجسمي جديرا بها.

وذات يوم، بينما كانا سائرين معا، وكان ذلك بعد أسابيع ثلاثة من عودتهما إلى لندن، لاحظ فيليب أن سالى صامتة .. على غير العادة. وقد تغيرت معالم الرصانة على وجهها بخط رفيع بين أهدابها، وكان هذا إيذانا بالعبوس،

وسألها فيليب قائلا:

– ماذا بك يا سالى؟

ولم تنظر سالى إليه، بل نظرت أمامها مباشرة وتغير لونها ثم قالت :

– لست أدرى.

وفهم فيليب فى الحال ما تعني وبدأ قلبه يخفق بشدة، وشعر بالدم يفارق وجنتيه.

– ماذا تعنين؟ أخائفة أنت أن...؟

وتوقف فيليب عن الكلام ولم يستطع الاستمرار فيه. فإن احتمال وقوع شىء كهذا لم يخطر يوما بباله ورأى أن شفتيها ترتجفان وأنها على وشك البكاء.

وقالت:

– لست متأكدة بعد.. ولعل الأمر يمر على خير!

وسارا معا فى صمت حتى وصلا إلى ركن حارة تشا نسرى حيث اعتادا أن يفترقا، ورفعت سالى يدها وابتسمت قائلة:

– لا تزعج نفسك لهذا الموضوع الآن، ولنأمل الخير.

ومضي وقد عصفت برأسه أمواج التفكير. ياله من مجنون! كان هذا أول ما خطر له، أنه شخص سافل تعس أحمق. ومضي يكرر هذه الكلمات لنفسه عشرات المرات، إنه يحتقر نفسه، كيف وقع فى هذه الزلة ؟ وسأل فيليب نفسه ما الذى سيفعله. فقد كانت الأفكار يطارد بعضها بعضا فى ذهنه ، ثم بدت وكأنها قد تجمعت فى حيرة يائسة.

لقد كان كل شئ واضحا أمامه ، وقد أصبح كل ما كان يهدف إليه منذ زمن طويل في متناول يده وهاهو ذا غباؤه الواضح قد أقام عقبة جديدة فى سبيل مستقبله ، ولم يستطع فيليب أن يتغلب أبدا على ما كان يراه نقصا فى رغبته الجازمة فى حياة منظمة. وهذا النقص هو رغبته فى أن يعيش فى المستقبل. فما كاد يستقر فى عمله في المستشفي حتى أخذ يشغل نفسه بالاستعداد للرحلات التي سيقوم بها. لقد حاول كثيرا فى الماضي ألا يفكر تفكيرا دقيقا فيما يضعه من خطط للمستقبل. ذلك أن هذا الأمر لم يكن له من أثر إلا أن يثبط من همته ، أما الآن فإنه لم ير شرا فى الاستسلام لهذه الرغبة الملحة التي كان يصعب عليه أن يقاومها. فعزم على السفر أولا إلى أسبانيا ، إنها أمل قلبه ، وقد أصبح الآن مفتونا بروحها وخيالها الشعرى وبلونها وبتاريخها وعظمتها. وكان يشعر بأن لهذه البلاد رسالة له خاصة لا يستطيع أى بلد آخر أن يحققها له. وقد أصبح يعرف مدنها القديمة الجميلة كما لو كانت

قدماه قد وطئتا شوارعها المتعرجة منذ نعومة أظفاره، كان يعرف قرطبة وأشبيلية ، وطليطلة ، وليون ، وبرغوس ، وطراقونة. وكان كبار رسامي أسبانيا أقرب رسامي العالم إلى نفسه. وكانت دقات قلبه تزداد سرعة كلما تصور تشوقه عندما يواجه إحدى بدائع هؤلاء العباقرة ذات التعبير والتى لا يمكن لغيرها أن تجد لها معنى فى قلبه القلق المعذب.

وكان قد قرأ لكبار شعرائها ميزات لجنسهم أكثر مما يجده فى شعر غيرها من أبناء البلاد الأخرى. فقد خيل أنهم لم يستمدوا قط وحيهم من تيارات العالم الأدبية بل إنهم يستمدونه مباشرة من سهول بلادهم الحارة العطرة وجبالها القفرة.

وعما قليل سيسمع فيليب بأذني رأسه ، فى كل مكان من أرض أسبانيا تلك اللغة التي تبدو له أجدر معه بمجد الروح وبالعاطفة. وقد أوحى إليه ذوقه المرهف أن الأندلس جد رقيقة وعاطفية بل ومبتذلة قليلا فلا تثير حماسته وتركز خياله فى رغبة جامحة فى مشاهدة أرغوته وليون ولم يكن يدرى ما ستسفر عنه هذه الاتصالات والرحلات ، ولكن كان يشعر بأنها كفيله بمنحه القدرة والغاية اللتين سيمكنانه من مواجهة عجائب الأماكن الأكثر منها بعدا وغرابة وفهمها حق الفهم.

لقد كانت مجرد بداية ، وقد اتصل بالشركات المختلفة ، والتى تحتاج إلى جراحين على سفنها وعرف منها خطوط سيرها ، كما عرف ممن سافر على ظهر هذه السفن مزايا هذا الخط أو ذاك ومضاره. وأغفل فيليب شركة الشرق «أورينت» وغيرها.. فقد كان من العسير الحصول على مكان في سفنهما. هذا إلى أنه قلما يسمح بشيء من الحرية للضابط الطبيب الذى يسافر عليها بسبب المسافرين عليها، بينما كانت هناك شركات أخرى تقوم برحلات بطيئة على نطاق واسع إلى الشرق وتقف مراكبها على مختلف الموانى فترات متباينة تتراوح بين يوم أو اثنين وأحيانا تصل إلى الأسبوعين ، حيث يستطيع المرء أن يجد المتسع من الوقت الذى يمكنه من القيام برحلات قصيرة فى داخل البلاد فى كثير من الأحيان.

ومرتبات الأطباء على ظهر هذه السفن جد قليلة، ولم يكن الطعام بأكثر من الضرورى ، مما قلل الإقبال عليها. ولهذا فإن أى شخص يحمل درجة من لندن لابد أن يحصل على وظيفة عليها إذا تقدم لها.

وإذا لم يكن هناك مسافرون أكثر من شخص أو نحوه يبحر على هذه المراكب فى سبيل قضاء مهمة من أحد الثغور لتأتيه إلى أى ثغر آخر ، فإن الحياة على ظهر المراكب كانت جميلة وتنعقد الصداقة خلالها بين الراكبين ، وقد حفظ فيليب عن ظهر قلب قائمة الأماكن التي ترسو عليها تلك السفن، وكان كل مكان منها يثير فى خياله صورة شمس المدارين الساطعة ، والألوان السحرية ، واتساع الحياة الغامضة المكتظة القوية.. الحياة.. كانت هي كل ما يريد فيصبح أخيرا قاب قوسين أو أدنى من الحياة. وقد يستطيع أن يتخذ من طوكيو أو من شنغهاى طريقا أخرى إلى جزر المحيط الهادى الجنوبي ، فالطبيب يصلح للعمل فى أى مكان. فربما سنحت له الفرصة للذهاب إلى بورما أو أى غابة فى سومطرة وبورنيو لم يكن في

استطاعته من قبل أن يزورها. فهو لا يزال صغير السن وليس للزمن أن يحول بينه وبين تحقيق ما يأمل. وليست هناك روابط تربطه بانجلترا ، ولم يعد له أصدقاء فيها.. فبوسعه أن يسافر هنا وهناك سنوات يتعلم خلالها جمال الحياة وبدائعها وتباين الأشياء فيها. وقد أتى هذا اليوم ، وأسقط من حسابه احتمال وقوع سالي فى الخطأ. فقد كان يشعر جديا بأنها كانت على حق ، ومهما يكن من شئ ، فإن هذا الشيء ببعيد ، فقد كان فى وسع أى إنسان أن يعرف أن الطبيعة قد أعدتها لتكون أما لأطفال.

وكان يعرف ما ينبغي له عمله. يجب ألا تحوله هذه الحادثة قيد شعرة عن السير قدما فى طريقه. وفكر فيليب فى جريفث واستطاع فى سهوله أن يتصور عدم المبالاة التي كان يقابل بها مثل هذه الأمور. كان جريفث سيراها مجرد مضايقة كبيرة ثم سرعان ما يفر من الموقف. كان أي شخص عاقل يترك الفتاة وراءه تدبر أمر نفسها على الشكل الذى تستطيعه. وأقنع فيليب نفسه بأنه إذا كان ثمة شئ قد حدث فذلك لأنه لم يكن من المستطاع منع حدوثه فلايقع عليه اللوم أكثر مما يقع على سالى. فقد كانت فتاة تعرف العالم وتدرك حقائق الحياة. وقد خاطرت وعيناها مفتوحتان ، فمن الجنون أن يسمح لهذا الحادث بأن يغير معالم الطريق التي رسمها لحياته. لقد كان فيليب من القلائل الذين يدركون أن الحياة عرض زائل وأن من الضرورى استغلالها إلى أقصي حد. إنه على استعداد لأن يفعل ما يستطيع من أجل سالى. فى استطاعته مثلا أن يمنحها مبلغا كافيا من النقود. إما أن يتحول عن أهدافه فهذا ما لا يسمح به لنفسه رجل قوى.

كان هذا ما يقوله فيليب لنفسه ، ولكنه كان يعلم أنه غير مستطيع تنفيذه إنه لا يملك أن ينفذه فقد كان يعرف حقيقة نفسه.

وتمتم فى يأس يقول :

«يا لي من إنسان ضعيف لعين ! ».

لقد وثقت به سالي وكانت عليه عطوفا ولم يستطع أن يأتي ما يشعر معه رغم كل تعللاته بأنه أتى أمرا إدا. وأدرك أنه لن يستشعر السلام فى أسفاره ، ما ظل يفكر فى بؤسها وتعاستها، إلى جانب هذا كان هناك أبوها وأمها اللذان أحسنا على الدوام معاملته ، وإن لم يكن ليتحمل أن يرد إليهما جميلهما بالنكران. والشيء الوحيد الذى يستطيع عمله هو أن يتزوج سالي بأسرع ما يمكن. وفي هذه الحالة سيكتب حالا إلي الدكتور سارث ينبئه بما اعتزمه من زواج سريع، فإذا كان عرضة السابق لا يزال قائما ، فإنه على استعداد تام لقبوله. فقد كان هذا النوع من العمل بين الفقراء ، هو الشيء الوحيد الذى يلائمه. فلن يكون هناك اعتبار لعاهته، ولن يسخر هؤلاء القوم من تصرفات زوجته البدائية. وكان عجيبا أن يفكر فيليب فى سالي على أنها زوجته ، وقد أتاح له هذا التفكير شعورا عجيبا رقيقا وسرت موجة من العاطفة فى جنباته عندما تذكر الطفل الذى ينجبه. وقلما كان يخالجه شك فى أن دكتور سارث سيسر لعمل معه وأخذ يرسم فى خياله صورة لحياته الجديدة مع سالي فى تلك القرية التي يعمل

جل أهلها فى الصيد. سيكون لهما منزل صغير يشرف على البحر ، يستطيع منه أن يراقب السفن العظيمة وهى تبحر إلى أراض لن يعرفها أبدا. وربما كان هذا أقرب شئ إلى الصواب وستكون آمال فيليب العظيمة جميعا هي هدية الزفاف التي سيقدمها لعروسه.

لقد سما جمالها بمعنويات فيليب فظل طول الأمسية يفكر فيها ، وبلغ من احتياجها أنه لم يستطع القراءة فى تلك الليلة. وبدا له كأنه خرج من مسكنه إلى الشارع ، وأنه سار فيه جيئة وذهابا وقلبه يخفق فرحا. وأنه لم يستطع صبرا على رؤية سالى. وتاق إلى رؤيتها وهى سعيدة عندما يتقدم إليها طالبا يدها. ولو لم يكن الوقت متأخرا جدا لطار إليها لساعته يحمل إليها البشرى. ثم أخذ يتصور الأمسيات الطويلة التي سيقضيها مع سالي فى حجرة جلوسهما المرحة ، حيث الستائر مرفوعة كي يستطيعا رؤية البحر. وهو يقرأ ، وهى منكفئة تعمل. وقد أضفي ضوء المصباح الظل على وجهها الجميل فأكسبه مزيدا من الجمال. سيتحدثان عن طفلهما النامي وتصور فيليب منظر سالي عندما تلتقي عيناها بعينيه وقد تجلت فيهما آيات الحب وأضواؤه. وتخيل فيليب صيادى السمك وزوجاتهم وهم يمثلون مرضاه ، وقد أحبوه حبا جما ، وكيف يدخلان بدورهما فى أفراح هؤلاء القوم السذج وآلامهم. وسرعان ما كانت أفكاره تعود به إلى الابن الذى سيقتسمان تربيته. ويشعر فعلا فى قرارة نفسه بحب خالص له. وهو يتخيل يده وهى تربت على أطرافه الصغيرة السليمة ، وكان يعتقد أنه سيكون جميلا ، وأنه سيحقق له كل أحلامه فى الحياة الهنيئة المتباينة النواحي.

وأعد عدته لملاقاة سالي يوم السبت فى قاعة المعرض القومي، وكانت قد اعتزمت الذهاب إلى هناك بمجرد خروجها من محل عملها. واتفقت معه على العشاء معا. لقد مر يومان منذ أن رآها ومع ذلك لم يفارقه فرحه لحظة واحدة فقد كان يسره دائما شعوره بأنه يحاول أن يسعى لرؤيتها. وأخذ يعيد لنفسه ما سيقوله لها وكيف يقوله. وقد نفد الآن صبره. وكان قد كتب إلى دكتور ساوث وفي جيبه الآن برقية منه وصلت فى الصباح تقول :

– سحقا للأحمق ذى الغدة النكفية.. متى ستحضر ؟

وفكر فيليب فى سالى، ذات العينين الزرقاوين الحانيتين ، واتخذت شفتاه ، دون وعى منه شكل ابتسامة وصعد الدرج فى المعرض القومي وجلس فى الحجرة الأولي لكي يراها عند أول مقدمها.

وكان يشعر بارتياح كلما وجد نفسه بين الصور والرسوم. ولم يكن ينظر إلى رسم بعينه أو إلى صورة خاصة ولكن عظمة ألوان الصور وجمال خطوطها جميعا كانت تأخذ بمجامع نفسه. وكان خياله شاردا مع سالى. وكان يسره أن يبعدها عن لندن حيث تبدو شخصيتها فيها بشكل غير عادى.. كما تبدو زهرة فى محل بائع الزهور إلى جانب زهور الأوركيد ، وكان قد عرف فى أثناء وجوده فى حقول حشيشة الدينار فى مقاطعة كنت أنها لا تمت إلي حياة المدن بصلة ، وتأكد أنها ستترعرع ويزداد جمالها نضارة تحت سماء دور ست الوادعة.

ودخلت سالى قاعات المعرض ، ونهض فيليب لملاقاتها ، وكانت ترتدى ثوبا أسود اللون ذا أزرار أن بيضاء عند الرسغين وياقة من نسيج التيل الرقيق حول العنق ، وتصافحا ثم سألته سالى:

– هل انتظرت طويلا؟

– كلا ، عشر دقائق.. هل أنت جائعة؟

– لست جائعة جدا..

– لنجلس هنا لحظة، أوتوافقين:

– كما تريد..

وجلسا فى صمت، جنبا إلى جنب، ولم يتكلما. وكان يسر فيليب أن تكون سالى بجواره تدفئه إشعاعات صحتها. وهج الحياة فيها هالة مضيئة من حولها، وأخيرا قال فيليب لسالي بابتسامة رقيقة:

– كيف حالك؟

– أوه، على خير ما يرام، كان انزعاجا لا أصل له.

– أهكذا كان.

– ألست مسرورا؟

وغمره شعور غير عادى. لقد ظن أن شكوك سالى كانت قائمة على أساس متين ولم يخطر بباله قط أنها قد تكون مخطئة وتبدلت خططه كلها على حين غفله، وأصبح لا يرى فى مسألة وجود جنين كما ضورت له هذا التصوير المحكم أكثر من حلم لن يتحقق أبدا لقد أصبح حرا مرة أخرى.. فليس ثمة داع للعدول عن مشروعاته وما زالت الحياة بين يديه يصنع بها ما يشاء. ولم يشعر بالفرح لذلك بل كل ما شعر به وهن العزيمة والرعب وغص قلبه، وامتد المستقبل أمامه فى فراغ موحش. ظل السنين الطوال يبحر فوق مساحات شاسعة من بحر الحياة يعاني الخطر حتى وصل أخيرا إلى مرفأ جميل ولكنه ما كاد يرسو، حتي عصفت ريح مضادة قذفت به مرة أخرى إلى عرض البحر. ولما كان قد وطن نفسه على الحياة الناعمة بين هذه المروج والغابات الجملية فإن صحارى المحيط الشاسعة ملأت قلبه أسي وعذابا ولم يعد يستطيع مواجهة الوحدة والعاصفة مرة ثانية. ونظرت سالى إليه بعينين صريحتين ثم سألته:

– ألست مسرورا؟ كنت أظن أنك ستسر لسماع هذا النبأ..

وقابل فيليب نظرتها باكتئاب متمتما:

– لست متأكدا..

– إنك لمضحك.. معظم الرجال يسرهم ذلك .

وأدرك فيليب أنه كان يخدع نفسه. فلم تكن التضحية الذاتية هي التي دفعت به إلى قرار زواجه منها ولكن الرغبة فى وجود زوجة و بيت وحب. والآن وقد أصبح من الواضح أن كل

شيء أوشك أن يفلت من بين أصابعه فلا غرو إذا تملكه اليأس لقد كان يريد كل هذه الأشياء الثلاثة أكثر من أى شيء آخر فى العالم ماذا يهمه من أسبانيا ومدنها، قرطبة، وطليطلة، وليون؟ وأى قيمة عنده لمعابد بورما ومستنقعات جزر بحر الجنوب؟ لقد أحس أنه قد رسم طيلة حياته المثل التي لقنها إياها الآخرون بكتاباتهم وأقوالهم.. ولم يكن يستجيب قط لرغبات قلبه!

وكانت سبيله فى الحياة أن يعمل ما يظن أن عليه أن يعمله لا أن يعمل ما يريد من قلبه أن يعمله. وهو الآن يقذف بكل هذا فى نفاد صبر لقد كان يعيش دائما فى المستقبل، أما الحاضر فكان دائما ينزلق من بين أصابعه. وما هي مثله العليا؟ لقد فكر فى رغبته أن يضع لنفسه خطة معقدة وجملة عناصرها حقائق الحياة التي لا حصر ولا معني لها. أفلم ير أن أبسط أنموذج للحياة هو ذلك الذى يتمثل فى أن الشخص يولد ويعمل ويتزوج وينجب أطفالا ثم يموت هو أكثر الخطط كمالا؟

ولربما كان الاستسلام للسعادة قبولا للهزيمة، ولكنها هزيمة تفضل الكثير من الانتصارات. وألقي فيليب على سالى نظرة سريعة وهو يتساءل ما مدار تفكيرها ثم ابتعد بنظرة عنها مرة أخرى وقال:

– كنت بسبيل أن أطلب إليك الموافقة على الزواج مني.

– ظننت أنك ربما فعلت ولكني لم أشأ أن أكون عقبة فى طريقك.

– لو فعلت ما كنت عقبة بأى حال.

– وماذا عن رحلاتك فى أسبانيا وما شاكلها؟

– وكيف عرفت أنني أريد القيام برحلات؟

– كان ينبغي أن أعلم شيئا عن ذلك. فلما سمعتك تتكلم مع أبي عن هذا الأمر حتى علت وجهك الزرقة.

– لم أعد مهتما بكل هذا.

وتوقف فيليب لحظة عن الكلام. ثم عاوده فى همس مبحوح قائلا:

– لا أريد فراقك ولا أستطيع فراقك.

ولم تجب سالى وما استطاع فيليب أن يعرف مجرى تفكيرها.

– إني أتساءل ياسالى هل تقبلين الزواج مني ؟

ولم تتحرك سالى أو يبد على وجهها أثر من آثار الانفعال. ولكنها لم ترفع بصرها إليه عندما أجابته قائلة:

– إذا شئت..

ألا تريدين ذلك أنت؟

– طبيعي أن أرغب فى أن يكون لي بيت خاص ، فقد حان وقت الاستقرار بالنسبة لي أو كاد..

وابتسم فيليب ابتسامة صغيرة ، فقد كان قد عرفها على حقيقتها ، ولم تعد أحوالها تثير دهشته ، وسألها ثانية :

–ولكن ألا تريدين الزواج منى ؟

– ليس هناك آخر أريد أن أتزوجه..

– هذا كاف..

– سيدهش أبى وأمي ، أليس كذلك ؟ إني جد سعيدة..

وقالت سالى:

–أريد غدائي !

يا عزيزتي !

ابتسم فيليب وأخذ يدها بين يديه واعتصرها ثم نهضا وتجولا فى المعرض وبعد ذلك وقفا لحظة أمام الحاجز الحجرى للسلم ، ونظرا إلى ميدان الطرف الأغر حيث المركبات الخاصة والعامة تسرع جيئة وذهابا ، وحيث الجماهير تمرق فى شتى نواحي الميدان ، وكانت الشمس مشرقة.